تأسست عام ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م

الوعي الإسلامي

مجلة كويتية شهرية جامعة

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

علماء وأعلام

كتبوا في

مجلة الوعي الإسلامي الكويتية

مقالات حصرية نُشرت في المجلة

لـ ٣٥١ عالماً من علماء الأمة الإسلامية وأعلامها

ما بين عامي ١٣٨٥هـ - ١٤٢٦هـ

الجزء الأول

الإصدار الرابع عشر

الوعي الإسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم



علماء وأعلام

كتبوا في

مجلة الوعي الإسلامي الكويتية



وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
قطاع الشؤون الثقافية

أسست عام ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م

الوعي الإسلامي

AL-Waei AL-islami

مجلة كويتية شهرية جامعة

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - دولة الكويت
في مطلع كل شهر عربي

الإصدار الرابع عشر

الطبعة الأولى
١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م

الموقع على الإنترنت	www.alwaei.com
البريد الإلكتروني	info@alwaei.com

العنوان

ص.ب ٢٣٦٦٧ الصفاة ١٣٠٩٧ - الكويت

هاتف: ٢٢٤٦٧١٣٢ - ٢٢٤٧٠١٥٦ - ١٨٤٤٠٤٤ - فاكس: ٢٢٤٧٣٧٠٩

تصــدير

بقلم رئيس تحرير مجلة الوعي الإسلامي

الحمد لله الذي خلق الإنسان وعلمه البيان، ووهب له العقل ليعقل عن ربه ما شرعه وأبان، وأنزل القرآن تبصرة للعقول والأذهان، أحمده حمداً يملأ الميزان، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له؛ كل يوم هو في شأن، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله المبعوث إلى الناس كافة بالدليل والبرهان، اللهم صلّ على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان.

أما بعد:

فإن الله سبحانه وتعالى، قد أعزّ العلم والعلماء، وشرّفهم في الأرض والسماء، وهم في الناس كالنجوم، يهتدون بها في البر والبحر، وإن العالم يستغفر له من في السماوات ومن في الأرض، فالعلماء هم ورثة الأنبياء، وهم قدوة الأتقياء، بل هم صفوة الأولياء، وهم حجة بين الله تعالى وبين بريته، فإن العلماء هم سراج الأمة وضياؤها بلا مراء، يبينون لهم الأحكام، ويفرقون لهم الحلال من الحرام، ويخرجوهم بفتواه من الآثام، ويوضحون لهم شرائع الإسلام، فيا له من شرف ما أعلاه، ومن عز ومنصب ما أسماه، وما أخطره على من لم يتحر في فتواه، ولم يراقب في علمه وعمله مولاه، فالعلماء سُرُج الأرض، وكل عالم مصباح زمانه، يستضيء به أهل زمانه وعصره،

الأرض تحيا إذا ما عاش عالمها — متى يمت عالم منها يمت طرفُ

كالأرض تحيا إذا ما الغيث حل بها — وإن نأى عاد في أكنافها التلف

قال تعالى ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَاۚ﴾ (الرعد: ٤١) أي موت

علمائها وفقهائها، فإن بهم صلاح الدين، وقمع المعتدين، ومعرفة رب العالمين، وقد نفع الله بعلمهم، وانتشرت كتبهم في أصقاع المعمورة، منها المحفوظ في الصدور ومنها المسطور في الأوراق، وهذا الأخير بحاجة إلى العناية والرعاية حتى ينتفع به طلاب العلم، ومن هذه العلوم والكتب كتابنا هذا الذي هو عبارة عن مقالات متعددة جمعناها مما نُشر على مدار سنوات في مجلة الوعي الإسلامي، فهو حلقة في سلسلة التراث العلمي لمواصلة العمل الجاد لتحقيق وتوثيق ثروة العلماء لينتفع بها بعد موتهم وتُخلد ذكراهم.

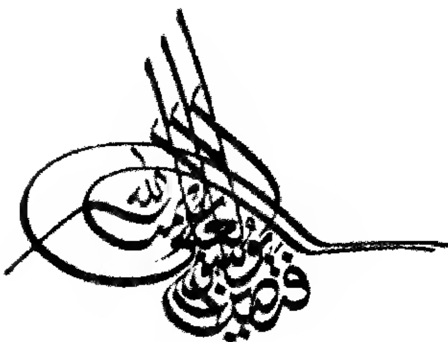
وهذه المقالات العلمية المتنوعة نموذج رائع على قيمة العلم المنشور في المجلات المُعْتنية بتراث العلماء والفقهاء وسائر المصلحين.

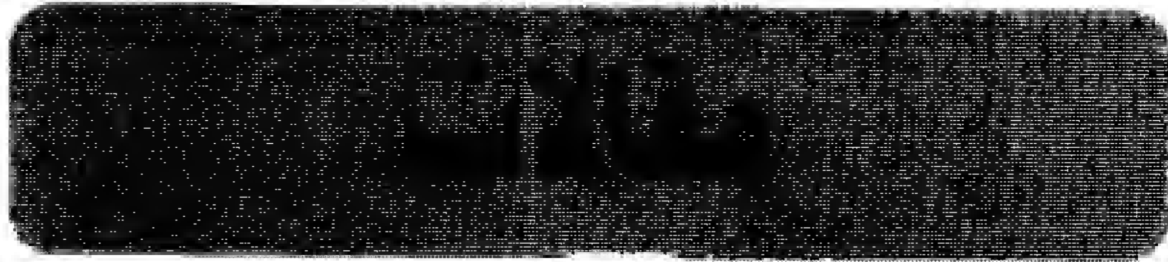
وفي هذا الديوان عددٌ من المناظرات وفوائد المساجلات، وما كان عليه أولئك الجلة العلماء من كريم الأخلاق وجميل الصفات.

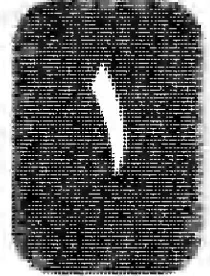
والله نسأل في الختام أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به المسلمين النفع العميم، كما أسأله تعالى أن يجعله في موازين العلماء الراحلين الذين أَثْرَوْا مجلة الوعي الإسلامي منذ عقود.

فرحمة الله عليهم جميعاً، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

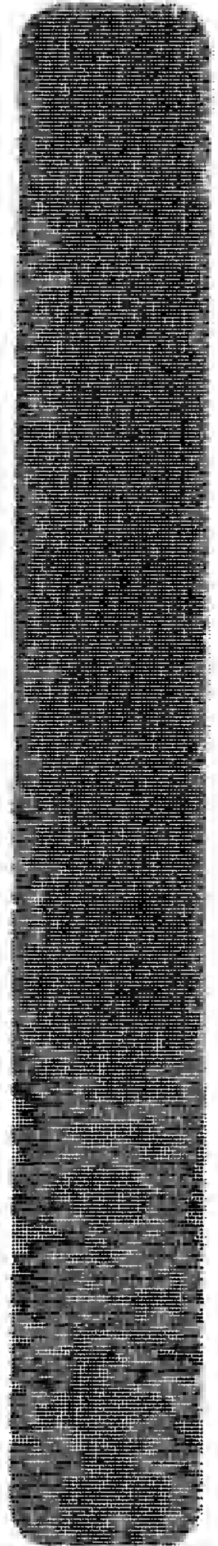
رئيس التحرير
فيصل يوسف العلي







الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد



- ترجمة الشيخ
- المقالات

١- الإسلام والمجتمع المثالي (١).

العدد (١) محرم (١٣٨٥هـ) - مايو (١٩٦٥م).

٢- الإسلام والمجتمع المثالي (٢).

العدد (٦) جمادى الآخرة (١٣٨٥هـ) - أكتوبر (١٩٦٥م).

ترجمة الشيخ

محمد محيي الدين عبد الحميد



● **مولده:**

ولد الشيخ/ محمد محيي الدين عبد الحميد في قرية كفر الحمام بمحافظة الشرقية سنة (١٣١٨ هـ- ١٩٠٠م)، ونشأ في كنف والده العالم الأزهري الشيخ/ عبد الحميد إبراهيم الذي كان من رجال القضاء والفتيا.

حصل على شهادة العالمية النظامية مع أول فرقة دراسية تنال هذه الدرجة وفق طريقة دراسية منتظمة، وذلك في سنة (١٣٤٤هـ - ١٩٢٥م).

عمل مدرسا بكلية اللغة العربية بالأزهر، ثم مدرسا في قسم الدراسات العليا، ثم وكيلا فيها، ثم مديرا لتفتيش العلوم الدينية والعربية، ثم تقلد عمادة كلية اللغة العربية.

اختير في لجنة الفتوى بالأزهر، ثم تولى رئاستها، ثم عضوا في مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ثم رئيسا للجنة إحياء التراث بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة، وكان عضوًا في مجمع البحوث الإسلامية التابع للأزهر.

حقق وشرح الآجرومية، وقطر الندى، وشذور الذهب، وأوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، ومغني اللبيب، وغيرها من كتب الفقه والأصول والحديث وعلم الكلام والتاريخ الإسلامي.

● **وفاته:**

توفي الشيخ في **٢٥** ذو القعدة **١٣٩٢**هـ الموافق **٣٠** ديسمبر **١٩٧٢**م، تاركًا خلفه إنتاجا خصبا لا تزال الأجيال تنتفع بما فيه.

الإسلام والمجتمع المثالي (١)

العدد (١) محرم (١٣٨٥هـ) - مايو (١٩٦٥م).

أثارني إلى الكتابة في هذا الموضوع عاملان، لكل واحد منهما وزنه وقيمته، ولكل واحد منهما دوافعه وآثاره.

أما أحدهما فإنه قد استقر في ذهني مما أسمعه من رجالات الغرب، الذين قدر لي أن ألقاهم، ومن إخواننا العرب الذين يذهبون إلى هناك ويتصلون برجالاتهم، ويعيشون في مجتمعاتهم، ثم يعودون إلينا، فينقلون لنا صورة عنهم تمثل أفكارهم وحياتهم، ثم ما أقرأه فيما يترجم لنا من مؤلفاتهم في الأدب والاجتماع.

أن بلاد الغرب تعيش اليوم في حيرة وفي اضطراب وفي قلق ذهني، وأن معنوياتهم وروحانياتهم ومقدساتهم التي عظموها الأحقاب الطويلة ليس لها اليوم استقرار في نفوسهم ولا ثبات، وأن عوامل كثيرة تتجاذبهم فتميل بهم ذات اليمين مرة، ثم تميل بهم ذات اليسار مرة أخرى، وقد بلغ بهم الحال أن تزلزلت عقائدهم التي استمسكوا بها فترة طويلة من الزمن، والتي غزوا من أجلها بلاد الشرق غزوا مسعورا، وقد تدفعهم هذه الاضطرابات النفسية وهذا القلق وهذا التأرجح إلى البحث عن عقيدة أخرى أدنى إلى أحكام العقل، وأقرب إلى مسايرة الحياة التي ينشدونها، كما قد يدفعهم كل ذلك إلى اطراح العقائد ونبذها جملة، والارتماء في أحضان الإلحاد والفوضى والإباحية، فيصعب العلاج وتنتكس الإنسانية، ويعود الناس في العالم أشبه ما يكونون بقطعان من وحوش الغاب.

وأما العامل الثاني فإني شعرت بأن الناس في الشرق، مهبط الرسالات السماوية، قد شرعوا ينفضون عنهم غبار الرقدة الطويلة التي فرضها عليهم

الاستعمار، وأخذوا يبصرون أحوال أنفسهم وأحوال الناس من حولهم، وأن دين الإسلام الذي يدين به أكثرهم، هو في جملته وتفصيله دين الفطرة السليمة والعقل المستقيم، فلو صح وعيهم ثم استقام تفكيرهم، وأحسنوا الدعوة إليه، وقاموا بما أوجبه الله عليهم من التفقه فيه والبشارة به، وتكاتف ذوو البصر من أمرائهم وعلمائهم على الدعاية له بالحكمة والموعظة الحسنة، والجدال المبني على الأساليب الحديثة، رجونا من وراء ذلك كله خيرا عظيما.

● حاجة البشرية إلى الإسلام

رأينا أهل الفكر في العالم اليوم على أحد حالين: أولهما: تردد وشك وحيرة وتفكير طويل ورغبة ملحة في طلب الخلاص من هذا التردد وهذا الشك وهذه الحيرة.

وثانيهما: انتفاض ووعي وشعور بالمسؤولية، وإحساس خفي بواجب طال إهماله، فما هو إلا أن يتفق أصحاب هذا الانتفاض وهذا الوعي وهذا الشعور وهذا الإحساس على أن يؤدوا ما فرض الله عليهم من فهم دينهم فهما صحيحا، وعرضه على الفريق الأول ميسرا مجلوا مدعوما ببيان ما تحمله تعاليمه من أسباب العزة والقوة والمساواة والمحبة إلى درجة الإيثار، فإذا هم مقبلون عليه راغبون فيه، لأنهم سيتحققون من أنه الوسيلة التي لا وسيلة غيرها لراحة نفوسهم، وثلج صدورهم، وتخليصهم من أرباق الحيرة والتردد والشك، والوصول بهم إلى حياة وادعة ومعيشة طيبة مستقرة.

ورأينا مع ذلك تهافت أصحاب المبادئ المتطرفة على غزو بلاد الإسلام والشرق عامة في عقر ديارهم طورا باسم الاقتصاد، وطورا باسم العلم، لأنهم أيقنوا أن الغزو السياسي قد أصبح مما لا مجال له اليوم، وهم فيما بين هذا وذاك يدسون ويكيدون كيدا مستورا، وقد يستطيعون بدسهم وكيدهم وخداعهم أن يزلزلوا أفكار كثير من أهل الشرق، وأن يميلوا بأفكار قوم آخرين منهم إلى حالة من الفوضى والاضطراب والاختلاط، ليست بأقل خطرا من حالة الأولين، فلو أن ذوي البصيرة من المسلمين وأهل الشرق عامة أخلدوا إلى الدعة والراحة

ورضوا من الغنيمة بسلامتهم في أنفسهم، لأوشك الخطب أن يتفاقم، واستحال بعد ذلك رأب الصدع، ولم يبق في مقدور أحد أن يتلافى الشر الجارف أو يجنبه نفسه وأهله ومواطنيه.

نحن في بلادنا نتعرض كل يوم لخطر لا نحسه، لأنه يدب فينا دبيبا خفيا، ونحن أحرياء أن نبحث وندقق في البحث ونطيل التدقيق، لئلا يدهمنا الخطر. ونحن بما فرض علينا من الدعوة للإسلام، وبما انبعث فينا- أو في جماعة منا- من الوعي الصحيح ومن الطموح إلى اجتذاب النفوس الحائرة، أو التي على مفترق الطرق، أحرياء أن نهب هبّة عاقلة حكيمة نقيم بها العذر لأنفسنا، ونعلن بها أننا لم نهن ولم نضعف، وأن الهبة الكبرى التي هبها أسلافنا الأمجاد فملأوا بها العالم نورا وهدى وقوة، كانت من طبيعة ديننا الحنيف، وأن الركود والاستكانة والجمود التي حلت بنا في أيام سالفة كانت مجلوبة طارئة يسَّر لها نسياننا أو تناسينا لتعاليم هذا الدين، وأن الجالب لها المدبر لأسبابها الساعي لبلوغها غايتها هم أعداء هذا الدين من ذوي القوى المادية بقصد أن يموهوا على الناس ويفهموهم أن ديننا هو سبب ذلك الركود وهذه الاستكانة وهذا الجمود، وفاتهم أن العلة الواحدة لا تكون علة للشيء ولنقيضه، وأنه قد ثبت ثبوتا لا يحتمل الجدال أن هذا الدين بتعاليمه الصحيحة قد أخرج أمة من ظلمة الشرك والتقليد ومن تيه الفوضى والضلالة ومن عماية الانحلال والتفكك إلى نور التوحيد، وتمجيد العقل، وإلى جادة النظام والهداية، وإلى بصيرة الوحدة والقوة والتدافع لاحتلال أسمى مكانة وفرض سلطانها على رقعة الكون المعروفة يومئذ، فمحال أن تكون هذه التعاليم هي السبب في الرجوع إلى ما يزعمون من الفرقة والعجز والفوضى والاستغلال.

● الإسلام دين الفطرة

إن الإسلام دين الفطرة السليمة والعقل الصحيح، وهو الدين الذي يتفق وما تقتضيه بدائه العقول البعيدة عن الهوى وما تشتهيه الأنفس، ولن يجد باحث يتخذ العقل معيار أحكامه دينا مجد العقل وجعل له منزلة فوق كل منزلة، ونند بمن يميل مع الهوى ومع مألوف العادات والمتوارث عن الآباء والأسلاف، لن يجد

الباحث دينا كدين الإسلام جعل من شرط صحة الإيمان بالله تعالى أن يعرف المؤمن الدليل العقلي على وجوده سبحانه، وعلى اتصافه بصفاته التي يجب أن يتصف بها كالقدرة الشاملة والإرادة النافذة، وقضى أن من لم يعرف هذا الدليل بعقله ويجزم به جزما لا يقبل التردد لا يكون مؤمنا ناجيا. وأعداء هذا الدين لا ينكرون هذا، وهم يعرفونه في قرارة أنفسهم، ويؤمنون أن أهل هذا الدين إن رجعوا إليه صافيا نقيا واتبعوا تعاليمه من أعماق قلوبهم حتى خالطت حلاوته شغافها عاد لهم مجدهم وارتفعت كلمتهم ودان سلطان أعدائهم، هم يعلمون ذلك كله، وهم يخشون أن تذهب ريحهم، فهم لذلك حريصون على أن يفرقوا كلمة أهل هذا الدين وأن يحولوا بينهم وبين الرجوع إلى ما كان عليه سلفهم.

لذلك كان من أول الواجبات على أولي العلم من أتباع هذا الدين، وعلى ذوي السلطان منهم من الرؤساء والأمراء والقادة والزعماء، أن يبصروا قومهم، وأن يبينوا لهم دينهم على ما كان عليه رسول الله وأصحابه المهتدون بهديه، ولذلك رأينا أن نستهل هذه الأبحاث بالبحث عن صفات المجتمع المثالي الذي يحبه الله تعالى ورسوله صلوات الله عليه.

ويقتضينا هذا البحث أن نتعرف الصفات التي أوجب الإسلام على المسلم أن يتصف بها في ذات نفسه، وعن الصفات التي أوجب الإسلام على المسلم أن يتصف بها بوصفه فردا من أفراد أسرة، وعن الصفات التي أوجب الإسلام على المسلم أن يتصف بها بوصفه واحدا من آحاد حي يسكنه جماعة من مواطنيه، وعن الصفات التي أوجب الإسلام على المسلم أن يتصف بها بوصفه واحدا من آحاد قرية أو مدينة من مدن وطنه، وعن الصفات التي يجب على المسلم أن يتصف بها بوصفه فردا من الأمة كلها. فهذه خمس حالات نرانا مضطرين إلى الوقوف عند كل حالة منها وقفة قصيرة لنتدبرها ونبين تعاليم الإسلام فيها. وسنذكر النصوص الواردة عن الله تعالى وعن رسوله صلوات الله عليه في كل حالة من هذه الحالات.

ونبادر فنعلن قبل الإفاضة في البحث أننا لن نستوعب استيعابا نستطيع معه أن

نقول إن هذه الصفات هي كل ما يريده الإسلام من المسلمين، ولكنا ذكرنا في كل حال أوضح الصفات وأظهرها، وما يعد نموذجا صالحا منها، وما لعله يعتبر أساسا لما لم نذكره أو باعثا حثيثا على التخلق بغيره من صفات الكمال الإنساني.

● **الهدف من التكاليف**

وقبل أن نأخذ في بيان ما تيسر لنا بيانه نقرر أن المقصود الأهم من التكاليف الشرعية في دين الإسلام، هو تربية الضمير الإنساني بصقل النفس وتنقيتها من الأثرة والأنانية والجحود والاستغلال والجبرية والميل إلى الهوى، وتعويدها حب الحق وإيثاره، وإعلانه ما كان في إعلانه مصلحة، وذلك يفضي بها إلى أن تعلم أن ما خفي على الناس لا يخفى على الله، الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وأن الإفلات من العقوبة الدنيوية العاجلة قد يكون سببا في شدة العقوبة في آجل الحياة أو فيما عند الله، وما لم يجد المسلم عباداته موصلة إلى خشية ربه وإخباته له وإقباله عليه، وأنها حاملة له على ترك النقائص والابتعاد عن الآثام فليعلم أنها عبادات صورية لم تنفعل بها نفسه فلم تؤت ثمرتها التي أراد الله تعالى أن تؤتيها، وانظر إلى قوله سبحانه ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ۝٤٥﴾ (العنكبوت: ٤٥). ثم انظر إلى قوله جلت كلمته: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١٠٣﴾ (التوبة: ١٠٣). ثم انظر إلى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝١٨٣﴾ (البقرة: ١٨٣). فإذا أنت نظرت في هذه الآيات ونحوها من كتاب الله تعالى وجدت كل عبادة من العبادات التي كلف الله بها عباده قد أراد أن تنفعل بها نفس المكلف حتى يكون لها تأثيرها، وهي وسيلة من أعظم الوسائل لتهذيبها وتطهيرها، والله أجل من أن ينظر إلى صور العبادات، وقد أراد أن تكون مما تقرب منه وتدل على خلوص قلب المكلف له، ولتفصيل هذا الكلام موضع غير هذا، لعل الله جلت قدرته يهيئ لنا ما نوفيه حقه من

البحث في وقت قريب.

وموعدنا لتفصيل الكلام في الحالات الخمس التي أشرنا إليها في عدد قادم إن شاء الله.



الإسلام والمجتمع المثالي (٢)

العدد (٦) جمادى الآخرة (١٣٨٥هـ) أكتوبر (١٩٦٥م)

ونأخذ اليوم بيان الصفات التي أراد الله ورسوله للمؤمن أن يتصف بها في نفسه، ونود- قبل أن نفيض في بيانها- أن نلفت الذهن إلى بعض ما قدمنا الإشارة إليه، وهو أن المقصد الأسمى من التكاليف الشرعية هو وصل ما بين المؤمن وربه، وتوثيق هذه الصلة حتى يصير مراقبا له في كل ما يأتي وما يذر، وحتى يعلم أنه سبحانه هو وحده النافع الضار، وأن يثق بأن الناس جميعا لو اتفقوا على أن ينفعوه بشيء لم يرده الله لم يستطيعوا السبيل إلى ذلك، وأن الناس كلهم لو أجمعوا على أن يضروه بشيء لم يرده الله ما استطاعوه، ولذلك تجد التكاليف الشرعية كلها قد اشترط لصحتها أن تسبق بالنية وأن تتصل هذه النية بها، ومن أجزاء هذه النية أنه يفعل هذا الفعل خالصا لوجه الله تعالى، وهو يبدأ صلاته بقوله «الله أكبر» ويأخذ في نية صومه «إيمانا واحتسابا لوجه الله تعالى» ويبتدئ أعمال حجه بعد النية بقوله «لبيك اللهم لبيك» وهكذا كل عمل من أعمال البر، فإذا لاحظ العبد ذلك ظل مراقبا لربه عالما أنه مطلع عليه، فإذا استمر على هذه الحال طهر قلبه فصار نقيا صافيا خالصا من أدران المادية وما يجره التعلق بالمادية من الحقد والحسد والتباغض وإضمار الشحناء والكيد والوقيعة، وطهرت نفسه فأصبحت قريبة من الكمالات الإنسانية، من نحو المودة وحب الخير للناس إلى حد الإيثار والتضحية في سبيلهم، وما لم يؤد فعل التكاليف الشرعية إلى ما ذكرنا من طهارة القلب وزكاة النفس فإنها تكون قليلة الحظ من القبول، فلينظر المؤمن إلى نفسه، فما لم يجد قلبه مشرقا، وما لم يحس بأن حظوظ الشيطان قد فارقته، وما لم يجد نفسه أنه لا يضمر غير ما يظهر، وما لم

يجد أنه لا يأتي من أعمال البر شيئا إلا رغبة في عمل البر ومرضاة لربه وطلبا لنفع الناس في غير امتنان على أحد منهم ولا حبا في مثوبتهم، ما لم يجد ذلك كله من نفسه فليعلم أنه لا يؤدي ما يؤديه من التكاليف على الوجه الذي أراده الله، وأن أداءه هذه التكاليف قليل الجدوى وقليل القبول، وهذا سر من أسرار قوله ﷺ: «رب صائم ليس له من صومه إلا الجوع والعطش» أو كما قال.

ثم نقول:

في القرآن الكريم آيات كثيرة تعرضت لصفات المؤمن التي يجب عليه أن يتصف بها نفسه، ونحن لو تتبعنا هذه الآيات كلها وبينا ما في كل آية منها طال بنا القول طولا نخشى أن يمله القارئ فلنجتزئ من ذلك بموضعين من القرآن الكريم ذكر الله تعالى فيهما جماع ما ينبغي للمؤمن أن يتصف به.

● **الموضع الأول**

الآيات الكريمة التي في آخر سورة الفرقان، وذلك قوله تعالى ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾﴾ (الفرقان: ٦٣-٧٥).

● **الموضع الثاني**

قوله تعالى في مفتتح سورة «المؤمنون» ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى

صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾
وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ
مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ
رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ
الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾﴾ (المؤمنون: ١-١١).

تضمنت هذه الآيات الكريمة ثماني عشرة خصلة من خصال المؤمنين، من ذلك في آيات سورة الفرقان اثنتا عشرة خصلة، والخصال الباقية في آيات سورة «المؤمنون»، ولكن مجموع المذكور فيهما من الخصال عند التحقيق خمس عشرة خصلة، وذلك لأن خصلتين منها قد تكررتا في الموضعين وخصلة أخرى ذكرت في آيات سورة «المؤمنون» مرتين ذكرت في كل مرة منهما بناحية من نواحيها والموضوع العام في الموضعين واحد.

ومما يحسن التنبيه له أن في القرآن الكريم مواضع كثيرة نص في بعضها على خلال من هذه الخلال، ونص في بعضها على خلال أخرى غير هذه الخلال، ولكنا نعتبر هذه الخلال الخمس عشرة نموذجا عاليا لما يجمل بالمؤمن أن يتخلق به، ولما لو تخلق به إنسان لجره إلى جميع خلال البر والتقوى، والخير يدفع إلى الخير، فإذا اكتفينا ببيان هذه الخصال وبيان ما تجلبه لمن يتصف بها من كمال نفسي وإشراق روحي يستتبعان الاستمساك بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها كنا كمن أخذ من الأمر بلبابه وكمن وضع يده على مفاتيح الخيرات كلها فهو يطرقها من أي الأبواب أراد.

• الصفة الأولى

التواضع، وقد كنى الله تعالى عن هذه الصفة بقوله سبحانه في آيات سورة الفرقان ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ (الفرقان: ٦٣) كما كنى عن ضدها - وهو التعالي على الناس والاستكبار والجبرية - بقوله جلت كلمته في سورة لقمان ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾﴾ (لقمان: ١٨) وكنى عن ذلك مرة أخرى في سورة الإسراء بقوله ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ

وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ (الإسراء: ٣٧).

والتواضع أسمى معايير الكمال النفسي، وهو من صفات الأنبياء والمرسلين، وهو صفة تحمل المتخلق بها على ألا يعتد بما عنده من علم لأنه يعلم أن كل ما أوتيه من علم فهو قليل بالنظر إلى ما لا يزال مطويا عنه، وعسى أن يكون عند غيره ممن هو أقل منه ما لا عِلْمَ له به، فإذا تيقن ذلك كله اندفع يطلب علم ما لم يعلم، ولم ير غيره ممن لم يذع له صيت في العلم أقل من أن يأخذ عنه.

وقد ضرب الله تعالى مثلا لذلك في قصة موسى والعبد الصالح حيث دفعه إلى أن يقول للعبد الصالح ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾ (الكهف: ٦٦)، واحتمل في سبيل هذا- وهو نبي يكلمه الله- أن يقول له العبد الصالح ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾ (الكهف: ٦٧-٦٨)، كما أن هذه الصفة تحمل المتخلق بها على ألا يعتد بما عنده من مال وفير وجاه خطير، لأنه يعلم أن الله لو شاء لجعل ما في يده في يد غيره ممن هم في حاجة إليه وجعله هو صاحب الحاجة إلى هؤلاء، كما أنه يعلم أن المال غاد ورائح، ورب حادثة لا يلقي لها بالا اجتاحت هذا المال كله في طرفة عين، فإذا علم مع ذلك أن الذكر بالخير باق على الدنيا ما بقي فيها ناس، وأن ثواب الإنفاق في الخير أعظم ربحا وأكثر فائدة من اكتناز الأموال، واستيقنت نفسه ذلك اندفع ينفق في سبيل الله تعالى فنال خير المثوبة، وقد ضرب الله لنا مثل من اغتر بماله وزعم أن حذقه وخبرته بضروب تثمير المال سبب ما عنده فلم يرع فيه حق الضعفاء والمعوزين، ثم كانت عاقبته ما ختم الله به قصته في سورة القصص، وذلك قوله سبحانه: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾ (القصص: ٨١).

بالجملة فإن هذه الصفة تحمل المتخلق بها على ألا يعتد بشيء عنده مما يتميز به بعض الناس من جاه أو مال أو رفعة نسب أو صحة أو قوة جسم أو بسطة علم أو نحو ذلك، وقد ضرب رسول الله ﷺ المثل الأعلى في هذه الصفة، فقد كان يكون في مهنة أهله، وقد كان يحمل حاجته بنفسه ويقول: صاحب الحاجة أحق

بحملها، وقد كان يأكل على الأرض، وقد كان يقول: إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبيد، ويقول: أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد، كل ذلك وهو رسول الله وصفوته من خلقه أجمعين وهو من أشرف العرب نسبا وأرفعهم بيتا، وقد كان يجالس المستضعفين والموالي، حتى إن صناديد قريش رغبوا له أن ينحي عن مجلسه هؤلاء الموالي ووعدوه إن نحاهم أن يدخلوا في دينه - وكان ذلك أحب شيء إليه - فكان أن أنزل الله تعالى عليه: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ (الكهف: ٢٨)، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ (الانعام: ٥٢-٥٣)، وقد رغب رسول الله ﷺ في التواضع في غير حديث، وحذر من الكبر والتعالي والجبروت والزهو والخيلاء في غير حديث، فمما ورد عنه من الحث على التواضع وبيان ما أعد الله للمتواضعين في الدنيا والآخرة ما رواه مسلم في صحيحه (٢/ ٢٨٥) ط بولاق، كتاب البر) من قوله ﷺ: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه» ومنه ما رواه البخاري في صحيحه (٧/ ٨٤ ط بولاق - ١٠/٤٠٨ بهامش فتح الباري ط بولاق) ورواه مسلم في صحيحه (٢/ ٣٥٤ ط بولاق) من قوله ﷺ: «ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كل ضعيف متضاعف لو أقسم على الله لأبره، ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عتل جواظ مستكبر»، العتل - بضم العين والتاء وتشديد اللام - الأكول المنوع. والجواظ - بفتح الجيم وتشديد الواو - فسروه بالجموع المنوع، وفسروه بالقصير البطين، وفسروه بالكثير اللحم المختال في مشيته، وفسروه بالغليظ الفظ، والمستكبر - ومثله المتكبر - الذي يتشبع بما ليس عنده أو الذي يستعلي على الناس يرى أن ما عنده خير مما عندهم وهو الذي يقول الله تعالى في شأنه: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ

جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ (غافر: ٣٥)، ومنه ما رواه مسلم في صحيحه (٢/ ٣٥٣ ط بولاق - كتاب الجنة) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال «احتجت الجنة والنار، فقالت النار: فيَّ الجبارون، والمتكبرون، وقالت الجنة: فيَّ ضعفاء المسلمين ومساكينهم، فقضى الله بينهما: إنك الجنة رحمتي أرحم بك من أشاء، وإنك النار عذابي أعذب بك من أشاء، ولكليكما عليَّ ملؤها» وصدق رسول الله ﷺ، فإن الجبار ما يزال يعنف بالناس، ويشتط في معاملتهم، ويأخذهم بالقسر والإعنات حتى يسلبهم حقوقهم، ويدفعهم عنها، وقد يسلبهم أموالهم وأرواحهم بغير حق فيتفاقم الشر، وتغدو الحياة إلى جواره جحيما لا يطاق، فكان جزاؤه أن جعله الله في العذاب الأليم، وإن المتكبر ما يزال يتيه بنفسه، ويزهي على الناس، ويحتقرهم حتى يهون أمرهم عليه، وحتى يرى أنه لا يدانيه أحد فلا يبالي - بعد أن تتأصل في طباعه هذه الخلال - أن يعتدي على من يعاشرونه، وما أبدع ما وصف الله به المتكبرين في الآية التي تلوناها أول الكلام على هذه الصفة من سورة لقمان وفي الآية الأخرى من سورة الإسراء، ثم ما أروع هذه السخرية بالمتكبر التي ختمت بها آية سورة الإسراء ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾ (الإسراء: ٣٧).

نعم إنه - مهما يشمخ بأنفه ومهما يتعال برأسه، ومهما يتطاول ببدنه - لن يبلغ الجبال طولا، وإنه مهما يدب بقدميه، ومهما يثقل ببدنه لن يخرق الأرض، فليكفكف من غلوائه، وليترك تيهه وتعاليه، وليكن مع الناس يفيدهم ويفيدونه، ويتعاون معهم ويتعاونون معه، فالإنسان قليل بنفسه مهما يعظم قدره، كثير بإخوانه، وقد تقتل الفيل نملة، وقد تموت الأفاعي من سموم العقارب.

نسأل الله تعالى أن يبصرنا بقدر أنفسنا، وأن يباعد بيننا وبين البأو والصلف والكبرياء.. إنه أكبر مسؤول، وإلى عدد مقبل نأخذ فيه في بعض ما بدأناه، إن شاء الله.



٢ مقالات

الأستاذ عبد العزيز العلي المطوع

- ترجمة الشيخ
- المقالات

١- الإيمان.

العدد (٢) صفر (١٣٨٥هـ) - يونيو (١٩٦٥م).

٢- بين الفقه والولاية.

العدد (٣) ربيع الأول (١٣٨٥هـ) - يوليو (١٩٦٥م).

٣- أعمال تذكر فتشكر.

العدد (٤) ربيع الآخر (١٣٨٥هـ) - أغسطس (١٩٦٥م).

٤- لا تحتقر الطين.

العدد (٥) جمادى الأولى (١٣٨٥هـ) - سبتمبر (١٩٦٥م).

٥- في رحاب القرآن (١).

العدد (٨٤) ذو الحجة (١٣٩١هـ) - يناير (١٩٧٢م).

٦- في رحاب القرآن (٢).

العدد (٨٥) محرم (١٣٩٢هـ) - فبراير (١٩٧٢م).

٧- في رحاب القرآن (٣).

العدد (٨٦) صفر (١٣٩٢هـ) - مارس (١٩٧٢م).

٨- نظرات في سورة الإخلاص.

العدد (٩٨) صفر (١٣٩٣هـ) - (مارس ١٩٧٣م).

ترجمة الأستاذ

عبد العزيز العلي المطوع



● مولده:

ولد «عبدالعزيز علي عبدالوهاب المطوع» عام ١٣٢٨هـ في أكتوبر ١٩١٠م، وهو من قبيلة السهول.

وتعلم في المدرسة الأحمدية، واشتهر بذكائه الحاد وفطنته، وقد تخرج من المدرسة وعمره أحد عشر عاما وكان ترتيبه الأول على المدرسة، وهو ما جعله محط إعجاب أساتذته في ذلك الوقت.

نشأ نشأة دينية وأدبية في بيت كريم، ورافق عددا كبيرا من رجالات الكويت الذين ساهموا في بناء نهضة البلاد بمختلف أشكالها، خاصة الجانب التعليمي منها.

وكان عضوا بمجلس المعارف في عهد الشيخ عبدالله الجابر الصباح، وعضوا في المجلس البلدي سنة ١٩٥١-١٩٥٤م.

كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ سباقا لفعل الخيرات في السر والعلن، أنفق الكثير في الأعمال الخيرية داخل الكويت وخارجها، وكان بحق سفيرا لبلاده بين بلدان العالم، كما كان رمزا لعطاء الكويت، وكرم أهلها.

أسس المحسن عبدالعزيز علي المطوع بالتعاون مع المحسن عبدالعزيز يوسف المزيني جمعية الإرشاد الإسلامية التي تم افتتاحها في عهد الشيخ عبدالله السالم، وقد حققت الجمعية نجاحا عظيما في مجالات الدعوة والإرشاد والتعليم، برئاسة الشيخ يوسف بن عيسى القناعي.

أنشأ رحمه الله "جمعية مصطفى محمود الخيرية" على أرض مصر ومن مهامها تقديم العون للفقراء والمساكين وكذلك تقديم العلاج المجاني للمرضى المسلمين.

وأسس دارا للمسنين بالتعاون مع جمعية دار المسلم التابعة لوزارة الشؤون الاجتماعية المصرية.

كان رحمه الله طالبا للعلم حتى أواخر أيام حياته، وتم اختياره كعضو في مجلس الأمناء بمركز أكسفورد للدراسات الإسلامية.

وأنشأ لجنة تتولى الإنفاق على الطلبة الأفارقة الراغبين في التعليم وابتعاثهم إلى مدارس وجامعات مصر وذلك على نفقته الخاصة، كما أنشأ وساهم في العديد من الجمعيات الخيرية في كثير من دول العالم منها: الهند وباكستان وأفغانستان ولبنان، ومعظم البلاد الإسلامية.

● **مؤلفاته:**

قام رحمه الله بتأليف العديد من الكتب العلمية منها: «الرأس والبنكرياس»، و«خواطر باحث».

● **وفاته:**

توفي المحسن عبدالعزيز المطوع في السابع عشر من ذي القعدة ١٤١٦هـ الموافق للسابع من أبريل ١٩٩٦م.

رحمه الله رحمة واسعة، وجعل أعماله في ميزان حسناته وأسكنه فسيح جناته.



الإيمان

العدد (٢) صفر (١٣٨٥هـ) - يونيو (١٩٦٥م).

الإيمان هو منة الله العظمى على عباده المستعدين لاستقباله، إذ هو قوة نورانية فعالة، تستمدها وتشعها أجهزة صالحة قابلة، كما تستمد المشاكي الصالحة النور من الكهرباء لتقضي على الظلام، ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾ (النور: ٣٥).

والإنسان الصالح جهاز صالح ملزم بالاتصال والتفاعل مع النور والخير عن أهلية واستحقاق ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾ (الفتح: ٢٦)، وعلى العكس من ذلك الخفافيش العمياء عن النور، والأجهزة الفاسدة التي لا تستقبل النور ولا تشعه ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾﴾ (هود: ٢٨) ومن المعلوم أن الأرمد لا يبصر نور الشمس، ولا يشعر المريض بطعم الماء ولا المزكوم بشذى الورد.

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد ... وينكر الفم طعم الماء من سقم

وما ضرر الورود وما عليها ... إذا المزكوم لم يطعم شذاها

والإيمان ضروري للإنسان، بل إنه لفي مقدمة ضرورات الحياة التي لا يستغني عنها الإنسان في حال من الأحوال، إذ هو الحب الصادق، والإخلاص الكامل، والاطمئنان بكل معانيه، وهو الجاذبية التي تُكَوِّن من الأفراد مجموعة

صامدة تؤدي رسالتها في الحياة. والإنسان مهما حاول المكابرة فهو مفطور على الإيمان بالقوة المبدعة لهذا الوجود والقدرة الأزلية اللانهائية التي يقرها العقل، ويؤمن بها العلم، ويخر لها العلماء سجدا، ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ (فاطر: ٢٨) ولذلك أرسل الله الرسل، وأنزل الكتب ليتم نعمة الله على الناس ظاهرة وباطنه، ليهلك من هلك عن بينه ويحيي من حيَّ عن بينة، ولئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، ولله سنن كونية في خلقه كسنن النور والظلام فالنور يمحق الظلام، وعلى قدر ما يخبو من النور يحل الظلام ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ (غافر: ٥١).

وتنازع البقاء بين الأمم وتنافسها ضروريان لإصلاح الأرض وعمارتها، ولا بد للعالم من توحيد كلمته على كلمة التوحيد يوما ما، ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾ (الروم: ٤-٥).

● قصة واقعية تؤيد التقاء الناس على كلمة التوحيد

لقد جمعتني إحدى المصادفات مع ملحد يدافع عن الشيوعية ويجادل منكرا الألوهية، ويحاول تحكيم المنطق في جدله، ومما قلت له في أثناء الحديث: هل تعلم أنك تؤمن بالله شئت أم أبيت؟

قال: وكيف ذلك؟

فكان جوابي، إذا كنت تنكر الألوهية الحقة فبم تؤمن؟

قال: أؤمن بالإنسان وبالعلم، فقلت له: إنك ترى هذه الأرض وما بها من خيرات وترى هذا الفضاء وما فيه من ذرات ومجموعات وأسرار، هل كان لهذا الإنسان يد في إبداع ذلك ونصيب في تنظيمه؟ بل وفي خلق نفسه وتكوين دقائق جسمه؟

فقال: لا، قلت: إذن هناك قوة وراء ذلك أبدعت هذا الوجود ونظمته، وهذه القوة هي الله الذي نؤمن به ونعبده، إذ إننا لا نعبد جرما محدودا في زاوية من زوايا الكون الواسع، بل نؤمن بالقوة اللانهائية التي لم يكن هذا الكون بالرغم من سعته، إلا جزءًا من أجزاء مخلوقاتها، وحلقة في قبضتها، فقال: الطبيعة هي

التي أوجدت الكون، فقلت: إننا نعبد القوة الخفية التي أوجدت هذا الكون، فان سميتها الطبيعة، فنحن نسميها اللَّه، ولا خلاف بيننا إلا بالتسمية، ولاشك أنك تشاركني أن المبدع المنظم خالق العقل والسمع والبصر وسائر الطاقات لابد أن يكون سميعا بصيرا قادرا عالما موصوفا بجميع صفات الكمال التي تنبغي لهذا المبدع الجبار العظيم، أما إذا قلت كما يقول الآخرون: أن الطبيعة صماء عمياء عاجزة فاعلم أن فاقد الشيء لا يعطيه!

واغتنمت فرصة سكوته مبهوتا، فعرجت على موضوع الشيوعية وبادرته بقولي: إن الشيوعية في نظري متأخرة كثيرا عما جاء به محمد ﷺ، بل هي في طريقها إلى ذلك وسوف تلتقي معنا إذا كانت المصلحة رائدها كما يدعي مؤسسوها وذلك بعدما يمر عليها من تضحيات مريرة وتجارب قاسية، بدليل أن الشيوعية تتضمن أمرين كما يقولون، **الأول**: نفي الألوهيات، **والثاني**: التطور مع المصلحة.

والإسلام سبقها إلى ذلك، حيث إن مفتاح الإيمان عندنا هو لا إله إلا الله، إذ بنصف الجملة الأولى (لا إله) نفي الألوهيات في كل ما اتخذه الإنسان من عبادة أخيه الإنسان حيا في صومعته أو قصره أو ميتا في تمثاله أو قبره، وغير ذلك من عبادات النور والنار والكواكب والبحار والأحجار والأشجار، وبنصف الجملة الثاني (إلا الله)، استثناء للقوة الأزلية القادرة العالمة المبدعة.

وكل ما قاله لي محدثي بعد ذلك: إن كان هذا هو الإسلام، فالعقل يقبله وهو ضالة العلماء والحيارى، ولكني أرى أعمال المسلمين تخالف ذلك ولا تظهر الإسلام بهذا المظهر المقبول لأن كثيرين ينظرون إلى العقيدة من خلال أعمال أتباعها الذين هم ثمراتها.

قلت له: معك حق في ذلك، ولكن أرجو ألا يغيب عن بالك أنه قد اندست على هذا الدين فئة من ألد أعدائه بقصد تشويه الحقائق فيه فكان لهم نصيب مما أرادوا، فكنا كما ترى نهبا بين الأمم ولكن السر في صمودنا رغم ذلك، أن كل منتصر علينا إذا لم يذب فينا فلا نذوب فيه والمغول والأتراك قد اعتنقوا ديننا رغم انتصاراتهم علينا، ولم تستطع فرنسا إذابة الشعب الجزائري فيها رغم اعتبارها

الجزائر جزءا من فرنسا طيلة مائة وثلاثين سنة وجعلها اللغة الفرنسية هي اللغة الرسمية ولغة المدارس فيها، ولابد لنا بعد هذه الفترة المريرة والبلاء العظيم من عودة إلى النهج القويم والصراط المستقيم لتستهدي الدنيا برسالتنا الحقة المثلى، وإني أعتقد بأنك تشاركني الرأي بأن اتحاد المسلمين سيكون هو القوة الفاصلة بين معسكري الشرق والغرب، المرجحة للجانب الذي ترضى عنه، وعقيدتنا الوسطى بين الرأسمالية والاشتراكية ومركزنا الوسط وثرواتنا الطبيعية، كل ذلك يؤهلنا لنكون الأمة الوسط ويخاطبنا قرآننا العظيم موجها إيانا لهذا المركز المهم بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة: ١٤٣).

قال محدثي: فليكن ذلك وليلتق العالم شرقه وغربه في النقطة الوسط، وبذلك، الخير للعالم لو تم، ولكن متى؟ فقلت له: أرجو أن يكون ذلك قريبا، وليس بيننا وبين ذلك إلا أن يصلح الفرد فيصلح المجموع، لأن الميدان الأول لكفاح الإنسان نفسه.

ومن خلال هذه المحاورة يظهر أن أبعد أهل العالم عن الإيمان بالله يلتقون مع كلمة «لا إله إلا الله» فكيف بأهل الكتاب الذين يؤمنون بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر، لاسيما وأن الفاتيكان منذ عهد البابا «بيوس الثاني عشر» وهو يمهد للاعتراف بالإسلام كدين سماوي جدير بالحياة، والآية القرآنية الآتية تؤيد ذلك ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ (الحج: ٤٠).

والآية الثانية ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ (البقرة: ٦٢). وقوله جل شأنه ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟

بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ (التوبة: ١١١).

وهذا ما حدا بي إلى التنبيه لمقاييس الإيمان الخالي من شوائب الردة التي هي الرجعية والجاهلية، ليعرض كل فرد منا نفسه على هذه المعايير كي يضمن لنفسه الفوز ولأمته النصر ويكون جديرا بهذا الوعد العظيم ممن لا يخلف الميعاد، ومن كفر فإن الله غني عن العالمين ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ (النور: ٥٥) ولو صدقنا الله لصدقنا فتلك سنة كونية ولن تجد لسنة الله تبديلا.

● مقاييس الإيمان

يقول المولى ﷻ مخاطبا الذين آمنوا من الرعيل الأول في المدينة المنورة وكل مؤمن بعد ذلك إلى آخر الأزمنة مبينا مقادير الإيمان ومعايير الرجحان والخسران بهذه الآية الكريمة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ (المائدة: ٥٤) نعم.. هذه صفات المؤمن الموعود بالاستخلاف في الأرض وهي صفات خمس.

الأولى: الحب من الله ولله وفي الله، ومن حب الله اتباع رسله ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾(آل عمران: ٣١).

الثانية: ذل المؤمن على أخيه المؤمن عن حب وتكافؤ لا عن ضعف أو خوف والمقصود به هو التواضع وخفض الجناح لأخيه المؤمن، يقول المولى سبحانه مخاطبا الرسول ﷺ: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾ (الشعراء: ٢١٥). ويأمر سبحانه المؤمن بخفض جناحه للوالدين بقوله ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ (الإسراء: ٢٤). أي لا من الضعف ولا من الخوف.

الثالثة: عزة المؤمن على الكافر، والكافر هو الجاحد لله ورسوله وكتبه واليوم الآخر عن عمد ومكابرة، وهو لغة الذي يواري الحق بالباطل عن قصد، ولهذا قيل

في الزراع أنهم كفار لأنهم يغطون الحب بالتراب والكفر (بفتح الكاف) هو المزرعة وتستعمل هذه الكلمة حتى يومنا هذا في بعض البلدان العربية، والعزة المطلوبة هي العزة الرشيدة الحكيمة التي لا يخالطها بغي أو كبرياء.

الرابعة: الجهاد في سبيل الله وهو شرط من شروط الإيمان، حيث لا عزة لأمة بدون جهاد ولا كيان لها بدون منعة ودفاع.

الخامسة: المؤمن الكامل الإيمان لا يخاف في الحق لومة لائم.

هذه هي المقاييس الخمسة التي يجب على المؤمن عرض نفسه عليها لمعرفة مقدار حقيقة إيمانه والشوائب التي تشوب ذلك من ردة أو رجعية نتيجة لما ينقصه من هذه الصفات، ولقد عرض الرعيل الأول نفسه عليها فنجح وسادت رسالته جزءًا كبيرا من العالم وشع نورها على الدنيا بأسرها، أما نحن فدرجاتنا دون النجاح، ولاشك، وإذا كان هناك تفاوت بيننا فهو بمقدار درجات السقوط، إذ علامة النجاح العزة الكاملة التامة، والجهاد الكامل، وميراث الأرض وخلافتها باتحادنا، وسيادة فكرتنا، وقد آن الأوان أن يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ليتبدد الظلام بانبثاق النور من مشاك صالحة، ويزهق الباطل بظهور الحق على أيد عاملة، ويعم العالم الخير والسلام.

وما من شك أن واجب العرب في هذا المضمار كبير ومسؤوليتهم عظيمة وباتحادهم وعزتهم عزة للإسلام مصداقا لمأثور القول: «لا يعز آخر هذه الأمة إلا بما عز أولها»، فقد جعل الله ختام الرسالات الربانية والكتب السماوية فينا، وفي لغتنا، واصطفانا لذلك بقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ (فاطر: ٣٢).

اللهم إيت بهم واجعلنا منهم- والسلام على من استنار بالحق فاستهداه وعرف واجبه فأداه ورحمة الله وبركاته.

* * *

بين الفقه والولاية

العدد (٣) ربيع الأول (١٣٨٥هـ) - أغسطس (١٩٦٥م).

● الفقه والفهم

في الأثر عن سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ما معناه - اختتم الله وحي النبوات برسالة سيدنا محمد ﷺ ولم يبق بعد القرآن الكريم وسنة الرسول العظيم إلا فهم منهما يؤتيه الله عبدا من عباده مصداقا لقول الرسول الكريم ﷺ «رب مبلغ أوعى من سامع»، وقوله ﷺ «رب حامل فقه إلى من هو أفقه منه»، وقوله ﷺ «من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين»، وآيات القرآن العظيم تحثنا على التبصر والتفكير والنظر في آيات الله والوعي لأحكامه، وقد رأى بعض المسلمين المتقدمين إغلاق باب الاجتهاد خشية أن يُدخل أصحاب الأغراض والأمراض على الدين من هذا الباب ما ليس منه، وفريق آخر رأى إطلاق الرأي واستعمال الفكر، أما القسم الثالث فقد حث على الاجتهاد بشروط خاصة، وعلى التفكير والنظر والاعتبار والغوص على المعاني والمفاهيم القيمة في حدود الكتاب والسنة، وهذا هو القسم الوسط الذي نؤمن به وندعو له، وإننا نجد مع ذلك كثيرا من الفقهاء يحفظون فقه المتقدمين ويتورعون عن التفكير فيما عدا ذلك من التزود في الفقه والفهم والتفكير في كتاب الله وسنة رسوله، والغوص على المعاني المفيدة المتجددة مع الزمن. . والحقيقة أن مثل هؤلاء العلماء المتقيدين بأقوال المتقدمين والحافظين لها غيبا لا فرق بينهم وبين من يملك نسخا من الكتب التي يحفظونها للرجوع إليها كلما اقتضت الحاجة. ومن البديهي أن الذي يحفظ كتاب الله غيبا أجدر منهم باسم العالمية (إذا صح أن نسمي الحفظة للعلم المتقدم بالعلماء) مع أن الذي لا يحفظ كتاب الله غيبا يستطيع قراءته بين دفتي

المصحف، فطالب العلم الجدير بهذا الاسم هو الذي يكون مع الاستفادة والاستنارة بما حفظه مما كتبه المتقدمون من علوم ودونوه من معارف عامة يغوص على المعاني القيمة والمفاهيم المفيدة بفهم سليم وفقه مستقيم يرجو به الدرجات العلى عند الله في الكتاب والسنة.

ولقد جاء في مستهل العدد الأول من مجلة «الوعي الإسلامي» في كلمة رئيس التحرير تحت عنوان «أخي القارئ» عبارات تؤيد هذا المعنى وهي «. . . والعقلية الجديدة لم تعد تقتنع بأن باب الاجتهاد قد أغلق للأبد أو أن الأوائل لم يتركوا للأواخر شيئا كما يقال، وأصبح الباحثون الإسلاميون يؤمنون بضرورة الاجتهاد ولو بشكل جماعي لمواجهة أساليب الحياة الحديثة، وتكييفها من الوجهة الدينية، فأين الاجتهاد إذن وأين محاولات العلماء المتخصصين لوضع حلول لمشاكل جديدة، ذلك هو ما أريد أن يحاوله كتابنا وما أريد أن أفتح صدر المجلة له وأعرضه للمناقشة، لعلنا نصل بذلك إلى خطوة تتبعها خطوات فيما نأمل ونرجو. . .».

● الولاية

الولاء ضد العداء والموالي ضد المعادي والله هو ولينا والمؤمن المتقي هو ولي الله ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ﴾ (البقرة: ٢٥٧)، ويقول سبحانه: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ (يونس: ٦٢-٦٤).

فقد بين المولى سبحانه وتعالى أن كل مؤمن تقي ولي لله، نسأله سبحانه أن يوفق جميع المسلمين إلى الإيمان والتقوى ليفوزوا بالولاء والمحبة، فالولي قد لا يعرف نفسه و قد لا يعرفه الناس، والولاء هو الحب لله ومن الله وفيه، وقد بينت في كلمة لي بالعدد الثاني من هذه المجلة الغراء صفات المؤمن المحب والمحبوب والعزيز المجاهد الذي لا يخاف، في الله لومة لائم وعلامته

الاستخلاف في الأرض وإصلاحها ونشر العدالة فيها.

أما اقتصار أولياء الله على عدد من الأموات شيدت لهم قبور وزخرفت، وقالوا هؤلاء هم أولياء الله، فليس من الدين في شيء على ما أعتقد، وقد راجعت القاموس (المنجد) لأنظر المعنى اللغوي للولي فكان مما قاله «إن الولي عند المسلمين بمثابة القديس عند المسيحيين» فجزمت أن المعنى هذا مأخوذ من عقائد أهل الكتاب المتقدمين ودخيل على الإسلام، والتماثيل عند المتقدمين والمتأخرين ترمز إلى رجال خدموا بلادهم وأمتهم ودينهم فاتخذت لتخليد ذكراهم والتقرب بها إلى الله، ومعاذ الله أن يتخذ مسلم يؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر الأضرحة قربة إلى الله، أو يحلها محل التماثيل عند المتقدمين، لا سيما وأن ميزة الإسلام على الأديان الأخرى انه لم يجعل واسطة بين العبد وربه يقول سبحانه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ (البقرة: ١٨٦). ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ (الزمر: ٣). ويقول سبحانه: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ﴾ (العنكبوت: ٤١). ويقول سبحانه: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ (الأعراف: ١٩٦).

والكويت منذ عرفت ليس فيها أضرحة خاصة، والكويتي يعمل بالسنة وهي إعادة تراب القبر عليه ورشه بالماء لقوله ﷺ: «خير القبور الدوارس» والآن وقد وفد على الكويت الكثير من أبناء البلاد الإسلامية أخذنا نرى تفاوتا بين القبور وأبنية بعضها، وإني مع وضوح رأيي كذلك أستفتي لجنة الفتوى الموقرة في وزارة الأوقاف، فإن قالت بالتحريم أرجو أن يمنع التمادي في زخرفة القبور منعا باتا لتبقى الكويت على ما كانت عليه سدا للذرائع وبعدا عن المزالق واتقاء للشرك الذي هو أخفى من دبيب النمل، وقد جاء في الملتقطات «لسيدي العم الشيخ يوسف بن عيسى القناعي» في الجزء السادس قال الله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ

ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ (يونس : ٦٢ - ٦٤).

فالولي بينه الله وهو المؤمن المتقي بقلبه، إن كل مؤمن اتقى محارم الله فهو ولي، وليس بعد تعريف الله شيء. فالأرض مملوءة بأولياء الله ولا تنخدع بقول المخرفين الذين يقولون: إن الولي هو الذي يمشي على البحر وتطوى له الأرض ويؤدي صلاته في الحرم الشريف. أما البشرى لهم في الحياة الدنيا فهي كما جاء بقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾﴾ (الأحزاب: ٤٧)، وأما في الآخرة فهي بشرى الملائكة بقوله تعالى: ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (فصلت: ٣٠).

* * *

أعمال تذكر فتشكر

في سبيل الدعوة الإسلامية

العدد (٤) ربيع الآخر (١٣٨٥هـ) - يوليو ١٩٦٥م)

أولاً: اقترح السيدان الفاضلان حمد المشاري وراشد الفرحان، عضوا مجلس الأمة الكويتي، أن يصدر المجلس إلى الحكومة رغبة يوصيها فيها بالإسهام في نشر الدعوة الإسلامية في الخارج، وفي خدمة الدين الحنيف في مختلف المجالات. ولذلك يستحق هذا الاقتراح أن يسجل بالشكر الجزيل والثناء الكبير وفيما يلي نص الاقتراح المذكور.

سعادة رئيس مجلس الأمة الموقر:

نظرا لكون الكويت دولة إسلامية في واقعها وبصريح دستورها، ونظرا كذلك لأن شعوبا كثيرة في القارتين الأفريقية والآسيوية لا تزال على الفطرة دون اعتناق لدين معين، وقد تفتحت قلوب هذه الشعوب لتقبل الدعوة الدينية، فقد أصبح واجبا علينا وعلى سائر البلاد الإسلامية حمل رسالة الدين الإسلامي إلى تلك البلاد وهذه الشعوب.

لذلك أرجو أن يتفضل المجلس الموقر بالموافقة على هذا الاقتراح برغبة إلى الحكومة، بأن تمد إدارة الدعوة والإرشاد بوزارة الأوقاف نشاطها إلى الدول والشعوب المشار إليها، مستعينة على ذلك فيما يرصد في ميزانيتها السنوية لهذا الغرض، وبما يقدمه المواطنون من زكوات وتبرعات، على أن تخصص الوزارة لهذه المهمة الجليلة صندوقا خاصا، وأن تنشئ هيئة من موظفيها المختصين وبعض أهل الرأي من المواطنين المهتمين بمثل هذه الرسالة.

وأعتقد أنه لا يخفى على أحد مقدار ما يبذل من جهود لحساب التبشير بالديانات والملل الأخرى بل والمبادئ الهدامة، وليس بخاف على حضرات

الأعضاء الكرام ما تبذله الدعاية الصهيونية ضد العرب في البلاد الإسلامية والعقيدة الإسلامية التي يدينون بها، متخذة من هذه البلاد مراكز للمؤتمرات اليهودية العالمية ضد القومية العربية والإسلام، فنشر الإسلام في تلك البلاد الأفريقية فريضة على كل مسلم، وهو هداية دينية لعشرات الملايين من البشر، وعصمة لها من الانزلاق وراء الدعايات والمبادئ الهدامة.

ثانيا: يذكر بالشكر لحضرة صاحب السمو الأمير المحبوب ولحكومته الاهتمام الواضح بالشؤون الدينية، مما عبر عنه الخطاب الأميري الذي افتتحت به الدورة النيابية الثالثة لمجلس الأمة حيث جاء بالخطاب المذكور ما يلي:

إن حكومتي إيمانا منها برسالة الدين في إصلاح المجتمع، تواصل إنشاء المساجد داخل المدينة وفي المناطق السكنية الجديدة والقرى مع مراعاة البساطة والاقتصاد في النفقات والحفاظ على المظهر اللائق بها، والسهر في الوقت نفسه على راحة الأئمة والمؤذنين. كما قررت إنشاء معهد للإمامة في أحد المساجد واستقدام بعض الوعاظ المتخصصين لرفع مستوى الأئمة والوعاظ وتمكينهم من أداء رسالتهم الروحية في المجتمع وتثقيف الجمهور بالثقافة الإسلامية المفيدة وتعاليم الدين الحنيف.

وتولي الحكومة «الوقف» عنايتها باستثمار أمواله تحقيقا لقصد الواقفين، كما أنها معنية بدراسة إحياء التراث الإسلامي الذي يبرز معالم الثقافة الإسلامية والسبق العلمي الذي عرف به مفكرو الإسلام قديما وحديثا، وأنشأت قسما للترجمة والبحوث الإسلامية.

ثالثا: يذكر ويشكر كذلك ما جاء في رد مجلس الأمة على الخطاب الأميري من دعوة صريحة للحكومة للعمل على نشر الدين الحنيف في الخارج وتمكين جذور العقيدة الصحيحة بين المسلمين كافة، فقد جاء هذا الرد الذي رفع إلى حضرة صاحب السمو أمير البلاد كما يلي:

«يود المجلس أن تلحق مكتبة دينية ثقافية بكل مسجد لكي يتسنى للجمهور الاطلاع على الكتب الثقافية الدينية، ولهذا تكون المساجد قد أدت جانبا هاما

من رسالتها الدينية والثقافية، وتكون الكويت بذلك قد عممت مراكز التثقيف في جميع أنحاء البلاد.

وإن المجلس ليبارك عناية الحكومة بالوقف واستثمار أمواله تحقيقا لقصد الواقفين، كما أنه يشجع الحكومة على إحياء التراث الإسلامي الذي يبرز معالم الثقافة الإسلامية قديما وحديثا، ويدعو المجلس وزارة الأوقاف للقيام بواجبها الديني، وهو واجب المسلمين كافة نحو بث الدعوة الإسلامية السمحاء في البلاد الأفريقية الحديثة الاستقلال التي حال المستعمر عهدا طويلا دون دخول الإسلام إليها أو انتشاره فيها، وأن تسهم في نشر الدين الإسلامي في هذه البلاد وتزويدها بالمصاحف والكتب الدينية المبسطة باللغة العربية واللغات المحلية قدر المستطاع، وأن تعنى الوزارة بنشر موسوعة للفقه الإسلامي على المذاهب الإسلامية المختلفة، لكي تكون مرجعا باقيا لهذا الفقه الأصيل الذي يخشى ضياعه بتناقص العلماء والمختصين في التشريع الإسلامي.

والآن، ما واجب وزارة الأوقاف بعد هذه التوجيهات وإزاء تلك الرغبات؟

إنه مما يستحق الذكر بالشكر ما تبذله وزارة الأوقاف - في صمت وإيمان - لتمكين الدين القيم في النفوس، ولتمسك المجتمع بالقيم الدينية التي ساد بها المسلمون العالم قديما، والتي هي سبيلهم الكفيل بإعادة مجدهم الغابر. ولسنا بصدد تعداد مظاهر اهتمامها ببيوت الله، إنشاء وتعميرا وصيانة، وبغير ذلك من الأمور الإسلامية التي تقوم هذه الوزارة عليها، ولكنا بصدد المطالبة ببرنامج للعمل مستقبلا بالإضافة إلى مهامها الحالية المشكورة، إن الآمال معقودة على أن تتحقق تلك الرغبات والتوجيهات السامية التي سبق ذكر جانب منها، وبخاصة فيما يتعلق بالأمور الآتية:

١- تنظيم هيئة بالوزارة تضم إلى جانب كبار موظفيها عددا كافيا من ذوي الرأي المعنيين بالشؤون الدينية من أبناء الكويت لمعاونة الوزارة في رسالتها المتزايدة يوما بعد يوم، وبخاصة في شأن الدعوة الإسلامية في الخارج.

٢- مضاعفة الاهتمام بالوعي والإرشاد الديني في الكويت عن طريق

المساجد والمحاضرات ومختلف وسائل النشر، من إذاعة وتلفزيون وصحافة، بحيث تكون هذه الوسائل أداة لتمكين العقيدة والخلق الإسلامي ومحاربة كل مظاهر التحلل الخلقي التي تهدد الأجيال الصاعدة والنشء الذي عليه مستقبل الأمة.

٣- بذل كل عون مستطاع لشد أزر الداعين للإسلام في الدول الأفريقية والآسيوية التي لم تبلغها الدعوة الإسلامية بعد، وإنشاء المراكز الإسلامية التي تقوم على هذه المهمة السامية، والاستعانة بالوفود الموثوق بها إلى تلك البلاد تحقيقا لهذه الغاية وتوطيدا لروابط الأخوة بين البلاد الإسلامية عامة.

٤- زيادة العناية بمجلة «الوعي الإسلامي» التي أحسن المسلمون استقبالها بزيادة حجمها ومضاعفة الكميات المطبوعة منها، وترجمة بعض موضوعاتها إلى اللغات الحية وغيرها من اللغات كالأوردية والسواحلية وغيرها وإرسالها إلى جميع الأقطار، وطبع النافع المفيد من كتب التراث الإسلامي: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ (التوبة: ٣٣).

صرح مصدر كبير مسؤول في الوزارة بأن رسالتها الأصلية هي نشر الدعوة الإسلامية وهي لا تألو جهدا في سبيل تحقيق هذه الغاية السامية بمختلف الوسائل والأساليب، وقد أنشأت حديثا إدارة الدعوة والإرشاد وإدارة الشؤون الإسلامية.

لا تحتقر الطين

العدد (٥) جمادى الأولى (١٣٨٥هـ) - سبتمبر (١٩٦٥م)

لقد اقتضت حكمت البارئ جلت عظمته أن جعل ملائكته الكرام من نور، يملأ كل حيز مفتوح للنور، وينفذ من كل نافذة مفتوحة لاستقباله، وخلق الشيطان من مارج من نار، يمثل الظلام الذي يحل تلقائيا في كل مكان مغلق عن استمداد النور، ثم خلق الإنسان من سلالة من طين: أي جهاز طيني قابل لاستمداد النور وإشعاعه إن ذَكَرَ وصلح، والعكس إن غفل وفسد، ومعلوم ما هو حاصل من التخالف بين النور والظلام كسنة كونية.

والملائكة الكرام يغارون ألا يقدر الله حق قدره، ويسبح حق تسبيحه، ويقدس حق تقديسه بغفلة مثل هذا الإنسان الحيادي الوسط ذي القابليتين والمجال الأول للطاقتين المتضادتين، فيغلق نوافذه عن النور، فيهوي إلى الفساد والإفساد في الأرض، ويسفك الدماء، وقد ظهر ذلك من الحوار بين الله وملائكته في هذه الآية: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (البقرة: ٣٠).

● التقدم العلمي ميزة الإنسان

كما ظهر من الامتحان العلمي الذي نجح به آدم في الملأ الأعلى بعد ذلك أن لدى هذا المخلوق الآدمي ناحية ليست موجودة لدى الملائكة الكرام، وهي التقدم العلمي والتطور الفكري، وأن للإنسان تصرفا وطموحا، وأنه ينشد الكمال، ويحارب الحرمان، فإذا لم يخرج به ذلك عن إنسانيته الجزئية في هذا الكون فإنه يسمو على الملائكة فضلا عن المخلوقات الأخرى، فأمر الله ملائكته

الكرام بالسجود لآدم تقديرا للخير الذي نجح به، فسجد الملائكة كلهم أجمعون واستنكف إبليس مع سقوطه في الامتحان العلمي اعتزازا بناريته واحتقارا للطينة الآدمية ﴿أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ (الأعراف: ١٢) ﴿قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾﴾ (ص: ٧٦) فطرده الله من رحمته.

ومن الغريب أن أرى البعض يحتقرون الطينة الآدمية باسمها أحيانا وباسم المادة أحيانا أخرى اعتقادا منهم أن في ذلك تقربا إلى الله، والذي يظهر مما تقدم أن الذي يحتقر الطينة الآدمية يحاكي الشيطان في فعلته ويستحق البعد والعقاب أو التنبيه والعتاب وفي قصة آدم عليه السلام ما يوضح ذلك:

بينما كان أبونا آدم عليه السلام غارقا في طموحه وتفكيره متجاوزا إنسانيته المحدودة، متسائلا عن أمور ثلاثة حرم منها كإنسان مخلوق طيني له ملكية محدودة، وله عمر محدود، ويجب أن تكون له أنظمة وقوانين يلتزم بتطبيقها وهذه الأمور الثلاثة:

١- لماذا لم يكن كالملائكة في نورانيتهم وانطلاقهم؟

٢- لماذا ينقص عمره في كل يوم يمر عليه؟

٣- لماذا حرمت عليه هذه الشجرة الواحدة؟

فكانت نظريته أنانية بحتة متجهة نحو الحرمان ناشدة الكمال، إذ لو ارتفع بتفكيره لما احتقر الآدمية التي أمر الله من الملأ الأعلى بالسجود لها، كما أن الخلود لا يكون إلا لله وحده، وأن كامل الملك لا يكون إلا لله كذلك، فكانت لآدم فترة غفلة عن استقبال النور﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ (طه: ١١٥) استغلها الظلام كسنة كونية ليحقر الطينة عنده ويخلصه منها ويغريه أيضا بتحقيق الحرمانين الآخرين وهما إدخال الشجرة الواحدة في ضمن ملكه الواسع وإباحة الأكل منها، ومعرفة فلسفة تحريمها والأمر الثاني أو الثالث هو الخلود، وقد أخبرنا القرآن عن ذلك ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾ (الأعراف: ٢٠).

﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾ (طه: ١٢).

● **في معترك الحياة**

ونرى أن الله جلت حكمته انتصر للآدمية الصالحة في جميع المواقف إذ أمر الملائكة الكرام بالسجود لآدم، وعاقب الشيطان بالطرد من رحمته عندما احتقرها وامتنع من السجود، وعاتب آدم نفسه عندما فكر في التخلص من الطينة بالهبوط إلى الأرض ليؤدي هو وذريته الامتحانات العلمية المتواصلة المقرونة بالإيمان والتقوى، فالناجح في تسخير الأرض واكتشاف كنوزها وخباياها وفي سبر أغوار الفضاء ومعرفة أسراره الكونية يفوز بجنة الخلد والنعيم المقيم والراسب في مختلف شؤون الحياة من علمية وعبادية أمره إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه.

وإن من يتأمل في المخلوقات الثلاثة، الإيجابي والسلبي والحيادي قد يخطر له ما خطر لي من المقارنة بينها وبين عناصر الذرة التي تتكون منها المخلوقات في الأرض وفي السماء وهي: البروتون إيجابي، والإلكترون سلبي، والنترون حيادي، ولولا اختصام الملأ الأعلى لأصبح الجميع إيجابيين وتعطلت التقدمية العلمية التي فضلها اللّه، وانتصر لها في جميع المواقف، وتعطل بقاء الإنسان في الوسط الطبيعي بين السلب والإيجاب ليؤدي رسالته.

والنفس هي مناط الخير والشر في مصيرها ومصير الجهاز الآدمي ما وجدت فيه وتفاعلت معه، وحكمها فيما يظهر لي كحكم سائق السيارة إن أحسن إمساك المقود، ولزم الطريق السوي وتحاشى الاصطدام بحدود استطاعته قد ينجو وتنجو السيارة والعكس بالعكس.

وبانفصال النفس عن الجسم ينقطع عمل الإنسان إلا مما قدمه من خير أو ما خلفه من آثر طيب كصدقة جارية وعلم ينتفع به، وولد صالح يدعو له، وكل من مات ندم على عمل الشر وعدم الاستزادة من الخير. ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ (الزمر : ٥٦).

ولذلك يجب ألا نسقط دور الجهاز الطيني في مقبل حياتنا الأخروية أو أن نقلل من أهمية المرحلة الأرضية التي تجتازها نفوسنا من خلال أجهزتنا الفانية

التي تترتب عليها، كما يجب علينا بمقتضى انتصارنا العلمي عند اختصام الملأ الأعلى أن نستغل كياننا الآدمي بكل إمكايناته لنحقق من الخير ما ميز الله به آدم على سائر المخلوقات وفي الحديث الشريف «إن الله وملائكته وأهل السموات وأهل الأرض وحتى الحيتان في البحر ليصلون على معلم الناس الخير» وفي الأثر عنه ﷺ «الغدوة أو روحة في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها». «ومن تساوى يوماه فهو مغبون».

وعلى ضوء ما تقدم أهيب برجال العلم والمعرفة ألا يحتقروا الآدمية التي نصرها الله في الملأ الأعلى وفي جميع المواقف بالعلم والخير، والعلماء مهما مالو أو انحرفوا في البداية فلا بد من الاستقرار للعلم الصحيح على الإيمان لقوله جلت حكمته: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ وقوله سبحانه ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ وقوله جل شأنه ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ نعم سيقول العلماء بعد ما يتبين لهم الحق لقد درست يا محمد بمدرستك الربانية.

* * *

في رحاب القران الكريم (١)

العدد (٨٤) ذو الحجة (١٣٩٣هـ) - يناير (١٩٧٢م).

هذه نظرات في كتاب الله تعالى بدأها الأستاذ عبدالعزيز العلي المطوع القناعي بهذا المقال، ووعد مشكورا بمتابعتها، وسنوالي القراء بها إن شاء الله.

● مقدمة في إعجاز القرآن وبيانه:

القرآن العظيم، آخر الكتب السماوية، نزل على خاتم رسل الله صلوات الله عليهم أجمعين، وهو المعجزة الكبرى، والنعمة العظمى، التي أنعم الله بها على عباده إلى يوم الدين، وهو المرجع الأكبر لهم في شؤون دينهم ودنياهم، الصالح لكل زمان ومكان، ولكل عصر ومصر، وحسبنا فيه ما وصفه الرسول الكريم به حيث قال: «كتاب الله، فيه نبأ من قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، هو حبل الله المتين، ونوره المبين، والذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا تتشعب معه الآراء، ولا يشبع منه العلماء، ولا يمله الأتقياء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ من قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمل به أجر، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم» (الترمذي).

جاء القرآن الكريم مصدقا لجميع الكتب السماوية من قبله ومهيمنا عليها، فقد قال سبحانه في سورة المائدة: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ

ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾ (المائدة: ٤٨).

والقرآن العظيم أنزله الله محكما ثم فصلت آياته ثم ازدادت تفصيلا وبيانا بتقدم العلم وتطور الزمن لأنه منزل بعلم الله الذي له ما في السموات والأرض: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ (يونس: ٦١).

ولقد قال جل شأنه في الآية الأولى من سورة هود: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾﴾ وقد جاء في الآية «١٧» من سورة هود ما يضيف إلى هذه الآية بيانا جديدا وذلك فيما يظهر من قوله سبحانه ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ﴾.

والبينة هي النور المبين والقرآن العظيم، ويتلوه أي يتبعه شاهد مما يظهر من تفصيل ما أحكم من آيات كتاب الله، ويكشف عنه العلم كلما تقدم، أما الشاهد قبله فهو كتاب موسى إماما ورحمة، وفي الآيات ١٧، ١٨، ١٩ من سورة القيامة ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾.

وفي الآية ٣٨ من سورة الأنعام: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

كما جاء في الآية ٥٩ من سورة الأنعام: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ وفي الآية ٨٩ من سورة النحل: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾.

وجاء في الآية ٣٧ من سورة يونس: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

وفي الآية ٧٥ من سورة النمل: ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾ وفي مستهل سورة يوسف: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾﴾. وفي الآية ٥٢ من سورة الأعراف: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ وفي الآية ٥٣ منها: ﴿قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾.

وفي الآية الثالثة من سورة فصلت يقول سبحانه: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾. وفي الآية ١١١ من سورة يوسف: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾.

يتضح لنا من الآيات المتقدمة أن القرآن العظيم منزل بعلم الله، وأن فيه تفصيلا لكل شيء، وتبيانا لكل أمر، وهذا التفصيل يأتي تأويله تباعا في أوقاته كما تتفتح البراعم في مواسمها بحدائق البصائر النيرة، وبفعل النظرات المخلصة، والتفكير الموفق في النفوس المؤمنة، والأفئدة المستعدة للنور، والأجهزة المستقبلة للخير في مختلف الأزمنة والأمكنة، وآيات الله تحث الإنسان على التفكير والتبصر والنظر مع البعد عن التكلف في الرأي أو التعجل به قبل أوان الفتح وتفصيل الآيات لقوم يعلمون.

ولقد جاء في سورة فصلت: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْءَافَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ (فصلت: ٥٣).

وجاء في سورة الواقعة:

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ (الواقعة: ٧٥ - ٨٠).

ولعل الذي يظهر من جواب القسم أن بين دفتي هذا القرآن العظيم المنزل من رب العالمين مكنونات من العلم كثيرة تتجدد مع تقدم المعرفة في مسيرة الزمن وأنه لا يتماس معه لاستخراج هذه الكنوز المكنونة إلا المطهرون، ولعل بيان هذا

الطهر جاء في جواب المصطفى ﷺ عندما سئل عن الراسخين في العلم وهو: «من طهرت سريرته وحسنت سيرته وعف بطنه وفرجه» وأن المقصود من هذا الحديث فيما يظهر أن يكون الإنسان وعاء طاهرا نظيفا لاستقبال الفيض، وحمل أمانة العلم في الوقت المناسب: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ (البقرة: ٢٨٢).

والقرآن العظيم هو كتاب الزمن ومأدبة الله الخالدة، مصداقا لقوله سبحانه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ (الأنبياء: ١٠٧) وقول المصطفى ﷺ «أنا رحمة مهداة» وقوله ﷺ «القرآن مأدبة الله في الأرض فخذوا من مأدبة الله ما استطعتم».

وفي الأثر أن الرسول ﷺ لما نزلت الآيات ٦٥، ٦٦، ٦٧ من سورة الأنعام وهي: ﴿قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ ٦٥ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوۡمُكَ وَهُوَ ٱلۡحَقُّۚ قُل لَّسۡتُ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ٦٦ لِّكُلِّ نَبَإٖ مُّسۡتَقَرّٞۚ وَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٦٧﴾ قال: إنها، آتية ولم يأت تأويلها بعد، ولعل هذه الحروب من تأويلها: فالطائرات من فوق، والألغام من تحت، والحروب المذهبية والحزبية قائمة بين الأخ وأخيه في جميع أنحاء العالم، وما تلك الأنباء إلا من إعجاز القرآن العظيم وإخباره عن المستقبل، وقد كان السلف الصالح يتورع عن التكلف خشية استعجال المعنى قبل الأوان وقد وعد الله سبحانه ببيانه بعد الوعد بحفظه في بضع آيات من سورة القيامة وقد تقدم ذكرها.

ومما يؤثر عن أبي بكر الصديق أنه سئل عن حرف من القرآن فقال ﷺ: «أي سماء تظلني وأي أرض تقلني وأين أذهب وكيف أصنع إذا قلت بحرف من كتاب الله في غير ما أراد الله».

وسئل علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: هل خصكم الله بشيء من القرآن أهل البيت؟ قال «لا، إلا فهما أوتيه رجل في كتاب الله».

ويقول سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ١٧﴾ تكرر ذلك في سورة القمر ويقول سبحانه: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٥٨﴾ (الدخان: ٥٨) وجاء

في سورة الأنعام: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ (١٠٤، ١٠٥) ولعل مما يظهر من هاتين الآيتين وما قبلهما من السورة نفسها أن المتقدمين من العلماء في العالم سيقولون بعدما يستبين لهم الأمر: حقا لقد درست يا محمد بمدرستك الربانية فسبقت مدرستك جميع المدارس بل فاقتها: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ (محمد: ٢٤) ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ (النساء: ٨٢). ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾﴾ (النساء: ١٧٤).

إن كتاب الله العظيم هو دستور الزمن ونوره ومرجع الناس إلى يوم القيامة وهو معين العلم تنهل منه النفوس العطشى إلى المعارف والعلوم وتتطلب المزيد من معينه الصافي الذي لا ينضب.

إن طالب العلم نهم لا يشبع من سلسبيله، وخضم العلم أمام طالبيه واسع الجنبات مترامي الشطآن، متزاحم الموج، عذب المورد والله سبحانه يقول: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الإسراء: ٨٥) ولا يخفى ما في ذلك من التشجيع للازدياد من العلم: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ (طه: ١١٤).

وقد كان رسول الله لا يستعجل بيان القرآن ولا يتكلف ليه وهو الذي نزل عليه القرآن وهو الطاهر الأمين الذي هو أولى الناس بالازدياد من العلم، ومما يدل على عدم تكلفه ﷺ في معاني كتاب الله وتركه الأمر للزمن وللأذهان المتفتحة أمر الله سبحانه وتعالى لخاتم رسله في ختام سورة «ص» ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾ وقوله ﷺ: «من سمع مني مقالة فليبلغها كما سمعها رب مبلغ أوعى من سامع» والسامع صحابي والمبلغ من بلغه بعد ذلك إلى يوم القيامة.

على أن جانبا من المتأخرين قد أطلقوا أقلامهم بتفاسير مطولة لا تخلو من تكلف متعاقب ونقل مكرر، وجاء بعضها كموسوعات كبيرة ومفيدة في أمور كثيرة

غير التفسير، وإذا كانت بعض آيات كتاب الله تشتمل على ما جاء في بعض هذه التفاسير فإنها لا تتقيد بها وحتى أسباب التنزيل تشتمل عليها الآيات دون التقيد بها وقد قيل: إن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

وغالبا ما يقيد المفسر نفسه بما سبقه من تفاسير محملا المسؤولية في ذلك لغيره وربما كان ذلك خشية الرد عليه وفقدان مكانته بين الكثرة الغالبة في المجتمع وربما أدى ذلك إلى قطع رزقه، ومعروف أن الأقوال القديمة لها استقرارها في الأذهان على ما قد يكون فيها من غريب ودخيل، وقد يذهب البعض إلى ما يظنونه تمكينا للمعنى فيؤيدون ما يفسرونه ببيت من الشعر قد يرصونه رصا يحشرون معنى الآية فيه حشرا أو بأحدوثة من الإسرائيليات أو غير ذلك مما قد يشغل أغلبية القراء عن التفكير في سمو المعاني القرآنية وأهدافها الكريمة وأسلوبها الرصين، راضين بهذا الحشو الغريب عن مفهوم السلف الصالح وورعه.

ثم إننا في عصر العلم وعصر العلم مدعاة لاستخراج الجديد من كتاب الله لتعلم الدنيا أن كل جديد في العلم إنما هو كشف عن بعض مكنونات هذا الكنز العظيم والكتاب الخالد الكريم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، إنه علم الله المبدع العظيم الذي يسعى الإنسان لاكتشافه ما وسعه جهده في هذا السبيل مصداقا لقوله سبحانه: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾ (النساء: ١٦٦).

ومادام القرآن العظيم هو المنزل بعلم الله والأسرار العلمية التي يحاول اكتشافها العلماء هي من علم الله فلابد من يوم يعلم فيه الذين آمنوا بالعلم أن القرآن الكريم قد سبقهم إلى الإنباء بهذا الكشف فيعودون إلى فطرة الإيمان بإله واحد مالئ للكون ومهيمن عليه، وتصحو روح الخير فيهم ويستيقظ بيقظتهم الحيارى والمتشككون وكل منحرف عن الطريق الأقوم، فيطلون على الحقيقة من النافذة التي أطل منها من آمنوا قبلهم فتتبلور الأفكار الشاردة والآراء المتأثرة بالعصبية الموروثة والمعتقدات المتشعبة حول هذا الكتاب الخالد المنزل بعلم

الله الذي يعلم الخبء في السمٰوات والأرض والذي سجل فضل العلماء بقوله سبحانه: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الزمر: ٩) وإن آيات كتاب الله في فضل العلم كثيرة، كما ورد عن المصطفى ﷺ في فضل العلماء على النساك، أذكر من ذلك قوله ﷺ: «لغدوة أو روحة في سبيل العلم تعدل عبادة أربعين خريفا» وفي الآثر عنه ﷺ: «من تساوى يوماه فهو مغبون» ويفسر هذا الحديث حديث آخر عنه ﷺ: «إذا طلع علي يوم لا أزداد فيه علما يقربني إلى الله فلا بورك لي في شمس ذلك اليوم».

وحبذا لو نقح ما لدينا من تفاسير واستخرج منها ما هو دخيل وغريب ثم ركز على ما يظهر من مفاهيم كتاب الله دون تكلف أو تزمت، سيما ما ظهر حتى اليوم من علوم تؤيد ما ورد في كتاب الله، وشرحت في إطار العلوم الثابتة دون الجنوح إلى التشكيك في أثر القديم وفضله، ولا إلى التشبث بالجديد ورووائه، واتخذ كتاب الله وسنة رسوله حكما وفيصلا في ذلك.

وكما أن في الكتاب العظيم منبعا لكل علم فإن فيه حلا لكل الخلافات المذهبية في المجال الاقتصادي والسياسي والاجتماعي وغير ذلك، قديما وحديثا وإنه الوسط بين اليمين واليسار وكذلك كانت الأمة التي نزل عليها هذا الكتاب وفي موقعها الجغرافي أيضا لتكون في الذروة المرموقة وفي موضع الحكم بين الناس، قال جل شأنه في سورة البقرة: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة: ١٤٣).

فإذا ما أمرت الأمة بالمعروف ونهت عن كل ما ينكره العرف عن إيمان بالله وتصديق بكلماته، كانت خير أمة أخرجت للناس مصداقا لقوله سبحانه، ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ (آل عمران: ١١٠). وفي الآية ٦٤ من سورة النحل قال جل شأنه: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

وفي الآية ٢١٣ من سورة البقرة: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَمَا ٱخْتَلَفَ

فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾.

والقرآن العظيم كثيرا ما يطلب إلى الجميع التفكر والتبصر والتدبر في الآيات وفتح القلوب، وعندها تفيض المعاني العظيمة منها على الألسنة والأقلام المؤمنة فتنطلق رسلا وكتبا إلى العالم أجمع في مختلف أحواله وعصوره، وفي هذا نشر لرسالة الحق والسلام، وبعث لنور الهداية المحمدية إلى الدنيا بأسرها، لتخرجها من الظلمات إلى النور، قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ (يونس: ٩)، والإيمان هو الهدف الأول وهو وسيلة الهداية التي هي المرحلة التالية بعد الإيمان والعمل الصالح مصداقا لقوله سبحانه: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ (طه: ٨٢) وقوله سبحانه: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ (المائدة: ١٦): ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ (العنكبوت: ٦٩). ولقد جاء في الآية ١١ من سورة التغابن: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

كذلك يوجب القرآن الكريم أن يقوم كل بدوره دون تقصير أو كتمان، حيث حرم الله الكتمان في كتابه، وإني لأكتفي في هذا المجال بذكر ما ورد في سورة البقرة في الآيتين ١٥٩، ١٦٠: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾.

وإن من يوفق للإيمان والهدى كمثل المشكاة الصالحة المتصلة بالتيار تستمد النور وتشعه لذوي الأبصار فتبدل ظلامهم نورا.

ومرة أخرى أقول: إن القرآن العظيم حلقات متماسكة يفسر بعضه بعضا ويمكن أن تكون الفاتحة عنوانا له وواسطة لعقده، بحيث يمكن أن يلتقي طرفا القرآن العظيم عند سورة الفاتحة «والطرفان هما سورة البقرة وسورة الناس»، على أني قبل أن أتابع الترتيب القرآني أود أن أبدأ بسورة الناس وهي الخاتمة

لأنها ترتبط مع الفاتحة برباط وثيق كما ترتبط السورتان «الناس والفاتحة» بسورتي «الفلق والإخلاص» وهذا ما أرجو أن أوفق إلى تقديمه كأنموذج وجهد محدود راجيا أن يحقق الله على أيدي من هم أوسع مني علما وأنسب ظروفا وإمكانات إتمام ما سأبدأ به بإذن الله.

وإنه على الرغم مما يحيط بي من مشاغل تستنفذ جل وقتي، ومن قلة معلومات وضيق اطلاعاتي فيما عدا تلاوة القرآن الكريم، ككل مسلم يتلو كتاب الله أو يسمعه، فإني أرى أن علي واجبا لا مناص من أدائه إزاء مسؤوليتي أمام الله حول عرض ما ظهر لي من معان خلال تفكيري عند تلاوة كلام الله مع اعترافي بالتقصير، وإني لأعترف أيضا بأن ما أقدمه قد يحتوي جديدا على القارئ والسامع ومعروف أن الاستجابة السريعة للجديد ليست بالأمر السهل حتى ذلك الذي جاء على أيدي رسل كرام يوحى إليهم من رب العالمين، مؤيدين بالمعجزات فكيف إذا كان الجديد من إنسان مثلي يعترف بتقصيره وعدم سعة اطلاعه ولكن الذي يشفع لي ويطمئنني أني أحرص استطاعتي على ألا أتكلف ولا أخرج عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ولا أجانب العلوم الراسخة ولا أجافي المنطق السليم ولا أعرض معاني كتاب الله للنظريات القابلة للتغيير والتبديل، إلى جانب ذلك فإني كلي إصغاء لمن يرشدني إلى أخطائي وجل من لا يخطئ، «والحكمة ضالة المؤمن» ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (البقرة: ٢٦٩).

وإذا كنت أقدم للقارئ اللبيب ما وسعني من جهد المقل فذلك للعرض لا للفرض، وإن هذا العرض ليس تفسيرا ولكنها خواطر تلوح لي عند تلاوة كتاب الله والتأمل في رحابه.

فرأيت لزاما علي أن أدونها عسى أن يكون بها من النفع ما أرجو معه عفو الله ورضوانه، والله سبحانه هو العلام الحكيم والهادي إلى سواء السبيل.

في رحاب القرآن الكريم (٢)

العدد (٨٥) محرم (١٣٩٢هـ) - فبراير (١٩٧٢م).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ
﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١ مَلِكِ النَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ النَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝٤ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝٥ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ۝٦﴾ (سورة الناس).

قل أعوذ: الاستعاذة في بدء السورة من الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس، هي تخلية، وطلب الهداية من رب العالمين الرحمن الرحيم إلى الصراط المستقيم والطريق القويم، صراط الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين غير المغضوب عليهم ولا الضالين - كما جاء في ختام سورة الفاتحة - هي تخلية وجب الحمد عليها فكان ذلك الحمد في الافتتاح لفاتحة كتاب الله، ومن المعلوم أن الضلال والهدى لا يجتمعان في قلب إنسان في وقت واحد كما لا يجتمع النور والظلام في مكان وزمان واحد.

صحيح أن قوة إشعاع النور تختلف وتبدأ من الشمعة الواحدة وأن الإنسان غالبا ما يتردد ويتشكك ويحتار ولكن الحيرة والتردد والتشكيك لا تلبث أن تزول ويحل محلها إيمان سلمي يهدي إلى صراط مستقيم، كما يحل النور محل الظلمات ويذهب الباطل أمام قوة الحق وهذه سنن كونية لا تبديل لها ولا تحول عنها، قال سبحانه: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ۚ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ۝٨١﴾ (الإسراء: ٨١) وقال

سبحانه أيضا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةً لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورًا ۝٦٢﴾ (الفرقان: ٦٢).

برب الناس: رب الناس هو رب العالمين الرحمن الرحيم كما جاء في سورة الفاتحة.

ملك الناس هو مالك يوم الدين كما ورد في سورة الفاتحة أيضا وكلمة ملك بالنسبة لله غالبا ما تأتي في كتاب الله مقرونة بيوم الدين، اليوم الذي لا ملك ولا مالك فيه غيره سبحانه مصداقا لقوله جل شأنه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝١٨ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٌ لِّنَفۡسٍ شَيۡـًٔاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٍ لِّلَّهِ ۝١٩﴾ (الانفطار: ١٧-١٩) وقوله سبحانه: ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ (الحج: ٥٦) وقوله سبحانه: ﴿قَوۡلُهُ ٱلۡحَقُّۚ وَلَهُ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِۚ﴾ (الأنعام: ٧٣) وقوله سبحانه: ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ لِلرَّحۡمَٰنِۚ وَكَانَ يَوۡمًا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ۝٢٦﴾ (الفرقان: ٢٦) وقوله سبحانه: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ۝١٦﴾ (غافر: ١٦) وفي الأثر عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «يطوي الله السموات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين ثم يأخذهن قال ابن العلاء، وهو محمد أبو كريب: بيده الأخرى: (وكلتا يديه يمين) ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون؟».

ولعل في تكرار ذكر الناس ما يفيد أنهم مركز الثقل، وبيت القصيد ومصداق قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ۝١٠٥ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوۡمٍ عَٰبِدِينَ ۝١٠٦ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝١٠٧﴾ (الأنبياء: ١٠٥-١٠٧).

الوسواس الخناس والجنة والناس: الظاهر أن كل ضار سواء أكان من الناس أم من الجِنَّة فهو شيطان يستعاذ من شره وكل ما جن عن العين فهو من الجنة والخناس هو الذي يخنس أي: ينكمش ويتضاءل ويقصر عند ذكر الرحمن وهم مردة الجنة كما قال سبحانه في موضع آخر من كتابه الكريم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ۝٢٠١﴾ (الأعراف: ٢٠١) إن

شياطين الجن تمثل الظلام الذي لا يجدي في إزالته مهانة، أو تجهم عليه، أو لعنة توجه إليه ولكن شمعة تزيل جانبا من الظلام بقدر قوة إشعاعها وعلى قدر امتداد الإشعاع يكون انحسار الظلام.

إن شيطان الجن يخنس ويقصر ويتلاشى، عند ذكر الرحمن، ثم ينبعث ويكبر كلما غفل الإنسان عن ذكر الله مصداقا لقوله سبحانه ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾ (الزخرف: ٣٦).

وقد ورد عن المصطفى ﷺ أنه قال لرديفه حينما عثرت ناقته وقال الرديف: «تعس الشيطان» فقال له الرسول ﷺ: «لا تقل ذلك فإنك إذا قلتها تكابر وقال بقوتي صرعته، ولكن قل بسم الله فإنك إذا قلتها تصاغر حتى يكون كالذبابة».

وقد جاء في الحديث الشريف ما يدل على اعتبار الميكروبات الضارة شياطين أيضا لقوله صلوات الله عليه: «قصوا الأظافر كي لا تتظلل تحتها الشياطين» ولعل المقصود من ذلك ألا تكون وكرا لهذه الشياطين أي الميكروبات الضارة، ومن الفطرة حف الشارب وهو في طريق مجرى الغذاء والتنفس، وقد ورد في الأثر عنه ﷺ: «الفطرة خمس: حف الشارب، وإعفاء اللحية، ونتف الإبط، وقص الأظافر، وحلق العانة».

وكذلك قوله صلوات الله وسلامه عليه «غلقوا الأبواب إذا وقدتم، وأطفئوا المصابيح وأوكوا الأسقية، وخمروا الطعام والشراب» وقال أيضا: «تنكبوا الغبار فإنه من النسمة» ومن الندب تغطية الفم عند التثاؤب، والأحاديث في هذا المعنى كثيرة.

أما شياطين الإنس فقد لا يتأثرون بكلمة الحق، ولا يحفلون بإشعاع النور، وقد وصفهم الله سبحانه بقوله ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي ٱلْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾ (الأعراف: ٢٠٢) وإنما تردعهم العدالة الحقة بالقصاص عند إقامة الحدود، وقد جاء عن الرسول ﷺ أنه أقام الحدود، وقد جاء عن الرسول ﷺ أنه قال «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فمن لم يستطع فبلسانه، فمن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان».

في رحاب القرآن الكريم (٣)

العدد (٨٦) صفر (١٣٩٢هـ) - مارس (١٩٧٢م)

(سورة الفلق مكية وآياتها ٥ نزلت بعد الفيل)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِن شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِن شَرِّ
غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي
الْعُقَدِ (٤) وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥)﴾

الاستعاذة: بدئت سورة الفلق بالاستعاذة كما بدئت سورة الناس، غير أن الاستعاذة في هذه السورة استعاذة برب الفلق، والفلق يشمل الكائنات جميعا وهذا أشمل معنى مما جاء في سورة الناس وأعم.

من شر ما خلق: إن الاستعاذة في سورة الناس قد جاءت من شر الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس، أما في سورة الفلق فقد جاءت الاستعاذة من كل مخلوق يمكنه أن يبعث الشر أو يلحق الضرر بعباد الرحمن بالذات أو بالواسطة.

ومن شر غاسق إذا وقب: تكررت الاستعاذة في هذه السورة وركزت الآية بصفة خاصة على الغاسق إذا وقب، ويظهر أن الغاسق: اسم فاعل مشتق من الغسق الذي هو الظلمة في الثلث الأول من الليل، لأن الوسوسة في الصدر تحدث أرقا وقلقا يذهب بالنوم ويسلب لذة الراحة والطمأنينة وقد يدفع ذلك إلى مغادرة المرء فراشه غاسقا خارج منزله، فهذا الغاسق إذا استبدت به شهواته غسقا فقد وقب وكبا وهوى في حمأة الذنوب، فالرجل الميقاب لغة: كثير شرب الخمر

والوقباء: سبة معروفة عند العرب ومداخل السوء وقبات، ومن ولجها يعتبر واقبا والسير الميقاب: المتواصل ليلا ونهارا، والأوقاب الحمقى، وقد ورد في معنى الوقبة أنها: كل نقرة في الجسم كالنقرتين الموجودتين بالقرب من كتفى الإنسان، كما أن ضمور البطن من أثر الجوع يسمى في اللغة وقبة، وكذلك أوقاب الناس ملابسهم وحوائجهم فلو سرق لص في الغسق أوقاب الناس بدافع الجوع شمله معنى الوقب.

ومن معاني الوقب غور العين وعفونة شماريخ النخلة وبالجملة فإن كل ما يطرأ على الغاسق من عمل سيئ يدخل في شموله كلمة الوقب.

﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ ۝٤﴾:

النفث لغة: خروج شيء من داخل الجوف كنفاثة المصدور، ونفث الحية للسم وقد جاء النفث بصيغة جمع المؤنث مما قد يشير الى أنه إذا كان الرجل المؤرق يزايل منزله عادة للتنفيس والترفيه عن نفسه، فليس ذلك من عادة المرأة بمفردها كما هو النظام الغالب في المجتمع فتنفث المرأة المنعزلة المعقدة الناقمة على المجتمع نفثا يخشى معه على تفكيك عرى الخير وعقد النكاح وغير ذلك. والله سبحانه هو أعلم بما يريد.

﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾: الحاسد كالغاسق وزنا ومغزى فالغسق مشتق من ظلمة الليل والحسد من ظلمة الصدر، والنفوس لا تكاد تخلو في الغالب من رذيلة الحسد وإن تفاوتت درجاتها.

والحسد غير الطموح المشروع، وغير الغبطة والتنافس في الخير، وفي الحكمة المعروفة: «قاتل الله الحسد ما أعدله، بدأ بصاحبه فقتله» فالحاسد يستعاذ منه إذا رام الأذى بمحسوده، ومن سهام الحسد نظرة العين، وهي إحدى نوافذ الشر خارج الصدر.

هذه الأمور الثلاثة التي تأكدت وتكررت الاستعاذة منها وهي: الوقب، والنفث والحسد، إنما تخرج من الصدر وليدة القلق والأرق، المتأتيين من وسوسة شياطين الجن والإنس في الصدور، ومما يؤيد ما ذهبنا إليه ما روي من

أن خالد بن الوليد اشتكى إلى رسول الله ﷺ الأرق - فقال له صلوات الله عليه: «ألا أعلمك كلمات اذا قلتهن نمت؟ «قل: اللهم رب السموات السبع وما أظلت، ورب الأرضين وما أقلت، ورب الشياطين وما أضلت، كن لي جارا من شر خلقك أجمعين، أن يفرط علي أحد منهم أو أن يطغى، عز جارك وتبارك اسمك».

ولعل المتأمل في هذا الحديث الشريف، يرى أن الرسول صلوات الله عليه، قد استنبط ذلك من السور الثلاث. سورة الفاتحة، والناس، والفلق.

نبدأ الحديث بربوبية الله للخلق كلهم التي بدئت بها السور الثلاث، وقد طلب منه الرسول أن يستعيذ بالله بعبارة «كن لي جارا من شر الخلق أجمعين».

والاستجارة هي الاستعاذة، وهكذا ورد في سورة الفلق: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾ ولعل في قول الرسول صلوات الله عليه: «أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى» استجارة بالله من الشياطين، حتى لا يفرط عليه منهم الوقب أو النفث أو الحسد أو غير ذلك.

وفي هذا الحديث ما يطمئننا على سلامة ما ذهبنا إليه من ترابط بين السور الثلاث المذكورة : سورة الفاتحة، وسورة الناس، وسورة الفلق.



نظرات في سورة الإخلاص

العدد (٩٨) صفر (١٣٩٣هـ) - مارس (١٩٧٣م).

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾: من البداهة والفطرة في الإنسان وما يصل إليه من تعاليم الرسل الكرام: وحدانية الله الأزلية اللانهائية المنفردة بذاته وصفاته سبحانه، لا رب للعالمين غيره، ولا إله يعبد بحق سواه.

ولعله أصبح من المألوف لدى الكاتب والمتحدث والسامع والقارئ جميعا، ان معنى كلمة أحد هو «واحد» ولكن في معناها ما هو أعمق من ذلك، حيث لم يأت في اللغة أن معنى لفظ «أحد» هو «واحد» إلا إذا كان اللفظ مضافا كما في أحد الناس أو إحدى النساء وكذلك في الأعداد المركبة كأحد عشر أو إحدى وعشرين.

وتأتي كلمة «أحد» للذوات العقلاء في ثلاثة مواطن: الإثبات، والنفي، والتحدي، أما الإثبات فإنه لم يرد بالنسبة لمخلوق إلا في القليل النادر، كأن يقول قائل: ليس في البيت أحد (في حالة النفي) فاذا سمعه فرد أو أكثر في الدار قال: نحن هنا: ردا على هذا النفي غير الصحيح، وبغير ذلك لا أعتقد أن لها في باب الإثبات مجالا آخر.

وقد افتتحت سورة الإخلاص بالإثبات وهذا أمر خاص بالله سبحانه، ومن هذه الآية يتبين أن الله ذات واجبة الوجود ولا يصح إثبات الوجود المطلق إلا لله وحده، كما لا يصح النفي على الاطلاق إلا مع الاستشعار بإثبات وجود الله سبحانه في كل مكان يليق بجلال قدسه وإحاطة علمه إذ لا يستطيع إنسان ما أو أكثر أن يقول ليس معي أحد (في حالة النفي) أو يقول لا يقدر علي أحد (في حالة التحدي) لأنه سبحانه مطلع على خلقه وهو معهم أينما كانوا ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ

عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾ (الأنعام : ١٨) وفى الآية السابعة من سورة المجادلة ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾ .

وقد جاء في سورة البلد آيات أربع ابتداء من الآية الرابعة حتى السابعة وردت فيها كلمة «أحد» وهي : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾﴾ ولا يخفى ما في ذلك من الاستفهام الاستنكاري، فكلمة «أحد»: للذوات العقلاء ككلمة: من: وذلك كقولنا : من في البيت ؟ بمعنى أفي البيت أحد؟ وعليه فمعنى الآية ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾ أنه سبحانه ذات واجبة الوجود مهيمنة عليه، متسنمة على عرش كل ذرة من ذراته، أو خلية من خلاياه، كما جاء في ختام سورة يس: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ وبيده سبحانه ناصية كل دابة، مصداقا لقوله جل شأنه في سورة هود ﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ (هود: ٥٦) وقوله سبحانه في سورة المؤمنين: ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾﴾ (المؤمنون :٨٨).

﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾﴾: والصمد من يصمد لجميع ما يحتاج إليه الخلائق ويحفظها ويهيمن عليها، وتطلق لغة أيضا على من لا جوف له فلا يأكل ولا يشرب ولا يحدث له ما يترتب على الأكل والشرب، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، ومن معاني الصمد أنه صامد للوجود كله وتصمد إليه جميع الخلائق، وقد أورد بعض المفسرين في تفسير كلمة الصمد، أنها تشمل صفات الكمال لله جلت عظمته، فإذا ما وجب علينا في حالة النفي الاستشعار بوجود العلي القدير وجود هيمنة وعلم، وجب علينا أيضا الاعتقاد بأن هذا الوجود لا يعتريه نقصان ولا زوال ولا تأخذه سنة ولا نوم: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ

وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾ (يونس: ٦١).

فإذا قال فرد أو أكثر مثلا وهو يتناول طعامه: «أنه لا يأكل معي أحد» فالجواب على ذلك هو: الله أحد معك ولكنه صمد منزه عن الأكل والشرب، وعن كل ما لا يليق بجلال عظمته سبحانه وتعالى، وفي باقي هذه السورة، ما يؤيد المعنى المتقدم فكما أنه جل شأنه لا يأكل ولا يشرب فإنه لم يلد ولم يكن له كفوا أحد.

ولعلنا نستطيع أن نقول خلاصة لما تقدم أنه سبحانه منفرد بالعلو اللانهائي في غير بعد وبوحدانية صمدانية خلاقة وسعت كل شيء رحمة وعلما، غنية عن الكفء قادرة على الإبداع والحفظ والإعادة، صامدة للوجود كله، لا محل فيه لثان كند أو كفو، ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴿٩٣﴾ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ﴿٩٥﴾﴾ (مريم: ٩٣- ٩٥).

وحدانية كمال مطلق غير محدود، وليست وحدانية عدد لأن الواحد في الحساب قد يفيد القلة كما يفيد الرقم الأول فقط، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾ (الحديد: ٣).

وكما جاء في ختام سورة (الإخلاص) ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ﴿٤﴾﴾ ومن آية الكرسي في سورة البقرة: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ (البقرة: ٢٥٥) وقوله أيضا ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ (الشورى: ١١) على أن الوحدانية القهارة موجودة في كل آية من آيات كتاب الله ولاسيما السور الثلاث: الفاتحة، والناس، والفلق. ففي البسملة توحيد، وفي قراءة الحمد لله رب العالمين توحيد، وكذا الشأن في كل آية بعد ذلك.

وقد جاء في الأثر أن في سورة الإخلاص صفة هذه الوحدانية وأنها أنزلت عندما قال العرب لخاتم رسل الله: صف لنا ربك.

على أن هذه الوحدانية موجودة بالفطرة في كل إنسان عاقل يؤديها العلم كلما تقدم، فالإنسان هو وعاء العلم وبالعلم فُضِّل آدم على الملائكة الكرام في الملأ الأعلى.

ومعنى ازدياد العلم في الإنسان محاولة اكتشاف علم ما وراءه وهنا نتساءل: إذا كان ولابد من الاعتقاد بأن وراء علم هذا الإنسان علوما واسعة لم يصل الإنسان إلَّا إلى النزر اليسير منها ـ فإن ذلك يوحي للعالم أن وراء هذا الكون مكونا ووراء هذا الإبداع مبدعا يحاول الإنسان جهده أن يكتشف ما يستطيع أن يستكشفه من أسرار ومكونات، ومن أبسط الأمثلة سؤال يطرح نفسه، فهل لك أيها الإنسان رأي أو مشاركة في خلق أو في نظام ذرة واحدة من ذرات الكون اليابسة أو خلية واحدة من خلاياه الرطبة ؟ فإذا كان الجواب لا : فمن هو ذا يا ترى؟ وإنه لتغلب الحيرة والبلبلة والظنة على الكثيرين، فيسمون ما يعتقدون وجوده قوة خارقة، وعلم ما وراء الإنسان ـ بالطبيعة تارة، واللانهاية تارة أخرى، والدهر ثالثة، مع أنهم لم يأتونا بوصف أو كنه لهذه الطبيعة أو الدهر أو اللانهاية.

والسؤال الذي يفرض نفسه: إذا كانت هذه الطبيعة أو اللانهاية أو الدهر أو غير ذلك من المسميات عاقلة قادرة سميعة بصيرة عالمة موصوفة بصفات الكمال كلها، تنشئ وتطور وتكون وتبدع وتنظم وتحفظ، فماذا نسميها إذا لم نسمها الله؟ والفرق بيننا وبينهم إذن هو مجرد التسمية، والمعبود بحق عندنا هو القوة المبدعة لهذا الوجود والمهيمنة عليه والمنظمة الحافظة له التي نسميها : الله - فإذا سماها الآخرون بلغاتهم باسم آخر فلا يضير ذلك عقيدة التوحيد بشيء وقد قال الأقدمون من قبل ما قاله الطبيعيون ﴿تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ وذلك كما جاء في الآية ٢٤ من سورة الجاثية: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾ .

وقد جاء في الأثر عن الرسول ﷺ: «لا تسبوا الدهر فإن الدهر هو الله» أما إذا كانت الطبيعة كما يعتقدون صماء عمياء جاهلة، فإن فاقد الشيء لا يعطيه، وكيف خلقت لنا الطبيعة سمعا وبصرا وهي لا تعرف السمع والبصر؟ على أن العلم والفطرة كفيلان بتوكيد وجود الخلاق العليم في تصور كل إنسان شاء أم أبى، والعلم يهدي للإيمان مصداق قوله سبحانه في (الآيه ٢٢ من سورة الروم): ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ

لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ (وفى الآيه السادسة من سورة سبأ): ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾﴾ وفي (الآيه ٢٨ من سورة فاطر): ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾.

وقال جل شأنه: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾﴾ (الإسراء: ١٠٧) وقال سبحانه: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾ (الحج: ٥٤).



٣ مقالات

الشيخ أحمد الخميس

- ترجمة الشيخ
- المقالات

١- الكويت تمنع الخمر

العدد (٢) صفر (١٣٨٥هـ) - يونيو (١٩٦٥م).

٢- العلاقة بين الزوجين

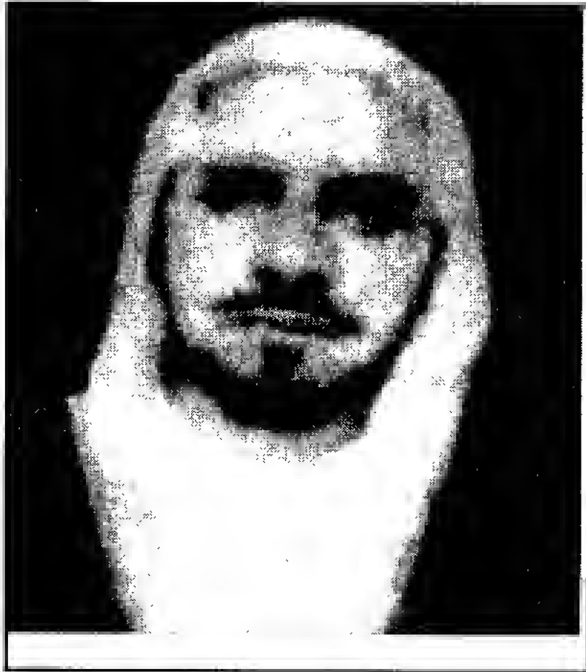
العدد (٥) جمادى الأولى (١٣٨٥هـ) - سبتمبر (١٩٦٥م)

٣- الزواج وآثاره

العدد(٣٦) ذو الحجة (١٣٨٧هـ) - فبراير (١٩٦٨م).

ترجمة الشيخ

أحمد الخميس



هو الشيخ أحمد الخميس الجبران، وقد سمي بـ «الخلف» نسبة إلى عائلة خاله الشيخ عبدالله الخلف الدحيَّان، ولد في مدينة الكويت سنة ١٣١١هـ الموافق ١٨٩٣م.

● **نشأته وتعليمه:**

لما استكمل الشيخ تعليمه الأولي من قراءة وكتابة، وقراءة لكتاب الله، سافر إلى بلدة الزبير حاضرة العلم في زمنه لما فيها من العلماء والمدارس الشرعية، فأخذ العلم فيها من الشيخ العلامة عبدالمحسن البابطين الذي كان مدرسا في مدرسة دويحس الشرعية، كما درس العلوم العربية والشرعية على يد الشيخ محمد العوجان، وتلقى الفقه الحنبلي والحديث على يد الشيخ عبدالله الحمود، ثم عاد الشيخ إلى الكويت فلازم الشيخ عبدالله الخلف الدحيان طالبا لمزيد من العلم الشرعي، ويعتبر خاله الشيخ عبدالله الخلف المربي الأول له.

عمل الشيخ مدرسا في مدرسة النجاة الأهلية في الزبير، ثم درَّس في المدرسة المباركية في الكويت، ثم استأجر ديوانا وفتحه مدرسة لتعليم القراءة والكتابة ومبادئ الحساب، ولما افتتح شملان بن علي مدرسة السعادة سنة ١٣٤٣هـ ١٩٢٤م تم تعيين الشيخ أحمد مدرسا ومديرا لها وبقي فيها ما يقارب الخمس سنوات حتى أغلقت أبوابها.

كما قام الشيخ بالتدريس في كشك الصقر، وشاركه في التدريس الشيخ

عبدالوهاب بن عبدالله الفارس، ثم تولى الشيخ إمامة مسجد البدر خلفا للشيخ عبدالله الخلف، واشتهر الشيخ رحمه الله بأسلوبه الأدبي، وكتب في العديد من المجلات، منها مجلة «الوعي الإسلامي» التي خصَّها بعدد من المقالات.

في سنة ١٣٨٣هـ ١٩٦٤م، تم تعيين الشيخ قاضيا في المحكمة الشرعية، ثم وكيلا للمحكمة الكلية ثم مستشارا في محكمة الاستئناف العليا في ١٣٨٦هـ ١٩٦٧م، بموجب مرسوم أميري.

● **وفاته:**

توفي الشيخ أحمد في ٢٤ جمادى الثانية ١٣٩٤هـ الموافق ١٤/ ٧/ ١٩٧٤م، رحمه الله رحمة واسعة.



الكويت تمنع الخمر

العدد (٢) صفر (١٣٥٨هـ) - يونيو (١٩٦٥م).

«أصدرت حكومة الكويت قانونا يعاقب كل من باع أو اشترى أو تناول أو قبل التناول أو حاز بأي صورة كانت بقصد الاتجار أو الترويج خمرا أو شرابا أو مسكرا، ويعاقب كل من تعاطى في مكان عام، أو في مكان يمكن رؤيته فيه، أو في ناد خاص خمرا، أو شرابا مسكرا، وكل من جلب إلى المكان المذكور الخمر أو الشراب المسكر لشخص بقصد تناوله فيه، ويعاقب كل من وجد في حالة سكر بين، وكل من أقلق الراحة بسبب تناوله الخمر» .

و«الوعي الإسلامي» تحيي الكويت الدولة العربية المسلمة وتأمل أن يحذو حذوها سائر الدول العربية الإسلامية.

فى كل عصر نجد الإسلام آية كبرى، ومعجزة تدل أنها فوق مستويات القدرات البشرية، فجميع أحكامه ومناهجه وتعاليمه قائمة على أصول راسخة رسوخ الجبال الشامخات، فمنذ ألف وثلاثمائة سنة ونيف ارتفع صوت الإسلام على لسان المصطفى ﷺ يعلن للإنسانية أن الخمر عدوة العقل والجسم والإخاء، وأنها أم الخبائث ومصدر الجرائم ومستنقع السموم، ولقد نزل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ (المائدة: ٩٠-٩١) وبعد هبوط الوحي بالتحريم القاطع بنص الآية الكريمة أرسل رسول الله ﷺ مناديا ينادي: يعلن تحريمها على المسلمين فاستجاب المسلمون لذلك وعكفوا على دنان الخمر يكسرونها

ويهرقون ما فيها، وبهذا حفظ الله أمة الإسلام من هذا الشر الخطير والوباء العظيم.

واليوم نحن نستبشر خيرا بما قرره مجلس الأمة مستجيبا لنداء الأمة ومشاعر الشعب. واليوم ونحن نجد مجلس الوزراء يجتمع متضامنا مع مجلس الأمة على منع دخولها إلى هذا البلد المسلم لا يسعنا إلا أن نرفع آسمى آيات التقدير لمجلس وزرائنا، ونسأله تعالى أن يجعلهم أبدا ودائما مثالا للخير وسبيلا لإسعاد هذا الشعب الكريم والمحافظه على دينه ومثله وأخلاقه، وليس بعجب أن تنتصر إرادة الخير على إرادة الشر، إرادة العقل على إرادة الجنون والطيش، وإرادة الحياة على إرادة الانتحار.

أيها المسلمون قد أجمع أساطين الطب، وأجمع علماء النفس، وأجمع علماء الاجتماع، وأجمعت طبقات الناس على أن الخمر طريق الشر، بل هي الشر والفتنة، فلا غرابة أن ترتفع أصوات الألوف من الناس في الكويت المسلمة المؤمنة برسالة القرآن مطالبة بمنع الخمر، ومن حقها الآن أن تشكر أولي الأمر على تلبية النداء، وإجابة طلباتها.

والآن نستطيع أن نقول لكم عودوا إلى إسلامكم، عودوا إلى إيمانكم، عودوا إلى ساحات الجهاد الإسلامي والنضال الأخلاقي تعد لكم الكرامة والعزة والألفة والمودة، واستمعوا الى صوت محمد ﷺ «تركتكم على بيضاء نقية، ليلها كنهارها، لا يضل عنها إلا هالك» وذلك مصداق قوله تعالى ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ (الأنعام: ١٥٣) أيها الآباء إنكم تتحملون متاعب الحياة، وتتعبون، وتجاهدون ليلا ونهارا، فإذا مرض أطفالكم ذهب النوم عن أجفانكم، وإذا تأخروا عن موعد الحضور عم قلوبكم الخوف والقلق والذعر، هؤلاء الأبناء الأعزاء حشاشة النفس وأكباد المجتمع، لا يصح أن ندعهم فريسة الإلحاد وفريسة للخمر، هؤلاء زهرات حياتنا لا يصح أن نتركهم تفسد عقولَهم وأرواحَهم وضمائرهم أقدامُ الكفر والمجون والاستهتار بالأخلاق والقيم، هؤلاء الأطهار

الفطريون لا يجوز أن نتركهم عزلا بدون سلاح، يعتدي عليهم دعاة الفساد، ويجرهم زحف الإباحية، هؤلاء أعز ما نملك أمل أمتنا الباسم، أمل ديننا وفرقاننا وإسلامنا يجب أن نفتح آفاق الثقافة الإسلامية لنقيهم من أضاليل وأكاذيب ما يسمعون.

أيها الوزراء أيها القادة يا من بيدهم مقاليد الأمة المسلمة، أنتم تحكمون شعبا مسلما وأمة مسلمة، والمسلم وفي لمن يحسن إليه، والخمر أم الكبائر والآثام وقد عقدتم العزم متضامنين مع مجلس الأمة بمنع استيرادها فشكرناكم. شكرتكم النخوة والمروءة ومكارم الأخلاق يا أصحاب المعالي، إن من الصفات المميزة للحاكم المسلم أن يكون الإسلام أقرب إليه من الحياة وما فيها، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ (التوبة: ٢٤).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يشرب الخمر، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يجلس على مائدة يشرب عليها الخمر»، وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لعن الله الخمر وشاربها وساقيها وبائعها ومبتاعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه». وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ «اجتنبوا الخمر فإنها مفتاح كل شر».

وفق الله المسلمين للعمل بكتاب الله وسنة رسوله آمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

العلاقة بين الزوجين

العدد (٥) جمادى الأولى (١٣٨٥هـ) - سبتمبر (١٩٦٥هـ)

● **الزواج طمأنينة**

عني الإسلام بإظهار الأهداف الروحية من الزواج، وقد جعلها الركائز التي يقوم عليها بناء الحياة الزوجية والدعائم التي تحقق الألفة والمودة، وتتمثل في سكون النفس مع اضطرابها الجنسي الفطري بالحب بين الزوجين وتوسيع دوائر المودة والألفة بين العشيرتين بالمصاهرة واكتمال عواطف الحنان والرحمة الإنسانية وانتشارها بين الزوجين لتنتقل إلى البنين والبنات، وإلى هذه المعاني الروحية يرشدنا تعالى بقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ (الروم: ٢١).

● **الصلة الجسدية**

ومع هذا لم يغفل الإسلام الجانب الجنسي والعلاقة الجسدية بين الزوجين، فقد هدى بها إلى أقوم سبيل، وأرشد طريق، لتحقيق أهداف حق الفطرة الغريزية، وبذلك تجنب الانحراف والاعوجاج، فقد كان اليهود والمجوس يبالغون في التباعد عن المرأة حال حيضها، والنصارى كانوا يجامعونها في الحيض ولا يبالون، وعرب الجاهلية تأثروا باليهود في هذه الناحية، فكانوا إذا حاضت المرأة لا يؤاكلونها، ولا يشاربونها، ولا يجالسونها على فراش، ولا يساكنونها في بيت، لذلك توجه بعض المسلمين إلى النبي ﷺ للسؤال عما يحل لهم وما يحرم عليهم في معاملة الحائض فنزلت الآية الكريمة: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ

مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ (البقرة: ٢٢٢) وفهم بعض الأعراب أن الاعتزال ألا يساكنوهن، فبين النبي ﷺ لهم المراد من الآية وقال: إنما أمركم أن تعتزلوا مجامعتهن إذا حضن، ولم آمركم بإخراجهن من البيوت كفعل الأعاجم، فلما سمع اليهود ذلك قالوا: هذا الرجل يريد ألا يدع شيئا من أمرنا إلا خالفنا فيه.

وإذا رجعنا إلى الطب الحديث نجده قد كشف النقاب عما يوجد في إفرازات الحيض من مواد سامة تضر بالجسم إذا بقيت فيه، فالأعصاب التناسلية تكون في وضع احتقان والأعصاب مضطربة بسبب إفرازات الغدد الداخلية فالاختلاط الجنسي يضرها ضررا بليغا وربما كان سببا في منع نزول الحيض، وقد يكون سببا في التهاب الأعضاء التناسلية.

وفي الآية تشبيه للقاح الجنسي بالإنبات وأن الغاية من الحرث والزرع هو الإنتاج، وكذلك الغاية من اللقاح الجنسي هو التوالد والتناسل، ومكان ذلك معلوم، وما عداه محظور ممنوع منهي عنه، ولذلك نجد الرسول ﷺ ينهى الرجال عن إتيان المرأة في غير المكان الطبيعي الذي أعد لذلك، «وقال لا تأتوا النساء في أدبارهن»، وقال «لعن الله من أتى امرأة في دبرها»، وقال في الذي يأتي امرأة في دبرها اللوطية الصغرى.

● حفظ أسرار الزوجية

وقد أثنى القرآن على المرأة أن تحفظ السر بالغيب فقال سبحانه: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ﴾ (النساء: ٣٤) وفي جملة الغيب الذي يجب أن تحفظه المرأة بل هو في طليعة ذلك ما كان من أسرار الزوجية، فلا يصح أن تذكره في المجالس وتجعله مادة لسمرها مع صويحباتها، وكذلك يجب على الرجل ما يجب على المرأة في هذا المضمار من كتمان للسر وحفظ للحاجات والمتع الزوجية، فقد ورد عن الرسول ﷺ عن أبي هريرة قال: «صلى بنا رسول الله ﷺ فلما سلم أقبل علينا بوجهه، فقال: مجالسكم. هل منكم الرجل إذا أتى أهله فأغلق بابه، وأرخى ستره، ثم يخرج، فيحدث، فيقول: فعلت بأهلي كذا، وفعلت

كذا؟» فسكتوا، فأقبل على النساء، فقال: منكن من تحدث؟ فجثت فتاة كعاب على إحدى ركبتيها وتطاولت ليراها رسول الله ﷺ، ويسمع كلامها فقالت: أي والله إنهم يتحدثون، وإنهن يتحدثن، فقال عليه السلام: «هل تدرون ما مثل من فعل ذلك؟ إن مثل من فعل ذلك مثل شيطان وشيطانة لقي أحدهما صاحبه بالسكة، فقضى حاجته منها، والناس ينظرون إليه»

وفي هذا التشبيه ما فيه من تحقير وازدراء لهذه العادة الخسيسة والحماقة الوضيعة.

• المعاشرة الزوجية

عقد الزواج عهد وثيق ربط بين قلب الرجل وقلب المرأة، وبذلك أصبح كل فرد منهما أليفا للآخر، ويسمى زوجا بعدما كان فردا، لأن كل واحد من الرجل والمرأة يمثل أليفه وخليله، ويحمل بين ضلوعه وحناياه آماله وآلامه.

وقد صور القرآن الكريم قوة هذا الرباط بين الزوجين وعظمته فقال تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ (البقرة: ١٨٧) وهو تعبير بليغ معجز يكشف عن مقدار الاندماج والستر والحماية والطهر والجمال الذي يحقق كل منهما لصاحبه، ومن أجل ذلك كان على كل من الزوجين حقوق وواجبات للآخر ينبغي تحقيقها والنزول عند رغباتها وأهدافها كما قال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ (البقرة: ٢٢٨) وقد سأل رجل النبي ﷺ فقال: يا رسول الله: ما حق زوجة أحدنا عليه قال: «أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا كسيت ولا تضرب الوجه، ولا تقبح، ولا تهجر في المبيت». فلا يجوز للزوج المسلم أن يترك زوجته بلا نفقة وبلا كسوة ولا مسكن، وفي الحديث: «كفى بالمرء إثما أن يضيع من يقوت»، ولا يجوز أن يضرب وجه زوجته لما فيه من إهانة واحتقار ومذلة للإنسان مع ما في ذلك من خطر جسيم على أجمل عضو في الإنسان، فالوجه هو جماع محاسن الجسم البشري وفيه حواس الذوق والشم والبصر.

وإذا كانت الشريعة الإسلامية أجازت للمسلم عند الضرورة أن يؤدب زوجته

الناشزة المتمردة الخارجة على بيت الزوجية وعش الحياة فهي لم تبح له مع هذه الضرورات ضربها ضربا مبرحا مؤلما يصيب وجهها أو مقاتلها، وكذلك لا يجوز للمسلم أن يهين زوجته بأن يؤذيها بلسانه، ويسمعها مر الكلام كأن يقول لها قبحك الله، وما شابه ذلك أو شاكله من الكلمات الجارحات المؤذيات.

وللزوج كذلك على المرأة حقوق، فلا يحل لامرأة تؤمن بالله أن تأذن لأحد في الدخول إلى بيت زوجها وهو كاره، ولا تخرج منه وهو كاره، ولا تطيع فيه أحدا، ولا تعتزل فراشه، ولا تضربه إذا كانت أقوى منه جسدا، وبذلك تسعد في حياتها، ويرضى عنها ربها، وتكون لها الدرجات العلى.

● **سياسة البيت**

وعلى المسلم أن يصبر على زوجته إذا رأى منها ما يكره من تصرفاتها العاطفية، فالمرأة سريعة الغضب سريعة الانفعال سريعة الرضى، ويجب أن يذكر حسناتها وما تقوم فيه من الخدمة المنزلية وتربية الأبناء وإدخال السرور على الجميع في حالات الرضى، وفي الحديث «لا يفرك (لا يبغض) مؤمن مؤمنة إن سخط منها خلقا رضي منها غيره».

وقال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾ (النساء: ١٩) وكذلك أوجب الإسلام على المرأة أن تسترضي زوجها، وتدخل عليه السرور والسعادة، وتكون معه في أزمات الحياة، وحذرها من أن تدع زوجها يبيت وهو غاضب عليها، وفي الحديث: ثلاثة لا ترتفع صلاتهم فوق رؤوسهم شبرا رجل أم قوما وهم له كارهون، وامرأة باتت وزوجها عليها ساخط، وأخوان متصادمان (متخاصمان).

وطالما أن الرجل سيد البيت وقطب الرحى وهو محور لسعادة الأسرة ونقطة ارتكازها فعلى المرأة أن تطيعه أولا، فإن تمردت، وعصت، وخرجت عن طاعته فسدت الشراكة، واضطربت سفينة المنزل وقد تغرق طالما تسير بدون ربان وبدون قيادة.

وإذا لاحظ الزوج على زوجته آثار النشوز ومظاهر العصيان والتعالي، فعليه

أن يحاول إصلاحها بما يقدر وبما يستطيع من صبر وأناة وكلمات طيبات ومعاملة رقيقة فإن لم تنجح هذه المعاملة في إصلاحها هجرها في المضجع فإن لم تفد هذه التجربة القاسية عمد إلى تأديبها بالضرب غير المبرح، وهو علاج قد يجدي أحيانا في بعض النساء ضعيفات المعرفة والعقل، ومع هذا الذي أباحه الإسلام فنجد أن الضرب غير مرغوب فيه فهو الضرورة القاسية والعلاج الأخير الذي لا يعمد إليه إلا بعد أن تعجزه الحيلة، وينفد الصبر ولات مناص، فقد نفر الرسول من الضرب فقال: يضرب أحدكم امرأته ضرب العبد ولعله أن يجامعها آخر اليوم فإن لم تنفع جميع هذه الوسائل فعلى المجتمع الإسلامي أن يتدخل وعلى أهل الرأي والخير الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر أن يتدخلوا للإصلاح فيبعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها لعل الله يوفق بينهما.

وفي هذا كله قال تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا ﴿٣٤﴾ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرٗا ﴿٣٥﴾﴾ (النساء: ٣٤ -٣٥).

* * *

الزواج وآثاره في حياة الفرد والجماعة

العدد (٣٦) ذو الحجة (١٣٨٧هـ) - فبراير ١٩٦٨م)

إذا ألقينا نظرة فاحصة على واقعنا الاجتماعي، وجدنا أن الفتنة قد ذرت قرونها في كل ناحية من نواحي حياتنا الاجتماعية، منذرة بأفدح الأخطار وأوخم العواقب، ووجدنا أن مظاهر الفساد والانحلال آخذة بالازدياد والانتشار بترويج المروجين من دعاة الفتنة والضلال الذين لا يتقون الله ولا يبالون بغير شهواتهم وغرائزهم وأنانيتهم الدنيئة، غير عابئين ولا مكترثين بما يجرونه على مجتمعهم من مفاسد وشرور وفضائح وخراب.

ومن الصعب أن نتلمس في هذا المقال جميع مظاهر الفساد وأسبابه في حياتنا الاجتماعية، ولذا سأقصر الحديث على أهم جانب من جوانب حياتنا الاجتماعية، والذي تكمن فيه أسباب كثيرة من المشاكل والمفاسد، كما تكمن بنفس الوقت طريقة العلاج والحلول السليمة.. هذا الجانب هو الجانب الذي يتعلق بالحياة الزوجية وبناء الأسر، وما ينتج عنه من آثار في حياة الفرد والجماعة.

فالزواج من الناحية الاجتماعية واجب تدفع إليه غريزة حب الاجتماع وغريزة البقاء والحفاظ على الجنس البشري، وهو السبيل الطبيعي المشروع لقيام الصلة بين الرجل والمرأة، هذه الصلة التي تعتبر من أقوى الدعائم الاجتماعية، والتي تنشأ بسببها أمتن الروابط والصلاة بين أفراد المجتمع.

والزواج من الناحية الشخصية سبيل للسكن النفسي والاطمئنان الروحي والعاطفي وطهارة للقلب والنفس، وحماية للمروءات ووقاية من الانحراف والانزلاق إلى المحرمات، كما هو سبيل لتنمية المودة والألفة والرحمة وجميع معاني الخير بين الجنسين.

ولما كان للزواج كل هذه الأهمية من الناحيتين الاجتماعية والفردية، فقد رسم الله سبحانه وتعالى له منهجا واضحا مفصلا، وحدَّ له حدودا ووضع له قواعد وأصولا وأوجب فيه التزامات على الطرفين وحذر من التهاون فيها، وأنذر العابثين بقواعده، وحدوده أشد العقاب للحفاظ على قدسيته وضمان أداء وظيفته على خير وجه، فالزواج عهد ميثاق قال تعالى: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ۝٢١﴾ (النساء: ٢١) وفي ذلك إشارة إلى أن النساء أخذن من الرجال ميثاقا عظيما وهو ميثاق الزواج، وعهد الإخلاص والوفاء يلتزم كل من الطرفين، ويؤدي كل طرف منهما ما يجب عليه نحو الآخر من المعاشرة بالمعروف على أساس المشاركة الفعلية بينهما، فلا غنى لأحدهما عن الآخر ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ (البقرة: ١٨٧)، وأي ميثاق وأي عهد أعظم من العهد الذي أخذه الله على الرجال للنساء عندما يوثق هذا الميثاق بقول «والله على ما نقول وكيل».. وقد جعل الله تعالى الزواج من آياته العظيمة فقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٢١﴾ (الروم: ٢١).

﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١﴾ (النساء: ١) فلا غرابة بعد ذلك أن نعرف حرص الإسلام على سلامة الحياة الزوجية وترغيبه بالزواج والحض عليه، إن الزواج سبيل لإعفاف وصيانة الرجال والنساء من حياة الفوضى والعبث والرذيلة، وخلاص من القلق والاضطراب وسبيل للاستقرار النفسي والاجتماعي.

ولكن الزواج قد يكون أو قد يصبح من أهم أسباب الفساد والفوضى الاجتماعية وعدم الاستقرار وخلق كثير من المشاكل الاجتماعية والخلقية والمفاسد الخطيرة، وذلك عندما يساء استعماله، إما عن جهل أو عن سوء نية.. فالرجل الذي يرى الزواج وسيلة لمتعة الجسد وقضاء الشهوة فقط دون اعتبار للمعاني الروحية والعاطفية والنفسية والاجتماعية والخلقية الكريمة يسيء إلى هذا النظام الكريم بإساءة استعماله، فالذي يتخذ الزواج ستارا لمآرب شيطانية فيقدم

على الزواج ممن يشتهيها قلبه، وهو يضمر في نفسه نية التوقيت والعزم على الطلاق بعد أن ينال غايته الدنيئة، فحكمه حكم الزاني بل إن عمله هذا لهو أشد من الزنا فظاعة وخبثا وسوء عاقبة لأنه يكون قد غرر بفتاة بريئة خدعها بعقد الزواج ثم رمى بها بعد أن ملت نفسه منها، وتاقت لأخرى دون حساب لمصير هذه الفتاة ومستقبلها وسمعتها، وسواء كان المقدم على الزواج قد أسر في نفسه العزم على الطلاق بعد مدة معينة أم لم ينو ذلك، فإن التسرع بالطلاق واللجوء إليه لأتفه الأسباب يعتبر إخلالا بالميثاق الذي قطعه على نفسه بالوفاء والصدق والإخلاص وعبثا بنظام الزواج فالطلاق أبغض الحلال إلى الله ولا يجوز اللجوء اليه إلا عند الضرورة القصوى، وعند تعذر أو عدم جدوى وسائل التفاهم وطرق التوفيق وإزالة الخلاف.. فكم من أسرة تهدمت بتسرع الرجل بإيقاع الطلاق على زوجته لأتفه الأسباب دون تقوى من الله أو حساب للنتائج الخطيرة التي تترتب على الطلاق في حال الفرد والأسرة والمجتمع والأخلاق.. فالطلاق إنما شرعه الله للناس ليكون الحل المناسب عندما لا يوجد حل سواه، ولكن بعض الناس يسيئون استعمال هذا الحق فيستعملونه بغير حق إضرارا بالآخرين أو تحقيقا لشهوات حيوانية لا تعرف القناعة ولا المروءة، فالرجل الشهواني الذي لا هم له إلا التنقل من امرأة إلى أخرى يسيء إلى نفسه بتحطيم قواه وماله، ويسيء إلى المجتمع الذي يعيش فيه ويفسد على كثير من الأسر نظام حياتهم، وأي إنسان هذا المزواج المطلاق الذي لا تصفو عشيرته ولا يأمنه صاحب ولا يحفظ عهدا ولا ميثاقا.

وإن الإسلام الذي أباح الطلاق للضرورة أباح التعدد للضرورة كذلك، وكم من الرجال وخاصة ممن أعطاهم الله بسطة في الجسم والمال يسيئون استعمال التعدد، فيتخذونه وسيلة لأهوائهم دون مراعاة لنظام التعدد من شرط العدل وحسن المعاملة، فالظلم والطغيان والاعتداء على حقوق الغير حرام، وغير جائز وقوعه على أبعد الناس، فكيف يصح أن تعامل به الزوجة وهي أقرب الناس إلى الرجل وفي الحديث الشريف «من كان له زوجتان ولم يعدل بينهما جاء يوم القيامة

وشقه ساقط» فتعدد الزوجات إنما أباحه الله لغايات اجتماعية وأخلاقية سامية وقيده بقيود كفيلة بتحقيق المنافع الشخصية والاجتماعية الذي أبيح لأجلها، فالتعدد مثلا هو الحل الوحيد المناسب عند وقوع الحروب الطاحنة والكوارث التي تقضي على كثير من الرجال، بحيث لو كان التعدد ممنوعا لأدى إلى حرمان كثير من النساء من الزواج والمعيل لعدم كفاية الرجال في مثل هذه الحالات، كما أن هناك حالات عديدة تستوجب التعدد وتجعل اللجوء إليه أفضل الحلول، وسبيلا للحيلولة دون حدوث كثير من المآسي والجرائم والحوادث الأخلاقية المؤسفة، وهذه أوروبا بعد الحربين العالميتين خير شاهد على ما حصل من فجور وفوضى أخلاقية لنقص الرجال وبقاء كثير من النساء بلا أزواج عرضة للرذائل وحبائل الشيطان.. وإذا ظهرت بعض النتائج السيئة لنظام التعدد في مجتمعنا، فهذه النتائج ليست من مساوئ النظام بل هي مساوئ الذين انحرفوا عن النظام، والذين أساءوا فهم واستعمال هذا الحق، فظلموه وقد أمروا بالعدل وجاروا وقد أمروا بالإنصاف وحسن المعاملة، وفي مثل هذه الحالات يكون العيب من الناس المنحرفين لا من نظام التعدد نفسه.. فقد ورد أنه يأتي على الناس زمان يكون للخمسين القيم الواحد من الرجال، فما هو الحل غير التعدد في مثل هذه الحالة؟

وبعد هذا الاستعراض نخلص إلى القول إن إساءة استعمال حق الزواج والطلاق والتعدد والانحراف عن المنهج الذي رسمه الله تعالى للناس في أمور الزواج والطلاق والتعدد، هو السبب في حدوث كثير من المفاسد الأخلاقية والاجتماعية وإن الدواء الوحيد هو العودة إلى الدين الحق إلى المنهج الرباني الذي شرعه لعباده، فيا أيها المسلمون رجوعا إلى كتاب الله وسنة نبيه الكريم ﷺ، ورجوعا إلى دين الإسلام، دين الرحمة والخير والبر، دين العدالة والحرية والكرامة دين العقل والسلامة للبشرية دين المدنية الفاضلة الكريمة، فالإسلام مصباح الحياة وكوكب السعادة ومبعث الاطمئنان والاستقرار للبشرية، فبالإسلام نسعد ونبني حياتنا على أمتن القواعد وأفضل الأسس، وبالإسلام تستقر حياتنا وتستقيم أمورنا، ونحفظ أسرنا وأعراضنا وكرامتنا ومروءتنا، وبالإسلام نزدهر

ونتقدم ونحقق الخير لأنفسنا ولمجتمعنا وللبشرية جمعاء، فالإسلام - والإسلام وحده - دستور للحياة الكريمة المستقرة السعيدة.

فاللهم ردنا والمسلمين جميعا إلى دينك ردا جميلا حميدا والحمد لله رب العالمين.

* * *

٤ مقالات

الأستاذ
أحمد حسن الزيات

- ترجمة الشيخ.
- المقالات:

١- الإسلام والمبادئ المثالية.

العدد (٢) صفر (١٣٨٥هـ) - يونيو (١٩٦٥م).

٢- من تراثنا الأدبي.

العدد (١٤٤) ذو الحجة (١٣٩٦هـ) - ديسمبر (١٩٧٦م)

ترجمة الكاتب

أحمد حسن الزيات



ولد الشيخ أحمد حسن الزيات بقرية كفر دميرة القديم، في طلخا بجمهورية مصر العربية سنة ١٣٠٢هـ الموافق ١٨٨٥م، وهو: صاحب «الرسالة» أديب من كبار الكتَاب.

دخل الأزهر قبل الثالثة عشرة من عمره، وفصل قبل إتمام دراسته. وعمل في التدريس الأهلي، فعلَّم العربية في مدرسة (الفرير) نحو سبع سنوات، وتعلم مدة في مدرسة الحقوق الفرنسية بالقاهرة.

دَرس الأدب العربي في المدرسة الأميركية بالقاهرة (١٩٢٢) ثم في دار المعلمين ببغداد (١٩٢٩) وأقام ثلاث سنوات صنف فيها كتابه «العراق كما عرفته» واحترق الكتاب قبل نشره.

عاد إلى القاهرة، فأصدر مجلة «الرسالة» سنة (١٩٣٣م -١٣٥٣هـ) ثم إلى جانبها «الرواية» وأغلقهما. وانتخب عضوا في مجمع اللغة العربية بالقاهرة. وعين في المجلس الأعلى للآداب والفنون. وكان قبل ذلك من أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق.

نال جائزة الدولة التقديرية (سنة٦٢) ثم أعاد الرسالة سنة (٦٣) فلم تكن لها مكانتها الأولى، فاحتجبت وانقطع إلى تحرير «مجلة الأزهر» سنة ١٣٧٢- ٧٤ هـ،

وله عدة مؤلفات منها: (كتاب تاريخ الأدب العربي، ثم كتاب دفاع عن البلاغة، أصول الأدب، في ضوء الرسالة)

وكان من أرق الناس طبعا، ومن أنصع كتَاب العربية ديباجة وأسلوباً. وللسيد جمال الدين الألوسي كتاب «أدب الزيات في العراق».

وفاته: وتوفي بالقاهرة. وحمل إلى قريته فدفن فيها سنة ١٣٨٨هـ الموافق ١٩٦٨م، رحمه الله رحمة واسعة.

المبادىء المثالية التي تضمنتها دعوة الإسلام

العدد (٢) صفر (١٣٨٥هـ) - يونيو (١٩٦٥م).

عبقرية الإسلام هي ذلك الإشراق الذي انبثق من غار حراء، فكشف للرسول صلوات الله وسلامه عليه - عن أطوار النفس البشرية فى طوايا الغيب، فدعا دعوته الخالدة إلى تكريم الإنسان، وتنظيم العمران، وتعميم الخير، وتحقيق السعادة من طريق التوحيد والمؤاخاة، والمساواة والحرية والسلام.

فالتوحيد سبيل القوة، والمؤاخاه سبيل التعاون، والحرية سبيل الكرامة، والسلام سبيل الرخاء، وتلك هي الغايات التي ترجو الإنسانية بلوغها عن طريق العلم والمدنية، فلا تنكشف أمانيها بعد طول السرى وفرط اللغوب إلا عن سحاب خلب، وسراب خادع.

هذه المبادىء المثالية التي تضمنتها دعوة الإسلام، معلومة من القرآن بالنصوص الصريحه، فلا موضع فيها لتأويل أو تحميل أو تعسف.

فالتوحيد ركن من أركان الدين وعنوان من عناوينه، وهو من الكلم الجوامع التي وعت جوهر الإصلاح وسر النجاح لكل مجتمع وأمة، وهو توحيد الله، وتوحيد العقيدة، وتوحيد الغاية، وتوحيد اللغة، وتوحيد الحكم، وتوحيد التشريع، وتوحيد الدين والدنيا، وشواهد التوحيد مذكورة فى كتاب الله لا يختلف فى مدلولها أحد.

وفكرة الوحدة الإنسانية هي مزية الدعوة المحمدية على كل دعوة، وفي سبيلها صدق الإسلام بكل دين أنزل، وبكل نبي أرسل ودعا الذين فرقوا دينهم، وكانوا شيعا إلى خطة واحدة وكلمة سواء، ثم وصل الدين بالدنيا، وكانت اليهودية والنصرانية تفصلان بينهما، فالأولى كان همها الصفق والاجتراح،

والأخرى كان سبيلها الرهبانيه والتنسك، ولكن الإسلام جعل الدين للدنيا كالروح للجسد، فلا تعمل إلا بوحيه، ولا تسير إلا بهديه، ثم آخى بين المؤمنين ليجتمعوا على صدق المودة ويتعاونوا على لأواء العيش، فلا يبغي قوي، ولا يبخل غني، ولا يظلم متسلط.

بدأ ذلك بالتأليف بين الأوس والخزرج، والمؤاخاة بين الأنصار والمهاجرين، ثم توثقت عرى الإخاء بين المجاهدين في سبيل الله حتى صار المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا، وأصبح هؤلاء القلال الضعاف في بضع سنين أئمة للناس وورثة لكسرى وقيصر.

كذلك فى سبيل الوحدة الإسلاميه والأخوة الإسلامية، فرض الإسلام الزكاة وشرع الحج، وأمر بالإحسان والبر، ثم سوى بين الناس على اختلاف ألسنتهم وألوانهم في الحقوق والواجبات بمحو العصبية الوطنية، وقتل النعرة الجنسية، وجعل التقديم والتكريم للتقوى، فقال الرسول الكريم فى خطبة الوداع: «إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لادم وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى».

المسلمون وحدهم هم الذين يفهمون الإنسان بمعناه الصحيح، لأنهم أتباع محمد، ومحمد وحده هو الذي أعلن حقوق الإنسان بهذا المعنى لأنه رسول الله، والله وحده هو الذي ألهم رسوله هذه الحقوق لأنه أرسله رحمة للعالمين كافة.. أرسله رحمة للذين استضعفوا في الأرض لقلة المال كالمساكين، أو لفقد العشير كالموالي، أو لضعف النصير كالأرقاء، أو لطبيعة الخلقه كالنساء، فكفل الرزق للفقير بالزكاة، وضمن العز للذليل بالعدل، ويسر الحرية للرقيق بالعتق، وأعطى الحق للمرأه بالمساواة.

والمستضعفون الذين رحمهم الله برسالته ممن لم يكونوا من جنس مبين، ولا من وطن معين، إنما كانوا أمة من أشتات الخلق، وأنحاء الأرض، اجتمع فيها العربي والفارسي، والرومي والتركي، والهندي والصيني، والبربري والحبشي - على شرع واحد هو الإسلام، وتحت تاج واحد هو الخلافة، والإسلام الذي

يقول شارعه العظيم ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ (الإسراء: ٧٠) لم يخص بالتكريم لون دون لوناً، ولا طبقة دون طبقة، إنما ربا ببني آدم جميعا أن يسجدوا لحجر أوشجر أو حيوان، وأن يخضعوا مكرهين لجبروت كاهن أو سلطان.

وفي هذه الأصول الإسلاميه - كما ترى - أفضل ما بالديمقراطية، وأجمل ما بالمدنية، فهي حرية أن تصلح ما فسد من أمور الناس، وتقيم ما اعوج من نظام الدنيا. ولقد كانت كذلك يوم كان لحملتها دولة، ولدعاتها صوت، ولمعتنقيها يقين، فلما دالت الدولة وخضع الصوت، وأراب اليقين، تمزق المسلمون قطعانا في فدافد الأرض، لا مرعى يجود، ولا حظيرة تؤوي، ثم كانوا بتخلفهم عن ركب الحياة حجة على الإسلام في رأي السفهاء من مرضى الهوى أو الجهل، فصموا عن دعائه، وعموا عن ضيائه، فليت شعري متى يتاح لدعوة محمد من يجدد حبلها وينشر فضلها، ويقول لأولئك الذين يحاولون أن يرفعوا قواعد العالم على أساس جديد ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝١٥ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (المائدة: ١٥-١٦).

من تراثنا الأدبي

العدد (١٤٤) ذو الحجة (١٣٩٦هـ) ديسمبر (١٩٧٦م).

على رأس الكتاب المبرزين في عالم الأدب والبيان، الكاتب الكبير المرحوم أحمد حسن الزيات. صاحب مجلة «الرسالة» التي كانت تصدر في القاهرة أسبوعيا، وكان لها أكبر الأثر في نشر الوعي الأدبي والثقافي في العالم العربي والإسلامي.

وقد جمعت مقالات الأستاذ الزيات في كتاب مستقل (من وحي الرسالة) وقد جاء فيه المقال التالي:

وعدتك يا خالد أن أقص عليك حديث الرجل السعيد بخلقه ودينه عسى أن تجد فيه ما يبرد غيظك ويبرد حلمك ويقر بالك وهأنذا اليوم أسوق إليك هذا الحادث على سرده:

دخل علي هذا الرجل وأنا مكب على عمل دقيق حافز فلم يسعني حين رأيت ما عليه من سمت الوقار وسيما الخير إلا أن أدع ما في يدي وأتفرغ له.

نعم يا سيدي-!

أنا رجل من أهل.. قرأت ما كتب في «الرسالة» عن الأخلاق ونكولها أمام الغرائز الوصولية في الإنسان فساءني -وأيم الله- أن تشتبه المعالم حتى يضل الهادي، وأن تعترك الظنون حتى يشك المؤمن وأليس لي قلم أضعه بين هذه الأقلام فيدلها على موضع الحق أو يعينها على مقطع الحكم فآثرت أن أشخص إليك لأكون أمامك مقالا حيا يقرر ودليلا ناطقا يؤيد.

وفي الحق أن الرجل كان في بزته العربية المهندمة ولهجته الطبيعية المتزنة كأنما ينطق عن وحي الفضيلة العليا فقلت له: أتظن أن الفاضل ينجح بمحض فضله في هذا العصر الآلي الأصم؟

فقال: لا أظن وإنما أعتقد، لا أنكر مع هذا الاعتقاد أن الفضيلة وعرة الطريق وأن الخير صعب المرتقى وفي قول الرسول الكريم: «حفت الجنة بالمكاره».

و«القابض على دينه كالقابض على الجمر» ما يصدق ذلك ولكن الفضائل تعليم وتعويد ورياضة فإذا أوقف غرسها في النشء وضعف أثرها في المجتمع دل ذلك على فشل التربية لا على فشل الفضيلة أنا رجل واسع الثراء سابغ النعمة.

وقد جمعت مالي الوفر من ذلك الطريق السوي الذي ألزمني إياه أبي منذ الصغر فليس في نصابه قرش زائف ولا متر مغتصب. ورثت عن أبي الدين الصحيح على أنه دستور الدنيا والخلق الصريح على أنه جوهر الدين ثم زاولت التجارة بالصدق والصبر فاستغنيت واقتنيت العمائر والضياع فأثريت وأديت الصلاة فوصلت ما بيني وبين الله وآتيت الزكاة فأصلحت ما بيني وبين الناس ثم أحصنت نفسي بالزواج الباكر فوهبت البنين وعصمت شهوتي من المتع الحرام فرزقت العافية وطهرت قلبي من الطمع الحاسد والخصام الحاقد فأوتيت السكينة ثم جهلت البنك فجعلت الربا والدين وأنكرت المحكمة فأنكرت العداوة والظلم ووضعت فضل مالي في أيدي ذوي الخلق من التجار يحفظونه لي ويستثمرونه لهم وجعلت أرضي في ذوي الدين من الزراع يريعونها علي ويستغلونها عليهم وسست بالمؤاساة والرحمة قلوب البائسين حولي فسللت منهم الضغينة ثم كان لي في كل مبرة سهم وفي كل مستشفى سرير وفي كل مشروع وطني يد. فأنا أمشي في الناس ملحوظ الشهادة محفوظ الغيب لا تمتد يد إلى مالي لأنه مبذول للسائل والمحروم، ولا ينبسط لسان في عرضي لأن جاهي موقوف على المتعطل والمظلوم، ولا يأتمر أحد بحياتي لأن وجودي أمان للشقي من البؤس والجريمة، أما سعادتي في نفسي وولدي فهي أعظم وأتم من سعادتي في عملي ومالي، أجدني كنف الرجاء لكثير من الأسر الفقيرة ومصدر العزاء لطائفة من القلوب

الكسيرة وأرى في كل نظرة وفي كل بسمة وكل كلمة معاني لا تتناهى من العرفان والحنان والشكر فتعظم سعادتي في نفسي وتجمل دنياي في عيني ويغمرني شعور من عزة المؤمن وزهو الخاشع لأن حياتي لها هذا الخطر في حياة بعض الناس. ثم أنظر إلى بني الثمانية فأرى في وجودهم صورتي وفي صدورهم محبتي وفي شعورهم عاطفتي وفي ميولهم رضاي وفي آمالهم مناي فأقبل يدي ظاهرا وباطنا وأقول لنفسي: احمدي الله يا نفسي واشكريه فإن عليا لن يموت، وإن ثراءه لن يبيد، وإن بناءه لن يتقوض!

ذلك كله يا سيدي بفضل الخالق فإذا كان قد تهيأ لمثلي على جهلة بقواعد المدنية وضروريات العلوم أن يجمع بمعونة الله وحده هذه الثروة الضخمة وليس له رأس مال من إرث ولا فيض من رزق حكومة وأن ينال هذا الجاه العريض وليس له نسب عريق في أسرة ولا سبب وثيق إلى سلطان وأن يخلق من حوله هذا النعيم المقيم فيغرق فيه أهله وعشيرته وبيئته وأن يرفع بناء الأخلاق الفاضلة في بنيه بالتربية وفي أهله بالقدوة وفي مواطنيه بالتقليد فكيف لا يستطيع معلمو المدرسة ووعاظ المسجد ومشرعو البرلمان أن يخلقوا في كل مكان هذه البيئة وتلك الجنة فيصلح المجتمع ويسعد العالم!

فقلت له وقد أعجبني عقله وأمتعني حديثه: يا سيدي إن من سعادتك وسعادة الناس بك أنك صاحب عمل لا صاحب علم وأنك رجل عزيمة لا رجل رأي فلو كنت من كهنة العلم لصعدت إلى قدس الأقداس وظلت تقرأ الفلسفة والأخلاق لرياضة العقل أو للذة المعرفة أو لشهوة الجدل ثم رميت الناس من عليا سمائك بالآراء المتعارضة والأحكام المتناقضة لتصطرع في المطابع حينا ثم تموت في الكتب.

لايزال المربون يا سيدي يجادلون في أغراض التربية ويجربون نظرياتها المختلفة في حقولهم الخاصة، فليت شعري وشعرك أيتاح لهؤلاء في دهر من الدهور أن يفيضوا على أعته الأمم ويتولوا القيادة في ركب الحياة؟ ادع الله للناس أن يلهمهم من الحق ما ألهمك وأن يعلمهم من قواعد الخير ما علمك؟

قال صاحبي الثائر خالد وقد شبا وجهه بشيء من الإيمان والاطمئنان: وهل نستطيع أن نعد كثيرا من الناس على غرار هذا الرجل؟ فقلت له يا صاحبي ليست المسألة مسألة إحصاء وعد، وإنما هي مسألة إمكان وواقع. ومتى ثبت أن الأخلاق الفاضلة استطاعت أن تصنع من هذا الرجل هذا المثال، فلم لا تستطيع أن تصنع على غراره ملايين الرجال؟

* * *

٥ مقالات

د. عبد الحليم محمود
شيخ الجامع الأزهر سابقا

❑ **ترجمة الشيخ.**

❑ **المقالات:**

١-الإسلام ومقومات الحضارة.

العدد (٢) صفر (١٣٨٥هـ) يونيو (١٩٦٥م).

٢- الرسول ﷺ وسنته الشريفة.

العدد (٢٣) ذو القعدة (١٣٨٦هـ)، فبراير (١٩٦٧م).

٣- الإسراء والمعراج.

العدد (٦٧) رجب (١٣٩٠ هـ) سبتمبر (١٩٧٠م).

٤- اقرأ باسم ربك.

العدد (٦٩) رمضان ١٣٩٠هـ - نوفمبر ١٩٧٠م).

٥- الوحدة الإسلامية.

العدد: (١٠٨) ذوالحجة (١٣٩٣هـ) ديسمبر (١٩٧٣م).

ترجمة الدكتور
عبد الحليم محمود



● **مولده:**

ولد في ٢ جمادى الأولى ١٣٢٨هـ الموافق ١٢ مايو ١٩١٠م، بقرية أبوأحمد مركز بلبيس بمحافظة الشرقية. نشأ في أسرة كريمة مشهورة بالصلاح والتقوى.

التحق بالأزهر سنة ١٩٢٣م حصل على العالمية سنة ١٣٥١هـ - ١٩٣٢م ثم سافر إلى فرنسا حيث حصل على الدكتوراه في الفلسفة الإسلامية، ثم عمل مدرسا لعلم النفس بكلية اللغة العربية بكليات الأزهر ثم عميدا لكلية أصول الدين، وعضوا ثم أمينا عاما لمجمع البحوث الإسلامية فنهض به وأعاد تنظيمه، عُين وكيلا للأزهر سنة ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م فوزيرا للأوقاف وشيخا للأزهر.

له أكثر من ٦٠ مؤلفا في شتى المجالات، بعضها بالفرنسية، من أشهر كتبه: أوروبا والإسلام، والتوحيد الخالص أو الإسلام والعقل، وأسرار العبادات في الإسلام، والتفكير الفلسفي في الإسلام، والقرآن والنبي.

● **وفاته:**

توفي الشيخ في صبيحة يوم الثلاثاء الموافق (١٥ ذو القعدة ١٣٩٧هـ - ١٧أكتوبر ١٩٧٨م) تاركا ذكرى طيبة ونموذجا لما يجب أن يكون عليه شيخ الأزهر.

الإسلام ومقومات الحضارة

العدد (٢) صفر (١٣٨٥هـ) يونيو (١٩٦٥م)

إن الحضارة السليمة هي الحضارة التي استكملت جميع مقوماتها، ولا خلاف بين ذوي الآراء المستنيرة في أن مقومات الحضارة الأساسية إنما ترجع إلى أربعة: العلم، ومما لا شك فيه أنه لا يتأتى أن تقوم حضارة من دون علم. والعلم إذن هو الأساس الأول الذي تبنى عليه الحضارات، بل إنه قد تقوم حضارة ما على العلم وحده، فيكون العلم هو المقوم الوحيد لهذه الحضارة، ولكنها تكون حضارة ناقصة، بل تكون حضارة بتراء.

والمقوم الثاني للحضارة الذي لا تقل أهميته عن أهمية العلم، والذي إذا وزنا الأمور بمقاييس الروح وقسناها بموازين إسعاد الإنسانية، يفضل العلم المادي، هو الجانب العقدي.

والعقيدة إذن هي المقوم الثاني للحضارة، فإذا ما انتفت العقيدة، وزالت فقامت الحضارة على العلم وحده، فإن الإنسانية تشقى بها شقاء لا يعوضه ما تجد من ترف مادي يكفله لها العلم المادي.

بيد أن العقيدة إذا ما أصبحت شكلا ورسمًا، أو صورة وهيكلا، فإنها لا تفيد كثيرا في أن تسم الحضارة بسمة الروح الحقة، أو تطبعها بطابع الإنسانية الكريمة.

ولابد إذن من الجانب الثالث وهو الأخلاق، وما من شك في أن الأخلاق من دون عقيدة، لا تقوم لها قائمة، وإنما تكون سفسطة، لا غناء فيها، أو فلسفة جدلية، لا تنبع من القلب، ولا تثبت أمام تيارات الأهواء.

إن الرحمة والإخاء، وإن المودة والتعاون، وإن الشجاعة والكرم، وإن

الفضيلة على وجه العموم، وإن الخير في صوره المتعددة، إن كل ذلك لا يكون وليد دراسات فلسفية ولا نتاج جدل كلامي.

والأخلاق التي تكون مقومة للحضارة إذن، مؤثرة على القلب، غامرة للكيان الإنساني، إنما هي الأخلاق الدينية، فإذا ما انفصلت الأخلاق عن الدين، فإنها لا تساوي، في موازين الرحمة والأخوة، أو بتعبير أدق في عالم القلوب والأرواح، قلامة ظفر.

إن الإنسان لا يخضع في سلوكه الأخلاقي للفلسفة، وهي متعارضة مختلفة، وهي تذهب في الشرح والتعليل والتوجيه كل مذهب، وهي تنقض اليوم ما أبرمته بالأمس، وتنقض غدًا ما أبرمته اليوم.

إن الفلسفة - هكذا وجدت، ونمت وتطورت، واستمرت - متأرجحة، لا دوام لها على رأي، ولا استقرار لها على حال.

وإذا كانت العقيدة التي نعنيها ويعنيها المصلحون، كمقوم للحضارة، إنما هي عقيدة من وحي السماء، فإن الأخلاق التي نعنيها والتي يعنيها المصلحون المخلصون إنما هي من وحي السماء.

أما المقوم الرابع، فإنه التشريع العادل، والتشريع العادل، هو التشريع الذي يلم واضعه بظروف الإنسان وطبيعته وفطرته إلمامًا كاملا، فيصدر التشريع على علم تام، ولا يتأتى ذلك لبني البشر، وتشريع بني البشر- حسبما شاهد المشاهدون- لا يقود الناس للخضوع له عن طواعية واختيار، بل يقودها للطاعة رهبة القانون، وهي كلما آنست من نفسها استطاعة الفرار من طائلة القانون أخلت به، وكلما آنست من نفسها المقدرة على هدم أسوار القانون هدمته.

ولابد إذن من تشريع تنقاد له الإنسانية طواعية واختيارًا وهو التشريع الإلهي.

العلم، والعقيدة، والأخلاق، والتشريع.. تلك هي مقومات الحضارة السليمة، وكل حضارة لا تتوفر فيها هذه المقومات، فإنما هي حضارة ناقصة بمقدار نقص مقوماتها.

فلننظر الآن في الإسلام في ذاته، وفي الإسلام من خلال التاريخ حتى نتبين

مدى تضمنه لهذه المقومات، ومدى تحقيقه لها على مر الزمن، مقارنين كل ذلك بالحضارة الحديثة.

ونبدأ بالعلم، ولا ريب في أن الحضارة الحديثة، بدأت في قوة جارفة بمنهجين في العلم يختلفان ويتعارضان ويتنازعان، أحدهما المنهج الحسي التجريبي، أو المنهج البيكوني، والثاني المنهج العقلي البدهي، أو المنهج الديكارتي أو المنهج الحدسي حينما نفسر الحدس كما فسره المناطقة بأنه انتقال الذهن إلى المطلوب بسرعة.

وكل من المنهجين نشأ معارضا لمنهج القياس الأرسطي، وكل منهما يرى أن القياس الأرسطي إنما يعنى بالصورة والشكل، ولا شأن له بالحقيقة والجوهر، بل ولا شأن له بالواقع والتطبيق، ومن أجل ذلك سمي بالمنطق الصوري: أي منطق الصورة لا الجوهر.

والمنهج البيكوني هو منهج علمي، أما المنهج الديكارتي فإنه منهج فلسفي.

وسنتحدث عن منهج ديكارت، إن شاء الله، حينما نتحدث في مقال تالٍ عن العقيدة. أما الآن فسنقصر الحديث على المنهج التجريبي.

إنه منهج الاستقراء أي تتبع الجزئيات عن طريق التجربة فيما يمكن أن يخضع للتجربة، وعن طريق الملاحظة فيما لا يتأتى أن يخضع للتجربة للوصول إلى الحكم عليه في صورة من صورها حكما كليا أو - بعبارة أخرى - للوصول إلى اكتشاف القوانين العامة، أو للوصول إلى معرفة نواميس الكون.

ومجال الاستقراء إنما هو الطبيعة، لأنه ملاحظة جزئيات في عالم الطبيعة، وأداته الحس، فهو ملاحظة محسوسات.

وعلى أساس من هذا المنهج قامت الحضارة الأوروبية الحديثة بكل ما فيها من صناعة في الطبيعة ومن اكتشافات في الكيمياء، ومن قوانين فلكية، ومن اختراعات في جميع المجالات المادية والحسية.

وعلى أساس من هذا المنهج أيضا ستتطور هذه الحضارة وترقى وتتسع كمًّا وكيفًا إلى ما شاء الله.

وهذا المنهج في المشهور المتعارف يدين في وجوده إلى فرنسيس بيكون، ولكنه عند الدارسين لتاريخ الفكر الأوروبي يدين لروجر بيكون، أكثر مما يدين لغيره، والملاحظون الدارسون للعلوم يرون أن روجر بيكون كان أدق وأعمق في بيان المنهج وفي تطبيقه.

بيد أن روجر بيكون - على خلاف مواطنيه - يعترف في صراحة لا لبس فيها، وفي وضوح لا شائبة فيه، أنه مدين في منهجه للعرب وللحضارة العربية.

وهذه الحقيقة التي حاول الغربيون جاهدين أن ينكروها ويخفوها فيما مضى، يعلنها الآن بعض المنصفين منهم، فها هو ذا الأستاذ بريفولت يتحدث في كتابه: «بناء الإنسانية» عن أصول الحضارة الغربية فيقول: إن روجر بيكون درس اللغة العربية، والعلم العربي، والعلوم العربية، في مدرسة أكسفورد، على خلفاء معلميه العرب في الأندلس.

وليس لروجر بيكون ولا لسميه الذي جاء بعده الحق في أن ينسب إليهما الفضل في ابتكار المنهج التجريبي، فلم يكن روجر بيكون إلا رسولا من رسل العلم والمنهج الإسلاميين إلى أوروبا المسيحية، وهو لم يملّ قط من التصريح بأن تعلم معاصريه للغة العربية وعلوم العرب هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقة.

والمناقشات التي دارت حول واضعي المنهج التجريبي هي طرف من التحريف الهائل لأصول الحضارة الأوروبية.

وقد كان منهج العرب التجريبي في عصر بيكون قد انتشر انتشارا واسعا، وانكب الناس في لهف على تحصيله في ربوع أوروبا.

ويقول بريفولت أيضا: «لقد كان العلم أهم ما جادت به الحضارة العربية على العالم الحديث، ولكن ثماره كانت بطيئة النضج».

إن العبقرية التي ولدتها ثقافة العرب في أسبانيا لم تنهض في عنفوانها إلا بعد مضي وقت طويل على اختفاء تلك الحضارة وراء سحب الظلام.

ولم يكن العلم وحده هو الذي أعاد إلى أوروبا الحياة، بل إن مؤثرات

أخرى كثيرة من مؤثرات الحضارة الإسلامية بعثت باكورة أشعتها إلى الحياة الأوروبية[١].

أخذت أوروبا المنهج العلمي المادي عن الإسلام باعتراف واضع هذا المنهج نفسه، وباعتراف المنصفين من المؤرخين، وليس بعد اعتراف واضع المنهج نفسه مقالا لقائل.

ومع ذلك، فإن المنهج الإسلامي أكمل وأتم وأشمل، وقد أخذته أوروبا ناقصا. وفي المقال التالي، إن شاء الله، سنتحدث عن موقف الإسلام من العلم وعن المنهج العلمي في الحضارة الإسلامية في عمومه وشموله.

وبالله التوفيق

(١) انظر كتاب «التجديد الديني في الإسلام» للدكتور إقبال، ترجمة الاستاذ عباس محمود .

الرسول ﷺ وسنته الشريفة

العدد (٢٣) ذوالقعدة (١٣٨٦هـ) فبراير (١٩٦٧م)

يقول الله تعالى لرسوله الكريم ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ (سبأ: ٢٨).

وما كانت هذه الرسالة العامة لأحد من الرسل من قبله، فموسى عليه السلام أرسل لبني إسرائيل خاصة، فاقتصرت دعوته عليهم لدرجة أنه حينما ذهب هو وهارون، عليهما السلام، إلى فرعون قال له ﴿فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ ٤٧﴾ (طه: ٤٧)، فموسى ذهب إلى فرعون ليرسل معه بني إسرائيل، ولم يكافح سيدنا موسى الشعوب، أو الأمم في سبيل دعوته.

وعيسى عليه السلام إنما أرسل إلى «خراف بني إسرائيل الضالة» على حد تعبيرهم القديم، ولم يحاول سيدنا عسيى أن يبشر بدعوته خارج فلسطين، ويجاهد من أجلها.

أما رسول الله ﷺ فإنه أرسل إلى الناس جميعا.

أرسل إلى الناس جميعا من حيث المكان، وأرسل إليهم جميعا من حيث الزمان، فهو الرسول الدائم، زمانا ومكانا، ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٥٨﴾ (الأعراف: ١٥٨) ولقد امتزج رسول الله ﷺ برسالته الخالدة، فكان هو هي، تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: «لقد كان خلقه القرآن».

وهذه الكلمة من السيدة عائشة، رضوان الله عليها، تحتاج إلى تحديد وبيان، ذلك أن الأخلاق القرآنية تحدد الخلق الكريم في حده الأدنى، ثم لا تقتصر على ذلك وإنما ترسم القمم من مكارم الأخلاق، وتوجه إلى السنام منها، وتقود إلى المشارف العليا من درجات المقربين.

والقرآن يحدد الدرجة التي وصل إليها الرسول من الخلق القرآني، فيقول سبحانه لرسوله ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ (القلم: ٤).

وهذه الآية القرآنية تحدد درجة الأخلاق القرآنية التي وصل إليها الرسول ﷺ، إنها ذروتها وسنامها، ولقد قال صلوات الله وسلامه عليه:

«إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

إنه ﷺ بعث ليتمم المكارم الأخلاقية، ليتممها بذاته، بسلوكه، وليتممها بقوله، برسالته، إنه لم يبعث ليبشر بالأخلاق وحسب، وإنما ليتمم مكارمها. ومكارم الأخلاق لا يحدها- من حيث التبشير بها - مكان، ولا يحدها زمان، بل ولا يحدها عالم من عوالم الله في الأرض أو السماء، ومن أجل ذلك كانت رسالته صلوات الله عليه وسلامه رحمة للعالمين، كما يقول الله تعالى ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ (الأنبياء: ١٠٧) ورسول الله ﷺ، لأنه يمثل الأخلاق القرآنية في ذروتها وسنامها، جعل الله، سبحانه وتعالى، له مكانة خاصة بين المسلمين، فهو صلوات الله وسلامه - لأنه تمثل القرآن وحققه- أصبح بذلك يمثل الحق بقوله، ويمثل الحق بعمله، فلا ينطق عن الهوى ولا يعمل بالهوى.

ويقول الله تعالى له معبرا عن هذه الحقيقة أروع تعبير:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ (الشورى: ٥٢-٥٣)، ويقول الله تعالى لرسوله ﷺ ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾ (الأنعام: ١٦١) بل إن طريق الدعوة نفسه كان صلوات

الله وسلامه عليه يسير فيه معصوما. ودعوته وطريق دعوته يسير فيهما على هدى وعلى نور من ربه. ولذلك فإن ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾﴾ (النساء: ٨٠).

ويعمم الله سبحانه الحكم تعميما، ويطلقه إطلاقا فيقول سبحانه: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾﴾ (الحشر: ٧) ويقول الله تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾ (النور: ٥٤).

واتباع الرسول ﷺ سبب في محبة الله تعالى لمن يتبعه ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ (آل عمران: ٣١) إن حب العبد لله لا يفيد ما لم يتخذ العبد الوسيلة الناجحة لذلك، وهذه الوسيلة هي اتباع رسول الله ﷺ.

ولقد قال الله سبحانه وتعالى في حديث قدسي رواه الإمام البخاري: «من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذ بي لأعيذنه».

وهذه النوافل التي ذكرت في الحديث القدسي الشريف، والتي إذا أكثر الإنسان منها بعد أداء الفرائض أحبه الله، إنما هي سلوك رسول الله ﷺ، إنها طريق رسمه - صلوات الله عليه وسلامه- بقوله وبعمله، إنها سنته - صلوات الله وسلامه عليه- التي سنها، لينال الإنسان بها محبة الله سبحانه.

ولقد أحب الله سبحانه رسوله، وكان هذا الرسول ﷺ بعبوديته لله سبحانه حبيب الله. وبلغ الرسول - صلوات الله عليه وسلامه- بعبوديته التامة درجة أول المسلمين، وكان حبيب الله ونبيه ورسوله، ميزه الله سبحانه وتعالى على بقية البشر بكونه خيرهم، وهذا التمييز لا يخرجه - صلوات الله وسلامه عليه - عن البشرية فهو

بشر، وهو خير البشر، ومن أجل أنه خير البشر، يقول الله تعالى مخاطبا المؤمنين: ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ (النور: ٦٣).

إن الإنسان الذي خصه الله بالوحي، واجتباه لرسالته، واصطفاه ليكون - باسمه سبحانه - بشيرا ونذيرا، إن هذا الإنسان الذي فضله الله على العالمين يجب أن نعرف له مكانته وننزله في الشرف الذي أنزله الله فيه.

إن هذا السراج المنير والرؤوف الرحيم ينبغي ألا يُدعى كما يُدعى زيد وعمر (بمعنى: لا تنادوه باسمه فتقولوا: يا محمد، ولا بكنيته فتقولوا: يا أبا القاسم، بل نادوه وخاطبوه بالتعظيم والتكريم، بأن تقولوا: يا رسول الله، يا نبي الله، يا إمام المرسلين، يا رسول رب العالمين، يا خاتم النبيين، وغير ذلك) واستفيد من هذه الآية - كما يقول الشيخ الصاوي في حاشيته على تفسير الجلالين، أنه لا يجوز نداء النبي بغير ما يفيد التعظيم، لا في حياته، ولا بعد وفاته.

فبهذا يعلم أن من استخف بجنابه ﷺ، فهو كافر ملعون في الدنيا والآخرة. ويقول الله سبحانه في أوائل سورة الحجرات: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾﴾ (الحجرات: ١) أي لا تتقدموا بأمر من الأمور، قولا كان أو فعلا، إلا إذا أذن الله ورسوله، وكل أمر، قولا كان أو فعلا، أتاه الإنسان من دون إذن الله ورسوله، فإنه لا يقع على السنن المستقيم، يقول الضحاك: «هو عام في القتال وشرائع الدين، أي لا تقطعوا أمرا من دون الله ورسوله» ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾﴾ (الحجرات: ١) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾﴾ (الحجرات: ٢) فإنكم إذا فعلتم ذلك يخشى عليكم ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾﴾ (الحجرات: ٢)

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾﴾ (الحجرات: ٣).

أما هؤلاء الذين أساءوا الأدب، فأخذوا ينادونك من وراء الحجرات مناداة

الأعراب الأجلاف، في غلظة وفي جفاء فإنهم ناقصو العقول.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾ (الحجرات: ٤-٥) على أن مجرد الرغبة في الحديث إلى رسول الله ﷺ يحتاج تنفيذها إلى تقديم صدقة. يقول الله تعالى في سورة المجادلة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ (المجادلة: ١٢) وتدل الآية الكريمة على أن ترك تقديم الصدقة فيه شيء، لأن من لم يجد الصدقة فإن موقف الله سبحانه منه- لعدم قدرته - المغفرة والرحمة، ولا تكون المغفرة والرحمة إلا على إثم أتاه الإنسان، وكان عدم توفر الاستطاعة سببا في مغفرة الله سبحانه.

﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾﴾ (المجادلة: ١٣).

وإذا حملكم خوف الفقر على ألا تفعلوا، وإذا قادكم الضعف الإنساني على ألا تنفذوا ذلك، ثم ندمتم واستغفرتم، فتداركوه حتى يتوب الله عليكم، وأثبتوا حسن نيتكم، وصفاء سريرتكم، بأن تقيموا الصلاة على الوجه الأكمل وتؤتوا الزكاة طيبة بها نفوسكم، وتطيعوا الله ورسوله في الصغير والكبير، وما من ريب في أن الله سبحانه خبير بكل ما تعملون. يقول الله تعالى: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾﴾ (المجادلة: ١٣).

وبعد، فيقول رسول الله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر».

ويقول الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾﴾ (الاحزاب: ٤٥-٤٧) تلك هي مكانة الرسول ﷺ عند الله، فهل هي كذلك عند البشر؟

* * *

الإسراء والمعراج

منهج الإيمان والحكمة في رحلة الحياة

العدد (٦٧) رجب (١٣٩٠ هـ) سبتمبر (١٩٧٠م).

أخرج الإمام أحمد والشيخان عن أنس عن مالك بن صعصعة أن النبي ﷺ، حدثهم عن ليلة أسري به، وكان مما قال في هذا الحديث الصحيح: أن جبريل عليه السلام شق عن صدره، واستخرج قلبه الشريف، ثم «أتيت بطست من ذهب مملوءة إيمانا وحكمة، فغسل قلبي، ثم حشي ثم أعيد».

وأخرج الشيخان من طريق يونس عن الزهري عن أنس قال:

كان أبو ذر يحدث أن رسول الله ﷺ قال: «فرج سقف بيتي وأنا في مكة فنزل جبرائيل ففرج صدري ثم غسله بماء زمزم ثم جاء بطست ملئ حكمة وإيمانا، فأفرغه في صدري ثم أطبقه».

● **ثم بدأت الرحلة**

● **وكان أول مشهد شهده رسول الله ﷺ**، هو مشهد قوم يزرعون في يوم ويحصدون في يوم، كلما حصدوا عاد كما كان، فقال النبي ﷺ: «يا جبرائيل ما هذا؟ قال: هؤلاء المجاهدون في سبيل الله تضاعف لهم الحسنة بسبعمائة ضعف، وما أنفقوا من شيء فهو يخلفه».

وأول مشهد إذن بعد امتلاء القلب حكمة وإيمانا، هو مشهد الجهاد، وما من شك، في أن القلب إذا امتلأ إيمانا وحكمة، فإن الجهاد يصبح في أوائل ما يحافظ عليه من شعارات

١- جهاد النفس لتتزكى، وتزكية النفس لا حد لها، والصفاء لا نهاية تحده. وكلما سما الإنسان في الصفاء درجة استشرف إلى أسمى منها.

وكلما سما قرب من الله أكثر، والقرب من الله لا نهاية له، وهذا القرب هو

غاية المؤمنين، ومن وقف منه عند حد معتقدا أن هذا هو نهاية المطاف فإن هذا يكون دليلا على أن همته ليست بهمة السابقين السباقين.

٢- وجهاد الأسرة حتى تستقيم، والله سبحانه وتعالى يقول ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦﴾ (التحريم: ٦).

ووقاية الأهل من النار، هو جهادهم حتى يستقيموا ويمتنعوا عن الوقوع في المعصية، فذلك هو وقايتهم من النار.

٣- وجهاد المجتمع ليكون مجتمعا مؤمنا، وهذا الجهاد عنصر هام من عناصر خيرية الأمة الإسلامية، والله سبحانه وتعالى يقول ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ﴾ (آل عمران: ١١٠)

ويقول سبحانه ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٧٩﴾(المائدة: ٧٨-٧٩) ورسول الله ﷺ يقول، فيما رواه الترمذي وأبوداود: «والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا منه، ثم تدعونه فلا يستجاب لكم».

ويقول صلوات الله وسلامه عليه في جهاد المجتمع: «ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون، وأصحاب يأخذون بسنته، ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل».

٤- ومن أسمى أنواع الجهاد جهاد العدو بالسلاح واللسان والمال، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ١٥﴾ (الحجرات: ١٥).

وأخرج الإمام مسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من مات

ولم يغز، ولم يحدث نفسه بغزو، مات على شعبة من النفاق».

ولقد أخرج الشيخان عن الصحابي الجليل، أبي ذر الغفاري ﷺ قال: قلت: يا رسول الله، أي الأعمال أفضل؟

قال: «الإيمان بالله والجهاد في سبيله».

ولقد اهتم الإسلام بأمر الجهاد بحيث جعله شعار كل مسلم، وأحاطه بعناية بالغة.

لقد بين الله سبحانه أن الاستئذان في التخلف عن الجهاد يتنافى مع الإيمان، بل يتعارض معه، بل ينتفي الإيمان عند التخلف مع القدرة.

يقول تعالى: ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ (التوبة: ٤٤-٤٥).

وموالاة الأعداء كفر، يقول سبحانه ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ (المجادلة: ٢٢).

ولقد وصل الأمر في عقاب التاركين للجهاد أن ينذرهم رسول الله ﷺ إنذارا شديدا، فعن أبي بكر ﷺ، فيما رواه الطبراني بإسناد حسن، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ترك قوم الجهاد إلا عمهم الله بالعذاب».

وإذا انتهى الجهاد إلى الاستشهاد، فالمصير الجنة والقرب من الله، وفي القرآن الكريم، والأحاديث الشريفة أروع وأجمل تصوير لمكانة الشهيد في الآخرة.

يحدث ابن كثير أن رسول الله ﷺ، لما رأى جابر بن عبدالله مهتما لاستشهاد أبيه في غزوة أحد قال له مطمئنا ومبشرا: «ألا أخبرك ما قال الله لأبيك؟، فقال جابر: قلت بلى، قال: ما كلم الله أحدا قط إلا من وراء حجاب، وإنه كلم أباك

كفاحا (والكفاح المواجهة).

قال: سلني أعطك. قال: أسالك أن أرد إلى الدنيا فأقتل فيك ثانية، فقال الرب ﷻ: إنه قد سبق مني القول بأنهم إليها لايرجعون، قال: «أي رب فأبلغ من ورائي». (أي أبلغهم بهذه النعمة الكبرى التي يتقلب فيها الشهيد في الجنة)، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾ (آل عمران: ١٦٩-١٧١).

فالشهيد سعيد باستشهاده، ويتمنى أن لو أعيد إلى الدنيا مرة أخرى، ليكون شهيدا من جديد. ومن الأحاديث أيضا أن حارثة بن سراقة قد استشهد في غزوة بدر فأتت أمه - وهى بنت البراء - رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، ألا تحدثني عن حارثة، فإن كان في الجنة صبرت، وإن كان غير ذلك، أجتهد عليه في البكاء؟ فقال ﷺ: «يا أم حارثة إنها جنان في الجنة، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى».

هذا هو الجهاد الذي رأى رسول الله ﷺ، مشهده أول ما رأى من مشاهد بعد أن ملئ قلبه الشريف حكمة وإيمانا.

أما الآية الكريمة التي يقول عنها صاحب الكشاف: «ولا ترى ترغيبا في الجهاد أحسن ولا أبلغ من هذه الآية»، فهي ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ (التوبة: ١١١).

يقول صاحب الكشاف: ولا ترى ترغيبا في الجهاد أحسن ولا أبلغ من هذه الآية، لأنه أبرزه في صورة عقد عاقده رب العزة، وثَمنُه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

ولم يجعل المعقود عليه كونهم مقتولين فقط، بل إذا كانوا قاتلين أيضا لإعلاء

كلمته، ونصر دينه.

وجعله مسجلا في الكتب السماوية وناهيك به من صك، وجعل وعده حقا ولا أحد أوفى من وعده فنسيئه أقوى من نقد غيره.

وأشار إلى ما فيه من الربح والفوز العظيم، وهو استعارة تمثيلية، صور جهاد المؤمنين، وبذل أموالهم وأنفسهم فيه، وإثابة الله لهم على ذلك الجنة بالبيع والشراء.

وأتى بقوله: ﴿يُقَٰتِلُونَ﴾ بيانا لمكان التسليم وهو المعركة وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «الجنة تحت ظلال السيوف»[1].

ثم أمضاه بقوله ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٦٤﴾ (يونس: ٦٤)

وبعد.. فإن منهج الإيمان والحكمة في حياة المؤمنين وفي رحلة الحياة يبدأ بالجهاد.

● **وأما المشهد الثاني الذي رآه ﷺ**، بعد مشهد المجاهدين فهو مشهد تاركي الصلاة يقول الحديث الشريف: «ثم أتى على قوم ترضخ رؤوسهم بالصخر، كلما رضخت عادت كما كانت ولا يفتر عنهم من ذلك شيء فقال: ما هؤلاء يا جبريل؟

قال: هؤلاء الذين تتثاقل رؤوسهم عن الصلاة المكتوبة».

وهذا المشهد يتناسق وينسجم مع مشهد آخر رآه رسول الله ﷺ فيما يراه النائم، يقول رسول الله ﷺ: «... فانطلقت فمررت على ملك وأمامه آدمي، وبيد الملك صخرة يضرب بها هامة الآدمي، فيقع دماغه جانبا، وتقع الصخرة جانبا».

ولما سأل ﷺ عن ذلك، قيل له «أولئك الذين كانوا ينامون عن صلاة العشاء الآخرة، ويصلون الصلوات لغير مواقيتها، فهم يعذبون بها حتى يصيروا إلى النار».

والصلاة في الإسلام لها أهميتها الكبرى.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد، وفي باب: «الجنة تحت بارقة السيوف» عن عبد الله بن أبي أوفى.

ولأهمية الصلاة في الجو الإسلامي كانت لها مقدمات منها الطهور، أي الوضوء، وقد قال عنه رسول الله ﷺ إنه شطر الإيمان، فقد أخرج الإمام مسلم عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن (أو تملأ) ما بين السموات والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها».

ومن مقدمات الصلاة الأذان، ولقد كان للأذان مشهد في رحلة الإيمان والحكمة.

فقد روى زيد بن علي بن الحسين عن أبيه عن جده عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأخرجه ابن مردويه وأبو نعيم من طريق محمد ابن الحنفية «أن رسول الله ﷺ، شاهد فيما شاهده ملكا يخرج من وراء حجاب ويقول: الله أكبر، الله أكبر، فنودي من وراء حجاب: صدق عبدي أنا أكبر، فقال الملك أشهد أن لا إله إلا الله، فنودي من وراء الحجاب: صدق عبدي أنا الله لا إله إلا أنا، فقال الملك: أشهد أن محمدًا رسول الله، فنودي من وراء الحجاب: صدق عبدي أنا أرسلت محمدًا رسولا، فقال الملك: حي على الصلاة، حي على الفلاح، فنودي من وراء الحجاب: صدق عبدي، ودعا إليَّ عبادي، فقال رسول الله ﷺ: فيومئذ أكمل الله لي الشرف على النبيين والمرسلين والأولين والآخرين». وما من شك في أن كتب السنة، وكتب السيرة استفاضت في كيفية ابتداء المسلمين في التفكير في الإعلام بالصلاة، وأنهم تداولوا الأمر فيما بينهم واستقر الرأي على الأذان في صورته الراهنة، وذلك عن طريق رؤيا رآها صحابي جليل، وأيده فيها برؤيا أخرى سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعن بقية الصحابة أجمعين، ويكون الأذان إذن قد بشر به في الملأ الأعلى قبل إلهامه عن طريق الرؤى، في عالم المُلك.

هذا بعض مقدمات الصلاة إعلانا عن أهميتها.

وأهمية الصلاة آتية من أنها تذكر بالله، وتنهى عن الفحشاء والمنكر، يقول

سبحانه ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ (العنكبوت: ٤٥)، ويقول رسول الله ﷺ فيما رواه الطبراني في الأوسط بإسناد لا بأس به، عن عبدالله بن قرط رضي الله عنه «أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة، فإن صلحت صلح سائر عمله، وإن فسدت فسد سائر عمله». وروى الأئمة مالك وأبوداود، والنسائي وابن حبان في صحيحه، عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خمس صلوات كتبهن الله على العباد، فمن جاء بهن ولم يضيع منهن شيئا استخفافا بحقهن كان له عند الله عهد أن يدخله الله الجنة، ومن لم يأت بهن فليس له عند الله عهد، إن شاء عذبه وإن شاء أدخله الجنة»، وفي رواية لأبي داود، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خمس صلوات افترضهن الله، من أحسن وضوءهن وصلَّاهن لوقتهن، وأتم ركوعهن وسجودهن وخشوعهن، كان له على الله عهد أن يغفر له، ومن لم يفعل فليس له على الله عهد إن شاء غفر له وإن شاء عذبه».

ومما لاشك فيه أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وأنها بذلك تقرب من الله سبحانه وتعالى حتى لقد أطلق عليها الصالحون أنها معراج المؤمنين إلى الله، ومثل بعضهم القيام فيها بين يدي الله بالإسراء إلى بيت المقدس والركوع فيها بالعروج إلى السماء، والسجود فيها بالقرب من الله سبحانه وهو القائل ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ١٩﴾ (العلق: ١٩)، ورسول الله ﷺ يقول: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد».

وينصح صلوات الله وسلامه عليه بالدعاء في السجود لمكانة القرب من الله سبحانه وتعالى، بيد أن الصلاة التي ثمرتها ذلك إنما هي الصلاة التي استكملت الشروط، وشروطها ذكرها القرآن في ثلاثة جوانب:

أ - إقامتها.

ب - المحافظة عليها.

جـ- الدوام عليها.

ومما قاله القرآن في وصفه المؤمنين ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ

قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ (الأنفال: ٢-٤) ويقول سبحانه (البقرة: ٢٣٨)، ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾ (البقرة: ٢٣٨)، ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ (المعارج: ١٩-٢٣) وإقامة الصلاة، أداؤها على الوجه الكامل بقدر الاستطاعة، وذلك أنه حينما ينطق بتكبيرة الإحرام ويكون بذلك قد دخل في الصلاة فإنه يجب عليه أن ينفصل عن كل ما سوى الله سبحانه، أي ينفصل عن الأهل والمال والجاه والوظيفة، ينفصل عن كل ما يشغل كيانه عن الله سبحانه، وذلك تحقيق لقوله، الله أكبر، فمادام هو الأكبر - وقد نطق بذلك المصلي - فعليه أن ينصرف إليه وحده لا يشغله عنه دنيا ولا هوى، لا يشغله عنه المال والبنون.

والصلاة المقامة هي الصلاة التي استكملت الخشوع، يقول سبحانه ﴿۞ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾﴾ (المؤمنون: ١-٢)، الصلاة المقامة هي الصلاة التي يشعر فيها المصلي أنه بين يدي الله، ويشعر فيها بمعاني أم الكتاب التي لا تنفد معانيها، والتي تذكر الإنسان بحمد الله على نعمه، وبرحمة الله العامة الشاملة، وتذكره بيوم الحساب، وتعلمه أنه سبحانه مختص بالعبادة ومختص بالاستعانة ثم الدعاء بالهداية الذي يقول الله سبحانه وتعالى عند طلبه: «هذا لعبدي ولعبدي ما سأل».

ثم يركع متواضعا، والسجود منتهى التواضع، ومن أجل ذلك كان منتهى القرب من الله سبحانه وتعالى، أما المحافظة على الصلاة فإنها أداء الصلاة في أول الوقت، وأول الوقت رضوان الله، ووسطه رحمة الله، وآخره مغفرة الله.

أما الدوام على الصلاة، فإنه معنى من أجمل المعاني، إنه الاستمرار في جو الصلاة، في جو الصلة بالله، فالصلاة صلة بين العبد وربه، وهذه الصلة يجب أن تدوم سواء أكان الإنسان في الصلاة بالفعل أم لم يكن فيها واقعيا.

فإذا أقام الإنسان الصلاة وحافظ عليها، وداوم على الشعور بجوها فإنها تنهاه عن الفحشاء والمنكر وتقربه من الله سبحانه وتعالى. يقول الإمام القشيري: سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: إن نبينا، عليه الصلاة والسلام، أتى للأمة بالمعراج على التحقيق، فإن الصلاة لنا بمنزلة المعراج، وقد كان المعراج له، عليه الصلاة والسلام، ثلاثة منازل من الحرم إلى المسجد الأقصى ثم إلى سدرة المنتهى ثم منها إلى قاب قوسين، فكذلك لنا الصلاة ثلاثة منازل، القيام، ثم الركوع، ثم السجود، وهي نهاية القرب قال الله تعالى ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۝١٩﴾ (العلق: ١٩).

وبعد، فإن الصلاة قد فرضت والرسول ﷺ أقرب ما يكون من ربه، إنها فرضت وهو في مقام قاب قوسين أو أدنى.

وهذا المقام ينتهي في فضل الله وفي كرمه بـ «أدنى» أي أدنى من «قاب قوسين» في هذا المقام أوحى الله إلى عبده ما أوحى، وكان فيما أوحاه سبحانه الصلاة التي جعلها صلة بين العبد وربه والتي جعلها مفزعا للعبد في كل ما أهمه، وقد كان رسول الله ﷺ كلما حزبه أمر يفزع إلى الصلاة.

● **أما المشهد الثالث الذي رآه ﷺ** في رحلة الإيمان والحكمة أو في منهج الإيمان والحكمة أو في حياة الحكمة والإيمان فهو مشهد يتعلق بالزكاة.

«ثم أتى على قوم على أقبالهم رقاع وعلى أدبارهم رقاع يسرحون كما تسرح الإبل والغنم، ويأكلون الضريع والزقوم، ورضف جهنم وحجارتها، قال: ما هؤلاء يا جبرائيل؟ قال: هؤلاء الذين لا يؤدون صدقات أموالهم وما ظلمهم الله شيئا».

ولقد أخذت الزكاة، فيما بعد، الحظ الكافي من الاهتمام، ولكن موضوع المال على وجه العموم أخذ منذ ابتداء الإسلام وطيلة نزول الوحي حظا يتناسب مع مكانته في المجتمع، ومع صلته بالنفس صلة وثيقة من حيث توفيره لكل ما تطلبه الحياة من رغبات ضرورية كانت أو كمالية.

وقبل أن نتحدث عن نظرة الإسلام للمال على وجه العموم نتعجل فنذكر

مشاهد أخرى خاصة بالمال حتى نستكمل المشاهد الخاصة بالمال:

● الربــــا

أ- جاء في رواية أبي سعيد الخدري عن البيهقي وفي رواية أبي هريرة عن ابن أبي حاتم «. . . فإذا أنا بأقوام بطونهم أمثال البيوت كلما نهض أحدهم خر، فيقول: اللهم لا تقم الساعة، وهم على سابلة آل فرعون، قال: فتجيء السابلة فتطؤهم، قال: فسمعتهم يضجون إلى الله، قال: قلت يا جبريل من هؤلاء؟ قال هؤلاء من أمتك ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ﴾ (البقرة: ٢٧٥).

ب- أخرج ابن مردويه عن سمرة بن جندب قال: قال رسول الله ﷺ «رأيت ليلة أسري بى رجلا يسبح في نهر يلقم الحجارة، فسألت من هذا؟ فقيل لي: هذا آكل الربا».

جـ- «. . . قال ثم رأيت رجالا لهم بطون لم أر مثلها قط، يعرضون على النار لا يستطيعون أن يتحولوا من مكانهم ذلك، فقلت: يا جبريل من هؤلاء؟ فقال: هؤلاء أكلة الربا».

د- ولقد مثل آكل الربا له ﷺ، في رؤية منامية على الوجه الآتي يقول: «فمضيت فإذا أنا بنهر من دم يفور كفوران المرجل، وعلى حافتي النهر ملائكة بأيديهم نار، كلما طلع طالع قذفوه بها، فيقع في فيه، فيشتعل إلى أسفل ذلك النهر».

فلما سأل ﷺ عن تفسير ذلك قيل له «أما النهر الذي رأيت يفور كفوران المرجل، فيه قوم عراة على حافة النهر فأولئك الذين أكلوا الربا فهم يعذبون به حتى يصيروا إلى النار»[(١)].

● آكل مال اليتيم

١- «. . . ثم مضيت هنيهة فإذا أنا بأقوام مشافرهم كمشافر الإبل، فتفتح أفواههم ويلقمون حجرا ثم يخرج من أسافلهم، فسمعتهم يضجون إلى الله قلت يا

---

(١) المعراج للقشيري ص ١٤.

جبرائيل: من هؤلاء؟ قال: هؤلاء من أمتك ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ (النساء: ١٠) (١).

ب - قال: «ورأيت رجالا لهم مشافر كمشافر الإبل في أيديهم قطع من النار كالأنهار يقذفونها في أفواههم فتخرج من أدبارهم، فقلت: من هؤلاء ياجبرائيل؟ فقال هؤلاء أكلة أموال اليتامى ظلما».

والآن نبدأ بإلقاء الضوء على موقف الإسلام بالنسبة للمال:

إنه أولا: ملك لله يمنحه سبحانه لمن يشاء في سعة أو في قلة حسبما تقتضيه حكمته، إنه ملك لله يستخلف عليه من يشاء من عباده، فالمالك في الإسلام مستخلف فيما يملك إذا كان يسمى المستخلف مالكا.

يقول سبحانه ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾﴾ (الحديد: ٧)

ويقول تعالى ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ (النور: ٣٣)

إن المال مال الله، والعبد مستخلف فيه، والمالك لم يترك الأمر بدون قواعد، وإنما وضع القواعد الكثيرة، ونتحدث عن هذه القواعد دون ترتيب معين.

من هذه القواعد، أن هذا المال وإن كان لله، فإنه ليس حقا مشاعا لكل الناس، وإنما المالك يمنح من شاء ما شاء. ويحرم حرمة تامة أن يعتدي إنسان على آخر فيأخذ من المال بغير وجه حق.

وحرمة المال كحرمة النفس وحرمة العرض، ورسول الله ﷺ، يقول في خطبة الوداع «... إنما أموالكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، اللهم هل بلغت اللهم فاشهد».

ومن مات دون ماله فهو شهيد.

وآخذ المال بغير وجه حق يصل به الأمر إلى قطع يده.

وفي الصحيحين عن عروة عن عائشة أن قريشا أهمهم شأن المرأة التي سرقت في عهد النبي ﷺ، في غزوة الفتح، فقالوا: من يكلم فيها رسول الله ﷺ؟

---

(١) الخصائص ج١ ص ٩١٤ .

فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حِب رسول الله ﷺ، فأتي بها رسول الله ﷺ، فكلمه فيها أسامة بن زيد فتلون وجه رسول الله ﷺ، فقال: «أتشفع في حد من حدود الله ﷻ» فقال له أسامة: استغفر لي يا رسول الله، فلما كان العشي قام رسول الله ﷺ فاختطب فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال: «أما بعد، فإنما أهلك الذين من قبلكم، أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وإني والذي نفسي بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها».

ومن القواعد الهامة، أن في المال حقوقا.. إن فيه الزكاة، والزكاة حارب عليها سيدنا أبو بكر رضي الله عنه، يروي الإمام البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما توفي رسول الله ﷺ، وكان أبو بكر رضي الله عنه، وكفر من كفر من العرب، فقال عمر رضي الله عنه: كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قالها فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله»؟

فقال أبو بكر: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ، لقاتلتهم على منعه.

فقال عمر رضي الله عنه: فو الله ما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق» (متفق عليه).

ولكن الزكاة ليست هي الحق الوحيد في المال، فالله سبحانه وتعالى يقول ﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ۝١٩﴾ (الذاريات: ١٩).

ويقول سبحانه ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ۝٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ۝٢٥﴾ (المعارج: ٢٤-٢٥).

وهذه الآيات عامة هدفها إشعار المؤمنين بأن في المال- من أي نوع كان- حقا يجب أن يؤدى.

• وفي المال حق أداء الصدقة

يقول تعالى ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾﴾ (البقرة: ٢٦٥).

ويقول سبحانه ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾﴾ (البقرة: ٢٧١)

ويقول تعالى ﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾﴾ (ابراهيم: ٣١).

ويقول سبحانه ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾﴾ (الحديد: ٧).

ومن القواعد قاعدة مزدوجة تتمثل في قوله تعالى ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْـَٔاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ (الليل: ٥-٢١).

والجانب الأول من هذه القاعدة المزدوجة، أو الوجه المشرق منها هو أن من استجاب لله ورسوله في المال، فإن الله سبحانه وتعالى ييسره لليسرى، واليسرى هنا معنى من المعاني التي تتضمن الكثير من الخير، إنها تتضمن ما يعبر الله عنه بقوله ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ (سبأ: ٣٩)

وتتضمن ما يعبر الله عنه بقوله ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ

أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ (البقرة: ٢٦١-٢٦٢).

أما الجانب الثاني من هذه القاعدة المزدوجة فإنه إنذار للبخيل بأن عاقبة بخله ستعود عليه وهو أن الله سيجعل خطواته كلها «عسرى» قلق نفساني وشح مادي، وقد عبر الله سبحانه عن بعض ذلك بقوله ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾ (محمد: ٣٨).

وبعد، فإن من أجمل المشاهد التي رآها رسول الله ﷺ في رحلة الحكمة والإيمان، هذا المشهد الذي نختتم به هذا المقال.

أخرج ابن ماجه والحكيم الترمذي في نوادر الأصول وابن أبي حاتم، وابن مردويه من طريق يزيد ابن أبي مالك عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ «رأيت ليلة أسري بي مكتوبا على باب الجنة الصدقة بعشر أمثالها والقرض بثمانية عشر، فقلت لجبريل: ما بال القرض أفضل من الصدقة؟

قال: لأن السائل يسأل وعنده، والمستقرض لا يستقرض إلا من حاجة».



اقرأ باسم ربك..

العدد (٦٩) رمضان ١٣٩٠هـ - نوفمبر ١٩٧٠م)

محاضرة ارتجلها الدكتور عبد الحليم محمود وكيل الأزهر في الموسم الثقافي الذي أقامته وزارة الأوقاف والشؤون والمقدسات الإسلامية في شهر رمضان الماضي نقلها وأعدها: عبد المعطي بيومي

آية من كتاب الله حددت موقف الإسلام من قضايا الفكر العالمية في صراحة وحزم وسمو. . وتضمنت رسالة الإسلام الشاملة عقائد وأخلاق وعبادات (قدمها في زهاء ساعة ونصف في عشية ليلة من ليالي الإشراق الروحي فضيلة الدكتور المحاضر في أسلوب سهل، راق رائق).

قال فضيلته: الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب.

ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا.

وبعد:

فإن موضوع هذا الحديث أول آية نزلت من القرآن الكريم ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾ (العلق : ١) والآية لها ألفاظ ولها جو وسنتحدث عن ألفاظها وعن جوها بقدر الطاقة البشرية مستعينين بالله متوكلين عليه.

● **القرآن والعلم:**

وأول ما يلاحظ أن تبتدئ الآية الكريمة بـ﴿ٱقْرَأْ﴾ فهي من أول الأمر ولأول لحظة موجهة إلى الجانب العلمي، والواقع أن الأمة الإسلامية الآن في هذه

النهضة لابد لها من العلم أساسا تقوم عليه فإذا انحرفت عن هذا الأساس فانها لا تقوم على أساس سليم ولا على أساس صحيح.

ومنذ البدء كان للإسلام حملة قوية في سبيل حث المسلمين على العلم، وان الآيات لتتوالى بعد ذلك حاثة على العلم، محبذة له، آمرة به: حتى ليصل الأمر فيما يتعلق بموقف الإسلام من العلم أن يتلمسه الرسول عليه الصلاة والسلام من ربه ﴿رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (طه: ١١٤) و﴿رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ شعار العالم المسلم الحق: ﴿رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ في كل لحظة في كل ساعة.. في كل يوم، والشعار الإسلامي هو أن من استوى يوماه في الجانب العلمي فهو مغبون ومن لم يصل إلى زيادة في الجانب العلمي فهو إلى نقصان.

بل إن الأمر ليصل إلى أن الله سبحانه وتعالى يرفع العلماء إلى أسمى مرتبة إيمانية: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ﴾ (آل عمران: ١٨) فقد شهد أولو العلم في هذه الآية الكريمة مع الله وملائكته التوحيد: شهدوا أن لا إله إلا هو، وشهادة التوحيد أسمى مراتب الإيمان، والواقع أن العلماء يصلون إلى هذه المرتبة لأنهم يرون من حكمة الله ما لا يراه غيرهم.. فعلماء التشريح يرون الإبداع المبدع لإتقان المتقن.. يرون هذه الحكمة الحكيمة في صنع الله سبحانه وتعالى فيخرون للأذقان سجدا له وحده، كذلك فإن علماء الفلك يرون هذه السعة الشاسعة في الكون كما يرون تنظيمه وتنسيقه ودقة جريان أفلاكه ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝٤٠﴾ (يس: ٤٠) يرون هذه الدقة فيخرون له موحدين في أسمى شعور أيماني.

نعم.. إنها قمة الإيمان: شهادة التوحيد تلك التي يشهدها العلماء مع الله والملائكة. وللإيمان منها مراتب منها أقول: لا اله إلا الله. أو أنطق: لا اله إلا الله. أو اقتنع: بأن لا إله إلا الله. أو أومن بأن لا إله إلا الله. أو أعتقد أن لا إله إلا الله وكل هذه المراتب هي دون المرتبة الأخيرة وهي أشهد أن لا إله إلا الله.

ولقد أعلن الله سبحانه وتعالى أن هذه المرتبة الأخيرة - شهادة التوحيد ينالها

العلماء المقتدون بالله وملائكته في هذه الشهادة، ولن تجد في مجالات الآداب العالمية شرقية ولا غربية إشادة بالعلم أكبر من هذه الإشادة أو أسمى من هذه الإشادة.

وإذا قصرت الأمة الإسلامية في تحصيل العلم فهي مقصرة في تحصيل أسمى مراتب الإيمان وإذا قصرت في الجانب العملي فهي مقصرة في المنهج الذي دعا إليه سبحانه وتعالى وحث عليه أول كلمة من القرآن «اقرأ».

● **أي علم؟**

ولكن ما هو العلم المقصود الذي دعا إليه سبحانه وأشاد به رسوله؟ إنه العلم على وجه العموم. العلم بالكون. العلم بالطبيعة. العلم بالفلك. العلم بالكيمياء. كما إنه العلم بالتفسير والفقه وبغير ذلك من علوم الدين.. إنه العلم على إطلاقه المطلق!

هذه الدعوة إلى العلم بين فيها رسول الله ﷺ قيمة العلماء أيضا، يقول عليه الصلاة والسلام: «من سلك طريقا يبتغي به علما سهل الله له طريقا إلى الجنة، وان الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع وان العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء.. وفضل العالم على العابد (وانظروا هنا التشبيه والقياس. فضل العالم على العابد لا يشبه رسول الله ﷺ ولا يقرن في التمثيل العالم وصاحب المنصب أو العالم والثري وإنما العالم والعابد) وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر..» هذه هي الدعوة الإسلامية إلى العلم.

● **بدعة تعارض الدين مع العلم:**

وهنا يأتي سؤال من أين هذه البدعة الشائعة التي يروجها كثير من الملاحدة عن تعارض الدين والعلم، هل يتأتى حقيقة - والأمر كذلك - أن يكون هناك تعارض بين الإسلام والعلم؟ ولنتبصر الأمر قليلا ما هو العلم الذي يقولون إنه متعارض مع الدين؟ إنه العلم بمعناه الحديث، وكلمة العلم بالمعنى الحديث

تعني: القواعد والقوانين التي اتخذت أساسا لها التجربة والملاحظة. إذن العلم الذي يعنونه ميدان الكون.. الطبيعة.. العالم المحسوس.. عالم المادة.. ومادام الأمر كذلك فلا يتأتى مطلقا أن يكون هناك تعارض بين عالم الألوهية عالم الإيمان.. عالم الأخلاق.. عالم التوحيد.. عالم العقائد.. وبين العالم الذي مجاله محدود بالمادة والحس، فان دائرة الدين ودائرة المادة والحس مختلفتان، فلا يتأتى أن يكون هناك تعارض.. فكيف نشأت إذن فكرة التعارض بين الدين والعلم؟.

الواقع أنها لم تنشأ في ربوع الإسلام بل ولم تنشأ في الشرق وانما نشأت في أوروبا، والسبب بسيط ومعروف عند كل من درس تاريخ الفكر في أوروبا.

في يوم من الأيام في العصور الوسطى تبنت الكنيسة أراء أرسطو في الطبيعة وما وراء الطبيعة واتخذت هذه الآراء قاعدة ومقياسا ومقدسا من المقدسات وأرسطو شخصية بشرية تخطئ وتصيب فلما بدأت النهضة وقامت على أساس الملاحظة والتجربة بدأت ترى أن طبيعة أرسطو.. كيمياء أرسطو.. أخلاق أرسطو كل ذلك منهار، وبدأ العلماء يبرهنون على انهيار نظريات أرسطو في الطبيعة وغيرها وكان كل عالم يحاول الخروج على فكر أرسطو كانت الكنيسة تنكل به، تبعث به إلى السجن، تعذبه على أي وضع من الأوضاع، وكانت هناك محاكم التفتيش تنكل بكل من خرج على آراء أرسطو، و آراء ارسطو التي يمكن بسهولة هدمها والتي تنهار في يسر إنما هي الآراء في الطبيعة والكيمياء والفلك، ولم يكن عند أرسطو الوسائل التي تمكنه من الإجادة فيما يتعلق بعالم الكون، عالم المادة، عالم المحسوس، فأخفق في كل خطواته وكان انهياره في عصر النهضة تاما شاملا، ولكن العلماء لم يكفوا: كانوا يبرهنون على أخطاء أرسطو في عالم المادة. وشاعت فكرة التعارض بين الكنيسة والعلماء، وانتهت هذه الفكرة بأن صارت - بعد تحريفها- تعارضا بين الدين والعلم، وتناقلها الأوربيون، وأسبابها معروفة في أوروبا ثم كان هناك هؤلاء الببغاوات في الشرق الذين يريدون أن ينقلوا كل ما في الغرب إلى الشرق، والذين يعتقدون أن البيئة

الشرقية هي البيئة الغربية تماما بتمام في جوها الفكري وفي جوها الروحي والإيماني.. وأخطأوا فليس هناك تعارض بين الدين والعلم وليس هناك تعارض بين العلم والإسلام على وجه الخصوص.

● هدف القراءة في الإسلام:

وننتهي بذلك من كلمة «أقرأ» ويأتي بعد ذلك ﴿بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾، إنه لم يقل اقرأ وينهي الأمر وإنما قيدها، قيدها لا في مجالها ولا في موضوعها ولم يقيدها في السماء ولا في الأرض ولا فيما بينهما وإنما قيدها في النوايا.. في الأهداف والغايات، قيدها بأن تكون باسم ربك وقد يقرأ الإنسان ويقول: أقرا باسم المصلحة العامة وأكثر الناس يقرأون باسم المصلحة العامة، وقد يقرأ الإنسان باسم ملك أو باسم الوطن وهؤلاء جميعا يختلفون ويتعارضون وهم وإن اختلفوا وتعارضوا فانهم يقرأون جميعا باسم الوطن أو الملك أو المصلحة العامة أو إلى غير ذلك من الأمور، وليست هذه هي القراءة الإسلامية إن القراءة في الإسلام لا تكون باسم المصلحة شخصية أو عامة، وإنما يجب أن تكون القراءة باسم ربك.

● «اقرأ» رمز لكل عمل:

وكلمة القراءة هنا رمز فلا يعني القرآن أبدا في «اقرأ باسم ربك» القراءة وحسب، وإنما يعني بـ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ رمزا لكل ما يمكن عمله في الحياة، اعمل باسم ربك، قم باسم ربك، تحرك باسم ربك، نم باسم ربك، لتكن حياتك حركة وسكونا قولا وعملا فعلا وتركا ليكن كل ذلك باسم ربك والآية التي نفسر ذلك بعض التفسير قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝١٦٣﴾ (الأنعام: ١٦٢- ١٦٣) فالصلاة والنسك والحياة بأكملها بل والممات أيضا لله رب العالمين، يجب أن يكون كل ذلك لله رب العالمين وفي سبيل الله رب العالمين أو يجب أن يكون كل ذلك «باسم ربك».

ومهما تعددت أنواع الأعمال في الحياة ومهما تعددت أصناف الأقوال فالمسلم مادام قد دخل في الإسلام ومادام قد عقد مع الله بيعة الإيمان فإن حياته

كلها يجب أن تكون باسمه تعالى. فـ«اقرأ» رمز إذن . . تعلم أو اعمل أو امتنع عن العمل، وإذا عملت فيجب أن يكون عملك باسم ربك وإذا امتنعت عن العمل فلا بد أن يكون الامتناع أيضا باسم ربك.

وإذا كانت اقرأ في جانب الإيجاب وإذا كانت ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ في جانب الإيجاب أيضا فإن هناك آيات في جانب السلب مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ (الأنعام: ١٢١) وكل ما لم يذكر اسم الله عليه فإنه فسق.

الإيجاب والسلب الحركة والسكون والأقوال والأعمال والصمت كل ذلك يجب أن يكون باسم ربك. . ونأتي بعد ذلك إلى ﴿اسْمِ رَبِّكَ﴾

● التربية الآلهية في إطار الإسلام:

كنا نعتقد أن تأتي أول كلمة في القرآن قائلة باسم ربك «الله» لأن كلمة الله هي الكلمة التي تنطوي على كل الأسماء والصفات الإلهية إنها الكلمة التي تتضمن جميع المعاني، ولكن الله سبحانه وتعالى لم يقل اقرأ باسم الله وإنما قال: اقرأ باسم ربك، ولم يعبر الله سبحانه وتعالى بـ«ربك» مصادفة أو اعتباطا، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، وأعمال الله سبحانه وتعالى أعمال حكيمة والمعنى هنا: اقرأ باسم المربي أو اقرأ باسم التربية الإلهية: إذا دَخلتَ في هذا النظام الذي يسمى الإسلام فوطن نفسك منذ البدء على أن تكون قراءتك وحياتك في إطار التربية الإلهية فإذا خرجت عن إطار التربية الإلهية فقد خرجت عن هذا النظام، اقرأ في إطار التربية الإلهية إيجابا أو سلبا، اقرأ في إطار التربية الإلهية قولا وعملا وحركة وسكونا، فإذا لم تفعل ذلك فلست داخلا أبدا في نطاق هذا النظام. . الإسلام.

● كيف تكون الثقافة باسم ربك؟

ونحن الآن في خضم من الثقافات الوافدة من الغزو الفكري كيف تكون القراءة باسم ربك؟ والواقع أن الإسلام فرق منذ البدء بين أمرين وأوجب أن تكون هذه التفرقة ظاهرة بين أعين المصلحين في الأمة الإسلامية: فرق بين مجال المادة

الكيمياء والطبيعة والفلك إلى آخر هذه النواحي، وبين مجال الثقافة النظرية البحتة، الثقافة التي تتصل بما وراء الطبيعة والأخلاق.

أما فيما يتعلق بالمادة: بناحية الحس، بغزو الفضاء، بالصواريخ، بالذهاب إلى القمر، بكل ما يتعلق بهذا الكون المادي بأرضه في أعماقها، ببحاره في أغوارها، بسمائه في فضائها الشاسع، بسمواته بالكواكب: فإن القرآن والإسلام أوجب علينا وجوبا أن نسخر كل ذلك. والله سبحانه وتعالى قد امتن علينا أن سخر لنا الأرض والكواكب والقمر فذكر كل ذلك صراحة وسخر لنا ما بين السموات والأرض فإذا أردنا الاستجابة لله سبحانه وتعالى فيجب أن نكون أول المسخرين للأرض والسماء وما بينهما من الشمس والقمر، يجب أن نكون من أوائل أو من أئمة الذين يكتشفون كل ذلك ويسيطرون على كل ذلك وإن نحن تأخرنا في جانب من هذه الجوانب فنحن آثمون دينيا ووطنية وعروبة وإسلاما وآثمون في حق أنفسنا باعتبارنا أمة من الأمم أو جنسا من الأجناس. هذا الجانب أوجبه الله سبحانه وتعالى وسماه المسلمون تسمية جميلة سموه «اكتشاف نواميس الله في الكون» وبينما الإسلام يوجب هذا الجانب فإنه يقف موقفا حاسما من الثقافة النظرية الدخيلة وفي هذا المجال يمكننا أن نذكر بعض القصص.

رأى رسول الله ﷺ سيدنا عمر رضي الله عنه يقرأ في صحيفة من التوراة فقال له ما هذا يا عمر؟ قال إنها صحيفة من التوراة، وإذا برسول الله ﷺ ينفعل ويخاطب سيدنا عمر بلهجة ليست هي لهجة الود المألوفة بين الرسول وعمر بل يقول له منتهرا: «أتتهوكون فيها يا ابن الخطاب؟ (يعني أتتشكون فيها في ملتكم ودينكم في شريعتكم؟)، والله لو كان موسى حيا لما حل له إلا اتباعي» مالكم تذهبون إلى التوراة أو إلى غير التوراة من الكتب وعندكم كتاب الله ويطيع سيدنا عمر مستجيبا لما حثه عليه رسول الله قائلا: «رضينا بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا».

وينتهي الأمر فيما يتعلق بالتوراة. وهناك صورة أخرى: حدث أن بعض الصحابة كانوا مع اليهود وهم يقرأون التوراة فتخشع الصحابة.. تقول الرواية

تخشع الصحابة أي خشعوا معتقدين أن التوراة - في أساسها- كتاب منزل من الله وإن كان قد حدث له تغيير أو تبديل فلم يحدث له ذلك في جملته.

وعلم الرسول ﷺ بذلك بمجرد تخشع صحابته لسماع التوراة فقرأ على الصحابة معاتبا ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ (العنكبوت: ٥١) ما بالهم يتخشعون للتوراة وعندهم كتاب الله سبحانه وتعالى؟ وينتهي الأمر بالصحابة إلى أن لا يفعلوا مرة أخرى مثل ذلك فإن الرسالة الإسلامية لها ذاتية معينة فإذا فقدت هذه الذاتية وانماعت في الثقافة والأمم الأخرى فان الأمة الإسلامية لا يصبح لها مبرر لوجودها لأن مبرر الوجود للأمة الإسلامية هي رسالتها وذاتية هذه الرسالة.

هذا هو الرسول ﷺ يبرهن للصحابة أن هدايتهم في رسالتهم وإن بقاءهم ووجودهم مرتهن ببقاء الرسالة فيجب ألا يكون هناك ما يلوث هذه الرسالة من قريب أو من بعيد حتى ولو كان توراة أو كان إنجيلا. يجب علينا أن نكون في إطار هذه التعاليم: اقرأ باسم ربك.. لا باسم أفلاطون ولا أرسطو ولا ديكارت ولا داروين ولا كارل ماركس وإنما باسم ربك.

• تقييم الثقافة البشرية العقلية:

هذه الثقافة البشرية الغازية ما وضعها في حقيقة الأمر؟! وحين نحاول أن نحدد وضعها في حقيقة لن نلجأ إلى رأينا الشخصي بل إلى حقائق التاريخ والواقع.

أما وضعها الحقيقي فهي متغيرة لا ثبات لها وفي كل يوم هناك «مُودة من المُودات» وكأي «مُوْدَة» تنشأ وتتطور وتعم ثم تأخذ في التقلص وتنتهي ليحل محلها «مودة» أخرى وتيار آخر وموجة أخرى، وكل شخصية من الشخصيات التي أثرت في التاريخ لها دور يبدأ وينتهي ولنأخذ مثلا شخصية من الشخصيات، لا نأخذها هي بالذات وإنما نأخذها كمثال، هناك مثلا (أوجست كونت) مؤسس علم الاجتماع أو الفيلسوف الأكبر في عهده فيما يتعلق بعلم الاجتماع، كادت فرنسا أن تؤلهه وكادت أوروبا جميعها أن تقدسه ثم لم يمض إلا قليل حتى انتهى

أوجست كونت وأصبحت آراؤه مجموعة من خرافات العهد الماضي لا قيمة لها في العهد الحاضر وكل شخصية على هذا المثل تنشأ وتتطور وتعم وينتهي الأمر بأن تندثر وتنهار وتزول وإذا أردنا أن نقول الحقيقة الخالصة فإنا نقولها، وعلى أرض صلبة: هذه الثقافة البشرية الغربية هي مجرد سوفسطائية.

حقيقة، إنهم يفرقون بين شخصيات كالسوفسطائية وبين شخصيات كديكارت مثلا لكن في حقيقة الأمر فإن هذه التفرقة ليست على أساس سليم. لماذا؟ لأنه - وهذه نقطة من أهم النقاط - في مجال الثقافة النظرية ليس هناك مقياس للحقيقة والخطأ، للصواب والوهم، للباطل والصدق، لقد حاول العلماء منذ العصر اليوناني إلى الآن أيجاد هذا المقياس فلم يمكنهم إيجاد المقياس العقلي للثقافة العقلية، المقياس الذي يفرق بين الحق والباطل وبين الصواب والخطأ لم يوجد للآن، حاول أرسطو إيجاده فيما سموه بالمنطق فلم يفلح وأخفق المنطق إخفاقا كاملا وقد حاول ديكارت إيجاده فأخفق.

ولقد أعلن ديكارت يوما أنه وجد المقياس وأشادت أوروبا بديكارت لأنه عثر على مقياس الحقيقة وأعلن ديكارت أيضا أنه سيؤلف مذهبا في الطبيعة وفيما وراء الطبيعة وسيؤلفه على هذا المقياس الذي وجده، وألف ديكارت مذهبه في الطبيعة وقبل أن تنتهي حياة ديكارت أعلن العلماء أن مذهب ديكارت في الطبيعة باطل.

وهكذا بقيت هذه الثقافة العقلية للآن في جميع أدوارها وعصورها ثقافة ظنية وكلما جاءت أمة لعنت أختها ولو كان في هذه الثقافة العقلية يقين لظهر ولو في موضوع واحد وتصوروا أن جميع قضايا الثقافة العقلية منذ أن نشأت في العصر اليوناني حتى الآن ليس فيها قضية واحدة اتفق عليها، وهذا شيء بديهي معروف ولكن هذا التعميم الذي أعممه قد لا يكون واضحا عند بعض العقول ولكنه شيء بديهي معروف عند مؤرخي الفكر.

● الفلسفة لا رأي لها:

ويمكن أن نقول ونحن من الصدق بمكان أن الفلسفة - والفلسفة هي قضايا عقلية بحتة - لا رأي لها في أي موضوع من الموضوعات ولا في أي قضية من

القضايا لأن كل موضوع من الموضوعات فيه رأيان أو عدة آراء فهناك في كل موضوع المنكر له والمثبت، فليس هناك موضوع واحد في قضايا الفلسفة أو فيما وراء الطبيعة والأخلاق إلا وفيه الرأي المثبت والرأي المنكر فالفلسفة في حقيقة أمرها لا رأي لها.

ومن أجل ذلك لا تطور فيها ولا تقدم بخلاف العلم المادي القائم على الأسس المادية لأن هناك التجربة التي تفرق بين الخطأ والصواب ومن أجل ذلك فإن كل عالم يأتي يبني على ما سبق إليه من سبقه، أما الفلاسفة فكل فيلسوف يأتي يهدم ما قبله من آراء ويبني آراء جديدة وهي من أجل ذلك لا تتطور، والفلاسفة أنفسهم هؤلاء الذين يبحثون فيما وراء الطبيعة والأخلاق يؤمنون بأن آراءهم ظنية لا ثبات لها.

وكل هذا يهدينا ويرشدنا إلى أنه يجب أن نقرأ باسم ربك، يجب أن تكون أخلاقنا وتشريعنا في إطار التربية الإلهية ومن هنا كانت الحكمة في عدم التعبير بـ «اقرأ باسم الله» والتعبير بـ«اقرأ باسم ربك» ونأتي الآن إلى قوله تعالى في الآية الكريمة: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾.

- **لماذا نقرأ باسم ربك:**

ويمكن أن يتساءل الإنسان.. ما هي الضرورة التي توجب أن أقرأ باسم ربي لا أقرأ باسم أفلاطون أو أرسطو وتأتي كلمة ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ كبرهان طويل عريض على ضرورة القراءة باسم ربك.. باسم الذي خلق والذي سوَّى والذي نسق كل خلية فيك ورتب كل ذرة في جسمك، اقرأ باسم الأعرف بك والأعرف بما يتناسب معك وهو الذي وضع لك هذه التربية، وهذا الذي خلق، تربية ليست تربية من لا يعرفك وإنما هي تربية الذي رتب وسوى ونسق فهو أعرف بك منك وأعرف بما يتناسب معك.

وهكذا فان ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ هي البرهان الذي يحسم الأمر في أن لا يقرأ باسم أفلاطون وأرسطو لأنهم بعيدون عنك بل هم بشر من البشر يخطئون ويصيبون ولكن ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ لا يتأتى أن يخطئ سبحانه وتعالى.. هذا هو الجو الذي نأخذه

من الألفاظ..

● **الصدق هو الجو العام:**

ونأتي بعد ذلك إلي الجو العام للآية أي أننا لن نتجه هنا إلي الألفاظ لفظا لفظا وانما نتجه إلي الآية بشكل عام لنتعرف على جوها العام.

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ إنها بدهيا تحمل الصدق في نفسها لا تحتاج مطلقا إلي مناقشة ولا مماراة فيما يتعلق بالصدق، يدعوك إلى أن تقرأ باسم ربك وإلى أن تتجرد لربك، لا يدعوك باسمه ولا باسم مصلحة وإنما يدعوك وقد تجرد من كل هذه النوازع المادية والنفسية وهو يدعوك أن تتجرد لله سبحانه وتعالى هذه الدعوة لا يمكن أن تكون خطأ لأنه ما الصواب حينئذ؟ إنها مجرد دعوة إلى أن تتجرد لله سبحانه وتعالى في حياتك ومن أجل ذلك فحين سمعها لأول وهلة وَرَقَةُ بن نوفل قال: هذا هو الناموس الذي أنزل على موسى وآمن بها من غير دليل لأن الجو العام يفضي إلى الصدق ويهدي إلى الحق ولا يمكن أن يتخلله باطل أو يغشاه كذب.

فالصدق إذن هو جو الآية الكريمة، الصدق أينما كانت وكنا؛ شرقا أو غربا قديما أو حديثا لا يتغير جو الآية بحسب الزمان أو بحسب المكان لا يمكن لمؤمن أيا كان أن يقول إن هذه الآية فيها كذب أو شبهة كذب وهي حين تحمل الصدق في نفسها تعتبر مرادفة لكلمة أخرى لا تحتمل إلا الصدق أيضا تلك الكلمة هي: «الإسلام»، الكلمة التي هي عنوان لهذا الدين فهي تحمل الصدق في نفسها لأنها تعبير موجز لقوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ وهذه تعبير موجز لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ (الأنعام: ١٦٣).

ذلك أن معنى الإسلام أن تستسلم لله سبحانه وتعالى، أن توطد نفسك على أن تكون في إطار التربية الإلهية.

إسلام.. اقرأ باسم ربك.. وتوحيد أيضا.. يتفق كل ذلك ويتطابق مع كلمة الدين، الخضوع لله، الاستسلام له، فالإسلام تسليم مطلق، سئل رسول الله ﷺ

ما هو؟ فقال: أن يسلم لله قلبك وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك، فإن يسلم لله قلبك، هذا هو معنى اقرأ باسم ربك وهذا هو الدين وهذا هو: قل أن صلاتي ونسكي. الخ.

والواقع أننا منذ المبدأ مباشرة في جو من الصدق إذا تدبره الإنسان فلا يتأتى الشك فيه أو المماراة.

● **مسألة وجود الله في الإسلام:**

وإذا كان الصدق جوا من أجواء الآية فهناك جو آخر ذلك أننا كنا ننتظر أيضا أن تبدأ الرسالة بالاستدلال على وجود الله ولكن الرسالة الإسلامية لم تبدأ بالاستدلال على وجود الله وإنما بدأت بأن افترضت سبحانه وتعالى موجودا لاشك في ذلك، وأما المشكلة الكبرى أو المهمة الأساسية للدين فهي أن تقرأ باسم ربك؛ أي أن تكون حياتك في إطار التربية الإلهية.

ومسألة وجود الله سبحانه وتعالى مسألة لم توجد قط قبل العهد اليوناني وقد كانت البشرية قبل العهد اليوناني لا تنكر وجود الله ولا تلحد فيه بل كانت بالعكس تعتقد في أكثر من إله. نزل آدم ﷺ بالتوحيد الخالص وانحرفت الإنسانية لا إلى الإنكار بل إلى التعدد فلما عم الإنكار وأوشك أن يعم نزل رسول مبشر بالتوحيد، وكل رسول كان مبشرا بالتوحيد وحينما تنتهي الحياة بالرسول يبدأ الانحراف في الإنسانية لا بإنكار وجود الله بل بالاعتقاد في أكثر من إله فينزل رسول ثالث وحكمة إرسال الرسل كانت في أساسها التبشير بالتوحيد وحينما تتصفح التوراة لا نجد فيها - حتى على وضعها الراهن - إثبات وجود الله كهدف من الأهداف فلم يكن وجود الله مشكلة حتى يكون إثبات له ثم جاءت قبل المسيحية الفلسفة اليونانية وحينما جاءت الفلسفة اليونانية كان الدين الذي عليه اليونان دينا خرافيا أسطوريا وذلك معروف ونشأ في هذه الفترة اليونانية القديمة كثير من الناس لم يرضوا بهذا الدين دينا فحاولوا أن يكونوا لأنفسهم دينا فبدأوا عقليا بإثبات وجود الله وجاءت المسيحية محررة منظمة للأمر ذاهبة إلى وضعها الصحيح وتركت خرافة أو أسطورة أو بدعة إثبات وجود الله وليس في الإنجيل محاولة من قرب

ولا من بعد فيما يتعلق بإثبات وجود الله، ولكن العقلية اليونانية التي أضرت بالبشرية كلها والتي سارت مع أديانها دائما منحرفة بها إلى الوضع البشري بدل أن تتبع هذا السمو الذي أحبه الله للإنسانية بقوانينه وقواعده كانت العقلية اليونانية تنحرف بالإنسانية إلى أن تتلوث أفكارها بالبشرية بالعقلية البشرية الغير معصومة والتي تخطئ وتصيب وقد انحرفت المسيحية إلى الوضع الذي أصبحت فيها مسألة وجود الله مشكلة يجب الاستدلال عليها.

وجاء القرآن وذهب بالإنسانية إلى الوضع الصحيح مسألة وجود الله فهي مسألة فطرية وليست من مسائل المناقشة أو الجدل أو الاستدلال بل إن وجود الله في القرآن من القداسة بحيث لا يوضع موضع الجدل ولا موضع المناقشة ولا موضع الاستدلال، ليس هناك هدف في القرآن هو إثبات وجود الله، هناك مثلا هدف في القرآن هو إثبات رسالة الرسول ﷺ، إثبات صدق الرسول ﷺ، وهناك آيات كثيرة بهذا الصدد وآيات كثيرة في إثبات التوحيد صراحة أو ضمنا وبكل وسيلة من وسائل الإثبات تلك أهداف من أهداف القرآن لكن تجرَّد القرآن تماما من هدف إثبات وجود الله إذ لا يتأتى مطلقا أن يضع الله نفسه مسألة وجوده موضع استدلال لأن الاتجاه إلى الاستدلال ينطوي في ثناياه على أن الأمر الآخر - وهو الإنكار - محتمل، ولا يتأتى أن يضع الله مجرد وجوده لا صفة من صفاته موضع مناقشة واستدلال للأخذ والرد ومن أجل ذلك لم يكن هناك في أول آية نزلت من القرآن محاولة لهذا الإثبات.

ثم حينما بدأ الرسول ﷺ يعلن الإسلام ويجهر به لم يبدأ بإثبات وجود الله وإنما بدأ بالأسلوب الصحيح القويم.. التحدي بصدقه.. إثبات أنه صادق، هل عهدتم علي كذبا؟ أعلنوا جميعا أنهم لم يعهدوا عليه من كذب قط، وأنه كان صادقا طول حياته. وكان من المنطق حين أعلنوا عن صدقه أن يؤمنوا بما جاء به لكنهم لم يؤمنوا لأسباب كثيرة تحدث عنها القرآن منها مثلا: التنافس القبلي. الرسول ﷺ لم يحاول إثبات وجود الله، ولكن من الغريب أيضا أنك إذا تصفحت العهد المكي لا تجد سؤالا وُجِّه لرسول الله ﷺ عن إثبات وجود الله ولا تجد

الرسول ﷺ يتحدث عن هذا الإثبات وإذا انتقلنا إلى عهد سيدنا أبي بكر وعمر وعثمان وعلي لا نجد المسألة تطرح على بساط البحث وإذا سرنا إلى عهد الأمويين حتى عند نشوء المعتزلة في آخر عهد الأمويين والمعتزلة سموا أنفسهم أهل العدل والتوحيد، عدل الله وتوحيد الله لم يدر في خلدهم مسألة إثبات وجود الله وهكذا الأمر إلى عهد المأمون، في هذه الفترة - من بدء الإسلام حتى عهد المأمون - لم يدر أبدا نقاش ولا جدل ولا حديث عن مسألة وجود الله إثباتا ولا إنكارا وإنما القضية مسلمة في كل هذه الأجواء وفي كل هذه العهود.

في عهد المأمون ترجمت الفلسفة اليونانية ولمَّا ترجمت الفلسفة اليونانية ترجمت بكل ما فيها من أضاليل وبكل ما فيها من أوهام وانحرافات وقد انحرفت الأمة اليونانية في الفن وانحرفت في الأدب والفلسفة والفكر وانحرفت في كل المجالات التي تحدثت عنها وخاضت فيها وهذا الانحراف هو الذي أثر على الأمم في مجال التاريخ الواسع لأنها انحرفت إلى البشرية، والإنسان ميال بطبيعته إلى أن يحقق بشريته التي تخطئ وتصيب وتهتدي وتضل، وليس ذلك بالأمر الصعب على الإنسان بل إن الإنسان يندفع بغريزته إلى أن يحقق بشريته، وما أتت الأديان إلا لترتفع بالإنسان إلى درجة من الدرجات الإيمانية التي يحبها الله ويحبها رسوله.

ترجمت الفلسفة اليونانية في عهد المأمون كما قلنا وكان المسلمون قبل ذلك يرون أن هذا الذي يترجم إن كان في مجال العقائد حقا فعندنا ما هو أحق منه وهو عقيدتنا بالأسلوب القرآني، فقرآننا بأسلوب عربي مبين، هو الأسلوب الإلهي الدقيق في نضرته في صفائه في قوته في دقته مالنا وللبشر الآخرين في البيئات والأديان الأخرى نترجم ثقافتهم في العقائد وهل عندنا نقص في هذا المجال؟ كان ذلك شعور المسلمين وكان الأمر كذلك في مجال الأخلاق فعندنا مصدران.. الكتاب والسنة وإن كانت الأخلاق الواردة حقا فعندنا ما هو أحق منها وإن كانت باطلا فنحن في غنى عن هذا الباطل.

وتحدى المأمون شعور المسلمين الأتقياء تحداهم في صراحة، وأمر بترجمة

الثقافة اليونانية في غثها وسمينها في خطئها وفائدتها في انحرافها وعدم انحرافها وأتت مع هذه الثقافة فكرة إثبات وجود الله. . هذه الثقافة كان من الممكن أن تكون محدودة لولا أن الأمراء في عهد المأمون حاولوا التقرب إليه، ومن وسائل التقرب أن يكونوا مع هوى المأمون، وهواه في ترجمة هذه الثقافة وبذلوا هم الآخرون الأموال في ترجمتها. الأثرياء حاولوا كذلك التقرب إليه بهذه الترجمة فبذلوا هم الآخرون أموالهم في هذا السبيل كما حاول المثقفون نفس الشيء فأقبلوا على تعلم الثقافة اليونانية وتعليمها وشاعت الثقافة اليونانية. وبدأت ينفر منها المسلمون الأتقياء وبدأت كأنها ليست لها شرعية الإقامة ولكنها أخذت تتخذ مظهر الشرعية في الإقامة وأقامت واحتلت أرض المسلمين وأذهانهم وعقولهم وبدأت مسألة وجود الله معها تتخذ مظهر المشكلة بل انتهى بها الأمر إلى أن أصبحت المسألة الأولى في علم الكلام الإسلامي مع أنها بدعة يجب أن تزول من الجو.

● **علاج الملحدين:**

هناك من يتساءل عن الملحدين كيف نناقشهم والواقع أن الملحد لا يؤمن بالمناقشة بل هو الذي يحاول أن يجرك إليه. أن يجعلك من الملحدين ما استطاع إلى ذلك فإن الملحدين في أغلبهم الأعم طائفة مأجورة تنطق باسم الأجر الذي تأخذه وإذا لم يمكن أن يتخلى عن أجره إذن لا يتخلى عن فكرته ولو ظهر له الحق.

ولكن ما هو الحل الإسلامي لموضوع الملحد؟ الواقع أن هناك مقدسات في كل دولة، مثلا أمريكا من مقدساتها الرأسمالية وكل دعوة إلى الشيوعية في عرف أمريكا تذهب بصاحبها إلى السجن والتنكيل، وروسيا من مقدساتها الشيوعية وكل دعوة إلى الرأسمالية في روسيا تذهب بصاحبها إلى التنكيل والتعذيب والسجن. للدول مقدسات وأقدس مقدسات الدولة الإسلامية هو الإيمان بالله ويجب على الأقل أن يكون لنا في القانون ما يشبه ما في قوانين أمريكا وروسيا فيما يتعلق بمقدساتها، أما الحل الإسلامي في نفسه فهو أن الملحد مرتد يستتاب وإلا قتل ولتنفذ هذه الفكرة في شخص واحد في قطر فسوف لا تجد في هذا القطر ملحدا

واحدا وإذا نفذ نظام الإسلام كان ذلك هو الحل الوحيد لأزمة - إن كان هناك أزمة - الانحراف الإلحادي في الأمة الإسلامية.

● **موقفنا من الثقافة الغربية:**

والسؤال الأخير الذي أسأله وأجيب عليه لننتهي من هذه المحاضرة هو ما قد يقوله قائل: **ماذا نفعل بهذه الثقافة الغربية، أنتركها تركا باتا لا نتفهمها ولا نعقلها ولا نبحث فيها، أننعزل عن هذا العالم؟**

وهذا ما لا أدعو إليه ولا أقول به إنما الذي أريده من المسلمين أن يأخذوا هذه الثقافة بمأخذها الواقعي الصحيح أي أنها ثقافة بشرية ثقافة معارضة بالثقافات الأخرى البشرية في البيئات الغربية أيضا، إنها ثقافة لا نسبة لها إلى الصدق إلا كنسبة الرأي المعارض، ومن أجل ذلك كانت كلها منذ أن وجدت إلى الآن ظنية وليس فيها مسألة عقلية واحدة يمكن إثباتها في يقين، **ولقد كان منهج الإمام الغزالي في تحدي الفلاسفة منهجا من أقوى المناهج: إنكم تقولون بالعقل، وتثبتون بالعقل وها أنذا أجعل جميع آرائكم منهارة بالعقل نفسه وليس منطقي بأقل من منطقكم بل ربما يكون أقوى.** وهدم الإمام الغزالي جميع آراء الفلاسفة بالعقل نفسه الذي برهن به الفلاسفة على جميع آرائهم .. إذا أخذناها على هذا الوضع فليس هناك من بأس من أن نعبث فيها إذا شئنا أن نعبث في يوم من الأيام.

والوضع الصحيح أن يكون المنبع الوحيد لثقافتنا لأخلاقنا لتشريعنا لعقائدنا هو ما أحبه الله ورسوله: القرآن والسنة ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (آل عمران: ١٠١).



نشر السنة

واجب ديني وإصلاح خلقي واجتماعي

العدد (٨٨) ربيع الآخر (١٣٩٢هـ) - مايو (١٩٧٢م).

في لقاء لمجلة منبر الإسلام القاهرية مع الدكتور عبد الحليم محمود وزير الأوقاف وشؤون الأزهر دار الحديث فيه حول السنة النبوية ومكانتها ودورها التشريعي والإصلاحي قال فضيلته: إن السنة دعوة بالحسنى إلى الرقي الأخلاقي الذي تجري وراءه الإنسانية المهذبة.

إنها دعوة إلى التاجر أن يكون صدوقا فيحشر مع النبيين والصديقين والشهداء.. وإلى العامل أن يتقن عمله «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه» وإلى الصانع أن يؤدي العمل كما يجب حيث أخذ الأجر، ومن أخذ الأجر حاسبه الله على العمل.

وهي دعوة إلى الأب باعتباره أبا، وإلى الأم في وضع أمومتها، وإلى الأخ في مهمة أخوته، وإلى غيرهم من أفراد المجتمع، أن يرعى كل منهم ما وكل إليه من أمر رعيته، لأنه مسؤول عن رعيته يقول ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، فالإمام راع وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها وهى مسؤولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده وهو مسؤول عن رعيته والرجل راع في مال أبيه وهو مسؤول عن رعيته، فكلكم راع وككم مسؤول عن رعيته».

وهي دعوة للناس إلى الأمانة حيث إنه لا إيمان لمن لا أمانة له، وإلى الصدق، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا، ويقول ﷺ: «عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا، وإياكم والكذب، فإن

الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا». وهي دعوة الى الرحمة العامة الشاملة.. وصلوات الله وسلامه على من قال: «إنما أنا رحمة مهداة» ومن قال: «ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء» ومن قال: «من لا يرحم الناس لا يرحمه الله». وخذ أي خلق كريم تتمنى أن يسير عليه المجتمع فسترى في السُّنة دعوة إليه بوسيلة وبأخرى وبثالثة.. خذ مثلا ترابط المجتمع وتضامنه فستجد قوله ﷺ: «مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة، فصار بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا ما استقوا من الماء مروا على من فوقهم: فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا».

وقوله ﷺ: «ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته، ويقتدون بأمره، ثم إنه تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل».

وهى في هذه الدعوة تنبه دائما إلى دور الأمة الإسلامية في الأخلاق العالمية.. إن دورها إنما هو دور الرائدة الراعية، وعلى الرائد دائما ان يكون المثل الأعلى، والأسوة الكريمة، والقدوة الصالحة.. ورسول الله ﷺ يقول: «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق» وفى رواية أخرى: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

وسئل ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة، فقال: «تقوى الله وحسن الخلق».

ومن قوله المعبر صلوات الله وسلامه عليه: «إن من أحبكم إلي وأقربكم منى مجلسا يوم القيامة أحسنكم أخلاقا».

ولقد كان رسول الله ﷺ الصورة الحية الناطقة التي طبقت ـ كمبادئ إنسانية ممكنة ـ الخلق الذي رسمه الله وأحبه للإنسانية جمعاء والذي عبرت عنه السُّنة

أجمل تعبير وأبلغه.

قد سئلت السيدة عائشة رضي الله عنها كيف كان خلق رسول الله ﷺ؟.. قالت، كان خلق رسول الله ﷺ القرآن.. ثم قالت: أتقرأ سورة المؤمنون اقرأ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١﴾ (المؤمنون: ١-١١). قالت: هكذا كان خلق رسول الله ﷺ.

ومن أجل هذا التقدير الكريم للسُّنة الشريفة، كان العلماء المستنيرون في كل عصر يجاهدون من أجلها ومن أجل مكارم الأخلاق التي تعبر عنها. وكان هؤلاء العلماء علماء السُّنة يعرفون بسيماهم. فقد كانوا من الزهد في حطام الدنيا بحيث لا ينازعون الناس في دنياهم.

لقد كانوا مشغولين عن جمع المال بخدمة الدين، وكانوا مشغولين عن الجاه بغرس الخلق الصالح الكريم، وكانوا مشغولين عن السلطان بمن بيده السلطان يؤتيه من يشاء، وينزعه ممن يشاء: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٦ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٢٧﴾ (آل عمران: ٢٦ - ٢٧).

وكانوا صادقين، وقد كان الصدق دينهم.. فطرتهم مهما نالهم في سبيله من أذى وكانوا صابرين على الحياة، وصابرين على العمل.

لقد أقاموا نهارهم وأسهروا ليلهم عملا على مرضاة الله ورسوله ﷺ.

والمثل الذي نحب أن نسوقه ـ كصورة لهؤلاء القوم ـ هو الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه، إنه المحدث الذي حاول أن يكون صورة صادقة لما كان عليه رسول الله ﷺ في الزاوية الأخلاقية.

وسيرة الإمام ـ رضوان الله عليه ـ مثل أعلى في التمسك بما يراه حقا، وفي الصبر على ما يناله في سبيل التمسك بالحق.

على أن كل من تشبع بالسنة حقا إنما هو صورة ـ قريبة بقدر المستطاع ـ من الإمام أحمد.

ولقد كان الإمام البخاري وغيره ممن أشربت نفوسهم حب السنة أمثلة كريمة للخلق الكريم.

ومن الأمثلة التي يجهلها الناس عادة وهي مثال لخلق المحدثين مثال الإمام سفيان الثوري.

يقول صاحب كتاب «نتائج الأفكار القدسية» عنه: كان عالم هذه الأمة وعابدها وزاهدها، وكان لا يُعلِّم أحدا العلم حتى يتعلم الأدب، ولو في عشرين سنة، وكان يقول: إذا فسد العلماء فمن بقى في الدنيا يصلحهم؟ .. ثم ينشد:

يا معشر العلماء يا ملح البلد ما يصلح الملح إذا الملح فسد

وكان سفيان المذكور كما حكي عنه في الطبقات الصغرى، إذا جلس للعلم وأعجبه منطقه، يقطع الكلام ويقوم ويقول: «أخذنا ونحن لا نشعر» وكان يملي الحديث ويقول: «والله لو رآني عمر بن الخطاب لضربني بالدرة وأقامني وقال: مثلك لا يصلح للحديث»، وكان يقول للناس إذا طلبوا منه الحديث: «والله ما أرى نفسي أهلا لإملاء الحديث، ولا أنتم أهلا أن تسمعوه، وما مثلي ومثلكم إلا كما قال القائل: «افتضحوا فاصطلحوا». وكان قد امتنع من الجلوس للعلم، فقيل له في ذلك فقال: «والله لو علمت أنهم يريدون بالعلم وجه الله لأتيتهم في بيوتهم وعلمتهم، ولكن إنما يريدون به المباهاة وقولهم حدثنا سفيان».

لقد وقفت طويلا عند قوله: (إذا جلس للعلم وأعجبه منطقه يقطع الكلام ويقوم ويقول: «أخذنا ونحن لا نشعر».

لقد أخذت أتأمل في هذه الحادثة التي تعتبر عن محاولة مخلصة للابتعاد عن الفخر والعجب، وذلك من أجل إخلاص النفس في حركاتها وأفعالها وأقوالها لله وحده.

إن الناس عادة يباهون بمنطقهم القوي، وبأقوالهم الحسنة، وبتعلق الناس بهم، ويحبون المدح والثناء. أما سفيان فإنه حينما كان يجلس للدرس فتتعلق الآذان بمنطقه الرائع، وتتعلق القلوب بمعانيه النقية، وتمتد إليه الأعين لا تريد أن تفوتها حركة من حركاته، ويسكت الناس وكأن على رؤوسهم الطير، فيجد سفيان أحيانا لكل ذلك أثرا من الارتياح في نفسه، يعتريه مباشرة الخوف من أن يكون ذلك إعجابا أو فخرا أو كبرياء، فيستغفر الله: ويطوي أوراقه، ويقول كلمته: «أخذنا ونحن لا نشعر».

والأمثلة للخلق الكريم هدف ـ دائما ـ لسهام العصابات الأثيمة التي استهواها الشيطان في قليل أو في كثير، إنه النزاع الدائم بين الفضيلة وأصحابها وبين الممثلين لنزعات الهوى والضلال.. ولولا وجود هذه المثل العليا لمكارم الأخلاق في كل عصر، لفقدت الإنسانية الثقة بنفسها، وما اطمأن إنسان لإنسان، وما وثق شخص بآخر.

لقد ربت السنة رجالا، وخصائصها التي ربت بها الرجال موجودة فيها لأنها من طبيعتها ومن ذاتها، لقد شهدت الإنسانية واعترفت بسمو هؤلاء الرجال، وأولتهم ثقتها وتقديرها.

إن الإمام أحمد بن حنبل، وإن الإمام البخاري، وإن أمير المؤمنين في الحديث الإمام سفيان الثوري وأمثال هؤلاء ـ رضي الله عنهم ـ منارات يهتدي بها عشاق المثل العليا الأخلاقية.

لابد ـ إذن ـ من العمل على نشر السنة وإذاعتها، ومحاولة الإكثار من النفوس التي تتشربها وتحققها وتتمثلها وتجعلها كيان حياتها.

ولابد من نشرها للثروة اللغوية. ومن أجل ذلك كله شرعنا بتوفيق الله تعالى في إنشاء كلية للسُنَّة، مبتدئين في ذلك بالنواة الأولى لها وهى (القسم العالي للسُّنة) الذي يتبع مؤقتا كلية أصول الدين.

* * *

وإن أول هذه الكتب وأجدرها بالعناية وبتكرار القراءة هو صحيح البخاري،

ورضي الله عن مؤلفه.. وصحيح البخاري يفيد في:

١ـ اللغة، فهو ثروة لغوية هائلة، والإمام البخاري يفسر في كثير من الأحيان بعض الألفاظ، ومنها ألفاظ القرآن الكريم.

٢ـ الأسلوب، إنه أعلى أسلوب بشري فهو أسلوب رسول الله ﷺ الذي أوتي الفصاحة والبلاغة وجوامع الكلم.

٣ـ أحكام الدين: إن الإمام البخاري ﷺ رتبه على أبواب الفقه، وفي كل حديث منه توجيه أو شرح لزاوية من زوايا الدين.

٤ـ الأخلاق في ذروتها وقمتها، والله سبحانه وتعالى يقول عن صاحبها: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ (القلم: ٤).

٥-وقراءته تفيد كثيرا في فهم القرآن، بل يمكنك أن تقول إنها كلها فوائد في فهم القرآن. إنها تفيد في ناحية اللغة. وتفيد من ناحية العمق في فهم الأسلوب، وتفيد كثيرا من ناحية ما تذكره عن أسباب نزول الآيات، وتفيد في فهم القرآن حينما تتحدث بطريقة مباشرة عن تفسير القرآن الكريم.

٦ ـ ولقد سئلت مرة عن أحسن سيرة لرسول الله ﷺ، فقلت: صحيح البخاري وصحيح مسلم وكل الأحاديث الصحيحة.. وذلك أن سيرة رسول الله ﷺ تبدو أوضح ما تكون وأدق ما تكون في الأحاديث الصحيحة، وكل حديث منها هو سيرة، سواء تعلق بالأخلاق أو بالغزوات أو بالعبادات أو بالتشريع، وهي تفيد في تصوير البيئة والجو الذي كان يعيش فيه رسول الله ﷺ، وتفيد في بيان مدى التغيير والتبديل الذي أحدثه رسول الله ﷺ في بيئته عن طريق الوحي.

٧ـ وقراءته عبادة، وذلك أنه تعلم لسيرة الرسول ﷺ، وتفقه في أحكام الدين: ووسيلة للتخلق بأخلاق من قال فيه الإمام البوصيرى:

ومنتهى القول فيه أنه بشر   وأنه خير خلق الله كلهم

والأمر كذلك فيما يتعلق بصحيح الإمام مسلم.

وإذا كان صحيح الإمام البخاري أصح كتاب بعد القرآن الكريم، فإن صحيح الإمام مسلم لا يكاد يقل عن هذه المرتبة، وكلاهما من الكتب المباركة..

والفوائد التي تترتب على القراءة في كتاب البخاري هي الفوائد التي تترتب على القراءة في صحيح الإمام مسلم، وهي الفوائد التي تترتب على قراءة الموطأ للإمام مالك رضي الله عنه.

وإذا كان موطأ الإمام هو أولا وبالذات كتاب فقه، فإنه يستند في آرائه إلى الأحاديث الشريفة، ويرتبها بحسب الباب الذي يتحدث فيه وبحسب فصول الباب. . إنه كتاب (فقه) في الصورة المثالية، وهو كتاب «حديث» من أوثق كتب الحديث، وهو يشترك مع الصحيحين في أنه يصور السيرة النبوية بالمعنى العام للسيرة.

وإن من الكتب المباركة التي يجب أن تكون عند كل مسلم، كتاب رياض الصالحين. . ولقد تحرى الإمام النووي أن لا يدخل فيه إلا الصحيح والحسن من الأحاديث، وهو كتاب يصف الأخلاق الإسلامية في مكارمها وفي سموها.

وبعد: فإن السُّنة النبوية الشريفة هي تصوير لأكرم الخلق على الله، إنها صورة من جعله الله أسوة حسنة، فقراءتها وتدارسها وتدريسها إنما هو وسيلة لاتباعه ﷺ، وفي ذلك اتباع للخير ونشره. وصلوات الله وسلامه على من كان خلقه القرآن.



الوحدة الإسلامية

العدد: (١٠٨) ذوالحجة (١٣٩٣هـ) ديسمبر (١٩٧٣م)

بعث الله رسوله محمدا ﷺ برسالة الإسلام، وهي هدي الله للإنسانية جمعاء، فكان من صحابته الأوائل الذين استجابوا للدعوة في بكورها، بلال الحبشي وصهيب الرومي، وكون الرسول من صحابته هؤلاء، على اختلاف أجناسهم، جماعة واحدة قامت على أكتافها أعباء الرسالة الإسلامية.

ولما انتقل رسول الله ﷺ إلى المدينة وحد بين أهلها من الأوس والخزرج، كما وحد بين المهاجرين والأنصار. فنشأت الدولة الإسلامية بالمدينة، على أكتاف هذه الجماعة الإسلامية الموحدة، فكانت الوحدة منهج هذه الدولة، وقوامها، ولم يكن يعكر صفو هذه الوحدة أو يهدد كيانها غير مؤامرات اليهود ودسائسهم، فكان إجلاء الرسول لهم عن المدينة درسا خالداً لأمته يتعلمون منه أن اليهود مصدر خطر دائم على وحدتهم، وأن التخلص منهم وإجلاءهم عن الأرض العربية ضرورة لقيام هذه الوحدة واستمرارها مع ضرورة مفروضة عليهم يسعون إليها بالجهاد وبكل وسائل الكفاح.

لم يرحل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى، إلا وقد توافدت عليه قبائل الجزيرة العربية من الشمال والجنوب والشرق والغرب تبايعه على التوحيد وتتوحد تحت راياته.

ولم تنقض خلافة الراشدين الأربعة - رضي الله عنهم - إلا بعد أن وحدت بين مختلف الأجناس في شرق الدولة الإسلامية وغربها.

فالوحدة أساس قيام الدولة الإسلامية، وسر قوتها، واستمرارها.

وكما أن الوحدة قوة للمؤمنين، فهي سند إيمانهم وركيزتهم يدعون إليها حين يدعون إلى عبادة الله الواحد.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾ (الأنبياء: ٩٢).

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات: ١٠).

﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ (آل عمران: ١٠٣).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾ (المؤمنون: ٥١-٥٢).

وقال رسول الله ﷺ «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر».

وعندما دعا الله - سبحانه - المسلمين إلى الجهاد دعاهم إليه باعتبارهم وحدة جامعة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾ (الصف: ٤).

وترتبط وحدة الأمة الإسلامية بأسس الإسلام في العقيدة والشريعة والأخلاق جميعا.

في مجال العقيدة ترتبط هذه الوحدة باتجاه المسلمين إلى عبادة الله وحده لا شريك له.

فقلوب المسلمين تتجه بكليتها إلى وجهة واحدة، وهي عبادة الله الأحد الذي لا ولد له ولا صاحبة ولا حاشية، الذي له الملك يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء، الذي لا فضل عنده لعربي على عجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى.

هذه القلوب المخلصة للوجهة الواحدة، يربيها الإسلام على الوحدة تربية لا نظير لها في عقيدة أخرى.

وفي مجال الشريعة ترتبط هذه الوحدة بالتزام المسلمين بنظام تشريعي واحد مصدره الله الواحد الأحد ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ (المائدة: ٤٤).

هنا تقوم معيشة المسلمين، ويقوم نظام حياتهم على أسس ومبادئ موحدة في جميع المجالات التي لا يشملها التشريع، في نظام الدولة، ونظام الأسرة، في نظم الحياة الاقتصادية، وفي نظم العلاقات الاجتماعية وغيرها.

وفي مجال الأخلاق ترتبط هذه الوحدة بتربية المسلمين وفقا لمبادئ وأسس أخلاقية ثابتة موحدة، في الأخوة، والرحمة، والعدل، والشجاعة، والكرم وغيرها من أمهات الفضائل والقيم الإسلامية التي وضحها الكتاب، ووضحتها السنة، وصارت دستورا لأخلاق المسلم، في أي بقعة من بقاع الأرض وفي أي فترة من فترات التاريخ.

وإن المنهج الذي يرشد إليه الإسلام لتحقيق هذه الوحدة بسيط بساطة الأسس التي تقام عليها.

يتمثل هذا المنهج في قوله تعالى ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ (آل عمران: ١٠٣).

إذا فزع المسلمون إلى حبل الله وشريعته، إذا اعتصم المسلمون بهذا الرباط الموصول بينهم وجدوا أنفسهم على طريق واحد وعلى مسيرة واحدة، وعلى مقصد واحد، ولا يبقى بعد إلا شكل يختار لها، شكل يدعو إليه الواقع أو يفرضه، فهو سهل التطبيق.

ان منطلق هذه الوحدة ومسلكها يقوم على الالتحام الصادق بالعقيدة الإسلامية التحاما لا يتيح فرصة أو يترك ثغرة لتطفل التيارات الغازية التي تصدر إلى المجتمعات الإسلامية هادفة تنحية الإسلام من قلوب المسلمين وأفكارهم.

والالتحام بالعقيدة مظهره تحكيم شريعة الله في كل شؤوننا فنطبق حدوده، ونلتزم بما أمر به، وننتهي عما نهى عنه، بحيث يبدو المجتمع المسلم تجسيدا حيًّا للإسلام في عقيدته وشريعته.

ونحب أن نوجه نظر أولئك الذين يظهرون التخوف أو غير صادقين إلى أن تطبيق الحدود الإسلامية التي شرعها الله محوط بأقوى ضمانات التطبيق في شريعة الإسلام.

ثم إن تطبيق هذه الحدود من شأنه أن يجفف منابع الإثم، والتجارب في بعض الدول الإسلامية التي التزمت بتطبيق حد السرقة خير شهيد.

وإننا نرى اليوم وفي الثلث الأخير من القرن العشرين في بعض البلاد صاحبة النفوذ حكومات جعلت الإعدام عقوبة تطبق على السارق.

على أن الأمر، من قبل ومن بعد، هو تحتم الاستجابة الطيعة لتطبيق تعاليم الإسلام ومقرراته، دون هوادة أو تراخ، لأن ذلك مظهر الانتماء الصادق لهذا الدين.

وإذا كان لا يجوز أن نؤمن ببعض الكتاب ونكفر ببعض، فإنه يجب أن تغطي تعاليم الإسلام كل جانب من جوانب حياتنا: تربويًّا، وقانونيًّا، وثقافيًّا، وإعلاميًّا، واقتصاديًّا، وسلوكيًّا، فلا يكون في أي جانب من حياتنا ما يجافي الإسلام أو يخرج عليه، لا نفرط في ذلك ولا نقصر دون بلوغ الغاية.

هذه هي ضرورة الوحدة في الإسلام.

وهذا هو منهج الإسلام إلى الوحدة، وفضلا عن ذلك فلقد أصبحت اليوم ضرورة حياة للمسلمين في مشرق الأرض ومغربها.

إننا في عصر تفرقنا فيه فتداعت إلينا الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، وتوزعنا الأقوياء شيعا وأتباعا، وصرنا نتلمس الرضا من كل جانب، وأنه لا نجاة لنا ولا عصمة ولا نصر إلا بوحدة تجمعنا على حبل الله.

﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ (آل عمران: ١٠٣).

كانت الوحدة سر قيام هذه الأمة، وسر قوتها، والآن تصبح هذه الوحدة سر استمرارها ونجاتها، وإنه لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ (الأنعام: ١٥٣).

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.



فقيه مصر الليث بن سعد (١)

نشأته وحبه للعلم

العدد (١٤٥) محرم (١٣٩٧هـ) - يناير (١٩٧٧م).

الليث بن سعد بن عبدالرحمن، ويكني أبا الحارث، والمشهور ـ كما يقول الخطيب البغدادي ـ أنه «فهمي»، أما كونه «فهمي» فإن مما يؤيده ما ذكره القلقشندي قال: (وقال القضاعي في خططه في الكلام على دار الليث بالفسطاط: وكان له دار بقرقشندة بالريف بناها فهدمها ابن رفاعة أمير مصر عنادا له، وكان ابن عمه فبناها الليث ثانيا: فهدمها، فلما كانت الثالثة أتاه آت في منامه فقال له: يا ليث:

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥﴾ (القصص: ٥).

فأصبح وقد فلج ابن رفاعة، فأوصى إليه ومات بعد ثلاث).

ويبدو أنه ندم على ما كان منه بالنسبة لليث، يقول يحيى بن بكير: « كتب الوليد بن رفاعة ـ وهو أمير مصر ـ في وصيته: قد أسندت وصيتي لعبدالرحمن بن خالد بن مسافر إلى الليث بن سعد، وليس لعبد الرحمن أن يفتات على الليث فإن له نصحا ورأيا. . وكان الليث يومئذ ابن أربع وعشرين سنة).

ويقول المرحوم الشيخ مصطفى عبدالرازق:

«وابن رفاعة المقصود هنا هو الوليد بن رفاعة بن خالد بن ثابت ابن ظاعن الفهمي الذي ولي مصر سنة ١٠٩، وتوفي وهو وال عليها سنة ١١٧، والوليد بن رفاعة عربي صراح، ومن فهم، ليس في نسبته خلاف، فإذا كان الليث ابن عمه فهو أيضا عربي فهمي».

ونقل البغدادي رواية عن أبي مسلم صالح بن أحمد بن عبدالله العجلي عن أبيه

قال: «ليث بن سعد يكنى أبا الحارث، مصري فهمي ثقة» أهـ.

ونحن لا نرى إلا أن الإمام الليث مصري عربي من فهم.. وفهم بطن من قيس علان، ومرجعهم إلى العدنانية.

ونحن إذا كنا نرى أن الإمام الليث مصري عربي من فهم فإننا نوافق في ذلك بعض من كتبوا عنه.. بيد أن كثيرا من المؤرخين يرون رأيا آخر.. ويكفينا المشهور من أنه: «عربي من فهم»، وما روي من أنه ابن عم أمير مصر، ابن رفاعة العربي الأصيل.

أما عن تاريخ ميلاده فإن أرجح الأقوال أنه ولد سنة أربع وتسعين. وروي ذلك عن الليث نفسه، يقول ابن بكير: سمعت الليث يقول: «ولد في شعبان سنة أربع وتسعين». ويحدد ابن بكير أكثر فيقول: «لأربع عشر خلت من شعبان..» ويزيد ابن حبان الأمر تحديدا فيقول: «يوم الجمعة». أما مكان ميلاده فـ: «قلقشندة»، وهي بلدة أبي العباس القلقشندي. وحينما يتحدث القلقشندي عن محافظة القليوبية فإنه يقول: «ومن بلادها بلدتنا قلقشندة»، ثم يصفها بقوله: «وهي بلدة حسنة المنظر، غزيرة الفواكه»، ثم يقول: «وإليها ينسب الليث بن سعد الإمام الكبير»، وذكر ابن يونس في تاريخه أن الليث ولد بها..

وقد كان الليث يحبها حبا كثيرا، يدل عليه أنه حينما بنى بها بيتا وهدمه ابن عمه الحاكم أعاد بناءه، ثم أعاد البناء للمرة الثالثة بعد أن هدمه الحاكم في المرة الثانية، وليس حبه بغريب، فهي مهد ميلاده، ومكان نشأته وصباه، وكانت: «حسنة المنظر، غزيرة الفواكه» وبعض الناس يقول عنها: قرقشندة...

ولقد أبدل ياقوت في معجم البلدان اللام وراء، يقول صاحب «صبح الأعشى»: «وهو الجاري على ألسنة العامة، وعليه جرى القضاعي فيما رأيته مكتوبا عنه في خططه».. ولكن ذلك خطأ يعلنه القلقشندي وهو العالم الكبير الذي يوثق بكلامه عن بلدته، ويوافقه في ذلك ابن خلكان الذي يذكر ضبطها فيقول: «بفتح القاف وسكون اللام. وفتح القاف الثانية والشين المعجمة وسكون النون وفتح الدال المهملة وبعدها هاء ساكنة». وهكذا هي مكتوبة في دواوين الديار

المصرية، وهذا الضبط في الشكل هو نفس الضبط فيما جرى على ألسنة العامة: أعني قرقشندة.. وهذه البلد تقع الآن في مركز طوخ.

ولد الإمام بهذه البلدة، وأخذ يتعلم على الصورة المألوفة حينئذ: كانوا يبدأون بحفظ القرآن، ويتعلمون عن طريق ذلك الكتابة والقراءة، وكانوا يتعلمون علوم القرآن، ويتعلمون الحديث والفقه وعلوم الإسلام والعربية على وجه العموم.

وبدت نجابة الليث في سن مبكرة، بل كان إماما يفتي وهو في بواكير شبابه. روى ابن حجر العسقلاني عن يحيى بن بكير أنه قال: سمعت شرحبيل بن يزيد يقول: أدركت الناس في زمن هشام بن عبدالملك وهم متوافرون، مثل يزيد بن حبيب، وعبيد الله بن أبي جعفر، وجعفر ابن أبي ربيعة، والحارث بن يزيد، وابن هبيرة، ومن يقدم مصر من علماء أهل المدينة ومن علماء أهل الشام، للرباط، والليث بن سعد يومئذ حدث شاب، وإنهم ليعرفون فضله، ويقدمونه ويشار إليه.

وقال يعقوب بن سفيان: «سمعت يحيى بن بكير يقول: سمعت الليث يقول: رآني يحيى بن سعيد الأنصاري وقد فعلت شيئا من المباحات، فقال: لا تفعل فإنك إمام منظور إليك.. قلت: ويحيى بن سعيد تابعي من شيوخ الليث».

لقد كان إماما منظورا إليه وهو يومئذ حدث شاب.. وإذا كان هذا الحدث الشاب بلغ هذا المبلغ فإنه قد بلغه بجده واجتهاده، وبلغه بذكائه المتوقد، وذاكرته القوية.

ولم ينم الفتى الإمام على شهرته هذه التي بلغها، ولا على تقديره هذا الذي كان له وسط العلماء، وإنما واصل الليل بالنهار في الدراسة والأخذ عن العلماء.. وكان أستاذا يدرس للجمهور والعلماء، وتلميذا يتلقى عن العلماء، واستمر كذلك إلى نهاية حياته.. ونروي عن ذلك بعض القصص: لقد حج أول حجة سنة ثلاث عشرة ومائة، وكما يقول الله تعالى في الحجاج: ﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ (الحج: ٢٨) فإن الليث كانت منافعه التي شهدها في هذه الحجة هي أن يأخذ عن العلماء: قال البخاري: «قال يحيى بن بكير عن الليث قال: سمعت من ابن شهاب الزهري بمكة سنة ثلاث عشرة، وهي أول سنة حج».

وكان الليث يجل ابن شهاب ويحبه ويحترمه لعلمه وفضله، روى ابن حجر عن عمرو بن خالد قال: «قلت لليث: بلغني أنك أخذت بركاب ابن شهاب الزهري.. قال: نعم، للعلم، فأما لغير ذلك فلا، والله ما فعلته بأحد قط» ويقول ابن حجر عن الليث: «وقد سمع من ابن شهاب الزهري كثيرا، ويدخل بينه وبين الزهري الواسطة بواحد، وباثنين، وبثلاثة».

وكان من منافع الليث التي شهدها بمكة في حجته تلك أن أخذ عن نافع مولى ابن عمر، ونافع هذا من أوثق الرواة عن ابن عمر: لم يختلف في ذلك أحد من المحدثين، والسلسلة الذهبية عند كثير من المحدثين: مالك عن نافع عن ابن عمر.. يقول الليث فيما رواه غير واحد:

«دخلت على نافع مولى ابن عمر فقال: من أين؟

قلت: من أهل مصر.

قال: ممن؟

قلت: من قيس.

قال: ابن كم؟

قلت: ابن عشرين.

قال: أما لحيتك فلحية ابن أربعين».

كان نافع أسمر اللون، ومن طريف ما يروى عن الليث في حجته تلك أنه لم يحج وحده وإنما رافقه ابن لهيعة.. ويقول الليث: «حججت أنا وابن لهيعة فرأيت نافعا مولى ابن عمر فدخلت معه إلى دكان علاف فحدثني، فمر بنا ابن لهيعة فقال: من هذا؟ قلت: مولى لنا. فلما رجعنا إلى مصر جعلت أحدث عن نافع، فأنكر ذلك ابن لهيعة وقال: أين لقيته؟ قلت: أما رأيت العبد الذي كان في دكان العلاف؟ هو ذاك.

ويقول ابن حجر:

«وقعت لي نسخة الليث بن سعد عن نافع، فيها من الأحاديث المرفوعة والموقوفة نحو المائة، ومع ذلك فكان الليث يروي عنه ما ليس عنده منه مشافهة،

ـ بالواسطة ـ وربما روى عنه بأكثر من واسطة واحد» وإذا كان ذلك وهو في سن العشرين فإن السنين تمضي وهو في نفس الأسلوب من الدراسة والتدريس وها هو ذا قد نيف على الستين، وقد سافر إلى العراق.

ويقول أبو صلاح: «خرجت مع الليث في سنة إحدى وستين بعد المائة فشهدنا الأضحى ببغداد، فقال لي الليث: سل عن منزل هشيم الواسطي فقل له: أخوك الليث المصري يقرأ عليك السلام ويسألك أن تبعث إليه شيئا من كتبك.

فذهبت إليه، ففعل، فكتبت لليث منها، وسمعتها من هشيم مع الليث».

والمتتبع لما يرويه الليث من الأحاديث يجد فيها كثيرا مما يتعلق بحسن السلوك وكمال الخلق إلى جانب ما يتعلق بأحكام الحدود والمعاملات كما يقول المرحوم الشيخ مصطفى عبدالرازق.

وفي بغداد ـ في هذه الرحلة ـ جرى حديث بين الإمام الليث وهارون الرشيد، فيه حكمة وفيه من سداد الرأي ما فيه..

روى ابن حجر عن الليث بن سعد قال: «ولما قدمت على هارون الرشيد قال لي: يا ليث، ما صلاح بلدكم؟ قلت، يا أمير المؤمنين، صلاح بلدنا إجراء النيل وصلاح أميرها، ومن رأس العين يأتي الكدر فإذا صفا رأس العين صفت العين، قال: صدقت يا أبا الحارث».

استفاد الليث من رحلاته صغيرا، واستفاد من رحلاته كبيرا، وكانت حياته كلها استفادة وإفادة.. يقول أبو نعيم في الحلية:

«أدرك الليث نيفا وخمسين رجلا من التابعين».

ويقول ابن حجر عمن تلقى عنهم الليث:

«سمع ببلده من يزيد بن أبي حبيب، وجعفر بن ربيعه، والحارث ابن يعقوب، وعبيد الله بن أبي جعفر.. وبالحجاز من عطاء بن أبي رباح ونافع مولى ابن عمر، وهشام بن عروة، ويحيى بن سعيد الأنصاري، وأبي الزبير محمد بن مسلم المكي، وأيوب بن موسى الأموي، وعبدالله بن عبيد الله بن أبي مليكة، وعمرو بن شعيب، وعمرو بن دينار، وقتادة» وسمع في رحلته إلى العراق ـ وهو كبير ـ من

هشيم وهو أصغر منه.

ويقول ابن حجر أيضا: «وسمع من أبي الزبير، وحديثه عنه من أصح الحديث، فإنه لم يسمع منه شيئا دلس فيه» ويستفيض صاحب كتاب الرحمة الغيثية في ذكر من سمع منهم الليث.

وسار الليث في حياته متبعا للشعار الإسلامي: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (طه: ١١٤). وإذا كان من سمات الليث حب العلم: استفادة وإفادة، فإن له سمات أخرى والحديث موصول.



فقيه مصر الليث بن سعد (٢)

كرَمه واتزانه

العدد (١٤٦) صفر ١٣٩٧هـ) - فبراير (١٩٧٧م).

من جميل تجليات الله تعالى على أئمة الفقه أنهم كرماء، ولقد كان الكرم صفة ظاهرة من صفات الإمام أبي حنيفة ﷺ. لقد كان ورعا يضرب بورعه الأمثال، وكان كريما يكسب حياته من التجارة. وكان الإمام مالك سخيا، كريم النفس، كريم اليد، وكان تاجرا يقبل عليه الناس لصدقه وأمانته. وكان الإمام الشافعي كريما لا يبقي ولا يذر رغم فقره.. وكذلك كان الإمام محمد بن الحسن الشيباني ومن أكثر الناس ثراء وكرما الإمام الرباني الزاهد عبد الله بن المبارك.. وكان كريما بالسنة لكل محتاج ولكنه كان يؤثر على الخصوص أهل العلم: طلبة وأساتذة، ويرى أن الإنفاق على أهل العلم من أنفس وجوه الإنفاق، ولا نجد شبيها لعبد الله بن المبارك في ثرائه العريض، وكرمه الواسع، إلا الليث بن سعد.

وقد اختلفت الروايات فيما يتعلق بدخله السنوي، وتراوحت الروايات فيما بين عشرين ألف دينار ومائة ألف دينار. ونرى أن هذا الاختلاف مرده إلى فترات من حياته، فهي تعبر مثلا عن دخله في مقتبل عمره، وعن دخله عندما كان في دور الرجولة الناضجة، وعن دخله بعد لقائه بهارون الرشيد وهكذا.

ولكن هذه الروايات الكثيرة التي تتحدث عن دخله الواسع تذكر كلها تقريبا أنه لم يكن يدخر من دخله شيئا، بل يذكر الكثير منها أنه في آخر العام يكون مدينا، ولهذا تذكر هذه الروايات أنه لم تجب عليه الزكاة قط في ماله، فما كان يحول الحول على شيء منه باق مخزون.

يقول شعيب بن الليث: «قال أبي: ما وجبت علي زكاة قط منذ بلغت»، ونذكر هنا بعض هذه الروايات التي تتحدث عن كرمه.

ونبدأ بما كان بينه وبين مالك: لقد كان مالك كريما واسع الكرم كما ذكرنا، ولكرمه هذا كان أحيانا يكون في حاجة للمال لينفق منه، ويكرم منه، فكان يكتب إلى الليث، وكان الليث يلبي حاجة مالك سواء أكتب مالك إليه أم لم يكتب!

يقول ابن وهب:

كان الليث بن سعد يصل مالك ابن أنس بمائة دينار في كل سنة، فكتب مالك إليه: إن علي دينا، فبعث إليه بخمسمائة دينار.

ويقول أبوصالح كاتب الليث:

(كنا على باب مالك بن أنس فامتنع علينا - أي احتجب - فقلنا: ليس يشبه هذا صاحبنا.. قال: فسمع مالك كلامنا، فأمر بإدخالنا عليه، فقال لنا: من صاحبكم؟ قلنا: الليث بن سعد. قال: تشبهوني برجل كتبت إليه في قليل عصفر نصبغ به ثياب صبياننا فأنفذ إلينا منه ما صبغنا به ثياب صبياننا وثياب جيراننا، وبعنا الفضل بألف دينار؟)

ويقول قتيبة بن سعيد: سمعت ابن الليث يقول:

خرجت مع أبي حاجا، فقدم المدينة، فبعث إليه مالك بن أنس بطبق رطب، قال: فجعل على الطبق ألف دينار ورجعه إليه.

ويروي ابن حجر ما يلي:

وقال أبو حاتم بن حبان: كان الليث لا يتردد إليه أحد إلا أدخله في جملة عياله مادام يتردد إليه، ثم إن أراد الخروج زوده بالبلغة إلى وطنه.

وقال عباس بن محمد الدوري: «سمعت يحيى بن معين يقول: كان الليث يصلي في المسجد كل صلاة، يجيء على فرسه، فكان له مجلس يجلس فيه قربه يحيى بن أيوب، فغمزه، فقام معه، فسأله عن مسألة فأجابه، فبعث إليه بمائة دينار.

وقال الترمذي: سمعت قتيبة يقول: كان الليث في كل صلاة يتصدق على ثلاثمائة مسكين.

وقال أشهب: «كان الليث لا يرد سائلا، وكان يطعم الناس الهرائس بعسل

النحل وسمن البقر في الشتاء، وفي الصيف بشيء من اللوز والسكر.

وحدث إسحاق بن إسماعيل قال: «سمعت محمد بن رمح يقول: كان دخل الليث في كل سنة ثمانين ألف دينار ما أوجب الله عليه درهما قط بزكاة».

ويروي منصور بن عمار الواعظ المشهور القصة الطريفة الآتية:

كان الليث إذا تكلم رجل في المسجد الجامع أخرجه، قال فلما دخلت مصر تكلمت في الجامع فإذا رجلان قد دخلا فأخذا بي فقالا:

أجب أبا الحارث.

قال: فذهبت وأنا أقول: واسوأتاه، أخرج من البلد هكذا، قال: فلما دخلت على الليث سلمت فقال: أنت المتكلم في المسجد؟

قلت: نعم.

قال: أعد علي ما قلت:

قال: فأعدته فرق الشيخ وبكى.

فقال: ما اسمك؟

قلت: منصور بن عمار.

قال: أبو السري؟

قلت: نعم.

فدفع إلي كيسا وقال: صن هذا الكلام عن أبواب السلاطين، ولا تمدحن أحدا من المخلوقين بعد مدحك لرب العالمين، ولك علي في كل سنة مثلها.

وكان الليث يواسي الغرباء والمحتاجين حتى وإن لم يكونوا محتاجين، يقول أسد بن موسى: «كان عبد الله بن علي يطلب بني أمية فيقتلهم، فرحلت إلى مصر فدخلتها في هيئة رثة، فدخلت على الليث، فلما فرغ المجلس خرجت، فتبعني خادم فقال: اجلس حتى أخرج إليك، فجلست حتى خرج وأنا وحدي، فدفع لي صرة فيها مائة دينار، وقال: يقول لك الليث: أصلح بهذه النفقة أمرك، ولم شعثك، وكان معي في حجزتي ألف دينار فأخرجتها له وقلت: استأذن لي على الشيخ، فدخلت فأخبرته بنسبي، فقال: إنها صلة وليست صدقة، واعتذرت إليه

عن قبول صلته، وقلت: أكره أن أعود نفسي عادة وأنا عنها غني. قال: فادفعها إلى بعض أصحاب الحديث ممن تراه مستحقا لها، فلم يزل بي حتى أخذتها ففرقتها في جماعة».

وكان يعين على نوائب الحق، يقول قتيبة بن سعيد:

«لما احترقت كتب ابن لهيعة بعث إليه الليث بن سعد من الغد بألف دينار» وجاءت امرأة إلى الليث فقالت: يا أبا الحارث، إن ابنا لي عليلا واشتهى عسلا، فقال: يا غلام، أعطها مرطا من عسل، والمرط عشرون ومائة رطل، وكان مع المرأة إناء صغير الحجم، فلما رآه كاتب الليث راجع الليث قائلا: إنها تطلب قليلا من العسل. فقال الليث: إنها طلبت على قدرها، ونحن نعطيها على قدرنا، وأمره أن يعطيها المرط.

ومن أجمل أنواع الكرم الليثي ما تعبر عنه القصة التالية التي يرويها الحارث بن مسكين، يقول: «اشترى قوم من الليث بن سعد ثمرة فاستغلوها، فاستقالوه فأقالهم ثم دعا بخريطة فيها أكياس، فأمر لهم بخمسين دينارا، فقال له الحارث: ابنه، في ذلك. فقال: اللهم غفرا، إنهم قد كانوا أملوا فيه أملا، فأحببت أن أعوضهم من أملهم بهذا».

أما أسفار الليث في نهر النيل من القاهرة إلى الإسكندرية وبالعكس، فإنها تصور عادات جميلة، وندع لأبي رجاء قتيبة، الحديث عنها، قال: «قفلنا مع الليث بن سعد من الإسكندرية، وكان معه ثلاث سفائن سفينة فيها مطبخه، وسفينة فيها عياله، وسفينة فيها أضيافه، وكان إذا حضرته الصلاة يخرج إلى الشط فيصلي.. وكان ابنه شعيب إمامه فخرجنا لصلاة المغرب، فقال: أين شعيب؟ فقالوا: حمَّ، فقام الليث فأذن وأقام ثم تقدم فقرأ: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١﴾ ويجهر بسم الله الرحمن الرحيم، ويسلم تسليمه تلقاء وجهه.

وكان الليث يعيش عيشة متزنة سوية، وكان بعيدا عن الانفعالات، ومن أجل ذلك تمتع بشباب طويل.

قال أبو رجاء: (وكان الليث أكبر من ابن لهيعة، ولكن إذا نظرت إليهما تقول:

ذا ابن، وذا أب، يعني ابن لهيعة الأب».

قال ابن بكير: سمعت الليث بن سعد كثيرا ما يقول: أنا أكبر من «ابن لهيعة» فالحمد لله الذي متعنا بعقلنا».

وكان لهذه الحياة السوية نظام رتيب لا يكاد يتخلف يصفه أشهب ابن عبد العزيز يقول:

«كان الليث له كل يوم أربعة مجالس يجلس فيها، أما أولها فيجلس لنائبة السلطان في نوائبه وحوائجه، وكان الليث يغشاه السلطان، فإذا أنكر من القاضي أمرا أو من السلطان كتب إلى أمير المؤمنين فيأتيه العزل.. ويجلس لأصحاب الحديث، وكان يقول: نحوا أصحاب الحوانيت فإن قلوبهم معلقة بأسواقهم. ويجلس للمسائل يغشاه الناس فيسألونه. ويجلس لحوائج الناس لا يسأله أحد من الناس فيرده كبرت حاجته أو صغرت. قال: وكان يطعم الناس في الشتاء الهرايس بعسل النحل، وسمن البقر، وفي الصيف سويق اللوز بالسكر».

وينعكس هذا الاتزان على حياته الفكرية، ومن أمثلة ذلك ما يقوله عثمان بن صالح قال: «كان أهل مصر ينتقصون عثمان حتى نشأ فيهم الليث بن سعد فحدثهم بفضائل عثمان فكفوا عن ذلك. وكان أهل حمص ينتقصون عليا حتى نشأ فيهم إسماعيل بن عياش فحدثهم بفضائل علي فكفوا عن ذلك.

وبعد: فيقول شعيب بن الليث عن أبيه قال:

«لما ودعت أبا جعفر ببيت المقدس قال: أعجبني ما رأيت من شدة عقلك، والحمد لله الذي جعل في رعيتي مثلك. قال شعيب: وكان أبي يقول: لا تخبروا بهذا ما دمت حيا».

هذا هو الليث!! تثقف كأحسن ما تكون الثقافة، واستمر يدرس ويبحث إلى آخر حياته، وسارت به الحياة في اتزان تام فطالت به فترة الشباب وفترة الصحة، وكان شهما كريما بالنسبة للقريب وللبعيد، وآثر مكارم الأخلاق طيلة حياته. ولكنه كان من قبل ذلك ومن بعده: محدثا وفقيها. والحديث موصول.

فقيه مصر الليث بن سعد (٣)

محدثًا وفقيهًا

العدد (١٤٧) ربيع الأول (١٣٩٧هـ) - مارس (١٩٧٧م)

إذا كان الليث يروي أحاديث في الأخلاق جعلت الشيخ مصطفى عبد الرازق، وجعلت أبا نعيم يضعانه في مصاف الصوفية الأوائل، فإن الليث كان محدثا بأوسع ما تتضمنه كلمة «محدث»، لقد كانت دائرته في الحديث أوسع من الجانب الأخلاقي.. إنه كان محدثا من طراز المحدثين المتخصصين في الحديث، الذين لا يقتصرون على جانب دون آخر.

وكان فقيها من الطراز الأول.. لقد كان فقيها مجتهدا مثله في ذلك كمثل الإمام مالك، والإمام الثوري، والإمام الأوزاعي، والإمام أحمد بن حنبل.. وغيرهم من الفقهاء الذين كانوا يلتصقون بالنص، وكانوا يوصفون بأنهم أهل الأثر.

يروي صاحب تاريخ بغداد أن الليث سمع علماء المصريين والحجازيين. وروى عن عطاء بن أبي رباح وابن أبي مليكة وابن شهاب الزهري وسعيد المقبري وأبي الزبير المكي ونافع مولى ابن عمر وعمرو ابن الحارث ويزيد بن أبي حبيب وعقيل بن خالد ويونس بن يزيد وعبد الرحمن بن خالد الفهمي وسعيد ابن أبي هلال.

أما من حدثوا عنه فيذكر الخطيب البغدادي ما يلي:

حدث عنه هشيم بن بشير وعطاف بن خالد وعبد الله بن المبارك وعبد الله بن وهب وأبو عبد الرحمن المقرئ وعبد الله بن عبد الحكم وسعيد بن أبي مريم ويحيى بن بكير وعبد الله بن صالح الجهني وعمرو بن خالد وعبد الله بن يوسف التنيس.

ويقول أيضا: وقدم بغداد وحدث بها، فروى عنه من أهلها: حجين بن المثنى، ومنصور بن سلمة، ويونس بن محمد، وهاشم بن القاسم، ويحيى ابن إسحاق البلخي، وشبابة بن سوار، وموسى بن داود، وجماعة من البصريين سمعوا منه ببغداد»

ويقول صاحب النجوم الزاهرة: قال الذهبي:

وحج سنة ثلاث عشرة ومائة فلقي عطاء ونافعا وابن أبي مليكة وأبا سعيد المقبري وأبا الزبير وابن شهاب فأكثر عنهم، ثم ذكر جماعة كثيرة ممن روى عنه.

إنه محدث، فهل هو ثقة؟ ما درجته كمحدث؟

ونبدأ بذكر رأي الإمام أحمد بن حنبل فيه: يقول أحمد بن سعد الزهري: «سمعت أحمد بن حنبل وسئل عن الليث بن سعد فقال: ثقة ثبت.. ويقول: «الليث كثير العلم، صحيح الحديث. ويقول الحسين بن إدريس الأنصاري: حدثنا أبو داود قال: سمعت أحمد يقول:

«ليس فيهم - يعني أهل مصر - أصح حديثا من الليث بن سعد، وعمرو بن الحارث يقاربه. ويروي صاحب تاريخ بغداد ما يلي: «قال الفضل - وهو ابن زياد - قال أحمد: «ليث بن سعد كثير العلم، صحيح الحديث».

ونذكر رأي يحيى بن معين:

عن عثمان بن سعيد الدارمي قال: قلت ليحيى: فالليث أحب إليك، ويحيى ثقة.. قلت: فالليث كيف حديثه عن نافع؟ فقال: صالح ثقة.

ويروي النسائي كثيرا من الأحاديث التي رواها الليث ويقول: «أبو الحارث الليث بن سعد المصري، ثقة».

ويقول صاحب كتاب الرحمة الغيثية: قال ابن أبي حاتم: سألت أبا زرعة: الليث يحتج بحديثه؟ قال: إي، لعمري.

وقال يحيى بن معين: ثبت.

وقال يعقوب بن شيبة ومحمد بن سعد وآخرون: ثقة.

ويقول صاحب ميزان الاعتدال: «الليث بن سعد الفهمي أبو الحارث: أحد

الأعلام والأئمة الأثبات، ثقة، حجة بلا نزاع».

لقد كان الليث محدثا ثقة، وكان واسع الأفق، رحب الصدر يتصرف بذكاء وحكمة، ومما روي عنه في ذلك ما ذكره صاحب الحلية قال: عن عمر بن سلمة قال: «تكلم الليث بن سعد في مسألة، فقال له رجل: يا أبا الحارث، في كتابك غير هذا؟.. قال: في كتابي أو في كتبنا ما إذا مر بنا هذبناه بعقولنا وألسنتنا».

وقال شعيب بن الليث: قيل لأبي: «إنا نسمع منك الحديث ليس في كتبك.. قال: لو كتبت ما في صدري في كتبي ما وسعه هذا المركب».

ولم يكن الليث في فقهه من أهل الرأي بل كان من أهل الأثر، وكان في الذروة من أهل الأثر، ومن المشهور أن الإمام مالكا هو إمام أهل الأثر، ومع ذلك فإن الآراء تختلف في ذلك، يقول الشافعي رضي الله عنه: «الليث بن سعد أتبع للأثر من مالك بن أنس».

وقال في العبر: كان أتبع للإثر من مالك.

أما عن فقه الإمام الليث فيرى ابن حجر ما يلي:

عن أحمد بن عبد الرحمن بن وهب قال: سمعت الشافعي يقول: الليث أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به.. وفي رواية عن الشافعي: «ضيعه قومه». وفي أخرى: «ضيعه أصحابه» وقال أبو محمد بن أبي حاتم: سمعت أبا زرعة يقول: سمعت يحيى بن بكير يقول:

الليث أفقه من مالك، ولكن كانت الحظوة لمالك. ويروي صاحب شذرات الذهب عن يحيى بن بكير نحوه أما عن تقدير الليث تقديرا عاما شاملا، فإننا نذكر ما يلي: قال أبو يعلى الخليلي.

كان إمام وقته بلا مدافعة.

وقال ابن حبان:

كان من سادات أهل زمانه فقها وعلما، وحفظا وفضلا وكرما.

ويقول ابن سعد: «وكان ثقة، كثير الحديث، صحيحه، وكان قد استقل بالفتوى في زمانه بمصر، وكان سريا من الرجال، نبيلا سخيا له ضيافة».

وقال النووي في تهذيبه: «أجمعوا على جلالته وأمانته وعلو مرتبته في الفقه والحديث».

ويقول يحيى بن بكير فيما رواه صاحب الشذرات: ما رأيت أحدا أكمل من الليث: كان فقيه النفس، عربي اللسان، يحسن القرآن والنحو، ويحفظ الحديث والشعر، حسن المذاكرة، ونتساءل: هل هذه السعة في الأفق، والرحابة في الصدر، والغزارة في العلم، جعلت في بعض آراء الليث شذوذا؟ وهذا تساؤل نراه ضروريا.. أما الإجابة عنه فقد سبق بها ابن حجر حيث يقول:

«ولقد تتبعت كتب الخلاف كثيرا فلم أقف فيها على مسألة واحدة، انفرد بها الليث عن الأئمة من الصحابة والتابعين، إلا في مسألة واحدة، وهي أنه كان يرى تحريم أكل الجراد الميت، وقد نقل ذلك أيضا عن بعض المالكية، والله سبحانه وتعالى أعلم.

ونبدأ في بيان آراء الليث ببعض ما كان بينه وبين الإمام مالك:

- **مالك والليث:**

كان بين الإمام مالك والإمام الليث رضي الله عنهما، مودة واحترام، يجل كل منهما الآخر، ويقدره تقديرا عظيما، على الرغم من اختلافهما في بعض الأمور، ولقد تبادل مالك والليث رسالتين حفظهما التاريخ، من أمتع الرسائل التي تبودلت بين كبار العلماء، فيهما تقدير متبادل وحسن بيان للرأي مع الأدب في التعبير، وحرص على وضوح الفكرة في أسلوب موجز.

بدأ مالك التراسل فأرسل إلى الليث هذه الرسالة التي تبدأ بتحية الإسلام، وحمد الله تعالى والدعاء للمرسل والمرسل إليه إنه يقول في ذلك:

من مالك بن أنس إلى الليث بن سعد: سلام عليكم، فإني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو أما بعد. عصمنا الله وإياك بطاعته في السر والعلانية، وعافانا وإياكم من كل مكروه.

ثم يبدأ الإمام مالك بذكر مقدمة للأساس الذي يراه مقياسا لصحيح الآراء، ولكنه في هذه المقدمة لا ينسى الثناء على الليث والاعتراف بمنزلته ولا ينسى

الموعظة والتخويف من الله تعالى فيقول:

واعلم رحمك الله أنه بلغني أنك تفتي الناس بأشياء مختلفة مخالفة لما عليه عندنا وببلدنا الذي نحن فيه، وأنت في أمانتك وفضلك ومنزلتك من أهل بلدك، وحاجة مَنْ قِبَلَكَ واعتمادهم على ما جاءهم منك.. حقيق بأن تخاف على نفسك، وتتبع ما ترجو النجاة باتباعه فإن الله تعالى يقول في كتابه:

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ (التوبة: ١٠٠). وقال تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾ (الزمر: ١٨). ثم يبدأ الإمام مالك في شرح وجهة نظره، ووجهة نظر الإمام مالك معروفة منذ عهده، وقد تحدث الأئمة عنها قديما وحديثا، ولا نجد خيرا من شرح الإمام مالك لها في رسالته هذه: إنه يقول بعد المقدمة التي ذكرناها:

فإنما الناس تبع لأهل المدينة:

أ- إليها كانت الهجرة.

ب- وبها تنزل القرآن، وأحل الحلال وحرم الحرام.

ج- وبها كان الصحابة إذ رسول الله ﷺ بين أظهرهم يحضرون الوحي والتنزيل ويأمرهم فيطيعونه، ويسن لهم فيتبعونه.. حتى توفاه الله، واختار له ما عنده، صلوات الله وسلامه عليه ورحمته وبركاته.

د- ثم قام من بعده أتبع الناس له من أمته ممن ولي الأمر من بعده، بما نزل بهم: فما علموا أنفذوه، وما لم يكن عندهم فيه علم سألوا عنه، ثم أخذوا بأقوى ما وجدوا في ذلك في اجتهادهم، وحداثة عهدهم، وإن خالفهم مخالف، أو قال امرؤ غيره أقوى منه وأولى، ترك قوله، وعمل بغيره.

هـ- ثم كان التابعون من بعدهم يسلكون تلك السبل، ويتبعون تلك السنن.

أما النتيجة التي يصل إليها الإمام مالك من كل ما تقدم فهي:

«فإذا كان الأمر بالمدينة ظاهرا معمولا به، لم أر لأحد خلافه: للذي في أيديهم من تلك الوراثة التي لا يجوز انتحالها ولا ادعاؤها، ولو ذهب أهل الأمصار يقولون: هذا العمل ببلدنا وهذا الذي مضى عليه من مضى منا لم يكونوا فيه من ذلك الذي جاز لهم».

والفكرة التي يدعو إليها الإمام مالك، والتي يجعلها إحدى أسس مذهبه هي أن عمل أهل المدينة حجة، وذلك للأسباب التي ذكرها ولها شأنها الكبير ووجاهتها التي لا تنكر.

ومع ذلك فإن العلماء أخذوا يفصلونها تفصيلا يستغرق الاحتمالات العقلية وأخذوا يقلبونها على مختلف وجوهها.

فيقولون مثلا: إن الإجماع الكامل لأهل المدينة حدث بالفعل في أمور منها مثلا:

أوقات الصلاة وعدد الركعات في الفروض.

ولكن هل شمل الإجماع بقية المسائل؟

ألم يختلف أهل المدينة أنفسهم في كثير من الأمور الفرعية التي تكون موضوع الفقه؟

ثم أمر آخر: هل يستوي إجماع أهل المدينة-إذا حدث - المستند إلى نقل مع إجماع أهل المدينة المستند إلى استنباط؟ ثم هل حدث إجماع حقيقي لأهل المدينة فيما عدا المسائل التي لم يختلف فيها أحد من المسلمين؟

لقد دار حول ذلك وغيره مما يتعلق بعمل أهل المدينة وحجيته أبحاث مستفيضة في كتب أصول الفقه.

وسنرى فيما بعد نظرة الإمام الليث للموضوع فإن فيها بيانا ومنطقا لا يتأتى أن يفعله باحث، اللهم إلا نادرا ولكننا قبل أن نذكر رد الليث على هذه الرسالة نذكر الختام الذي ختم به الإمام مالك رسالته وهو في غاية النفاسة، إنه يقول:

«فانظر رحمك الله فيما كتبت إليك لنفسك، واعلم أني أرجو ألا يكون قد دعاني إلى ما كتبت إليك إلا النصيحة لله وحده، والنظر لك، والضن بك، فأنزل

كتابي منزلته: فإنك إن فعلت تعلم أني لم آلك نصحا، وفقنا الله وإياك لطاعته، وطاعة رسوله في كل أمر وعلى كل حال والسلام عليك ورحمة الله. أهـ.

إنها رسالة تتسم بالأدب الرفيع النفيس .

٦ مقالات

الشيخ محمد عبد اللطيف السبكي

❑ ترجمة الشيخ.

❑ المقالات:

١- إشراقة الإسلام.

العدد (٣) ربيع الأول (١٣٨٥هـ) يوليو (١٩٦٥م)

٢- أحمد بن حنبل (١).

العدد (١١) ذو القعدة (١٣٨٥هـ) فبراير (١٩٦٦م).

٣- أحمد بن حنبل (٢).

العدد (١٤) صفر (١٣٨٦هـ) مايو (١٩٦٦م).

٤- من ملامح النبوة والرسالة.

العدد (٢٥) محرم (١٣٨٧هـ) إبريل (١٩٦٧م).

ترجمة الكاتب

محمد عبد اللطيف السبكي

ولد الشيخ في١٨ سبتمبر عام ١٨٩٦ ، بقرية سبك الضحاك بمحافظة المنوفية ومن هنا جاء لقبه السبكى نسبة إلى اسم القرية.

بعد تخرجه من الأزهر شغل الشيخ رحمه الله مدير عام التفتيش على التعليم الأزهري، ثم عميد كلية الشريعة لمدة خمس سنوات.

تولى الشيخ موقع رئاسة تحرير «مجلة الأزهر» قرابة العشرين عاما ، وله عدد كبير من المؤلفات كان أشهرها «فى رياض القرآن، والهجرة، والسيرة النبوية، والجهاد»، وكتاب «الحلال والحرام» و«المنتخب من السنة» و«الموسوعة الدينية» و«المنتخب من السنة». فضلا عن مئات المقالات التى نُشرت في العديد من الصحف والمجلات.

تدرج الشيخ في المناصب إلى أن حصل على عضوية هيئة كبار العلماء، وكان قاب قوسين من وصوله إلى مشيخة الأزهر لولا رأيه الصادم والمفارق للسائد حول فوائد البنوك والتأمين على الحياة الذي حال دون ذلك وتم العدول عن قرار تعيينه شيخا للأزهر قبل دقائق من وصوله إلى المنصب. اختاره الشيخ المراغي شيخ الأزهر رئيسا للجنة الفتوى لخمس سنوات أو يزيد.

كما كان رئيسا للجنة إحياء التراث الإسلامى بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ولجنة التعريف بالإسلام.

وفاته: توفي الشيخ السبكي فى٣١ مارس سنة ١٩٦٩م رحمه الله رحمة واسعة.

إشراقة الإسلام كانت بالدعوة إلى العلم

العدد (٣) ربيع الأول (١٣٨٥هـ) يوليو (١٩٦٥م).

في غضون ليلة من ليالي رمضان، وفي ظلمة غار موحش برأس الجبل كانت إشراقة الوحي على النبي الأمي بدعوته إلى القراءة.

وفي هذه الدعوة المفاجئة إيذان بأن القراءة وسيلة المعرفة، وإيحاء بأن الثقافة عماد الإنسانية، وتوجيه علوي إلى أن الحياة الجديدة التي هبط جبريل يحمل مصباحها إلى محمد بن عبدالله ﷺ، هي حياة العقل الراشد، والمعرفة الفياضة، والاهتداء بالعلم في آفاق هذه الدنيا.

أو هي حياة الوعي الإنساني في أكمل أطواره، أو هي حياة الإسلام وكفى.

ثم يكون هذا الأمر فوريًّا، ليس معلقًا على شيء ولا مرجأ عن تلك الساعة الراهنة.

وكيف ومحمد بن عبدالله أمي، لا يعرف كيف يقرأ، ولا يدري وسيلة لتعلم القراءة في ليلته الرهيبة؟

وهنا يتلهف محمد ويعتذر: ما أنا بقارئ.. ما أنا بقارئ (ثلاث مرات).

ثم يتكفل الله برفع الحرج عن مصطفاه، ويلقنه جبريل الأمين بقية وحيه الأول.

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾﴾ (العلق: ١- ٢)، وبهذا يعلمه: أن بدء القراءة يكون بذكر التسمية لله ذي القدرة على خلق الإنسان من علقة هينة الشأن.

ثم ينتقل به نقلة ثانية إلى التوجيه نحو العلم، والعلم، لاشك، ثمرة القراءة للإنسان.

ويشيد بالقلم، لأنه الأداة الحتمية لقيد العلم، وتدوين بنوده، وضبط شوارده، ليكون عماد الإنسانية، وثروة الدنيا، ووسيلة الحضارة على تعاقب الأزمان والأجيال، كما ينشد الإسلام في دعوته إلى العالم كله.

ولم يكن القلم كذلك بالنسبة للنبي المبعوث بهذه الرسالة، لأن الله كرمه عن الحاجة إلى القلم، وتعهده بالوحي من عنده، ورفعه عن بهتان الأفاكين، واتهامهم له بأنه ينقل عن إنسان سواه ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ (العنكبوت: ٤٨)، فالأمية في شأنه تمام الكمال له ﷺ.

ثم لتنظر بعد ذلك: هل العلم المطلوب نوع واحد؟ أو كله مستمد من جانب خاص؟

الذي نعهده - أولا - أن العلم يكون فيضًا محضًا من جانب الله، وهذه رسالة الله إلى خلقه من طريق الوحي إلى رسله، وذلك علم الدين.

أو هو علم كسبي يهدي الله إليه من يشاء، ممن توافرت لهم المواهب ونبهت فيهم القرائح، ونشطت منهم العزائم، فطرقوا أبواب العلم من جهاته المتعددة، والتمسوه بالحواس، وبالعقول، والتجارب، وأغراهم النجاح بمواصلة السير في آفاقه فأسلمت لهم المعرفة قيادها، ولا تزال في طريقها الفسيح الممدود. وذلك في علوم الدنيا.

وعلى جوانب العلم الصحيح نبتت معلومات أخرى لا تعتبر من علم الدين، ولا من علوم الدنيا، وإنما هي في الحقيقة كالطفيليات، تنجم في مجاري الماء، وعلى متن الحقول، فيحسبها البسطاء فصائل من النبات، وليست بنبات مفيد.

ومنها كهانة الكهان، وهي تراث قديم مزيف، ولا تزال شائعة بين الناس.

فإن يكن العلم - على إطلاقه - مستمدا من الوحي، أو كسبا بالمواهب الرشيدة، فالكهانة غير ذلك كله.

والذي نعهده: أن الكهانة في قديمها وحديثها تخمين مصطنع وتظاهر جريء بمعرفة الغيب الذي لا يعرفه الناس.

وبيانها في ضوء القرآن والسنة: أن الله - سبحانه - يعلم الغيب وحده، وأنه

لا يبدي غيبه إلا إذا شاء، ولمن شاء من ملائكته ورسله.

فعندما يبرز شيئا من غيبه لملائكته، ليتهيأ كل ملك منهم لتنفيذ ما يتعلق به من شؤون الدنيا وأهلها، يتحدث الملائكة بهذا فيما بينهم.

وقد جعل الله للشياطين من الجن قدرة على محاولات لا يطيقها الإنسان، فكان من دأب الجن أن يصعدوا إلى السماء فيقتربوا منها ليتسمعوا أحاديث الملائكة، ثم ينزلوا على خبثاء الناس الذين يلابسونهم في الأرض ويلقوا إليهم بما سمعوا، ويخلطوه بالكذب الكثير من عندهم.

ثم يتحدث هؤلاء الكهان إلى الناس بما عرفوا أو يزيدون فيه أو ينقصون منه ويبدلون.

فإذا أصاب الكهان صدفة في بعض ما يقولون، حسب الأغرارُ من السامعين أن الكهان يعرفون الغيب المكنون عند الله.

وعلى هذا راجت الكهانة، ولا تزال مقبولة عند أناس، وهي فتن شيطانية تفسد عقائد مصدقيها، وتزعزع ثقتهم في علم الغيب.

وكان هذا فاشيا قبل الإسلام، ولكن الله أعجز الشياطين عن الكثير من هذا، أو عن أكثره، فلم يعد لهم كبير تأثير في هذا منذ نزل القرآن، وبعث به محمد بن عبدالله ﷺ.

وإن يكن هناك قليل من هذا فإنه لاختبار الناس في تدينهم، وفي تصديقهم للأكاذيب على ربهم.

والله يقول ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾ (الشعراء: ٢٢١-٢٢٣).

ويحكي عن الجن قولهم ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾﴾ (الجن: ٨-٩)، وذلك أن الملائكة تحرس السماء من محاولات الجن.

فإذا حاولوا، كعادتهم، تبعتهم بالشهب النارية فتحرقهم أو تطاردهم فيعودوا فاشلين.

وبهذا نعلم أن الله كفانا شرًّا كبيرًا من محاولات الجن، وعلّمنا أن لهم ضلالات، لنتحفظ من الكهان، ولا نطيع الأباطيل التي يستخدمون فيها الفنجان والودع، وضرب الرمل، واستحضار الشياطين.

* * *

أحمد بن حنبل (١)

العدد (١١) ذوالقعدة (١٣٨٥هـ) فبراير (١٩٦٦م).

هو أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال الشيباني، ويمتد نسبه إلى نزار بن معد، ثم يصعد في هذا الأصل الشامخ إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام.

في سنة أربع وستين ومائة من الهجرة خرج محمد بن حنبل من بلده مرو إلى بغداد مقر الخلافة العباسية، وكانت زوجه صفية بنت عبدالملك الشيباني رفيقة سفره، وهي حامل حينذاك، وفي ربيع الأول من السنة عينها وضعت الزوجة في بغداد طفلها أحمد بن حنبل وهو إمامنا الذي نتحدث عنه.

كان جده حنبل واليا على سرخس في ظل العباسيين، وكان أبوه محمد قائدا في الجيش بعد، ولعل عمله في الجيش سبب انتقاله إلى بغداد قاعدة الحكم، وملتقى القواد.

غير أن أحمد نشأ يتيما لوفاة والده أيام طفولته، فلم ير أبا، ولا جدا، ولم يكن أبوه حين الوفاة قد جاوز الثلاثين من عمره، فلم يدرك أن يدخر مالا أو عقارا إلا دارا ببغداد كان يسكنها، وبعد وفاته أقامت الزوجة مع طفلها أحمد في جانب من الدار، وأجرت الجانب الآخر بدريهمات، كانت تستعين بها على العيش، حاضنة لولدها الصغير، وعلى هذا الحال تعهدت الأم صفية ابنها أحمد حتى بلغ مبلغ الفتيان، وانتهى من تعلم القرآن، مبرزا فيه تبريزا لفت إليه الأنظار، وأثار حوله العجب.

في السادسة عشرة من عمره نهض إلى طلب الحديث وجمعه في نشاط غريب من مثله، وكثير على سواه، حتى قال هو عن نفسه بعد: «كنت ربما أردت البكور في الحديث، فتأخذ أمي بثيابي وتقول: حتى يصبح الناس، توفر على الرواية،

وأكبَّ على التحصيل». فلم يشغله عن هذا طلب عيش ولا رقة حال، ولا تعرف إلى ذي سلطان، ولم يقعد به خلو يده عن الأسفار والسعي وراء العلماء في كل واد.

رحل من بغداد إلى الكوفة، ونزل البصرة ومكة، وطاف بالمدينة واليمن وقصد الشام والجزيرة، وهبط على خراسان وفارس، ويمم بلادا أخرى كثيرة يتتبع شيوخها، ويلقى علماءها، ويأخذ عن كلٍّ ما لديه من الحديث، مما يصح عنده، ويطمئن إليه، فلم يفته عالم سمع به، ولا بعدت عليه جهة يستقي منها العلم بسنة الرسول ﷺ، وما أثر عن أصحاب الرسول، ولقد أعيته النفقة يوما عن الوصول إلى بلاد الري ليأخذ عن عالمها جرير بن عبدالحميد، فكان يتأسف لعجزه ويقول: لو كانت عندي خمسون درهما كنت خرجت إلى الري إلى جرير بن عبدالحميد، ولكن خرج بعض أصحابنا، ولم يمكني الخروج، ولم يزل حريصا على لقاء جرير هذا حتى لقيه ببغداد في رحلة جاء فيها جرير، والتمس أحمد من علمه ما تهيأ له. ويحدثنا عنه أحمد بن سنان من سراة القوم في واسط فيقول: «قدم علينا أحمد بن حنبل في جماعة من البغداديين إلى الشيخ يزيد بن هارون واستقرضوني كلهم مالا وردوا إلا أحمد بن حنبل، لم يستقرضني بل أعطاني فروة له فبعتها له بسبعة دراهم».

وقد هوّن على أحمد هذه المشاق وسهّل عنده تلك المصاعب حفظ نادر، وفهم ممتاز، ورغبة لا يلحقها ملل، وتوفيق لم يعهد مثله إلا في رجال اختصهم الله تعالى بفضله، وقيضهم لحفظ السنة، وضبط الشريعة وصيانة الأحكام. قال أبوزرعة: كُتب أحمد بن حنبل ليس في أوائل أجزائها أسماء المحدثين الذين سمع عنهم، فكان يحفظ كل جزء ممن سمعه. وقال كذلك: حرزت كتب أحمد في اليوم الذي مات فبلغت اثني عشر حملا وعدلا ما كان على ظهر كتاب منها حديث فلان، ولا في بطنه حدثنا فلان، وكل ذلك كان يحفظه من ظهر قلبه، والروايات عنه في تقدير مواهبه تملأ الصفحات، وقد دأب أحمد على رواية الحديث، والتردد من بلد إلى بلد، ومن شيخ إلى شيخ، حتى بلغ الأربعين من

عمره فاستوى له أن يجلس للتحديث، وكان قبلُ يمتنع أن يجلس لذلك، ويمتنع أن يجلس للفتوى، إلا ما كان يسأل عنه من علم عنده.

وكثيرا ما كان يحيل السائلين على معاصريه من العلماء، بعدا عن التورط في الفتوى، وهي سنة الصحابة والتابعين.

● **مكانته في الحديث**

استطاع أحمد أن يجمع من الحديث خمسين ألفا وسبعمائة ألف حديث، ثم نقدها نقد الصيرفي الخبير، حتى صفاها من الدخيل، واستقر به الأمر على نحو من أربعين ألفًا، دَوَّنَ أحمد هذه الأحاديث في كتابه المشهور بالمسند، وحرص عليه حرص البخيل على ماله، وكان يقول لابنه عبدالله «احتفظ بهذا المسند فإنه سيكون للناس إماما». ويقول إسحق بن حنبل قريبه وتلميذه: جمعنا أحمد، أنا وصالح وعبدالله ابنا الإمام، وقرأ علينا المسند، وما سمعه منه غيرنا، وقال لنا «هذا كتاب قد جمعته وانتقيته من أكثر من سبعمائة ألف وخمسين ألف حديث، فما اختلف المسلمون فيه من حديث رسول الله ﷺ فارجعوا إليه فإن وجدتموه فيه وإلا فليس بحجة»، وكانت هذه هي مكانته في الحديث.

● **محنة الإمام أحمد**

على عهد الرشيد توقدت جمرات الخلاف المذهبي بين المعتزلة وغيرها من الطوائف، ونبتت الفكرة بأن القرآن مخلوق- يعني ليس بقديم- ثم اندلع لهيب الفتنة أيام المأمون، والمعتصم من بعده، وأخذت بدعة القرآن في مد وجزر بين الداعين إليها من أمثال بشر المريسي وأحمد بن أبي دؤاد قاضي بغداد، وبين المعارضين لها من أمثال أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح وغيرهما من وجوه العلماء. وكان المأمون يشد أزر المبتدعين لهذه الأحدوثة، ويعمل على كسب أنصار لها من أمثال أحمد بن حنبل ممن هم في مكان القدوة بين الناس، وبعد محاولات عدة ومناظرات حادة يئس المأمون من أحمد ومن معه من المعارضين، فأعمل سيفه في رقاب نفر منهم، وزج في السجن بآخرين، منهم ابن حنبل.

فلبث في السجن ثمانية وعشرين شهرًا- بين أخريات عهد المأمون وأول عهد

المعتصم- لقي فيها من ضروب الهوان والإيذاء، ما لا يطيقه إنسان ولا يصفه قلم، تقلبت عليه أحداث وحيكت له الدسائس من رجال المعتصم، وهو لا يلقى ذلك إلا بيقين راسخ، وصبر لا يهين، وجلادة تزيد الخصوم بأسا منه وحيرة في أمره.

- **تمسكه برأيه**

كان يؤتى به من السجن مقيدًا مهانا إلى مجالس المناظرة، ويواجه فيها بأحمد ابن أبي دؤاد، وأحمد بن رباح، وأبي شعيب الحجام، وأمثال هؤلاء من بطانة الخلفاء، فيقيم عليهم الحجة، ويلزمهم الخزي، فيضاعفون القيد في رجليه، ويعاد إلى السجن مخلوع النعلين مسحوبا في مذلة، ثم تتجدد المأساة من ساعة إلى ساعة ويضرب بالسياط المبرحة مرة بعد مرة، ويقطع عنه الزاد يوما وأيامًا، فما يكون منه إلا ثبات على حقه وازدراء لباطلهم واستهانة بكل ما يصنعون. ومما أثر عنه في إبان هذه المحنة أن الخليفة المعتصم أمر به يوما فجيء به من السجن وأوقفه بين يديه، وقال له: وقرابتي من رسول الله ﷺ لأضربنك بالسياط حتى تقول كما أقول بخلق القرآن، ثم التفت إلى الجلاد، وقال له: خذه إليك، فأخذه ناحيته وبدأ يضربه، وحينما ضربه السوط الأول قال أحمد: باسم الله، وفي الثاني قال: لا حول ولا قوة إلا بالله، وفي الثالث قال: القرآن كلام الله غير مخلوق، وفي الرابع قال: لن يصيبنا إلا ما كتبه الله لنا، ثم ما زال الجلاد يضربه إلى تسعة وعشرين سوطا، ويقول ميمون بن الأصبغ حينما بلغ الضرب إلى السوط التاسع والعشرين انقطعت التكة من سروال أحمد (رباط اللباس)، فقلت الساعة ينهتك، فرمى أحمد بطرفه إلى السماء، وحرك شفتيه، فثبت السروال ولم ينزل.

ويقول ابن الاصبغ هذا: فدخلت إلى أحمد في سجنه بعد سبعة أيام، وقلت له يا أبا عبدالله، أرأيتك يوم ضربوك قد انحل رباط سروالك فرفعت طرفك نحو السماء، وحركت شفتيك، فأي شيء قلت؟ قال أحمد: قلت اللهم إني على الصواب فلا تهتك لي سترًا. ولما تضاعفت المأساة بعد هذا تأذت نفس المروزي وهو صاحب أحمد وتلميذه، فدخل عليه السجن يومًا، وقال له: يا أستاذ، قال

الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ﴾ (النساء: ٢٩)، يريد منه أن يوافق الخليفة على قوله- ولو ظاهرًا- لينجو من الهلاك، فقال أحمد: يا مروزي، اخرج فانظر أي شيء ترى، فخرج المروزي إلى رحبة دار الخليفة، فوجد جمهرة من الناس لا يحصيها العدد، وبأيديهم الأقلام والمحابر، فسألهم المروزي: أي شيء تعملون؟ فقالوا ننتظر ما يقول أحمد فنكتبه، فدخل المروزي على أحمد وأخبره بذلك، فقال له أحمد: يا مروزي، هل أضل هؤلاء كلهم؟ أنا أقتل نفسي ولا أضلهم.

وفي هذه المحنة وأحاديثها فصول طوال، وقصص عجيب، كلها تدل على كمال الإيمان، ورسوخ العلم، وقوة الحجة، كما تدل على أن بطانة السوء شر ما يبتلى به الأمراء والرؤساء.

• تراجع المعتصم

وأخيرًا يئس المعتصم من إخضاع أحمد، فأشار عليه بعض بطانة السوء أن يقتله، ولكن آخرين منهم تخوفوا أن يكون قتله سببًا في فتنة شديدة، وهياج عام لتعلق الناس به، وتخوفوا كذلك أن يكون القتل سببا في فتنة أخرى لزيادة حب الناس لأحمد، وتعلقهم به أكثر إذا رأوه صبر حتى قتل.

هم يحسدوني على موتي فواعجبًا   حتى على الموت لا أخلو من الحسد

وقد جنح المعتصم لهذا الرأي، وحضر عم الإمام أحمد، وبعض أهله، وأشهدهم على أن أحمد صحيح البدن، وقال قد سلمته إليكم صحيح البدن.

• في عهد الواثق

وبهذا سكت الناس وهدأوا، ولم يكد يخرج أحمد من سجنه ويعود إلى مجالس العلم أياما حتى توفي المعتصم، وخلفه الواثق بالله، فاستدعى أحمد، وأفهمه أنه سوف لا يتعرض له، وإنما يطلب منه ألا يظهر في بلد يسكنه الخليفة، فاعتكف أحمد بعد ذلك نحو أربع سنوات من سنة ٢٢٨- ٢٣٢هـ، وكان اعتكافه في دار إبراهيم بن هانئ النيسابوري.

ويروي عنه إبراهيم هذا أنه طلب منه يوما أن ينقله من مكانه إلى مكان سواه،

فقال إبراهيم إني أخشى عليك يا أبا عبدالله أن تراك العيون، فقال له أحمد إن فعلت أفدتك، فنقله إلى دار أخرى، فقال له يا إبراهيم اختفى رسول الله ﷺ في الغار ثلاثة أيام، ثم تحول، وليس ينبغي أن يتبع رسول الله ﷺ في الرخاء وفي الشدة.

• تحوّل في صالح الإمام

وظل أحمد على اختفائه هذه المدة حتى توفي الواثق، وولي من بعده المتوكل. جاء المتوكل بسياسة جديدة، فأنكر ما كان يدعو إليه المأمون والمعتصم، وقاوم المفسدين بشجاعة لم تتهيأ للواثق، وآزر أهل السنة وشجعهم بماله وسلطانه، حتى خبت نار الفتنة، وعاد الحق إلى نصابه، واستطاع الإمام أحمد وتلاميذه أن يستردوا حريتهم المغصوبة ويعودوا إلى مجالس العلم آمنين وإلى إعلان كلمة الحق مطمئنين.

• مذهبه في الفقه وما يقال عنه

غلبت على الإمام أحمد نزعته إلى روايات الحديث وتدوينه عن رسول الله ﷺ فلم يكن يعنى بالتأليف في الفقه، ولا يدعو الناس إلى التدوين عنه، بل كان ينهى أن يكتب كلامَه سائله، ويود لو أن الناس سلكوا مسلكه، وتتبعوا حديث الرسول ﷺ والمأثور عن أصحابه، وكان يقول: عليكم بالحديث، ويقول: إنما أُمرنا أن نأخذ العلم من فوق. ومن أجل ذلك لم تكن له مؤلفات بعد المسند، إلا رسائل محدودة في الورع، وفي الصلاة، وفي الناسخ والمنسوخ، وفي المتقدم والمؤخر في القرآن، وفي جوابات القرآن، وفي المناسك.

وهذا التمنع عن التأليف لئلا يضيق وقته عن خدمة السنة، والسنة عنده بعد القرآن هي كل شيء، وأعز من كل شيء، والله سبحانه وتعالى يعلم حسن قصده، فحفظ علمه ونفع به عباده، إذ وفق تلاميذه أن يدونوا مسائله، ويثبتوا كل ما عرفوا عنه من أحكام، فكتبوا في هذا أكثر من ثلاثين سفرا، وظلت هذه الثروة العلمية تراثا خالدا للإسلام، وشاء الله أن يمتد فضل هذا الإمام فلم يبق مذهبه في

العراق، بل امتد إلى الشام ومصر، بل صار المذهب السائد المعتمد به في المملكة العربية السعودية. وإن مذهبًا يقوم على السنة ويستظل بلوائها، لجدير به أن تخفق رايته في بلد ترعرعت فيه السنة، وأشرقت فيه شمس الإسلام.

- **مكانته في الفقه إلى جانب مكانته في الحديث**

لم يكن أحمد معنيا بجمع الحديث لمجرد الحفظ والشهرة، بل جمعه وعنى نفسه في تحصيله ليصل إلى كل ما شرع الله، وليعرف ما يتجه إلينا في خطاب الله. وقد تسنى له ذلك فى ضوء علمه الغزير بالسنة ومعرفته الواسعة بكتاب الله، وقدرته الممتازة على تأويل الآيات أو تفسيرها، وأخذ ما يؤخذ من ألفاظها ومعانيها فكان له في الفقه مجال فسيح، وفهم صحيح، وكانت لمذهبه أصول وقواعد كلها موضع القبول عند الآخذين عنه، كما كانت موضع الإجلال عند معاصريه من عظماء زمانه.

وأي الناس أعرف بالإمام أحمد من أقرانه وشيوخه وتلاميذه، وهذا هو الشافعي ﷺ يقول: «خرجت من بغداد، وما تركت فيها أحدا أورع ولا أتقى ولا أفقه ولا أعلم من أحمد بن حنبل». وهذه شهادة من شيخ لتلميذه، وتلميذ لشيخه، فقد أخذ كل منهما عن الآخر، وكل يعرف صاحبه حقا. وكذلك يقول قتيبة بن سعيد «لو أدرك أحمد عصر الثوري ومالك والأوزاعي والليث بن سعد، لكان هو المقدم» وكان أبو القاسم ابن الخليلي يقول: كان أحمد بن حنبل إذا سئل عن المسألة كأن علم الدنيا بين عينيه. ويقول إسحق بن راهويه: كان أحمد إمامًا للدنيا. فنحن إزاء هذه الشهادات وأمثالها، وإزاء ما نعرف عن مذهبه بمزاولتنا له، لا يسعنا أن نضعه في الفقه إلا في الصف الأول من الأئمة، كما اعتبروه في الحديث إمام الأئمة.



أحمد بن حنبل (٢)

العدد (١٤) صفر (١٣٨٦هـ) مايو (١٩٦٦م)

● **تهمتان كاذبتان**

ومع ما لهذا الإمام من فضل واسع فقد علقت بأذهان الناس نحوه فكرتان كاذبتان ليس لهما حظ من صواب.

الأولى: أن فقه الإمام أحمد لا يتسع لحاجات الناس، وهذا لوقوفه عند النصوص، وتحرجه عن طرق باب القياس والاستنباط. والشريعة كما تؤخذ من النص تؤخذ بالقياس على المنصوص، وإلا ضاقت وكانت حرجًا، وذلك ما وقع فيه أحمد بن حنبل.

هذه تهمة من اثنتين يتحدث بها بعض المتعلمين. وهؤلاء في حاجة إلى الإرشاد والتوجيه، ذلك أن أحمد كثير الثروة من الأحاديث ومن المأثور عن الصحابة، كما قلنا وعرفنا، ومن كانت لديه ثروة كهذه فقلما يحتاج إلى القياس، كما يحتاج من لم تتوفر له هذه الكثرة، حتى إنك لتجد للإمام أحمد في المسألة الواحدة روايتين أو أكثر، وقد تجد لعلماء مذهبه بجانب ما نقلوا عنه توجيهات أخرى في المسألة الواحدة، وذلك كله لتعدد الأدلة واستوائها في القوة، وهذا يشهد بأن مذهب أحمد واسع الجوانب، كثير الموارد والمصادر، وهو أمر يعلمه الباحثون فيه من أولي العلم. وقد يحدثك به جمهرة من العلماء ومن رجال القضاء الشرعي والأهلي وممن لهم إقبال على الفقه الإسلامي.

على أن أحمد لم يغلق باب الاجتهاد، بل دعا إليه في قوله: إنما أمرنا أن نأخذ العلم من فوق. يعني من الأدلة لا بالتقليد، وكذلك لم يحظر القياس، بل

أقره وعمل به، وقال فيه: لا يستغني أحد عن القياس. وللقياس باب واسع في مذهبه، فكيف يقال: فقه أحمد قليل، والاجتهاد عنده محدود؟

نعم، لم يكن مذهب أحمد مذهب السلطان في مصر يوما ما، ولا كان مذهب القضاء إلا في فترات قصيرة، وفي جهات محدودة، فلم يتسع له الأفق كما اتسع لغيره، ولم يكثر فيه التخريج والتفريع كما كثر في مذاهب أخرى، لكن ليس معنى هذا أن فقه أحمد يضيق بما يحتاج إليه الناس، بل فيه فسحة لكل ما يجد ويقع من أحداث وشؤون، وإن لم تتسع لذلك نصوص يدخرها المذهب، فليتسع باب القياس، وباب الاستحسان عند أحمد وعلماء مذهبه، وليس في ذلك من حرج، متى وجد الداعي وتوافرت المسوغات.

والتهمة الثانية: وهذه تهمة أخرى ليست بضيق مذهبه وقلة أحكامه-كما زعموا- وإنما هي أشنع ذكرًا وأسوأ أثرا، هي تهمة التزُّمت والجمود والجنوح إلى الشدة والجفاف والبعد عن الرفق، سواء أكان في أحكام الدين أم في معاملات الناس، لم تبق هذه التهمة لدى بعض من أهل العلم فحسب كما كانت الأولى، بل جرت على ألسنة العوام وأصبحت فكاهة يتندرون بذكرها، حتى ليتصورون الحنابلة بعيدين عن سماحة الإسلام في المعاملات ومقتضيات الحياة.

وما كنا لنأبه لهذه الأراجيف لولا أنها تجر إلى سوء الفكرة عن الإمام أحمد وعن فقهه، ونحن من هذه التهمة في موقف العجب!

ولكن على أي حال:

قد قيل ما قيل إن صدقا وإن كذبًا فما اعتذارك من قول إذا قيلا

وإني لأقف رويدًا أمام هذه الفرية المكذوبة علّنا نرى الأصل الذي نجمت عنه والركن الذي هبت منه، والأمر في تعليلها لا يتعدى فروضا ثلاثة:

الأول: أن الناس في بلادنا يرون كثرة الأتباع للمذاهب الأخرى وقلة أتباع أحمد بالنسبة للآخرين فيعتبرون ذلك أمارة على الشدة والصلابة.

إن كل هذا رجم بالغيب، وعماية في الرأي، فما كانت الكثرة ولا القلة ميزانا بين مذهب ومذهب، وإنما الناس في طلب العلم، وخاصة في مصر وراء الآمال،

وقد كان مذهب أبي حنيفة يوما ما قليل الأتباع، فلما آزره سلطان الحكم العثماني واتخذوه مذهب الدولة رغب الناس فيه وأقبلوا عليه، فبان فضله وكثر أتباعه.

ومذهب أحمد غريب عن مصر، فلم تكن له مواطنة تعززه كما للشافعي ﷺ، ولم يصادف حظوة من تأييد الحكام كما لمذهب أبي حنيفة أحسن الله إليه، فليس صوابا أن تكون القلة أمارة على الصعوبة.

السبب الثاني: وهو أشبه بالصواب، أن الحنابلة في القرن الرابع الهجري بعد وفاة الإمام أحمد بفترة طويلة كانوا ذوي كثرة وغلبة في بغداد، وكانوا في مأمن من مقاومة الخلفاء فاستغلوا كثرتهم في مناصرة مذهبهم، وتعرضوا بالعنف لمن يخالفهم، وأساءوا إلى كثير من الخاصة ووجوه القوم، وابتدعوا أقوالا متطرفة تنسب إلى المذهب حتى اليوم، وليست منه في شيء، وأحدثوا في ترويجها شغبا آلم الناس، وأوغر صدور الحكام فنهض الخلفاء لمقاومتهم وهددوهم بالإيذاء والتنكيل حتى أقلعوا عن هذه المشادة، فإن صح هذا الموقف تعليلا لما ينسب إلى المذهب من شدة فهو تعليل وقتي في زمانه، وهو محلي لم يتعد حنابلة بغداد يومذاك، فليس من الإنصاف أن تلصق هذه القالة بصاحب المذهب، أو تساير أتباعه حتى في مصر وبعد هذه السنين الطوال، إنها فئة قليلة تشذ عن المذهب يوما ما، فيرمى بدائها الأبرياء في آخر الأيام؟

غيري جَنَىٰ وأنا المعذب فيكمو فكأنني سبابة المتندم

السبب الثالث: وهو أغرب من سابقيه وأصدق عندي، أن الإمام أحمد لقي من دسائس حساده وعنت الخلفاء ما ذكرت، ونزل به من الإيذاء والتعذيب ما لا يطيقه إلا المخلصون لدين الله الصابرون على ما أصابهم في سبيل الله، حتى هانت عليه حياته ورخصت عنده نفسه، ورضي بالموت عذبًا سائغًا دون أن يقول كلمة يرضي بها الخليفة، وينقذ بها نفسه مخافة أن يكون في لفظته مساس بالقرآن، أو أن يتأول الناس كلامه فيضلوا بسببه وهو يرى الموت أهون من الضلال والإضلال، فيبتعد عن الضلال ولو من أبعد الطرق، ويقدم على الهلاك ولو بأبشع الطرق، ما دام في هلاكه صيانة لكلام الله.

فيا ترى أيكون تحفظ الإمام لدينه وحرصه على الناس أن يضلوا بسببه أمرًا معيبًا عند البعض، وتهمة بالجمود والعصبية العمياء، ويُعيّر من أجله كل ثابت على مبدئه أو محتفظ بكرامته، أو معتز بشخيصته أو معتصم بدينه بأنه حنبلي؟

إن كانت العزيمة والتمسك بهذه الفضيلة معابة، فأنعم بالحنبلية شعارًا فوق رأسي، ووشاحا في صدري، وراية في يميني، وغرة في جبيني، وليقل الناس ما شاءوا «إن المحب عن العذال في صمم».

نعم، إن موقف أحمد إزاء الخلفاء لموقف التضحية، وهو المثار لهذه القالة، وكان العهد أن يشاد بهذا في الذكريات الطيبات، وأن يجري على ألسنة الناس مجرى الباقيات الصالحات، ولكن لما اعتل ذوق الناس للفضيلة، وفسد الرأي في تقديرها واضطرب في فهم ميزان الأخلاق، وانتكس الحق بينهم، وظهر الباطل فيهم، قلبوا الأوضاع على سمت غير سمتها، وسموا الأشياء بغير أسمائها، فكان الذياد عن الحق، أو عن العقيدة، رذيلة، وكانت مكرمة أحمد عندهم نقيصة.

ومن يك ذا فم مرٍ مريض   يجد مُرّا به العذب الزلالا

- **سيداتي، وسادتي القراء**

وإني إذ وقفت بكم أمام هذه التهمة ووصلت بكم إلى أن قائلها إنما يشهد على نفسه بالغباء، ويعلن جهالته بالفضيلة أين تكون، فإني لأرى من الحق علي، ومن سداد القول أن أنبه إلى أمرين، أحدهما: أن الإصلاح الاجتماعي في مصر قد لفت الأنظار إلى تطعيم القانون بالمذاهب الأربعة بعد أن تبين الحرج في البقاء على مذهب واحد، وبذلك أصبح قانون الأحوال الشخصية الذي يعمل به في المحاكم مزيجًا من المذاهب المذكورة، ولمذهب الحنابلة فيه قسط ذو بال، وفي هذا قضاء على سوء الظن بمذهب أحمد. كما أن الناس أصبحوا يعرضون مشاكلهم على لجنة الفتوى بالأزهر، ويسألون الحكم على المذاهب الأربعة، أو على المذهب الأرفق بحالتهم، وهذا يبشر بالتحلل من النزعات القديمة.

الأمر الثاني: الذي أنبه إليه هو أن أضرب لكم أمثلة من مذهب أحمد لم ترد عند غيره من المشهورين ليزداد الحق وضوحا لديكم، وتعلموا أن مذهبه يسر ولا

عسر فيه.

رقم (١) تجيز المذاهب للمتوضئ أن يمسح على خفه بدلا من غسل رجليه مع ملاحظة الشروط المعلومة، وأحمد بن حنبل يجيز المسح على الخف من الجلد وعلى الشراب الذي تلبسونه متى كان ساترا للقدم غير مخروق، وكان لبسه بعد وضوء كامل، ولم يزد لبسه للمقيم عن يوم وليلة.

رقم (٢) يجيز مذهب الحنابلة - على رواية فيه - أن يصلي الإنسان وهو لابس حذاءه بعد أن يمسح نعليه جيدا بالأرض ليزيل ما يمكن إزالته وما بقي من نجاسة النعلين معفو عنه.

رقم (٣) يجيز الحنابلة الجمع بين الظهر والعصر ثم بين المغرب والعشاء جمع تقديم في وقت الأولى أو جمع تأخير في وقت الثانية، وذلك لأصحاب الأعذار الذين لا يستطيعون تأدية كل صلاة في وقتها كعساكر البوليس في غير وقت الراحة، وكسائق القطار والترام والمريض والحامل والمرضعة، والعمال في المتاجر والمصانع، إذا كان عملهم لا يسمح أو يلحقهم ضرر في معايشهم إذا اشتغلوا بالصلاة في كل وقت.

رقم (٤) البهائم والطيور التي يؤكل لحمها وما يخرج من برازها لا يكون نجسا ولا يحتاج لتطهير ما تلوث بها من الثياب إذا كان علفها طاهرًا. وفي هذا فسحة وسهولة على الفلاح، وبائع الطيور، أما الدم فنجس كله.

رقم (٥) خروج الدم من جسم المتوضئ لا ينقض الوضوء إذا كان قليلا في نظر الإنسان حسب تقديره.

رقم (٦) إذا اجتمع العيد والجمعة في يوم واحد وصليت العيد لم يجب عليك أن تحضر للجمعة، وكفاك أن تصلي الظهر ولا إثم، فإن حضرت إلى مكان الجمعة وجبت.

رقم (٧) صلاة الجمعة عند الحنابلة تصح في وقت الضحى قبل دخول الظهر.

رقم (٨) إذا لم تجد المرأة زوجًا أو محرمًا من أهلها يخرج معها للحج فإنه لا يجب عليها مهما كانت غنية، بل لا يحل أن تسافر لأجله وحدها.

رقم (٩) إذا دفع المشتري عربونًا وشرط على نفسه أن يتركه للبائع إذا لم يتم شراؤه ثم لم يتم الشراء فالعربون ملك حلال للبائع مهما بلغت قيمته.

رقم (١٠) إذا كان أحد الأقارب غنيا وكان له أقارب فقراء لا يرثون وجب عليه أن يوصي لهم بشيء من ماله يأخذونه بعد وفاته.

رقم (١١) ذبح الحيوان والطيور حلال ولو كانت قصبة الرقبة غير مستديرة وسواء أكان الذبح من أعلاها أم من أسفلها أو من سطحها، ولكن بشرط تسميته عند الذبح.

رقم (١٢) مذهب الحنابلة يوجب العدل بين الأولاد في التركة والعطايا فلا يجوز عندهم إعطاء الذكور وحرمان الإناث، ولا تفضيل واحد منهم بأكثر من حقه الشرعي، إلا إذا سمح الآخرون عن طيب نفس منهم، وذلك لعدم الضغينة بين الأولاد، وهي حكمة معقولة يؤيدها الدليل والواقع.

رقم (١٣) الحيل التي يتوصل بها إلى تحليل محرم ممنوعة عند الحنابلة، وإن كان ظاهرها الصحة، فزواج المحلل باطل كما هو باطل عند بعض الأئمة، حتى ولو لم يصرحوا في العقد بشرط التحليل، بل متى نواه المحلل فلا يجعله حلالا، لأن العبرة في العقود بالمقاصد لا بمجرد الألفاظ وعدمها.

وإذا أعطى والد شيئا من ماله لأحد أولاده، وجعل ذلك بيعا صوريا له ثمن اسمي، فهو حرام وباطل في مشهور المذهب، لأنه احتيال على تفضيل بعضهم على بعض من غير تراضيهم.

بقيت مسألة مشهورة يقولها الناس هي أن ظل خيال الكلب ينجس من وقعت عليه في مذهب الإمام أحمد، وهي مسألة محرفة عن أصلها الصحيح، فخيال الكلب لا أثر له عندنا، ونجاسة الكلب عندنا كما هي عند غيرنا، فإن كان جافا لا بلل فيه فمسه لا ينجس، وريقه وعرقه والبلل منه نجس، ومسه ينجس. أما أصل المسألة الشائعة فإن الحديث النبوي صح عند الحنابلة على أن الكلب الأسود الذي ليس فيه أي لون آخر إذا مر بين المصلي وبين سترة صلاته بطلت الصلاة، وهذا هو المذهب والحديث عندهم قوي غير معارض، وعندما يصح الحديث

فالحنابلة لا ينصرفون عن الأخذ به، وإن غابت الحكمة العقلية. وقد صرح في الحديث بعلة ذلك، ونصه: «الكلب الأسود شيطان، إذا مر بين يدي المصلي بطلت صلاته». فالعلة في البطلان هي شبه الكلب بالشيطان، وهل الشيطان نفسه يبطل الصلاة بمروره، وهو دائما يحضرنا في الصلاة وفي غيرها؟ ذلك سؤال وارد، ولكن أدبهم مع الحديث لا يجعل للاعتراض أثرًا في الحكم.

وعندي أن الكلب الأسود البهيم لا يكاد يوجد، وقد تنقضي حياة الإنسان ولا يصادفه كلب أسود كالزيتونة.

وفي الحق أن الكلب بهذا الوصف بشع المنظر كريه إلى النفس، كما تكره رؤية الشيطان، والنبي صلوات الله عليه أكرم الناس شعورًا، وأرجحهم ذوقا وأسلمهم نظرة، ولعله بهذا ينفر الناس من قنية الكلب الأسود، ويحملهم على التباعد عنه، لأن الشيطان يتمثل به أكثر مما يتمثل بشيء آخر.

فإذا أدركنا قبح الكلب الأسود أكثر من غيره، وأدركنا تمثل الشيطان به أكثر من سواه، قرب إلى أذهاننا تنفير النبي ﷺ منه، حتى لا نحرص على اقتنائه، ذلك ما أحاوله. وعلى أي حال، فمادام في كل مذهب بعض أحكام نحس فيها غرابة ليست في غيرها، فمذهب أحمد لم يكن بدعا، وما دامت الشريعة بوجه عام مستقاة من القرآن والسنة وعمل الصحابة، فما ينبغي أن يعاب على فقيه شيء يقول به في مذهبه عن دليل صحيح.

هذه طائفة من القول عن أحمد ومذهبه، ومنها يظهر للقارئ أن هذا الإمام وقد ضرب في الورع أصدق الذكريات جدير عند الله - فيما نرجو له- بمكانته بين الصديقين والشهداء والصالحين. ويظهر كذلك أنه كان في الأولين شخصية مشرفة من كل ناحية، وأن سيرته في الآخرين ستظل عطرة فياحة يتضوع أريجها كلما ذكره الذاكرون، كما يتضوع أريج الأزهار في الرياض الناضرات كلما داعبها النسيم.

فإذا سمعتم بعد اليوم من يتفكه بكلمة حنبلي فقولوا له:

ما ضر شمس الضحى في الأفق طالعة
ألا يرى ضوءها من ليس ذا بصر

من ملامح النبوة والرسالة

العدد (٢٥) محرم (١٣٨٧هـ) إبريل (١٩٦٧م)

● **الإرهاص قبل الوحي**

لم تكن نبوة الأنبياء، ولا رسالات الرسل - عليهم جميعا صلاة الله وسلامه - من قبيل الوحي المفاجئ كما يتوهم البعض، بل كانت بعد مقدمات من جانب الله تعالى تتعلق بالإنسان الذي سيختاره الله لنبوته، أو لرسالته.

فتكون هذه المقدمات أمارات سابقة، تدل الناس في حينها على ما سيكون لهذا الإنسان من شأن خاص، ثم يحقق الله تلك الأمارات بالوحي من عنده، إلى عبده الذي اختاره وأرهص له.

وليكن حديثنا - أولا - عن الإرهاص حتى نفرغ، ثم يكون الحديث عن الوحي.

● **(أ) الإرهاص**

١- قال في القاموس المحيط: أرهص الله عبده: جعله معدنا للخير. وقد اصطلح العلماء قديما على تسمية الملامح التي تبدو في جانب هذا العبد إرهاصات.

والمعنى المقصود: أنها أمارات من الله على أن هذا الإنسان معدن الخير، كما هو المدلول اللغوي.

وقد حدثنا القرآن الكريم والسنة النبوية والتاريخ عن جملة من الإرهاصات بالنسبة لفريق من الأنبياء والرسل، من غير استيعاب للجميع.

ولم يتوسع القرآن الكريم، ولا السنة، في هذا الشأن عن الجميع، لأنه شيء يطول، والله- تعالى- يريد أن يبين لنا في تخفيف عنا، دون أن يشق علينا ما لا

نطيقه﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ (النساء: ٢٨). ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَۚ﴾ (النساء: ١٦٤)، وأما التاريخ فلم نجعله عمدتنا في هذا، لما عسى أن يقال فيه.

هذا، وقد ذكر الإمام القرطبي - في تفسيره - ما روي عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أنه قال: «قلت يا رسول الله، كم كانت الأنبياء، وكم كان المرسلون؟ قال ﷺ كانت الأنبياء مائة ألف، وأربعة وعشرين ألف نبي، وكان المرسلون ثلاثمائة وثلاثة عشر رسولا».

ثم قال القرطبي: هذا أصح ما روي في ذلك. وهذا كلام بين، وفيه الكفاية، لأن ما روي في ذلك كثير، وليس كله راجحا، كما صرح الإمام القرطبي.

والقرآن الكريم لم يتعرض لهذا العدد كله، كما نوهنا، تخفيفا، وتيسيرا.

وحينما نستعرض ما ورد موجزا في القرآن الكريم والسنة من تلك الإرهاصات أو الملامح، سنراها تأخذ في القلب نصيبها من الروعة، وتثير في النفس مباهج الإعجاب، وتنبه الإنسان رويدا رويدا من غفلة إلى يقظة، ومن جهالة إلى معرفة، ومن إنكار إلى إيمان، يوم كانت تلك الإرهاصات في عصرها، أو بعد عصرها، لمن لا يزالون في شقاق عن بعض الأنبياء والرسل.

وحينما يفقه الإنسان ويصيب الحق، يتأكد أن تلك الإرهاصات كانت وسيلة رحيمة بالإنسان الذي تعلقت به، إذ جعله الله معدنا للخير، لأنها تمهيد له، وتوجيه للأنظار نحوه. فلا يكون ظهوره بالوحي فيهم بعد ذلك بعيدا كل البعد عن مألوفهم، وما عهدوا فيه من الخير، ولا يستوحشون منه كما يستوحشون من غريب دخيل عليهم، فيتجهمون له جميعا، أو يتهجمون عليه.

وكذلك يتأكد من يفقه، ويصيب الحق، أن تلك الإرهاصات كانت وسيلة رحيمة بالقوم، لأنها تخلق فيهم وعيًا سابقًا، وتثير بينهم تفكيرا في شأنه، ومناجاة فيما عهدوا من ملامحه التي لم تكن لغيره من جمهرة الناس في محيطهم.

وذلك التمهيد يقرب الساعة العقلية بينهم وبينه، ويدنيهم أو يدني فريقا منهم إلى الاستئناس به. ويكون هذا التمهيد سبيل التجاوب بين الداعي والمدعوين،

وأيسر على الجانبين كثيرا مما لو فاجأهم بالوحي من الله، دون إرهاصات تتقدمه، توقظهم من غفلاتهم.

ويوضح قولنا هذا أن الله - تعالى- جرت سنته على أن يختار نبيه أو رسوله من بين قومه، ليكونوا على معرفة بشخصيته، وعلى علم بسيرته، وعلى خبرة بأصوله، وبكل ما يدور حوله فيهم.

فلا يكون مريبا، ولا مسترابا فيه، ولا يكون مغمورا في نفسه، ولا مغموزا فيه.

وإذا سفهوا في شأنه كان مردودا عليهم بالواقع الذي يعلمونه حقا دون أن ينزل قدره عن مكانته التي هيأها له ربه، ولا عن كرامته التي أقامه الله عليها.

وإن تناولوه من ناحية تمسه من هذا القبيل أو من قبيل دعوته، فالله كفيل بحمايته، ويظل بتكريم الله من المصطفين الأخيار، لم يمسسه سوء القالة.

وإن أزهقوا روحه وسفكوا دمه، فإنما هو الاستشهاد في سبيل الله، يذهب ضحيته الأخيار من عباد الرحمن، ويبوء بإثمهم الأشرار من جنود الشيطان.

وكان المفروض بعد أن تحصل الإرهاصات لمن جعلهم الله معدن الخير أن يكون للعقول رشاد، وللقلوب تَبصُّر، فلا تتخلف الاستجابة المرموقة عن المقدمات المشهودة بما أرهص الله به لعبده.

ولكن الناس يختلفون في فطرتهم، وفي ميولهم، فمن حسنت فطرتهم واستقامت ميولهم كانوا مهتدين، وقليل ما هم، ومن عميت بصائرهم وانحرفت ميولهم ضلوا عن الرشد، واستحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ (هود: ١١٨-١١٩).

• الإرهاص لآدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ

١- كان الإرهاص من فجر الحياة الدنيا، فحينما أراد الله أن يلقي الأضواء حول عبده آدم قبل أن يكون له شأن معروف أخبر الملائكة بقوله - سبحانه - ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: ٣٠)، فأدرك الملائكة من هذا، أو من أمارات بجانب هذا النبأ: أن ذلك تنويه بما سيكون لآدم في هذا العالم من قدر خطير، لأن آدم هو الوافد عليهم، فليس لديهم من مخلوق يتجه إليه الفكر سوى

هذا الإنسان الأرضي الذي كرمه ربه، فذلك إرهاص مبكر، تنبه له الملائكة، وعلقوا عليه بالاستفهامات، والتعاجب، وسبق إلى ذهنهم أنهم خير وأولى بالخلافة في الأرض من هذا الإنسان الذي لم يكن مستخلصا مثلهم من عالم النور، ولا مطبوعا مثلهم على تسبيح الله، والتقديس، ولكن الله رجع بهم إلى حكمته، وعلمه الرباني فقال لهم ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ (البقرة: ٣٠).

٢- ثم كان إرهاص آخر بما أفاض الله على آدم من علم لم تتهيأ له طبيعة الملائكة ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا﴾ (البقرة: ٣١) أسماء المخلوقات من بحار، وأشجار، وجبال، ونجوم، وكائنات أخرى. مما له ارتباط بحياة آدم في الأرض، التي سيكون خليفة فيها، هو وذريته إلى يوم القيامة، يعبدون الله فيها، ويستثمرونها بجهودهم.

٣- وكان إرهاص ثالث بتلك المناظرة التي امتحن الله فيها الملائكة، إذ عرض عليهم أن يجيبوا عن تلك المسميات، فلم يكن لهم الإمداد الذي ظفر به آدم. وهذا لعدم الأهلية لذلك العلم، ولكن آدم كان بطبيعته متأهلا، وكان بإمداد الله لهُ عالما، ومجيبا عما سئل.

٤- ثم كان إرهاص رابع: بتكليف الله للملائكة أن يعظموا آدم تعظيما يناسب مقامه بعد أن تبين لهم ما كان خافيا عليهم من حكمة الله في صنعه، واختياره للإنسان دون الملائكة.

٥- ويكون الإرهاص الخامس بتوبيخ الله لإبليس على امتناعه من تعظيم آدم تعظيما أشاد الله به، حتى سماه سجودا، وإن لم يكن سجودا على الجبهة كما نعهد، فإن هذا النوع لم يشرع لغير الله.

٦- وينتهي ذلك الإرهاص في هذه القضية بطرد إبليس من الجنة، رجيما مسخوطا بلعنة الله إلى يوم الدين، بسبب عصيانه لله في ما أمره من تعظيم آدم، ويلعنه الناس على وجه الأرض دائما.

لم يكن آدم أثناء هذا نبيا، ولا رسولا، وإنما هي تمهيدات لما يصادفه بعد ذلك من الوحي، فأي إرهاص يكون أبلغ من هذا في مطلع التاريخ البشري؟

ثم يقال: هل كان هذا الإرهاص تمهيدا لنبوة آدم، أو لرسالته كذلك؟

ويختلف العلماء في تحقيق هذا، ففريق يقرر أنه نبي فقط، لعدم وجود قوم يحتاجون إلى رسول فيهم. وآخرون يعتبرونه رسولا إلى ذريته الذين عاش فيهم أزمانا وعلمهم مما أوحى إليه ربه. وكيفما كان الرأي الأرجح، فآدم نبي على أقرب الوجوه، ورسول على قول راجح.

وتلك إرهاصات له- عليه السلام- وهذا ما أثبتناه من نصوص القرآن الكريم وكفى.

● **الإرهاص لإسماعيل عليه السلام**

١- قدم إبراهيم عليه السلام على مكة وهي خلاء من السكان، ومعه زوجته هاجر المصرية وولده إسماعيل، ثم تركها في رعاية الله حيث لا أنيس، ولا جليس، ولا زرع، ولا ضرع، وإنما هو تنفيذه لأمر الله، واستئناس منه برعاية الله، وقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ (إبراهيم: ٣٧).

فهذه الدعوات التي جرت على لسان إبراهيم حين مبارحته لتلك البقعة الجرداء التي اختارها الله مقاما لزوجته، ولولده الوحيد الذي رزق به على كبر من السن، وبعد تشوق ورجاء - تعتبر إرهاصة لإسماعيل، وفي طيها أسرار علوية ستبدو على الأيام.

ثم يخلق الله الماء - بعد ذلك - بجانب إسماعيل، ويجمع حوله السكان، ويعمر الوادي بأهله الذين استوطنوه من العرب، ويشب إسماعيل فيهم، ويترعرع جسمه على خير ما كان يرجو أبوه، وعلى خير ما كان يطمع إبراهيم في تأهيل المكان بأفئدة من الناس تهوي اليه.

٢- وبعد ذلك أذن الله بإرهاصة ثانية لإسماعيل، وهي موقفه من أبيه حينما أخبره إبراهيم بما أوحي إليه من ذبحه قربانا إلى الله لما بلغ معه السعي (يعني شب، وتهيأت قدرته لمزاولة الاعمال) ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي

ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ (الصافات: ١٠٢).

وكان إبراهيم لابد منفذا لرؤياه، لأنها وحي، كما هو الشأن في منامات الأنبياء.

وهذا موقف ليس هينا على والد مع ولده، وخاصة إبراهيم في شيخوخته مع وحيده إسماعيل الفتى، ولكنها عزيمة الرسالة، وصدق العهد مع الله من أنبيائه فوق عاطفة الأبوة والرفق بالبنوة، بل كانت عاطفة إبراهيم برؤياه إلى ولده، حتى لا يكون التنفيذ على غرة من إسماعيل. مع التصميم على التنفيذ فإن الغرة ليست من صنائع المؤمنين، فضلا عن النبيين، ثم كان بالاستفهام، ولم يكن بالأسلوب الخبري، لأن إبراهيم كما يشهد الله له رقيق القلب، كثير الضراعة والاسترحام، ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾ (هود: ٧٥). فهو يترفق بولده فيما يسوق إليه من تنفيذ ذبحه، طاعة لربه، ويكل الأمر ظاهرا إلى رأيه بهذه الاستشارة.

وكان إسماعيل يدرك أن أباه فاعل ولا محالة، فماذا أجاب في طاعة أبيه؟ قال: ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ (الصافات: ١٠٢) وكان هذا وعدا صادقا حقا، واستسلاما طيعا.

ثم ما كاد إبراهيم يتناول سكينه، ويلقي ولده على وجهه ليذبحه من الخلف، ويتفادى النظر إلى وجهه، لتخفيف الهول عن نفسه، حتى كانت رعاية الله أرفق من أبوة إبراهيم، وأسرع من وضع السكين على مقتل إسماعيل، إذ هتف هاتف السماء برحمة الله: ﴿... يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾ (الصافات: ١٠٤-١٠٧)- أي كبش كان ضحية إسماعيل - فهذه إرهاصة ثانية غير هينة الشأن، وقعت لإسماعيل وكانت مقرونة بالثناء من الله على إبراهيم وولده بما أثنى من الخير حتى كرر وصفهما بالمحسنين في القصة بسورة الصافات (١٠٢ -١١٠). كما تحدث القرآن بعد ذلك عن صدق إسماعيل في قوله تعالى ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾﴾ (مريم: ٥٤).

٣- ثم كانت إرهاصة ثالثة مذكورة في قوله تعالى ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ

أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ (البقرة: ١٢٥).

فتطهير مكان الكعبة داخل المسجد الحرام مما يكون به من أقذار وآثار تراكمت على طول الزمن، وإعداده لما تهيأ له من طواف الطائفين، وعبادة العاكفين والقائمين والركع السجود، لا يعتبر هذا كله شأنا عاديا يعهد الله به إلى مطلق إنسان، وإنما هو قضاء رباني يعهد الله به إلى رسوله إبراهيم ليقوم بتنفيذه مع ولده إسماعيل.

وقد كان ذلك التعاون، وتَحَقَّقَ العهد، وأقيم بناء البيت في البقعة المطهرة على يد رسول الله إبراهيم، وولده إسماعيل، وهما يجأران إلى الله بأطيب الدعوات ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾ (البقرة: ١٢٧ - ١٢٨).

وعلى ذلك تم البناء، وتحقق الدعاء، وشرع الحج، وصار البيت ملتقى جامعا للمسلمين من كل فج، ومناطا لهديهم، وجمعا بين قلوبهم على توحيد الله، وعصمة لهم بدين الله وتنظيما لصفوفهم حول من يصطفيه الله لدعوته ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ - تقويما لهم - (المائدة: ٩٧).

فإن يكن تطهير مكان البيت الحرام، وإقامة بنائه عهدا من الله تعالى إلى إبراهيم، وهو نبي مبعوث، فإن هذا بالنسبة لإسماعيل إرهاص واضح من جانب الله بما سيكون له من شأن بعد ذلك. وقد كان وتحققت رسالته بعد تلك الملامح السالفة.

وهي باكورة الرسالات في العرب، من نسل إسماعيل بصفة أخص، ثم لم تعقبها رسالة فيهم إلا أخيرا برسالة خاتم الأنبياء محمد- عليه الصلاة والسلام.

وإنما تحولت الرسالة من بعد إسماعيل إلى إسحاق أخيه لأبيه ثم استرسلت في يعقوب وبنيه من أنبياء بني إسرائيل - يعقوب - وعلى أي حال فقد ظلت في ذرية إبراهيم: مبدأ، ونهاية ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ (العنكبوت: ٢٧).

7

مقالات

د. محمد محمد أبو شهبة

- ترجمة الشيخ.
- المقالات:

(١) اعرف عدوك: أعداء الإنسانية.

العدد (٤) ربيع الثاني (١٣٨٥هـ) أغسطس (١٩٦٥م)

(٢) نحو ثقافة إسلامية.

العدد (١٦) ربيع الثاني (١٣٨٦هـ) - يوليو (١٩٦٦م).

(٣) تحويل القبلة إلى الكعبة.

العدد (٢٠) شعبان (١٣٨٦هـ) - نوفمبر (١٩٦٦م).

(٤) الجهاد في الإسلام (١).

العدد (٢٨) ربيع الثاني (١٣٨٧هـ) - يوليو (١٩٦٧م).

(٥) الجهاد في الإسلام (٢).

العدد (١٣٥) ربيع الأول (١٣٩٦هـ) - نوفمبر (١٩٧٠م).

(٦) أبو حنيفة النعمان (١).

العدد (٧٠) شوال (١٣٩٠هـ) - مارس (١٩٧٠م).

(٧) أبو حنيفة النعمان (٢).

العدد (٨٣) ذو القعدة (١٣٩١هـ) - ديسمبر (١٩٧١م).

(٨) اللغة العربية في القرآن.

العدد (١٧٤) جمادى الآخرة (١٣٩٩هـ) - إبريل (١٩٧٩م).

(٩) القرآن والسنة معا.

العدد (١٧٦) شعبان (١٣٩٩)هـ - يونيو (١٩٧٩م).

(١٠) الموعظة البليغة .

العدد (١٧٨) شوال (١٣٩٩هـ) - أغسطس (١٩٧٩م).

(١١) مساهمة المسلمين في العلوم.

العدد (١٨٢) صفر (١٤٠٠هـ) - ديسمبر (١٩٧٩م).

(١٢) المساجد الثلاثة.

العدد (١٨٧) رجب (١٤٠٠هـ) مايو (١٩٨٠م).

(١٣) ترغيب الشباب في الزواج.

العدد (١٩٨) رمضان (١٤٠٠هـ) - يوليو (١٩٨٠م).

تعريف بالكاتب

الدكتور/ محمد محمد أبو شهبة

ولد رَحِمَهُ اللَّهُ بقرية «منية جناح» الواقعة على ضفاف نهر النيل فرع رشيد التابعة لمركز ومدينة دسوق - محافظة كفر الشيخ - في ٢٥ شوال ١٣٣٢هـ - ١٥/ ٩/ ١٩١٤م.

بعد حصوله على الشهادة العالية في العام ١٩٣٩م، التحق بقسم الدراسات العليا «شعبة التفسير والحديث»، ثم نال شهادة الدكتوراه في عام١٩٤٦م بدرجة الامتياز، ثم عُين مدرسا بكلية أصول الدين ثم رقي إلى أستاذ مساعد، ثم أستاذ.

وفي عام ١٩٦٩م عين عميدا لكلية أصول الدين بأسيوط، أول كلية بأول فرع أنشئ لجامعة الأزهر في مصر.

في مطلع حياته العلمية أعير إلى المملكة العربية السعودية للتدريس بالمعهد العالي السعودي الذي صار كلية للشريعة، ثم أُعير إلى كلية الشريعة بجامعة بغداد فمكث بها عاما واظب فيه على درس الجمعة في مسجد الإمام أبي حنيفة النعمان، ثم أعير للجامعة الإسلامية بأم درمان بالسودان فمكث فيها نحو ثلاث سنوات، كانت توفده الجامعة كل رمضان إلى غرب السودان.

اهتم رَحِمَهُ اللَّهُ بالتأليف في القرآن الكريم وعلومه، والسنة النبوية المشرفة وعلومها والفقه والتشريع والسيرة النبوية والرد على المستشرقين، والمبشرين والملحدين، فمن مؤلفاته: «توفيق الباري في شرح صحيح البخاري، المدخل لدراسة القرآن الكريم، علوم الحديث» وغيرها.

وفاته: توفي رَحِمَهُ اللَّهُ في أيام عيد الفطر، بعد فريضة الصيام في صباح يوم الجمعة الموافق ٥ شوال ١٤٠٣هـ - ١٥/ ٧/ ١٩٨٣م عن عمر يناهز تسعة وسبعين عاما قضاها عالما عاملا وداعية مجاهدا.

اعرف عدوك

أعداء الإنسانية

العدد (٤) ربيع الثاني (١٣٨٥هـ) أغسطس (١٩٦٥م)

قال الحق تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾ (الأعراف: ١٦٧).

هذا إعلام من الله سبحانه صادق بأنه سيسلط على اليهود إلى يوم القيامة من ينزل بهم أشنع العذاب وأسوأه إذا ما ضلوا، وفجروا، وعاثوا في الأرض فسادا، وذلك لأن الله جلت حكمته سريع العقاب لمن عصاه، وغفور رحيم لمن أطاعه، وأناب إليه.

وكما كتب الله على اليهود تسليط الغير عليهم بسبب عصيانهم وإفسادهم في الأرض، كتب عليهم أن يفرقهم في الأرض بددا، وأن منهم الصالحون، وكثير منهم الطالحون المفسدون، وأن الله سيبتليهم بالخصب والجدب، والصحة والمرض، والقوة والضعف، والغنى والفقر، لعلهم يرجعون عن غيهم وإفسادهم، وتطاولهم على الأنبياء، وإسرافهم في قتلهم والنيل منهم، قال عز شأنه: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾ (الأعراف: ١٦٨).

وما ذكره القرآن الكريم على لسان نبينا الصادق الأمي الذي لم يقرأ ولم يكتب، ولم يعرف عنه أنه أخذ عن أحد من أهل الكتاب والعلم بالتواريخ شيئا، هو الحق الذي أيده التاريخ الصحيح، وشهدت به الوقائع الجارية، فهم من قبل موسى عليه الصلاة والسلام والله يسلط عليهم بين الحين والحين من يقتص منهم ويسومهم سوء العذاب، وقد نجاهم الله على يد موسى مما أصابهم من فرعون

وقومه، ولكنهم لم يشكروا هذه النعمة الجلى، وغيرها، وكفروا بالله، وبما جاء به الأنبياء والمرسلون، وما كان ربك لليهود ظالما، فسبحانه ثم سبحانه من أن يكون ذلك ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ (فصلت: ٤٦) ولكنهم قوم مرنوا على سفك الدماء وانتهاك الأعراض، واغتصاب الأموال، والسعي في الأرض بشتى أنواع المفاسد، وهم إن قدروا، أو ملكوا لا يراعون إلًّا ولا ذمة، ولا يلتزمون بشريعة، ولا يحترمون حقا، ولا عرفا، ولا خلقا كريما، ويضربون بالمقررات والحقوق الإنسانية عرض الحائط، وإن ضعفوا وذلوا كانوا أداة غدر وخيانة، ودسائس ومؤامرات، وعوامل تخريب وإفساد وشر.

● **عصابة متمردة**

وقد وصفهم نبي الله موسى عليه السلام في التوراة بأنهم متمردون، ورقابهم صلبة، وقلوبهم قاسية، وأخبر أنهم بعد موته سيكونون أشد تمردا وعصيانا، ففي سفر التثنية الإصحاح ٣١ فقرة ٢٤-٣٠ «(24) فعندما كمل موسى كتابة هذه التوراة في كتاب إلى تمامها (25) أمر موسى اللاويين حاملي التابوت عهد الرب قائلا (26) خذوا كتاب التوراة هذا وضعوه بجانب عهد الرب إليكم ليكون هناك شاهدا عليكم (27) لأني أنا عارف تمردكم ورقابكم الصلبة. هو ذا وأنا بعد حي معكم، اليوم قد صرتم تقاومون الرب فكم بالحري بعد موتي (28) اجمعوا إلي كل شيوخ أسباطكم وعرفائكم لأنطق في مسامعهم بهذه الكلمات، وأشهد عليهم السماء والأرض (29) لأني عارف أنكم بعد موتي تفسدون وتزيغون عن الطريق الذي أوصيتكم به ويصيبكم الشر في آخر الأيام، لأنكم تعملون الشر أمام الرب حتى تغيظوه بأعمال أيديكم (30) فنطق موسى في مسامع كل جماعة إسرائيل بكلمات هذا النشيد إلى تمامه».

وقد جاء القرآن الصادق المهيمن على الكتب السماوية السابقة بتصديق ذلك وأفاض في ذكر مثالبهم، وتعداد مساوئهم وتجرئهم وسفاههم على ربهم، وعلى أنبيائه، وعلى الناس قاطبة، فالله سبحانه حينما يسلط عليهم من يخزيهم ويذلهم

إنما يجازيهم بأفعالهم، ويؤاخذهم بجرائمهم، وصدق الله حيث يقول: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ (البقرة: ٢٥١).

لقد سلط عليهم لما طغوا وتجبروا «بختنصر» البابلي فقتلهم، وخرب ديارهم، وأسر الكثيرين منهم، وأذلهم حينا من الزمان، ثم لما قووا، وعلوا في الأرض، وأكثروا من الإفساد وقتل الأنبياء سلط الله عليهم أيضا من ملوك فارس والروم «كطيطوس» النصراني فأذل كبرياءهم، وأسام وجوههم وتبر ديارهم، وعاشوا مستذلين حقبا من الزمان.

وإليك قول الحق تبارك وتعالى في هذا ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾﴾ (الإسراء: ٤ - ٨).

فتأمل معي في قوله سبحانه ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ (الاسراء: ٨) يعني إن عدتم إلى المعاصي والإفساد عدنا إلى تسليطنا عليكم من يذلكم في الدنيا، هذا عدا ما ندخره لكم من عذاب أليم في الآخرة.

• الأعداء الألداء

هذه بعض جرائمهم[1]، وهذه بعض عقوبات الله لهم على يد عباد من عباده قبل مجيء خاتم الأنبياء، فلما جاء الإسلام، وهاجر النبي ﷺ إلى المدينة أحسن

---

(١) ومن أعظم جرائمهم قتل أحد ملوكهم يحيى عليه السلام من أجل امرأة بغي ومحاولتهم قتل عيسى عليه السلام ومكرهم به لولا أن أنجاه الله منهم ورفعه إليه، ورميهم السيدة العذراء مريم بالزنا، فهل نسيت دول الاستعمار اليوم وهي مسيحية هذه الجرائم؟

إليهم، وأقرهم على دينهم ودنياهم، ولكنهم قابلوا الإحسان بالإساءة، والتسامح بالخديعة، والعفو بمحاولة القتل، وألبوا عليه الأعداء، ونقضوا العهود وأرادوا غير مرة طعنه وأصحابه من الظهر، وأسفوا إسفافا لا يرتضيه إنسان فيه بقية من حياء أو خلق، فما كان من الرسول والصحابة إلا أن أذلوهم وهزموهم شر هزيمة وأجلوهم عن الأرض الطيبة - أرض المدينة - إلى خيبر وغيرها، ثم لم يلبث يهود خيبر وما جاورها أن غدروا وأفسدوا، فحاصرهم المسلمون وأذلوهم، فلم يجدوا بدًّا من النزول على حكم الله ورسوله، وبذلك أدال الله دولتهم، وأذهب عزهم، وقضى على سلطانهم في الجزيرة العربية، وعاشوا في خيبر وما جاورها أذلاء صاغرين، ثم تولى الفاروق عمر بن الخطاب الخلافة، فأجلاهم عن أرض خيبر وما جاورها، وبهذا طهر أرض الحجاز من رجسهم، وغدرهم وخيانتهم، وشرهم المستطير، وكما ابتلي اليهود في القديم بمن أذلهم، وشردهم، ابتلوا في العصر الحديث بحكام ألمانيا النازية فساموهم سوء العذاب، وطردوهم من بلادهم شر طردة، وشردوهم في الآفاق.

● إن موعدهم الصبح

وقد لاحت لهم بارقة أمل في هذا العصر لما احتضنهم المستعمرون، أعداء الإسلام، وأعداء العرب، وأعداء الإنسانية، ووعدوهم بالوطن القومي، وجمعوهم من الآفاق، وأسكنوهم في الأرض المباركة أرض فلسطين الشهيدة، وأمدوهم بأسلحة الهلاك والدمار، والغدر والخيانة، فذبحوا وقتلوا العرب الآمنين، أهل البلاد الأصليين، وانتهكوا الأعراض، واغتصبوا الأموال، ثم كان ما كان من إجلاء العرب أبناء البلاد، وتمتع المغتصبين بخيرات البلاد وبركاتها، وبقي أهل البلاد مشردين في الصحراء والعراء، يفترشون الأرض، ويلتحفون السماء، وهد من كيانهم الجوع والعري والبرد والحر، كل ذلك على مرأى ومسمع من العالم الحر، عالم القرن العشرين، ولئن عز عليهم عدل أهل الأرض، فلن ييأسوا من عدل السماء وصدق الله العظيم ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾﴾ (إبراهيم: ٤٢).

إن الباطل مهما علا وتجبر فلابد أن يكون مآله إلى العفاء والفناء، والحق مهما ضعف وتوارى وراء حجب الباطل فلابد له يوما من الظهور والاستعلاء، وما يتراءى لإسرائيل اليوم من قوة ومنعة فإنما هي فورة قدر، سرعان ما تزول، وسحابة صيف عن قريب تقشع، ودولة الباطل ساعة، ودولة الحق إلى قيام الساعة وهذه سنة الله في الكون، ولن تجد لسنة الله تبديلا، وصدق الله العظيم﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ۚ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾ (الرعد: ١٧)، ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ۚ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ (الإسراء: ٨١)، ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾(الأنبياء: ١٨).

أيها المسلمون: لقد سمعتم في القرآن الكريم- الذي هو ذكركم وشرفكم - كيف قرن الله سبحانه بين علوهم علوا كبيرا، وإفسادهم في الأرض إفسادا كبيرا، وسمعتم أن اليهود لما علوا واستكبروا في الأرض، سلط الله عليهم في كل مرة من أذلهم وتبر ديارهم، وسمعتم ما أوعد الله به من تسليط من يسومهم سوء العذاب إلى يوم القيامة، وسمعتم قوله: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ (الاسراء: ٨) فهل بعد ذلك يشك مؤمن معتز بدينه وعروبته في أن الله القوي القاهر سيديل - على أيديكم - دولتهم، ويكسر شوكتهم، ويصيرهم مثلا وعبرة في الآخرين؟ لقد وعدنا الله سبحانه، ووعدهم بلفور وأعوانه، فأين وعد بلفور المتجني الآثم من وعد الله الحق الصادق؟ لقد سمعتم أن الله سبحانه جرت سنته مع اليهود أن يدعهم حتى يبلغ إفسادهم وظلمهم المدى، وحينئذ يأخذهم بأيدي عباد له أشداء أخذ عزيز مقتدر، وإن هذا اليوم لقريب إن شاء الله إذا ما سار المسلمون في الطريق اللاحب، طريق الوحدة، وجمع الكلمة، ولم الشمل، وأخذوا أنفسهم بهدى القرآن من إعداد العدة، وأخذ الأهبة للأعداء، وعقد العزم على إرجاع الحق المغتصب وصدق الله: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا

مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ (الأنفال: ٦٠).

لقد لاحت أضواء الفجر، وبدت بواكير النصر، وذلك بعقد المؤتمرات والمشاورات بين ملوك العرب ورؤسائهم وقادتهم، وستؤتي أكلها قريبا بإذن الله سبحانه، وإن غدا لناظره قريب، إن أملنا ورجاءنا كبير أن ينصر الله الفئة المؤمنة على الفئة الكافرة الغادرة، وأن ينصر أهل الحق على أهل الباطل، وأهل الصلاح على أهل الفساد، ولكن لذلك ثمنا غاليا، أن نعتز بإسلامنا كأقوى ما يكون الاعتزاز، ونهتدي بهدى شريعتنا التي صيرت من العرب خير أمة أخرجت للناس، وإذا تآزر الإسلام والعروبة فقل على المستعمرين والباغين العفاء.

ولا يسعني إلا أن أختم مقالي بهذا الحديث النبوي الشريف، روى الإمام مسلم في صحيحه بسنده عن ابن عمر وأبي هريرة رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون، حتى يختبئ اليهود من وراء الحجر والشجر فيقول الحجر والشجر يا مسلم يا عبدالله هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله»..

● الهجرة الصهيونية

فتحت السلطات اليهودية أبواب فلسطين لليهود بعد عام ١٩٤٨، وفيما يلي صورة عن هذه الهجرة بين عامي ١٩٤٨ -١٩٦٠م حسب البلاد التي قدم منها المهاجرون.

القارة	الدولة	عدد المهاجرين
أوروبا	- رومانيا	١٤٥,٠٠٠
	- بولندا	١٣٠,٠٠٠
	- بلغاريا	٣٩,٠٠٠
	- هنغاريا	٢٧,٠٠٠
	- تشيكوسلوفاكيا	١٨,٠٠٠
	- يوغوسلافيا	٧,٥٠٠
	- الاتحاد السوفياتي	٥,٠٠٠
	- أقطار أوروبية أخرى	٤٥,٠٠٠
المجموع =	٤١٦,٥٠٠	

تابع الجدول بأعداد المهاجرين اليهود

أميركا	- الولايات المتحدة	٥,٠٠٠
	- أقطار أميركية أخرى	١٠,٠٠٠
المجموع =		١٥,٠٠٠
آسيا	العراق	١٢٠,٠٠٠
	اليمن	٥٠,٠٠٠
	تركيا	٣٦,٠٠٠
	إيران	٣٣,٠٠٠
	الهند	٥,٥٠٠
المجموع=		٢٤٤,٥٠٠
إفريقيا	الجزائر، تونس، مراكش	١٥٠,٠٠٠
	ليبيا	٣٢,٠٠٠
	ج. ع. م	٢٥,٠٠٠
المجموع =		٢٠٧,٠٠٠
أقطار لم تحدد		٢٢,٠٠٠
المجموع العام =		٩٠٥,٠٠٠

نقلا عن نشرة فلسطين التي تصدرها وزارة الإرشاد والأنباء بالكويت.

* * *

نحو ثقافة إسلامية

العدد (١٦) ربيع الثاني (١٣٨٦هـ) يوليو (١٩٦٦م)

لقد استقلت معظم البلاد الإسلامية والعربية سياسيًّا، وأصبح لها كيان دولي قوي، ورأي له قيمته وخطره في المشاكل الدولية والعالمية بعد أن كان يصدق عليها قول الشاعر العربي:

ويقضى الأمر حين تغيب تيم ولا يستشهدون وهم حضور

وجرت في مضمار الاستقلال الاقتصادي أشواطا بعيدة ولم تعد تابعة لأحد في اقتصادها كما كانت من قبل، وبقي عليها أن تتم استقلالها الثقافي، وأن تحيي ما أماته الاستعمار من ثقافتنا الإسلامية العربية الأصيلة، هذه الثقافة التي هي بسبب وثيق من ديننا وأخلاقنا وعروبتنا وبيئتنا، والتي تتسم بالروحانية والخلقية الكريمة والمعاني الإنسانية النبيلة، والتي أظلت العالم بظلالها الوارفة أحقابًا من الزمان، والاستعماريون الدخلاء لما اغتصبوا بلاد الإسلام والعروبة في القرن الأخير لم يكتفوا بالغزو السياسي والاقتصادي، بل جعلوا جل اهتمامهم مسخ معالم الثقافة الإسلامية والعربية من نفوس الشعوب وإحلال الثقافة الغربية محلها، واتبعوا في ذلك وسائل الإرهاب حينا، والترغيب حينا آخر حتى تم لهم الكثير مما أرادوا، وغدا من المؤسف حقا أن نجد بعض اللغات الأوروبية كالإنجليزية والفرنسية هي السائدة في بلاد جل أهلها عرب مسلمون وأصبحت اللغة العربية لغة القرآن غريبة في هذه الأقطار، لا تستقيم بها ألسنة أهلها، وإنما ينطقونها برطانة أعجمية، ولسان غير عربي، وإذا كان هذا حال اللغة العربية فما بالك بغيرها من ألوان الثقافة الإسلامية والعربية، وما أكثرها وأجلها.

وليس أدل على نجاح المستعمرين في إضعاف الثقافة الإسلامية والعربية في

البلاد التي منيت بهم من أن علوم القرآن الكريم وعلوم السنة النبوية، وهما الأصلان الأصيلان للإسلام، لا يكاد يعرف منهما طلاب المدارس والمعاهد والجامعات المدنية شيئا ذا غناء، وإذا استثنينا جامعة الأزهر، وبعض الجامعات الإسلامية الأخرى، وبعض الكليات التي تعنى بالدراسات الإسلامية فإننا نجد الثقافة القرآنية والحديثية تكاد تنحصر في جملة من الآيات، والأحاديث النبوية تدرس دراسة سطحية خاطفة على أنها نماذج أدبية، أو أمثلة لآداب وأخلاق إسلامية، من غير أن يكون لها أثر واضح في الاعتقاد والسلوك والآداب.

وكم من المثقفين وطلاب المدارس والجامعات من يعرف ما هو القرآن؟ وكيف نزل؟ ومتى نزل؟ وعلى أي حال كان يتلقاه النبي ﷺ؟ وأسباب نزوله؟ ومكيه ومدنيه؟ ومميزات وخصائص كل من القسمين، وكيف جمع القرآن الكريم ودون بين يدي النبي ﷺ؟ وما هي الأطوار التي مر بها جمع القرآن وكتابته وعناية الأمة الإسلامية بكتابها من لدن الصحابة حتى وصل إلينا كما أنزله الله من غير تحريف ولا تبديل، ولا زيادة ولا نقصان، وما هو إعجاز القرآن؟ وما هي وجوه الإعجاز؟ وإقامة الأدلة والبراهين على هذا الإعجاز إلى غير ذلك من الثقافة القرآنية التي لا يستغني عنها مسلم فضلا عن طالب علم كأمثال القرآن، وأقسامه، وقصصه ومجازه، ومحكمه ومتشابهه، وجدله ومناظراته، وأنواع حججه وبراهينه وطريقته الفذة الغضة في إقامة براهينه العقلية والكونية والوجدانية، وهذا قل من كثر، وغيض من فيض من الثقافة القرآنية ولعلك تعجب معي من هذه القصة. قال الأصمعي سمعت بنتا من الأعراب خماسية أو سداسية[1] تنشد:

أستغفر الله لذنبي كله ... قتلت إنسانا بغير حله

مثل غزال ناعم في دله ... وانتصف الليل ولم أصله

فقلت لها: قاتلك الله ما أفصحك!

فقالت: ويحك أيعد هذا فصاحة مع قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ

(١) يعني بنت خمس أو ست سنين.

مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ (القصص: ٧) فجمع في آية واحدة بين خبرين، وأمرين، ونهيين، وبشارتين[(١)] فإذا كانت ثقافة هذه البنت الصغيرة على هذه الحال، فما بالك بالكبار من الرجال، والكبيرات من النساء؟ وكم من المثقفين وطلاب العلم اليوم من يساوي هذه البنت أو يدانيها في ثقافتها؟

وليست الثقافة الحديثة بأوفر حظا من الثقافة القرآنية لدى الكثرة الكاثرة من طلاب العلم والمثقفين، وكم من هؤلاء من يعلم ما هي السنة وما هو الحديث؟ وما هو الخبر وما هو الأثر؟ ومنزلة السنة من القرآن؟ والأدلة المتكاثرة على حجية السنة واعتبارها مصدرا من مصادر التشريع، ومتى دونت الأحاديث؟ وعناية المسلمين بها من لدن النبي ﷺ إلى أن دونت وكتبت في الصحاح، والمسانيد، والسنن، والجوامع، ثم استمرت هذه العناية إلى وقتنا هذا شرحا وفقها واستنباطا، وتنقية لها من كل شوائب الاختلاق والدس بحسب الجهد البشري، وذلك بفضل القواعد والأصول التي وضعها علماء أصول الرواية في الإسلام والتي تعتبر بحق أوفى القواعد وأرقاها، وأدقها في علم النقد بقسميه نقد السند والمتن، أو بالتعبير الحديث النقد الخارجي والنقد الداخلي، وللمحدثين في تاريخ نقد الرجال وميزانهم الميزان الدقيق ثروة لا تكاد تعرف في أمة من الأمم، فكم من المثقفين وطلاب العلم من يثقفون هذه المعارف ويعرفونها؟

فمتى نرى هذه الثقافة الإسلامية الأصيلة أمرا مشاعا بين طلابنا وطالباتنا، ومثقفينا ومثقفاتنا، حتى نعود بالمجتمع الإسلامي إلى ما كان عليه من نضج علمي، وثقافة واسعة بالقرآن والسنة.

وإذا تركنا الثقافة القرآنية والحديثية إلى غيرهما من ألوان الثقافة والمعارف الإسلامية وجدنا معرفة الطلاب والمثقفين لها ضحلة، فالدراسات الفقهية والتشريعية لم تلق العناية بها، ونحن الأمة الإسلامية لنا تاريخ حافل مجيد في الفقه والاجتهاد، وعندنا ثروة ضخمة من كتب الفقه والأصول والشروح والأقضية

---

(١) الخبران أوحينا وخفت، الأمران أرضعيه وألقيه، النهيان ولا تخافي ولا تحزني، البشارتان إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين.

والفتاوى تعدو عن الحصر، وتملأ خزانة وحدها، وهذه الثروة الطائلة لا تحتاج إلا إلى ترتيب وتهذيب وتقنين فتبدو في ثوب قشيب جذاب يجذب الأبصار ويشبع العقول، وكان من أثر ضعف الثقافة الفقهية أن الكثرة من طلاب العلم العرب يعرفون عن رجال القانون، وأصحاب الشروح على هذه القوانين ما لا يعرفونه عن الأئمة أبي حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد، والأوزاعي، والليث بن سعد، وأبي يوسف القاضي، ومحمد بن الحسن، والبويطي، والمزني، والربيع الجيزي، وابن القاسم، وأشهب، والخلال، والسرخسي، والطحاوي وغيرهم من أساطين الفقه والشريعة. والدراسات اللغوية والأدبية ضعيفة وقَلَّ الاعتناء بها، ولذا نجد الطلاب يعرفون من أدباء الغرب وأعلامه أكثر مما يعرفون عن أعلام اللغة والأدب من المسلمين العرب أمثال الأصمعي، والجاحظ وابن عبدربه، وأبي علي القالي، وأبي الفرج الأصبهاني، والقلقشندي، والنويري والجوهري، والفيروزآبادي وابن منظور وغيرهم وما أكثرهم.

وكذلك الدراسات العقلية والفلسفية الإسلامية لا تجد عند طلاب الجامعات ومعاهد العلم قبولا ورواجا كدراسة الفلسفة الأوروبية ورجالها، لذلك لا تعجب إذا كان الطالب يعرف عن أعلام الفلسفة الغربية ما لا يعرفه عن الغزالي والكندي وابن سينا والفارابي وابن رشد والرازي الذين لم يكونوا مجرد نقلة للفلسفة الإغريقية كما زعم المتجنون على العرب، وأنكروا أن يكون لهم فضل وابتكار في علم أو فلسفة وإنما فهموا وناقشوا، وهضموا ما وعوه، وصيروا منه عصارة شهية مستساغة، وضموا إلى ذلك ما ابتكروه وابتدعوه من نظريات، وبذلك خطوا بالمعارف الفلسفية والإنسانية خطوات مشكورة.

ويعرف عن علماء الغرب وأعلام الفكر الذين ساهموا في التراث الإنساني، ما لا يعرفه عن البخاري ومسلم والطبري والقاضي عياض وابن حزم وابن عبدالبر والزمخشري وابن القيم والذهبي والسبكي وإمام الحرمين وابن حجر والسخاوي والسيوطي والألوسي وغيرهم وما أكثرهم.

ويعرف عن رواد الإصلاح الديني والاجتماعي والسياسي ما لا يعرفه عن ابن

تيمية وجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده والكواكبي ومصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول وغيرهم.

وكان من آثار الاستعمار السيئة في الثقافة أنه حاول طمس معالم الحقيقة فنسب إلى الغرب كل علم وحضارة وجرد الشرق ولاسيما العرب من كل فضل مع أن فضل العلماء العرب على الحضارة الإنسانية معروف غير منكور، إن طلابنا في المدارس والمعاهد والجامعات يدرسون الكثير من النظريات في الطبيعة والكيمياء والرياضة والفلك وغيرها، ويعرفون الكثير عن أصحاب هذه النظريات قدامى ومحدثين ولكنهم يجهلون فضل العلماء المسلمين والعرب على العالم في ابتداع أصول هذه العلوم والوصول إلى بعض نظرياته، هذا الفضل الذي شهد به المنصفون من علماء الغرب مثل «كاجوري» الذي قال: «إن العقل ليدهش عندما يرى ما عمله العرب في الجبر» ومثل «سيديو» العالم الفرنسي الذي قال: «إن إنتاج أفكارهم - أي العرب- الغزيرة ومخترعاتهم النفيسة تشهد أنهم أساتذة أهل أوروبا في جميع الأشياء».

لقد آن الأوان للقضاء على ما تركه الاستعمار من مسخ ثقافي، وافتراءات على الثقافة الإسلامية العربية الأصيلة، وأن نعيد هذه الثقافة قوية كما كانت، وأن نجعل لها السيادة على الثقافات الأخرى، وأن نلقن الطلاب والناشئة فضل آبائهم وأجدادهم على العلم والحضارة، حتى يشبوا وهم معتزون بثقافتهم وبأنفسهم.

أليس من المؤسف أن يغيب عن علم طلابنا ومثقفينا أن «الخوارزمي» العالم العربي يعتبر من كبار رياضيي العالم وأنه أول من وضع علم الجبر بشكل مستقل عن الحساب، فقد رتبه وبوبه ووضع أصوله التي تعد أساسا لكثير من بحوثه، و«جابر بن حيان» العالم العربي من ألمع علماء الكيمياء العالميين الذين أضافوا مباحث مهمة، ونظريات دقيقة إلى الثروة الإنسانية العلمية جعلته في عداد الخالدين في تاريخ التقدم الفكري، و«البيروني» العالم العربي كان له كعب عال وقدم راسخة في كثير من العلوم والمعارف الإنسانية وكانت له ابتكارات قيمة وبحوث نادرة في الرياضيات والفلك، والتاريخ والجغرافيا، وقد قال «سخاو»

بعد أن اطلع على مؤلفاته وبحوثه المبتكرة: إن البيروني أعظم عقلية عرفها التاريخ.

و«ابن الهيثم» من مفاخر الأمة العربية ومن علماء العرب العالميين برع في الرياضيات ولاسيما في بحوث البصريات ولولاه لما تقدمت تقدمها المعروف، والعلماء المسلمون والعرب هم الذين هذبوا الأرقام الهندية التي نستعملها الآن والتي وصلت إلى الغرب بوساطة الكتب العربية، وهم الذين استعملوا الصفر للغاية التي نستعملها الآن ووضع علامة الفاصلة للكسر العشري، وقد أثبتت التحريات الحديثة أن العرب هم الذين اخترعوا «الرقاص» و«الاسطرلاب» وأنهم من الذين مهدوا لإيجاد التكامل والتفاضل واللوغورتمات إلى غير ذلك من المعارف الإنسانية والاختراعات العلمية التي ساهمت في تقدم الفكر وتكوين الحضارة البشرية(١).

إنني حينما أدعو إلى إحياء الثقافة الإسلامية العربية لا أريد الانعزال عن الثقافات الأخرى من غربية أو شرقية، وعدم الاستفادة منها، لأن الثقافات يلقح بعضها بعضا، ويستفيد بعضها من بعض، ولكني أريد ألا تطغى الثقافات الأخرى على ثقافتنا الإسلامية العربية الأصيلة، وأن يكون علمنا بها علما شاملا لكل مسلم وعربي لا يختص بفئة دون فئة، ولا بجامعة دون جامعة، ولا بكلية دون كلية، وماذا على طالب الطب وطالب الهندسة وطالب الرياضة وطالب التجارة وطالب الزراعة وطالب الفلسفة و. . . و. . . لو حظي بقسط من الثقافة الإسلامية والعربية يجعله على علم بها؟ وبذلك تزول الأمية الدينية عن كثير من المتعلمين، ثم ليكن بعد هذا التخصص والتعمق في الدراسات الإسلامية للجامعات والكليات التي عنيت عناية خاصة بهذا اللون من الثقافة، فمبدأ التخصص هذا أمر معروف ومعمول به في كل جامعات العالم.

ومن العجيب أن الجامعات الإسلامية أو معظمها قد حظي طلابها بقسط غير قليل من العلوم الأخرى كالرياضة والطبيعة والكيمياء والأحياء وتقويم البلدان

(١) انظر كتاب «تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك» للأستاذ الجليل قدري حافظ طوقان.

(الجغرافيا) ونحوها بينما طلاب الكليات المدنية لم يخطوا أي خطوات تذكر نحو الثقافة الإسلامية الأصيلة.

إن هذه الانفصالية بين علوم الدين وعلوم الدنيا لم تكن معروفة في عصور الإسلام الذهبية أيام أن كانت الحضارة الإسلامية العربية هي السائدة في أركان الدنيا المعروفة، فكان الأطباء والفلاسفة وأمثالهم على علم أصيل بعلوم الشريعة واللغة العربية، وأوضح مثل لذلك أبو الوليد ابن رشد فيلسوف قرطبة بالأندلس، فله بجانب كتبه الفلسفية كتب قيمة في الفقه والتشريع أجلها كتاب «بداية المجتهد ونهاية المقتصد» وهو يعتبر من كتب الفقه المقارن، عرض فيه مؤلفه الآراء الفقهية عرض عالم بالشريعة خبير بآراء الفقهاء وأدلتهم وأصولهم.

واقرأ ما كتبه المؤرخ الكبير وفيلسوف العرب الاجتماعي ابن خلدون في مقدمته عن العلوم الإسلامية والعربية فإنك سترى عالما خبيرا بكل هذه العلوم والمعارف الإسلامية والعربية، بل اقرأ ما كتبه حجة الإسلام الغزالي في كتابه «تهافت الفلاسفة» لتجد نفسك أمام عالم كبير بالشريعة والأصولين أصول الدين وأصول الفقه مع إحاطته بالفلسفة ودقائقها وأصولها.

وأحب أن أنبه إلى أن الثقافة شيء والعلوم ولاسيما التجريبية شيء آخر، فالثقافة تتلون بألوان الشعوب أي بالمقومات التي تكون هذه الثقافة، أما العلم فكلأ مباح للبشرية جمعاء فلنأخذ منه ما نشاء، ولنجر فيه أشواطا لنلحق فيه من سبقنا، أو نسبقهم إن استطعنا.

وقد قال معلم البشرية ومنقذ الإنسانية نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه «الحكمة ضالة المؤمن، حيثما وجدها فهو أحق بها» (رواه ابن ماجه)، ورواه العسكري بلفظ «العلم ضالة المؤمن حيث وجده أخذه».

فهل تعود للثقافة الإسلامية العربية مكانتها؟ وهل يعيد أبناء الجيل الحاضر أمجاد الماضي؟ ذلك ما نرجو وما ذلك على الله بعزيز.



تحويل القبلة إلى الكعبة

العدد (٢٠) شعبان (١٣٨٦هـ) - نوفمبر (١٩٦٦م).

لقد فرضت الصلوات الخمس بالإجماع ليلة الإسراء والمعراج قبيل الهجرة من مكة إلى المدينة وفي صبيحتها نزل جبريل ﵇ على النبي ﷺ من عند الله معلما له كيفيتها، ومبينا له أوقاتها، فما أن زالت الشمس حتى أمر رسول الله ﷺ فنودي بأصحابه، فاجتمعوا وصلى به جبريل عند البيت. النبي يقتدي بجبريل، والمسلمون يقتدون بالنبي من ظهر هذا اليوم إلى ظهر اليوم الثاني.

ففي صحيح مسلم عن أبي سعيد البدري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «نزل جبريل فأمني فصليت معه، ثم صليت معه، ثم صليت معه، ثم صليت معه، ثم صليت معه، يحسب بأصابعه خمس صلوات».

وقيل إن جبريل صلى بالنبي يومين متتاليين ليبين له أول الوقت وآخره لكل صلاة. روي عن ابن عباس وجابر أن النبي ﷺ قال: «أمنى جبريل عند البيت مرتين»، وقد كان النبي والمسلمون يتوجهون في صلاتهم إلى قبلة قطعا وهذا أمر مجمع عليه، لأن استقبال القبلة شرط مَن شروط الصلاة، ولكن الخلاف فيما وراء ذلك، وهو: أكان النبي ﷺ وهو بمكة يتوجه إلى الكعبة أم إلى بيت المقدس؟

● قبلة الرسول في مكة

ذهب طائفة من العلماء إلى أن قبلته ﷺ بمكة كانت إلى بيت المقدس إلا أنه لا يستدبر الكعبة، بل يجعلها بينه وبين بيت المقدس، وهذا لن يتأتى إلا إذا وقف بين الركنين الأسعد (الأسود) واليماني لأن وجه من يقف هكذا يكون نحو الشمال، فيستقبل الكعبة، وبيت المقدس في آن واحد.

روي هذا عن ابن عباس، فلما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة استمر على ذلك ستة عشر أو سبعة عشر شهرا ثم نسخ ذلك بالتوجه إلى الكعبة، وعلى هذا يكون حصل في القبلة نسخ واحد.

وذهب الكثيرون من العلماء إلى أن قبلته ﷺ بمكة كانت الكعبة فلما هاجر إلى المدينة أمره الله بالتوجه إلى بيت المقدس المدة السالفة، ثم ولاه الله سبحانه إلى الكعبة قبلة أبيه الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وقبلة آبائه وأجداده العرب، لما رأى من استشراف نفسه ﷺ إلى ذلك، وعلى هذا يكون حصل في القبلة نسخان، قال الشيخ الإمام أبوعمر بن عبدالبر حافظ الأندلس: «وهذا أصح القولين عندي»[1] ويؤيد هذا حديث إمامة جبريل بالنبي ﷺ عند البيت، وهو ما ذكرناه آنفا ففي بعض طرقه أن ذلك كان عند باب البيت (الكعبة) ومحال لمن يكون عند باب الكعبة أن يجمع بين استقبال الكعبة وبيت المقدس في وقت واحد، وهذا يضعف الرأي الأول.

ويتفرع عن هذا البحث بحث آخر وهو استقبال بيت المقدس أكان بوحي أو باجتهاد؟

الذي عليه جمهور العلماء أن استقبال رسول الله ﷺ بيت المقدس إنما كان بأمر الله ووحيه، وأن ذلك بالقرآن ويستدلون لذلك بقول الله تبارك وتعالى ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ (البقرة: ١٤٣) ويكون معنى ﴿كنت عليها﴾ أي التي أنت عليها الآن وهي بيت المقدس، ومثل ذلك قوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ (آل عمران: ١١٠) أي أنتم في قول بعض المفسرين، وهذا على ما هو الظاهر من أن قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ (البقرة: ١٤٢) الآيات نزلت قبل قوله تعالى ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ الآية وقبل توجهه للكعبة وهو بالمدينة، وهو أحد وجهين في تفسير الآية[2] أو المراد التي كنت عليها وأنت بمكة. وهذا إنما يتأتى على أحد الرأيين في الجهة

(١) تفسير القرطبي ج١ ص ١٥٠.
(٢) تفسير الآلوسي ج٢ ص٢.

التي كان يتوجه إليها النبي ﷺ بمكة!! وعلى هذا يكون نسخ التوجه إلى بيت المقدس بالأمر بالتوجه إلى الكعبة ثانيا نسخا للقرآن بالقرآن(!!).

وذهب بعض العلماء إلى أن التوجه إلى بيت المقدس كان باجتهاد من النبي ﷺ يعني بالسنة، ثم نسخ بالقرآن فعلى هذا يكون نسخا للسنة بالقرآن. وهو أمر مختلف فيه بين العلماء(١)، ومحل بسط ذلك كتب الأصول، وليس هذا من قصدنا في هذا البحث.

● الحكمة في استقبال بيت المقدس

وسواء أكان استقبال النبي ﷺ بيت المقدس في صلاته بالمدينة بأمر من الله ووحي، أم باجتهاد من النبي، فقد كان ذلك تأليفا لليهود، وتحبيبا لهم في الدخول في الإسلام، فلما لم تثمر هذه السياسة فيهم أحب النبي ﷺ أن يرجع إلى قبلة أبيه وأبي العرب إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، وكان كثيرا ما يدعو ويقلب وجهه في السماء حتى استجاب الله الدعاء، فأمره بالتوجه إلى الكعبة.

روى الطبري وغيره من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: «لما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة، واليهود أكثر أهلها يستقبلون بيت المقدس أمره الله أن يستقبل بيت المقدس، ففرحت اليهود فاستقبلها سبعة عشر شهرا، وكان رسول الله ﷺ يحب أن يستقبل قبلة إبراهيم عليه السلام، فكان يدعو وينظر إلى السماء فنزلت، أي قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ (البقرة: ١٤٤).

وكان مما جعل النبي يدعو ربه ويطيل الدعاء أن اليهود ـ لعنهم الله ـ اتخذوا من توجهه إلى بيت المقدس ذريعة للطعن فيه فصاروا يقولون يخالفنا ويتبع قبلتنا.. بل طمع بعضهم فيما هو من قبيل المستحيل فقالوا: اتبع قبلتنا، عما قليل سيتبع ديننا، فحسم الله سبحانه كل هذه الأراجيف بأن أمره بالتوجه إلى الكعبة، قبلته وقبلة المسلمين إلى يوم القيامة، وبتوجه النبي ﷺ وأصحابه إلى بيت

(١) شرح مسلم ج٥ ص٩ تفسير القرطبي ج٢ ص١٥٠، ١٥١.

المقدس أولا ثم أمرهم بالتوجه إلى الكعبة ثانيا جمع الله له وللمسلمين التوجه إلى القبلتين، وحازوا الشرفين.

• كم شهرا توجه فيها النبي والمسلمون إلى بيت المقدس

وقد اختلفت الروايات الصحيحة في هذا، ففي بعض الروايات بالجزم بستة عشر شهرا، وفي بعضها بالجزم بسبعة عشر شهرا، وفي بعضها بالشك والتردد بينهما، وإليك هذه الروايات وتمحيصها وتحقيق الحق فيها.

روى الإمام البخاري في صحيحه عن البراء بن عازب «أن النبي ﷺ كان أول ما قدم المدينة نزل على أجداده. أو قال أخواله من الأنصار[1]، وأنه صلى قبل بيت المقدس ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا، وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت، وأنه صلى أول صلاة صلاها صلاة العصر، وصلى معه قوم، فخرج رجل ممن صلى معه، فمر على أهل مسجد وهم راكعون، فقال: أشهد بالله لقد صليت مع رسول الله ﷺ قبل البيت، فداروا كما هم قبل البيت، وكان اليهود قد أعجبهم إذ كان يصلي قبل بيت المقدس، وأهل الكتاب، فلما ولى وجهه قبل البيت أنكروا ذلك». وكذلك رواها مسلم على الشك أيضا، وفي رواية لمسلم بلفظ «ستة عشر شهرا» بالجزم وفي رواية للبزار والطبراني بلفظ «سبعة عشر شهرا» بالجزم.

والجمع بين هذه الروايات سهل، وذلك بأن يكون من جزم بستة عشر شهرا لفق من شهر القدوم والتحويل شهرا وألغى الزائد، ومن جزم بسبعة عشر شهرا عدهما معا، ومن شك تردد فيهما. أيجعلهما شهرا واحدا أم شهرين.

• في أي شهر وقع التحويل

الثابت أن قدوم النبي ﷺ المدينة كان في شهر ربيع الأول بلا خلاف بين العلماء، وإن اختلفوا في يوم القدوم، والصحيح الذي جزم به جمهور العلماء أن التحويل للكعبة كان في منتصف رجب من السنة الثانية للهجرة، وقد روى ذلك الحاكم عن ابن عباس بسند صحيح، فتكون المدة إما ستة عشر شهرا أو سبعة

---

(١) شك من وهم أجداده لأن جدة أبيه سلمى بنت عمرو النجارية منهم وهم أخواله لأنهم أخوال جده عبدالمطلب فأي التعبيرين صحيح.

عشر على التسامح، وإذا راعينا التدقيق في الحساب، وأن القدوم كان في الثاني من شهر ربيع الأول ـ كما قال ابن اسحق ـ تكون المدة ستة عشر شهرا وثلاثة أيام، وهذا التدقيق ليس من شأن الأمة الأمية التي لا تكتب ولا تحسب. وذهب بعض العلماء إلى أن التحويل كان في منتصف شهر شعبان، وقد ذكره النووي في الروضة وأقره مع أنه رجح في شرحه لمسلم رواية ستة عشر شهرا لكونها مجزوما بها عند مسلم، ولا يستقيم أن يكون ذلك في شعبان إلا إذا ألغى شهري القدوم والتحويل، وهناك روايات أخرى شاذة لا ينبغي الالتفات إليها كروايات ثمانية عشر شهرا أو ثلاثة عشر شهرا، أو تسعة أشهر،[١] وذكر موسى بن عقبة أن التحويل كان في جمادى الآخرة من السنة الثانية والحق ما ذكرناه أولا.

• في أي مسجد وقع التحويل وفي أي صلاة؟

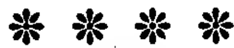
وقد اختلفت الروايات في الصلاة التي وقع فيها تحويل القبلة إلى الكعبة، وكذا في المسجد الذي وقع فيه التحويل، فقيل الظهر، وقيل العصر، وقيل في مسجد بني سلمة، وقيل في المسجد النبوي. وذكر ابن سعد في الطبقات أن النبي ﷺ زار أم بشر بن البراء معرور في بني سلمة فصنعت لهم طعاما وحانت صلاة الظهر، فصلى رسول الله ﷺ بأصحابه ركعتين من الظهر، ثم أمر بالتوجه إلى البيت، فاستدار نحو الكعبة، فسمي هذا المسجد مسجد القبلتين، وقد زرت هذا المسجد وتشرفت بالصلاة فيه، ولا يزال معروفا إلى يومنا هذا، والتحقيق ـ كما قال الحافظ ابن حجر ـ أن المسجد الذي وقع فيه التحويل مسجد بني سلمة لما زار أم بشر بن البراء، وأن الصلاة كانت صلاة الظهر، وأن أول صلاة صلاها بالمسجد النبوي متوجها فيها إلى الكعبة هي صلاة العصر، فخرج رجل ممن صلى مع النبي بالمسجد النبوي، فمر على بني حارثة وهم يصلون في مسجدهم بالمدينة العصر، فأخبرهم بتحويل القبلة، فاستداروا في صلاتهم إلى الكعبة[٢] ثم ذهب هذا الرجل أو غيره إلى «قباء» فأدركهم في صلاة الفجر وهم يصلون إلى بيت

(١) فتح الباري ج١ ص٧٩ - ٨١.

(٢) المرجع السابق ص٨٠.

المقدس، فأخبرهم بنزول آية التحويل فتوجهوا في صلاتهم إلى الكعبة، وبذلك يظهر التوافق جليا بين الروايات، وأنها يكمل بعضها بعضا، ولا تعارض بينها في الحقيقة ونفس الأمر.

وقد كانت الكعبة ولا تزال إلى يوم القيامة، قبلة المسلمين في كل قطر ومصر، وفي السفر والحضر، ومثابة للناس وأمنا، ورمزا لوحدة المسلمين فإلههم واحد، وقبلتهم واحدة، وغايتهم واحدة، وبذلك يتحد المظهر والمخبر، وتتوحد الغايات والمقاصد.



الجهاد في الإسلام (١)

العدد (٢٨) ربيع الثاني (١٣٨٧هـ) - يوليو (١٩٦٧م).

• تشريع الجهاد في الاسلام

لقد مكث النبي ﷺ ثلاثة عشر عاما بمكة، وهو يدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وقد حارب أهل مكة الدعوة الإسلامية حربا لا هوادة فيها، وآذوا النبي وأصحابه إيذاء تجاوز كل معاني الإنسانية ومع هذا كان المسلمون يزدادون عددا وقوة، وصلابة في التمسك بدينهم، وكان الله سبحانه ينزل على نبيه من الآيات ما يقوي عزيمته وعزائم أصحابه، ويثبتهم على الصبر والتحمل، وذلك مثل قوله سبحانه ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۝١٠﴾ (المدثر: ١٠) وقوله ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ۝٤٣﴾ (الشورى: ٤٣) وقوله ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾(الاحقاف ٣٥) وقوله ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ۝١٢٧﴾ (النحل: ١٢٧).

وكان المسلمون كثيرا ما يأتون إلى النبي ﷺ ما بين مضروب ومشجوج ومعذب، شاكين إليه، فيثبتهم ويضرب لهم الأمثال والعظات، ويقول لهم «اصبروا فاني لم أومر بقتال» ويقول «لقد كان الرجل من قبلكم يضرب بالسيف من مفرق رأسه إلى أخمص قدميه ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمن الله هذا الأمر - يعني الإسلام - حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله، والذئب على غنمه» (رواه البخاري وأحمد).

وقد تحمل المسلمون بفضل التربية المحمدية ولا سيما الفقراء والأعبد ومن لا عصبية له منهم من صنوف العذاب والبلاء ألوانا، فما صرفهم ذلك عن دينهم، وما تزعزعت عقائدهم، وصمدوا صمود الأبطال مع قلتهم وفقر الكثير منهم وما

سمعنا أن أحدا منهم ارتد سخطة عن دينه، أو أغرته مغريات المشركين في النكوص عنه، وإنما كانوا كالذهب الإبريز، لا تزيده النار إلا صفاء ونقاوة، وكالحديد لا يزيده الصهر إلا قوة وصلابة، بل بلغ من بعضهم أنهم وجدوا في العذاب عذوبة، وفي المرارة حلاوة، وفي الآلام آمالا.

ثم كان أن هاجر بعضهم إلى بلاد الحبشة هجرتين، ثم هاجروا جميعا إلى المدينة تاركين الأهل والولد، والمال والوطن، متحملين آلام الاغتراب، ومرارة الفاقة والحرمان، وإن كانوا قد وجدوا في أهل المدينة أهلا بأهل، وجيرانا بجيران، ووطنا بوطن، ولاسيما بعد أن عقد النبي بينهم وبين إخوانهم الأنصار عقد التآخي والتحاب في الله، هذا العمل البارع الذي أقام الأخوة في الله مقام الأخوة النسبية، بل وأفضل منها، وقد أصبح للمسلمين بعد الهجرة كيان وسلطان، وأضحوا ذوي عدد وقوة، واستمر المشركون في التضييق عليهم، ومحاولة فتنتهم عن دينهم ووقفوا للدعوة الإسلامية بالمرصاد، فلم يكن بد من أن يأذن الله لهم في القتال.

● متى شرع الجهاد؟

والذي يترجح عندي بعد البحث والنظر أن تشريع الجهاد كان في أوائل السنة الثانية للهجرة، وذلك لأن المسلمين كانوا مشتغلين بتنظيم أحوالهم الدينية والدنيوية كبنائهم المسجد النبوي، وأمور معايشهم وطرق اكتسابهم، وتنظيم أحوالهم السياسية كعقد التآخي بينهم، وموادعة اليهود المساكنين لهم في المدينة كي يأمنوا شرورهم، ولا يقال أن النبي ﷺ أرسل سرايا في السنة الأولى، لأنها كانت للاستطلاع والمناوشات، والتضييق عليهم اقتصاديا، وإرغامهم على أن يفكروا جديا في تغيير خطتهم تجاه المسلمين، وتركهم يبلغون دين الله، وهم آمنون إلى الناس كافة.

● أول ما نزل في الجهاد

وكانت أول آية نزلت في تشريع الجهاد في الإسلام هي قوله سبحانه ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم

بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ (الحج ٣٩ . ٤١).

والإذن لا يكون إلا بعد منع، فأسلوب الآيات يشعر بأنها أول ما نزل، وأيضا فقد روى الحاكم في المستدرك عن حبر القرآن عبد الله بن العباس - رضي الله عنهما - أنها أول ما نزل في القتال، ورواه عبد الرزاق وابن المنذر عن الإمام الزهري عالم الحجاز والشام.

وروى ابن جرير عن أبي العالية وهو من التابعين أن أول آية نزلت فيه قوله تعالى ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ (البقرة ١٩٠).

ويرى بعض العلماء ان أول ما نزل هو قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ (التوبة : ١١١).

والذي نرجحه هو الأول وهو الذي يؤيده العقل والنقل، وأما الآية الثانية فهي إلى تنظيم شؤون القتال، وتحديد حدوده أقرب، والتنظيم إنما يكون بعد الإذن، وأما الآية الثالثة، فهي إلى الحث والترغيب في الجهاد أقرب.

● لم شرع الجهاد في الاسلام؟

لقد تضمنت آيات سورة الحج المذكورة آنفا الأسباب والأغراض والحكم التي لأجلها شرع الجهاد، ولن أخرج في بيان ذلك عن منطوق الآيات وفحواها، حتى يكون في هذا المقام الحجر لمن يتقول على الإسلام، ومن هذه الآيات نستخلص الأسباب والحكم الآتية:

١- تأمين دعوة الإسلام، الدين العام الخالد، الذي ارتضاه الله سبحانه للبشرية جمعاء، ومساندة هذه الدعوة التحريرية الكبرى التي لم يشهد لها العالم

مثيلا من قبل، ولن يشهد لها مثيلا من بعد، حتى يتمكن النبي صلوات الله وسلامه عليه من تبليغ رسالة ربه حسبما صدع به الوحي في قوله سبحانه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾ (المائدة ٦٧).

﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾ (الأنعام: ١٩).

وتأمين المسلمين الذين اعتنقوا الإسلام عن رضى واختيار واطمئنان، وحمايتهم من أذى المشركين ومنحهم حقهم في الإعلان عن عقيدتهم وهم آمنون، وليس من الحق والعدل أن يدافع أصحاب المذاهب الباطلة عن باطلهم بالقوة، وأن يترك أصحاب العقائد الصحيحة، والشريعة السمحة من غير أن يؤذن لهم في الدفاع عن عقيدتهم وشريعتهم، وقد أشار الله إلى ذلك بقوله ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ﴾ وأي ظلم أظلم من أن لا يجد الهداة والمصلحون متنفسا لدعواتهم الخيرة في أرض الله الواسعة؟ ومن أن يحجر عليهم فلا يستطيعون الإعلان عن عقيدتهم، ولا إظهار شعائرهم؟ والمظلوم إن لم يجد النصر من أهل الأرض، فسيجده لا محالة من السماء وصدق الله ﴿... وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ﴾.

٢- الانتصار للنفس، والانتصاف للمظلوم من الظالم فها هم المشركون قد آذوا المسلمين وحاولوا ما وسعهم الجهد أن يفتنوهم عن دينهم، فلما لم يفلحوا أخرجوهم من ديارهم وأهليهم وأموالهم، والانتصار للنفس أمر فطرى وحق من حقوق الإنسان، قررته الشرائع السماوية، والقوانين الأرضية، وقد قرر الله سبحانه هذا الحق الإنساني في قوله سبحانه وتعالى ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾ (الشورى: ٤١- ٤٢) وقد أمر الله المسلمين بالصبر والعفو والتسامح طوال العهد المكي مع المشركين أملًا أن يرعووا، ولكنهم لم

يزدادوا إلا بطرا وأشرا، وظلما واستعلاء في الأرض، فأما إذا لم تفلح معهم سياسة المهادنة والتسامح، فلتقابل القوة بالقوة، والسلاح بالسلاح، وإلا صار السكوت والإغضاء عند القدرة على الانتصار عجزًا وضعفًا ومهانة.

وليس من العدل والحق والإنصاف أن يترك المشركون يمرحون في الأرض، ويجوبون الجزيرة من الجنوب إلى الشمال، ولا يؤذن للمسلمين أن يحاربوهم من جنس ما حاربوهم به وأن يقطعوا عليهم تجارتهم، ويأخذوا منها ما تصل إليه أيديهم نظير ما اغتصبوا من أموالهم، وأن يضيقوا عليهم مثل ما ضيق المشركون عليهم وصدق الله حيث قرر هذا المبدأ الحق فقال ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ (الشورى ٣٩ . ٤٠).

٣- إن في تشريع الجهاد نشر السلام والأمان في الأرض وتأمين كل ذي دين على دينه، واحترام مقدسات الأديان بين الناس، والإسلام هو الدين الذي ألزم معتنقيه بالإيمان بجميع الرسل، وجميع الكتب السماوية المنزلة من عند الله، وكتابه - وهو القرآن - هو الشاهد والمهيمن على الكتب السماوية كلها لأنه هو الكتاب الذي سلم من التحريف والتبديل، فقد نقل بأقوى طرق النقل والإثبات وهو التواتر المفيد للقطع واليقين، والمسلمون حينما تكون لهم السلطة والغلبة في الأرض، لا خشية على أهل الأديان الأخرى منهم، لأن لهم من وصايا دينهم ما يعصمهم من الظلم والجور والتعنت، وطالما أوصى النبي بالمعاهدين وأهل الذمة خيرا، وهذا ما صدقه الواقع التاريخي فحينما كان السلطان للمسلمين في الأرض لم يضار أحد من أهل الذمة في دينه، ولا في دنياه، ولا في نفس أو عرض أو مال، فلما ذهبت ريحهم، وغلبوا على أمرهم ذاقوا من أعدائهم ألوان العذاب من تقتيل، وتخريب، وانتهاك للحرمات.

وليس أدل على ذلك من أن الإسلام قبل من أهل الكتاب، إما أن يسلموا، وإما أن يبقوا على دينهم ويدفعوا الجزية، وهي ليست للإكراه على الدخول في الإسلام، أو المضايقة، ولكنها نظير ما تقوم به الدولة الإسلامية من رعاية،

وحماية لغير المسلمين، وما تؤديه لهم من خدمات اجتماعية، واقتصادية وقد أشار الله سبحانه وتعالى إلى هذا الغرض النبيل في قوله سبحانه ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحج: ٤٠)[1].

٤- إن الإسلام بما خصه الله به من عموم الدعوة للناس أجمعين، وبما جاء به من عقائد وتشريعات وآداب أكسبته الصلاحية لكل زمان ومكان، وهو الحقيق بأن يسود في الأرض، والمسلمون المتمسكون به عقيدة، وعلما وعملا، وأخلاقا وسلوكا، هم الأحق بالسيادة والاستخلاف في الأرض، لأنهم هم الذين ينشرون فيها الهدى والرحمة، والحق والعدل والبر والخير، وهم الذين يتآمرون بالمعروف، ويتناهون عن المنكر، وهما أساس كل خير وإصلاح، وليس من شك في أن هذا يتطلب الجهاد والكفاح، وبذل النفس والمال في سبيل هذا الغرض في قوله ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ (الحج: ٤١) وقد أشار الله سبحانه بهذه الأصول التي ذكرها في هذه الآية إلى ما عداها ويجري في فلكها، فالصلاة رأس العبادات البدنية التي تزكي النفس، وتحسن علاقة المخلوق بالخالق، وعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان، والزكاة رأس العبادات المالية التي تقيم المجتمع على أساس من التعاون والتكافل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هما أساس كل خير ديني أو دنيوي، وهما دعامتا كل إصلاح والقضاء على كل شر، وبهما يصلح المجتمع ويتطهر من الفساد.



(١) الصوامع: متعبدات الرهبان، البيع: متعبدات اليهود والنصارى، وهي الكنائس، والصلوات: متبعدات للنصارى أيضا، والمساجد: متعبدات المسلمين.

الجهاد في الإسلام (٢)

العدد (١٣٥) ربيع الأول (١٣٩٦هـ) - نوفمبر (١٩٧٠م).

• حكم الجهاد في الإسلام

الجهاد من الفروض الكفائية عند جمهور أهل العلم من السلف والخلف، ومعنى هذا أنه إذا قام به من يكفي في دفع غائلة الأعداء، ونصر الإسلام، وتأمين الطريق لدعوته سقط عن الباقين، ولا يكونون آثمين، وإن لم يقم به من يكفي في هذا أثمت الأمة كلها، ولا يرتفع هذا الإثم إلا بخروج من فيهم الكفاية، ولو أدى ذلك إلى تجنيد جميع القادرين عليه، والدليل على أنه فرض كفائي قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ (التوبة: ١٢٢)، وقد استفاض في السنة أن الصحابة ما كانوا يخرجون إلى الغزو جميعا بل كان يبقى بعضهم، ويتخلف عن النبي أو معه من تقتضي المصلحة بقاءه، ولو خرج المسلمون جميعا لتعطلت المصالح، ووقف دولاب الأعمال، وهذا شيء يأباه الإسلام.

• متى يكون الجهاد فرض عين؟

ويصير الجهاد فرض عين في أحوال ثلاثة:

الأول: إذا التقى الجيشان، وتقابل الصفان تعين على الجيش الإسلامي الجهاد والثبات، وحرم عليه الفرار، إلا أن يكون ذلك لمكيدة أو خدعة حربية أو لأخذ مكان أحسن وأفضل أو للانحياز إلى فئة أخرى من المسلمين المجاهدين، قال جل شأنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾ (الأنفال: ٤٥)، وقال أيضا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ

ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾ (لأنفال: ١٥-١٦) .

وفي الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات. قيل ما هن يا رسول الله؟ قال: الشرك بالله. والسحر. وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق. وأكل الربا. وأكل مال اليتيم. والتولي يوم الزحف. وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات».

ويرى بعض العلماء أن الفرار كبيرة ولا يجوز مهما كان عدد الأعداء، ويرى البعض الآخر أن الفرار كبيرة إذا لم يزد عدد الأعداء عن ضعف المسلمين، فإن زاد فلا، لقوله تعالى: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ (لأنفال: ٦٦)، ويرون أن هذه الآية مقيدة لآيات الثبات وعدم الفرار، ويؤيد الرأي الأول ما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ والرعيل الأول من المسلمين من الثبات والصبر، وعدم الفرار مهما بلغت كثرة الأعداء فقد صمد المسلمون في غزوة «مؤتة» وهم ثلاثة آلاف أمام مائتي ألف من الروم والعرب المستعربة من لخم وجذام، وفي اليرموك التقى المسلمون أضعاف أضعافهم من الأعداء فثبتوا وصمدوا وكانت العاقبة لهم، والنصر المبين. وليس من الفرار ما يراه قائد الجيش من الانسحاب حتى لا يحاط بجيشه أو يفنى عن آخره، وإنما ذلك داخل تحت قوله سبحانه: ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ﴾ (لأنفال: من الآية١٦) وذلك كما حدث في «مؤتة» من انسحاب سيف الله المسلول خالد بن الوليد بعد أن كبد العدو خسائر فادحة ولذلك اعتبر النبي ﷺ ذلك فتحا حيث قال وهو ينعي الأمراء في مؤتة «ثم أخذها ـ الراية ـ سيف من سيوف الله ففتح الله عليه» (رواه البخاري)، ولما عير أهل المدينة الجيش وقد عاد إليها بقولهم: يا فرار، قال النبي ﷺ : «بل هم الكرار». . !!

الثاني: إذا هاجم الأعداء بلدا من بلاد الإسلام أو نزلوا فيه تعين على أهله

جميعا قتالهم، ودفعهم بما استطاعوا، ووجب على إخوانهم المسلمين في كل قطر وبلد أن يخفوا إليهم بالعون والمساعدة أداء لحق الأخوة الإسلامية التي نص عليها القرآن في قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات: من الآية١٠) ودعا إليها النبي ﷺ ففي الحديث الذي رواه الإمام مسلم أن النبي ﷺ قال: «المسلم أخ المسلم لا يظلمه ولا يخذله» وفي رواية «ولا يسلمه» أي لا يخذله إذا استنصر به، ولا يسلمه أو يتركه لأعدائه ينالون منه، ولو أن المسلمين في كل قطر وبلد نفذوا هذا المبدأ السامي لما طمع فيهم طامع، ولبقوا ـ كما كانوا ـ أعزة أقوياء مرهوبي الجانب.

الثالث: إذا استنفر ولي الأمر ـ خليفة أو ملكا أو رئيسا أو أميرا ـ قوما أو أقواما لزمهم الخروج وتعين عليهم الجهاد وذلك لقول الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ (التوبة: ٣٨-٣٩).

وفي الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما أن رسول الله ﷺ قال: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا» وفي معنى الاستنفار العام إعلان التعبئة العامة في العرف الحديث فعلى كل قادر أن يجند نفسه لنصرة الحق والوطن والتضحية في سبيلهما بالنفس والمال.

● من يرى أن الجهاد فرض عين

وبعض السلف الصالح من الصحابة ومن بعدهم كان يرى أن الجهاد فرض عين على كل حال، وفي جميع الأزمان، ويستدلون بقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ (التوبة: ٤١)، يعني شبابا وشيبا، ورجالا وركبانا، وأغنياء وفقراء، وأقوياء وضعفاء. ويرى ابن عباس وغيره من السلف أن حكم هذه الآية قد نسخ بقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ .

• مثل عليا للحرص على الجهاد

وممن كان يرى هذا الرأي من الصحابة الأمجاد أبوأيوب الأنصاري صاحب المأثرة الباقية، وهي إنزال النبي ﷺ بداره على الرحب والسعة بعد الهجرة إلى المدينة، وقد كان ؓ يستدل بالآية السابقة على فرضية الجهاد على كل حال كما كان يرى الرغبة عن الجهاد، والاشتغال بالأهل والمال إلقاء بالنفس إلى التهلكة مستدلا بقوله تعالى ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ (البقرة: ١٩٥). ففي حصار القسطنطينية حمل رجل من المهاجرين على صف العدو حتى خرقه فقال ناس: ألقى بيده إلى التهلكة فقال أبو أيوب الأنصاري ـ وكان حاضرا ـ نحن أعلم بهذه الآية إنما نزلت فينا: صحبنا رسول الله ﷺ وشهدنا معه المشاهد ونصرناه فلما فشا الإسلام وظهر قلنا قد أكرمنا الله بصحبة النبي ونصره حتى فشا الإسلام وكثر أهله، وكنا قد آثرناه على الأهلين والأموال والأولاد وقد وضعت الحرب أوزارها فنرجع إلى أهلينا وأولادنا فنقيم فيها فنزل فينا: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ فكانت التهلكة في الإقامة في الأهل والمال وترك الجهاد، رواه أبو داود والترمذي، وقد لزم أبوأيوب الجهاد في حياة الرسول وبعده، ولم يتخلف عن غزوة قط، ولما أرسل معاوية ابنه يزيد على رأس جيش لغزو القسطنطينية تحرج في أول الأمر ولكن نفسه نازعته إلى الجهاد فقال: «ما ضرني من استعمل على الجيش» ثم لحق بهم وأبلى بلاء حسنا، ثم مرض أثناء الحصار فعاده يزيد، فقال له: ما حاجتك..؟ قال: حاجتي إذا أنا مت فاركب بي ما وجدت مساغا في أرض العدو. فإذا لم تجد فادفني ثم ارجع، فلما توفي صلى عليه يزيد والمسلمون، وفعلوا ما أوصى به، ودفن بجوار أسوار القسطنطينية شاهدا على لون رائع من ألوان البطولة الإسلامية الفذة.

• أبو طلحة الأنصاري

ومن هؤلاء أبوطلحة الأنصاري صاحب رسول الله ﷺ وأحد الذين أحاطوا بالنبي يوم أحد ونافحوا عنه، قرأ سورة التوبة وهو شيخ كبير فأتى على هذه الآية: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ (التوبة: ٤١) فقال: أرى ربنا استنفرنا شيوخا وشبابا،

جهزوني يا بني، فقال بنوه: يرحمك الله قد غزوت مع رسول الله ﷺ حتى مات، ومع أبي بكر حتى مات، ومع عمر حتى مات، فنحن نغزو عنك، فأبى فركب البحر غازيا فمات، فلم يجدوا جزيرة يدفنوه بها إلا بعد تسعة أيام، ولم يتغير، فدفنوه بها.

● المقداد بن الأسود

ومن هؤلاء السادة الأبطال المقداد بن عمرو المشهور بابن الأسود، روى ابن جرير الطبري عن أبي راشد أنه رأى المقداد بن الأسود فارس رسول الله ﷺ بحمص يريد الغزو ـ وكان شيخا كبيرا قد سقط حاجباه على عينيه ـ فقال له: لقد أعذر الله إليك، فقال: أتت علينا سورة البحوث يريد هذه الآية من سورة التوبة: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾.

ومن التابعين سعيد بن المسيب قال الإمام الزهري: خرج سعيد بن المسيب إلى الغزو وقد ذهبت إحدى عينيه فقيل له: إنك عليل صاحب ضر فقال: استنفر الله الخفيف والثقيل، فإن لم يمكني الحرب كثرت السواد، وحفظت المتاع، وغير هؤلاء السادة الأخيار كثير.

وبحسب هؤلاء السادة الأمجاد أنهم مجتهدون في فهم الآية فإن أصابوا فلهم أجران، وإن أخطأوا فلهم أجر، وبحسبهم فضلا ومثوبة هذه النية الصادقة، وبهؤلاء الأبطال المغاوير وأمثالهم، وما أكثرهم، مكن الله للمسلمين في الأرض، وانتشر الإسلام حتى بلغ المشرق والمغرب، فهل يعيد المسلمون هذه المفاخر والأمجاد..؟ ذلك ما نرجو وما ذلك على الله بعزيز.

* * *

إمام الفقهاء أبوحنيفة النعمان (١)

العدد (٧٠) شوال (١٣٩٠ هـ) - نوفمبر (١٩٧٠م)

لمّا انتشر الإسلام واتسعت رقعته، وامتد سلطانه حتى بلغ ما بلغ الليل والنهار، دخلت فيه الكثرة الكاثرة من أبناء هذه البلاد التي استظلت بلواء الإسلام عن طواعية واختيار، وأخلصوا لهذا الدين وللغته العربية لغة القرآن غاية الإخلاص، فلا تعجب إذا وجد من هؤلاء أئمة أعلام، في التفسير والحديث، والفقه والاجتهاد، واللغة العربية وعلومها وآدابها، والعلوم العقلية ولاسيما الكلام، والعلوم العملية كالطب والهندسة، والرياضيات كالحساب والجبر والمقابلة، والعلوم الكونية كالكيمياء والطبيعة والفلك.

من هؤلاء الأئمة الأعلام إمام الفقهاء أبوحنيفة النعمان، الذي يعتبر مفخرة للفقه الإسلامي، ولاسيما في عصوره الأولى. وسأتناول في هذا المقال شيئا من جوانبه الفقهية والاجتهادية، وعلمه بالقرآن والسنة، وأنه ذو باع طويل فيهما، وعصره ونسبه، وحياته الخصبة المشرفة التي تجعله في عداد الخالدين من رجالات العلم في العالم.

- **نسبه ونشأته**

الإمام أبوحنيفة: هو النعمان بن ثابت بن زوطي التيمي ولاء، ذلك أن زوطي جد الإمام كان فارسًا من أهل كابل، وكان مملوكا لبني تيم الله ابن ثعلبة، فأسلم فأعتق، فصار ولاؤه لهم. أما والده ثابت فقد ولد على الإسلام، وهذا هو المعتمد في نسبه، وإن زعم بعضهم أنه لم يجر على أحد من أجداده رق، بل بالغ البعض، فجعله يتصل إلى العرب بنسب.

ولا يضير الإمام، قط، أن يكون أصله فارسيا، ولا أن يكون أحد أجداده

استُرِق ثم أُعتق، لأن الإسلام لا يفرق بين عربي وعجمي، ولا بين مولى وسيد في التقدير الديني والعلمي، وفي الموالي من رفعه دينه وعلمه إلى مقاعد الشرف والسيادة، وفي العرب من أوبقه كفره، ورمى به في زوايا الإهمال جهله. وكانت ولادة الإمام بالكوفة سنة ثمانين للهجرة، وقد عاش بها معظم حياته، ولم يفارقها إلا إلى مكة فترة وجيزة، وإلى بغداد قبل وفاته، وكانت وفاته سنة مائة وخمسين، فهو إذن عاصر معظم الدولة الأموية، وأوائل دولة بني العباس.

● **عصره وكونه تابعيا**

إن العصر الذي عاش فيه الإمام يعتبر من عصور الإسلام الذهبية. والإمام ولد ونشأ في قرن يعتبر من القرون الخيرة الفاضلة، وهو عصر التابعين، ففي الحديث الصحيح الذي رواه الشيخان عن النبي ﷺ أنه قال: «خير القرون قرني ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»، وقد صح كما قال الإمام الذهبي أنه رأى أنس بن مالك رضي الله عنه وهو صغير، وروى ابن سعد في كتابه «الطبقات» عن الإمام أنه قال: «قدم أنس بن مالك الكوفة ونزل النخع، وكان يخطب بالحمرة قد رأيته مرارا». كما أنه رأى عبدالله بن أبي أوفى، وغيره من الصحابة، ورؤيته بعض الصحابة ليس فيها خلاف بين العلماء، وإنما الخلاف في سماعه منهم، والثقات من حفاظ الحديث ونقاده على أن الإمام لم يسمع من أحد منهم، ومذهب جمهور المحدثين أن السماع من الصحابي ليس شرطا لتحقق كونه تابعيا، وهي خصوصية امتاز بها الإمام عن بقية الأئمة الأربعة.

● **أساتذته وشيوخه**

وللإمام شيوخ كثيرون من أعيانهم: محمد بن السائب الكلبي النسابة المفسر، وجعفر الصادق، وابن شهاب الزهري عالم الشام والحجاز، وشعبة بن الحجاج، وربيعة الرأي شيخ الإمام مالك، وسليمان بن مهران من كبار المحدثين، وحماد ابن أبي سليمان وهو الأستاذ الأكبر للإمام أبي حنيفة، وقد لازمه ملازمة طويلة وتخرج على يديه، ونهل وعل من معينه الثر، وحتى أثر عن حماد أنه قال: «لقد أنزفتني».

● **تلاميذه**

وقد روى عن الإمام وأخذ منه العلم والفقه الكثيرون من الأئمة، من مشاهيرهم: محمد بن إسحاق بن يسار إمام أهل المغازي، ومحمد بن عمر الواقدي، وإبراهيم بن أدهم، والحسن البصري، وأبويوسف القاضي، ومحمد بن الحسن، وزفر بن الهذيل، وغيرهم، وهؤلاء الثلاثة هم أخص تلاميذه المتفقهين عليه، ويدل على جلالته أن بعض شيوخه قد أخذ عنه كربيعة الرأي ومالك وحماد بن أبي سليمان، ووصل بعض المؤلفين في مناقبه بتلاميذه والآخذين عنه إلى نحو الثمانمائة وسرد أسماء الكثيرين منهم.

● **فقه الإمام**

والإمام أبوحنيفة أحد أذكياء الدنيا المعدودين، ورائد الأئمة المجتهدين المشهورين، وأحد الفقهاء الأربعة المتبوعين، الذين طبقت شهرتهم الآفاق، وسادت مذاهبهم في أقطار العروبة والإسلام، وقد أقر للإمام بالفقاهة وتملك ناصية الاجتهاد، وبلوغه الغاية في ذلك، جمهرة من فقهاء الشريعة الكبار، وأئمة الحديث المشهورين، روي عن الإمام اللوذعي محمد بن إدريس الشافعي أنه قال: «الناس في الفقه عيال على أبي حنيفة»، وهذا عبدالله بن المبارك يقول: «كان أبوحنيفة أفقه الناس، ما رأيت أفقه منه».

ويقول في حقه سفيان الثوري: «وهو أفقه أهل الأرض»، وأثنى عليه وعلى قوة حجته إمام دار الهجرة مالك بن أنس فقال: «لقد رأيت فتى لو كلمك في هذه السارية أن يجعلها ذهبا لقام بحجته».

● **علمه بالقرآن والسنة**

وقد كان الإمام حافظا للقرآن، مديما للقراءة له، وقد روي أنه كان يختم القرآن في رمضان ستين ختمة، ختمة بالليل وختمة بالنهار. كما كان عالما بعلومه وناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، وعامه وخاصه، ومطلقه ومقيده، إلى غير ذلك من علوم القرآن التي لا بد منها لمن يبلغ الاجتهاد في الأحكام، وبيان الحلال والحرام. كما كان ﷺ حافظًا للأحاديث والسنن، شديد العناية بها، ثقة

في الرواية، بصيرا بالعلل والرجال، مقبول الجرح والتعديل. روى الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد عن سفيان بن عيينة قال: «أول من أقعدني للحديث أبوحنيفة، قدمت الكوفة، فقال أبوحنيفة: هذا أعلم الناس بحديث عمرو بن دينار، فاجتمعوا علي فحدثتهم»، وناهيك برجل يزكي سفيان بن عيينة في الحديث، والإمام أبوعيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، وهو أحد الأئمة الستة في الحديث يعتمد على الإمام في التعديل والتجريح، فيروي في كتاب العلل من «جامعه» عن الحماني قال: سمعت أبا حنيفة يقول: «ما رأيت أكذب من جابر الجعفي ولا أفضل من عطاء بن أبي رباح»، كما أثنى عليه جهابذة الحديث ونقاده، سئل يحيى بن معين وهو الإمام الحجة في الجرح والتعديل: هل حدث سفيان عن أبي حنيفة؟ قال: «نعم كان أبوحنيفة ثقة صدوقا في الفقه والحديث، مأمونًا على دين الله». وروي عنه أنه قال: سمعت يحيى بن سعيد القطان يقول: «لا نكذب الله تعالى، ما سمعنا أحسن من رأي أبي حنيفة».

وكان يحيى بن سعيد القطان يذهب في الفتوى مذهب الكوفيين فيختار قول أبي حنيفة من أقوالهم، ويقول في حق الإمام تلميذه أبو يوسف وهو من حفاظ الحديث كما قال ابن جرير الطبري «كان أبوحنيفة أبصر بالحديث مني»، ويقول: «ما رأيت أعلم بتفسير الحديث من أبي حنيفة». ولا عجب أن يكون الإمام أبوحنيفة بهذه المنزلة، وقد أخذ الحديث عن رجاله كسفيان الثوري، وشعبة بن الحجاج، والأعمش، وغيرهم من أئمة الرواية، وكانت الكوفة آنئذ منزلا لكثير من الأئمة الذين جمعوا بين الرواية والدراية. وأما ما ذكر في تاريخ بغداد من الطعن في الإمام، فذلك من آثار التحامل والتعصب، قال الإمام السيوطي في كتابه «مناقب أبي حنيفة»: «لا تغتر بكلام الخطيب فإن عنده العصبية الزائدة على جماعة من العلماء كأبي حنيفة وأحمد، وبعض أصحابه، وتحامل عليهم بكل وجه»، ولم يسلم - في الغالب - أحد من مشاهير العلماء من الطعن والتجريح بغير حق، ولعن الله الحاسدين والحاقدين.

• التجني على الإمام

وقد غمط الإمام حقه في العناية بالأحاديث والسنة وثقته في الرواية بعض حاسديه، ورموه بما ليس فيه، فزعموا أنه قليل البضاعة في الحديث، وأنه قلت روايته تبعًا لذلك قلة لا نصدقها في حق طالب من طلاب الحديث، فضلا عن إمام مجتهد تزعّم مدرسة في الفقه والاجتهاد، يعتبر رجالها مفخرة من مفاخر الإسلام قديمًا وحديثًا، وإليك ما ذكره العلامة ابن خلدون في مقدمته، وحكايته هذا القول الضعيف عن هذا البعض، ورده عليهم، قال: «واعلم أن الأئمة المجتهدين تفاوتوا في الإكثار من هذه الصناعة والإقلال، فأبوحنيفة ﷺ يقال بلغت روايته إلى سبعة عشر حديثًا أو نحوها، ومالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ إنما صح عنده في كتاب الموطأ وغايتها ثلاثمائة حديث أو نحوها، وأحمد بن حنبل في مسنده خمسون ألف حديث، ولكل ما أداه إليه اجتهاده في ذلك، وقد تقول بعض المبغضين المتعسفين إلى أن منهم من كان قليل البضاعة في الحديث، فلذا قلت روايته، ولا سبيل إلى هذا المعتقد في كبار الأئمة، لأن الشريعة إنما تؤخذ من الكتاب والسنة، ومن كان قليل البضاعة في الحديث فيتعين عليه طلبه، إلى أن قال: والإمام أبوحنيفة إنما قلت روايته لمّا شدد في شروط الرواية والتحمل، وضعّف رواية الحديث اليقين إذا عارضها الفعل النفسي، وقلت من أجلها روايته فقل حديثه، لا أنه ترك رواية الحديث متعمدا فحاشاه من ذلك، ويدل على أنه من كبار المجتهدين في علم الحديث اعتماد مذهبه بينهم والتعويل عليه».

فها نحن نرى أن ابن خلدون ذكر هذه المقالة المتجنية على الإمام بلفظ «يقال»، وهي من صيغ التضعيف في عُرف علماء الرواية، وإذا كان ابن خلدون بيّن السبب في قلة رواية الإمام، فمراده بذلك القلة النسبية لا ما حكاه في صدر كلامه بصيغة التضعيف، ومما ذكرنا من نص المقدمة يتبين للباحث المنصف والقارئ المتثبت أن عزو هذا القول الضعيف إلى ابن خلدون تجنٍ كذلك على العلامة ابن خلدون، وخيانة للأمانة في البحث، وقد انزلق إلى هذا الرأي الضعيف الذي لا سند له بعض الكاتبين المحدثين في الحياة العقلية في صدر

الإسلام وجعله من قول الثقات، ويعلم الله أن القائل به ليس من الثقة في شيء، وأنا لا أنكر تفاوت الأئمة في الحفظ والرواية، فذلك أمر معلوم مفروغ منه، ولكن الذي لا أكاد أصدقه أن تنزل مرويات الإمام الأعظم إلى هذه القلة الضئيلة، وكيف يتهيأ لمجتهد أن يبني مذهبا على سبعة عشر حديثا صحت عنده، وأقل ما يقال في مسائله التي تكلم فيها أنها تبلغ ثلاثا وثمانين ألف مسألة في العبادات والمعاملات، وكيف يجوز قبول هذا القول وشاهد العيان يرده، فكثرة أحاديث الإمام تظهر من حججه المسرودة في أبواب الفقه التي نقلها عنه أصحابه، والمدونة في تلك المسانيد السبعة عشر لكبار الأئمة من أصحابه وسائر الحفاظ، وكان مع الخطيب البغدادي عندما حل في دمشق مسند أبي حنيفة للدارقطني، ومسند أبي حنيفة لابن شاهين، وهما زائدان على السبعة عشر المذكورة.

والظاهر أن الخطأ دخل على القائل بأن الإمام لم يصح عنده إلا سبعة عشر حديثا من أنه سمع أن للإمام سبعة عشر مسندا، أي كتابا مرتبة أحاديثه على حسب الصحابة، فظن أن المراد بالمسند الحديث الذي ذكر له إسناد، فوهم هذا الوهم الفاحش. وكيف نصدق مثل هذا الرأي العاري عن الحجة، وهذا هو الحسن بن زياد أحد تلاميذ الإمام كان يقول: «كان أبوحنيفة يروي أربعة آلاف حديث: ألفين لحماد، وألفين لسائر المشيخة». وإليك ما ذكره الحافظ الناقد الذهبي في حق الإمام: «ولولا كثرة اعتنائه بالحديث ما تهيأ له استنباط مسائل الفقه، فإنه أول من استنبطه من الأدلة، وعدم ظهوره في الخارج لا يدل على عدم اعتنائه بالحديث كما زعمه بعض من يحسده، وليس كما زعم، وإنما قلت الرواية عن الإمام وإن كان متسع الحفظ لأمرين، أحدهما: اشتغاله باستنباط المسائل من الأدلة كما كان أجلاء الصحابة، كأبي بكر وعمر وغيرهما، يشتغلون بالعمل عن الرواية حتى قلت روايتهم بالنسبة لكثرة حديثهم، وكثرة رواية من دونهم بالنسبة إليهم، وهذان الإمامان مالك والشافعي لم يرويا إلا القليل بالنسبة لما سمعاه لاشتغالهما باستخراج المسائل، ثانيهما: أن الإمام أبا حنيفة كان من المتشددين في الرواية وفي تصحيح الأحاديث، وقد ذكر العلامة ابن الصلاح أن من مذاهب التشديد

- يعني في الرواية- مذهب من قال: لا حجة إلا فيما رواه الراوي من حفظه وذلك مروي عن مالك وأبي حنيفة رضي الله عنهما.

وكان للإمام شفوف نظر في الأحاديث، والترجيح بينها، ومن لا يعرف ذلك يلصق به ما هو براء منه. سئل الأعمش وهو من كبار المحدثين عن مسائل، فقال لأبي حنيفة: ما تقول فيها؟ قال كذا وكذا، فقال الأعمش من أين لك كذا؟! فقال الإمام: أنت حدثتنا عن أبي صالح عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ بكذا وحدثتنا عن فلان الصحابي عن رسول الله ﷺ بكذا، وسرد عدة أحاديث على هذا النمط وصار يتكلم فيها، ويستنبط منها على حسب اجتهاده.

* * *

الإمام أبوحنيفة النعمان (٢)

العدد: (٨٣) ذوالقعدة (١٣٩١هـ) ديسمبر (١٩٧١م).

في مقال سابق تحدثت عن بعض جوانب حياة إمام الفقهاء، وهو الإمام أبوحنيفة النعمان، أحد الأئمة المتبوعين والمشهورين، وقد ركزت عنايتي في ذاك المقال على نفي تهمة ألصقت بالإمام زورا من قديم الزمان، وهي قلة بضاعته في الحديث. واليوم أعرض لجوانب أخرى من حياة هذا الإمام الكبير، ولاسيما اجتهاده الفقهي، ومنحاه في هذا الاجتهاد، فأقول وبالله التوفيق.

● تحول في حياة الإمام

لم يشتغل الإمام في صغره ومبدأ حياته بطلب العلم والاختلاف إلى مجالس العلماء، وإنما كان يختلف إلى الأسواق، فقد كان يحترف التجارة في البز[1]، وفي غدوة من غدواته إلى السوق، مر على الإمام الشعبي وهو جالس، فدعاه، فقال له: إلى من تختلف؟ فقال أبوحنيفة: أختلف إلى فلان - يريد رجلا معروفا بالتجارة - فقال الشعبي: لم أعن السوق، عنيت الاختلاف إلى العلماء، فقال له أبوحنيفة: أنا قليل الاختلاف إليهم، فقال له الشعبي: لا تفعل، وعليك النظر في العلم ومجالسة العلماء، فإني أرى فيك يقظة وفطنة، فقال أبوحنيفة: فوقع في قلبي من قوله، فتركت الاختلاف إلى السوق، وأخذت في العلم فنفعني الله به.

● اشتغاله في أول طلبه بالجدل والكلام

وقد رأى أبوحنيفة في أول طلبه للعلم الإسلام يتعرض للطعن من بعض الطوائف كالزنادقة وأضرابهم ممن دخلوا في الإسلام وهم يضمرون الكيد

---

(١) في القاموس المحيط: البز: الثياب، أو متاع البيت من الثياب ونحوها، وبائعه البزاز، وحرفته البزازة.

والعداء، كما رأى ظهور كثير من الطوائف المبتدعة الذين ابتدعوا في الإسلام ما ليس منه كالروافض، والخوارج، والمرجئة، والقدرية الذين يزعمون أن لا قدر، وأن الأمر أنف[١]. فاشتغل في أول أمره بعلم الجدل، والكلام، والرد على الروافض والخوارج والزنادقة وأضرابهم. وقد أكسبه هذا اللون من المعرفة قوة في الحجاج والجدل وإفحام الخصوم، والمرونة العقلية الفائقة، والقدرة على حل المشكلات والمعضلات، وسرعة البديهة في المجادلة والمناظرة، مما سنعرض لشيء منه فيما بعد.

ثم خطر له خاطر فقال: إن المتقدمين من أصحاب رسول الله ﷺ، والتابعين من بعدهم، لم يكن فيهم شيء مما نذكره نحن، وكانوا عليه أقدر، وبه أعرف، وأعلم منا بحقائق الأمور، ولم يروا منازعين، ولا مجادلين، ورأيت خوضهم في الشرائع، وأبواب الفقه، فبدا له في الأمر بداء[٢].

● اشتغاله بالفقه

وبينما هو على هذا الحال، وكان يجلس بالقرب من حلقة الإمام حماد بن أبي سليمان، الذي صار فيما بعد أجل أساتذة أبي حنيفة، وأعظمهم تكوينا له، وتأثيرا فيه، إذ جاءته امرأة فقالت له: رجل له امرأة أراد أن يطلقها للسنة، كيف يصنع؟ قال أبو حنيفة: «فلم أدر ما أقول، وسقط في يدي، فأمرتها أن تسأل حمادا، ثم ترجع إليّ فتخبرني، فذهبت فسألت حمادا، فأجابها ثم رجعت فأخبرتني. وكان لهذه الحادثة تأثيرها في نفسه فقال: لا حاجة لي في الكلام فأخذت نعلي وصرت أجلس إلى حماد أسمع مسائله وأحفظ قوله حتى قال: «لا يجلس أحد في صدر الحلقة بحذائي غير أبي حنيفة، فصحبته عشر سنين»، فقال أبوحنيفة فنازعتني نفسي الطلب للرياسة، يعني أن يتصدى للتدريس، فأحببت أن أعتزله، وأجلس في حلقة نفسي، فخرجت ليلة، وعزمي أن أفعل، فلما دخل المسجد ورأيته لم

---

(١) أي مستأنف: أي أن الله لا يعلم بالأشياء قبل وقوعها، وقد تطورت كلمة القدرية فأضحت وصفا لمن يقولون، إن العبد يخلق أفعاله الاختيارية وهم المعتزلة.

(٢) أي ظهر له رأي.

تطب نفسي أن أعتزله، فجلست معه، ولأمر ما، تخلف حماد عن الدرس، فأمر أبا حنيفة أن يجلس مكانه، فوردت عليه مسائل، فكان يجيب عنها ويكتب الجواب، وبعد شهرين قدم أستاذه حماد، فعرض عليه أبو حنيفة المسائل التي أفتى فيها فوافقه في أربعين مسألة وخالفه في عشرين، فآلى الإمام أبوحنيفة على نفسه ألا يفارق شيخه حمادا أبدا حتى يموت، فلم يفارقه حتى مات بعدما أخذ عليه كل ما كان عنده من علم، وكان كثيرا ما يناقش شيخه حمادا ويسأله ويناظره، حتى كان ربما يتبرم منه، لذلك روي عن الإمام أنه قال: «لزمت حمادا لزوما ما أعلم أحدا لزم أحدا مثلما لزمته، وكنت أكثر السؤال فربما يتبرم مني، ويقول: يا أبا حنيفة قد انتفخ جنبي، وضاق صدري».

ولعلك أيها القارئ الكريم على ذكر من الكلمة الصادقة المعبرة عن غاية الاستقصاء التي قالها له شيخه حماد: «لقد أنزفتني».

● تأهل أبي حنيفة للأستاذية

ولما مات شيخ الإمام حماد فكر طلاب العلم والمعرفة فيمن يقوم مقامه فأجلسوا كثيرين من أهل العلم فلم يجدوا عندهم كبير غناء[1]، ثم أجلسوا الإمام أبا حنيفة، فوجدوا عنده من العلم والفقه ما لم يجدوه عند غيره، ووجدوا عنده في سائر المعارف والثقافات السائدة آنئذ نفاذا وسعة أفق وعلما غزيرا، فلزموه وتركوا غيره، وعظم شأنه حتى صارت حلقته أعظم حلقة في المسجد، فتخرج به أقوام صاروا أئمة في العلم، من أشهرهم الفقهاء: أبو يوسف، ومحمد بن الحسن الشيباني، وزفر بن الهذيل العنبري، وواعظ زمانه الحسن البصري، وإمام أهل المغازي محمد بن إسحاق بن يسار صاحب السيرة المشهورة، ومتصوف زمانه إبراهيم بن أدهم وغيرهم.

وكذلك كان مرجع الناس في الفتوى وحل المشكلات المستعصية والمسائل العلمية العويصة، بل كانوا يرجعون إليه فيما يعتريهم في حياتهم الدنيوية، فيجدون عنده المعونة الصادقة والحل الموفق، لا يدخل بلدا إلا اجتمع عليه

---

(١) غناء - بفتح الغين- أي نفع واستغناء بهم عنه.

الناس، وسألوه، قال الإمام الليث بن سعد محدث مصر، وعالمها وفقيهها: كنت أتمنى رؤية أبي حنيفة حتى رأيت الناس متقصفين[1] على شيخ، فقال له رجل يا أبا حنيفة وسأله عن مسألة، فوالله ما أعجبني صوابه، كما أعجبني سرعة جوابه.

● منحاه في الاجتهاد

الإمام أبوحنيفة كغيره من الكثيرين من أئمة الفقه والاجتهاد يأخذ بالأصول الأربعة، التي تستنبط منها الأحكام، ويعرف الحلال والحرام:

١- الكتاب ٢- والسنة

٣- والإجماع ٤- والقياس.

والثلاثة الأولى قدر متفق عليه بين جميع الفقهاء، وأما القياس فهو محط خلاف الفقهاء في الأخذ به أو عدم الأخذ به، والآخذون به يختلفون في الأخذ به قلة وكثرة، فمنهم المكثر ومنهم المقل لأصول أصلوها وقواعد وضعوها.

وقد كان الإمام أبو حنيفة ﷺ عالما بالأصلين الشريفين اللذين إليهما عند التحقق مرجع جميع الأحكام، وهما القرآن الكريم والسنة المطهرة، علما أهّله لأن يكون إماما كبيرا بين أئمة الاجتهاد في الإسلام، أما علمه بالقرآن الكريم، وأسباب نزوله، وأول ما نزل، وآخر ما نزل، وتدرجه في التشريع، ومكيه ومدنيه، وعامه، وخاصه، ومطلقه، ومقيده، ومحكمه، ومتشابهه، وناسخه، ومنسوخه فهذا ما أقر به الموافق والمخالف، وأما علمه بالمصدر الثاني من مصادر التشريع في الإسلام، فقد بينت في المقال السابق بما لا يدع مجالا للشك علم الإمام أبي حنيفة بالسنن والأحاديث، ونفيت عنه تهمة قلة بضاعته في الحديث، وندرة ما صح عنه من أحاديث.

وقد بين لنا الإمام أبوحنيفة منهجه في الاجتهاد، فقد روي عنه أنه قال: «آخذ بكتاب الله، فإن لم أجد في كتاب الله فبسنة رسول الله ﷺ، فإن لم أجد في سنة رسول الله ﷺ أخذت بقول أصحابه من شئت وأدع من شئت، ولا أخرج عن قولهم إلى قول غيرهم، فأما إذا انتهى الأمر إلى إبراهيم، - يعني النخعي-

(١) مجتمعين في التزاحم عليه.

والشعبي وابن سيرين والحسن- يعني البصري- وعطاء- أي التابعين - فقوم اجتهدوا، فأجتهد كما اجتهدوا». وروي عنه أيضا أنه قال: «إذا جاء الحديث عن رسول الله ﷺ «فعلى الرأس والعين»، وإذا جاء عن الصحابة اخترنا ولم نخرج عن رأيهم، وإذا جاء عن التابعين زاحمناهم»[١]. وقد قدمت في المقال السابق أن الإمام أبا حنيفة يعتبر من التابعين لأنه لقي بعض الصحابة، بل قيل إنه روى عن بعضهم فهو حينما يزاحمهم ويجتهد مثلهم فلأنه من طبقتهم، وهو منهج لا غبار عليه.

ولكن بعض الحاسدين له، والحاقدين عليه رموه بأنه لا يأخذ بالأحاديث والآثار ويغلّب الرأي والقياس عليها، وهاهو الإمام يدافع عن نفسه فيقول: «عجبا للناس يقولون أفتي بالرأي. وما أفتي إلا بالأثر».

وقال لما سئل عن الكلام في الأعراض والأجسام: هذه مقالات الفلاسفة، عليك بالأثر وطريقة السلف وإياك وكل محدثة فإن كل محدثة بدعة[٢]، فهل بعد هذه المقالات الواضحة البينة يدعي مدعٍ أن الإمام كان لا يأخذ بالأحاديث والآثار[٣].

نعم، إذا لم يجد في القرآن والسنة والأحاديث وضاق عليه الاستدلال بها ولم يكن في المسألة إجماع فليس إلا إعمال الرأي والاجتهاد، وهذا هو ما دل عليه الحديث المشهور أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ بن جبل الأنصاري الخزرجي، الإمام المقدم في علم الحلال والحرام حين بعثه إلى اليمن في السنة العاشرة للهجرة أميرا وقاضيا ومفتيا. «كيف تصنع إن عرض لك قضاء؟» قال بما في كتاب الله، قال «فإن لم يكن في كتاب الله؟» قال: فبسنة رسول الله ﷺ، قال: «فإن لم يكن في سنة رسول الله ﷺ؟» قال: أجتهد، وإني لا آلو - أي لا أقصر - قال:

(١) عقود الجمان في مناقب أبي حنيفة النعمان، مخطوط بمكتبة الحرم المكي.

(٢) عقود الجمان في مناقب أبي حنيفة النعمان، مخطوط بمكتبة الحرم المكي.

(٣) الحديث: هو قول النبي ﷺ، وأفعاله، وتقريراته، وصفاته الخلقية. والأثر: هو ما روي عن الصحابة من أقوالهم وأفعالهم من غير أن يرفع وينسب إلى النبي ﷺ.

فضرب رسول الله ﷺ صدري[١]، ثم قال «الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله» (رواه أحمد وأبوداود والترمذي وابن ماجه)، وهذا تقرير قولي من النبي ﷺ لطريقة معاذ، ومنهجه في الحكم والاجتهاد، وقد شاع على ألسنة بعض أهل العلم، ولاسيما المتحاملين منهم على الإمام أبي حنيفة، أنه لا يأخذ بكثير من الأحاديث، وأنه يرجح الرأي والقياس عليها، وهي مقالة فيها تجنٍ على الإمام، ومجافاة للحق والواقع. وإليك ما قاله إمام اشتهر بحدة اللسان، وصراحة النقد، وعدم المداهنة في الحق، وهو الإمام أبو محمد ابن حزم الأندلسي، قال: وجميع أصحاب أبي حنيفة مجمعون على أن مذهب أبي حنيفة، أن ضعيف الحديث أولى عندهم من القياس والرأي، فهو لا يقيس إلا إذا انسدت عليه مسالك الاستدلال بالأحاديث التي يحتج بها.

وقد بينت أن الإمام له شروط شديدة في الحكم على الأحاديث بالصحة والحسن، ومعاذ الله أن يترك حديثا صحيحا، ثم يحتج بالقياس والرأي، وما عسى أن يبدو في نظر بعض العلماء والباحثين أنه كذلك بادي الرأي، فعند التحقيق والتدقيق يظهر أنه ليس كذلك. وأرجو أن تتاح لي الفرصة للحديث عن ذلك فيما بعد إن شاء الله تعالى.

على أني أحب في هذا المقام أن أقول: إن المجتهد مهما جلت منزلته واتسع علمه بالأحاديث والآثار لا يلزم أن يبلغه كل حديث مروي، ولو بلغه فليس بلازم أن يصح عنده، ولو صح عنده فليس بلازم أن يأخذ به، لأنه قد يكون - ولو في نظره هو - مرجوحا، أو منسوخا، أو مخصصا بدليل آخر أو مقيدا، أو غير ذلك مما يعرفه أهل العلم بأصول الفقه، ومسالك الاجتهاد في الإسلام. ومن ثم كان اختلاف الأئمة في الفروع الفقهية مع أنهم جميعا كان معولهم في استنباط الأحكام الفقهية على القرآن والسنة، وكانوا ينشدون الحق والصواب لا يبغون بهما بديلا، ولم يكن للهوى النفسي، والتعصب للرأي بغير حق أي أثر في استنباطاتهم، واجتهاداتهم، وإذا حدث في بعض العصور تعصب مذهبي فقد كان

(١) يعني بيده تثبيتا لما في قلبه من هذا العلم المكنوز، والفقه الأصيل، وزيادة شرح لصدره.

ذلك في العصور المتأخرة، ومن أتباع الفقهاء المتأخرين حينما كسدت سوق الاجتهاد وغلبت ملكة التقليد.

وقد نقل الإمام الشاطبي في الموافقات أنه ما من إمام من الأئمة الأربعة إلا صح عنه أنه قال: «إذا صح الحديث فهو مذهبي، واضربوا بقولي عرض الحائط». وهذا هو اللائق بمقام أئمتنا الكبار وأخلاقهم، وجلال أقدارهم.



اللغة العربية هي لغة القرآن والإسلام

العدد (١٧٤) جمادى الآخرة ١٣٩٩هـ - إبريل (١٩٧٩م).

● **شبه جزيرة العرب**

هي عبارة عن هذا الجزء الذي يقع في الجنوب الغربي من قارة «آسيا» وهي أكبر شبه جزيرة في العالم، ويبلغ متوسط عرضها سبعمائة ميل، ومنتهى طولها ألف ومائة ميل، ومساحتها حوالي ألف ألف ميل مربع (مليون ميل بلغة اليوم).

ويحدها من الجنوب البحر العربي (المحيط الهندي) ومن الشمال البحر الأبيض المتوسط، ومن الشرق الخليج العربي، ونهر الفرات، ومن الغرب البحر الأحمر، وبرزخ السويس قديما، وتسمى قناة السويس الآن، ومن ثم نرى أنها تحيط بها البحار والأنهار من جميع الجهات إلا جزءا قليلا منها، ولهذا يطلق عليها البعض تجوزا «جزيرة العرب».

وهذا التحديد الذي يقول به الهمداني يدخل بلاد الشام كلها، والبادية التي بين العراق والشام، وبادية سيناء في جزيرة العرب.

وهو يتفق، وما ذكره «هيرودوت» المؤرخ القديم غير أنه اعتبر «نهر النيل» الحد الغربي للقارة، وجعل صحراء مصر الشرقية كما هي معروفة الآن من الجزيرة العربية.

● **موقع شبه الجزيرة العربية**

وتحتل شبه جزيرة العرب موقعا هاما، إذ أنها تربط بين قارات ثلاث: آسيا، وأفريقيا، وأوروبا، وأما من الناحية الخريطية الحضارية قبل الإسلام فهي تربط بين الحضارتين السائدتين حينذاك في العالم: الحضارة الرومانية، والحضارة الفارسية.

● الجنس العربي

والجنس الذي يسكن شبه الجزيرة العربية يسمى: الجنس العربي، وهو أحد الأجناس السامية نسبة إلى سام بن نوح عليه السلام ولكنه أكثرها محافظة على خصائص الساميين، وهذا الجنس يتكلم اللغة العربية.

● اللغة العربية

اللغة: هي الألفاظ التي يعبر بها كل قوم عن أغراضهم، والإفصاح عما في نفوسهم، واللغة العربية هي إحدى اللغات السامية، ومن هذه اللغات السامية: السريانية والعبرانية والحبشية، ولكنها أكثرها محافظة على خصائص اللسان السامي، وترجع هذه المحافظة إلى طبيعة الحياة في شبه الجزيرة، وهي طبيعة الانعزالية والمحافظة على الأنساب، والأحساب، وعدم التزوج من غيرهم، أو تزويجه منهم مهما كان من الجاه والسلطان فقد عصمت هذه الحياة الجنس العربي، واللغة العربية من الهجمات التي تعرض لها غير العرب من الجنس السامي، وغير اللغة العربية من فروع اللسان السامي كالسريانية والعبرانية والحبشية، وإذا كانت الأمة العربية من الجنس الأبيض أرقى الأجناس البشرية، بل قد عدها بعض علماء التشريح أنموذجا للتقويم البشري الكامل، «اثنولوجيا» - فإن لغتها أرقى اللغات الحية على الإطلاق، وأثراها، وأخفها على اللسان، وأحبها إلى الآذان، وأشملها لمقومات الآداب والعلوم من الألفاظ والتراكيب.

● الأمة العربية في التاريخ

والأمة العربية من أقدم الأمم وأشهرها، كان لها في التاريخ القديم، والحديث آثار لا تزال باقية إلى الآن.

وقد كرم الله تبارك وتعالى وجودها، بأن اختار منها خاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمدا ﷺ، وعلى آله، وأصحابه فكان شاهد صدق على أنها الأمة الجديرة بقيادة العالم إلى تحقيق السعادتين: الدنيوية، والأخروية، إذا عضت بالنواجذ على هذا الدين الإسلامي، الذي هو خاتم الأديان، وأكملها، وأوفاها بحاجات البشر جميعا كما خلد الله تبارك وتعالى اللغة العربية حينما جعل آية النبي ﷺ العظمى،

ومعجزته الكبرى وحيا يتلى، وقرآنا عربيا مبينا ما بقي مسلم على وجه الأرض.

وما من أمة إسلامية إلا وتاريخها ممتزج بتاريخ الأمة العربية المسلمة، وما من أمة إسلامية إلا لهذه الأمة العربية التي حملت لواء الإسلام، ونشرته في الخافقين فضل عليها، فالأمم الإسلامية في الشرق والغرب مدينة لأمة العرب المسلمة التي حملت مشعل الرسالة المحمدية بعد الرسول الكريم ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ حتى بلغ الإسلام ما بلغ الليل والنهار!!.

● القرآن الكريم كتاب العربية الأكبر

والقرآن الكريم هو كتاب العربية الأكبر، ورمز وحدة العرب الكبرى، وجامعتهم العظمى، وبه اكتسبت لغة العرب بقاءها وحيويتها، وبه صار العرب أمة مؤمنة موحدة، متآلفة القلوب ومتجانسة المزاج، متحدة اللسان، متشابهة البيان.

وبه صار المسلمون في صدر الإسلام أمة واحدة، لا يفرق بينها جنس، ولا لون، ولا لغة وقد انصهرت كل هذه الفوارق، وذابت في نور الإسلام، ولم يبق الاعتزاز إلا بشيء واحد، وهو الإسلام، ولغة القرآن، وصار لسان الواحد منهم يقول:

أبي الإسلام لا أب لي سواه   إذا افتخروا بقيس أو تميم

ومن القرآن استمد العرب والمسلمون علومهم، ومعارفهم، وتلونت به ثقافتهم، فما من علم من علومهم، إلا وله بالقرآن سبب، وله منه ورد، ومدد.

ولولا هذا الكتاب العربي المبين لاستعجمت لغة العرب، وأصبحت في عداد اللغات الميتة، فهو الذي يجدد شبابها كلما اعتراها الهرم، والضعف، ويأخذ بيدها إذا ألم بها التخلف والركود ولولا هذا الكتاب العربي المبين لما كانت هذه الثروة الطائلة من العلوم التي تدور حول القرآن ولغة القرآن وتجول وتصول في رحابه الواسعة.

وما من عربي ـ أيا كان دينه ـ إلا وله بهذا الكتاب مفخرة، واعتزاز، ومزاولة له، وحب لأنه يشبع فطرته العربية، ووجدانه البياني، ويوائم روحه العربية

الصافية الشفافة ويرى في أسلوبه، وتفننه في القول والخطاب المثل الأعلى للبيان العربي الفصيح البليغ.

● **انتشار اللغة العربية بين المسلمين من غير العرب**

لما جاور الرسول ﷺ الرفيق الأعلى، وحمل الصحابة رضوان الله عليهم، ومن جاء بعدهم من التابعين فمن بعدهم ـ تبليغ الرسالة من بعده إلى الناس كافة كانوا يحملون القرآن الكريم بيد والسيف باليد الأخرى، لا لإكراه الناس على الدخول في الإسلام، وقبول شريعته.. كلا وحاشا!! وإنما لحماية الدعوة إلى الإسلام، وإلى شريعته، والحق ما لم تكن له قوة تؤيده وتحميه ضاع بين سطوة الباطل، وسلطان البغي.

ولو أن قياصرة الرومان، وأكاسرة الفرس، وغيرهم من ملوك أمم الأرض ورؤسائها تركوا للمسلمين الدعوة إلى دينهم الحق بالحجة والبرهان، والحكمة، والموعظة الحسنة، وفي ظل الأمان والسلام لما وقعت حروب، ولانتشر الإسلام بقوة حجته، ومواءمته للفطرة البشرية، والعقول السليمة، والنفوس التي تجردت من أهوائها وشهواتها، والأرواح الصافية الشفافة التي لم تدنسها الظلمات الأرضية، والعوائق المادية.

وكان الإسلام ولغة القرآن يسيران جنبا إلى جنب، في البلاد المفتوحة، فما إن يدخل الرجل أو المرأة في الإسلام حتى كان أول ما يفكران فيه حفظ القرآن أو شيء من القرآن، حفظ السنة أو شيء منها، فمن ثم انتشرت اللغة العربية في البلاد المفتوحة، بسرعة انتشار الإسلام.



القرآن والسنة معا

العدد (١٧٦) شعبان (١٣٩٩هـ) - يونيو (١٩٧٩م).

روى الإمام أبوداود في «سننه» بسنده عن المقدام بن معد يكرب أن رسول الله ﷺ قال: «ألا إنني أوتيت الكتاب، ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان متكئ على أريكته يقول: عليكم بالقرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه، ألا لا يحل لكم الحمار الأهلي، ولا كل ذي ناب من السباع، ولا لقطة معاهد، إلا أن يستغني عنها صاحبها، ومن نزل بقوم فعليهم أن يقروه، فإن لم يقروه فعليه أن يعقبهم بمثل قراه»

● تخريج الحديث

رواه أبوداود في سننه - كتاب السنة - باب لزوم السنة، وسنده صحيح، وقد سكت عنه المنذري فهو صالح للاحتجاج به ورواه الترمذي في جامعه بسنده عن المقدام بن معد يكرب ولفظه! قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا هل عسى رجل يبلغه الحديث عني، هو متكئ على أريكته، فيقول: بيننا وبينكم كتاب الله، فما وجدنا فيه حلالا استحللناه، وما وجدنا فيه حراما حرمناه وإن ما حرم رسول الله، كما حرم الله» (قال الترمذي: هذا حديث حسن).

● الشرح والبيان

قوله ﷺ: «ألا إنني أوتيت الكتاب، ومثله معه» ألا: أداة استفتاح، وهي تفيد التنبيه إلى ما يجيء بعدها فيأتي وقد تشوقت إليه النفس، فيتمكن فيها فضل تمكن، و «أوتيت» بمعنى أعطيت من «آتى» بمعنى أعطى، والمراد بالكتاب:

القرآن الكريم، وقد صار علما على القرآن الكريم بالغلبة، وإذا أطلق لفظ الكتاب في لسان الشرعيين انصرف إلى القرآن، وهو في الأصل مصدر كتب، ثم استعمل الكتاب في المكتوب، استعمال المصدر في اسم المفعول، ثم صار علما بالغلبة كما ذكرت، وقد كرر هذا الاسم «الكتاب» أو «كتاب» في القرآن الكريم في مواضع كثيرة يطول الكلام لو تتبعناها.

ومثله معه: المراد به السنن والأحاديث النبوية، ومن القرآن الكريم والسنة النبوية يكون خير الهدي وهو هدي نبينا محمد ﷺ وفي الكتاب الكريم قول الله تبارك وتعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ (البقرة: ١٨٥) وفيه أيضا قول الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ (الإسراء: ٩).

وفي الحديث الصحيح المتفق عليه «إن خير الحديث كتاب الله تعالى وأحسن الهدى هدى محمد ﷺ»، (انظر صحيح البخاري، كتاب الأدب، وصحيح مسلم، كتاب الجمعة، باب الخطبة) وهذا الكلام النبوي، الموجز، البديع، يحتمل وجهين!.

- أنه ﷺ أوتي من الوحي الباطن غير المتلو، مثل ما أعطي من الوحي الظاهر الجلي المتلو.

- أنه أوتي الكتاب وحيا يتلى بلفظه كما أنزله الله، من غير تبديل، ولا تحريف، ولا قراءة بالمعنى، وأعطي من البيان مثله أي أُذن له ﷺ أن يبين ما في الكتاب الكريم: القرآن فيعم، ويخص، ويقيد، ويشرح الغامض، ويفصل المجمل، ويزيد عليه، ويشرع ما ليس في الكتاب، فيكون في لزوم قبوله ووجوب العمل به كالظاهر المتلو من القرآن، والوجهان متلازمان وفي الكتاب الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ (النجم: ٣-٤). قوله ﷺ: «ألا يوشك رجل شبعان متكئ على أريكته يقول عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه».

يوشك مضارع أوشك بمعنى قرب، والمراد بقوله: شبعان أنه ممن يعيش لبطنه لا لعقله وروحه، وبقوله ﷺ «متكئ على أريكته» أنه من أهل الترفه والدعة الذين لزموا البيوت، ولم يطلبوا العلم من مظانه، ويرتحلوا في سبيل الحصول عليه كما هو الشأن في المحدثين والعلماء، و«الأريكة» هي السرير في الحجلة - بفتح الحاء المهملة والجيم، واللام -وتجمع على حجال، والمراد بالحجلة: الخيمة التي تزين بالستائر، والبسط، وفي معنى الحجلة الحجرة المزينة بذلك، وقيل: هي كل ما اتكئ عليه من سرير أو وسادة، أو حشية ونحوها.

والمراد بقول هذا الرجل المتنعم الذي ليس من أهل العلم والفقه: «عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه» الاستغناء بالقرآن العظيم عن السنة النبوية، وهو جهل وحماقة، وإلحاد في الدين، فالسنة هي الأصل الثاني من أصول التشريع، والقرآن والسنة كلاهما بوحي إلا أن القرآن وحي متلو، والسنة وحي غير متلو، والأول بوحي جلي عن طريق جبريل عليه السلام، والسنة بوحي ولكنه أعم من أن يكون بطريق جبريل أو من غير طريق جبريل كالإلهام، والمنام، والقذف في القلب وغيرها من أنواع الوحي.

قوله ﷺ في رواية الترمذي: «وإن ما حرم رسول الله مثل ما حرم الله» هو رد على هؤلاء الهدامين الجهلاء، الذين افتجروا هذا الإفك المبين، وكذلك نقول: وإن ما أحل رسول الله مثل ما أحل له، وكلتا القضيتين لازمة للأخرى، ولكنه الإيجاز الممدوح المطلوب في كلام النبي ﷺ.

ثم بين رسول الله ﷺ بعض ما حرم بالسنة ولم يحرم بالقرآن فقال صلوات الله وسلامه عليه: «ألا لا يحل لكم الحمار الأهلي، ولا كل ذي ناب من السباع، ولا لقطة معاهد إلا أن يستغني عنها صاحبها».

أما الحمار الأهلي فهو الإنسي بخلاف حمار الوحش فإن أكله حلال، كما في الأحاديث الصحاح، والحسان، وفي صحيح البخاري عن أبي قتادة رضي الله عنه أنه صاد حمارا وحشيا، وأفضل منه فأكل منه النبي ﷺ، ويحرم كل ذي ناب من السباع

كالأسد، والنمر والدب وأمثالها التي تعتمد على أنيابها، وفي بعض الروايات الأخرى «ولا كل ذي مخلب من الطير» وذلك كالنسر، والصقر ونحوهما من جوارح الطيور، وكواسرها «ولا لقطة معاهد» لقطة -بضم اللام، وفتح القاف أو سكونها، وفتح الطاء- وهي كل ما يلتقط من الطريق، ولا يعرف صاحبه والمعاهد هو من كان له عهد وذمة عند المسلمين، ولقطة المسلم كذلك لابد من تعريفها حتى ييأس من وجود صاحبها، ولكنه ﷺ خص لئلا يظن بعض من لا يعلم أن لقطة الذمي حلال، ولا تعرف كلقطة المسلم وهو يدل على حرمة أموال أهل الذمة كحرمة أموال المسلمين، فانظر أيها القارئ المتبصر الفطن، الفرق ما بين تشريع الإسلام، وبين مزاعم اليهود الكاذبة في قولهم ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾ (آل عمران: ٧٥) ومرادهم ليس علينا حرج ولا إثم في أكل مال الأميين وهم العرب، وذلك لأنهم يستحلون ظلم من خالف دينهم، وزادوا في التبجح فزعموا أن هذا التشريع من الله بقوله: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ الآية السابقة.

قوله ﷺ: «إلا أن يستغني عنها صاحبها» لتفاهتها أو لعدم حاجته إليها، وعدم طلبها فله أخذها والانتفاع بها أما قوله ﷺ «ومن نزل بقوم فعليهم أن يقروه، فإن لم يقروه فعليه أن يعقبهم بمثل قراه».

القرى ما يقدم للضيف من نزل وطعام، وهل هذا القرى على الوجوب أم هو على الندب لأنه من محاسن الأخلاق؟ خلاف بين العلماء فمنهم من قال بالوجوب، ومنهم من قال بالندب، ومنهم من فصل إن كان في بلاد ليس فيها بيع طعام، ولا فنادق فقراه واجب، وإلا فهو مندوب وكلمة «على» تشعر بالوجوب لما فيها من الإلزام، والتحتيم «فإن لم يقروه فعليه أن يعقبهم بمثل قراه».

روي لفظ «يعقبهم» بروايتين: الأولى بالتخفيف يعني يُعْقِبهم -بضم الياء، وسكون العين، وكسر القاف من أعقب، «وروي بالتشديد يعني «يُعَقِّبهم» بضم الياء وفتح العين وكسر القاف المشددة» من المعاقبة يعني يأخذ من أموالهم بقدر قراه، وما يحفظ عليه حياته ويبلغه مقصده.

وقد حمل بعض العلماء الحكم على حالة الضرورة الملجئة، لأنه لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب من نفسه، وبعضهم عمم، فحمله على حالة الضرورة وغيرها، لأنه من الارتفاقات التي تكون بين المسلمين ومن محاسن الأخلاق التي ينبغي أن تكون.

• ما يؤخذ من الحديث من الأحكام والآداب

لقد دل هذا الحديث على معجزة ظاهرة للنبي ﷺ حيث أخبر بمغيب، فوقع كما قال، فقد ظهرت فئة في القديم، والحديث تدعو إلى هذه الدعوة الماكرة الخبيثة، وهي الاكتفاء بالقرآن العظيم عن الأحاديث والسنن، وغرضهم هدم نصف الدين، أو إن شئت فقل هدم الدين كله، لأنه إذا أهملت السنة فسيؤدي ذلك ولا ريب إلى استعجام معظم القرآن على الأمة وعدم معرفة المراد منه، وإذا اندرست السنن والأحاديث، واستعجم على الأمة فهم القرآن وتدبره فقل على الإسلام العفاء!!

وهذا لن يكون أبدا مادام في الأمة الإسلامية فئة قائمة على الحق يعيشون له، ويصدون الغارات عنه، ولا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله وصدق الله ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ (التوبة: ٣٢).

التمسك بالقرآن الكريم، والسنة النبوية عقيدة، وعبادة، وشريعة وعلما، وعملا وسلوكا، ومنهجا فإن في التمسك بهما خير الدنيا والآخرة وفي الحديث الشريف «تركت فيكم ما إن اعتصمتم به لن تضلوا أبدا كتاب الله وسنتي» رواه الحاكم في المستدرك وإسناده حسن، ورواه الإمام الجليل مالك في «الموطأ» بلاغا، والبلاغات من قبيل المنقطع والمرسل ولكن الحديث الأول يعتبر شاهدا له.

منزلة التكافل الاجتماعي في الإسلام، وأن الإسلام العظيم بلغ في التكافل الاجتماعي ما لم يبلغه دين من الأديان لأنه الدين العام الباقي، الكامل، الخالد، وما لم يبلغه قانون من القوانين الوضعية قديما وحديثا، وذلك من قوله ﷺ: «ومن

نزل على قوم فعليهم أن يقروه، فإن لم يقروه فعليه أن يعقبهم بمثل قراه».

إن القرآن والسنة كليهما بوحي من الله إلا أن الأول أوحي بلفظه ومعناه والثانية أوحيت بالمعنى، فمن ثم جاز رواية الأحاديث والسنن بالمعنى لعالم خبير بالألفاظ، ومدلولاتها، واللغة العربية وعلومها، والشريعة، ومقاصدها، وهذا من رحمة الله بالأمة، حيث لم يجعل الموحى به من القبيل الأول حتى لا يشق على الأمة ولا من القبيل الثاني حتى لا يدعو ذلك إلى التهاون في حفظ القرآن الكريم، وهو الكتاب الوحيد الذي أوجب الله على الأمة حفظه، بحيث يحفظه عدد كثير يثبت بهم التواتر، فإن فرطت الأمة في حفظ كتاب ربها فهي آثمة، والله الهادي إلى سواء السبيل.



موعظة بليغة

العدد (١٧٨) شوال (١٣٩٩هـ) - أغسطس (١٩٧٩م).

روى الإمام أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني بسنده عن عبدالرحمن بن عمرو السلمي. وحجر بن حجر قالا: أتينا العرباض بن سارية ﵁. وهو ممن نزل فيه: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ فسلمنا وقلنا: أتيناك زائرين، وعائدين، ومقتبسين.

فقال العرباض: «صلى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم، ثم أقبل علينا بوجهه. فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون. ووجلت منها القلوب فقال رجل يا رسول الله. كأن هذه موعظة مودع. فماذا تعهد إلينا؟ فقال: أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن عبدا حبشيا. فإنه من يعش بعدي فسيرى اختلافا كثيرا، فعليكم بسنتي. وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي. تمسكوا بها. وعضوا عيها بالنواجذ. وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة. وكل بدعة ضلالة».

• تخريج الحديث

أخرج الحديث أبو داود وأخرجه أيضا الترمذي في جامعه، ولم يذكر الصلاة وفي آخر تقديم، وتأخير: وإسناده صحيح انظر (جامع الترمذي، كتاب العلم، حديث رقم ٢٢٦٨).

وأخرجه أيضا الإمام أحمد في المسند (المسند جـ٤ ص١٣٠، ١٣١) وأخرجه

ابن ماجه في مقدمة السنن، باب اتباع رسول الله ﷺ (سنن ابن ماجه حديث رقم ٤٢).

• الشرح والبيان

قالا: أتينا العرباض بن سارية رضي الله عنه وهو ممن نزل فيه ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ (التوبة: ٩٢).

العرباض بن سارية صاحبي جليل، صحب النبي ﷺ، وغزا معه، وجاهد في سبيل الله، وقد أراد بقولهما: وهو ممن نزل فيه ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ﴾ بيان منقبة من مناقبه، وقد كان هذا في غزوة تبوك، وكانت في السنة التاسعة للهجرة، وكان النبي ﷺ بلغه أن الروم يجمعون الجموع لغزو المدينة، فأراد أن يغزوهم قبل أن يغزوه، وكانت هذه من سياسة رسول الله في الحروب، وهي حكمة عالية بالغة الغاية في الصواب حتى لا يتجرأ الأعداء - وما أكثرهم - على غزو بلاد الإسلام، وليبين لهم أن سلطان الله في الأرض لا يخاف أحدا.

وكان مما حدث أن جماعة من المسلمين لم يكن عندهم ظهر يركبون عليه، ولا نفقة ينفقون منها على الجهاد، فجاءوا إلى رسول الله ﷺ فاعتذر لهم بعدم وجود الظهر الذي يركبون عليه، فرجعوا وهم يبكون حزنا على ما فاتهم من شرف الخروج في الجهاد في سبيل الله فَلْيَعِ المسلمون والعرب اليوم ذلك، وليعلموا أنه لا يمكن استرجاع عزتنا المفقودة، وقوتنا المرهوبة إلا بأن نتخلق بأخلاق هؤلاء السادة الأبرار، حبا في الجهاد، ورغبة في الاستشهاد وهذا المذكور في الحديث جزء من الآية الثانية والتسعين من سورة التوبة.

«قلنا أتيناك زائرين، وعائدين ومقتبسين».

والزيارة من حق المسلم على المسلم، وكذلك العيادة من حق المسلم على المسلم كما في الأحاديث الصحاح في الصحيحين وغيرهما، والظاهر أنه كان مريضا، وإلا تكون العيادة بمعنى الزيارة، ويكون الكلام من قبيل عطف التفسير، ومعنى «ومقتبسين» يعني من علمك ومروياتك عن رسول الله ﷺ، فالعلم نور،

وما سيأخذانه منه من العلم قبس من هذا النور، وهو تعبير بليغ وقد كان الرجلان بليغين حقا حيث قدما الزيارة، والعيادة، على الاقتباس، فهو من قبيل تقديم الوسيلة بين يدي المطلوب وهو يدل على ما كان يتمتع به الصحابة من البلاغة، والذكاء، والكياسة «فقال العرباض: صلى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم ثم أقبل علينا بوجهه، فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب».

وكان من سنة رسول الله ﷺ إذا ما صلى بالناس صلاة جماعة استدار إليهم.. وواجههم، ليعظهم ويذكرهم، أو ليسأله سائل فيجيبه، والموعظة البليغة هي المطابقة لمقتضى الحال، وللظروف والملابسات التي كانت تدعو إليها آنذاك، وكلام رسول الله ﷺ كله فصيح بليغ، فوصف «الموعظة» بالبليغة من قبيل التوضيح، لا التخصيص لأنه لم يكن لرسول الله ﷺ مواعظ غير بليغة، نعم فيها البليغ والأبلغ.

ومعنى «ذرفت» أي سالت وجرت من تأثيرها الدموع من العيون، «ووجلت» يقال وجل القلب بكسر الجيم في الماضي - يوجل - بفتح الجيم في المضارع - من باب سمع يسمع إذا خاف وفزع، والوجل: خوف ممزوج بخشية الله، والإشفاق على النفس من عقابه، ومثل هذا تظهر آثاره بذرف الدمع من العين.

فقال رجل: «يا رسول الله كأن هذه موعظة مودع!! فماذا تعهد إلينا».

الظاهر أن هذه الموعظة كانت في أخريات حياة النبي ﷺ ومعنى «مودع» أي للدنيا ولنا، وقد كان الصحابي القائل لهذه المقالة على غاية من الدقة في التعبير، فلم يقل: إنها موعظة مودع مثلا، وإنما قال: «كأن هذه..» لأن اليقين في مثل هذا غير ممكن، لأن الأعمار بيد الله، والآجال لا يعلم حقيقتها إلا الله تبارك وتعالى وصدق الله: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (لقمان: ٣٤).

وقد فهموا كونها موعظة مودع، من الموعظة، ومن القرائن والأحوال التي كانت حينئذ.

«فماذا تعهد إلينا» يعني توصينا: يقال: عهد إليه بكذا يعهد، إذا أوصى إليه.

فقال: «أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة، وإن عبدا حبشيا فإن من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافا كثيرا».

وقد كانت الوصاة بتقوى الله لازمة من لوازم خطب رسول الله ﷺ، ومواعظه، والتقوى لها معنيان: معنى قلبي نفسي، وهو الذي عناه رسول الله ﷺ بقوله «التقوى ههنا - ثلاثا - وأشار إلى صدره الشريف» ومعنى يتعلق بالجوارح والسلوك وأحسن ما تعرف به: امتثال المأمورات، واجتناب المنهيات، وهي بهذا المعنى شاملة لكل هدى، وحق، وخير، فمن ثم ظهر السر في توصية رسول الله ﷺ بها دائما في خطبه، ومواعظه، والتقوى ما لم تكن نابعة من القلب فإنها لا تدوم، وسرعان ما تزول.

وقد كان رسول الله ﷺ على حق حينما أتبع التوصية بالتقوى بالتوصية بالسمع والطاعة للخليفة والأمير وإن كان عبدا حبشيا وعبدا منصوبة على أنها خبر كان المحذوفة مع اسمها ولذلك نظائر في الأحاديث الصحيحة، ففي حديث بدء الوحي المروي في الصحيحين عن السيدة عائشة - رضي الله عنها- قول ورقة بن نوفل: «يا ليتني فيها جذعا» أي أكون جذعا.

وذلك لأن رسول الله ﷺ يعلم أنه سيكون هناك خلاف على الخلافة والإمارة، فكانت الوصية بالسمع والطاعة أمرا لا بد منه وليس أدل على ذلك من أن رسول الله ﷺ لم يجاور الرفيق إلا وقد بدأ الخلاف على الخلافة، ولولا فضل الله على هذه الأمة وتوفيقه لقادتها فبايعوا الخليفة الأول الصديق أبا بكر رضي الله عنه وأرضاه، ثم صار إجماعا فيما بعد، لكانت فتنة في الأرض، وفساد كبير، ثم كان بعد ذلك من الخلاف على الخلافة، بعد سيدنا عثمان رضي الله عنه، ما أحدث صدعا في وحدة الأمة الإسلامية حينذاك ووقعت وقائع عظيمة سالت فيها الدماء بلا حساب، ولسنا نخوض فيما وقع، فتلك دماء طهر الله منها أيدينا، فلنطهر منها ألسنتنا -والله تبارك وتعالى- يغفر لنا، ولهم، والله المستعان، وعليه التكلان. قول رسول الله ﷺ: «فعليكم بسنتي، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، تمسكوا بها، وعضوا عيها، بالنواجذ» السنة المراد بها هنا الطريقة

المشروعة في الدين، فتشمل الاعتقاديات، والعبادات، واجبة كانت أم مندوبة، والمعاملات والأخلاقيات، والجنائيات، والسياسات، والمعاهدات وغيرها «وسنة الخلفاء الراشدين المهديين».

السنة: هي الطريقة أيضا والخفاء الراشدون: هم السادة الأخيار أبوبكر، وعمر، وعثمان، وعلي رضوان الله عليهم أجمعين.

الراشد: اسم فاعل من رشد، يرشد، من باب: فرح يفرح، ورشد - بفتح الشين- يرشد - بضم الشين- من باب: نصر ينصر، رشدا، ورشدا، ورشادا، والرشد ضد الغي، والرشد: الاستقامة على الدين، والالتزام بتكاليفه.

و«المهديين» جمع مهدي، يقال: هداه، يهديه فهو مهدي، والله هاديه، والمهدي: هو الذي هداه الله، وأوصله إلى الحق، ووفقه إلى الدوام عليه.

«والنواجذ» جمع ناجذ، وهي الأضراس التي بعد الأنياب، وهذا مثل لشدة الاستمساك بالأمر، والحرص عليه، لأن العض بالنواجذ يلزم منه العض بجميع الأسنان، أو بمعظمها على الأقل.

«وإياكم ومحدثات الأمور» هذا تحذير من الوقوع في البدع المضلة. والمحدثات: جمع محدثة، وهي البدعة، والبدعة: هي كل ما استحدث وليس لها أصل ودليل في الشرع من كتاب، أو سنة، أو إجماع، أو قياس أما ما يكون لها أصل في الشرع فلا يعتبر بدعة فكتابة القرآن في صحف مجموعة في عهد الصديق رضي الله عنه، والمصاحف في عهد عثمان رضي الله عنه لا يعتبران بدعة لأن لهما أصل في الدين، وهو وجوب المحافظة على القرآن الكريم، وما أدى إلى الواجب فهو واجب، وكذلك نقط المصاحف، وشكلها لصيانة القرآن من اللحن، والتحريف لا يعتبران بدعة أيضا بل هما من الأمور الواجبة.

«وكل محدثة بدعة» وما دمنا عرفنا البدعة بأنها ما ليس لها دليل، ولا أصل فلزم أن تكون كل محدثة بدعة، وأما ما له أصل في الدين فهو بمعزل عن البدعة والعلماء المحققون على هذا، وعليه فلا يقسمون البدعة إلى الأحكام الخمسة، وأما الذين قسموا البدعة إلى الأحكام الخمسة فهم يريدون بالبدعة كل ما

استحدث سواء أكان لها أصل في الدين أم ليس لها وعند التحقيق نجد أن الخلاف لفظي، وليس حقيقيا، وأنه اختلفت العبارات لاختلاف الاعتبارات.

«وكل بدعة ضلالة»

وحق للبدعة أن تكون ضلالة، لأن ما ليس مشروعا، ولا دليل له في الشرع يعتبر ضلالة، إذ ليس بعد الحق المشروع إلا الضلالة، ونعوذ بالله من الضلالة، والعمل بها، وفي الحديث الصحيح المتفق عليه عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد» وفي رواية للإمام مسلم «من عمل عملا ليس عيه أمرنا فهو رد» يعني مردود عيه، وغير مقبول لمخالفته لسنة رسول الله ﷺ وشرعه.

ويؤخذ من الحديث الأحكام والآداب الآتية:

وجوب الاستمساك بسنة رسول الله ﷺ، وطريقته، وهديه وهي شاملة لما ثبت بالقرآن الكريم الذي هو أصل الدين، ومنبع الصراط المستقيم، ولما ثبت بالسنة والأحاديث، التي تعتبر الأصل الثاني من أصول التشريع في الإسلام، والاعتصام بها في كل شأن من شؤون ديننا ودنيانا.

وجوب السمع والطاعة لمن تولى أمور المسلمين وإن كان عبدا حبشيا كأن رأسه زبيبة كما في الأحاديث الأخرى، مادام مطيعا لله، قائما بحقوقه، وحقوق الرعية التي شرعها الإسلام، فإن عصى الله أو أمر بشيء فيه معصية الله فلا طاعة له، لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وفي الحديث الصحيح الذي رواه البخاري في صحيحه قول رسول الله ﷺ «إنما الطاعة في المعروف».

وقد كان الشارع الحكيم حكيما غاية الحكمة حينما أمر بالسمع والطاعة للأمراء لأن لو فتحنا باب المخالفة والمحادة، والمحاربة لأية مخالفة تبدر من الولاة لأصبحت حياة المسلمين، حروبا متواصلة، وفي ذلك فتنة في الأرض وفساد كبير وأي وال لا يمكن أن يرضي جميع الرعية!! لأن الكثرة الكاثرة من المسلمين تتحكم فيهم الأهواء والشهوات النفسية، وصدق الله: ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ (التوبة: ٥٨).

إن سنة الخلفاء الراشدين الأربعة كسنة رسول الله ﷺ وهذه شهادة لهم، وتزكية بأنهم على الحق، ولا يتطرق لأعمالهم الابتداع وأنهم متبعون، وليسوا بمبتدعين، ونعوذ بالله أن يطعن فيهم طاعن أو يحكم عليهم بالعصيان، أو الكفر زنديق ملحد، بعد شهادة الله تبارك وتعالى لهم في غير ما آية، وشهادة رسول الله ﷺ لهم كما سمعت. إن الخير كل الخير في الاتباع: اتباع ما كان عليه رسول الله ﷺ، وما كان عليه الصحابة الكرام، ولاسيما الخلفاء الراشدون الأربعة والشر كل الشر في الابتداع، والبدعة أحب إلى الشيطان من كذا وكذا معصية لأن المبتدع يفعل البدعة وهو يعتقد حسنها، والتقرب إلى الله بها، أما العاصي فهو يفعل المعصية، وهو يعلم أنها معصية، نسأل الله تبارك وتعالى أن يجعلنا من المتبعين، ونعوذ بالله من أن نكون من المبتدعين.



مساهمة المسلمين في العلوم الإسلامية والعربية

العدد (١٨٢) رجب (١٤٠٠هـ) - ديسمبر ١٩٧٩م).

انتشر الإسلام بعد وفاة الرسول ﷺ وذلك بفضل الله ثم بفضل الصحابة الأبطال، ومن جاء بعدهم من التابعين وتابعيهم.. حتى بلغ الإسلام ما بلغ الليل والنهار من المحيط الأطلسي غربا أو كما كانوا يسمونه آنذاك «بحر الظلمات» إلى المحيط الهادي شرقا، وأصبحت أصداء كلمة التوحيد والإقرار برسالة سيدنا محمد تتلاقى من فوق المآذن في اليوم، والليلة خمس مرات، وفي هذه الرقعة الفسيحة من العالم المعروف حينئذ، بعد قرنين من الرسالة، أو يزيد، حتى لقد مرت سحابة ببعض خلفاء بني العباس، فنظر إليها قائلا: «أمطري حيث تمطرين، فحيث تمطرين فسيأتيني خراجك»!! وقد كان هذا الانتشار السريع آية على إعجاز القرآن الكريم، وعلى أن هذا الاسلام دين إلهي حقا.

ولم يكن هذا الانتشار السريع الذي أذهل الكثيرين ممن كتبوا في التاريخ من غير المسلمين عن إكراه، أو قسر وإجبار، وإنما كان عن طواعية واختيار، فقد وجدت الشعوب التي رزحت تحت نير حكام الفرس، والرومان، ومن على شاكلتهم في الإسلام أفضل دين يَعْرِفُ لبني الإنسان حرياتهم، ويَرعى حرماتهم: حرمة الدم، والعرض، والمال، ويعرف لهم حقوقهم قبل أن يعرف العالم المعاصر «حقوق الإنسان» بأربعة عشر قرنا.

كما وجدوا فيه الدين الذي أراحهم مما كانوا فيه من ظلم، وعسف، وكفر، وضلالات، وخرافات، وأوهام وجهالات، وأشعرهم بكرامتهم الإنسانية التي كانت مهددة وحقوقهم التي كانت مضيعة، كما وجدوا في ظله الوارف الرحمة بأوسع معانيها والعدل بأوسع معانيه، والأمان، والاستقرار، والسلام، حتى في

الحروب التي خاضوها كانوا أرحم الناس، وأعدل الناس، مع أن الحروب مبناها على الغلظة، والقسوة، والظلم والسفه، والجهل، وصدق غوستاف لوبون المؤرخ الفرنسي المشهور حيث قال: «لم نجد أرحم، ولا أعدل من العرب في فتوحاتهم» ومراده العرب المسلمون، والفضل ما شهدت به الأعداء.

وقد انتشرت اللغة العربية الشريفة: لغة القرآن والسنة بسرعة كانتشار الإسلام، بل قد تعلم هذه اللغة الشريفة بعض أبناء هذه البلاد الذين لم يتشرفوا بالدخول في الإسلام كاليهود والنصارى، والمجوس ممن سنوا بهم سنة أهل الكتاب في أخذ الجزية نظير ما تقوم به الدولة الإسلامية نحوهم من حماية ورعاية، وخدمات اجتماعية كثيرة من شق الترع، وتعبيد الطرق، وإقامة الكباري والجسور، وسكر الأنهار ونحوها من الخدمات الكثيرة.

• مشاركة المسلمين من غير العرب في العلوم العربية والاسلامية

وقد بلغ الكثيرون من هؤلاء المسلمين من غير العرب مبلغ المسلمين العرب في حذق اللغة العربية والعلم بدقائقها، وخصائصها، حتى صاروا من كبار علمائها، إجادة، ونطقا، وعلما بقواعدها وكذلك بلغ المسلمون المستعربون مبلغ المسلمين العرب في العلوم العربية من لغة، ونحو، وصرف، وبلاغة، وفي العلوم الإسلامية الأصيلة من التفسير وعلومه، والحديث وعلومه، والفقه وأصوله، والعلوم العقلية كالمنطق الذي يعتبر معيار المعقول، وعلم الكلام، والجدل، والفلسفة بأقسامها، والعلوم الاجتماعية كعلم الأخلاق، والمواعظ، والتاريخ ونحوها، والعلوم الكونية كعلم سنن الله الكونية، والكيمياء، وعلم البصريات وعلم الفلك وغيرها من العلوم التي ضرب فيها المسلمون بسهوم راجحة، في العصور الذهبية للحضارة الإسلامية الزاهية التي قامت على الإيمان بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وعلى الإيمان بالروح، والجسد، وأن لكل منهما مطالبهما، وأن الإنسان ليس جسما من لحم، وعظم، وعصب فحسب، وإنما هو مركب من روح وجسد، وقد جاء الإسلام الدين العام الخالد بالوفاء بكل ما تحتاج إليه الروح، والوفاء بكل ما يحتاج إليه الجسد، فمن ثم

كانت الحضارة الإسلامية فريدة في بابها، فهي ليست حضارة تقوم على إنكار الله تبارك وتعالى، وعلى إنكار الأديان والطعن فيها، ومحاربتها كما هو الشأن في الحضارة الشيوعية المعاصرة، وما يدور في فلكها وليس حضارة مادية تؤمن بالله، وتقر بالدين، ولكنها فصلت الدين عن الدنيا، وحصرته بين جدران الكنائس كما هو الشأن في الحضارة الغربية المعاصرة، ولا هي حضارة قائمة على إنكار مطالب الجسد بل وتعذيب الجسد، والانعزال عن الدنيا، وزخارفها، وذلك كما كان الشأن في بعض الحضارات القديمة في الهند، وما على شاكلتها، وإنما هي حضارة متميزة بتميز الإسلام عن غيره من الأديان، تميز العقيدة الإسلامية عن غيرها من العقائد، وتميز الشريعة عن غيرها من الشرائع السماوية، والقوانين الوضعية الأرضية، وتميز الأخلاقيات الإسلامية عن غيرها من الأخلاقيات قديما وحديثا.

وهذه المشاركة العلمية الجادة تدل على أن هؤلاء الذين تعلموا لغة القرآن والسنة قد تعلموها عن صدق، وإيمان بأنها لغة الإسلام، وأن ذلك لم يكن لنفع دنيوي، ولا لنفاق ومداهنة لأن الحريات كانت مكفولة لكل من كان يعيش في دولة الإسلام، والحرمات كانت مصونة في هذه الدولة سواء في ذلك المسلمون، وأهل العهد والذمة من اليهود والنصارى.

وعلى أن هؤلاء الذين دخلوا في هذا الدين العام الخالد: دين الإسلام دخلوا فيه عن اعتقاد، ويقين، بأنه أمثل الأديان، وأوفاها بحاجات البشر، وأصلحها لإيجاد حياة كريمة، وتكوين مجتمع فاضل ولولا هذا لما جاهدوا في تحصيل العلم هذه المجاهدة الصادقة، ولما أتعبوا أنفسهم هذا التعب المضني في سبيل تدوين العلوم الإسلامية، وجمعها، وتبويبها، وقد كان لهم في الخلود إلى الراحة مندوحة عن كل هذا إن أرادوا، ولكنه الإخلاص لهذا الدين، والحب لهذه اللغة الشريفة: لغة القرآن والإسلام.

- **مثال عجيب في تعليم بعض العلوم الإسلامية من غير المسلمين**

لقد ذكر الإمام السيوطي في «تدريبه» أثناء تعلمه عن الإجازة وأقسامها،

وأحكامها، والرواية بها كلاما عن «الإجازة» للكافر، قال: «وأما الإجازة للكافر فلم أجد فيه نقلا - يعني عمن سبقه-، وقد تقدم أن سماعه صحيح، قال: ولم أجد عن أحد من المتقدمين، والمتأخرين الإجازة للكافر، إلا أن شخصا من الأطباء يقال له: محمد بن عبد السميع، سمع الحديث في حال يهوديته على أبي عبد الله الصوري، وكتب اسمه في الطبقة مع السامعين، وأجاز الصوري لهم، وهو من جملتهم، وكان ذلك بحضور المزي، فلولا أنه يرى جواز ذلك ما أقر عليه، ثم هدى الله هذا اليهودي إلى الإسلام، وحدث - يعني بما أجازه به شيخه الصوري - وسمع منه أصحابنا.

وقد وقفت متعجبا عند هذا المثال العجيب: وهو حرص هذا الطبيب اليهودي على حضور مجالس هذا الإمام المحدث الصوري، والعلم بالحديث النبوي يعتبر من خصائص الثقافة الإسلامية الأصيلة، ولو أن هذا الطبيب اليهودي عني بعلوم اللغة، والأدب، أو بتلقي علوم الطب والكيمياء، والفلك ونحوها التي تعتبر أمرا مشتركا بين المسلمين وغيرهم، لما كنت أعجب، وهذا يدل على أن الثقافة الإسلامية في هذا العصر كان لها سلطانها على النفوس حتى غير المسلمة، وأنها كانت تستهوي غير المسلمين، وإذا كانت هذه الحال بالنسبة لغير المسلمين من يهود، ونصارى، فما بالكم بالنسبة للمسلمين المؤمنين بالقرآن، وبلغة القرآن، وبرسول الله، وبحديث رسول الله ﷺ ؟!! إنه - والله- لأمر عجيب حقا، أن تفرض الثقافة الإسلامية الأصيلة نفسها على غير المسلمين!!

أمثلة للعلماء المسلمين من غير العرب الذين شاركوا في الحياة العلمية

● علوم اللغة العربية

(١) فمن هؤلاء الذين برعوا في علوم اللغة، والنحو، والصرف الإمام اللغوي النحوي عمرو بن عثمان الشيرازي الملقب: بسيبويه، وإليه يرجع الفضل في تقييد علم النحو، وألف في علم النحو «الكتاب» وإذا أطلق لفظ الكتاب عند النحاة، لا ينصرف إلا إلى كتاب سيبويه. ومنهم الإمام في اللغة وفقهها أبوعلي الفارسي.

(٢) وألف في علم متن اللغة، وبيان معاني المفردات، الإمام أبو نصر إسماعيل بن نصر بن حماد **الجوهري** الفارابي المتوفى في حدود سنة أربعمائة من الهجرة على اختلاف في التعيين كتابه «الصحاح» جمع فيه أربعين ألف مادة.

(٣) وألف أيضا الإمام مجد الدين محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيرازي **الفيروزآبادى**، وهي بلدة من بلاد فارس كما ذكر ذلك في مادة «فرز» من قاموسه وبها ولد أبوه وجده وأما هو فولد «بكارزين» كما صرح بذلك في كتابه، في مادة «كرز» وهي من بلاد فارس أيضا وكان ميلاده عام **٧٢٩هـ**، وتوفي في ليلة الثلاثاء العشرين من شوال سنة سبع عشرة وثمانمائة بمدينة زبيد من بلاد اليمن السعيد.

وقد اعتنى بالحديث، وله مشاركة في التأليف فيه، ولكنه جد واجتهد في علم اللغة حتى صار إماما فيها، وليس أدل على ذلك من كتابه القيم «القاموس المحيط» الذي جمع فيه ستين ألف مادة، والقاموس: ماء البحر الواسع.

لم يفقه في هذا إلا الكتاب المعروف «بلسان العرب» لمؤلفه الإمام القاضي **جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري المصري** المولود سنة ثلاثين وستمائة، والمتوفى سنة إحدى عشرة وسبعمائة من الهجرة يعني قبل ميلاد مجد الدين صاحب القاموس بثمانية عشر عاما فقد جمع في كتابه «ثمانين ألف مادة» والظاهر أن صاحب القاموس لم يطلع على هذا الديوان اللغوي العربي العظيم، وإلا لزاد عليه أو على الأقل لنوه به.

- **التفسير وعلومه**

(١) وألف منهم في التفسير الإمام الحافظ، المفسر، المؤرخ **محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب أبوجعفر الطبري** المولود سنة أربع وعشرين ومائتين، والمتوفى سنة عشر وثلاثمائة، ومن أجل مؤلفاته التفسير الكبير المسمى «جامع البيان في تفسير القرآن» قال فيه الإمام الجليل النووي في «تهذيبه»: كتاب ابن جرير في التفسير لم يصنف أحد مثله، وقال أبوحامد الإسفراييني لو رحل رجل إلى الصين حتى ينظر تفسير ابن جرير لم يكن ذلك كثيرا عليه: وهو من أجل كتب

التفاسير بالمأثور وأصحها يذكر فيه ما ثبت عن النبي ﷺ ، وما ورد عن الصحابة والتابعين، وقد زاد فيه على من سبقه ممن ألفوا في التفسير بالمأثور، أنه عرض فيه لتوجيه الأقوال، وترجيح بعضها على بعض، كما ذكر فيه الكثير من وجوه الاستنباط والأعاريب واللغات، والاستشهاد بالشعر على بعض معاني الألفاظ.

ولولا ما شابه من رواية الإسرائيليات، وبعض الموضوعات، من غير تنبيه إليها لكان جديرا بكل ما قيل فيه.

وللإمام ابن جرير مؤلفات كثيرة جليلة منها:

(أ) كتاب «تهذيب الآثار» (ب) وكتاب «تاريخ الأمم والملوك»

(جـ) وكتاب «القراءات» (د) وكتاب «تاريخ الرجال» في الفقه.

(٢) ومنهم الإمام جارالله محمود بن عمر **الزمخشري**، صاحب التفسير المشهور «الكشاف» وهو من أجل كتب التفسير بالرأي والاجتهاد، ومن أحسن التفاسير - إن لم يكن أعظمها - في إظهار إعجاز القرآن الكريم، لولا ما شابه من ذكر بعض الموضوعات والإسرائيليات، ومن ذكر بعض الآراء الاعتزالية، التي قد تخفى على الكثيرين، ولا يتنبه إليها إلا القليلون، وقد ركب الصعب في توجيه بعض الآيات القرآنية كي يتخذ منها دليلا للانتصار لمذهب أهل الاعتزال، وقد قيض الله له الإمام العالم الكبير أحمد بن المنير عالم الاسكندرية وخطيبها، فألف كتابه الجليل «الانتصاف» وقد طبع مع الكشاف، و«الانتصاف» يؤمن على قارئ «الكشاف» من أن تجوز عليه بعض الآراء الاعتزالية، وكانت وفاة صاحب الكشاف سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة.

(٣) ومنهم الإمام القاضي المفتي **أبو السعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادي الحنفي** ولد سنة ثلاث وتسعين وثمانمائة بقرية قرب القسطنطينية ونشأ في بيت علم، وفضل، ودين، وقد تتلمذ على والده وغيره من العلماء حتى صار علما من الأعلام، ولي التدريس مدة، ثم ولي القضاء، وصار يتنقل من بلد إلى بلد حتى وصل إلى الإفتاء، وكان متمكنا من اللغات الثلاث: العربية، والفارسية، والتركية ولم يَدَع له التدريس، وولاية القضاء، والتنقل بين البلاد مجالا للتأليف

فلم يترك لنا إلا تفسيره المسمى «إرشاد العقل السليم الى مزايا القرآن الكريم»، وبعض حواشي أخرى على تفسير الكشاف، وعلى شرح «العناية على الهداية» وكانت وفاته سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة، ودفن بجوار الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه وأرضاه.

● **الحديث الشريف وعلومه**

وألف في الحديث وعلومه من هؤلاء المسلمين الأعاجم الذين صاروا عربا بالمربى أئمة أجلاء، كثيرون ولعل أجل خدمة أداها هؤلاء للإسلام هي ما قاموا به نحو الحديث وعلومه من جمع في الصدور، وتقييده في الكتب والسطور، وتأليف الدواوين الكبيرة التي تعتبر المرجع لأحاديث رسول الله ﷺ، وحفظها من الضياع، والتي تعتبر الأصل الثاني من أصول التشريع في الإسلام وإليكم بعض هؤلاء الأئمة، **ونبدأ بأمير المؤمنين في الحديث الإمام الكبير البخارى**:

١- هو الإمام أبو عبدالله محمد بن إسماعيل، بن إبراهيم، بن المغيرة بن بردزبه، كان جده بردزبه مجوسيا على دين قومه، أما والده المغيرة فقد أسلم على يد اليمان الجعفي، والي بخارى في هذا الوقت، فنسب إليه ولاء إسلام لا ولاء عتاقه فمن ثم قيل في نسب البخاري الجعفي، وأما جده إبراهيم فلم أقف على شيء من أخباره، وأما والده إسماعيل فكان عالما جليلا سمع من حماد بن زيد، والإمام مالك، وترجم له ابنه ابو عبد الله الإمام في كتابه «التاريخ الكبير» وذكر له ابن حبان ترجمة في كتاب «الثقات»، وقد جمع والده إسماعيل إلى العلم الورع والتقوى، وروي عنه أنه قال عند وفاته «لا أعلم في مالي درهما من حرام، ولا من شبهة» فالبخاري من بيت دين وعلم، وورع، فلا عجب أن ورث هذه الخلال الكريمة فيما ورث عن أبيه.

ولد البخارى يوم الجمعة بعد الصلاة لثلاث عشرة ليلة خلت من شوال سنة أربع وتسعين ومائة من الهجرة، ببلدة بخارى وتوفي «بخرتنك» قرية على فرسخين من سمرقند، ليلة عيد الفطر سنة ست وخمسين ومائتين عن اثنين وستين عاما إلا ثلاثة عشر يوما، فرضي الله عنه وأرضاه. وليس من قصدي في هذا، الكتابة عن

البخاري فذلك يحتاج إلى مجلد كبير، وقد وفيته حقه في كتابي «أعلام المحدثين» وإنما أريد أن حياته المباركة التي قضاها في التطواف، والترحال ما بين بخارى وسمرقند إلى العراق، إلى مكة، والمدينة من بلاد الحجاز، إلى بلاد اليمن، إلى بلاد مصر تمخضت عن أعظم كتاب من كتب الأحاديث والسنن، وأصح كتاب في الإسلام بعد كتاب الله تبارك وتعالى: القرآن الكريم وهو «الجامع المسند الصحيح» الذي لا يجهله في العالم الإسلامي عالم، ولا جاهل، ولا رجل، ولا امرأة، ولا صغير ولا كبير ولو أن حياة الامام البخارى لم تتمخض إلا عن هذا الجامع الصحيح لكفى، فما بالكم وقد ترك ثروة ضخمة من الكتب الحديثية التي أثرت المكتبة الحديثية في الإسلام منها:

(١) التاريخ الكبير (٢) التاريخ الصغير
(٣) الأدب المفرد (٤) القراءة خلف الإمام
(٥) بر الوالدين (٦) رفع اليدين في الصلاة
(٧) التاريخ الأوسط (٨) كتاب الضعفاء
(٩) كتاب المبسوط (١٠) الجامع الكبير
(١١) المسند الكبير (١٢) التفسير الكبير
(١٣) كتاب العلل (١٤) كتاب الهبة
(١٥) كتاب الفوائد (١٦) كتاب الكنى
(١٧) كتاب الوحدان (١٨) كتاب أسامي الصحابة.

ومن هذه الكتب ما هو مطبوع، ومنها ما هو مخطوط، ومنها ما لم يعلم إلا عن طريق ذكر بعض الأئمة له.

٢- الإمام الحافظ أبوداود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير، بن سداد ابن عمرو السجستاني صاحب كتاب «السنن» ولد سنة اثنتين ومائتين، وتوفي سنة خمس وسبعين ومائتين.

وقد طوف في الأقاليم، وارتحل، ولقي الكثيرين من التلاميذ، وكان شديد الاعتزاز بكرامة العلم والعلماء، ومما يدل على هذا الاعتزاز ما رواه الإمام

الخطابي بسنده عن أبي بكر بن جابر بن جابر بن خادم أبي داود قال: كنت مع أبي داود ببغداد، فصلينا المغرب، إذ قرع الباب ففتحه، فإذا خادم يقول: هذا الأمير أبو أحمد الموفق يستأذن، فدخلت على أبي داود فأخبرته بمكان الأمير، فأذن له فدخل، فقعد، ثم أقبل عليه أبو داود وقال: ما جاء بالأمير في مثل هذا الوقت؟ فقال: خلال ثلاث، فقال: هي..؟ قال: تنتقل إلى البصرة فتتخذها وطنا، ليرحل إليك طلبة العلم من أقطار الأرض، فتعمر بك، فإنها قد خربت، وانقطع عنها الناس لما جرى من مجيء الزنج فقال: هذه واحدة، هات الثانية، قال: وتروي لأولادي كتاب «السنن» فقال: نعم، هات الثالثة، فقال: وتفرد لهم مجلسا للرواية، فإن أولاد الخلفاء لا يقعدون مع العامة، فقال أبو داود: أما هذه فلا سبيل إليها، لأن الناس: شريفهم، ووضيعهم في العلم سواء!! قال ابن جابر: فكانوا يحضرون بعد ذلك ويقعدون، ويضرب بينهم وبين الناس ستر فيسمعون مع العامة.

أقول: وهكذا فليكن العلماء، لا يسعون إلى الملوك والأمراء، وإنما يسعى إليهم الملوك والأمراء.

٣- الامام أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي أحد الأجلاء الذي يقتدى بهم ويرحل إليهم ولد سنة تسع ومائتين، وتوفي بترمذ في شهر رجب سنة تسع وسبعين ومائتين وهو صاحب التصانيف المفيدة التي من أجلها:

(١) جامع الترمذي (٢) وكتاب العلل الملحق بالجامع في آخره (٣) وكتاب «الشمائل النبوية» وهو أحسن الكتب في هذا الباب وأشملها.

٤- الإمام الحافظ شيخ الاسلام أبو عبد الرحمن أحمد بن علي بن شعيب الخراساني القاضي كان إمام أهل عصره في الحديث والمقدم على أضرابه، وفضلاء عصره، ولد بنساء سنة خمس عشرة ومائتين وتوفي سنة ثلاث وثلاثمائة بالرملة على الصحيح وهي بلد من بلاد فلسطين ومن أجل مؤلفاته: «السنن الكبرى» و«السنن الصغرى» المعروفة «بالمجتبى» و«الخصائص».

٥- الإمام أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه القزويني الربعي صاحب السنن

وغيرها من الكتب المعتبرة، ولد سنة تسع ومائتين، وتوفي سنة ثلاث وسبعين ومائتين ومن مؤلفاته (١) كتاب السنن (٢) كتاب تفسير القرآن الكريم وهو تفسير حافل كما قال ابن كثير.

٦- الإمام الحافظ الكبير أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه النيسابوري الملقب بالحاكم والمعروف بابن البيع ولد سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة، وتوفي سنة خمس وأربعمائة وله مؤلفات كثيرة من أجلها:

(١) كتاب المستدرك (٢) علوم الحديث

(٣) كتاب الإكليل (٤) المدخل.

٧- الإمام أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد الرامهرمزي، المتوفى حوالي سنة ٣٦٠هـ ويقال: إنه أول من ألف في علوم الحديث على الإطلاق في كتابه «المحدث الفاصل، بين الراوي والواعي».

٨- الإمام أبو عمرو عثمان بن عبدالرحمن الشهرزوري المعروف بابن الصلاح المتوفى سنة ٦٤٢هـ ومن أجل مؤلفاته كتاب «علوم الحديث» الذي جمع فيه شتات هذا العلم في كتب المتقدمين .

- **الفقه وأصوله:**

وألف في علم الفقه وأصوله كثيرون منهم:

(١) الإمام الكبير أبو حنيفة النعمان بن ثابت بن زوطي الفارسي الأصل والمولود «بكابل» سنة ثمانين للهجرة، والمتوفى سنة مائة وخمسين للهجرة، ويكفي الإمام أبا حنيفة جلالة قول الإمام الشافعي فيه «الناس في الفقه عيال على أبي حنيفة» وليس له إلا «الفقه الأكبر» في الاعتقاد لا في الفروع والفقه كما يُظن ولكن تلاميذه، ولا سيما الإمام محمد بن الحسن دونوا فقهه وأقواله في كتبهم وهو مؤسس المذهب الحنفي أحد المذاهب الأربعة المعروفة المتبوعة في العالم الإسلامي.

وجاء بعد الإمام كثيرون من الأحناف الذين ساروا على منهج الإمام في أصوله من الذين صاروا عربا بالمربى كالإمام السرخسي، والإمام محمد بن علي المرغيناني

صاحب كتاب «الهداية» وغيرهما وفي كل مذهب من المذاهب الثلاثة الأخرى المالكي، والشافعي، والحنبلي علماء كثيرون ممن كانوا في الأصل أعاجم ثم صاروا عربا بالمربى لا يحصيهم العد، ويطول الكلام جدا لو ذكرتهم.

● **تذكير وتنبيه**

وما ينبغي أن يعلم أن المؤلفين في اللغة وعلومها، والتفسير وعلومه، والحديث وعلومه، والفقه وأصوله والسير والتواريخ وسائر الفنون والعلوم من العرب الأصلاء كثيرون جدا مثل هؤلاء أو أكثر منهم، وليس أدل على ذلك من أن الأئمة الأربعة المتبوعين ثلاثة منهم عرب خلص، والرابع وهو أبو حنيفة هو فارسي الأصل ولكني أردت أن أبين أن الكثرة الكاثرة من الشعوب التي دخلت في الإسلام عن طواعية واختيار أخلصوا لهذا الدين غاية الإخلاص وللغة العربية الشريفة: لغة القرآن والإسلام فسرعان ما تعلموا اللغة العربية حتى صاروا كأهلها، وسرعان ما حذقوا العلوم الشرعية والعربية كحذق أهلها لها بل أشد، وبذلك ألقم الذين زعموا أن «الإسلام قام على السيف والإكراه» حجرا، وألقي إليهم بحجة لا يستطيعون لها ردا؟



المساجد الثلاثة التي تشد إليها الرحال

العدد (١٨٧) رجب ١٤٠٠هـ - مايو ١٩٨٠م

روى الإمام البخاري في صحيحه بسنده عن أبي هريرة ﵁ عن النبي ﷺ قال: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجد الرسول ﷺ، ومسجد الأقصى» ورواه أيضا من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ بلفظ «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجد الحرام، ومسجد الأقصى، ومسجدي» (صحيح البخاري، كتاب الصلاة، أبواب التطوع، باب الصلاة في مسجد مكة والمدينة).

● تخريج الحديث

رواه الإمام مسلم في صحيحه بسنده عن أبي هريرة ﵁ يبلغ به عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا، ومسجد الحرام، ومسجد الأقصى».

ورواه من طريق أخرى بلفظ «تشد الرحال إلى ثلاثة مساجد...» بدون ذكر «لا» و«إلا».

ورواه من طريق ثالثة عن سليمان الأغر أنه سمع أبا هريرة ﵁ يخبر أن رسول الله ﷺ قال: «إنما يسافر إلى ثلاثة مساجد: مسجد الكعبة، ومسجدي، ومسجد إيلياء» (صحيح الإمام مسلم - كتاب الحج - باب فضل

المساجد الثلاثة).

وأخرج الحديث أيضا الإمام أبو داود في سننه، في كتاب الحج.

والإمام النسائي في كتاب الصلاة، فالحديث رواه أربعة من أصحاب الكتب الستة.

• الشرح والبيان

بالنظر في روايات الحديث الواردة في الصحيحين نجد أن الترتيب جاء في رواية الإمام البخاري الأولى، ورواية الإمام مسلم الأولى، والثالثة على حسب الفضل والمنزلة، وذلك بذكر المسجد الحرام أولا، ثم المسجد النبوي ثانيا، ثم المسجد الأقصى ثالثا، وجاءت الرواية الثانية في صحيح مسلم بتقديم المشاهد الحاضر وهو المسجد النبوي على المسجدين الآخرين، وإن كانت «الواو» في اللغة العربية لا تفيد ترتيبا، وإنما هي لمطلق الجمع والتشريك في الحكم، وقد جاء الترتيب في رواية البخاري الثانية على حسب التقديم الزمني.

ومن هذه الروايات أيضا يتبين لنا أن معظم الروايات جاءت بطريق الحصر، إما «بلا» و«إلا» كما في رواية البخاري ورواية مسلم الأولى، وإما بطريق الحصر «بإنما» كما في رواية الإمام مسلم الثالثة، وبعضها جاء بغير حصر كما في رواية الإمام مسلم الثانية فيكون المعول عليه ما جاءت به معظم الروايات وهو الحصر حملا للمطلق على المقيد.

فإن كان النبي ﷺ قال الحديث غير مرة فيكون من التفنن في العبارة، وإلا فيكون الاختلاف في الحصر وعدمه، وفي الترتيب من تصرف الرواة لدخوله تحت جواز الرواية بالمعنى، ومن هذا العرض للروايات، ومع ملاحظة أن الواو لا تفيد ترتيبا، نرى أنه لا اختلاف في الحقيقة بين الروايات، وأنها على سواء، وكفاها الله شر الاختلاف والتناقض.

وهذا من الأمور المهمة التي أحرص عليها غاية الحرص في دراسة السنة، وهو التوفيق بين الروايات والأحاديث توفيقا قريبا مقبولا.

و«الرحال» جمع رحل، وهو للبعير كالسرج للفرس، و هو دون القتب ـ بفتح

القاف والتاء ـ و «لا» نافية.

وشد الرحال كناية عن السفر وذلك كما في رواية مسلم الثالثة «إنما يسافر..» وخير ما يفسر به الحديث ما جاء في رواية أخرى، لأن الروايات يفسر بعضها بعضا.

والحديث في هذا التعبير العربي الأصيل خرج مخرج الغالب، والكثير في العصر الأول من أن أغلب الأسفار، ولاسيما البعيدة، كانت على الجمال والنياق، وإلا فيستوي في شد الرحال السفر على الدابة، أو السفر على قاطرة أو سيارة، أو السفر على طائرة، أو السفر على فلك أو باخرة، أو المشي على الأقدام، وذلك بدليل رواية «إنما يسافر..» وجملة «لا تشد الرحال...» خبرية لفظا إنشائية معنى، يعني أنها سيقت مساق النفي، والمراد النهي، فكأن النبي ﷺ قال: «لا تشدوا الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد» واستعمال النفي وإرادة النهي أسلوب بلاغي استفاض به القرآن المعجز المبين، واستفاضت به الأحاديث النبوية التي جاءت من قول النبي ﷺ ومن أسرار البلاغة في هذا، الإشارة إلى أن النهي امتثل، فأصبح أمرا واقعا مخبرا عنه وأيضا فالنفس البشرية من طبعها التأني عن الأوامر والنواهي فيكون في ذكره بصيغة النفي حمل على الامتثال فلله در كلام رسول الله ﷺ والمعنى لا تشدوا الرحال، ولا تسافروا إلى مسجد من المساجد للصلاة فيه، والعبادة إلا إلى هذه المساجد الثلاثة المشرفة في الأرض، والدليل على أن متعلق النهي عن شد الرحال هي الصلاة، ما رواه الإمام أحمد في مسنده عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: «لا ينبغي للمطي أن تشد رحالها إلى مسجد تبتغى الصلاة فيه غير المسجد الحرام، والأقصى، ومسجدي هذا» وإسناده حسن وأيضا فشد الرحال إلى هذه المساجد لن يكون إلا للصلاة، والتعبد، والأصل في المستثنى أن يكون من جنس المستثنى منه.

وبهذا التقدير المأخوذ من كلام النبوة لا يكون الحديث منافيا، ولا محرما لشد الرحال لطلب العلم، وللجهاد، وللسعي في الأرض بالتجارة، ونحو ذلك فهذه أمور أجمع العلماء على مشروعيتها، بل قد تكون مستحبة، بل قد تكون

واجبة، ودلائل ذلك من القرآن والسنة أكثر من أن تحصى.

والمساجد: جمع مسجد، وهو في اللغة مكان السجود، ويطلق ويراد به المكان المعد للعبادة، وهو المراد هنا وكسر الجيم في المسجد أمر سماعي وإلا فالقياس في مثل هذا فتح الجيم، قال الفراء: «كل ما كان على فعل يفعل مثل دخل يدخل - يعني بفتح العين في الماضي وضمها في المضارع - فالفعل منه بالفتح اسما كان أو مصدرا إلا أحرفا - يعني كلمات - ألزموها كسر العين من ذلك: المسجد، والمطلع، والمشرق، والمغرب، والمسقط، والمفرق، فجعلوا الكسر علامة الاسم... قال: والفتح في كلها جائز وإن لم نسمعه» (لسان العرب، مادة سجد).

ثم بين رسول الله ﷺ المساجد الثلاثة بقوله: «المسجد الحرام، ومسجد الرسول ﷺ، ومسجد الأقصى» و«المسجد الحرام» إما مجرور على البدلية، وإما الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف، يعني: هي المسجد الحرام، ومسجد الرسول، ومسجد الأقصى.

وهذا الأسلوب أسلوب الإجمال، ثم التفصيل والبيان، من الأساليب العربية الأصيلة في التربية والتعليم، والتثقيف، لأن ذكر الشيء مجملا مما يجعل النفس تتشوف إلى معرفته، فإذا جاء البيان تمكن في النفس غاية التمكن، وإليكم - يا قارئي الكرام - تعريفا بهذه المساجد الثلاثة:

المسجد الحرام: والمراد به مسجد مكة بلد الله الحرام، وسمي «حراما» لأن الله سبحانه وتعالى عظمه، وشرفه، وحرمه وما حوله من يوم أن خلق السموات والأرض، وجعله مثابة للناس، وأمنا فلا يقتل به عائذ، ولا يهاج فيه حيوان، ولا يصاد فيه طير، ولا تقطع شجرة، ولا يختلى خلاه - أي لا يجز ولا يقطع عشبه الذي ينبت من غير استنبات الناس - فالحرام أمان للإنسان، والحيوان، والطير، بل والجماد وصدق الله تبارك وتعالى حيث قال: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًاۗ﴾ (آل عمران: ٩٧) آمنا على نفسه، وآمنا على عرضه، وآمنا على ماله، هذا هو المكان الوحيد في الأرض الذي جعله الله حرما آمنا من يوم الخليل إبراهيم عليه السلام إلى أن

يقوم الناس لرب العالمين، وأحر بالمسجد الحرام أن يكون حرما آمنا، وهو وما حوله من مكة، وما حواليها إلى حدود الحرم المعروفة من لدن أبي الأنبياء إبراهيم عليه الصلاة والسلام، والتي وضعت عليه النصب من جهاته الأربع، والنصب هي حجارة نصبت لتكون علامات على حدود الحرم يراها من يقدر الله تبارك وتعالى أن يزور هذه البقاع المقدسة حاجا، أو معتمرا.

«ومسجد الرسولﷺ » وفي رواية للإمام مسلم «ومسجدي» فإن كان الحديث قاله النبي ﷺ غير مرة فيكون من التفنن في العبارة وهكذا شأن الفصحاء البلغاء، وإن كان الحديث قاله النبي ﷺ مرة واحدة فيكون المرجح عندي أن يكون لفظ الرسول ﷺ هي رواية «ومسجدي هذا» لما فيه من الإشارة المفيدة للتأكيد من أن ذلك من قول الرسول ويكون ما عداها من قبيل التصرف من الرواة لدخوله تحت جواز الرواية بالمعنى، ومثل هذا لا يترتب عليه أي ضرر ما من جهة استنباط الحكم أو المعنى، وأيا كان التعبير «مسجدي هذا» أو «مسجدي» أو «مسجد الرسول ﷺ » فالحكم لا يختلف.

وفي قوله ﷺ: «ومسجد الرسول ﷺ » من التفخيم، والتكريم لشأن المسجد النبوي ما فيه، فكأنه قال: والمسجد المنتسب إلى الرسول الذي هو خاتم الأنبياء والمرسلين والذي أخرجكم من الظلمات إلى النور: من ظلمات الكفر والشرك إلى نور الإيمان والتوحيد، ومن ظلمات الجهل إلى نور العلم، ومن ظلمات الجاهلية وخرافاتها وضيقها، إلى نور الإسلام، وسماحته، ويسره «ومسجد الأقصى» وفي الرواية الأخرى «ومسجد إيلياء».

المراد بالمسجد الأقصى هو مسجد بيت المقدس، و«إيلياء» هي القدس فلا خلاف بين التعبيرين، ووصف بالأقصى، لبعد المسافة بينه وبين البيت الحرام الذي هو أول بيت وضع مشرفا في الأرض، وقيل: لبعده عن الأقذار والخبائث الحسية والمعنوية وليس هذا بالوجه المقبول في تعليل الوصف بالأقصى، لأن الكعبة البيت الحرام كذلك منزهة عن الأقذار والخبائث، وصدق الله تبارك وتعالى حيث قال: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ

وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ (البقرة: ١٢٥).

والإضافة في قوله: «ومسجد الأقصى من قبيل إضافة الموصوف إلى الصفة، ومثل ذلك في الكتاب المعجز المبين، قول الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾﴾ (القصص: ٤٤).

- **ما يؤخذ من الحديث من الأحكام والآداب**

هذا الحديث ظاهر الدلالة على فضيلة المساجد الثلاثة على غيرها من المساجد، وفضيلة شد الرحال إليها، وتحمل الأسفار، والمشاق، والمتاعب في سبيل زيارتها والصلاة فيها، والتعبد بها، والمساجد بعامة وإن كانت أشرف البقاع في الأرض إلا أن هذه الثلاثة لها من الخصائص والمميزات ما ليس لغيرها من المساجد الأخرى، وإليكم بيان هذه الخصائص:

أن كل مسجد من هذه المساجد الثلاثة قد بناه نبي من الأنبياء والمرسلين.

فالكعبة المشرفة قد بناها أبو الأنبياء وخليل الرحمن إبراهيم عليه الصلاة والسلام يعاونه ابنه الذبيح إسماعيل عليه الصلاة والسلام قال عز شأنه: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ (البقرة: ١٢٧-١٢٩).

وقد استجاب الله الدعاء، فقد تقبل عملهما وبارك فيه غاية البركة، فكان ما بنياه مثابة للناس وأمنا، يثوبون إليه من كل أطراف الدنيا، فيجد فيه الخائف أمنته والمستجير ملاذه، والمتعبد ما يقضي حاجات نفسه، والداعي استجابة دعائه وتقبل الله دعاءهما فكانت هذه الأمة المسلمة التي هي من ذريتهما هي الأمة الإسلامية، وكان النبي المبعوث فيها هو نبي آخر الزمان سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، فتلا عليهم القرآن، وعلمهم الكتاب والحكمة، وزكاهم بأن أخرجهم من الظلمات إلى النور.

وأما المسجد الأقصى فالذي بناه هو الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام

ويكون الخليل بعد أن بنى الكعبة البيت الحرام أمره الله تعالى ببناء بيت المقدس، وقيل بناه حفيده يعقوب بن إسحاق عليهما الصلاة والسلام.

وفي الحديث الصحيح الذي رواه الشيخان بسندهما عن أبي ذر رضي الله عنه قال «قلت يا رسول الله، أي مسجد وضع في الأرض أولا؟ قال: المسجد الحرام، قلت: ثم أي؟ قال: المسجد الأقصى، قلت: كم بينهما؟ قال: أربعون سنة، وأينما أدركتك الصلاة فصل فهو مسجد».

فجائز جدا أن يكون الخليل بعد أن بنى الكعبة بمعونة ابنه إسماعيل أمره الله بعد أربعين سنة من بناء الكعبة ببناء بيت المقدس، أو يكون ابنه إسحاق، أو حفيده يعقوب قد قام ببناء بيت المقدس بعد بناء الكعبة بأربعين عاما.

ولا يشكلن على القراء الكرام ما اشتهر من أن باني بيت المقدس هو سليمان ابن داود عليهما الصلاة والسلام، لأن سليمان لم يكن بانيا له من الأصل وإنما كان مجددا فمثله كمثل من جددوا بناء الكعبة بعد بناء الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

وأما المسجد النبوي بالمدينة فبانيه هو خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ﷺ وأصحابه الغر الميامين، وهذا أمر ثابت في الأحاديث الصحيحة في الصحيحين وغيرهما من كتب الأحاديث، والسنن، والمسانيد، وهذا أمر نقله الخلف عن السلف حتى بلغ حد التواتر المفيد للقطع واليقين، وللمسجد النبوي في قلب ونفس وشعور كل مسلم ذكريات، وذكريات لا يكفي في بيانها مقال، ولا بضعة مقالات، وإنما هو أمر يحتاج إلى كتاب برأسه.

وإذا كانت المساجد الثلاثة المشرفة بهذه المثابة، وبهذه المنزلة الكريمة، ولها ذكريات حبيبة إلى قلب كل مسلم ومسلمة فهي جديرة بأن تشد إليها الرحال، وأن يعكف على العبادة فيها من يشاء، ففي ساحاتها تسكب العبرات، وتستجاب الدعوات، وتتنزل الرحمات، وتنفح الأعطيات، وإن لله تبارك وتعالى في أيام دهركم لنفحات، فتعرضوا لها.

ترغيب الشباب في الزواج

العدد (١٩٨) جمادى الآخرة (١٤٠١هـ) - أبريل (١٩٨١م)

روى الإمام البخاري في صحيحه بسنده عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «كنا مع النبي ﷺ شبابا لا نجد شيئا فقال لنا رسول الله ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء».
(صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب من لم يستطع الباءة فعليه بالصوم).

• تخريج الحديث

هذا الحديث رواه الإمام مسلم أيضا في صحيحه، فهو متفق عليه (كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه، ووجد مؤنة..)

وفي بعض روايات الإمام مسلم بزيادة في آخره، وهي : «فلم ألبث أن تزوجت».

• الشرح والبيان

راوي هذا الحديث هو عبد الله بن مسعود، فمن يا ترى يكون ابن مسعود؟

هو الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود بن غافل ينتهي نسبه إلى هذيل، وأمه هي أم عبد بنت سواء، وهي هذلية أيضا.

وهو من السابقين الأولين إلى الإسلام، وكذلك أسلمت أمه قديما وكانا كثيرا ما يغشيان بيوت أزواج النبي ﷺ للخدمة وقضاء الحاجات حتى كان يظن من

يراهما أنهما من آل بيت الرسول ﷺ .

وابن مسعود - على ضآلة جسمه، وضعف عصبيته - هو أول من جهر بالقرآن في مجامع صناديد أهل الشرك، وقد آذوه غاية الأذى، ولكنه لم يعبأ بالإيذاء، وقال للنبي وأصحابه: لئن شئتم لأغادينهم بها - يعني لأقرأن عليهم سورة الرحمن في الغد ولكنهم قالوا له: حسبك ما فعلت، وهذا يدل على أنه كان يحمل قلبا مؤمنا حقا، لا يَرْهَب أحدا من زعماء الشرك، ويستعذب الأذى والهوان في سبيل الله وفي سبيل رسوله، صاحب الدعوة ﷺ ، وهذا الضعيف في جسمه، القوي في إيمانه هو الذي أجهز على فرعون هذه الأمة، أبي جهل - لعنه الله - وعلاه وهو في سكرات الموت، واحتز رأسه وهو يقول له : لقد ارتقيت مرتقى صعبا يا رويعي الغنم!!وهكذا لم يتخل عن فرعونيته حتى وهو مجندل على الأرض خاسئ ذليل حقير .

وكان كثير الملازمة لرسول الله ﷺ وهو صاحب السواك، والمطهرة والوساد والنعلين يحملهما في ساعديه إذا خلعهما النبي ﷺ، ويلبسهما إياه إذا أراد السير. وهو يدل على مبلغ حب الصحابة للرسول وتكريمهم له.

وكان من أحفظ الناس للقرآن وقد عده النبي ﷺ أحد أربعة ممن يؤخذ منهم القرآن، كما كان من أعلم الناس بعلوم القرآن ولا سيما المكي، والمدني، وأسباب النزول، روي ذلك في الأحاديث الصحاح كما كان من أحفظ الصحابة لحديث رسول الله ﷺ، له في الصحيحين وغيرهما أحاديث كثيرة. وبعد هذه الحياة الحافلة بالصحبة والجهاد والعلم ونشره كانت وفاته سنة اثنتين وثلاثين للهجرة فرضي الله عنه وأرضاه.

قول ابن مسعود: «كنا مع النبي ﷺ شبابا لا نجد شيئا» .

المراد بالمعية هنا المصاحبة على الهدى والخير، والحق، والبر، والتعاون على نشر الدعوة إلى الله وإلى الإسلام و «شبابا» جمع شاب، وغرضه : هو ومن كان معه ممن هم على شاكلته من شباب الإسلام «لا نجد شيئا» يعني نتزوج به، فقال لهم النبي : «يا معشر الشباب. . .».

المعشر هم الجماعة الذين يشملهم وصف ما، يقال للشباب معشر، وللأنبياء معشر وللعلماء معشر، وهكذا.. والشباب: جمع شاب، ويجمع أيضا على شببة - بفتح الشين والباءين الموحدتين - وشبان - بضم الشين وفتح الباء المشددة.

والشاب: هو من حين البلوغ إلى سن الثلاثين، وقيل: إلى الثانية والثلاثين، ومن الثلاثين إلى الأربعين يقال له: كهل وما زاد على الأربعين يقال له شيخ، وهذا في عرف اللغة العربية الشريفة وأما في غير اللغة فللناس فيه أعراف أخرى، فقد يطلق على الشاب أو الكهل إذا كان من أهل الدين والعلم والمنزلة في قومه وخص الشباب بالخطاب، لأن الغالب وجود القوة الدافعة لهم إلى النكاح فيهم بخلاف الكهول والشيوخ. وإن كان هذا المعنى معتبرا إذا وجد الداعي إلى الزواج في الكهول والشيوخ أيضا. «من استطاع منكم الباءة فليتزوج».

الباءة - بالباء الموحدة بعدها همزة، آخره تاء تأنيث - ويقال أيضا: الباه - بالمد بلا همز - ويقال أيضا: الباء - بمد الباء وبهمزة بدون هاء - ورابع اللغات «الباهة» بإبدال الهمزة هاء، والباءة مأخوذة في اللغة من الباءة وهي المنزل ومنه مباءة الإبل، وهي مواطنها، وقيل لعقد النكاح باءة لأن عادة العرب أن من تزوج امرأة بنى لها منزلا.

وقد اختلف العلماء في المراد بالباءة على قولين:

الأول: أن المراد بالباءة مؤن النكاح من مهر، ونفقة وإسكان ونحوها وعلى هذا يكون المعنى من استطاع منكم يا معشر الشباب مؤن النكاح فليتزوج، ومن لم يستطع مؤن النكاح ومستلزماته فلا يتزوج وعليه بالصوم فإن الصوم يضعف الشهوة ويحد من سلطانها ويكفكف من غلوائها.

الثاني: ومنهم من قال، المراد بالباءة القدرة على المباشرة.. والقيام بحقوق الزوجة بعد الزواج، وقد نوقش هذا القول بأنه غير مستقيم في المعنى، لأن من ليست له قدرة على المباشرة الزوجية ليس في حاجة إلى الصوم ليحول بينه وبين الاستجابة للشهوة، والعمل بمقتضاها وإلا كان الصوم غير مفيد ولا ناجع لأنه وعدمه سيان بالنسبة لمن ليست له قدرة.

والذي عليه المحققون : أن المراد بالباءة مجموع الأمرين معا : القدرة على المباشرة، والقدرة على مؤن النكاح ومتطلباته، وبذلك يستقيم معنى الحديث ويكون المعنى ومن لم يستطع فعليه بالصوم لكسر الشهوة وإضعاف سلطانها على النفس وليس من شك في أن الصوم يفيد الشباب الذين لم تتوافر لهم وسائل النكاح، وفي الوقت ذاته هو عبادة مشروعة وبذلك يستفيد من الصوم فائدتين: الأولى تهذيب النفس وتأديبها والحيلولة بينها وبين الوقوع في المعصية بسبب عدم الزواج، والثانية : كونها عبادة تقرب صاحبها إلى الله وتغلب الجانب الروحي في الإنسان على الجانب المادي فانظروا - يا رعاكم الله - إلى تشريعات الإسلام الحكيمة !!وقد علل الرسول الكريم أمر الشباب بالتزوج بقوله «فانه أغض للبصر وأحصن للفرج».

وأغض وأحصن فعلا تفضيل والمعنى أن التزوج أشد غضا للبصر عن الامتداد إلى الحرمات وأشد إحصانا للمرء من الوقوع في الفاحشة، وليس من شك في أن المتزوج عندما يحمله على الغض وهي زوجته، فإذا كان ولا بد فلينظر إليها وإن تاقت نفسه إلى النساء فعنده زوجته يقضي معها حاجته، وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا حينما قال : «إذا رأى أحدكم امرأة حسناء، فأعجبته فليأت أهله - فإن البضع واحد، ومعها مثل ما معها» (رواه الخطيب بلفظه ومسلم بمعناه).

ولن تجدوا - وأيم الحق - أنجع من هذا الدواء النبوي الكريم لمثل هذه الحالة، وقد بلغ الفصيح البليغ ﷺ الغاية في الأدب القولي والأدب النفسي بهذا الحديث الموجز البليغ الذي تنطق به العذراء في خدرها فلا يخدش حياءها، ولا تجد حرجا فيما تفوه به وهي قدرة في التعبير انفرد به النبي المعلم المربي المؤدب ﷺ.

قوله ﷺ: «ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء» وفي رواية الطبراني «ومن لم يقدر على ذلك فعليه بالصوم» وهما بمعنى واحد وقد قال العلماء إن في هذا الأسلوب النبوي البليغ «فعليه بالصوم»، إغراء للغائب وهو مما اختلف فيه علماء اللغة، وعلماء النحو، لأن الإغراء إنما يكون للحاضر لا للغائب.

والحق أن هذا الأسلوب الفصيح البليغ ليس من إغراء الغائب، وإنما هو من إغراء المخاطبين الحاضرين الذين خاطبهم ﷺ بقوله : «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج» فالهاء في قوله : «فعليه» ليست للغائب وإنما هي لحاضر ولكنه مبهم، إذ لا يصح خطابه بالكاف فيقال : فعليك بالصوم فإن من يختار الصوم منهم مبهم غير معروف، فلذلك حسن الإتيان به على صورة الغائب ومثل ذلك من الكلام المعجز المبين قوله تعالى ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾ بعد قوله عز شأنه ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾ (البقرة: ١٧٨) فلله در كلام الله، وكلام رسوله ﷺ !!!

«فإنه له وجاء» هذا الكلام من التشبيه البليغ يعني فإنه له كالوجاء والوجاء - بكسر الواو - هو في الأصل بمعنى الطعن، يقال: وجأه بالسيف إذا طعنه، والمراد به هنا : رض الأنثيين حتى تنقطع العروق التي توصل المادة المنوية وبذلك يفقد الحيوان شهوته فيسمن جسده ويطيب لحمه، وأما الخصاء فهو شل الأنثيين وإخراجهما فالوجاء ليس هو الخصاء، ومن فسره به فقد تساهل، ويزيد من روعة هذا التشبيه البليغ أن المخاطبين كانوا يعرفون الوجاء والخصاء غاية المعرفة، ومراعاة أحوال المخاطبين عماد البلاغة في اللغة العربية الشريفة لغة القرآن والسنة.

● ما يؤخذ من الحديث من الأحكام والآداب والتوجيهات

(١) أن الزواج سنة من سنن الفطرة، وأنه في حق الشاب أو الرجل القادرين الموسرين اللذين ليست عندهما موانع شرعية، ويتيقن كل منهما أو يغلب على ظنه غلبة الوقوع في الفاحشة فرض أو واجب، وعلى الشاب الذي يسافر إلى البلاد التي تعم فيها الفاحشة ويتسهل له الوقوع فيها، أن يتزوج قبل أن يسافر ليحصن نفسه من الوقوع في الفاحشة.

وفي حق من يخشى على نفسه التعرض للفتنة ولا يتحقق ذلك ولا يغلب على ظنه، مسنون مستحب لقوله ﷺ: «فليتزوج» وأدنى ما يحمل عليه الاستحباب والسنية، وفي حق من يعلم من نفسه عدم القدرة على المباشرة

أو عدم القدرة على مؤن النكاح والنفقة حرام، وفي حق من يترجح عنده عدم القدرة أو عدم القيام بحقوق الزوجية مكروه وفي حق من يستوي في حقه الزواج وعدمه إن كان تقيا أو مشتغلا بعلم أو تأليف شغله عن الوقوع في الحرام، بل وعن التفكير فيه - هو مباح، ومن ثم نرى أنه تعتريه الأحكام الخمسة.

(٢) الوجاء، والخصاء لا يجوز بالنسبة للإنسان، لما يترتب عليه من قطع النسل الذي يترتب عليه خراب الأرض، وعدم عمارتها، وكذلك كل ما كان في معناهما كالعمليات التي يجرونها الآن لتعقيم الرجال، أو لتعقيم النساء، فكل هذا حرام في الإسلام وفي حكم الله وشرعه، وقد يسألني سائل فيقول: وما رأيك في تناول الدواء لهذا الغرض؟

والجواب: إن الدواء قسمان: دواء يقطع الشهوة ويقضي عليها وهذا لا يجوز، ودواء يسكن الشهوة ويضعفها ولا يقطعها، وهذا يجوز لأنه في معنى الصوم الذي يضعف الشهوة ويكسرها ولا يقطعها.

(٣) وأما الخصاء أو الوجاء للحيوان فالحيوان إما أن يكون غير مأكول اللحم، أو مأكول اللحم أما الأول فلا يجوز حتى لا ينقرض النوع والله تبارك وتعالى لم يخلق شيئا في هذه الدنيا إلا لحكمة ومصلحة، وأما مأكول اللحم فيجوز اخصاؤه في صغره رغبة في السمن وطيب اللحم، ولا يجوز في كبره لما فيه من تعذيب الحيوان، والإسلام رحيم بالحيوان، كما هو رحيم بالإنسان، وفي الحديث الصحيح: «إذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة» والقتلة - بكسر القاف اسم هيئة والمراد الذبح المشروع ومما ينبغي أن يعلم أن الخصاء لا يكون على سبيل التعميم وإلا لانقطع نسل الحيوان وحينئذ فلا يجوز.

(٤) استدل بعض العلماء بهذا الحديث على تحريم الاستمناء لأنه ﷺ أرشد عند العجز عن التزوج إلى الصوم فلو كان الاستمناء مباحا لكان الإرشاد إليه أسهل وهو استدلال حسن وقد أباحه بعض العلماء لأجل تسكين الشهوة

وعدم الوقوع في الفاحشة، والحق هو عدم الإباحة وقد ذكر بعض الأطباء الحذاق أن الاستمناء له أضرار كثيرة وقد يفضي إلى أمراض خبيثة كالأمراض الصدرية وكثيرًا ما يؤدي إلى أن يفقد الشباب القدرة على المباشرة بعد الزواج، ومن قواعد الشريعة المؤكدة أنه «لا ضرر ولا ضرار» ولم أستدل بالحديث المشهور «ناكح يده ملعون» لأنه حديث ضعيف لا يقوم به الاحتجاج.

(٥) أن الرهبانية في الإسلام غير مشروعة والرهبنة هي ترك التزوج واعتزال الدنيا وملازمة الصوامع والشريعة الإسلامية هي الشريعة السمحة الموائمة للفطر، وطبائع البشر، ولو ترهب الناس جميعا فمن الذي سيعمر الأرض؟! وفي الحديث الذي رواه الطبراني بسنده من حديث سعد بن أبي وقاص قول رسول الله ﷺ: «إن الله أبدلنا بالرهبانية الحنيفية السمحة» وأما الحديث المشهور على الألسنة «لا رهبانية في الإسلام» فلا أصل له ولم يثبت وإنما الثابت هو حديث الطبراني فليعلم ذلك من يزعمون أنه حديث.

(٦) التزوج لأجل إكثار النسل أمر مشروع ومرغوب فيه في الإسلام وقد ورد في ذلك أحاديث كثيرة منها حديث: «تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم يوم القيامة» وهو حديث أخرجه ابن حبان، وقال الحافظ ابن حجر: إنه حديث صحيح ومنها ما رواه البيهقي من حديث أبي أمامة: «تزوجوا فإني مكاثر بكم الأمم ولا تكونوا كرهبانية النصارى».

والدعوة إلى تحديد النسل وتقليله بين المسلمين دعوة في أصلها استعمارية يقصد بها الحد من هذه الكثرة الكاثرة في الأمة الإسلامية ثم تطورت فلبست ثوب الاقتصاد وحماية العالم من المجاعة وحصل بها تلبيس على كثير من المسلمين وليسأل هؤلاء الذين يدعون إلى هذه الدعوة الفاشلة أنفسهم: هل استنفذوا المنافع والوسائل التي أودعها الله في الأرض - وما أكثرها - وهي تكفي لكل من في الأرض وأكثر منهم؟ إن كثيرا مما استودع في أرض الله لا يزال بكرا لم تمسسه يد مستثمر وما استفيد به منها لم

يحسن استغلاله وما استغل أصبح نهبا مقسما بين المشتغلين والمتنفعين بل الكثير من موارد البلاد الفقيرة المتخلفة اقتصاديا إنما ينتفع بها غير أهلها!! أليس كذلك؟! بلى والله!!

(٧) أن على البلاد الإسلامية والعربية الغنية في الثروات والموارد أن تعمل ما استطاعت على تكثير النسل بين أهلها حتى يوجد من أبنائها من يدافعون عنها في هذا العالم الذي لا يخضع إلا للقوة، إن الموارد الكثيرة من الرجال خير من الموارد من المال والرجال هم الذين يأتون بالمال، والمال عاجز عن توفير الرجال وصدق الله: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ (فصلت: ٩-١٠).



٨ مقالات

الشيخ علي الطنطاوي

- ❑ **ترجمة الشيخ.**
- ❑ **المقالات:**

١- نحن والحضارة الغربية.

العدد (٦) جمادى الآخرة (١٣٨٥هـ) اكتوبر (١٩٦٥م).

٢- سبحان مقسم الأرزاق.

العدد (٩) رمضان (١٣٨٥هـ) يناير (١٩٦٦م).

٣- دليل الحاج.

العدد (١٢) ذو الحجة (١٣٨٥هـ) - مارس (١٩٦٦م).

٤- عام جديد.

العدد (١٣) محرم (١٣٨٦هـ) - إبريل (١٩٦٦م).

٥- عبرة من تاريخنا.

العدد: (١٨) جمادى الثانية (١٣٨٦هـ) سبتمبر (١٩٦٦م)

٦- زورق الأحلام.

العدد (٢٢) شوال (١٣٨٦هـ) - يناير (١٩٦٧م).

٧ - ما هي السماء.

العدد (٢٥) محرم (١٣٨٧هـ) - إبريل (١٩٦٧م).

٨- أربع قواعد للإيمان.

العدد (٣٥) ذو القعدة (١٣٨٧هـ) - يناير (١٩٦٨م).

ترجمة الشيخ علي الطنطاوي



● **مولده:**

ولد الشيخ علي مصطفى محمد الطنطاوي في مدينة دمشق في **٢٣** جمادى الأولى **١٣٢٧**هـ - **١٢** يونيو **١٩٠٩**م من أسرة علم ودين، فأبوه الشيخ مصطفى الطنطاوي من أهل العلم، وجده الشيخ محمد الطنطاوي عالم كبير، وخاله الأستاذ محب الدين الخطيب الكاتب الإسلامي الكبير والصحافي الشهير.

التحق بكلية دار العلوم في مصر، إلا أنه لم يكمل دراسته، وعاد إلى دمشق ليلتحق بكلية الحقوق التي تخرج منها عام **١٩٣٣**م، ثم عمل مدرساً في العراق، ولما عاد إلى دمشق عمل قاضياً شرعياً، وتدرج في الوظائف التعليمية والقضائية حتى بلغ فيها مكانة عالية.

هاجر رحمه الله إلى المملكة العربية السعودية **١٩٦٣**م فعمل مدرساً في كليتي اللغة العربية والشريعة في الرياض ومكة المكرمة، وقدَّم العديد من البرامج الإذاعية والتلفزيونية، وحقق العديد من كتب التراث، وله العديد من المؤلفات منها:

«ذكريات، فتاوى، تعريف عام بدين الإسلام، أبو بكر الصديق، الجامع الأموي في دمشق، من نفحات الإسلام، أعلام التاريخ، القضاء في الإسلام، قصص من الحياة»

● **وفاته:**

توفي رحمه الله يوم الجمعة، الثالث من ربيع الأول **١٤٢٠**هـ، الموافق للثامن عشر من حزيران، عام **١٩٩٩**م بجدَّة، دفن في مقبرة العدل بمكة المكرمة في اليوم التالي بعد ما صُلِّي عليه في الحرم المكي الشريف.

نحن والحضارة الغربية

العدد (٦) جمادى الآخرة (١٣٨٥هـ) أكتوبر (١٩٦٥م)

زرت الرياض من سنتين، بعد غيبة عنها امتدت ثلاثين سنة، فتفضل جماعة من طلبة العلم فاستقبلوني في المطار، وصحبوني إلى البلد، وسلكت السيارة شارع الوزارات، تمر بتلك المغاني (الفيلات) الجميلات، وتلك الأبنية الكبيرات المشرفات، وأنا أنظر إليها نظر المندهش الذي يفاجأ بما لم يكن يتوقع، فقد كان عهدي بتلك البقاع أنها صحراء جرداء، ما فيها نبت ولا ماء، وليس فيها من بناء، وأراها الآن شارعا ضخماً في وسط حديقة ممتدة فيها الورد والزهر، وفيها أنواع الشجر، والماء يجري فيها متدفقاً من الأنابيب، والعمارات على جانبيها، والسيارات تجري على طرقها.

وكان أصحابي كلما رأوني أزداد دهشة ازدادوا اندفاعاً في الوصف ومبالغة في البيان.

ثم قال لي واحد منهم وقد أخذته نشوة كل دليل يطلع الغريب على جمال بلده:

أهذه أول مرة ترى فيها الرياض؟

قلت: إني أعرفها من قبل أن تولد، ولكن ليست هذه هي الرياض التي أعرفها، وكانت السيارة قد بلغت بنا «الديرة» وصرنا في جوار المسجد الكبير، فتهلل وجهي وأحسست مثل ما يحسه الغريب الضال، اذا أبصر في زحمة الناس وجه حبيب يعرفه ويألفه، وصحت:

هذه هي الرياض التي أعرفها، هذه الأسواق الضيقة وهذه المنازل المبنية من اللبن والطين، إن لي هنا ذكريات، والذكريات هي الحياة، أما تلك الشوارع التي

مررنا بها بعد المطار، فليس لي فيها ذكرى، فهي على جمالها غريبة عني، وهذه على ما هي عليه أحس كأني منها أو كأنها مني.

وأعجب هذا الكلام أحد الجماعة وأثار كمائن نفسه فقال:

- أي والله، هذه هي بلدنا وهذه حياتنا، فيا ليت هذه المدنية الغربية لم تصل إلينا ولم نرها، إن هذه البيوت المبنية من الطين التي لا تنيرها الكهرباء، ولا تصل إليها السيارات، وليس فيها البرادات ولا الغسالات، خير من تلك العمارات وما فيها، لقد أفسدت هذه المدنية أخلاقنا، وأضاعت علينا ديننا وما جاءنا منها إلا الشر، وانبرى له آخر، فقال له:

- أتريد منا أن نعود إلى عهد البداوة، في عصر الذرة والصاروخ، وأن ندع ثمرات الحضارة، ونعيش محرومين منها، على حين يستمتع الناس من حولنا بها؟

إنها مدنية العصر، ليست لأمة دون أمة، ولا لبلد دون بلد.

وكثر المتكلمون وتداخلت الأصوات، ولكن الأقوال كلها كانت تتردد بين رأيين:

هل علينا أن نأخذ بهذه المدنية بكل ما فيها، ونقبلها بخيرها وشرها، لأنه لابد منها، ولا انفكاك عنها، أم إن علينا أن نتركها ونبتعد عنها، لأنها لا توافق أحكام ديننا، ولا تمشي مع خلائقنا، ولأن الإسلام ينكر الإقبال عليها والأخذ بها.

أنا رجل من المخضرمين، عرفت هذه البلاد قبل أن تتصل بها الحضارة الغربية، وعرفتها بعدها.

لقد زرت «جدة» أيام كانت جدة محاطة بسور له أبواب تغلق كل عشية، وتفتح في النهار، ولا يدخل إليها ولا يخرج منها إلا من هذه الأبواب، وعرفتها وقد أوشكت أن تصير مثل الإسكندرية أو بيروت.

وعرفت دمشق وما فيها سيارة واحدة وما فيها إلا عشرون داراً فيها الكهرباء وليس فيها إلا شارع واحد شقه جمال باشا سنة ١٩١٦، أما الراد (الراديو)

والرائي (التلفزيون) وأمثالهما، فلم يكن قد اخترع من ذلك شيء.

وعرفت الرياض سنة ١٩٣٥، والرياض التي ترونها الآن، وإني لأفكر وأوازن بين الحالين وأسأل نفسي: هل ربحنا أم خسرنا؟

أي الفريقين أهدى وأصوب رأيا: من يريد منا أن نأخذ بهذه الحضارة أخذا كاملا، أمن يريد أن نتركها وننصرف عنها؟

الحق. الحق بين الفريقين فلا هؤلاء على حق ولا هؤلاء، لقد ربحنا باقتباسنا من هذه الحضارة وخسرنا، وكل شيء في الدنيا فيه ربح وفيه خسارة.

إن هذه الحضارة ليست شرا محضاً، وليست كذلك خيرا محضا، فالقول بأن نتركها كلها مردود، والقول بأن نأخذها كلها مردود.

وهل نستطيع أن نتركها بعدما انغمسنا فيها، وصارت هي عماد حياتنا؟ إن من يطلب ذلك يطلب ما لا يكون، ولو نحن استطعنا تركها فهل من المصلحة أن نتركها؟

أيريد هؤلاء أن نغلق المستشفيات، ونطرد الأطباء وأن نلغي شركة الخطوط الجوية ونبيع طياراتها، وأن نذهب إلى الحج من الرياض إلى مكة على الإبل فنمضي على الطريق عشرين يوماً بدلا من أن نذهب في ساعة وبعض الساعة في طيارة البوينغ، وأن نحل شركة الكهرباء ونرفع أسلاكها من الشوارع، ونرجع إلى الشمع وسرج الزيت، وأن نحارب اليهود بالسيف والرمح بدلا من المدفع والصاروخ؟

ولماذا نفعل ذلك؟

أما الإسلام فلا يوجب علينا أن نترك هذه الحضارة بكل ما فيها، فلا تحتجوا بالإسلام.

الإسلام قد حرم محرمات وفرض فرائض، وترك أموراً على الإباحة الأصلية، فما حرمه الإسلام نتركه، ولو أجمع أهل الأرض على قبوله والعمل به، وما أوجبه نأتيه، ولو اتفق سكان المعمورة على استنكاره والإعراض عنه، وما كان من المباحات مما لم يدع الإسلام إلى الأخذ به ولا إلى تركه، ننظر فإن

كان فيه نفع لنا أخذناه لأن الحكمة ضالة المؤمن، ولأن المصلحة العامة هنا مقصد من مقاصد الشارع، وفي مثل هذا لا فيما ورد فيه النص[١] يقول ابن القيم[٢]: إن الحكم الشرعي يدور مع المصلحة فحيثما تحققت فثم شرع الله، ولأن علينا أن نعمل لدنيانا كما نعمل لآخرتنا ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ (القصص: ٧٧)، ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ (الأعراف: ٣٢).

ثم إننا لسنا غرباء عن هذه الحضارة، ولا واغلين عليها بل نحن شركاء فيها، نحن من أصحابها.

إن الحضارات نوعان كما قسمها «شينكلر» في كتابه المشهور: حضارات محلية كحضارات الهند والصين، وحضارة عالمية، والحضارة العالمية بناء من ثلاثة أدوار اشترك فيه ثلاثة بانين.

أما الدور الأول فقد بناه المصريون والفينيقيون واليونان، ومن شاركهم فيه وأعانهم عليه.

والثاني بناه المسلمون.

والثالث بناه الغربيون.

وكل دور منها يقوم على ما تحته فلولاه ما قام.. فنحن شركاء في هذه العمارة لنا فيها دور من ثلاثة ولسنا مستأجرين ولا مستجدين ولا معتدين، نحن من أصحاب الدار.

ولكن ليس معنى هذا أن نقبلها بكل ما فيها.. إن فيها شروراً كثيرة ومفاسد مردها جميعا إلى أصلين:

أحدهما ما تحمله من أفكار ومبادئ، فيها ما يزيغ المؤمن عن شرعة الحق وما يضله عن سبيل الهدى.

---

(١) كما ظن - خطأً -الأستاذ الجليل عبد الوهاب خلاف في كتابه «السياسة الشرعية».

(٢) وهو ابن قيم الجوزية، وكثير من الناس يخلطون بينه وبين ابن الجوزي مع أن ابن الجوزي بغدادي، وهذا شامي، والجوزية مدرسة بناها ابن الجوزي.

والثاني وهو أشد وأنكى ما يغلب على هذه الحضارة من تهاون بمسائل الجنس وإطلاق للشهوات، وهو أشد، لأن الأول وإن كان فيه الكفر أحياناً، لا يجد عند كل شاب استعدادا لقبوله، أما الثاني فإنه يجد القبول في كل نفس لأن الله ركب في نفس كل شاب الميل إلى المرأة، فمن عمد إلى إثارة الشهوات وأيقظ الغريزة، استهوى بذلك الشباب جميعاً، إلا من عصم الله بعصمته، وقليل ما هم، بل أقل من القليل.

فإذا أردنا أن نصحح موقفنا من هذه الحضارة، فلنصنع مثل الذي صنع أجدادنا لما اتصلوا بالفرس وغيرهم من الشعوب ذوات الحضارات الأولى.

وإنهم أخذوا من حضاراتهم وعيونهم مفتحة، وعقولهم حاضرة، وميزان الشرع في أيديهم، لم يأخذوها عمى ولا تقليداً، ولم يقلدوا أهلها تقليد القردة بلا نظر ولا علم.

هذا هو الحق وهذا هو طريق الاعتدال لا إفراط ولا تفريط، فما كان فيها من مخترعات نافعة وما كان من تقدم علمي، وما كان من رفاهية وراحة ليس فيها محرم نأخذه كله.

وما كان فيها من تهاون بالفضائل والعفاف، وإطلاق للغرائز والشهوات، وتسهيل للزنا، وتصعيب للزواج وهذه القصص التي فيها الأدب المكشوف، والأفلام التي تعلم الناشئة فنون الغرام، وطرق الإجرام نتركه كله، كما نترك كل فلسفة وكل علم وكل مذهب اجتماعي ينافي أحكام ديننا.

ولابد من تفصيل لهذا الإجمال يأتي - إن شاء الله - فيما سيجيء من المقال.



سبحان مقسم الأرزاق

العدد (٩) رمضان (١٣٨٥هـ) - يناير (١٩٦٦م).

فكرت اليوم في أمر الرزق، فوجدت أمر الرزق عجيباً، كل امرئ يأكل رغيفه، لا يبيت أحد جائعاً ولكن كلا يجد رغيفه في مكان.

الموظف جعل الله رغيفه على مكتبه، يقعد على كرسيه يدخن دخينته ويترشف قهوته، ويمد يده فيأخذه. ومنهم من يكون ساكناً في مكة (مثلاً)، ورغيفه في جدة، فهو يذهب كل يوم، يقطع أكثر من سبعين كيلا[1] ليأتي به ويرجع، فإذا لم يذهب إليه لم يأخذه.

ومنهم من يكون من أهل الشام أو مصر، ولكن الله يضع له رغيفه، في بعض السنين في الكويت أو في الرياض... والطيار وضع رغيفه فوق السحاب وقيل له: اصعد لتأخذه، والغواص وضع رغيفه في أعماق البحار وقيل له: انزل لتأخذه، وعامل المنجم رغيفه في بطن الأرض، أو في وسط الصخر الصلد، لا يصل إليه حتى يفجره بالديناميت.

والعطار يتناوله بيد مضمخة بالعطر، والزبال يتناوله بيد ملطخة بالزبل.

ومن يأكله هنيئاً مريئًا، ومن يأكله ليحاسب عليه من بعد حساباً عسيراً، وقد يصلى به سعيراً.

ومن الناس من يكون مثل **أمين الصندوق** في المصرف، تحت يده مئات الآلاف، وماله منها آخر الشهر إلا خمسون ديناراً، وهو الغني البخيل، تكون عنده الأموال الطائلة، ويعيش هو وأهله على القليل فهو «أمين صندوق» يحفظها

(١) الكيل وجمعه أكيال، مثل الميل والأميال، تعريب كيلو متر.

ليستمتع الورثة من بعده بها، ويكون عليه حسابها.

ومن يكون مثل «المعتمد المالي» أعني الموظف الذي يوكله إخوانه في الدائرة باستلام الرواتب من الخزانة وتوزيعها، وهذا هو الغني الذي يلهمه الله الإنفاق على الفقراء، إنه يعطي كلا رزقه لا يعطيه من رزق نفسه، فهو كالمعتمد، ولكن الموظف المعتمد يكون جزاؤه كلمة شكر، وربما حرموه من كلمة الشكر وهذا المحسن يوصل إلى الفقراء أرزاقهم، ويكون له عن كل مائة دينار يوزعها سبعون ألف دينار: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَـٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ (البقرة: ٢٦١).

* * *

ومن يكون حافظاً لمال والمال مقسوم لغيره

حدثني مرة الشيخ صادق المجددي سفير الأفغان سابقاً في مصر، أنه كلف مرة بمهمة سياسية عاجلة في روسيا، وخاف أن يمر ببلد لا تؤكل ذبيحة أهله شرعاً، وكان عنده دجاجتان فأمر بذبحهما، واتخذت له زوجته سفرة[١] منهما، حملها معه، فلما وصل إلى طاشقند[٢] دعاه شيخ مسلم. فكره أن يأخذ الدجاجتين معه إلى دار الشيخ، ورأى في طريقه امرأة مسلمة فقيرة معها أولادها، ورأى الجوع بادياً عليهم وعليها، فدفع إليها الدجاجتين.

فلم تمض ساعة حتى جاءته برقية أن ارجع فقد صرف النظر عن «المهمة» فكانت هذه الرحلة لأمر واحد هو أن الدجاجتين كانتا في داره ولكنهما ليستا له ولا لأهله، إنهما لهذه المرأة وأولادها، فطبختهما زوجته وحملهما بنفسه أربعة آلاف كيل ليوصلهما إليها.

وقرأت مرة ولست أذكر الآن أين قرأت، خبر رجل تاجر كان في بغداد على عهد الموفق وابن طولون فأضاق وافتقر حتى نقض داره وباع أنقاضها، ولم يبق

---

(١) السفرة زاد المسافر.

(٢) وكانت تسمى الشاش ومنها الشاشي الكبير والشاشي الصغير الفقيهان الشافعيان.

له شيء، فرأى في منامه كأن قائلاً يقول له: اذهب إلى مصر، إلى حارة كذا، في جهة كذا، يأتك الرزق، فلم يلق لذلك بالا، فعاودته الرؤيا، مرات، كل مرة يجد هذا القائل، ويسمع منه هذا القول، فاستدان من المال ما استطاع السفر به إلى مصر، فلما وصلها سأل عن الجهة والحارة والدار، فإذا هي دار صاحب شرطة أحمد بن طولون، فقبض عليه، وقال له أنت جاسوس للموفق، وضربه عشرة مقارع ليقر، وهو يتنصل، ويقول: ما أنا بجاسوس.

قال له: فما الذي جاء بك إلى داري.

فقص عليه القصة، فضحك منه وقال له: أنت مجنون، أنا من شهور أجد في المنام من يقول لي أن في دار فلان التاجر في بغداد تحت الشجرة جرة فيها خمسة آلاف دينار، فلا أبالي، وأنت تسمع كلمة في المنام، ولعل رؤياك من أضغاث الأحلام، فتصدق؟

وكانت الدار التي ذكرها صاحب الشرطة داره هو فعاد إلى بغداد، واستخرج الجرة من تحت الشجرة...

* * *

والرزق ليس المال وحده، وقد يُعطَىٰ الرجل المال الوفير، ويحرم ما هو أحب إليه، وأعز عليه من المال.

أما سمعتم قصة السيد الغني الذي كان له القصر الفخم، ومن حوله الخدم والحشم، وكان في صندوقه الذهب والجوهر، ولكنه كان مريضاً قد اصطلحت عليه أضداد الأمراض، اجتمعت عليه على حين لا يجتمع الضدان وربطته بسريره سنوات، فاشتهى يوماً أن يرى بستان قصره فنحوا سريره حتى واجه النافذة، فنظر فرأى الفلاح وزوجته وولده، قد افترشوا التراب، ووضعوا أمامهم صحن الفول المدمس(١) وعصروا عليه الليمون، ونقطوا عليه زيت الزيتون، وهرسوا بصلات، فجعلوا منها في الخبز الحار الخارج لتوه من التنور، ثم غمسوها في

(١) الديماس معربة بمعنى الحمام، فكلمة «المدمس» إذن لها أصل فصيح.

صحن الفول فأكلوا، ثم أخذوا من الساقية فشربوا ثم شبعوا فمسحوا أفواههم، وقالوا من أعماق قلوبهم، ربنا لك الحمد والشكر.

فقال الرجل: آه ليتني آكل مثل هذه الأكلة وأبقى بلا مال.

وإذا كانت هذه القصة مثلاً مضروباً لا يدرى أهي من الواقع أم من الخيال، فإني أعرف في دمشق رجلاً (توفي من سنين طوال) كانت له أعلى العمارات وأكبرها، وكان له أوسع الضياع وأجلها، وكانت له آلاف الأسهم في أشهر الشركات وله الحسابات الجارية في أعظم المصارف، وكانت في معدته قرحة خبيثة فهو لا يستطيع أن يدخل إليها شيئاً إلا الحليب وكان لا يبصر إلا بنظارتين يركب إحداهما على الأخرى، ثم لا يفرق من بعد عشرة أمتار بين الإنسان والحمار، أعني الحمار الحقيقي لأن الحمار المجازي في ظاهره كالإنسان.. وهو بعد هذا لا يقدر أن يقارب النسوان، ولا أن يستمتع بلذة السمر مع الإخوان.

فماذا بقي له من لذائذ العيش؟ ألا يتمنى لو ذهب نصف ماله، لو ذهب ثلاثة أرباعه، وكان كامل الصحة، متين البناء، حاد البصر، قادراً على... على «الأشياء الأخر»؟.

وهاتوا أفقر فقير لأسأله هل يرضى أن نقطع قطعة من أنفه بمقدار رأس الإصبع، ونعطيه ألف دينار؟

والفقير الذي عنده عشرة أولاد يشتكي من كثرتهم، والإنفاق عليهم، أينزل عن واحد منهم لأكلة لحوم البشر. فيعملوا من لحمه «كفتة» ويأكلوه أمامه، ويأخذ خمسين ألف دينار؟

أفليست هذه كلها نعماً أكبر من نعمة المال؟

البصر يا إخوان نعمة، والمعدة الصحيحة نعمة، والولد نعمة، وكلها يدخل في حساب الأرزاق، فلا تحسبوا الرزق «المرتب» وحده، فهذه النعم كلها من الرزق.

فاسعوا لطلب الرزق، وجدوا فيه ولا تدخروا وسعاً ولا جهداً، ثم ارضوا

بعد ذلك بما جاءكم، ولا تغضبوا ولا تسخطوا، هل يغضب الموظفون على زميلهم الذي يعتمدونه لتوزيع الرواتب آخر الشهر، ويقولون: لماذا أعطيت الرئيس أكثر مما أعطيت الفراش؟

أم يعلمون أن الرواتب حددتها الحكومة من قبل ولم يحددها هو، ولا يملك زيادة فيها ولا نقصاً، ولا تبديلاً ولا تحويراً؟

إن الأرزاق مثلها، إنها محددة من قبل، إنها مقدرة من الأزل، والذي قدرها هو الله ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ﴾ (الزخرف: ٣٢).

فنحن نعمل ونجد ونكافح ونتخذ الأسباب كلها، لأن الله أمرنا بالعمل والجد والكفاح واتخاذ الأسباب، ثم نرضى بعد هذا بما جاءنا من الله، فلا نعيش خاملين، ولا نحيا ساخطين، وهذا هو شأن المسلمين.



دليل الحاج

العدد (١٢) ذو الحجة (١٣٨٥هـ) - مارس (١٩٦٦م).

يا عازمين على الحج، يا من يشد الرحال، ويعد الأحمال، ليصل إلى فناء الحرم، ويقوم عند الملتزم، ويشرب من ماء زمزم...

قفوا قليلاً، فاستمعوا مني كلمة، ثم امضوا على بركة الله.. إنكم ما حملتم مشاق السفر، ولا رضيتم بفراق الأهل، ولا أنفقتم هذا المال، إلا ابتغاء ثواب الله، وادخاراً من الحسنات ليوم الحساب. فهل علمتم قبل أن تمشوا أن الحج حجان: حج مبرور وردت الأحاديث الصحاح بأنه ليس له ثواب إلا الجنة، وأن صاحبه يرجع منه كيوم ولدته أمه.

وحج ما فيه إلا إنفاق المال وإرهاق الجسد، وفراق العيال. فماذا تعملون ليرفع الله حجكم إليه، ولا يرده عليكم، فيضرب به وجوهكم. أنا أقول لكم: هل ترتفع الطيارة إذا أثقلتها بالحديد، وحملتها أضعاف ما تطيق، ثم ربطتها بحبال الفولاذ إلى صخور الجبل؟.

إنها لا ترتفع إلا إذا خففت أحمالها، وقطعت عنها حبالها وكذلك الأعمال. فإذا أردتم أن يصعد حجكم فخففوا عن عواتقكم أثقال الذنوب، واقطعوا الحبال التي توثقكم بأرض الشهوات، أو حلوها.

فاقعد يا أخي الحاج وحدك، واحصر فكرك قبل أن تخطو أول خطوة في طريق الحج، وحاسب نفسك، وانظر في حياتك في بيتك، وصلاتك بأهلك، وروابطك بأصحابك، وسلوكك في «وظيفتك»[1] أو تجارتك وفي مصادر ثروتك. وطرق إنفاقك، فكر فيها كلها، وقسها بمقياس الشرع، فما وجدته منها

(١) الوظيفة في اللغة الراتب ولكني استعملتها بالمعنى الذي يفهمه الناس.

محرماً فتب منه، واستسمح أصحابه قبل أن تمضي إلى الحج.

انظر هل أنت تارك لفريضة من الفرائض؟ هل أنت مرتكب لمحرم من المحرمات؟ هل أسأت رعاية من استرعاك الله أمره من أهلك وولدك؟ هل أنت ظالم لزوجتك قد كرَّهت إليها بسوء معاملتك عيشها، أو أنت منقاد إليها تتبع رغباتها التي تغضب ربها؟ هل رضيت بترك أولادك الصلاة؟ هل وضعتهم في مدارس غير المسلمين؟ هل أكلت مال أحد، أو تعديت عليه؟ هل لأحد في ذمتك دين لم تقضه، أو حق لم تسدده؟ هل تقصر في عمل الوظيفة إن كنت موظفاً؟ هل تأخذ الرشوة؟ هل تعامل الناس بالربا إن كنت تاجراً؟ هل تعقد عقوداً مخالفة للشرع؟ انظر في هذا كله وأمثاله، فتب منه، وليس يكفي أن تعزم على ترك الذنب بقلبك، أو أن تعلنه بلسانك، بل أن تتخذ الأسباب لذلك.

فإن كنت تتعامل بالربا، وأردت أن تتوب منه، وألا تعود إليه. فصف حساب عملائه، واقطع صلاتك بهم. وخذ رأس مالك ودع موارد الربا، ولا يغررك أن الربا سمي بـ «الفائدة» فلقد ورد أن الناس في آخر الزمان يسمون المحرمات بغير أسمائها ليستحلوها.

وإن كنت تتكسب من عمل محرم، كأن تكون عاملاً في ناد يسقي الخمر، ويجمع الجنسين. أو في مصرف يرابي وأنت تشتغل فيه كاتبا للربا. أو كنت في مؤسسة أو مصلحة تنشر الإلحاد، أو تؤذي المسلمين وأردت أن تتوب، ففتش لنفسك عن عمل آخر، وإلا لم تنفعك توبتك عنه وأنت ملازم له .

واعلم أن الله هو الرزاق، وأن من يتق الله لا من يعصه يجعل له مخرجاً، ويرزقه من حيث لا يحتسب. وكذلك الحال في كل محرم.

ثم تدبر أمورك وأمور عيالك في غيبتك، لتريح بالك منها، فلا تفكر فيها وأنت في الحج. فتعطي أهلك من النفقة ما يكفيهم في غيابك، وتوكل بهم من يقوم بأمرهم إلى حين عودتك، وتعهد بعملك إلى من تثق به، وتعتمد بعد الله عليه.

واعلم يا أخي الحاج، أن الحج غسل للقلب من أوضار الذنوب، فهل يغسل

أحد جسده من الأوساخ بالماء الوسخ؟ فكيف إذن تبغي أن تتخلص بالحج من تبعات الحرام. إذا كان حجك بمال حرام؟ إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً. فليكن أول ما تصنعه أن تعد لنفقات حجك مالاً حلالاً.

لا أريد بالمال الحلال أن يكون خالياً من كل شبهة فلقد ذكر العلماء من قرون طوال أن ذلك كان كالمتعذر في أزمانهم، فكيف بزماننا؟ ولكن أريد ألا يكون المال الذي أعددته للحج، مالاً ظاهر الحرمة، كأن يكون مغصوباً أو متحصلاً من الربا، أو من مهنة يحرمها الشرع كالاتجار بالخمر، أو زراعة الحشيش، أو نشر الكتب والمجلات المفسدة للدين وللأخلاق.

المال الحرام ردوه إلى أصحابه الذين أخذ منهم ظلماً. فهذا أفضل من الحج، ثم إن وجدتم بعد ذلك ما تحجون به من المال الحلال. وإلا فانتظروا حتى يبعثه الله إليكم فتحجوا.

ومن كان منكم موسرا فليحمل معه ما يزيد عن نفقات حجه، ونفقات أهله في غيابه، ولينو بذلك مساعدة المحتاج وإسعاف المنقطع، لا يوزعه على الشحاذين الذين اتخذوا السؤال حرفة، ولعل فيهم من هو غني، بل يعطي من يثق بحاجته، ومن يكون عفيفاً، فيظنه الناس من عفته وإبائه غنياً وهو في أشد الفقر.

أمثال هؤلاء فأعطوهم، وإذا لم تعرفوهم فاسألوا عنهم من تثقون به من أفاضل أهل الحرمين.

- **الرفيق قبل الطريق**

واعلموا أن على ألسنة الناس أقوالا سائرة يلقونها، لا يفكرون بمعناها، وكأنها من كثرة الترداد قد صارت ألفاظاً بلا معان، وهي ثمرة تجارب بشرية طويلة، منها قولهم «الرفيق قبل الطريق».

وأولى سفرة باختيار الرفيق الصالح سفرة الحج، ورب رفيق حججت معه فاستفدت من علمه، واسترحت إلى حلمه، واطمأننت إلى أمانته، ورب رفيق نغص عليك حجتك، وأضاع عليك ثوابك.

رفيق يجعل الحج مردوداً مرفوضاً، ورفيق يجعله مبروراً مقبولاً. فاختر لك

رفيقاً عالماً بالمناسك، فإن لم تجد فخذ كتاباً من كتب المناسك لعالم موثوق به، ولا تركن إلى هذه الكتب التي يؤلفها من ليسوا بعلماء ولو رأيت الإعلان عنها، والدعوة إليها، فإن فيها خطأً كثيراً، ولا تأخذ كلام المطوفين قضية مسلمة فإن أكثرهم من غير العلماء، ولا تقبل من كل من يتكلم في العلم. فربما تكلم في العلم في زماننا، وتصدر للإفتاء من ليس بعالم ولا بطالب علم.

فإذا أعددتم المال الحلال، وانتقيتم الرفيق الصالح، وتبتم من ذنوبكم، وأديتم الحقوق التي عليكم، فأخلوا أذهانكم من هموم العيش وخلفوها وراءكم، وفرغوا قلوبكم ما استطعتم لربكم، فإنكم تفكرون في الدنيا العمر كله، ففكروا في الآخرة هذه الأيام فقط، وتعملون طول حياتكم لما لا ينفعكم بعد موتكم، فاعلموا هذه الأيام فقط لما يبقى لكم، ويفيدكم يوم العرض على ربكم.

* * *

• يا إخوتي الحجاج

إنكم تقومون للصلاة، تنظرون إلى مسير الشمس في النهار، وتبحثون عن نجم القطب في الليل، وتضعون «البوصلة» أمامكم وتستحضرون موقع البلد في أذهانكم لتعرفوا أين تقع الكعبة، فتجعلوها قبلتكم في صلاتكم. وبينكم وبينها الأبعاد والآماد وبينكم وبينها الصحارى والبحار، والجبال والأنهار، لا يمنعكم بعدها ولا تصدكم العوائق دونها، عن أن تتجهوا إليها بأجسادكم وقلوبكم، وأن تتصوروها على الغيبة، وتحنوا إليها على البعد، فها أنتم هؤلاء تمشون إليها كما يمشي المحب إلى لقاء المحبوب، ودونه الحجب والأستار، فكلما جزتم إليها بادية، أو ركبتم بحراً، رفع لكم من دونها حجاب، وكلما دنوتم منها شبراً، رفع لكم ستر، حتى وصلتم إلى «المواقيت».

• لباسه الرسمي

هذي مواقيت الحرم يا حجاج فقفوا، هذه أعتاب ديار المحبوب، هذه مشارف بيت المليك، إن من يدخل حضرة ملك من ملوك الدنيا، يلبس للمقابلة

لباسها الرسمي، وهذه أبواب حضرة ملك الملوك، رب العالمين، فاخلعوا عن أجسادكم ثياب الدنيا، والبسوا للنسك لباسه الرسمي.

البسوا ثياب الإحرام، التي لا يمتاز فيها غني عن فقير، ولا أمير من أجير، وانزعوا معها حب الدنيا وانزعوا مشاغلها ومشاكلها عن قلوبكم، واغسلوا بالماء أجسادكم، واغسلوا بتجديد التوبة نفوسكم، وانووا إما الحج وحده، وإما العمرة والحج مقرونين، تدخلون بالعمرة فتطوفون وتسعون وتبقون محرمين إلى انتهاء أعمال الحج، وأما العمرة وحدها فإذا أكملتم مناسكها «أي طفتم وسعيتم» حلقتم ولبستم ثيابكم وحللتم، ثم أحرمتم بالحج يوم الحج، والأول هو الإفراد، والثاني القرآن، والثالث التمتع، وكل ما تنوون حسن، وكل من الثلاثة هو الأفضل في أحد المذاهب، وإن كان التمتع هو آخر ما أمر رسول الله ﷺ والعمل به أولى.

* * *

أجيبوا داعي الله

ثم اصغوا تسمعوا صوت الشرع في قلوبكم يأمركم بالتوحيد وإخلاص العبادة لله، واتباع سبل الخير، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، اسمعوا أوامر الله في آيات كتابه وأقوال نبيه، فإذا تمثلت لأذهانكم، فأجيبوا بألسنتكم وبقلوبكم:

لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك.

لبيك أمرتنا فأطعنا، ونهيتنا فاجتنبنا، فأعنا اللهم على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك، فإنا لا نستطيع أن نقوم بها بغير معونتك، لا شريك لك فنطلب منه، ولا إله سواك، فنفر إليه، لقد فررنا إليك، وجئنا قاصدين بيتك، فهل تردنا عن بابك خائبين، وأنت أكرم الأكرمين؟

هذه حدود منزل الوحي، لقد جزتموها الآن محرمين، فجدوا السير، واحدوا المطي أو استحثوا سائق السيارة .

لقد دنوتم الآن من الحرم، أتعرفون يا إخوان ما الحرم؟

هنا دار السلام إن عمت الأرض الحروب. هنا دار الأمن إن شمل الناس الخوف.

كل حي ها هنا آمن، الناس والحيوان والنبات، ليس ها هنا حرب ولا قتال، الحيوان ها هنا لا يصاد، والأشجار لا تقطع. لا عدوان على أحد، ولا تجاوز على شيء.

هذه حدود الحرم، ألا ترون أعلامها؟

لقد أقام هذه العلامات أبو الأنبياء إبراهيم، وبقيت حيث أقامها. لقد دخلتم الآن الحرم، فجددوا التلبية واجهروا بها، وقولوا بقلوبكم مع ألسنتكم:

لبيك اللهم، قد دعوتنا فأجبنا، سمعنا المؤذن يؤذن بالحج فجئنا رجالاً وعلى كل ضامر، أتينا من مكان بعيد، نجزع الأرض، نطوي البيد، نركب الريح، ونمتطي اللجج، امتثالاً لأمرك، وابتغاء رضاك.

لبوا يا حجاج، واجهروا بالتلبية، لبوا عند كل رابية وجبل، تلب معكم الروابي والجبال، لبوا كلما صعدتم نشزا، لبوا كلما هطبتم وادياً، لبوا فهذه جبال مكة، بدت لكم.

لقد وصلتم، لم يبق إلا قليل، فجدوا المسير.

هذه مكة فادخلوها من أعلاها، من جهة ذي طوى (حي الزاهر) ثم اهبطوا من الحجون، من عند المقبرة، فمن هناك دخلها رسول الله ﷺ، ثم امشوا من عند المسعى حتى تدخلوا من باب السلام (باب بني شيبة).

لقد زالت الحجب حجاباً بعد حجاب، وتقاربت الأبعاد ساعة بعد ساعة، حتى بلغتم الأرب فنسيتم التعب، فهنيئاً لكم، نلتم المرام، هذا باب السلام وهذه زمزم، وهذا المقام، وهذه الكعبة البيت الحرام .

فلبوا وهللوا، وادعوا فإن دعاء المسلم أول ما يرى الكعبة مستجاب، هذا هو

المشهد الذي قطعتم من أجل رؤيته الآفاق، وحملتم المشاق، إني لن أنسى يوم وقفت هذا الموقف أول مرة، من إحدى وثلاثين سنة، لقد سلكنا الصحارى من دمشق، فكنا كلما دنونا يوماً زاد الشوق بنا شهراً. حتى تمنيت أن تطوى لي الأرض، وأن يتصرم الزمن.

وأكثر ما يكون الشوق يومًا إذا دنت الخيام من الخيام

حتى إذا وقفت على باب السلام صفق من الفرحة القلب، وبكت من السرور العين، فما رأيت الكعبة إلا من خلال الدموع.

هذه دارهم وأنت محب ما بقاء الدموع في الآماق!

إني لا أتمنى إلا أمنية واحدة، هي أن أنسى هذا المشهد لأستمتع برؤيته من جديد. هذه مكافأة الحاج.. إنها لذة من لذائذ الروح لا مثيل لها، فأشبهه بها لأدل عليها من لم يعرفها.

لذة لا يدرك مداها إلا من ذاقها، لذة لا توصف ولا تعرف

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيها

أسأل الله أن يمن بذلك على كل راغب فيه، مشتاق إليه.

❊ ❊ ❊

عام جديد

العدد (١٣) المحرم (١٣٨٦هـ) - أبريل (١٩٦٦م).

لما قعدت أكتب هذا الفصل، لم يكن في ذهني شيء عن الموضوع الذي أكتب فيه، ولكني نظرت في التقويم المعلق بالجدار فوجدت الموضوع. الموضوع «أول المحرم».

أفيمر بكم أول المحرم، كما يمر غيره من الأيام، وفي صبيحته ولد عام، وفي ليلته قضى عام؟.

يجتاز المسافر مرحلة من الطريق فيحط الرحال، ويقف ليستريح، فيتلفت وراءه ليرى كم قطع وينظر أمامه ليبصر كم بقي.

والتاجر تنتهي سنته، فيقيم موازينه ويحسب غلته، ليعلم ماذا ربح وماذا خسر.

وهذه «محطة» جديدة، نقف فيها ونحن نسير على طريق الحياة، وسنة أخرى تمضي من العمر، أفلا نقف عليها ساعة نفكر وندكر ونحسب ونعتبر؟

نحن اليوم في أول المحرم من سنة ست وثمانين وثلاثمائة وألف ننظر إليه في الفجر، فنراه يوماً طويلاً يمتد أمامنا، نستطيع أن نعمل فيه ما نشاء، نستمتع فيه (إن أردنا) بدنيانا، ونحمله ما نريد حمله من الزاد إلى أخرانا، فإذا أمسى المساء وذهب اليوم- لم نعد نستطيع أن نستفيد منه ولا أن نستمتع فيه.

نظنه باقياً لنا، فـ«نُبذر» في دقائقه، كما يبذر المسرف في ماله ونضيع ساعاته، ولكنا لا نجده حتى نفقده. إنه لا يكاد يبدأ حتى ينتهي ثم يمضي، فلا يعود أبداً.

اذكروا الآن أول يوم من المحرم سنة خمس وثمانين.

لقد كنا نراه (أيضاً) ونحن نستقبله طويلاً، وكنا نقدر أن نصنع فيه خيراً كثيرا، فأين هو منا اليوم؟. وأين الأول من المحرم سنة أربع وثمانين؟.

وأين أوائل المحرمات التي مرت بنا، أو مررنا نحن بها من قبل؟ ماذا بقي منها في أيدينا؟.

تمضي السنة وتجيء أخرى بعدها، فمن لم يعمل خيراً فيها، عمله في التي تليها.

إن فاتك عمل الخير في النهار، فعندك الليل (خلفة) منه، فاعمل الخير فيه. مواسم متتابعة إن أضعت الموسم فلم تزرع فيه، فازرع في الذي يليه.

وإن رسبت في الامتحان في دورة حزيران، فعندك دورة أيلول.

هي خلفة لك ما بقيت حيا، ولكن هل تعلم كم تبقى حيا؟.

* * *

ينقضي العام - فتظن أنك عشته، وأنت في الحقيقة قد مته، لا تعجبوا من هذا المقال ودعوني أوضح الفكرة بالمثال.

أنت كالموظف الذي منح إجازته السنوية، شهراً كاملاً، إذا قضى فيها عشرة أيام يكون قد خسر منها عشرة أيام فصار الشهر عشرين، فإذا مر عشرون صار الشهر عشراً، فإذا تم الشهر انقضت الإجازة فكأنها لم تكن.

أتظنون أني «أتفلسف»؟ لا والله بل أصف الواقع.

نحن كلما ازداد عمر الواحد منا سنة في العد، نقصت من عمره سنة في الحقيقة، حتى ينفد العمر، ويأتي الأجل، ونستقبل حياة أخرى تبدأ بالموت.

فتحت كتابي «من حديث النفس» فقرأت فيه فصلاً نشرته في العدد الممتاز من مجلة «الرسالة» في مطلع سنة ١٩٣٨، عنوانه «على أبواب الثلاثين» لو تصورت يومئذ أني ساقرأه في مطلع سنة ١٩٦٦، لتراءى لعيني دهر طويل ثمان وعشرون سنة، أنظر إليها الآن، بعد ما مرت، فأراها كأنها يوم وليلة.

ولو نظرت الآن على ما بعد ثمان وعشرين سنة على سنة (١٩٩٤) لرأيتها بعيدة جداً، ولكن من يقرأ هذا الفصل يومئذ سيرى سنتنا هذه كأنما كانت بالأمس.

فنحن نوسع المستقبل بالأمل.

* * *

وما هذا المستقبل الذي نسعى إليه، ونكد من أجله؟.

لما كنت طالباً كان مستقبلي في نيل الشهادة. فلما نلتها صار المستقبل في الوصول إلى الوظيفة. فلما وصلت إليها صار المستقبل في بناء الأسرة وإنشاء الدار، وإنسال الولد، فلما صارت لي الزوجة والدار والأولاد والحفدة، صار المستقبل في الترقيات والعلاوات والمال المدخر، وفي الشهرة والمجد والكتب والمقالات، فلما تم لي بفضل الله ذلك كله، لم يبق لي مستقبل أفكر فيه، إلا أن ينور الله بصيرتي، ويريني طريقي، فأعمل للمستقبل الباقي للآخرة وإني لفي غفلة منها.

فالمستقبل في الدنيا شيء لا وجود له. إنه يوم لن يأتي أبداً، لأنه إن جاء صار «حاضراً» وطفق صاحبه يفتش عن «مستقبل» آخر. يركض وراءه.

إنه (كما قلت مرة) مثل حزمة الحشيش المعلقة بخشبة مربوطة بسرج الفرس تلوح أمام عينيه فهو يعدو لِيصل إليها، وهي تعدو معه فلا يدركها أبداً.

إن المستقبل الحق في الآخرة، فأين منا من يعمل له؟ بل أين من يفكر فيه؟.

* * *

وقد يكون هذا الذي أقوله «فلسفة»، ولكنها فلسفة واقعية، إنها حقائق لا يفكر فيها أحد منا.

نحن كالمسافر في الباخرة أو في الطيارة، همه الغرفة الجميلة، أو المقعد المريح، يركب في الدرجة الأولى ويأكل أطيب الطعام، ويتصفح الجرائد والمجلات ينقل بصره فيما حوله أو تحته من المشاهد ولكن هذا كله لأيام السفر، وأيام السفر معدودة، أفما كان خيراً له لو فكر فيما يريحه في إقامته في البلد الذي يمضي إليه؟.

أما كان أنفع له لو تحمل بعض المتاعب في ليالي السفر القليلة، ووفر ماله ليشتري به الراحة في سنوات الإقامة الطويلة؟.

أم قد شغلته متعة السفر عن التفكير في سبب السفر، وجمال الطريق عن غاية الطريق؟.

الحياة سفر، فكم من الناس يسأل نفسه لم السفر؟ وإلى أين الرحيل؟ كم منا من يسأل ما الحياة؟ ولماذا خلقنا؟ وإلام المصير؟

* * *

إننا نقطع الوقت من الصباح إلى المساء، في مشاغل نخترعها لننسي بها أنفسنا، ونبدد بها أعمارنا، من أحاديث تافهة، ومجالس فارغة، ومطالعات في كتب لا تنفع، أو نظرات في مجلات لا تفيد، فإن خلا أحدنا بنفسه، ثقلت عليه صحبة نفسه، وحاول الهرب منها، كأن نفسه عدو له لا يطيق مجالسته فهو يضيق بها، ويفتش عما يشغله عنها، وكأن عمره عبء عليه، فهو يحاول أن يلقيه عن عاتقه، وأن يتخلص منه.

* * *

نفر من نفوسنا ونبدد أعمارنا، في لذائذ نتوهمها، ونسعى وراءها ولكننا لا ننالها.

ولما كنت أشرف على طبع كتاب ابن الجوزي «صيد الخاطر» الذي قدمت له وعلقت عليه، وجدت فيه كلمة عظيمة، يقول فيها «إن لذائذ الدنيا نماذج تعرض ولا تقبض».

نماذج (ريكلامات)[1] **للعرض والإعلان، لا للبيع والاقتناء، فأنت تسر برؤيتها، ولكن لا تقدر على امتلاكها.**

خذوا أكبر لذات الدنيا، (اللذة المعروفة...) تروا أنها ليست في الحقيقة إلا لحظة دقيقة أو دقيقتين، لا تكاد تحس بأنك قد وصلت إليها، حتى تجد أنك قد فقدتها.

إنها ليست إلا «نموذجا» للذة الآخرة، فما يستمر هنا دقيقة فقط، يدوم هناك إلى الأبد.

---

(١) صرنا نفسر العربي بالإفرنجي، هذا والله العجب!

إنك فيها كمن يعطى ملعقة من الطعام ليذوقه ويجد طعمه في حَلْقِه، فإذا ارتضاه اشترى منه فأكل حتى شبع.

فالذواق في الدنيا والشبع في الآخرة.

لذلك ترى الرجل الفاسق، يشكو «الجوع الجنسي» مهما «ذاق» من الحرام. يعرف مائة من النساء، ثم يرى الواحدة بعد المائة فتطلبها نفسه، كأنه ما عرف امرأة قط، ولا يزال كذلك حتى يعجز جسده، ولا تكل رغبته، فهو كالعطشان الذي يشرب من ماء البحر، وكلما ازداد شرباً، ازداد عطشاً.

وما عهد «فاروق» ببعيد.

ومثلها لذة المال.

إن الفقير الذي ينام في كوخ الطين، ويأكل خبز الشعير، ويمشي بالحذاء البالي، أو يركب عربة النقل، التي يجرها الحمار، يتصور أنه لو نام يوماً على فراش الغني، أو أكل على مائدته، أو ركب في سيارته، لنال اللذائذ كلها ولكن الغني الذي ألف ذلك لم يعد يجد فيه لذة، بل يجد الألم إن فقد منه شيئاً.

والشاب المغمور، يتمنى أن يكون علماً مشهوراً، تردد الإذاعات اسمه وتنشر الصحف رسمه، ويتحدث الناس عنه، ولكن العالم المشهور الذي ألف ذلك لم يعد يهتم به ولا يباليه.

إن لذات الدنيا مثل السراب، ألا تعرفون السراب؟. تراه من بعيد غديرا، فإذا جئته لم تجد إلا الصحراء. فهو ماء ولكن من بعيد!.

عفواً يا سادتي القراء، إن جئت أعظكم وأزهدكم، فما أردت وعظاً ولا تزهيداً، وما أنا من الوعاظ الزهاد، ولكنها خواطر أثارها في نفسي أننا في اليوم الأول من المحرم، وإني وقفت كما يقف المسافر، وقعدت أحسب كما يحسب التاجر.

إني أنظر إلى حياتنا هذه التي نعيشها، فأرانا فيها كموكب من السيارات، تمضي مجنونة مسرعة، متسابقة، هم كل واحدة أن تسبق الأخرى، وتخلفها وراءها، ولكن لو سألت سواقها إلى أين يسيرون ولماذا يسرعون؟ لما وجدت عندهم جواباً.

سباق إلى المال، سباق إلى اللذات، سباق إلى الوظائف، سباق في كل طريق من طرق الحياة.

ثم ينتهي العمر، فنترك كل ما استبقنا إليه، ونمضي. فلنقف لحظات في مطلع كل عام، لنسائل أنفسنا ما الذي نربحه من هذا السباق؟ أو ليس «الربح» الحق في جهة أخرى، غير الجهة التي يتجه الناس كلهم إليها، ويحسبون أن الربح المقصود فيها؟.

إن هذا اليوم نذير لنا. بأن السنة المقبلة ستمضي كما مضت السنة المودعة، وإن كل واحدة منها تحمل معها جزءاً من أعمارنا، حتى تنفد أعمارنا، فلنتدارك ما بقي، ولنكن يوماً واحداً في السنة من المتناصحين ومن المتواصين بالحق، والمتواصين بالصبر.

إنكم تقرأون في المجلات كلاماً كثيراً، كلاماً جليلاً يزيد ثقافة عقولكم، وكلاماً جميلاً يدخل البهجة على قلوبكم وكل هذا خير، ولكن خيراً منه أن تسمعوا كلمة تذكركم أخراكم، وتنفعكم يوم العرض على ربكم.

وما أصلح - والله - لأن أقول أنا هذه الكلمة، وأنا إلى أن أوعظ فأتعظ، أحوج مني إلى أن أعظ، ولكن «على مدير الكاس أن ينهى الجلوس».

لما أردت أن أسافر إلى جدة، من بيروت، قعدت في مطعم المطار، أفطر وأنتظر، وكان المطعم ممتلئاً، وكل من فيه يأكل ويشرب ويتحدث، مثلما كنت آكل وأشرب وأتحدث، تراهم فتحسبهم أصدقاء متلازمين لا يفترقون. وأن شملهم جميع لا يتشتت، ولكن مطار بيروت الذي تحط فيه كل ربع ساعة طيارة، وتقوم منه طيارة، لا يلبث الصوت أن يخرج منه ينادي من «المكبر».

ركاب طائرة boac المسافرة إلى لندن، يتوجهون إلى أرض المطار.

فتترك أكلها وشربها جماعة من الحاضرين، وتقوم.

ثم ينادي:

- ركاب طائرة klm المسافرة إلى جاكرتا.

فيترك ناس أكلهم وشربهم ويقومون.

وطائرة إلى أميركا، وأخرى على الكونغو، وثالثة إلى إيران، ورابعة إلى موسكو.

فنظرت في الناس وقلت لأخي، وكان معي. هذه هي حياتنا.

نعكف على طعامنا وشرابنا، ومشاغل عيشنا، وإذا بالنداء يدعو من «جاء دوره» ليذهب على حيث يحمل، إما إلى غابات أفريقية، وإما إلى ثلج سيبيريا، وأما إلى ملاهي باريز ومشاهد نيويورك.

فمن كان مستعداً للسفر حاجاته مقضية، وحقائبه معدة، وحمله خفيف، مضى مستريح البال، ومن «جاء دوره»، وهو لم يعد متاعه، ولم يقض حاجته ذهب بلا زاد، ومضى على غير استعداد.

أفلا نستعد للسفرة التي لا بد منها، ونتزود لها الزاد الذي لا ينفع غيره فيها؟

أم نحن نتناسى الموت وهو أمامنا نظنه أبعد شيء عنا، وهو أقرب الأشياء منا، نصلي على الأموات ونشيع الجنائز، ونحن نفكر في أمور الدنيا، كأنا مخلدون فيها، وكأن الموت كتب على الناس كلهم إلا علينا؟

● **يا إخوتي القراء:**

إننا نعيش الأيام كلها في غفلة، فلننتبه اليوم، ولنقف كما يقف المسافر على المحطة، ينظر كم قطع من الطريق وكم بقي عليه منه؟ ولنفتح دفاترنا كما يفتح دفاتره التاجر، لنرى ماذا ربحنا في سنتنا التي مضت وماذا خسرنا، ولنمد أيدينا، فنقول: يا ربنا، اغفر لنا ما سلف، ووفقنا فيما بقي.

اللهم إذا كتبت لنا، أن نعيش إلى مثل هذا اليوم من قابل، فاجعل ما يأتي خيرا لنا، وللمسلمين مما ذهب، . . . وإلا، فاكتب لنا بفضلك وكرمك حسن الخاتمة، واغفر لنا ذنوبنا، وكفر عنا سيئاتنا، وتوفنا مع الأبرار.

* * *

عبرة من تاريخنا

العدد (١٨) جمادى الثانية (١٣٨٦هـ) - سبتمبر (١٩٦٦م)

كنت أتمنى ألا أحدثكم إلا أحاديث المكارم والمفاخر، ولا أقص عليكم إلا أخبار النصر والظفر ولكني رجل مؤرخ، وحياة الأمم كحيوات الأفراد، فيها الصفاء وفيها الكدر، وفيها الأعراس وفيها المآتم، ولا أكون أمينا على التاريخ، ولا صادقاً في الرواية، ولا ناصحاً للقارئين، إذا أريتكم صفاء الماضي دون كدره، وسردت عليكم مباهجه دون مآسيه، ولعل العبرة في الهزيمة أكبر من العبرة بالنصر.

وأنا أستجديكم اليوم الدمع، وأدعوكم إلى البكاء، لا بكاء أبي عبدالله الصغير الذي سأحدثكم حديثه فهذا بكاء الأنذال، إنما أريد بكاء الرجال، والرجل قد تجيش عاطفته، ويسيل قلبه دمعا من عينيه، ثم يمسح الدمعة وينسى العاطفة، ويحكم العقل، ويمضي إلى العمل فلئن ضاعت منا الأندلس (وسترون لم ضاعت) فقد أبقت لنا عبرة، ولقنتنا درسا.

حديث اليوم عن الفردوس الإسلامي الذي فقدناه، عن المأساة التي لم ير تاريخنا مثلها، اللهم إلا مأساة فلسطين، التي ستغدو لنا إن بقينا على غفلتنا وانقسامنا أندلسا جديدة، ولن يكون ذلك إن شاء الله مادام في السماء رب عادل، وعلى الأرض شعب مسلم.

الحديث عن أبي عبدالله الصغير، وعن سقوط الأندلس، وما هو (مع الأسف) إلا إشارات عابرة لتلكم الأحداث الجسام، وكلمات قليلة عن هاتيكم الفواجع الكثيرة التي ملأت صحف التاريخ أسى وحزنا.

نحن الآن في أواخر العهد بالأندلس، فلقد تقلص ذلك المجد المنبسط،

وانزوت تلك الراية التي كانت ترفرف على أسوار طليطلة وقصور قرطبة، وعلى سيف البحر من المرية إلى برشلونة، والتي جازت جبال البرانس (البيرنة) حتى بلغت قلبَ فرنسا، لقد مضى ذلك كله وانقضى، فلا أمية باقية تلوح أعلام قوادها وهي على عرش الخضراء في دمشق، أو على عرش الزهراء في قرطبة، ولا الموحدون تموج «الزلاقة» بفرسانهم الذين ينتزعون النصر من بين فكي الدهر، لقد ذهبت الدول الحاكمة القوية، فَنَادِ اليوم لا يُلَبِّكَ القائد عبدالرحمن الغافقي ولا الأمير عبدالرحمن الداخل، ولا الخليفة عبدالرحمن الناصر، ولا يُجِبْكَ الملك المظفر أسد الصحراء ابن تاشفين.

وقد ذهبت الإمارات القوية، فما في البلاد اليوم مثل الحاجب المنصور، ولا مثل ابن عباد، ما فيها إلا إمارة صغيرة حقيرة فيها عرش صغير حقير، نخر سوس الخلاف باطنه، وهدت فؤوس الإسبان جوانبه، ولا يزال أهله يتنازعون عليه، ويتقاتلون من حوله، عرش بني الأحمر في غرناطة.. أتعرفون من أين جاءت هذه الإمارة التي كتب الله أن يكون ضياع الأندلس على أيديها؟

كانت دولة الموحدين تحكم البلاد كلها، والموحدون صحراويون أشداء، لم تكن الحضارة بترفها قد أفسدتهم يوم أقبلوا، ولا المدن بنعيمها، فكانوا ينامون بمثل عين الذئب، ويكشرون عن مثل أنياب الأسد، كانوا أسود قفر، فانجحرت منهم الذئاب، وفرت من أمامهم، فلما ذاقوا متع الحضارة، واستراحوا إلى النعيم صاروا طواويس، فاستأسدت من ضعفهم الثعالب.

وخرج عليهم ابن هود، فاقتطع لنفسه ما استطاع من بلادهم، وخرج على ابن هود ابن الأحمر، فانتزع منه ما قدر عليه من بلاده، وكان الموحدون في الأصل خارجين على الإمامة العظمى فكانت مملكة بني الأحمر هذه، مملكة خوارج على خوارج على خوارج.

ولم ينج ابن الأحمر من أمراء كانوا أصغر منه، فخرجوا عليه، يشترون منه ملكه برأس ماله، وكان يحميهم الإسبان الذين كانوا يمدون أيديهم أبداً من وراء ستار، فيضرمون هذه النار، فلم يجد وسيلة لاستبقاء لذة الحكم، إلا أن يبيع

نفسه للشيطان، ويخضع للإسبان، ويجعل من نفسه ملكاً على المسلمين، وتابعا لأعدائهم وكذلك يصنع حب السلطان، وهذه مصيبتنا دائماً، الانقسام وشهوة الحكم.

ثم تتنبه في نفسه حمية المسلم، وتستيقظ عزة المؤمن، فيقطع حبل مودة الإسبانيين، وتقوم الحرب بينه وبينهم، ويعينه ملوك المغرب بجامع الأخوة الإسلامية التي لا تنفصم قط عراها، فينتصر عليهم.

ويتسلسل الملك في أولاده إلى العهد الذي أحدثكم حديثه، حين يقوم النزاع على هذا العرش الصغير الذي لا يستحق أن يتنازع عليه غريبان، فضلاً عن أن يتقاتل من أجله أخوان، أبوعبدالله الكبير المعروف بالزغل، وأبوالحسن والد أبي عبدالله الصغير، وغلب الأول على الملك، وإن كان الثاني أقوى وأحزم وأبرع وأحكم، واستهوته حلاوة هذا العسل، فأنسته السم الكامن في قرارته، وحمات النحل التي تحوم من حوله، وغرق في لذائذه، وكانت له زوجة شريفة عفيفة من بنات عمه اسمها عائشة، هي أم ولديه محمد وهو أبوعبدالله الصغير ويوسف، فتركها وعشق فتاة إسبانية بارعة الجمال فاتنة الحسن وارتكب جريمة مثلثة اللعنات:

١- حكمها في نفسه وقصره، وأطلعها على دخيلته وسره هي وقومها الإسبان اعداؤه وأعداء بلاده ودينه.

٢- وظلم من أجلها زوجته الشرعية وجافاها وأذلها.

٣- ثم عمل ما لا يعمد رجل شريف، فحبسها هي وولديها في البرج وبقيت الحمراء كلها لهذه الإسبانية تمرح فيها هي وأعوانها وتكيد للعرش وصاحبه، وتخدم قومها الإسبان وهي محمية بعرش الملك المسلم.

وكانت هذه السيدة عائشة امرأة قادرة داهية أريبة فلم ترض لنفسها هذا المصير، وأعدت العدة للفرار من البرج العالي وكاتبت أنصارها، وهيأتهم للثورة على زوجها، ثم شققت الستائر والملاحف واتخذت منها حبالا تعلقت بها وولداها وهبطت من البرج.

وبينما كان أبوعبدالله الكبير يقاتل الإسبان، ينازل جيشا لهم جرارا جاء ليقضي على هذه البقية الباقية من دولة العرب في الأندلس، كانت عائشة وابنها أبو عبدالله الصغير يقاتلان الملك العربي، الأب يؤثر لذته على مروءته ويسيء لولده إرضاء لزوجته، والابن يحارب أباه، وكل ذلك والعدو على الأبواب.

هذا العدو الذي لم يكفه ما اقتطع من بلاد العرب، ولم يكفه ما أراق من دمائهم فهو لا يزال لما يرى من تخاذلهم وانقسامهم وغفلتهم يطمع في القضاء عليهم.

وانتزع أبوعبدالله الصغير هذا العرش المنحوس من أبيه، وغلبه عليه ولكن الإسبان جاءوا فأسروا أبا عبدالله الصغير، وحرموه بر الوالد، ولذة الحكم.

وراحت عائشة تعمل عملها، تستبيح كل شيء لتنقذ ولدها، لقد غلبتها عاطفتها فنسيت حقوق الأمة وواجبات الدين وأحكام الشرف، فعرضت على الإسبان معاهدة تخضع البلاد كلها لحكم ملك قشتالة، ويؤدي أهلها الجزية إليه بعد أن كانوا هم الذين يأخذونها منه، معاهدة الذل والخزي والعار، ومع ذلك فقد تدلل الإسبان وأعرضوا، وشمخوا بأنوفهم لأنه لم يعد يرضيهم (وقد رأوا العرب يفقدون سلائق آبائهم، وبطولات ما ضيهم) إلا أخذ كل شيء ولم يطلقوا أبا عبدالله الصغير من الأسر إلا بعد ثلاث سنين، ودفعت البلاد حريتها ثمن حريته، وبذلت كرامتها وحياتها ليتربع على عرشه، وعاد.. وعاد معه الانقسام، وانشطرت البلاد الإسلامية شطرين، شطر تبع هذا الملك الذي باع نفسه للشيطان كما فعل جده من قبل، فكان ملكا على المسلمين وعبدا للإسبان، وشطر بقي على الولاء لعمه أبي عبدالله الكبير.

ووقعت الحرب الأهلية، وأعان الإسبان صنيعتهم وتابعهم، فطرد عمه وانفرد على هذا العرش الملطخ بالأوضار.

ورحل أبوعبدالله الكبير إلى المغرب وكان بطلا مجرباً وقائدا حازماً أريباً، ورأى الإسبان أنه لم يبق في الميدان إلا هذا الشاب الضعيف، أبوعبدالله الصغير، فقرعوا طبول الحرب، وأعلنوا أن قد أزفت ساعة طرد العرب من إسبانيا.

وكانت عائشة قد أغضبت الله لترضي الإسبان، وألبست قومها الذل والعار، ليستمتع ابنها بهذه اللعبة الحلوة التي أسمتها «العرش» فلم تستبق العرش، ولا رضا الإسبان.

وكانت المعركة الأخيرة، وبدأ الهجوم الغادر على القرى المسلمة في الضواحي فكان منها أمثال «دير ياسين» وورد اللاجئون بالآلاف المؤلفة على غرناطة، وهاج الناس وماجوا يفتشون عن القائد، والمسلمون مهما قل عددهم، ونضب موردهم وساءت حالهم، وانقطع مددهم، لا يفقدون بطولتهم ماداموا يجدون القائد الذي يقودهم في المعركة الحمراء، فلما ظهر هذا القائد وكان البطل الفارس المغوار موسى بن أبي الغزان، ورفع لهم لواء الجهاد، وسل سيف القتال، عصفت في رؤوسهم نخوة العروبة، وغلت في دمائهم عزة الإيمان وأقدموا يدافعون، ولولا ضعف أبي عبدالله الصغير، ولولا هذه الحاشية، حاشية السوء، ولولا الانقسام وتدخل النساء في شؤون الملك، لبدأت هذه الفئة المجاهدة عهداً جديداً في تاريخ الأندلس قد يمتد قرونا أخر، وما كان طارقا يوم هبط هذه الجزيرة، أقوى عدة ولا كان أكثر عدداً، ولكن كان جنده أشد اتفاقاً وطاعة، وأكثر إيماناً.

لقد أبدى موسى وهؤلاء الأبطال المجاهدون من ضروب البطولة، وألوان التضحيات، ما لم يعرف التاريخ أعظم منه روعة، وأكثر جلالا، لكن كانت لله إرادة في العرب والإسبان، فلم يكن لهذه التضحيات وهذه البطولات ثمرة تقطف من رياض النصر، لقد قر رأي هذا الملك الضعيف العاجز وحاشيته على التسليم وكانت الهدنة.

وعقدوا معاهدة جديدة مع الإسبان ونسوا أنهم كلما عاهدوا عهداً نقضوه.

معاهدة ظنوا أنهم سيحفظون بها للعرب أملاكهم وحريتهم في دينهم ودنياهم، فلم يكن منها إلا ما حدثكم التاريخ، وقص عليكم الرواة.

وتلفتوا يفتشون عن نصير فلم يجدوا نصيراً، واستجاروا بإخوانهم المسلمين فلم يلقوا مجيراً، وكان آل عثمان في أوج سلطانهم، يحكمون ما بين خراسان

وأسوار فينا، ولكن لم يلتفت إليهم السلطان سليمان عاهل آل عثمان، رغم الصرخة القوية التي أطلقها الشاعر الأندلسي، فدوت في أرجاء الأرض ولا تزال تدوي في أجواء الزمان.

وخرج الملك المسلم، سليل الأبطال، ليضع بين يدي عدوه أمانة القرون التي انتهت إليه، ليلقي على قدميه بكرامة المسلمين وأمجادهم، ليفتح له عاصمة ملكه، ويبيحه أبهاء الحمراء ومقاصرها.

فلما تلاقيا هم بأن ينزل عن فرسه، مترجلا أمام فردينند، فمنعه من الترجل وتقبل خضوعه واستخذاءه، ثم حوله إلى زوجته إيزابيلا فقدم إليها طاعته وولاءه، وسلمها مفاتيح غرناطة.

وختم هذا السفر الضخم الذي ملأناه مجداً وفضيلة وعلما، فكانت خاتمته الخزي والعار، وهكذا تقوض هذا الصرح الذي أقمناه على جماجم أبطالنا، ونضحنا عليه دماء شهدائنا، ثم هدمناه بمعاول التفرق والانقسام، وشهوة الحكم وانتهاب اللذات، وهكذا انتهت في لحظة، حياة ثمانمائة سنة عاشها العرب في الأندلس جعلوها فيها شعلة نور، وروضة زهر وثمر، على حين كانت أوروبا صحراء موحشة، تائهة تحت سجف الظلام.

وبكى أبوعبدالله بكاء الجبان الذليل فصرخت أمه عائشة: ابك مثل النساء ملكا لم تحافظ عليه مثل الرجال.

ومشى أبوعبدالله حتى إذا بلغ تل غرناطة، وقف وتلفت ينظر من بعيد إلى شرفات القصر الذي كان منزل آبائه وملعب صباه وعرش ملكه فصار لعدوه، فهو لن يدخل أبهاءه مرة ثانية ولن يمرح في جناته، ولن تكتحل عينه برؤية الماء يفور من نوافيره ولن يصافح أنفه ريا عبيره.

وأدار رأسه، ومشى إلى الأمام يستقبل الآتي المجهول، وغابت عن عينيه أبراج الحمراء إلى الأبد.



زورق الأحلام

العدد (٢٢) شوال (١٣٨٦هـ) - يناير (١٩٦٧م).

"الإنسان مخير لا مسير، ولكنه لا يستطيع أن يسير إلا في الطريق الذي رسمه القدر".

زرت صديقاً لي، من رفاق الصغر، فرأيت ولده منكباً على أوراق له، يفكر ويكتب، ثم يمزق ما كتب، ثم يعود على التفكر. فقلت لأبيه: ما له؟

قال: إنه مستغرق في «الإنشاء».

قلت: فيم يكتب؟

قال: في الموضوع الأزلي الذي لا يمل منه مدرسو الإنشاء، ولا يسأمون من ترديده.

قلت: ما هو؟

فضحك وقال: السؤال الذي يلقى في كل بلد، وفي كل وقت، لا يتبدل بتبدل الأمكنة ولا الأزمان. وهو: «ماذا تريد أن تكون في المستقبل؟».. وسكت لحظة. كأنه يتذكر. ثم قال لي:

- تذكر كم مرة سئلنا هذا السؤال في المدرسة؟

قلت أذكر، لقد كتبت فيه مرات لست أحصيها. عشرين مرة؟ ثلاثين، أكثر من ذلك! وكنت في كل مرة أنطلق مع أحلامي أتخيل دروب الحياة وقد فرشت لي بالسجاد الذي تغوص فيه من لينه الأقدام. ثم رشت عليها العطور، ونثرت فوقها الأوراد والزهور.

لقد طالما تخيلت نفسي هائماً في رياض هذا المستقبل، أنشق ريا عطره،

وأجتلي جمال زهره، وأرتع في خيره المرجى وبره.

تصورت نفسي طبيباً له العيادة الكبيرة، والزبائن الكثر، وعشت في هذا الحلم حتى تخيلت نفسي أرى «اللوحة» على بابي، وأمد يدي لألمس «السماعة» في عنقي.

وتصورت نفسي ضابطاً كبيراً، قد هبطت النجوم من سمائها حتى استقرت على كتفيه، ونزل البرق حتى صار يخرج من قرع مهمازيه.

وتصورت نفسي صاحب المزارع الواسعة الشاسعة. والحقول الممرعة المزهرة، أفيق فيها مع العصافير لأتطلع إليها، أكحل العين في الإصباح بمرآها.

وتصورت وتصورت، فأين مني الآن تلك التصورات؟

لقد أردت لنفسي، وأراد الله لي، فكان ما أراد الله لي، لا ما أردت لنفسي.

كنت من شهور أقلب أوراقاً لي قديمة، أفتش يها عن وثيقة أطلبها، فوجدت «إيصالا» هذا نص ما فيه:

المملكة المصرية
دار العلوم العليا
نادي التمثيل والموسيقى **نمرة متسلسلة (٧٠)**

وصل من حضرة العضو محمد علي الطنطاوي الطالب في دار العلوم العليا مبلغ ١٠ فقط (عشرة قروش صاغ) قيمة اشتراكه عن شهر اكتوبر سنة ١٩٢٩ .

تحريراً في
اكتوبر ١٩٢٩

الخاتم الرسمي
أمين الصندوق
الإمضاء
(محمد علي الضبع)

علي الطنطاوي عضو نادي التمثيل والموسيقى؟!

وتصورت ماذا تكون خاتمة القصة التي بدأت بهذا الإيصال لو قدر لها أن تكتمل فصولاً.

إلى أين كان يصل بي ذلك الطريق الذي وضعت قدمي عليه، يوم صرت عضواً في هذا النادي لو أني تابعت السير فيه حتى بلغت آخره؟

كنت أبدأ ممثلاً في الكلية، ثم أعتلي خشبة المسرح، ثم أدخل فرقة من الفرق ثم يسجل اسمي في القائمة التي تبدأ باسم «يوسف وهبي» وتنتهي باسم «إسماعيل ياسين».

فيكون «علي الطنطاوي» اليوم ممثلاً عجوزاً[١] متقاعداً، يتسكع على أبواب الحانات، ويعاشر القينات، ويسهر الليالي، وينام الأيام[٢]، ويعود بلا صحة ولا مال، وربما عاد بلا دنيا ولا دين.

ولم يكن يحول بيني وبين هذه الغاية شيء. فالاستعداد لذلك في نفسي كبير والرغبة فيه شديدة، وكان يزين لي فأراه يومئذ حسناً، ولكن الله صرفني عنه.

وما كان ذلك بعمل مني. ولكن بصنع الله لي.

وفي أوراقي التي وجدت فيها هذا «الإيصال» شهادة مكتوبة بالخط الديواني ولها إطار مذهب الحواشي، وفي رأسها اسم وزارة الأوقاف، فيها قرار تعييني إماماً في جامع رستم في حي العقيبة في دمشق.

إي والله، وتاريخها سنة ١٩٢٤. أي من ثنتين وأربعين سنة شمسية.

إني لأنظر إلى هذه الشهادة، وأرجع البصر إلى ذلك «الإيصال» الذي اصفر لونه، وبلي ورقه، وتمزقت طياته، فأرى عجباً. دونه والله ما يشطح إليه خيال القصاص.

من إمام جامع، إلى ممثل في «التياترو»

ولكن كيف دخلت نادي التمثيل والموسيقى؟

إني لأتأمل هذا «الإيصال»، فأعود إلى أيامي الماضيات إلى سنة ١٣٤٧هـ، وقد نلت شهادة البكالوريا كما كنا نسميها يومئذ، أو التوجيهية كما تسمى اليوم وكان الفرنسيون قد أنشأوها تلك السنة فحملتها وسافرت إلى مصر، فدخلت دار

---

(١) كلمة عجوز في الأصل للمرأة ولكنها عمت في الاستعمال.

(٢) اليوم في الأصل النهار.

العلوم العليا، وانتسبت إلى الجامعة المصرية وكنت أول سوري يؤم مصر للدراسة العالية في غير الأزهر، وكنت أحرر في مجلتي خالي وأستاذي محب الدين الخطيب: المجلة الأدبية الأولى في العالم العربي- وهي (الزهراء) والمجلة الدينية الأولى في العالم الإسلامي. وهي (الفتح).

وأعلنت عمادة الكلية (أو مديرية المدرسة كما كانت تسمى) عن تأليف ناد للتمثيل والموسيقى، ودعوا من يريد الاشتراك فيه إلى طلب الانتساب، فكنت فيمن أراد.

وجاءونا برجل (ممثل) يعلمنا التمثيل قصير متحذلق لا أدري ما صنع الله به، بعد هذه السنين، التي قاربت الأربعين ولا أزال أذكر اسمه، حفظته لغرابته، وإن كان مكان الأسماء من ذاكرتي قد كثرت فيه الخروق التي لا ترقع.

واختبرنا بجمل نلقيها إلقاء مسرحياً على أن نعبر عن معانيها بخلجات وجوهنا، ولهجات حروفنا وإشارات أيدينا - فلما جاءت النوبة إلي - وألقيت تلك الجمل دهش هو ومن كان معنا من الطلاب ورأوا شيئاً ما كانوا يتوقعونه وشهدوا بأن هذا الشامي. . «ممثل جامد» أي ماهر، ونعوذ بالله من الجمود. .

ما كانوا يتوقعونه مني، أما أنا فكنت أتوقعه من نفسي، لأني كنت قد ألفت من تلاميذي في المدرسة الابتدائية التي كنت أعلم في دمشق فرقة للتمثيل، وكنت أكتب لهم القصة، وأعلمهم تمثيلها، وكنت بارعاً في التمثيل.

وما أريد أن أفيض في سرد القصة، فلذلك كتاب عنوانه «ذكريات نصف قرن» كتبت منه كثيراً. وبقي علي منه كثير.

ولكن أريد بيان العبرة من هذه القصة.

لقد اشتغلت بالتمثيل، واحترفت الصحافة، وغصت في السياسة، ولكن اللّه كان يوجه طريق سيري، فلم يختر لي من ذلك كله شيئاً.

لا، لا أقول «إن الإنسان مسير»، فإنها أضل مقالة قالها الإنسان والإنسان مخير، أعطاه الله اليدين، فهو يستطيع أن يحركهما ليتصدق على السائل، وأن يحركهما ليضرب البريء، ومنحه الرجلين فهو يقدر أن يمشي بهما إلى المسجد

ليصلي وإلى الماخور ليفسق .

«جول سيمون» يرد على من يدعي أنه مسير . فيقول له : سأرفع يدي بعد ثلاث دقائق. فهل تراهنني على أنني لا أستطيع أن أرفع يدي؟.

ولكن ليس معنى هذا أن الإنسان يستطيع أن يتحكم في الكون، ولا أن يقرر لنفسه المصير.

الصخرة لا تتحرك، والسيارة تتحرك، فنحن لا ننكر حركة السيارة، ولا «حرية» سائقها في التوجه بها، ولكن ليس معنى هذا أن يخترق بها الجبل، ولا أن يمشي بها على وجه الماء، إن السيارة تمشي «بحرية» سائقها واختياره ولكنها لا تمشي إلا على الطريق.

وكذلك الإنسان، إن له حرية واختياراً، ولكنه لا يستطيع أن يسلك إلا الطريق التي تشقها له الأقدار.

إنه كراكب الزورق في البحر، يوجهه حيث شاء، ولكن قد تضربه موجة عاتية فتحول وجهته من اليمين إلى الشمال، وكذلك تصنع الأيام، بزوارق الأحلام، كنت في مصر، وقد رسمت طريقي، وحددت وجهتي : أن أكمل الدراسة في دار العلوم، وأعمل في الصحافة، وإذا بموجة تلطم صدر زورقي، فتعيدني إلى دمشق، فأدخل فيها كلية الحقوق وأغامر في السياسة، وأقود الطلاب جميعاً في ساح النضال، وأحترف الصحافة، فأكتب في «فتى العرب» عند مؤلف «سيد قريش» وفي «ألف باء» عند باقعة الصحافة في الشام. ثم أتولى التحرير الداخلي في الجريدة الوطنية الكبرى، التي أصدرتها الكتلة الوطنية رافعة لواء النضال للاستقلال.

وكان آخر ما أفكر أن أكون موظفاً .

أنا أكون موظفاً في ظل الانتداب؟ وإذا فرض ما لا يكون وقبلت التوظيف[١] فلن أكون معلما ، أنا أصير معلم صبيان.

ولكن هذا الذي كان:

---

(١) الوظيفة في الأصل بمعنى الراتب.

فقد كانت في سنة ١٩٣١ نكسة وطنية، بعد انتخابات «٢٠ كانون» أي ديسمبر، التي قاطعناها، وسيطر الفرنسيون. وعطلوا الجريدة التي كنت أعمل فيها. فقبلت أن أكون معلماً، لئلا أدع إخوتي بلا طعام.

وضربت موجة أخرى زورقي، حين آذاني الحاكمون فنقلوني في أقل من ثلاث سنوات، بين خمس من القرى، وآذيتهم بقلمي ولساني، فتركت الشام وسافرت إلى العراق.

وكان لي في العراق إخوان، وكان لي تلاميذ، منهم من صار رئيس جمهورية (رحمه الله وأبقى في الرئاسة أخاه) ومنهم من لست أحصي ممن صاروا وزراء، وصار منهم كبار القضاة، والقادة والضباط، ما كان أحلى أيامي في العراق، وسلام مني لا ينقضي على إخواني وتلاميذي في العراق.

وصرفتني موجة إلى لبنان، فعملت في بيروت سنة ١٩٣٧م وصار من تلاميذي فيها أساتذة في الجامعة، وناس من كبار الناشرين وأصحاب المجلات، وصار منهم رئيس القضاء الشرعي، ومنهم الشاب العالم الصالح الذي سرني وفرح قلبي، أن سمعت من أيام نبأ انتخابه بالإجماع مفتياً للبنان.

وموجة أخرى، حولتني إلى القضاء، وما كنت أظن يوماً أن سألي القضاء، ثم عدت بعد أكثر من ربع قرن في القضاء، أمضيت نصفها في «محكمة النقض»، عدت بعد التقاعد، مدرساً في مكة المكرمة بجوار حرم الله.

جرني إلى هذا الكلام كله، موضوع الإنشاء.

فليفكر إخواننا المعلمون، حين يلقون هذا السؤال، فيما كانوا يجيبون عليه وهم طلاب.

هل كانوا يريدون أن يكونوا معلمين، أم كانت لهم غايات، طالما تطلعوا إليها، وحاولوا بلوغها؟

وأحلام كبار طالما كانوا يناجونها في خلواتهم، ويسامرونها في لياليهم ويحلمون بها في يقظاتهم.

وجهوا إليها زوارق حياتهم، وكل همهم أن يصلوا إليها، فجاءت موجة

فضربت الزورق فحولت طريقه؟

أما أنا فقد رث زورقي وبلي من طول ما توجه يمينا وتوجه شمالاً، فمر بي على كل بلد فرأيته، وأطال بي الرحلة واللذاذات، والمتاعب والآلام، عرفت لذة المال، ومتعة الشهرة وحلاوة المنصب، وإعجاب الجماهير، ولو عدت تلميذاً الآن وسئلت هذا السؤال، لقلت: إنه لم يبق لي من الآمال إلا أمل واحد، هو أن يرزقني الله حسن الخاتمة. وأن يخلفني في أهلي وبناتي، وأن يريني قبل موتي بياض النصر للإسلام وأهله، بعد هذا الليل الذي امتد سواده وعم، اللهم آمين.



● رأي للمناقشة

ما هي السماء؟

العدد (٢٥) محرم (١٣٨٧هـ) إبريل (١٩٦٧م)

«الوعي الإسلامي» يكتب فيها بحمد الله فريق من جلة العلماء، ويقرأها جمهرة من خيرة القراء، لذلك رأيت أن أعرض فيها رأيا في السماء، لتقيم من أوده تعليقات العلماء. ولقد ذكرته في بعض ما كتبت استطرادا أو تلميحا، وأذكره اليوم تفصيلا وتصريحا بعد أن كثر الكلام عن وصول الإنسان إلى القمر، وكثر السؤال عن القمر، وكيف يمكن الوصول إليه وهو في السماء؟

● وموضوع المقال «ما هي السماء؟»

عندنا نصوص ثابتة في الدين، وعندنا أقوال مقررة في العلم.

أما الثابت في الدين فهو أن السماء ليست حدودا وهمية، ولا مدارات كواكب، كما ذهب إلى ذلك بعض العصريين من المفسرين، ولكن السماء «جرم» حقيقي، لأن الله سماها بناء، وقال﴿بَنَيْنَٰهَا﴾، ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾﴾ (النبأ: ١٢)، ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾﴾ (الشمس: ٥) ووصفها بأنها سقف لهذا العالم، فقال﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ (الأنبياء: ٣٢)، وقال ﴿وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾﴾ (الطور: ٥)، وجعل لها أبوابا تفتح وتغلق، فقال﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ﴾ (القمر: ١١)، ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ (الأعراف: ٤٠)، ونفى أن يكون فيها منافذ غير هذه الأبواب، فقال ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ (ق: ٦)، وأن السماء تفتح يوم القيامة ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ (النبأ: ١٩)، وأنها ﴿تَشَقَّقُ﴾ (الفرقان: ٢٥) ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ (الرحمن: ٣٧)، وتنفطر وتكشط، ولها بروج ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾﴾ (البروج: ١)، ﴿جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ

بُرُوجًا﴾ (الفرقان: ٦١).

وأما المقرر في العلم فهو أن الشمس والقمر، يسبحان في الفضاء وهذا شيء صرح به القرآن فقال: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (يس: ٤٠)، وأن الشمس على بعدها عنا، وكبرها بالنسبة إلى أرضنا يصل نورها إلينا في نحو ثمان دقائق، لأن النور يقطع في مسيره ثلاثمائة ألف كيلومتر في الثانية، أي أنها تبعد عنا بالزمن الضوئي ٨ دقائق.

وأن من هذه الكواكب التي تظهر لنا نقطة في الفضاء، في الليلة السوداء، وقد لا تظهر لنا أبدا، منها ما يبعد عنا ألف ألف (أي مليونا) من السنين بالزمن الضوئي، ومنها ما يبعد عنا ألف مليون سنة وأكثر.

فاحسبوا كم (ثمان دقائق) في هذه المدة التي تبلغ (ألف مليون سنة) لتتصوروا كم هي أبعد من الشمس!

أما كبرها، فنحن نعلم أن القمر أصغر من أرضنا، والأرض لا تعد شيئا إلى جنب الشمس، والشمس وما يتبعها من سيارات، لو ألقيت هي وسياراتها في كوكب من هذه الكواكب، لكانت بالنسبة إليه كحبة رمل ألقيت في وادي نجد، أو كقطرة ماء قطرت في البحر المحيط.

وهذه الكواكب، على ضخامتها، كثيرة لا تحصى، يزيد عددها على ملايين الملايين، وتسير بسرعة مهولة، ومع ذلك لا تصطدم إلا إذا اصطدمت ست نحلات تطير وحدها حول الأرض، لأن هذا الفضاء واسع واسع كسعة جو الأرض بالنسبة إلى النحلات.

هذا ما يقوله علماء الفلك.

فأين مكان السماء من هذا الفضاء؟

إن الله ﷻ بعد أن وصف السماء بأنها بناء، وأنها سقف مرفوع، أكمل الصورة فجعل لهذا السقف مصابيح، فقال: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ (فصلت: ١٢)، وصرح بأن هذه المصابيح هي الكواكب، فقال ﴿بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ (الصافات: ٦)، فدل ذلك على أن الكواكب تحت السماء الدنيا، لأن المصابيح

لا تكون إلا تحت السقف.

أما آية ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ (نوح: ١٦) أي في السماوات، فلا يدل على غير ما قلت، لأن القمر إذا كان في السماء الدنيا، فهو في السموات كما لو كانت جوهرة في علبة، وهذه العلبة في علبة أخرى، والثانية في ثالثة، فقلت إن في هذه العلب جوهرة، والآيتان الأوليان أصرح، ولا يترك الدليل القطعي لدليل محتمل[١].

والذي تبين لي من هذا كله، من نصوص الدين، ومن مقررات علماء الفلك.

أن الشمس وتوابعها (وهن الأرض وأخواتها) وهذه الكواكب التي لا يحصى عددها تسبح في فضاء عظيم، وهذا الفضاء تحيط به كله «كرة» هائلة.

وهذه الكرة هي «السماء الدنيا» وهذا العالم بأرضه وشمسه وكواكبه في وسطها.

ولهذه الكرة سمك الله أعلم بمقداره، قال تعالى ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾ وهي في فضاء لعله مثل هذا الفضاء، أو أصغر أو أكبر، وحوله كرة أخرى - لها سمك - هي السماء الثانية، ثم فضاء ثم كرة، وهكذا إلى السماء السابعة.

وبغير هذه الصورة لا تكون السموات طباقا.

وخارج الكرة الكبرى التي هي السماء السابعة، أجرام أكبر، أجرام لا يستطيع العقل مهما جهد وكد، أن يتصور مدى كبرها، هي «الكرسي والعرش» و«سدرة المنتهى».

هذه كلها عظمة المخلوق، فما بالك بعظمة الخالق!

وإذا نحن وصلنا إلى القمر والمريخ بل والشمس فأين القمر والمشتري والشمس من السماء؟

إذا كان بعد الشمس عنا، كبعد إبهامك عن خنصرك، تكون السماء أبعد عنك

---

(١) كل عقلاء الناس على دين واحد.

- قد يصح للإنسان أن يغير رأيه ولكن لا يصح له أن يغير مبدأه.

- انما يعتذر عما لا يمكن تغييره.

من أميركا، بملايين الملايين من المرات.

وإذا كان علماء الفلك يقولون بأن من الكواكب ما يسير ضوؤه في الفضاء من أول الزمان ولم يصل إلينا إلى الآن، فمعنى ذلك، أننا لو اخترعنا مركبة فضائية، تسير بسرعة الضوء، أي أنها تقطع ثلاثمائة ألف كيلومتر في الثانية الواحدة، وأننا لو ركبنا فيها يوم ولد نوح، وسرنا من ذلك الوقت إلى اليوم لا نكون قد قطعنا من طريق السماء (الدنيا . .) إلا كما تقطع النملة التي تمشي دقيقة واحدة، من طريق «الكويت - أميركا»!

وأنا حين أنتهي إلى هذه الصورة، وأرى أن عالمنا كله، بكواكبه وفضائه محبوس في وسط الكرة الصغرى التي هي «السماء الدنيا»، أجد ذهني ينتقل إلى الجنين «المحبوس» في بطن أمه.

هذا الجنين، لو استطعت أن تسأله، واستطاع أن يجيبك، وقلت له، ما هي الدنيا؟

لقال لك: الدنيا هي هذا البطن، وهذه الأغشية.

فلو خَبَّرته، أن هاهنا «دنيا» أكبر، عالما فيه بر وبحر، وسهل وجبل، ومدن كبار، وأن دارا واحدا من دور هذه المدن، أكبر من دنياه هو بملايين المرات، لم يستطع أن يفهم ما تقول أو أن يتصوره، وكذلك نحن حين نسمع أن الجنة عرضها السموات والأرض، وأن قصراً واحداً من قصورها، أكبر من هذه الأرض كلها.

إن نسبة ملك الله، إلى هذا الفضاء الذي فيه الكواكب والنجوم، كنسبة هذا الفضاء إلى بطن الأم.

وهذا العالم البالغ الضخامة، موجود مثله على صورة بالغة الصغر، موجود في «الذرة»، الذرة التي لا تراها عين الإنسان ولا بالمجهر «الإلكتروني» فيها فضاء كهذا الفضاء، وكواكب مثل هذه الكواكب، تسبح فيه، ويدور بعضها على بعض، بنظام مقرر وقدر معلوم. فسبحان الله، لا إله إلا هو.

وما أحمق من لا يؤمن بالله!

أربع قواعد للإيمان

العدد (٣٥) ذو القعدة (١٣٨٧هـ) - يناير (١٩٦٨م).

● **مقدمة**

إذا كنت في مكة، وسألك سائل: هل في الطائف الآن مطر؟ تقول: لا أدري، لا تستطيع أن تجيب بـ «نعم»، لأنه ليس عندك دليل الوجود، ولا تقدر أن تجيب بـ «لا» لأنك لا تملك دليل العدم.

وهذا ما يسمى «الشك»: خمسون في المئة «إيجاب» وخمسون «نفي» فإن أبصرت في جهة الشرق غيوماً، تلوح على حواشي الأفق من بعيد، رجح عندك رجحاناً خفيفاً، أن في الطائف مطراً.

وهذا هو «الظن»: ستون في المئة «نعم»، وأربعون «لا».

فإن ازداد الغمام وتراكم، واسود وتراكب، وخرج البرق من خلاله، ازداد ظنك بنزول المطر.

وهذا ما يقال له «غلبة الظن»: سبعون أو خمس وسبعون في المئة نعم، فإن كنت ماشياً في طريق الطائف، وبلغتها، فرأيت المطر بعينك، وأحسست به على وجهك، «أيقنت» أنه نازل، و«علمت» بنزوله علم اليقين.

العلم «اليقين»: فالعلم[1] منشؤه الأول الحس: ما أدركه بحواسي أوقن بأنه موجود[2].

---

(١) عندنا العلم بالمعنى المطلق، وهو الذي يقابل الجهل، والعلم الذي يقابل الفن والفلسفة، والعلم الذي يقابل الشك والظن، وهو الذي يراد في هذا البحث.

(٢) وهذا هو العلم الضروري. ومنشؤه الثاني الخبر المتواتر، ثم العلم النظري ومنشؤه الدليل العقلي.

ولكني أمشي في الصحراء، ساعة الظهيرة، فأرى بركة ماء، تبدو ظاهرة للعين، فإذا جئتها لم أجد إلا التراب، لأن ما رأيته «سراب».

وأضع القلم المستقيم، في كأس الماء، فأراه منكسراً، وهو لم ينكسر. فهل أشك فيما أدركه بالحواس؟ إذا شككت في المحسات لم يصح في الذهن شيء، واستوى العاقل والمجنون الذي ينكر ما هو كائن، ويتوهم ما لا يكون، لا، ولذلك أزيد شرطا آخر لحصول العلم بالحس، وهو ألا يحكم العقل بالتجربة السابقة، إن هذا وهم أو خداع حواس.

الحواس: ما الحواس، وما مداها؟

النفس سجينة في هذا الجسد، ولكن لها نوافذ تطل منها على العالم، وهذه النوافذ هي «الحواس» فهل ترى منها كل ما في العالم؟

«الحواس» أولاً ليست كاملة، لأن الكامل لا يقبل الزيادة، ولقد «كنا» نعرف، أن الحواس خمس، ثم أدركنا بالملاحظة والنظر في أنفسنا أنها في الواقع تزيد على خمس، فنحن نحس (مثلاً) التعب عقب المشي الطويل، أو الجهد المبذول، ونحس الجوع والعطش والغثيان - فكيف أحسسنا به، وما رأيناه ولا سمعناه، ولا لمسناه ولا شممناه؟

أحسسنا بحاسة سادسة يصح أن نسميها «الحاسة المشتركة»[١].

وتغمض عيوننا، فنحس بأن أيدينا مبسوطة أو مقبوضة، وأنها ممدودة أو

---

(١) لهذه القواعد قصة، أرويها كما وقعت، وهي أني كنت سنة ١٩٣٧ (أو ١٩٣٨- نسيت) مدرساً للأدب العربي في بغداد (بعد الزيات وقبل زكي مبارك) فكان الطلاب في الفصل على غاية من الهدوء والإصغاء، فكُلِّفْتُ مع الأدب بدرس الدين، وإذا بالفصل يضطرب، والفوضى تعم، فأدركت أن للدين في نفوسهم صورة مشوهة، فشرعت بمقدمة ألقيها بلا إعداد لها، ولا عزم سابق على إلقائها، فألهمني الله هذا البحث إلهاما، وما رأيته في كتاب، ولا قرأته لأحد، ونشرته ملخصاً في «الرسالة» من تلك الأيام (من ثلاثين سنة). ولما كانت الوحدة بين مصر والشام وكلفت إعداد مناهج المدارس الشرعية، أعددتها وحدي، وأدخلت هذا البحث في درس العقائد وأحلت على ما كتبت فيه فصار تدريسه مقرراً في مدارس سوريا الشرعية ودخل في كتبها الرسمية وإن كان من مؤلفيها من انتحله وأوهم أنه من نتاج فكره.

مرفوعة، وهذه حاسة سابعة «هي الحاسة العضلية».

وحاسة الحرارة والبرودة، وحاسة التوازن - حتى أن العلماء قد كشفوا «المركز» الذي فيه حاسة التوازن، وهو «سائل» أوجده الله في الأذن الداخلية، جربوا أن يستخرجوه من حيوانات المختبر (الأرانب والفيران)، فصارت تمشي بعد فقده مترنحة مثل مشية السكارى.

فلو كانت الحواس الخمس كاملة لما قبلت الزيادة عليها.

ثم إن البصر ندرك به «عالم الألوان»، والسمع ندرك به «عالم الأصوات»، أفليس من الممكن أن يكون بينهما عالم، لا أدركه، لأني لا أملك حاسة أدركه بها؟ ولم تعط النفس نافذة تطل منها عليه؟ عالم موجود ولكني لا أحس وجوده فهو مني كعالم الألون للأكمه! (الأكمه الذي ولد أعمى) قد يعرف بالسماع أن السهل أخضر، والبحر أزرق، والورد أحمر، ولكنه لا يعرف ما الخضرة وما الزرقة، وما الحمرة، لأن النافذة التي تطل منها نفسه على عالم الألوان مغلقة.

والأصم الذي لم يسمع أبدا، قد يعلم أن في الدنيا أنغاما، لها أسماء، وقد يحفظ أسماءها، ولكنه لا يعرف ما البياتي وما الرصد وما الصبا، بل إن لدينا دليلًا أظهر، هو الغرفة الساكنة التي نكون فيها، فلا نسمع فيها همسة، ولا نأمة ولا نحس فيها إلا السكون الكامل، في جوها جميع الأصوات (الخطب والمحاضرات والأغاني) التي تذيعها إذاعات الأرض، كلها موجودة، ولكنا لا نحسها، لأنا لا نملك حاسة ندركها بها، فإذا جئت بالراد «الراديو الذي يردها عليك» سمعتها واضحة.

ولا تعجبوا - فالجماد يدرك أحياناً ما لا يدركه الإنسان: ميزان الحرارة (الترمومتر)، يدرك زيادة الحرارة درجة واحدة، وأنت لا تدركها، وميزان الضغط (البارومتر)، والرادار، والبوصلة، كلها تحس ما لا تحسه، وتدرك من أوضاع الكون ما لا تدركه.

والعوالم التي سلطنا عليها، وأعطينا الحواس لإدراكها، هل ندركها كلها؟ إن البصر، يدرك عالم الألوان، ولكن هل يطلع على كل ما فيه، أهل يرى بعينه

النملة وهي تمشي على بعد ألف ذراع؟

إن لهذه النملة صوتاً. فهل يسمع بأذنه صوتها؟ إن في كأس الماء الذي يبدو للعين عذباً صافياً، آلاف الآلاف من الحيوانات الصغيرة. فهل يراها؟ لا، وهل يحق له أن ينكر وجودها لأنه لا يراها؟

هل يحق له أن يجحد الموجات الصوتية، لأنه لم يسمعها؟

- **فالقاعدة الأولى:**

هي أنه: **لا يحق لنا أن ننكر وجود أشياء لمجرد أننا لا ندركها بحواسنا.**

وهذا ما عبر عنه علماؤنا بقولهم: لا يشترط من عدم الوجدان عدم الوجود[1].

وهذه القاعدة، نرد بها اعتراض الماديين، على الإيمان بالمغيبات، يقول أحدهم: أنا لا أصدق بوجود الملائكة ولا الجن، لأني لا أراهم ولا أحس بهم، فنقول له:

كيف صدقت بوجود الموجات الصوتية في جو الغرفة، ولم تكن (قبل الراد) تسمعها، ولا تدرك وجودها، ونفيت إمكان وجود الملائكة، لمجرد أنك لا تراهم ولا تحس بهم؟

- **القاعدة الثانية:**

إن الله أعطانا قوة نصل بها إلى حيث لا تصل الحواس. وهي قوة «الخيال».

إن غابت عني داري في دمشق وأنا في مكة، تخيلتها فإذا هي أمامي، أرى بيوتها ومرافقها، وإن نأى عني صديقي تخيلته فرأيته..

أفلا يتمم الخيال نقص الحواس، وما مدى الخيال البشرى؟

الخيال بنوعيه، هذا «الخيال المرجع» الذي أشرت إليه، و«الخيال المبدع» خيال الشعراء والأدباء وإخوانهم من أهل الفنون، كله مقيد بالحس.

إن أقصى ما يعمله رجل الفن، مهما كان عبقرياً، أن يؤلف صورة جديدة من الأجزاء القديمة... فالذي نحت تمثال «فينوس» لم يأت به من العدم، ولا مما وراء المادة، بل نظر إلى أجمل عين، وأجمل وجه، وأجمل جسم، فألف بينها،

---

(١) فعل «وجد» يتبدل معناه بتبدل مصدره، فالوجود وجود الشيء بذاته، والوجدان شعورك بوجوده، والوجد العشق والموجدة الغضب، وكلها يقال فيه «وجد» «يجد».

فجعل منها تمثال امرأة، لم يجدها كاملة، ولكن وجد أوصالها فجمعها.

والقزويني في «عجائب المخلوقات»[١]، تصور أو زعم بأنه رأى حيواناً جسمه كفسطاط الأمير، وفمه كباب الدار، وأسنانه كأسنة الرماح.

وهو يطير في الجو، ويخطف برجليه الفيل، وهذه الصورة على غرابتها، لم يزد فيها على أن أخذ جسد الفيل، وفم الحوت، وأسنان النمر، وجناحي النسر. فكبرها وركبها.

والمذهب الخيالي في القصة.. انظروا أغرب ما جاء به أهله من قصص «ولز» إلى قصص الحياة على القمر، وفي المريخ.. وما جاء به المعري في رسالة الغفران، و«دانت الإيطالي» وابن شهيد الأندلسي تروه كله منتزعاً من الحياة الأرضية، حتى الذين كتبوا عن المريخ، بل الذين تصوروا الحياة الآخرة لم يستطيعوا أن يخرجوا عن حياة الأرض التي عرفوها.

فالقاعدة الثالثة هي أن الخيال لا يقدر أن يجاوز هذه الحياة المادية.

فنحن لا نستطيع أن نتخيل نغمة عطرة، ولا رائحة حمراء، ولا نتصور إلا الأبعاد الثابتة «الطول والعرض والارتفاع» لا نستطيع أن نتصور بعداً رابعاً[٢]، ولا دائرة ليس لها محيط، ولا مثلثاً ليس له زوايا.

فكيف «إذن» نتخيل الآخرة، وما فيها؟

إن ابن عباس يقول: «ما في الدنيا مما في الآخرة إلا الأسماء»، وهذا حق، فلا خمر الآخرة كخمرة الدنيا، ولا حورها كنسائها، ولا نار جهنم كنارها، ولا الصراط الممدود على جهنم كالجسور الممدودة على الأودية والأنهار.

ولكنها شيء آخر، شيء لا يمكن أن نتصوره ولا أن نتخيله، كما أن الجنين في بطن أمه لو أعطي العقل والفهم، وقيل له، إن ها هنا شمساً وقمراً، وبراً وبحراً، وسهلاً وجبلاً، لا يستطيع أن تصور ذلك أو يتخيله.. ونسبة الآخرة إلى الدنيا، كنسبة الدنيا إلى بطن الأم الذي فيه الجنين.

---

(١) أو غيره، فقد شككت، وضعفت الذاكرة، وضاع مني المرجع.

(٢) أعني بعداً حقيقياً، لا بالمعنى الاعتباري الذي جاء به آينشتاين.

● **العقل**

لما أبصرت العين العود المستقيم، منكسراً، وهو في كأس الماء، لم ينخدع العقل بما رأت العين، وعرف أنه لم يزل مستقيماً، ولما رأت التراب ماء، في الصحراء، عرف أنه سراب، وأنه ليس ماء ولكنه تراب. . .

فالعقل أصح حكماً، وحكمه أبعد مدى، ولكن هل يحكم على كل شيء، ويمتد مداه إلى غير ما نهاية؟

إن العقل لا يستطيع أن يحكم على شيء، حتى يحصره بين اثنين: الزمان والمكان، فيقول: متى؟ وأين؟ فما لم ينحصر بينهما، لم يكن للعقل عليه سلطان.

فلو قال لك مدرس التاريخ، إن حرباً وقعت بين العرب والفرس، ولكنها لم تقع قبل الإسلام ولا بعده، ولم تقع في زمن من الأزمان، ولكنها وقعت فعلاً. لم تدرك ذلك، ولم تصدقه، ولم تقبله.

ولو قال لك مدرس الجغرافية إن مدينة ليست في سهل ولا جبل، ولا في شرق ولا في غرب، ولا في أرض ولا في سماء، ليست في مكان، ولكنها موجودة فعلاً، لم تدرك ذلك، ولم تصدقه ولم تقبله.

ومعلوم بالضرورة أن الله ﷻ، وصفاته وآلاءه، لا تخضع للزمان ولا للمكان، والله لا أول له ولا آخر، ولا يشتمل عليه مكان، فالعقل لا يستطيع أن يحكم على الله ولا على صفاته، ولا على قضائه وقدره، كل عمله فيها فهم نصوص الوحي، الذي جاء من خارج العقل.

والعقل محدود، لا يستطيع أن يتصور غير المحدود، ولا يحكم على غير المتناهي، جرب أن تتصور حقيقة معنى الخلود في الجنة، أو في النار تجد العقل يحكم بالبقاء فيها مليون سنة، وعشرة ملايين، وأضعاف ذلك، ثم يقف، ويقول: وبعد؟ إنه يريد أن يصل إلى النهاية، إنه لا يتصور الخلود.

والله ﷻ، غير محدود، فالعقل لا يستطيع أن يحكم عليه.

وإذا بحث العقل فيما ندعوه «اللانهاية» انتهى بحثه إلى الوقوع في التناقض

الذي يحكم العقل ببطلانه. أي أن العقل عند بحثه في غير المحدود يحكم على نفسه بالبطلان.

الفيلسوف الألماني «كانت» له كتاب اسمه «نقد العقل» جاء فيه بأربع عشرة مسألة تثبت هذا، وقد عجب منها الفلاسفة والعلماء، ثم وجدت أن علماء الكلام في أدلتهم على إبطال الدور والتسلسل قد سبقوه إليها.

ومن أدلة علمائنا، أن تخرج من نقطة «م» مثلاً خطين مستقيمين متباعدين، وتفترض امتدادها إلى «اللانهاية». وتصل بينهما خطوطاً معترضة هي (ب جـ)، (ب١ جـ١)، (ب٢ جـ٢)، (ب٣ جـ٣)، وهكذا حتى تصل إلى اللانهايتين، وتسأل هل الخط الأخير وليكن (ب٨ جـ٨).

محدود أم هو غير محدود؟

إذا قلت إنه محدود، رد عليك أنه بين لا نهايتين فكيف يكون محدوداً؟

وإن قلت إنه غير محدود، رد عليك بأنه بين نقطتين، فكيف يكون غير محدود؟

فهو محدود وغير محدود، وهذا تناقض.

فثبت أن العقل يختل ميزانه، إن حاول الحكم على غير المحدود، ويقع في التناقض المستحيل.

فالعقل إذن لا يستطيع أن يحكم، ولا يصح حكمه إلا في الأمور المادية، أما «ما وراء المادة» أي عالم الغيب «المتافيزيك» فلا حكم للعقل عليه.

وهذا الذي أثبته «كانت» في كتابه، قال به علماؤنا من قبل. انظر كتاب شرح المواقف للسيد ورسالة المقصد الأسنى للغزالي[1].

● **القاعدة الرابعة: هي أن الإيمان بإله عقيدة بديهية، لا تخلو منها نفس.**

ولكن الإنسان قد يكون صحيح الجسد، مستوفي الأمن، رخي العيش، فيمر

---

(١) بقيت هذه الرسالة (المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى) في مكتبتي أكثر من ثلاثين سنة، لم أجد دافعاً إلى قراءتها، ثم أخذتها يوماً فوجدت فيها شيئاً عجيباً، من عبقرية الغزالي، فهو يتكلم عن الاسم والمسمى والصلة بينهما، ويربط بين أسماء الله وسلوك المسلم في الحياة، ويأتي بما لم يأت بمثله أحد.

به وقت لا يحس بها، وربما أنكرها، فهو «كافر» بها، أي مغطٍّ لها، لأن الكافر في اللغة هو الساتر، فإذا هزته المصائب، أو زلزلته الخطوب، أو شارف اليأس، ألقي عنها غطاؤها، فظهرت. وقد شرحت ذلك في مقالتي في عدد الشهر الماضي، من مجلة «رابطة العالم الإسلامي» فلا أكرره هنا.

وهذه القواعد الأربع، أساس للعقائد فيها الرد على جميع الشبه التي تعرض لعقول الملحدين وتظهر على ألسنة الخصوم.



فكروا لماذا؟

العدد (١٠٠) ربيع الآخر (١٣٩٣هـ) - مايو (١٩٧٣م)

أخذت القلم، وقعدت لأكتب المقالة التي شرفني الأستاذ رضوان حين كلفني كتابتها للجزء الممتاز من المجلة، فورد علي وارد صرف ذهني عنها، وجعلني أسائل نفسي: لماذ أكتب؟ وما الفائدة من الكتابة؟

هل نفعتنا الأحاديث والخطب والمقالات؟

لقد خطبت أول خطبة عامة سنة ١٣٤٥هـ (من نحو نصف قرن) ومازلت أخطب، وكتبت من تلك الأيام ومازلت أكتب، وحدثت في الإذاعة من يوم أنشئت محطة الشرق الأدنى في «يافا» قبل الحرب، ومازلت أحدث.

ويخطب ويكتب ويحدث عشرات وعشرات ممن هم أصفى مني جنانا، وأكثر إيمانا، وأفصح لسانا، وأجلى بيانا، وأقدم زمانا، خطبوا على كل منبر، وكتبوا في كل جريدة ومجلة، وحدثوا من كل إذاعة، فماذا كانت ثمرة هذا الجهد كله؟

هل نحن اليوم في مجتمعاتنا، في بيوتنا، في مدارسنا، في محاكمنا، في أسواقنا، في أزياء نسائنا، وسلوك شبابنا، هل نحن اليوم أقرب إلى الإسلام أم قبل خمسين سنة؟

من كان يقدر أن يتصور يومئذ أننا سنصير إلى ما صرنا إليه اليوم؟

وما لي أفرض الفروض، وأقدر الوقائع وعندي رسالة لي مطبوعة سنة ١٣٤٧هـ عنوانها «دمشق بعد تسعين سنة»، صورت فيها بخيال شبابي الجامح أغرب ما وصل إليه خيالي، فإذا الذي حدث فعلاً في خمس وأربعين سنة يسبق ما تخيلت وقوعه في تسعين سنة!

نعم، والرسالة مطبوعة موجودة، وحالنا قائم ملموس، بل لو تخيل رجل في

الكويت قبل ربع قرن حال الكويت اليوم، لحسبوه قد جن وفقد العقل، فلماذا انتهت جهودنا إلى الهزيمة والفشل؟

فكروا لماذا؟

لو استقريتم أفراد المسلمين لوجدتم الكثرة الكاثرة لا تزال تؤمن بالله واليوم الآخر، أو تريد أن تعد من المؤمنين، وتكره أن توصف بالإلحاد أو بالفساد، ولوجدتم فيهم علماء كثيرين، وخطباء وواعظين، ومحاضرين ومدرسين، كلهم يدعو إلى الله، أو يحب أن يعد مع الدعاة إليه.

ووجدتم المساجد لا تزال عامرة بالمصلين، وخطب الجمعة تعلن بالمكبرات والإذاعات، والمدارس لا تزال تدرس فيها علوم الدين، وإن مسخت مناهجها، ونقصت ساعاتها، والإذاعات لا تزال تبدأ برامجها بالقرآن وتختمها بالقرآن، وإن وضعت بعد القرآن في الافتتاح عزفا على العود، وقبل القرآن في الختام مسرحية تكشف فيها العورات، وتظهر فيها المحرمات.

فكيف استطاع الدعاة من أعداء الإسلام (مع هذا) أن ينجحوا من حيث فشلنا نحن دعاة الإسلام؟

ألا ترون أن هذه المسألة تستحق أن تعرض في العدد الممتاز، وأن نجد لها الجواب؟

أكان ذلك لأن الذي ندعو إليه باطل؟ هذا محال، لأن الإسلام صيغ من جوهر الحق، لا من أعراض الأوهام، أم كان لأن الإسلام بليت حقائقه، فلم تعد تقوى على مواجهة الخطوب في عصر تفجير الذرة، واقتحام الفضاء؟

كلا، فالإسلام كان جديدا لما جاء، وبقي جديداً، لا يبلى ولا يقدم إلا في الأذهان التي تعجز أو تكسل أو تزهد في كشف أسرار القرآن، وهي لا تنفد على مر الزمان، ولا تزال أبداً يفيض نبعها لمن يعرف طريق الاستقاء منها، ولا يزال الذهن البشري يكشف في كل عصر من هذه الأسرار ما لم يكشفه السابقون.

لقد أظهر تقدم العلوم في أيامنا معاني آيات كانت في خفاء، وكان المفسرون يحاولون إدراكها، فيحومون ولا يصلون، ولا تزال في القرآن آيات فيها إشارات

وتلميحات لأسرار سنن الله في الوجود، وقوانينه في الطبيعة، لم يصعد العلم بعد إلى الذروة التي يكشفها منها، وهذا من الأدلة على أن القرآن كتاب لم يخرج من فكر بشري، لأنه يستحيل على إنسان مهما كان عبقرياً، أن يشير إلى علوم لم يكن في أيامه ولا بعد أيامه بألف سنة من عرفها أو سمع بها، أو قدر وجودها.

كلا، أقولها مرة ثانية، فالإسلام كان صالحاً لعصر محمد وصحبه، وبقي صالحاً في عصر الذرة والصاروخ ومركبات القمر، وسيبقى صالحا، وسيبقى دستور الحق والخير والجمال، وطريق سعادة الجسم والعقل والروح في كل عصر.

وهذه دعوى ضخمة، ولكن معنا دليلها، وهو دليل أضخم من الدعوى، فلم يكن هذا الفشل إذن لـ «قصور» في الإسلام، فهل كان لـ «تقصير» منا في الدعوة إلى الإسلام؟ لأننا لم نستطع أن نستخرج من أصول الإسلام (من الكتاب وصحيح السنة) الأقضية والأحكام الملائمة لهذا الزمان، ولأننا (أو لأن مشايخنا) وقفوا عند كتب الفقه، يقرأونها ويعيدونها، لا يستطيعون الكلام عما ليس فيها، وعما جد من الأوضاع والمعاملات بعد موت مؤلفيها، فلما لم يجد الحكام عندهم حلا لمشكلات العصر من شرع الله، عمدوا إلى قوانين الأجانب فأخذوها، وتركوا دينهم لها، فكان علينا قسط كبير من تبعة هذا الذنب الكبير، كما قال ابن القيم في «الطرق الحكمية».

أم لأننا ندعو الناس، وندعو الشبان والشابات إلى الدين بغير الأسلوب الذي يصلح لدعوتهم، وأننا نخاطب أهل هذا العصر بلغة العصور المواضي، نفتح الكتاب المؤلف من قرون ونقرأ عليهم منه، فلا يسمعون منا، ولا يفهمون عنا؟

أم لطبيعة الوعظ، وأنه ثقيل على النفس؟ لأن النفوس تهوى الانطلاق والشرع يقيدها، وتميل مع اللذة حيث مالت والشرع يعدلها.

هذا واقع، ولكن العقل أيضاً (كاسمه) قيد، والحكمة قيد، واسمها مشتق من حكمة الدابة، والقوانين قيد، والحضارة قيد، والذي يريد أن يفلت من كل قيد يصير مجنوناً، فالمجنون هو الحر الحرية المطلقة، يعمل كل ما يشاء، يمشي

عاريا، يعري امرأته ونساء المسلمين، يركب على كتفي سائق السيارة ويدلي ساقيه، يمنع لصوص الأموال ويسمح للصوص الأعراض، يحارب من يأتي ليفسد صحة الناس، أو يزهدهم بالولاء لوطنهم، ويدعوهم للولاء لإسرائيل، ويسالم المبشرين الذين يريدون إخراج أولاد المسلمين من دينهم، وإدخالهم في دين غيره، هذا الذي له الحرية المطلقة التي يفعل بها ما يشاء، وهذا هو المجنون.

أم لأن فيها من يجمل في الدعوة ولا يفصل؟ فيكون كراكب الطيارة تعلو جداً حتى لا ترى الكويت إلا نقطة سوداء، على سيف البحر، فيصفها فلا يفيد وصفه إياها، ومن يفصل قبل الإجمال، كمن تريد منه وصفا عاما للكويت، فيصور لك داره فيها، ويذكر كل ما في الدار، من أثاث ورياش وأزهار وأشجار، فلا تفهم من ذلك شيئا عن وضع الكويت.

أو يزيد على ذلك فيدعي أن داره هي الكويت، ويرد عليه جاره فيصف دار نفسه ويظن أنه وصف الكويت.

نعم، منا من ينادي بالرجوع إلى الإسلام، ويكرر ذلك ويعيده، ولكن لا يبين كيف يكون الرجوع إلى الإسلام، كخطباء الجمعة، يأمرون بتقوى الله، وهذا حق، ولكن لا يوضحون للناس كيف يتقون الله، فلا يستفيدون من قولهم «اتقوا الله»، ومنا من يأخذ بعض الفروع فيجعلها هي الدين، ويلقنها الشبان الناشئين، يبدأهم بها قبل تصحيح العقيدة، وقبل معرفة الكبائر لاجتنابها، والفرائض للقيام بها.

ثم نختلف على هذه الفروع، ونتجادل ونختصم، ونضيع بأسنا بيننا، ومعول الإلحاد، و«ديناميته» يعمل في أساس بناء الإسلام، فإذا تصدعت العمارة ومالت إلى السقوط، فهل يهتم أحد بكسر قفل الباب، أو زجاج النافذة؟

إذا كان المريض المصاب بسرطان القلب تحت أيدي الجراحين، في غرفة العمليات وهم يعدون الثواني يخافون أن يعاجله الموت قبل إتمام العملية، فهل يهتم أحد بشوكة دخلت تحت ظفره؟

فما لنا نهتم بالفروع والأغصان، وجذع شجرة الإسلام مهدد بالكسر، لا سمح الله، ولن يسمح إن شاء الله، لأن الله تعهد بحفظ هذا الدين، فالدين محفوظ ولكن الامتحان لنا، فإما أن ننصر الله فينصرنا، وإما أن نخذل شرعه، فيستبدل بنا قوما غيرنا، يدخل في الإسلام شعب من الشعوب الحية، فيحمل لواءه، ويعلي مناره، ونكون نحن (لا قدر الله) كفقراء اليهود، لا دنيا ولا دين.

أم لأن فينا من يعظ الناس ولا يتعظ، ويأمر بالمعروف ولا يأتيه وينهى عن المنكر ويقع فيه؟ يكذب بلسان حاله، ما جاء بلسان مقاله، يخالف فعله قوله، وتناقض سيرته وعظه، فينفر ضعاف القلوب من الدين، ويكون حجة لهم على الصادقين من الداعين.

أم لأن منا من آثر دنياه على آخرته، ورضا الحكام على رضا الله؟ فوقف على أبوابهم، ومشى في ركابهم، فلما رأى ذلك العامة، ظنوا بأن جميع الداعين مثل هؤلاء المنحرفين، مع أن الله لا يخلي هذه الأمة من علماء يريدون وجهه وحده، يصدعون بالحق، لا يقولون إلا ما يرضي الله، فإذا عمت الفتنة، وعلت الضجة، ولم يعد يسمع صوت الحق، كان أقصى أمرهم أن يسكتوا ويعتزلوا، وينكروا بقلوبهم، لا يسايرون أحدا قط على حساب دينهم.

أم لأن الهجوم علينا كان أقوى من دفاعنا؟ لأننا لم نعد للمعركة (معركة الإلحاد والفساد)، خططا محكمة كخطط عدونا، بل نحن لم نعرف ماذا يخطط لنا العدو الذي يدخل علينا من كل باب، من مناهج المدرسة، وأزياء الثياب، ووسائل الإعلام، وقوانين الدولة وما تخرج المطابع من كتب، وما يشتمل عليه الفن من أشكال وألوان، من كل ذلك يدخل علينا العدو ونحن لا ندري، ولا أظن أن الله سيعذرنا لأننا لم نكن ندري.

فكنا نقعد حتى ينال عدو الإسلام منا منالا، فنثب وثبا قبل أن نحدد سبيلنا وندخل المعركة قبل أن نجمع جندنا، ونسوي صفوفنا، ونؤلف بين قلوبنا، فننهزم، ننهزم لأن الله جعل لكل شيء سبباً، فمن أخل باستيفاء أسباب النصر، فر منه النصر، وصحابة رسول الله ﷺ ورضي عنهم كانوا أكرم على الله منا، وهم مع ذلك

قد هزموا في «أحد» لما تركوا بعض أسباب النصر التي قدرها الله له، كما قدر الأسباب كلها والمسببات، فخالف الرماة أمر قائدهم، وتركوا مواقعهم، أفنطمع أن ينصرنا الله، وقد قطعنا أسباب النصر كلها، ما اتصل منها بالأرض وما ارتبط بالسماء؟ لقد فقدنا إرثنا من الحماسة والنشاط، وتسللت إلى عروقنا جراثيم الخمول والكسل، فآثرنا الراحة على العمل، ولبستنا حقيقة، يوجعني الاعتراف بها، ويشد على صدري حتى أحس بالاختناق، ولكنها تبقى حقيقة.

حقيقة أعترف بها، وذقني من الخجل تضرب صدري، وبصري من الحياء إلى الأرض، هي أن أهل الباطل لهم من إيمانهم بباطلهم، وحماستهم له، ودفاعهم عنه، وبذلهم في سبيله المال والنفس، أكثر مما لنا (نحن أهل الحق) من الإيمان بحقنا، والجهاد في سبيله، وحمل الأذى في الذود عنه.

إنهم يمشون إلى مجاهل الأرض، يسكنون الأكواخ كأنها قبور، ويصبرون على معاشرة أصحابها، ليدعوهم إلى ما يؤمنون هم به، ومنهم من يقاتل في سبيل معتقده الأرضي، أقوى دول الأرض، التي ألهبت بطياراتها بلده بالنار، وأشاعت في أقطاره الدمار، وهو ماض لا ينثني، ونحن .. نحن المؤمنين بأن الجهاد أصل من أصول ديننا، نحن الذين نؤمن بأن شهيدنا حي في ضيافة ربنا، نحن أبناء من مشوا على أرجلهم، من المدينة إلى قلب فرنسا من هنا، وقلب الهند من هناك، ففتحوها كلها، لا ليأكلوا خيراتها، بل ليهدوا إلى الحق أهلها، ويحملوا إليهم من هذا الخير الذي أنزله الله من السماء، على غار حراء، نحن.. ننتهي إلى هذه النهاية؟!

يحتل اليهود قبلتنا الأولى، ومسرى نبينا، وتتحدانا امرأة عجوز ونحن سبعمائة مليون، وامرأة أخرى تمسك بخناق تسعين الف أسير منا، تسعون ألفا كآساد الشرى... يا أسفى!

ما أشد السقطة على رفيع القدر، عالي المقام!

ولكن هذا ذنبنا، نحن الذين أبعدنا الإسلام عن معركتنا، فأبعدنا بذلك النصر عنا.

إننا ما هزمنا لنقص العدد، فنحن سبعمائه مليون، ولا لنقص المال، فعند المسلمين من الأموال أكثر مما عند اليهود، ولا لقلة السلاح، فعند المسلمين من السلاح أكثر مما عند اليهود، ولا لقلة العلماء، فعند المسلمين من العلماء (بعلوم الكون) أكثر مما عند اليهود، ولكن لقلة الدين.

لقد ضعنا بذلك وأضعنا الشباب، على أن في الشباب بحمد الله.. في الشباب والشابات في الشام ومصر والأردن وغيرها رجعة قوية إلى الإسلام، رجعة من الله ليست بعملنا ولا بجهودنا، رجعة وإن تكن في نطاق ضيق، وفي عدد قليل، لكنها قوية راسخة، وإن كان من المؤسف أن عيوبنا انتقلت إليهم، خلافاتنا، تمسكنا بالفروع قبل الأصول، تفرقنا فرقا، فيا ليت أبنائي وبناتي من الشباب والشابات يعتبرون بنا، ويجتنبون نقائصنا ومعايبنا.

إن هذه المعايب جعلتنا يا أولادي نصير إلى الضياع.

كلمة حق أقولها لكم، والحق يقال ويسمع، ولو كان مراً، نحن يا أولادي لم يبق فينا أمل، نحن الشيوخ (أعني بالسن)، نحن جيل الضياع، جيل الهزيمة، نحن أضعنا فلسطين ونحن سبعمائة مليون، فالأمانة الآن في أعناقكم أنتم، والحمل على عواتقكم، فلا تكونوا مثلنا.

لو أن سبعمائة مليون فأرة، (والعفو من قبح المثال) هجمت على لندن أو نيويورك لهرب منها أهل نيويورك أو لندن، فلماذا لا نصنع شيئاً؟

ما السبب؟

لا أناقش ولا أتفلسف، بل أقرر حقيقة، لو أن ولدك مرض فأخذته إلى طبيب فأعطاه دواء زاده مرضاً، فأخذته إلى آخر فأعطاه الدواء الذي كان فيه الشفاء، أفبعد هذه التجربة مجال لمقال؟

التجربة أصدق برهان، ونحن قد جربنا يوماً إدخال الإسلام إلى المعركة فاستنقذنا به القدس من أيدي جيوش أوروبة كلها بعدما ملكوها أكثر من تسعين سنة.

وجربنا إبعاد الإسلام عن المعركة فأضعنا القدس بعدما كانت في أيدينا ومع

ذلك نجد صعوبة بالغة في إفهام المسلمين هذه الحقيقة الظاهرة أفليس هذا عجيباً؟

قلت في مطلع هذه المقالة أني بدأت أكتب وأخطب من أكثر من خمس وأربعين سنة، فما الذي أثمرته هذه الكتابات وهذه الخطب، وما كتب الكتاب الإسلاميون قبلي كالسيد رشيد رضا، والأمير شكيب أرسلان، وخالي محب الدين الخطيب، والأساتذة فريد وجدي وعبدالعزيز شاويش والغمراوي وغيرهم، ومن جاء معي أو بعدي ممن لا يحصيهم عدد ولا يجهلهم أحد فماذا كان حصاد هذا الجهد كله؟

لقد شهدنا في هذه السنين الخمسين عرى الإسلام تنقض عروة عروة، وصرح الإسلام يهدم حجراً حجراً، وأهل الخير والحق كل يوم إلى ضعف وقلة، وأهل الشر والباطل كل يوم إلى قوة وكثرة.

وكنت أبحث عن السبب، وذكرت ما خطر على بالي من الأسباب، وفي كلها قدرت النقص فينا، والذنب علينا، نحن الدعاة، أو الكتاب والخطباء الإسلاميين، فلم لا يكون النقص فيكم أنتم أيها القراء، والذنب عليكم؟ أو فينا وفيكم معا؟ ونكون مسؤولين جميعاً؟

أضرب لكم مثلا، اسكتوا كلكم قليلاً، هل تسمعون في الغرفة صوتاً؟

إن جو الغرفة التي ترونها ساكنة، كل الأصوات التي تخرج الآن من إذاعات الأرض كلها، إنكم لا تسمعونها، ولكن هاتوا رادا (راديو) فإنه يرد هذه الأصوات عليكم فتسمعونها، فإن كان الراد بلا ذخيرة (بطارية) لم يفدكم- وإن وجد- وكذلك المواعظ، المواعظ موجودة ولكنها تحتاج إلى قلوب، والقلوب لا تفيد إن كانت تحتاج إلى بطاريات فاستحضروا قلوبكم وضعوا لها بطاريات، تستفيدوا من كل ما تقرأون وما تسمعون، ولو كانت الموعظة من مقصر مثلي.

هاهنا السر، وهذا هو السبب في الفشل الذي انتهت إليه دعوتنا خلال هذا الأمد الطويل.

ليس النقص في المواعظ وفي الواعظين، وإن لم تبلغ ولم تبلغوا حد الكمال

ولكن النقص في القلوب الواعية.

اللهم يا من قلوب العباد في يديه، أحي قلوب المسلمين، ولينها وارزقها الانتفاع بالموعظة، اللهم آمين.



خواطر في القرآن

العدد (١١٢) ربيع الآخر (١٣٩٤هـ) - إبريل (١٩٧٤م)

تحت أيدي الناس اليوم أكثر من عشرين مليون كتاب، بجميع الألسن والخطوط، ولو سئلت: أي هذه الكتب أفضل وأكمل، وأجمل وأشمل، لقلت: القرآن.

وكل واحد من قراء هذه المجلة، يجيب بمثل هذا الجواب، لو سئل ذلك السؤال، ما عندي في ذلك شك، ولا عند أحد منهم في الجواب تردد.

ولكني فكرت، هل أقول هذا لأني مسلم آمن به ونشأ عليه، وتعوده حتى صار عنده من البديهيات[١]، أم هو حق في ذاته يقول به كل باحث منصف..؟

وذكرت كيف كان العربي يسمع الآيات من القرآن، فتملك قلبه، وتمسك لبه، حتى تقوده إلى الإسلام كما فعلت بعمر، أو تحمله على الإقرار أنه سحر، وأصل السحر في لسان العرب ما بان أثره، وخفيت علته.

فأخرجت مصحفاً كان معي، (وكنت لما خطرت لي هذه الخواطر في سفر بالطيارة) وجعلت أقرأ، أحاول أن أجد مثل ذلك الشعور الذي وجده عمر المسلم، والوليد الكافر، والذي كان يحس به كل عربي يقرأ القرآن، أو يسمعه.

فماذا كان؟ أقول لكم أم أكتم الأمر عنكم، خجلاً منكم...؟

إني لم أجد ذلك الشعور! حقيقة أقولها بأسف وخجل.

وفكرت مرة ثانية: لم لم أجده؟

ألأني أعرف القرآن وليس جديداً علي، فصار إحساسي به، كإحساسي عندما

---

(١) القياس الصرفي: بدهي، ولكن كلمة بديهي وطبيعي مستعملة من أكثر من ألف سنة، وصقلتها الألسنة والأقلام.

أنظر إلى الكعبة الآن، بعد إقامة أحد عشر عاماً في مكة؟

لقد فقدت تلك الهزة الرائعة التي شعرت بها لما رأيتها أول مرة، وأذهب الإلف روعة المناجاة، أم لأني تعودت أن أقرأ القرآن مسرعاً، أصل الآية بالآية لأبلغ نهاية «الختمة» فلا أتذوقها ولا أتدبرها ولا ألمح إشاراتها ومراميها؟ نعم، هذا هو السبب، إن قراءتي القرآن مثل سفري من مكة إلى جدة، همي وهم السائق أن أصل في خمسين دقيقة. لا أرى من الطريق شيئاً، إلا بيوتاً متناثرة في «بحرة» أو «حداء». وفضاء يرحب أو يضيق، وجبالاً تعلو أو تنخفض، وتدنو أو تبعد.

ولو سئلت ما شكل هذه البيوت؟ وماذا فيها من أناس ومن فرش؟ وما في هذا الفضاء من تراب ورمل؟ ما تركيبه؟ وما في هذه الجبال من صخور؟ ما نوعها؟ لما عرفت؛ لأني لم أتنبه لها، ولم أسأل عنها.

ولكن البعثة الجيولوجية(١) التي تجيء للكشف والتحري، وتمضي على الطريق خمسين يوماً بدلاً من خمسين دقيقة، تعرف هذا كله، وتقدم تقريراً عنه.

هذا هو مثال تلاوتنا وتلاوة الصحابة. نحن نكمل الختمة في يوم أو يومين ولا نفهم شيئا، ومن الصحابة من كان يمضي في دراسة السورة الواحدة سنين، ولكنه يتدبر ويعي، ويعمل بما تدبره ووعاه.

فهذه السرعة، وما يقابلها من انصراف الأذهان عند سماع القرآن، للصوت والألحان، وظن كثير ممن يسمون بالقراء، أن القرآن ليس إلا كلاماً معداً للتلحين ككلمات الأغاني، وتنافسهم على إجادة تلحينه والتصرف في أنغامه واتخاذنا القرآن مجرد شعار تفتتح به الحفلات، هذا كله وأمثاله هو الذي حجز بيني وبين التنبه إلى أسرار القرآن، وحرمني من الشعور بروعته، وقد كان يشعر بها كل عربي يسمعه ولو كان كافراً.

ما تبدل القرآن، بل تبدلت الألسنة التي تقرأ، والآذان التي تسمع، والقلوب التي تعي.

---

(١) جي: أرض، ولوجي: علم باليونانية القديمة والواو للتركيب كما يقولون مثلاً (فرانكو آراب).

إننا نقرأ القرآن بلا فهم، أو نطرب له بلا خشوع، أو نتخذه وسيلة لـ «الشحادة» على أبواب المساجد فلا يحق لنا (لا لي ولا لغيري) أن يتخذ من الشعور الذي يشعر به ميزاناً لتقويم[١] القرآن، فلندع الشعور إلى العقل.

ولنتصور لو أن رجلاً مثلي يقرأ (كما أقرأ) ما معدله أكثر من مئة صفحة في اليوم، من أكثر من خمسين سنة. حتى اطلع على جانب كبير من المعارف البشرية، وكان منصفاً ولو كان غير مسلم، وسئل السؤال الذي استهللت به المقال، فبماذا يجيب؟.

إنه ينظر فيرى أن البشرية شهدت كتباً عالمية، كان لها الأثر البالغ في الناس. أو في جمهور كبير من الناس.

منها ما نزل من السماء فحرفه البشر، كالكتاب الذي يدعى اليوم بـ «الكتاب المقدس» ومنها ما هو أرضي قدسه أتباعه، كالفيدا «vedas» الهندية، والأفستا «avesta» الفارسية المنسوبة إلى زراداشت، ومكتوبات كونفوشيوس (وأصل اسمه بالصينية: كونغ فوتس).

ومنها كتب أدبية كإلياذة هوميروس، ومسرحيات شكسبير وموليير ولافونتين وخطب فيخته «fichto» الألماني.

ومنها كتب فلسفية أو علمية كجمهورية أفلاطون ومحاورات سقراط وكتب أرسطو وخطبة المنهج لديكارت ونقد العقل لكانت، والتطور المبدع لهنري بركسون، والإنسان ذلك المجهول لكاريل، ونسبية آنشتاين.

وما كتب دارون، وفرويد، ودوركايم، ومكيافيلي، ثم هيجل وماركس وغيرها من أمثالها، فأنا إنما أُجْمِل وأمَثِّل، لا أستقصي وأفصل - ولم أذكر كتب المسلمين لسببين:

الأول: أني أحاول أن أفكر بعقل باحث منصف غير مسلم وغير متعصب لدين أو مذهب يمنعه من الإنصاف.

والثاني: أن كتب المسلمين كلها، متأثرة (من قريب أو بعيد) بالقرآن، فهي

---

(١) تقويم بالواو، أما تقييم فلا صحة لها، وإذا ظنوا أنها من «القيمة» فإن قيمة أصلها «قومة».

كالفرع عنه وأنا أتكلم هنا عن القرآن، فكيف أحتج بالفرع للأصل، وأقبل شهادة الولد للوالد؟

أقول: لو جاء هذا الباحث النزيه يوازن بين هذه الكتب وبين القرآن فماذا يجد؟

يجد أن المثل العليا للبشرية، والغايات القصوى للمعارف وللمشاعر الإنسانية، هي الحق والخير والجمال.

وهذه الكتب منها ما يبحث عن الحق، بوساطة الفكر، ولكنه لا يعنى بالجمال ولا يفتش عن الخير، ومنها ما يفتش عن الجمال من طريق الذوق، بوساطة العاطفة، ولكنه لا يهتم بالخير ولا بالحق.

أي أن منها كتباً في العلم وحده وكتباً في الأدب فقط وكتباً في الأخلاق وفلسفتها، ويجد أن منها ما هو مخالف لفطرة البشر، وطبيعة تكوينهم، والفطرة تأبى ما يخالفها، كالكتاب الذي يقبح الغنى لأهله، ويقول «لا يدخل الغني ملكوت السموات» والإنسان مفطور على حب المال ويزين لهم التبتل والرهبانية، والإنسان مغروز فيه «غريزة» الميل إلى الزواج. ويقول: «من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر» والإنسان مجبول على دفع الأذى والرغبة في الانتقام.

والكتاب الذي يحاول أن يمحو الفرد ليثبت بزعمه المجموع، ويحرمه الربح ويكلفه الجد في العمل. ويريد أن يطمس عقله فلا يفكر به، بل بعقل طبقته. ويجعل الناس طبقات يجمعها الحرب والخصام لا الصلح والوئام. ويقول: بخرافة «حتمية التاريخ» مع أن التاريخ ليس إلا الرواية والتعليل لما كان، لا التحكم فيما سيكون، كما يهذي به الماركسيون.

ويجدُ كُتبَ الفكر والعلم - تبلى على الأيام جدتها- وتنقص قيمتها، فلا يبقى لها إلا مزية السبق الزمني حتى أن طالب الجامعة يعرف اليوم من الطب أكثر مما كان يعرف بقراط (أبيوقراط)، ومن الهندسة أكثر من إقليدس، ومن الفلك أكثر من كوبرنيك، ومن الكيمياء أكثر من لافوازيه.

وكتب الأدب يتبدل نظر الناس إليها، وتقديرهم إياها، بتبدل الأذواق، وتباين

العصور، وإن كانت أثبت (في الجملة) وأبقى من كتب العلم.

وكتب الأخلاق، تختلف أسسها، وتتعدد نظرياتها.

ويجد أن منها ما يظهر خطؤه فتخبو ناره، وتنطفئ أنواره، كآراء فرويد، ونظرية دارون، ومنها ما ينكشف لأتباعه، «عند التطبيق» ما فيه من ضرر بالغ، ونتائج مدمرة، فضلاً عن تعذر تطبيقه كاملاً، ككتاب «رأس المال» و«الميثاق» لماركس.

فإذا تركها ونظر إلى القرآن، فماذا يجد؟

يجد القرآن (أولاً) قد أحاط وحده بالمثل العليا كلها: الحق والخير والجمال، فكان كتاب علم ولكنه لا يفرض نظريات، ولا يسرد قوانين، بل يوجه الناس إلى إعمال عقولهم في فهم أسرار الحياة الدنيا ويؤكد لهم أن لهذه الحياة سنناً محكمة، وقوانين ثابتة، ويشير (بمقدار ما يفهم المجتمع الذي سمع القرآن أول مرة) إلى بعض هذه القوانين والسنن، ويدعوهم إلى اكتشافها في أنفسهم: في أجسادهم وعواطفهم، وفي الحيوانات من حولهم: الإبل والأنعام، وفي النباتات كيف تتجرد وتكسى وتموت في الشتاء ثم تحيا، وفي الأرض وما فيها، والسموات وما يرى منها. ويخبرهم أن كل شيء في الكون محدد المقادير. قائم على نسب مضبوطة، وعلاقات ثابتة. وأن الذي أوتوه من العلم بها قليل وأنه سيخلق ما لا يعلمون، ويعطي من يأتي من البشر من المعرفة بالكون ما لا يعرفون.

والقرآن يشير دائماً إلى قوانين الطبيعة التي طبعها الله، وينبه أتباعه إلى استثمار كل ما فيها وإلى أنه سخره لنا لننتفع به، إذا أعملنا عقولنا وأفكارنا، ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ (الجاثية: ١٣) وليس هذا التسخير لمجرد الانتفاع بها في هذه الحياة المؤقتة بل لتكون علامات وآيات نستدل بها على طريق الانتفاع الحقيقي، في الحياة الأخرى الدائمة: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝١٣﴾ (الجاثية: ١٣).

فمن أهمل عقله من المسلمين قَصَّر، ولم يدرك هذه الآيات، ومن انتفع بها ونسي خالقها وموجدها، كان جاحداً للمعروف- أتستفيد من الهدية وتنكر حق

مهديها؟ هذا ما يفعله أتباع هذه الوثنية الجديدة. وثنية العلم، الذين يكتشفون بعقولهم التي هي عطية الله القوانين الطبيعية التي وضعها الله، ثم لا يشكرون الله، بل ربما أنكروه وجحدوه!!

ومن انتفع منها النفع الذي وضعه الله فيها، وشكره عليها، كان مؤمنا عاقلاً، ومن عظمها لذاتها، وترك النفع الذي وضع فيها، كان أحمق جاهلاً، كمن يحفظ الثوب، ينظفه ويمسحه ولا يلبسه لدفع برد ولا حر، ولا لستر ولا لتجمل، ومن يجمع المال ويعده ويحبسه، ولا ينفق منه على نفسه ولا على أهله، ولا يشتري به أخرى، لذلك ورد «تعس عبد الدينار تعس عبد الخميصة» أي الثوب.

* * *

وهو كتاب عقائد ولكنها ليست فصولاً متسلسلة تشغل القلب بالعقيدة، وتصرفه عن إعمال العقل، وتذوق الجمال، بل هي آيات تقرر العقيدة من خلال التفكر في المخلوق وتأمل جماله للاستدلال به على خالقه.

وهو كتاب تشريع ولكنه ليس كمجموعة جوستينيان مثلاً نصوصاً وأحكاما تبين الأحكام فقط بل هو يصلها بالعقيدة، ويربطها بالخالق، حتى عندما يحدد حصص الورثة في التركة، أو أسلوب التوثيق عند الكاتب العدل.

وهو كتاب تاريخ ولكنه لا يجمع أطراف القصة من قصص الأنبياء ويسردها سرداً متصل الحلقات بل يأخذ منها في كل موطن جانباً يعرضه، للاعتبار به، فهو يحرص على الاستفادة من الخبر، لا على الإحاطة بالخبر.

ولعل حكمة هذا المزج بين القصص والعبرة، وتكرير القصة على صور مختلفة، وفي مواضع متعددة، هي (والله أعلم) أن مستقر العقيدة هو العقل الباطن[١]. وهذا الأسلوب في التلقين والإيحاء، غير المباشر، يوصل إليه رأساً لاسيما إذا اقترن بالتكرار، وقد تنبه لهذا المربون من الأجانب وأطالوا البحث فيه، واستعملوه في تلقين المبادئ التي يريدون الشباب عليها.

ولو كانت القصة معروضة عرضاً مدرسياً، يخاطب العقل الواعي لحفظتها

(١) راجع كتابي «تعريف عام بدين الإسلام».

«الذاكرة» لتقدمها إلى العقل عند الطلب فيعمل فيها، مناقشة وبحثاً وتشكيكاً، ثم تنساها على مر الأيام، كما ينسى التلميذ إذا كبر دروس المدرسة التي وعاها وامتحن فيها، ولكنه لا ينسى توجيهات المدرس، التي تجيء عفواً، وإني لأذكر الآن، والله، من هذه التوجيهات العارضة، أشياء سمعتها في المدرسة خلال أيام الحرب العالمية الأولى.

وقد ظن قوم ضلوا وزلوا، أن قصص الأنبياء في القرآن، كقصص الأدباء من أمثال إسكندر دوماس وشارلز دكنز، يراد بها العبرة ولا يحرص فيها على الحق[١] وهذا كلام باطل وجميع تلكم الكتب (إلا ما كان سماوياً وبقي كما نزل)، مهما سما فيها الفكر، ومهما رقت فيها العاطفة، كتب أرضية منبثقة من حياة الإنسان على هذه الأرض، محدود ما فيها بحدود هذه الحياة لا تعرف ما قبلها، ولا ما بعدها، لا تعرض له ولا تشير إليه، إلا بأصابع الخيال الذي لا تدعمه حقيقة، أو التوهم الذي لا يسنده دليل، والقرآن يشمل موضوعه ما قبل هذه الدنيا، وما بعدها، ويخبرنا معشر البشر (ولم نكن لنعلم لولا أن علمنا): من أين جئنا، ما أصلنا وإلى أين نمضي، وما مصيرنا.

فإن نظرنا إلى الموضوع، وجدنا القرآن وحده من بين تلك الكتب جميعاً هو الذي يحوي الدستور الكامل، للحياة الفردية والجماعية، الجسدية والروحية، ولحياة المجتمع المالية والاجتماعية والأخلاقية، والحكومية، حياته هذه القصيرة على الأرض، وحياته المقبلة في الآخرة.

بل إن من عجائب القرآن، أن هذا الدستور قد أجمل في أربع عشرة كلمة فقط، نعم أربع عشرة كلمة هي: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ

(١) منهم خلف الله في أطروحته التي طلب بها شهادة الدكتورية، وكنت تلك السنة (١٩٤٧م) مقيما في مصر موفدا من وزارة العدل في الشام إلى إدارة التشريع في مصر، وكنت أشرف على مجلة «الرسالة» لمرض صاحبها الأستاذ الزيات رحمه الله، فأثرتها عليه حربا تطاير شررها وانتشر خبرها، ووصلت إلى القضاء في دعوى أقامها علي الشيخ أمين الخولي، وكانت النتيجة أن رفضت الأطروحة تلك السنة، ومن رجع إلى مجلة «الرسالة» لسنة ١٩٤٧ وجد تفصيل الخبر.

ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ .

يبدأ بالتذكير بحقيقة نعرفها ونوقن بها، ولكننا قد ننساها، هي أن رأس المال للإنسان، عمره، فكلما مر عليه يوم خسر منه يوماً، حتى تجيء ساعة الموت فيكون الخسر الكامل، لهذا أقسم بالعصر (أي الزمان) لا تعظيماً له كما يقسم البشر، بل للتنبيه إليه.

نخسر بالموت لأننا نترك كل شيء ونمضي. ولكن منا من لا يشمله هذا الخسر، هو الذي يحمل معه من خيرات هذه الدنيا ما ينتفع به في الآخرة، أولئك هم ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ثم يضع لنا المنهج العام للمبدأ وللتطبيق، للفرد في نفسه وللجماعة فيما بينها، فالمبادئ منها ما هو حق وما هو باطل، فالمؤمن يتمسك بـ «الحق»، والمتمسكون بالمبدأ الحق منهم من لا يصبر على مشاق التطبيق، فالمؤمن يحرص على «الصبر» عليها، حتى يطبقه تطبيقاً كاملاً.

ثم لا يكتفي كل واحد بنفسه، بل يتعاونون عليها و«يتواصون بها»(١) فيصلح الأفراد ويصلح بهم المجتمع.

هذا من حيث مجموعه، ومن حيث موضوعه.

أما أسلوبه فأسلوب مفرد، ليس في كل ما عرف البشر من كتب كتاب آخر له مثل هذا الأسلوب الذي جاء جديداً، وبقي جديداً، لأنه لم يقلد ولم يحتذ، ولم ينسج أحد على نوله، والقرآن يدور كله على وصل الإنسان الفاني بالله الباقي، بتوحيده وتذكره، وتجنب إشراك غيره في الألوهية معه، أو توجيه العبادة إلى سواه وعلى وصل هذه الحياة الفانية بالحياة «الآخرة» الباقية بالإيمان بها، والاستعداد لها، والعمل على ما ينفع فيها.

ولكنه لا يفصل بين الدين والدنيا، كما يفعل أتباع الديانات الأخرى(٢) إذ يجعلون من الناس «رجال دين» يسلكون طريق الدين، ورجال دنيا أي رجال علم وسياسة ومال، فكل مسلم بنظر القرآن رجل دين مادام متمسكاً به، قائماً بواجباته

---

(١) لي تفسير مفصل لهذه السورة هذه خلاصته. أذعته في رمضان من عام ١٩٦٠ من إذاعة دمشق.

(٢) ودين الحق واحد: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾.

ومبتعداً عن محرماته، ورجل دنيا ما دام يبتغي فيها (من الحلال وحده)، العز والقوة والمال، ويقوم فيها بجلائل الأعمال.

وإذا كان طريق الدنيا وطريق الآخرة عندهم، كطريق قطر وطريق العراق للساكن في الكويت مثلاً، فمثالهما في القرآن كطريق العراق وطريق اسطنبول[١]، لا يختلفان بالاتجاه بل بالامتداد، فطالب الدنيا يقف عندها، ولا يجاوزها، وطالب الآخرة يتخذ الدنيا محطة في طريقه إليها يتزود منها لها.

هذه مقاصد القرآن، ولكنه خلال ذلك، يلم بكل ما يحتاج إليه الإنسان من أدوات توصله، إلى الكمال «الممكن» في الفكر والجسد والعاطفة والخلق الكريم، يمزجها مزجاً مفرداً، بأسلوب هو الغاية في الجمال فتصل به إلى منطقة اللاشعور (inconseience) أي العقل الباطن، حتى إذا استقرت فيها، ظهر أثرها في فكر الإنسان وعاطفته وسلوكه، ومجموع أعماله، لذلك «وبذلك» بدل الإسلام العرب، حتى ولدوا به في التاريخ ولادة أخرى، وخذوا مثالاً على ذلك عمر، وتصوروا ماذا بلغ لما أسلم، وماذا كان لو لم يسلم[٢].

ما فرط القرآن في شيء، ولكن ليس معنى هذا أن فيه حل تمرينات الحساب في دفتر التلميذ، وإعراب أبيات الاختبار في كتاب القواعد، وبيان عدد جبال البرازيل وطول أنهار فرنسا، القرآن لا يقدم إليك صندوق التفاح، بل يعطيك الأرض والخبرة التي تملك بها شجرة التفاح، لا يذكر لك قوانين الفيزياء بل يمنحك العقل ويرشدك إلى استعماله في معرفة قوانين الفيزياء، والفرنسيون يقولون في أمثالهم: «من أهديت إليه سمكة أشبعته يوماً، ومن تعلمه صيد السمك تشبعه كل يوم».

القرآن يدعو للتدبر والتفكر وإعمال العقل، في فهم آيات القرآن، وفي معرفة أسرار الأكوان، خبرنا بأنه وضع لكل شيء قانوناً، وأعطانا أبصاراً وعقولاً،

---

(١) أصلها «إسلام بول» أي «بلد الإسلام» سماها بذلك السلطان محمد الفاتح رحمه الله.

(٢) لي كتاب كبير عن عمر جمعت فيه أخباره كلها مع ذكر مصادره بالجزء والصفحة طبع سنة ١٩٣٥ ثم عدلته وسميته أخبار عمر طبع سنة ١٩٥٩ ولا يزال يطبع.

وقال لنا: ﴿ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ (يونس: ١٠١). أنزل لكل داء دواء وقال، ابحثوا عن الدواء للداء، اكشفوا سنن الله وقوانينه في هذه الدنيا، واعرفوا «الطبيعة» التي طبعها عليها.

علم المسلم قبول التحدي والمناظرة العقلية والخضوع للبرهان القاطع، وأن نكلف الخصوم إبراز دليلهم إن كان لهم دليل ﴿قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ (البقرة: ١١١) لأن الدعوى بلا برهان حقها الرفض.

وأن نقول الحق ولو على أنفسنا، أي أن نخضع رغباتنا وشهواتنا، وآلامنا ولذاتنا لحكم الحق.

والقرآن يعلل أحكامه وأوامره، في العقائد الأساسية التي هي من البديهيات[1] ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ (الأنبياء: ٢٢) وفي الشرائع ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ﴾ (النساء: ٣).

ويشير إلى القوانين الاجتماعية، إشارته إلى القوانين الطبيعية، وإلى أنها من سنن الله الثابتة ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ١٣٧﴾ (آل عمران: ١٣٧).

هذا قانون إلهي اجتماعي: الذين يكذبون الحق، ويرفضونه، ويسلكون غير سبيله تكون عاقبتهم الهلاك ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ٢٠٥﴾ (البقرة: ٢٠٥) وهذا أيضاً قانون.

ويمنع الاعتقاد بالخرافات، أي النتائج المتوهمة، لمقدمات غير مسلمة، أي ما ينافي التفكير العلمي من الاعتماد على المصادفات، كالاستقسام بالأزلام، والأوهام كالبحيرة والسائبة، وتصديق الدجالين من المشعوذين، واتخاذ أسباب لا تؤدي بطبيعتها إلى المسببات، كالحجب والتمائم، فهو بذلك يحرر الإنسان من عبودية الخرافات.

ويجعل المؤمن لا يصدق إلا بأحد اثنين: بما ثبت لديه ثبوتاً عقلياً مستنداً إلى الحس الصحيح، أو التجربة المضطردة. وبما جاء به الخبر اليقيني.

---

(١) انظر كتابي «تعريف عام بدين الإسلام».

فهو دستور، ودستور الدولة في المادة يحدد الحدود العامة، ويبين الأهداف الكبرى ولكن لا يدخل في التفصيلات إلا في حالات خاصة لها ما يدعو إلى إدخالها في الدستور، فالدستور ينص على أن اللغة الرسمية للدولة هي العربية مثلاً، وعلى وجوب الاعتناء بها، لكن لا يشرح عمل اسم الفاعل والصفة المشبهة. وعلى أن القضاء مستقل، ولكن لا يحدد مدد التبليغ وطريقة التنفيذ وكذلك القرآن قال لنا: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِۚ﴾ (النساء: ٣٨) وترك لنا اختيار الطرق والأساليب للوصول إلى تحقيق العدل.

* * *

٩ مقالات

الشيخ نديم الجسر

❑ ترجمة الشيخ.

❑ المقالات:

١- شبابنا المثقف أمام الإيمان والتدين.

العدد (٧) رجب (١٣٨٥هـ)، نوفمبر (١٩٦٥م).

٢- الإيمان ضرورة إنسانية.

العدد (١٤) صفر (١٣٨٦هـ)، مايو (١٩٦٦م).

٣- نحن والشباب المثقف.

العدد (٢١) رمضان (١٣٨٦هـ)، ديسمبر (١٩٦٦م).

٤- وتحسبونه هيناً.

العدد (٢٩) جمادى الأولى(١٣٨٧هـ)، أغسطس (١٩٦٧م).

٥- ركائز التفكير الإسلامي (١).

العدد (٣٢) شعبان (١٣٨٧هـ)، نوفمبر (١٩٦٧م).

٦- ركائز التفكير الإسلامي (٢).

العدد (٣٤) شوال (١٣٨٧هـ)، يناير (١٩٦٨م).

٧- حول مؤتمر القمة.

العدد (٣٧) محرم (١٣٨٨هـ)، مارس (١٩٦٨م).

٨- بشائر عن معركة المصير (١).

العدد (٤٨) ذو الحجة (١٣٨٨هـ)، فبراير (١٩٦٩م).

٩ مقالات

الشيخ نديم الجسر

٩- بشائر عن معركة المصير (٢).

العدد (٥٠) صفر (١٣٨٩هـ)، إبريل (١٩٦٩م).

١٠- ما وجدت لتبقى.

العدد (٨٩) جمادى الأولى (١٣٩٢هـ)، يونيو (١٩٧٢م).



ترجمة الكاتب

الشيخ نديم الجسر

رَحِمَهُ اللَّهُ

(١٨٩٧ـ ١٩٨٠م)

● **حياته**

هو نديم بن حسين بن محمد بن مصطفى الجسر. ولد بطرابلس عام ١٨٩٧م، لأسرة مصرية الأصل، تلقى علومه الأولى على يد والده الشيخ **حسين الجسر** الذي كان عالماً مؤسساً للمدرسة الوطنية، ومحرراً في جريدة طرابلس، ثم كفله شقيقه الشيخ محمد الجسر الذي كان نائباً عن المدينة ويعتبر من أبرز رجال السياسة في طرابلس.

أنهى الشيخ نديم دراسته في حمص بسوريا، ثم أكملها في بيروت وبعدها التحق بالعمل في سلك القضاء. استُدعي إلى الخدمة العسكرية الإجبارية، في الجيش العثماني عام ١٩١٦م وخدم في الحجاز والسويس حيث وقع أسيراً بيد القوات الإنجليزية التي سجنته في القاهرة ولم يخرج إلا بعد وساطة من الشريف حسين، ثم عاد إلى طرابلس وعمل كاتباً في سراي المدينة عام ١٩٢٢م ثم عينه المفوض السامي كاتباً في المحكمة، ثم رقي إلى رئيس قلم، إلى أن عين قاضياً ثم مدعياً عاماً.

وبعد وفاة أخيه الشيخ محمد الذي ترشح لرئاسة الجمهورية اللبنانية، استقال الشيخ نديم وتعمم جرياً على التقليد العائلي وحفاظاً على مركز العائلة الديني وتمسكها بدورها القيادي في المدينة. انصرف إلى التدريس في جامع طينال.

ثم ترشح للانتخابات وفاز بمقعد في البرلمان عام ١٩٥٧م، وعلى إثر وفاة مفتي طرابلس الشيخ كاظم ميقاتي، تم انتخاب الشيخ نديم مفتياً للمدينة.

- **عمله**

تولى الشيخ رحمه الله عدة مناصب منها:

مستشار بمحكمة الاستئناف.

عضو بمجلس العدل والقضاء الشرعي.

عضو بمجلس النواب اللبناني عام ١٩٥٧م.

مفتي شمال لبنان وعضو مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر.

- **مؤلفاته**

للشيخ رحمه الله العديد من المؤلفات منها:

شرح قانون الجزاء.

الموجز في الفلسفة العربية.

قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن.

فلسفة الحرية في الإسلام.

أرجوزة في علم المواريث.

الإسلام في العالم المعاصر.

القرآن والسنة في التربية الإسلامية.

شبابنا المثقف أمام الإيمان والتدين.

ركائز التفكير الإسلامي.

قانون السببية عند الغزالي.

ألفية الجسر في علم أصول الفقه.

- **وفاته**

توفي الشيخ نديم الجسر عام ١٩٨٠م وصلي عليه في طرابلس ودفن فيها بعد حياة حافلة بالأنشطة الدينية والسياسية.



شبابنا المثقف أمام الإيمان والتدين(١)

العدد (٧) رجب (١٣٨٥هـ)، نوفمبر (١٩٦٥م).

نحن أمام ظاهرة اجتماعية خطيرة يشكو منها العالم الإسلامي بأسره، هي أن أكثر شبابنا المثقف بالثقافة العلمية العالية هم أقرب إلى الإلحاد، وأن القلة المؤمنين منهم أميل إلى إهمال العبادات والشعائر. هذه الظاهرة بدأت مع عصر النهضة العلمية في بلاد العرب والإسلام، وأخذت تزداد خطراً كلما ازدادت النهضة انتشاراً وازدهاراً، وقد منيت بالفشل كل المحاولات التي قام بها المصلحون في سبيل معالجتها.

ولكي نتوصل إلى دراسة صحيحة لأسباب هذه الظاهرة المزدوجة المتجلية بالإلحاد وإهمال الشعائر، علينا أن ندرس شخصية شبابنا، والمحيط الذي يعيشون فيه، والأفكار التي تغزو عقولهم، فشبابنا في عقله وجسده وميوله وأخلاقه يقف حائراً مرتبكاً بين عدة تيارات: سلطان العقل. أوهام العقل، سلطان العلم. أوهام العلم.

سلطان الجهل بحقيقة الإسلام، عدوى الملحدين. كيد المستعمرين. أخطاء المستشرقين والمؤرخين. العقد النفسية. فساد المحيط.

هذه أسباب ظاهرتنا الغريبة، نراها كثيرة معقدة ومتشابكة، منها الخارجي، ومنها الداخلي المحلي، ومنها العقلي، ومنها النفساني، ومنها الذي يستشري في قطر أكثر من قطر آخر، ومن كل هذا التعقيد والتشابك والتنوع والظهور والخفاء - كان الفشل في العلاج، فما لم نقنع شبابنا بأن الإيمان بالله هو من أصدق وأوجب

(١) ملخص البحث الذي ألقاه فضيلته في المؤتمر الثاني لمجمع البحوث الإسلامية الذي انعقد بالقاهرة في شهر المحرم الماضي، وقام بالتلخيص مندوب المجلة في القاهرة.

أحكام العقل، وما لم نقنعهم بأن قضايا الدين لا تتناقض مع العقل ولا مع العلم لن يكونوا مؤمنين، وما لم نيسر لهم التربية الصالحة، والمعرفة الميسرة والقدوة الكريمة لن يكونوا عاملين .

• سلطان العقل في الإسلام

إن مزية الإسلام هو أنه قد جعل للعقل السلطان الأعلى في فهم النصوص المنزلة . .

هذا العقل الذي أمرنا الله في آيات كثيرة من القرآن أمراً قاطعاً أن نحتكم إليه عند جدلنا مع أنفسنا في معركة الشك - واليقين، وعند جدلنا مع غيرنا من الملحدين والمشركين، يشمل بسلطانه كل معنى في الوجود، ابتداء من أبسط الأمور، كإماطة الأذى عن الطريق إلى أعظم معنى في الوجود وهو الألوهية والوحدانية، وليس في الإسلام إيمان يتناقض مع العقل ولا نص يتناقض مع العقل، فكل نص يوجب ظاهره تناقضاً عقلياً في الذهن يتحتم علينا تأويله تأويلاً يرتفع به التناقض العقلي.

• أوهام التعقل

لابد لي قبل أن أضرب الأمثلة على سلطان العقل في قضايا الإيمان والدين أن أكشف النقاب عن أوهام التعقل مبيناً الفرق:

١ - بين المستحيل العقلي والمستحيل العادي.

٢- استحالة التعقل وصعوبة التصور.

٣- بين حكم عقلي عام تتفق عليه كل العقول السليمة، وبين نظرة فردية خالصة تختلف بشأنها العقول السليمة.

٤- بين الحقائق العلمية والمقطوع نهائياً بصحتها، والآراء العلمية غير المقطوع نهائياً بصحتها، والتي تبزغ وتظهر على مسرح التفكير حقبة من الزمن ثم تخبو إلى الأبد.

إن الخلط بين هذه الحقائق والفوارق هو من أوهام التعقل التي يقع في أغاليطها كثير من الناس، حتى المثقفون بأعلى الثقافات، فمن الواجب على

الشاب الذي يدخل في جدل مع نفسه، أو غيره، حول أية قضية دينية أن يقف تمام الوقوف على هذه الفوارق كي لا يقع في أوهام التعقل.

فالمستحيل العقلي هو الذي يوجب تصور وجوده أو تصور عدمه تناقضاً عقلياً في الذهن كقولنا: الواحد نصف الثلاثة أو الجزء أكبر من الكل. أما المستحيل العادي: فلا يوجب تصور حصوله أو عدم حصوله تناقضاً عقلياً في الذهن ولكن جرت العادة أن نعده مستحيلاً في العادة: كخرق النواميس الكونية بالمعجزات الإلهية. كذلك نقول عن الفرق بين استحالة تعقل الشيء وبين صعوبة تصوره: كم من حقيقة يمكن تعقلها ولكن يصعب على الذهن تصورها: كعدد ذبذبات الصوت التي أثبت العلم أنها قد تبلغ بالحساب الدقيق القاطع إلى نصف مليون ذبذبة في الثانية فيمكن تعقل هذه الحقيقة ولكن لا يمكن تصورها مطلقاً في الذهن لأننا مهما جمعنا خيالنا وركزنا لا نستطيع أن نتصور أن ثانية من الزمن تتسع لنصف مليون ذبذبة ولكن يجب ألا تحملنا صعوبة التصور على القول باستحالة التعقل، فما كل شيء يصعب تصوره يكون مستحيلاً عقلاً ولا كل معقول يسهل تصوره.

كذلك نقول عن الفرق بين النظر العقلي العام الذي تتفق على صحته كل العقول السليمة بلا خلاف وبين النظرة الخاصة التي تختلف فيها العقول. فلا يقولن الشاب أثناء الجدل العقلي على قضية من قضايا الدين: هذا رأيي وهذا عقلي لأننا نقول له: عقلك وحدك ليس حجة على الحكم الصحيح، ولكن اتفاق كل العقول هو الحجة.

كذلك نقول عن الفرق بين الحقائق العلمية المقطوع عقلياً ونهائياً بصحتها، وبين الآراء والنظريات العلمية الظنية المرجحة التي لم يقم دليل قاطع على صحتها ويحتمل أن تظهر أدلة جديدة تنفي صحتها وتوجب بطلانها، والأمثلة كثيرة: كروية الأرض، حركة الشمس، الجاذبية الكهربائية، أوهام التاريخ التي تلبس ثوب الحقيقة القاطعة، فعلى الشباب ألا يبنوا آراءهم النهائية وجدلهم في إنكار القضايا والأخبار الدينية على أساس آراء علمية خاطئة أو ناقصة، يظنونها حقائق علمية ثم يظهر لهم بعد ذلك أن هذا الأساس الذي بنوا عليه جدلهم

وجحودهم وإلحادهم، هو أساس باطل، تعبوا في البناء عليه، ثم لما ظهر الحق خر البناء من القواعد.

● أمثلة على سلطان العقل في الإسلام

١- قضية وجود الله الخالق لهذا الكون: هي حقيقة ذكرتها الكتب المنزلة، وعند عرضها على العاقل، نجد أن إقرارها لا يشكل تناقضاً عقلياً، بل إنكارها هو الذي يشكل تناقضاً عقلياً، لأنه يجعل العالم الممكن الحادث المعلول موجوداً، بغير علة ولا فاعل، وهذا مستحيل يشكل تناقضاً عقلياً فاضحاً، أو يجعل المعلول عين العلة، هذا أيضاً مستحيل يشكل تناقضاً عقلياً فاضحاً، وعن هذين المستحيلين عبر القرآن بقوله: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ (الطور: ٣٥).

٢- والوحدانية حقيقة ذكرتها كل الكتب السماوية: وعند عرضها على العقل نجد أن إقرارها لا يوجد تناقضاً عقلياً بل القول بتعدد الآلهة هو الذي يشكل تناقضاً عقلياً.

٣- قضية المعجزات التي ذكرتها الكتب السماوية: وعند عرضها على العقل لا نجد أن تصور حصولها يوجب تناقضاً عقلياً، بل ادعاء استحالتها استحالة عقلية لا عادية، هو الذي يوجب تناقضاً عقلياً عند من يؤمن بأن الله هو خالق الكون وخالق النواميس، لأن المعجزات هي خرق النواميس الكونية، وهذا الخرق مستحيل في العادة ولكنه غير مستحيل عقلاً لأن الذي خلق النواميس قادر على خرقها، ونحن نستنكر تفسير المعجزات الإلهية تفسيراً علمياً لأن هذا التفسير يفقد المعجزة معناها ويرد الشباب المثقف الذي نريد حمله على تصديق المعجزة إلى نكسة عقلية في معجزات يستحيل تفسيرها على أساس علمي.

٤- قضية البعث التي ذكرها وأكدها القرآن: عند عرضها على العقل لا نجد أن تصور حصول البعث يوجب تناقضاً عقلياً، بل القول باستحالة حصول البعث هو الذي يوجب تناقضاً عقلياً، لأن البعث هو خلق جديد، والذي خلق الإنسان أول مرة قادر على إعادة خلقه بل هو أهون عليه.

● **تيسير الفهم والتفهم**

إن تيسير فهم النصوص، وفهم حكمة أحكام الدين، له أثر كبير في جذب الشباب المثقف نحو القيام بالعبادات والشعائر، وشبابنا مسدودة في وجوههم أسباب هذا التيسير للفهم من كل النواحي: في البيت، في المدرسة، بالكتب الضخمة التي يجفل الشباب من مجرد رؤيتها بل يعسر فهمها حتى على بعض علماء الدين، ومسدودة بجمود كثير من المسلمين المرشدين الذي يقابلون كل سؤال بغضبة، وكل استفهام بلعنة، وكل بحث عن المعقول بالتكفير، وأضرب على عدم تيسير الفهم مثلاً بسيطاً: فهذا القرآن الذي يخاطب العرب بقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢﴾ (يوسف: ٢).

فيه أكثر من ألف كلمة عربية لا يعرف شبابنا المثقف معناها اللغوي، وهو يسمعها في كل يوم وليلة من الإذاعات فكيف الحال مع غير العرب؟

يجب أن نضع بين أيدي الشباب كتباً دينية واضحة سهلة جذابة وأن نقيم على تعليمهم في المعاهد أساتذة يحسنون الفهم والتفهيم، ويدركون أساليب التربية الفنية، ولهم صدور واسعة، وعقول نيرة، وثقافات تتناسب مع ثقافة الشباب المعاصر.

● **المثقفون والخرافات**

ومن أعظم ما ينفر الشباب المثقف من الدين تلك البدع والشوائب والخرافات التي ألصقت بالإسلام وهو براء منها، وليس أدل على بعد الإسلام وترفعه عنها من هدي القرآن والسنة الصحيحة، وهما المنبعان الأصيلان للتشريع فإذا تصفح الشباب القرآن وجدوا أنه في كل سورة بل في كل صفحة يعلي كلمة الحق، ويجعل العقل إليه هادياً والعمل عليه دليلاً، والعلماء عليه شهداء، ويحذر من الظن الذي لا يغني عن الحق شيئاً، ويستهزئ بالخرافات والأساطير، ويفصل فصلاً صارماً بين الألوهية والبشرية، ويخوف أشد التخوف من الشرك الخفي، ويجعل صلة العبد بالله من غير وسيط .

وإذا تصفح الشباب السنة الصحيحة وهي هدي الرسول قولاً وعملاً، وجدوا

أنه ﷺ كان أبعد الناس عن أوهام الخرافات، وأشدهم إنكاراً للتنجيم والعرافة والشعوذة والاستجارة بغير الله، كان أعظم الناس تبرّأً من كل ما يرفعه عن مستوى البشرية والعبودية لله، كان ﷺ أكثر الناس ذكراً لله ولكنه لم يخرج عن سمت الوقار والإخبات إلى هرج الطقوس والحركات والرقص، وكان أعظم الناس زهداً وتقشفاً، لكنه لم يخرج في زهده وتقشفه وتصوفه- إذا جاز هذا التعبير -، عن بساطة الإخلاص إلى تعقيد الرياء الذي سرت طقوسه إلى المسلمين من الأمم التي اختلطوا بها بعد الفتح.

● **عقدتا الكبت والتقنيط**

من أسباب انصراف الشباب عن ممارسة الشعائر عقدتا الكبت والتقنيط، فالطريقة التي بها ساق الأب ابنه في صغره أو المعلم في المدرسة، إلى إقامة الشعائر، سببت له كبتاً نفسياً جعله ينفر من الشعائر، هذا الكبت النفسي، يجب أن يحل محله التشويق والترغيب والإيحاء والاستهواء بالنسبة للصغار، أما الشباب البالغون، فمن أهم أساليب الإيحاء لهم أن تعمل الجماعات الرياضية والكشفية وأمثالها على إدخال إقامة الصلاة وصيام رمضان في نظامها، وأخيراً يجدر بنا ونحن ندرس عقدة الكبت أن نيسر لهم أمر التطهر بالماء وبغير الماء عند المانع كي يستسهلوا الصلاة، ويتعودوا عليها[(١)]، وأن نيسر لهم أيضاً الجمع بين الصلاتين عند العذر أخذاً لمذهب الحنابلة، في هذا العصر عصر الكدح السريع المرير.

والشبان بحكم مرح الشباب وفورته وجموحه ولهوه، لابد أن تكون لهم مزالق في حياتهم، فإذا سمعوا من الوعاظ أهوال المنذرات تكونت في صدورهم عقدة القنوط، ولو أن الوعاظ اتبعوا نهج القرآن في الترغيب والترهيب لفتحوا لذلك الشباب في جدار يأسه كوة ينفذ منها إلى الأمل، ويخرج منها إلى التوبة.

إن الخطر الكامن خلف عقدة القنوط، هو أن تتكون عند الشباب المسترسل في الإلحاد والفساد لذة التنفيس عن نفسه بطرائق ثلاث: الجدل في الإلحاد،

---

(١) في حدود ما بينه فقهاء المسلمين الذين يعتد برأيهم.

الاستهزاء بالشعائر، ثم جر الرفاق إلى الانزلاق.

ولقد سرت إلى شبابنا المثقف عدوى التقليد بعد أن قرأ تاريخ النزاع الطويل بين المفكرين ورجال الدين في أوروبا، الذي انتهى عند بعض المفكرين إلى الشك، وانتهى عند الماركسية المادية إلى الكفر والإلحاد، واحتقار الشعائر الدينية ومحاربة الدين ورجاله.

إن شبابنا الذي فتحت في تفكيره هوة من الفراغ بسبب ما يحمل في رأسه من غرور العقل وأوهام التعقل والجهل لحقيقة الإسلام، وما يحمل في صدره من عقد الكبت والقنوط أصبح بحاجة طبيعية لملء هذا الفراغ بأية فكرة تلائم نفسيته، فانجرف مع تقليد الغربيين في شكوكهم ثم زادته المشاكل الاقتصادية المعاصرة فراغاً فانجرف مع تقليد الماركسية بشيوعيتها وإلحادها.

- **عقدة التخاذل والاستخذاء**

وهي تظهر عند بعض الشبان الذين لم تتحمل رؤوسهم زهد الثقافة، فتخلوا باسم التقدمية عن شعائر دينهم وعزتهم الإسلامية في آن واحد، وهؤلاء المخاذيل ليسوا كلهم ملحدين بل قد يكونون في قرارة أنفسهم من المؤمنين، ولكن إذا ضمتهم المجالس والنوادي مع الإفرنج والمتفرنجين أظهروا من باب التفاخر بالتقدمية العصرية أنهم لا يبالون بشعائر الدين ولو كان أحدهم منتسباً إلى فرقة رياضية صغيرة، أو حزب سياسي هزيل أو حزب عقائدي ملحد، لرأيته يحمل شارتها ويرفع شعارها، ويفخر بها ويدافع عنها، ولكنه وهو المنسوب إلى أمة عظيمة لها في تاريخها ما يرفعها في كل مستويات المثل العليا فوق الأمم يتعير منها ومن شعائرها وتقاليدها، هذا الاستخذاء سببه جهل شبابنا للتاريخ ولو زعموا أنهم قرأوه واجتازوا به الامتحانات بجدارة.

وربما كان من أعظم أسباب ضعف الإيمان عند الشباب سوء القدوة في البيت والمدرسة والمسجد، ذلك لأن القدوة إنما تبنى على الاحترام والثقة، وما لم يكن للشباب في قرارة نفوسهم احترام لرجل الدين وثقة بعلمه وخلقه قولاً وعملاً، لا يمكن أن يتخذوا منه قدوة، بل يكون غير الصالح من رجال الدين سببا لتجريء

الشباب على الإلحاد، وعلاج هذا الأمر يحتاج إلى إعداد جيل كامل من رجال الدين يتولى هو بدوره تخريج جيل من الآباء والأمهات والمعلمين الصالحين للقدوة، لتستكمل الحلقة دورتها.

- **سلطان الرأي العام**

إن أولئك المصابين من شبابنا بتلك العقد، والذين بلغ الأمر بهم إلى حد إعلان الإلحاد والاستهزاء بالدين، وإغواء الآخرين وتخذيل الأمة، هم مرضى، يجب أن نعالجهم كما نعالج كل الأمراض النفسية، والعقلية، أي تارة بالإيحاء والاستهواء والإرشاد، وتارة بشيء من القسوة، وعلاج القسوة من عمل الرأي العام، هذا الرأي العام الذي وضع به التشريع الإسلامي أعظم ركائز الإصلاح والزجر في المجتمع، فلو أن الرأي العام درج على إظهار الاستنكار والاحتقار للجاهرين بالإلحاد لأحدث ذلك أثراً عظيماً في الإصلاح.

- **وأخيراً... الإيمان بالله ضرورة**

إن آخر طرق العلاج مع الشباب المثقف، بل أولها عند البعض، أن نقنعهم بجدوى الإيمان وأنه ضرورة إنسانية في فلسفة «البراغماتيزم» أي فلسفة الذرائع. إن الفكرة إنما تكون حقاً لأنها نافعة، وإنما تكون نافعة لأنها حق، وإن الحق والنافع يعبران عن شيء واحد، هذه الفلسفة التي تتخذ من القيمة العملية للفكرة مقياساً للحقيقة ليست صحيحة في أساسها وليس هذا مقام الكشف عن جوانب الخطأ فيها، ولكننا نتخذ منها منطلقاً لطرح السؤال الآتي:

هل نبدأ التفكير في الحق أولاً لنستخرج منه النافع أم نبدأ التفكير في النافع الضروري لنقول عنه إنه حق؟

أرى أن نبدأ بالثاني ولكن من أي جوانب النفع والضرورة نمسك خيوط الجدل مع هذا الشباب الذين تحيط بهم الشكوك في الدين من كل جانب؟

لاريب أن البداية يجب أن تكون أمراً نتفق نحن والشباب على أنه «حق وضرورة» فما هو هذا الأمر؟ إنه «إنسانيتنا» التي يمكن أن يجادل الشباب في كل شيء إلا فيها.

يقول الفيلسوف الإسلامي الكبير، ابن مسكويه، إن المزية الوحيدة التي يتميز بها الإنسان عن الحيوانات كلها هي «مكارم الأخلاق». كأن يقال: إن الإنسان يمتاز عن الحيوانات بمزية واحدة هي «النطق أي العقل». ولكن التحقيق العلمي أثبت أن الحيوانات لا تخلو من عقل تدرك به كثيراً من أمور معيشتها لذلك صار علينا أن نبحث عن مزية أخرى خاصة، يمتاز بها الإنسان عن الحيوان، وبها يسمى إنساناً، وهذه المزية الخاصة هي الأخلاقية التي تتجلى بالضمير الإنساني. وجاء «دارون» بعد ابن مسكوية بعصور يقول: إن الضمير أو الحي الأخلاقي هو أظهر فاصل يفرق بين الإنسان والحيوان، وجاء «كانط» يتخذ من هذا الشعور الأخلاقي منطلقاً لإثبات خلود الأرواح ويوم الحساب ووجود الله الحكم العدل.. هذا الضمير الأخلاقي إنما يصونه الصيانة الكاملة شيء واحد: وهو الإيمان بوجود الله الحكم العدل القدير.

فتحقيق إنسانيتنا ضرورة اجتماعية، وإنسانيتنا لا تتحقق إلا بأخلاقيتنا، وأخلاقيتنا لا تصان إلا بالإيمان، فالإيمان إذن، أمر ضروري لأنه يمسك أخلاقيتنا التي تثبت بها إنسانيتنا.

* * *

الإيمان ضرورة إنسانية

العدد (٧) رجب (١٣٨٥هـ) - نوفمبر (١٩٦٥م).

في فلسفة البراغماتيزم، التي سموها بالعربية «فلسفة الذرائع» أن الفكرة إنما تكون «حقاً» لأنها «نافعة»، وإنما تكون نافعة لأنها حق. وأن «الحق والنافع يعبران عن شيء واحد». أي أن القضية تصبح حقاً عندما تبررها العواقب. فنحن في زعم البراغماتيزمية الأميركية نخلق «الحقيقة» ونخلق «الحقيقي» حسب حاجة المجتمع.

إن هذه الفلسفة التي تتخذ من القيمة العملية للفكرة مقياساً للحقيقة، ليس صحيحة في أساسها وليس هذا مقام الكشف عن جوانب الخطأ فيها. ولكننا نتخذ منطلقاً لطرح السؤال الآتي: هل نبدأ التفكير في «الحق» أولاً، لنستخرج منه «النافع» أم نبدأ التفكير في «النافع الضروري» لنقول عنه إنه حق؟ إنني مع الشباب المثقف بالذات، وفي قضية الإيمان بالذات، أرى أن نبدأ بالثاني ولكن من أي جوانب النفع والضرورة نمسك خيط الجدل مع هؤلاء الشباب الذين تحيط بهم الشكوك في الدين من كل جانب؟.

يقول القرآن ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ۝٥٤﴾ (الكهف: ٥٤) فكيف إذا كان هذا الإنسان من الشباب المزهو بسلاح العلم المجادل في كل القيم؟.

إن السنين الطوال سوف تنضج على جمر العذاب، تفكير الشباب، حتى يصدقوا أن الإيمان «حق وضرورة». ولكننا نريد أن نختصر لهم السنين الطوال، ونوفر عليهم عذاب الندم والحسرة إذا جاءت سكرة الموت بالحق، كما يقول القرآن. فمن أين نبدأ الكلام في أن الإيمان بالله ضرورة من ضرورات الحياة الإنسانية؟.

لاريب في أن البداية يجب أن تكون أمراً نتفق نحن والشباب على أنه «حق

وضرورة». فما هو هذا الأمر؟ إنه «إنسانيتنا» التي يمكن أن يجادل الشباب في كل شيء إلا فيها.

يقول الفيلسوف الإسلامي الكبير «ابن مسكويه» في كتابه الموجز الجليل «تهذيب الأخلاق» إن المزية الوحيدة، التي يتميز بها الإنسان عن الحيوانات الكثيرة كلها هي «مكارم الأخلاق».

ذلك أن كل مخلوق يشترك مع غيره من المخلوقات في بعض الصفات، ويمتاز عنها لنفسه بصفة ومزية خاصة لا يشاركه فيها غيره كالأسد يمتاز بالقوة والفرس بسرعة الجري، والبغل والحمار بحمل الأثقال، والعندليب والكنار بالتغريد، والطاووس بجمال الشكل. إلى غير ذلك.

أما الإنسان فإنه يشارك الحيوانات الأخرى، بصفات الحركة والتغذي والتناسل ويمتاز عنها بمزية واحدة هي «النطق» أي العقل. ومن هنا أطلقوا عليه اسم «الحيوان الناطق» أي العاقل.

ولكن التحقيق العلمي قد أثبت أن الحيوانات لا تخلو من عقل تدرك به كثيراً من أمور معيشتها.

لذلك صار علينا أن نبحث عن مزية أخرى خاصة يمتاز بها الإنسان عن الحيوانات، وبها يسمى إنساناً.

هذه المزية الخاصة هي «الأخلاقية» التي تتجلى «بالضمير الإنساني».

فالحيوان يعقل، وقد ترتقي فيه قوة التعقل، كما في بعض القرود، ولكنه لا يفهم معنى «الأخلاقية» ولا يمكن أن يكون له الشعور الذي نسميه «الضمير».

فأخلاقيتنا إذن هي المزية الوحيدة التي تثبت بها «إنسانيتنا». وإذا خرجنا عن هذه المزية عدنا إلى مرتبة الحيوانات، بل كان كل حيوان بمزيته الخاصة خيراً منا، لأننا فقدنا مزيتنا الخاصة، وليس لنا مزاياه الخاصة.

هكذا قال ابن مسكويه، وهكذا من بعده بعصور، جاء «دارون» يقول: «إن الضمير أو الحس الأخلاقي هو أظهر فاصل يفرق بين الإنسان والحيوان» وجاء «كانت» يتخذ من هذا «الشعور الأخلاقي» منطلقاً لإثبات خلود الأرواح، ويوم

الحساب، ووجود الله الحكم العدل القدير.

هذا الضمير الأخلاقي إنما يصونه الصيانة الكاملة الدائمة الساهرة النافذة من وراء حجب الخفاء شيء واحد وهو الإيمان بوجود الله الحكم العدل القدير.

فتحقيق إنسانيتنا ضرورة اجتماعية، وإنسانيتنا لا تتحقق إلا بأخلاقيتنا، وأخلاقيتنا لا تصان إلا بالإيمان.

فالإيمان إذاً، أمر ضروري لأنه يمسك أخلاقيتنا التي تثبت بها إنسانيتنا.

وأكرر القول للشباب: إن الإيمان بالله هو:

- أس الفضائل.
- ولجام الرذائل.
- وقوام الضمائر.
- وسند العزائم في الشدائد.
- وبلسم الصبر عند المصائب.
- وعماد الرضى والقناعة بالحظوظ.
- ونور الأمل في الصدور.
- وسكن النفوس إذا أوحشتها الحياة.
- وعزاء القلوب إذا نزل الموت أو قربت أيامه.
- والعروة الوثقى بين الإنسانية ومثلها الكريمة.

فلا يخدعنكم أيها الشباب، من يقول لكم أن مكارم الأخلاق تغني بوازع الضمير عن الإيمان. لأن مكارم الأخلاق التي تواضعنا عليها، للتوفيق بين غرائزنا وحاجات المجتمع، لابد لها عند اعتلاج الشهوات في الشدائد والأزمات، أن تعتمد على الإيمان، بل إن هذا الشيء الذي نسميه ضميراً، إنما يعتمد في سويدائه على الإيمان.

وانقياد الناس لمكارم الأخلاق، إنما يكون بزاجر من السلطان أو وازع من القرآن أو رادع من المجتمع فإذا كنا في نجوة من سلطان القانون والدين والمجتمع لم يبق لنا وازع إلا الضمير. ونحن في معركة الشهوات والغرائز مع الضمائر، قل

أن نرى الضمير منتصراً إلا عند القلة من الناس، وهذه القلة نفسها لا تستمسك بضمائرها عند جموح الشهوات، إلا إذا كانت تخشى الله.

ولو تركنا مكارم الأخلاق جانباً، ونظرنا إلى حاجتنا للإيمان من حيث هو سند في الشدائد، وبلسم للمصائب وسكن للنفوس، وعزاء للقلوب وعلاج لشقاء الحياة، لوجدنا أننا عند فقد الإيمان، نكون أسوأ حظاً في الحياة، وأدنى رتبة في سلم المخلوقات، من أذل البهائم، وأضعف الحشرات، وأشرس الضواري.

فالبهائم تجوع كما نجوع، ولكنها في نجوة من هم الرزق، وخوف الفقر وكرب الحاجة، وذل السؤال... وهي تلد كما نلد، وتفقد أولادها كما نفقد، ولكنها في راحة من هلع المشكلة، وجزع الميتة، وهم اليتامى المستضعفين.

وهي في أجسادها، تلذذ كما نلتذ، وتألم كما نألم، ولكنها في راحة مما يأكل القلوب، ويقرح الجفون، ويقض المضاجع، ويقطع الأرحام، ويفرق الشمل، ويخرب البيوت من المهلكات: كالحسد والكذب والنميمة والفرية والقذف والنفاق والخيانة والعقوق وكفر النعمة ونكران الجميل.

وهي تعرف بنوع من الإدراك، ما يضرها وما ينفعها، ولكنها في نجوة من أعباء التكليف، وأثقال الأوزار، ومضض الشك، وكرب الحيرة وعذاب الضمير.

وهي تمرض كما نمرض وتموت كما نموت ولكنها في راحة من التفكير في عقبى المرض، وفراق الأحباب، وسكرات الموت، ومصير الموتى وراء القبور.

والضواري تسفك الدماء لتشبع بلا سرف، ولكنها لا تسفكها أنفاً ولا جنفا ولا صلفا ولا ترفا ولا علوا في الأرض ولا استكباراً.

أما هذا الحيوان الفيلسوف الضعيف الهلوع الجزوع المطماع المحتال الفخور المترف المتكبر المتجبر السافك الدماء الذي لا يأتيه شقاء الحياة، أكثر ما يأتيه إلا من تفكيره فإنه لا علاج لشقائه إلا بالإيمان.

فالإيمان هو الذي يقويه، وهو الذي يعزيه، وهو الذي يسليه، وهو الذي يمنيه، وهو الذي يرضيه، وهو الذي يجعله إنساناً يسعى إلى مثله الأعلى لتسجد له الملائكة.. ومن دون هذا الإيمان يكون هذا الإنسان المسكين أتعس الخلائق

وأسوأها حظاً، وأعظمها شقاء وأشدها بلاء وأحطها رتبة وأرذلها مصيراً.

وسبيله إلى الإيمان هو ذلك «التفكير» الذي كان سبب شقائه. إنه عبد لتفكيره قبل أن يكون عبداً لربه، ولا يكون عبداً لربه حق العبودية إلا بهذا التفكير. الذي ينسج خيوط سعوده ونحوسه في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

لقد خلق الله هذا الإنسان، ورفعه وكرمه وميزه بهذه النفس العاقلة المفكرة التي علمه بها الأسماء كلها، وخلفه بها على الأرض، وصيره بها فوق الملائكة، وكتب الفلاح لمن زكاها، والخيبة لمن دساها. ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۝١٠﴾ (الشمس: ٧-١٠) فكيف نزكيها؟

إننا نزكيها بالتفكير، حتى تتسامى إلى مثلها الأعلى، وتصل إلى «اليقين» من الحق والخير والجمال، فترى الله عنده.. وتجد من حلاوة الإيمان ما تدرك به سر شقائها وسعادتها، وضعفها وقوتها، وعجزها وقدرتها، وعبوديتها وحريتها.. بل سر خلقها، ووضعها على مفترق «النجدين» وتركيبها على هذه الصورة القابلة «للضدين»، التي من دونها لا يفهم معنى «العبودية» ولا يستقيم معنى «العبادة».

لذلك كان حقاً علينا من باب الحاجة والضرورة، إن لم يكن من باب الحق والعبادة والتقوى، ومن أجل سلامة عقولنا، وسلامة قلوبنا، وسلامة ضمائرنا، وسلامة إنسانيتنا ومثلها العليا وسلامة المجتمع، أن ندعو إلى الإيمان بالله، ونيسره للعقول، ونشرح له الصدور.

* * *

نحن والشباب المثقف

العدد (٢١) رمضان ١٣٨٦هـ ديسمبر ١٩٦٦م

أمام هذا الجيل الصاعد من الشباب المسلم، المزهو بسلاح العلم والعقل، المفتون بأقوال المستشرقين، لا يجوز لنا أن نحصر الرد على المتهجمين أو المشككين في مبادئ الإسلام في أن هذا المبدأ موضع إجماع المسلمين، ولا أن نشهر في المعركة أسلحة التفسيق والتكفير لنخنق أصوات الشباب؛ لأن خنق الأصوات يرد الشك إلى صدور الشباب ويجعلهم أكثر حيرة وزيغاً، وتصديقاً لتُهم المشككين من أعداء الإسلام، ولأن هؤلاء المثقفين من الشباب لا يكتفون بالردود السطحية، ولا يبالون بالتهديد والوعيد، ولا يقلعون عن التساؤل والاستفهام إلا إذا يئسوا من قدرة العلماء على الرد القاطع المقنع، ودخلوا- بيأسهم- إلى منطقة الزيغ والكفر لا سمح الله. ولست أدري - والله - سبباً يجعلنا ننكر على الشباب مطالبته لنا بالإقناع العقلي الحر، ونحن أهل دين يجعل للعقل السلطان الأعلى في فهم نصوص القرآن فضلاً عن الحديث.

● توطئة للكلام مع الشباب

وقبل أن أقدم للشباب المثقف ما عندي من وسائل الإقناع العقلي، وقبل أن أنصب لهم الميزان الذي توزن به صحة الأحاديث أو المبادئ الإسلامية يهمني أن أكرر لهم الشيء الذي طالما كررته في كل ما أكتب في الدين، لخير الشباب وهو: التنبيه إلى عدم الخلط بين المستحيل عادة، والمستحسن والمستهجن رأياً وذوقاً.

فالشباب المثقف، الذي يحسن التفريق والتمييز بين هذه المعاني عند التفكير في قضية رياضية أو فلسفية، لا يتورع عن الخلط بينهما عند التفكير في قضايا الإيمان والدين، ومن هنا يأتيهم الإنكار لكثير من الأحاديث الواردة في

الصحيحين، بل الزيغ أمام المتشابهات من آيات القرآن، بل ضعف الإيمان بوجود الله.

وإذا كان بعضهم يتعمد هذا الخلط لمجرد المراء والتفاخر بتقليد الملحدين، فإن أكثر الناضجين منهم يقعون في هذا الخلط عن عدم انتباه، بل عن حسن نية وغيرة على الدين، حين يخيل إليهم أن بعض الأحاديث يتناقض مع العقل أو يتنافى مع الحق والخير والمصلحة.

فلهؤلاء أقول، من باب التنبيه لا من باب التعليم لشيء قد عرفوه في دراساتهم الرياضية الفلسفية: إن المستحيل العقلي هو الذي يحدث تصوره تناقضاً عقلياً في الذهن. كقولنا إن الجبل يدخل في الكأس أو أن الجمل يدخل في سم الخياط، كما مثل القرآن، أو إنكارنا أن الواحد نصف الاثنين، أو إنكارنا أن الكل أكبر من جزئه. أما المستحيل العادي فإنه لا يحدث تناقضاً عقلياً في الذهن والكن جرت «العادة» أن نستبعد وقوعه، مثل استبعادنا، قبل اليوم طيران الإنسان إلى السماء وسماع صوت المتكلم من أقصى الأرض، والوصول إلى القمر، وغير ذلك من الأمور التي كنا نحسبها، في العادة، «مستحيلة» ثم تبين أنها «ممكنة» ولذلك سموها المستحيلات العادية.

أما الاستحسان والاستهجان فإنهما لا يصلحان حجة للقطع بحسن الشيء وقبحه إلا إذا كان هنالك إجماع من كل العقول السليمة، كاستحسان الصدق واستهجان الكذب، أو كان هنالك نص ديني قاطع يقضي بهما، ولو خفيت علينا الحكمة بادئ الرأي، كالاستهجان لأكل لحم الخنزير. أما الاستحسان والاستهجان الصادران عن رأي الفرد، لا عن إجماع، وكذلك الاستبعاد الصادر عن رأي علمي لم يبلغ درجة اليقين فإنها كلها لا تصلح أن تكون أساساً للقطع والجزم بعدم صحة الأحاديث الصحيحة.

لأنه قد يكون وراء الرأي الفردي، أو وراء الرأي العلمي، حقيقة من النفع والضرر، أو حقيقة من العلم سوف تظهر لنا، كما ظهرت طبياً حكمة الحديث الآمر بغسل الإناء الذي تلوث بلعاب الكلب سبع مرات إحداهن بالتراب لإزالة

جراثيم داء الكلب، وكما ظهر من ضرر القليل من الخمر وأثره في الأجنة، بالتجربة التي أجراها العلماء في أمريكا على عشرة أزواج من الأرانب سقيت تسع منها جرعات متفاوتة القدر من الخمر، فظهر تأثير الخمر وضررها في أجنتها جميعاً، حتى عند الزوجين اللذين لم يسقيا إلا جرعة واحدة فقط، أما الزوجان اللذان لم يسقيا شيئاً من الخمر فلم يظهر في أجنتهما أي أثر لأي ضرر. وعلى غرار هذين المثلين نذكر ما اكتشفه العلم مؤخراً من وجود مادة هرمونية في البول تسمى «يوروغا سترون ursgistrone» وأخرى تسمى «أنثلون Antheline» تنفعان في مرض «قرحة المعدة» كما ذكر ذلك الدكتور ميشال صليب أستاذ الأمراض الباطنية بكلية عين شمس في مبحث «قرح المعدة» من كتابه «أمراض الجهاز الهضمي» المؤلف بالإنجليزية المطبوع سنة ١٩٦٣م في الصفحة السادسة والأربعين. وقد تمكنت شركة «بارك ديفز» الإنجليزية الشهيرة من صنع علاج يسمى «كورتون Kurtone» يحتوي على هذه الهرمونات البولية. وهذا ما يحل الإشكال الذي كنا نعانيه في تفسير حديث البخاري عن شرب أبوال الإبل، الذي أمر النبي ﷺ به بعض الأعراب المرضى. فكل هذه الأحاديث عن غسل الإناء وتحريم الخمر والتداوي بالأبوال، قد قيلت منذ أربعة عشر قرنا، في وقت لم يكن فيه الناس يدركون بعقولهم وجود جراثيم الكلب، أو ضرر القليل من الخمر، أو نفع شرب البول في بعض الأمراض بل كنا كلنا نستهجن هذا الشرب ونستقذره ونحار في تفسير هذا الحديث للسائلين من الشباب.

وهكذا يظهر بجلاء أن الاستحسان من الأفراد، والاستبعاد المبني على الآراء العلمية (الظنية) لا يجوز أن تتخذ أساساً للقطع والجزم بعدم صحة الأحاديث النبوية الصحيحة.

وبعد فهذه توطئة نرجو ألا تغيب حقائقها الواضحة عن تفكير الشباب المثقف، عند كل بحث وتساؤل من بعض الأحاديث النبوية الواردة في صحيح البخاري أو صحيح مسلم. ولسنا نريد بها أن نحمل الشبان المثقفين على أن يتهيبوا البحث، ويدفنوا شكوكهم في صدورهم لتنقلب إلى زيغ مرير، بل نريد بها

أن نضع لهم الميزان الذي يوزن به كل حديث يقع في تفكير الشباب، وظنهم أن ظاهره يخالف العقل أو الحق أو الخير أو العلم.

● ما هو الميزان

الميزان هو القرآن الكريم والعقل. وللإيضاح لابد من ذكر ست حقائق:

الحقيقة الأولى: أن القرآن قد يجعل للعقل السليم السلطان الأعلى في إدراك الحق والخير من أتفه شيء، كإماطة الأذى عن الطريق إلى أعظم شيء وهو الإيمان بوجود الله. وهذه أولى مزايا الإسلام. فنحن بالعقل نؤمن بوجود الله وبالعقل نؤمن بوحدانيته وكل صفات كماله، وبالعقل نؤمن بالقرآن الذي أمرنا بتحكيم العقل في كل أمر من أمور الإيمان.

الحقيقة الثانية: كل نص يوجب ظاهره تناقضاً عقلياً قاطعاً في الذهن يجب تأويله حتى يرتفع التناقض، وهذا متفق عليه عند العلماء، لأن تعطيل العقل يرجع بالتعطيل على جميع الآيات الكثيرة التي أمرنا الله فيها بتحكيم العقل في أمور الإيمان، ويرجع بالتعطيل على صدق الرسول الذي عرفنا صدق رسالته بالبراهين العقلية.

مثال ذلك: قول القرآن في سورة الكهف عن ذي القرنين ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ (الكهف: ٨٦)، فإن ظاهر هذه الآية يتناقض مع الحكم العقلي البديهي القاطع الذي يقضي بامتناع دخول الجسم الكبير في الوعاء الصغير، لأن الأرض أصغر من الشمس بكثير، فوجب هنا تأويل ظاهر الآية، كما فعل العلماء الأعلام حين قالوا: إن المراد بها: أن ذا القرنين رأى الشمس في غروبها كأنها تغرب في العين الحمئة، كما يقول أحدنا رأيت الشمس تغرب في النيل أو في البحر وهو يعلم قطعاً أنها لا تغرب في النيل ولا في البحر بل تغرب وراء الأرض.

الحقيقة الثالثة: وهي نابعة من الحقيقة الثانية، وتابعة لها، ولكننا أفردناها عنها، وأبرزناها مستقلة، لأهميتها وخطرها: وهي أن التناقض لا يكون إلا بين قضيتين قاطعتين تتناقضان. أما إذا كانت إحدى القضيتين قاطعة والثانية غير قاطعة وإنما هي ظنية، فلا يكون هنا ذلك التناقض الذي يوجب تأويل النص.

ففي قضية غروب الشمس في العين نجد أننا بين قضيتين قطعيتين، الأولى قول القرآن ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ والثانية القضية البديهية القائلة بامتناع دخول الجسم الكبير وهو الشمس في الجسم الصغير وهو العين، فاحتجنا إلى التأويل الذي يرفع التناقض.

ولكنا في آية أخرى مشابهة في نفس سورة الكهف نجد أن التناقض غير متحقق: وإن كانوا في الماضي يظنون خطأ أنه موجود، ذلك في قوله تعالى عن ذي القرنين ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾﴾ فهاهنا حقيقة قاطعة وهي قوله تعالى: ﴿لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ ناشئ من العلم الجغرافي القديم الناقص، الذي كان معتمداً قبل اكتشاف مناطق القطبين، وقبل معرفة دورة الأرض حول الشمس وهي مائلة ميلاً يحدث عنه طول النهار في أحد القطبين حتى لا تغيب عنه الشمس عدة أشهر، وحلول الليل في القطب الثاني حتى لا تطلع عليه الشمس عدة أشهر. فقد كان الناس لا يجدون في بقاع الأرض التي عرفوها، بقعة تطلع عليها الشمس بلا ليل. فكان يبدو في الظاهر وجود تناقض بين القرآن والعلم. والحال أنه لا يوجب ذلك التناقض الحقيقي الذي شرطه قيام قضيتين قاطعتين تتناقضان، لأن نفي الناس وجود بقعة أرض لا تغيب عنها الشمس كان نفياً ظنياً خاطئاً بحسب ما عندهم من العلم الناقص عن جميع بقاع الأرض، فلما تم اكتشاف القطبين وظهرت البقاع التي تبقى الشمس فيها طالعة عدة أشهر تحقق صدق الآية.

نرجو ألا تغرب هذه الحقيقة الثالثة عن أذهان الشبان المثقفين، لأنهم سيقعون في الأحاديث النبوية الصحيحة على كلام يتوهمون فيه التناقض لاعتقادهم بأن الأمور التي يعرفونها قطعية، وهي لا تكون قطعية حقاً في باب العلم كما ظهر في المثال الآنف الذكر.

الحقيقة الرابعة: ليس في القرآن أبدا أي معنى أو خبر يحدث تناقضا مع أحكام العقل أو مع أحكام العلم اليقينية، لأن إرادة الله لا تتعلق بالمستحيلات العقلية. حتى المعجزات هي من الممكنات العقلية. فخلق عيسى من غير أب من

الممكنات، وفلق البحر لموسى من الممكنات، وانقلاب عصا موسى إلى حية تسعى من الممكنات، وتكلم عيسى في المهد من الممكنات، وإحياء الموتى من الممكنات، والإسراء بالنبي من مكة إلى بيت المقدس في ليلة واحدة من الممكنات. وقس عليه ما ورد في الأحاديث الصحيحة. ولكن لا تخرج في قياسك هذا عن القاعدة وهي التمييز الصحيح بين المستحيل عقلاً والمستحيل عادة، وبين أحكام العلم اليقينية والظنية، فالمستحيل العادي من نوع الممكن.

وأحكام العلم الظنية لا تصلح أساساً للقول بوجود التناقض.

الحقيقة الخامسة: أن القرآن فيه آيات «محكمات» وأخر «متشابهات» كما قال الله تعالى في سورة آل عمران: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٧﴾ (آل عمران: ٧).

فالمحكمات التي وصفها الله بأنها «أم الكتاب» هي الآيات التي لا يحدث تصور معانيها تناقضاً عقلياً في الذهن، بل القول باستحالتها هو الذي يحدث التناقض العقلي، لأنها إما أن تكون من نوع الواجب العقلي، وإما أن تكون من نوع الممكن العقلي. والقول باستحالة الواجب أو الممكن هو الذي يحدث التناقض العقلي. كما لا يخفى. أما المستحيل العقلي فلا تتعلق به إرادة الله كما سبق القول.

أما المتشابهات فهي ما يشتبه ويلتبس على الناظر أمرها فيظن أنها تحدث تناقضاً مع العقل، أو مع المحكمات وهي ليست كذلك. وقد أمرنا الله عند حصول هذا الالتباس، أن نرد المتشابهات إلى المحكمات، قبل أن نتورط في إنكارها، مادامت بذاتها لا تشكل في الحقيقة تناقضاً قطعياً مع العقل، أو مع المحكمات، أو مع العلم اليقيني القاطع، كما في الأمثلة التي ذكرناها عن المعجزات التي يشتبه على غير الراسخين في العلم أمرها ويعدها من المستحيلات، وهي من الممكنات. وكما في المثال الذي أوردناه عن طول ظهور الشمس في منطقة القطبين، فقد اشتبه على الناس أمر تلك الآية، فظنوا

أنها تناقض العلم، ثم تبين لنا أن القضية العلمية ليست يقينية بل ظنية كذبها العلم. فظهر بهذا حكمة أمر الله لنا بأن نرد المتشابهات إلى المحكمات، قبل أن نتورط في الجدل والمراء بشأنها، وبأن نقول عنها قول الراسخين في العلم، الذين يعرفون هذه الفروق بين التناقض الحقيقي المؤكد وشبهة التناقض فيعتمدون على صدق القرآن، ويرجعون في تصديق المتشابهات- ولو لم يعلموا تأويلها إلى المحكمات، ويقولون عن القرآن كله ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (آل عمران: ٧)

الحقيقة السادسة: إن كل ما في السنة الصحيحة معتمد على أصل القرآن، ومردود إليه، ومقيد به فلا يناقضه أبداً. فالقرآن هو «الميزان» الذي نزن به الأحاديث الصحيحة فما كان منها متفقاً مع أصول القرآن فلا مجال للبحث فيه. وما كان منها متناقضاً مع القرآن، وكان التناقض قطعياً لا سبيل فيه إلى التوفيق، فهذا هو الذي يصح أن نقف عنده، ونبحث فيه عن صحة الحديث وقوته.

وخلاصة القول: إن الميزان الذي نزن به الحديث هو القرآن نفسه. فإن كان الحديث يتلاءم مع أصول القرآن، ولا يتناقض معها، لم يبق مجال عند المؤمن العاقل إلى نقد الحديث أو إنكاره اعتماداً على ما في تفكيره من الاستحسان أو الاستهجان أو الاستبعاد الظني. وكل ما نرجوه من الشبان المثقفين المخلصين ألا يستعجلوا في نشر النقد للحديث الصحيح الذي لا يسيغه تفكيرهم، وأن يعرضوه بأنفسهم، أو بمعونة أهل العلم، على الميزان الذي ذكرناه من القرآن والعقل. فإن وجدوا له أصلا في القرآن فقد انحل الإشكال. وإن لم يجدوا له أصلاً في القرآن لجأوا إلى ميزان العقل الذي قررناه وأوضحناه، فإن رأوا في الحديث ما يوجب تناقضاً عقلياً، لا ظنياً، مع أصل أو أكثر من أصول القرآن جاز لهم عندئذ البحث في مبلغ الحديث من الصحة.

هذا ما ألهمنا الله أن نكتبه في هذا الموضوع ليكون جواباً لكل شبهة. والله المستعان.

وتحسبونه هيناً..؟

العدد (٢٩) جمادى الأولى (١٣٨٧هـ)، أغسطس (١٩٦٧هـ)

قرأت في مجلة «الوعي» مقال[١] الأخ العالم الجليل الأستاذ أحمد الشرباصي عن لغة القرآن والتهاون الحادث في إتقانها، فرأيت فيه أموراً عظيمة تستحق أن يكتب فيها أكثر من مقال، ولا سيما ذلك التنادر بالمشايخ علماء الدين، الذي أشار إليه الأستاذ في نهاية مقاله بكلمه عابرة غير زاجرة.

إن التنادر والتفكه بذكر تفاصح النحاة وتفيهقهم وتمطّطهم هو أمر قديم. وقد لا يكون مضراً ومحرماً إلا عندما يدخل في باب الغيبة واللمز والسخرية من رجل معين. بل قد يكون- إذا برئ من هذه الآثام- نافعاً في رد كثير من النحاة عن تباردهم وتسامجهم، فمن كمال العالم أن يكون كيساً، ومن نقص العقل أن يكون متسامجاً من حيث لا يدري.

أما التنادر والتفكه بذكر علماء الدين، والسخرية من تقواهم وتورعهم وفقرهم[٢] فإنها فتنة جديدة استشرى خطرها في العصر الحديث، حتى أصبحت من الكبائر المهلكات الموبقات، التي لا يقف ضررها عند حدود التباغض بين الناس، كما هو الحال في الغيبة واللمز، بل تتعدى هذا كله حتى يصل إلى زعزعة الدين والإيمان في القلوب.

● نحن في غفلة

وقد لا يكون جميع المتنادرين والمتفكهين من ضعيفي الإيمان، ولكنهم في

---

(١) في العدد الرابع والعشرين.

(٢) كما نرى صوراً من ذلك في الأفلام والمسرحيات وإظهارهم بمظهر غير كريم على عكس ما نراهم يفعلون مع غير علماء الدين المسلمين مع الأسف. (الوعي).

غفلة عن أن هذا التسخر من حملة العلم والقرآن هو تسخر من الدين والقرآن، وتهاون في احترام الله ورسوله. وأخطر ما في هذه الغفلة أن الواقعين فيها لا يقعون في مثلها أبداً إذا كان الرجل الذي أثار سخريتهم خويدما لعظيم من الأمراء أو الوزراء.

● توقير العلماء

إن مقام علماء الدين عند الله عظيم. وقد عظم الله مقامهم في القرآن بآيات كثيرة أعظمها قوله تعالى ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ (آل عمران: ١٨) فقرن سبحانه اسم العلماء إلى اسمه الأعظم، وجعلهم في العلم كالملائكة، وصيرهم من ناحية الإدراك لوحدانية الله في صف الرسل والأنبياء، فاكتفى بوصف العلم عن تخصيص الرسل والأنبياء بالذكر لأنهم سادة العلماء.. فهل بعد هذا المقام مقام في التعظيم؟

بل لو خلا كتاب الله من هذه الآية لكان واجباً علينا- بحكم العقل- أن نوقرهم، إن كنا مسلمين ومؤمنين حق الإيمان، لأن هؤلاء العلماء الفقهاء هم الذين انتدبهم الله لتعليمنا وإرشادنا وإنذارنا وتحذيرنا بقوله ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةًۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ (التوبة: ١٢٢).

فإذا قل احترام العلماء بين الناس، قل بالضرورة الإصغاء إليهم، والأخذ بإرشادهم وإنذارهم وتحذيرهم وكفى بهذا فتنة في الدين.

بل نقول لهؤلاء المستهزئين بعلماء الدين. إنكم لو تركتم الأخذ بمواعظهم، وأقدمتم على ارتكاب المعاصي، لكان ذلك عند الله أهون، وأقرب إلى الغفران، من ذلك الاستهزاء، لأن ضرر معاصيكم ينحصر بكم، أما الاستهزاء بالعلماء فإنه يؤدي إلى قتل العلم، وتنفير الناس من الدين، وحملهم على الاستهزاء بالدين نفسه.. بل قد يؤدي إلى الكفر أخيراً.

● أسباب هذه الفتنة

إن فتنة التنادر والتفكه بذكر علماء الدين التي استشرى أمرها واستفحل في

العصر الحديث، لها أسباب كثيرة منها القديم ومنها الحديث، ومنها ما يقع وزره على الأمراء، ومنها ما يقع وزره على الأدباء ومنها ما يقع اللوم فيه على العلماء أنفسهم.

لقد بدأت هذه الفتنة بسفه الأمراء والحكام، وتعاليهم على علماء الدين، بعد أن كانوا في الصدر الأول من الإسلام موضع التوقير والتعظيم. ومن هذه الثغرة أخذت فتنة التنادر والتفكه تذر قرنها بسفه الأدباء والرواة والقصاصين، الذين يسامرون الأمراء، ويتعمدون إضحاكهم بالحكايات والنكات المروية أو المخترعة، فبدأوا- أول ما بدأوا- بذكر حماقات معلمي الصبيان، ثم تجاسروا على التفكه بذكر القراء. وتنوقلت هذه النكات بين الناس، حتى تجاسر بعض كبار الأدباء كالأصمعي والجاحظ وغيرهما على تدوينها في الكتب. أما علماء الدين فقد بقي احترامهم في القلوب، على الرغم مما بدر من بعض الأمراء من أذيتهم، لأسباب سياسية أو اجتهادية كلامية ظالمة. بل زاد هذا العدوان في احترام العلماء عند الناس جميعاً.

ثم جاءت عصور التأخر الإسلامي فانصرف الأمراء والحكام عن توفير أسباب الرزق الكريم لعلماء الدين، كما انصرف الناس عما جرت به العادة من إعانتهم. وأصبح رزق أكثر المشايخ محصوراً فيما يتناوله المحظوظون منهم من أجور زهيدة على وظائف الإمامة والخطابة والتدريس. ومن لم يسعده الحظ منهم بوظيفة لجأ إلى طلب الرزق من أبواب لا يليق بكرامة العلم والعلماء.

وزاد الطين بلة أن طائفة من العلماء الفقراء أرادوا أن يستروا فقرهم بما يسمونه «الدروشة» ولكن هذه الدروشة زادت عن حدها، حتى كادت تصبح طابعاً للفقراء وغير الفقراء، وانتقلت من الزهد إلى لون من التبذل في الملبس والنظافة والأكل في السوق، فاستقرت في أذهان الجيل الطالع المولع بالجمال والتجمل، صورة عن العلماء هي أبعد ما يكون عما يأمر به الدين من الجمال والتجمل.

وهكذا تضافرت الأسباب والدواعي للتقليل من احترام العلماء وتوقيرهم واستشرت الفتنة.

ولست أجد لهذه الفتنة علاجاً إلا إذا حزم حكام المسلمين في كل قطر إسلامي أمرهم على تنفيذ التوصيات الآتية:

١- حصر لبس الزي الديني في علماء الدين دون سواهم.

٢- الاتفاق على وضع زي ديني واحد موحد، وإذا تعسر ذلك، فوضع علامة خاصة يتميز بها علماء الدين عن سواهم.

٣- إغناء علماء الدين بالرواتب الكافية.

٤- أخذ علماء الدين بنظام مسلكي صارم يحملون به على ترك التبذل والدروشة والتزام دقائق آداب الدين في الوقار والنظافة والكياسة والظرف في الملبس.

٥- أن يمنع رجال الدين من قبول أي أجر من الناس على أي عمل من الأعمال أسوة بباقي الموظفين، فإن اليد العليا خير من اليد السفلى.

وإني لأرجو أن يكون هذا الموضوع الخطير موضع عناية مجلة «الوعي» وعناية المفكرين، لعله يجتمع لنا من التوصيات الأخرى ما يكتمل به العلاج، وأن يكتب في هذا الأمر أكثر من مرة، لكي تستجيب الحكومات الإسلامية لهذه الدعوة المباركة للإصلاح الديني الذي نحن بأشد الحاجة إليه.

* * *

«الوعي الإسلامي» هذا الموضوع الذي علق عليه فضيلة العلامة الأستاذ الكبير الشيخ نديم وقدم بشأنه هذه الاقتراحات إنما هو ظاهرة لرياح عاتية هبت على النفسية المسلمة فاقتلعت منها أو من معظمها بذور التدين السليم، ومن البديهي أن الإنسان المسلم السليم الإيمان يجد نفسه مدفوعاً إلى احترام كل ما يمت للدين بصلة قريبة أو بعيدة. وفي المقدمة العلماء المسلمون الذين وهبوا حياتهم لترسيخ دعائم الإيمان في النفوس، وجعلوا أنفسهم شموعاً تضيء الطريق للسالكين.. ومن الطبيعي أن كل إنسان يعتنق فكرة أو مبدأ ترف نفسه لكل من يشاركه هذا المبدأ، وعلى الأخص أولئك الذين يمثلون الطليعة الهادية لهذا

المبدأ.. ويقوي حبه واحترامه لزملائه وقادته في المبدأ على قدر تفانيه في مبدئه وإخلاصه له.. فإذا ضعف تمسكه بفكرته ومبدئه كان تهاونه وعدم عنايته بمن يشاركونه مبدأه.. حتى أصحاب الحرف والمهن تجدهم يعظمون «معلميهم» ويعتبرونهم هداتهم ويتعصبون لهم ويحيطونهم بمظاهر التكريم.

فالداء الكمين لهذه الظاهرة التي نشكو منها يكمن في ضعف الوازع الديني في النفوس، كما يرجع إلى عدم عناية المجتمع ممثلاً أولاً في المسؤولين بإظهار صوت الدين عملياً. فإن الدولة مثلاً حين تتجه للهندسة وتعنى بأصحابها تجد المجتمع بالتالي يعظم من شأنهم، وهكذا في كل مجال تعنى به الدولة..

إن أكبر وصمة لهذه الأمة الإسلامية العربية، التي تتنادى بالإسلام والعروبة إلا يلقى ممثلو الإسلام أو المتخصصون فيه وفي العربية ما يتسق مع ادعائنا الاعتزاز بإسلامنا وعروبتنا.

وكم يحز في النفس ويفتت القلب حزنا وأسفاً أن نلاحظ أن الطوائف غير الإسلامية تحيط هداتها الدينيين بالاحترام والتكريم في الوقت الذي يتظرف فيه بعض الكتاب والرسامين والمتحدثين المسلمين بالغض من مكانة هداتهم الدينيين، والذين يعلمونهم لغتهم القومية.

لقد رأينا صوراً ورأى غيرنا على الطبيعة ملك دولة غير مسلمة يطأطئ على يد أحد رجال دينه ويقبلها في المطار ونحن لا نريد عندنا مثل هذا، ولكنا نريد ما يدل عليه هذا التقبيل لليد وسط كبار رجال الدولة والسفراء وجموع المستقبلين. نريد أن يتوفر للعلماء المسلمين ما يجب نحوهم من تكريم كرمز حي على تكريمنا لديننا وعنايتنا بكل ما يتصل به وليكون لهم الصوت النافذ حين يجد الجد وتحتاج الأمة لهذا الصوت يجند قواها ويعبئها لحفظ كيانها والحفاظ على كرامتها.



ركائز التفكير الإسلامي (١)

موقف العقل من الإيمان وموقف القرآن من العلم والمعرفة

العدد (٣٢) شعبان ١٣٨٧هـ - نوفمبر ١٩٦٧م

كان أحد أساتذة الفلسفة في جامعة كبرى كتب يتساءل - كالمنكر - عن بعض آيات القرآن الكريم، ثم يدعي أن التفكير الإسلامي المعاصر مشدود إلى الوراء شدًا يمنعه من الانطلاق في آفاق العلم والمعرفة. فأجابه الشيخ نديم الجسر بجواب أوضح فيه ركائز التفكير الإسلامي القائم على «الحق» في باب العقل والعلم، توضيحاً امتاز به فضيلة الشيخ في مخاطبة الشباب والعلماء المتفلسفين بلغة العلم والفلسفة نفسها، وقد رأينا- تقديراً منا لهذا البحث أن نضعه بين أيدي القراء الكرام وبخاصة الشباب منهم. «الوعي الإسلامي»

وجود الله

أرجح أن الجدل بيننا الآن، ليس عن وجود الله أو عن عدم وجوده. فإنك وأنت أستاذ الفلسفة، لا بد أن تكون عند الحق من قول «فرنسيس باكون» «إن القليل من الفلسفة يبعد عن الله والكثير منها يرد إلى الله». والظاهر من كلامك أنك تؤمن بأن الله هو خالق الكون، ومؤمن- بالتالي، وبالبداهة- بأن خالق الكون هو خالق النواميس، وبأنه خالق الحياة، وخالق الذباب، الذي قال عنه القرآن، في سورة الحج ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ (الحج: ٧٣ - ٧٤) وقد نزل هذا قبل أن يقول (روجر بيكون)

و«توماس اكويناس» بقرون طوال قوليهما المشهورين «ما من عالم قد عرف حتى اليوم حقيقة ذبابة».

وإنما أنت تستصعب تصور الذهن لهذا الإله، على طريقة القرآن الذي يقول عنه ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ (الشورى: ١١) وتستشكل في خلق الله لآدم من تراب، وتقطع كل علاقة لله في خلق الأجنة، حتى تخرج من هذه الصعوبات والاستشكالات إلى ما يكاد يكون إلغاء لوجود الله.. وهذا ما يحيرني في أمرك. وإلا فقل لي: كيف نوفق بين كونك مؤمناً بأن الله خالق الكون، وخالق الحياة، وخالق الإنسان، وخالق النواميس، وكونك تغفل- وأنت العالم الألمعي- عن تفسير آيات خلق آدم، وخلق الجنين في بطن أمه بأنها قد تعني الخلق التطوري للخلية الإنسانية بطريق النواميس التي خلقها الله، مثلما قد تعني في الظاهر الخلق الدفعي المباشر، مع أن كلا الخلقين داخل في قدرة الله، وليس أحدهما بأدل على هذه القدرة والحكمة من الأخر.؟

ومهما يكن الأمر، فإننا لا نسوق الحديث إليك وحدك، بل نسوقه إلى من وراءك من الشبان العلماء الذين يؤمنون بوجود الله وبأنه خالق الكون، ويرددون في صدورهم بعض الأسئلة التي طرحتها وأمثالها. والحوار مع هؤلاء لا يدور، إذن، حول وجود الله. وإنما يدور الحوار حول القرآن الكريم وما فيه من آيات متشابهات، يبدو لك ولهم- في الظاهر- أنها تتناقض مع العقل أو مع العلم، ويدور أيضاً حول تفكير المسلمين في العالم المعاصر، وزعمك أنه مقيد ومشدود إلى الوراء شداً يمنعه من الانطلاق والتلاقي مع التفكير العقلي العلمي الحديث.

فعلينا، إذن، أن نكشف تراب الظنون الباطلة عن ركائز التفكير الإسلامي، لنرى إن كانت تتعارض مع العقل أم تعتمد عليه، وتتنافى مع العلم - كما زعمت- أم تؤيده. وبهذا الكشف والتبيين يستكمل الرد على شكوكك وشكوك غيرك- مهما كان نوعها وموضوعها- حُجَجَه وبراهينه بدون تطويل، ويصبح هذا الرد المركز الذي نضعه كالجعبة فيها السهام، بل كخزانة الدواء في البيت، نجد فيها العلاج لكل شك وزيغ.

ركائز التفكير الإسلامي

١- القرآن والعقل

إن القرآن يجعل للعقل السلطان الأعلى في إدراك كل معاني الحق والخير، من أتفه الأمور كإماطة الأذى عن الطريق، إلى أعظمها وهو وجود الله وصفات كماله.

وفي القرآن أكثر من (٣٠٠) آية تدعو إلى تحكيم العقل، وتزري أزراء شديداً، بالذين لا يحكمون عقولهم. وأبلغ هذه الآيات وأوجعها قوله ﴿۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ (الأنفال: ٢٢)، وكل إيمان لا يبنى على العقل لا يبعد من الإيمان الكامل. أما (إيمان العجائز) فإنما هو مقبول من باب العذر ورفع الحرج من العاجزين[١].

والقرآن يكره الجمود على تقاليد الآباء والأجداد، إذا كانت هذه التقاليد تناهض أحكام العقل القاطعة، ويهزأ بهؤلاء الجامدين، ويسخر من الخرافات والأساطير، وليس فيها أسرار يحدث تصورها تناقضاً عقلياً في الذهن. وكل نص في القرآن يحدث تصوره، في الظاهر، تناقضاً عقليا في الذهب يجب تأويله حتى يرتفع التناقض.

فالإسلام، إذن، هو الدين السماوي الذي يجعل (الجدل العقلي) الصارم طريقاً للوصول إلى الحق.

هذه حقائق يقينية مقررة، حتى تكاد تكون معلومة من الدين بالضرورة. ومن جهلها أو أنكرها فهو جاهل لحقيقة القرآن والإسلام.

---

(١) يكاد الناس جميعاً يتجهون في فهم إيمان العجائز إلى أنه الإيمان التلقائي الذي لا يقوم على دليل أو تعقل... فلماذا لا يفهم على أنه الإيمان الراسخ الذي دعمته الدلائل وتجارب السنين حتى صار ثابتاً لا يتزعزع وهنا يصبح رجاء لكل إنسان «اللهم إيماناً كإيمان العجائز» إذ لا يعقل - فيما أرى - أن يطلب المؤمن من الله أن يجعل إيمانه إيماناً غير قائم على دليل ولا تعقل..

«الوعي الإسلامي»

٢- القرآن والحرية

إن حرية الإنسان، في نظر القرآن، هي أمر طبيعي وضروري وبديهي. وإن حرية الفرد مطلقة إلى آخر حدود الإطلاق ولا تقف إلا إذا اصطدمت بالحق أو بالخير.

وهذا المفهوم الجامع، كما أنه يشمل كل أنواع الحريات، من حرية التفكير وحرية العقيدة والقول والعمل والتملك والتصرف. فإنه يشمل، كذلك، كل أنواع الحق والخير، بالنسبة للفرد ذاته، وبالنسبة لغيره من الناس، وبالنسبة إلى المجتمع. لا فرق، في ذلك كله، بين أن يكون الفعل أو القول مباحاً بذاته للفرد، أو حقاً من حقوقه المشروعة، أو ضرباً من القربات إلى الله. فلو أسرف الفرد في أكل الطيبات إسرافاً مضراً بصحته انقلب المباح حراماً، ولو أسرف في إساءة استعمال حقه وقف حقه، ولو أسرف في الزهد والتقشف والتبتل بل في العبادة نفسها، بل في الصدقات والمبرات، إلى الحد الذي تصطدم عنده حريته بخير نفسه أو زوجه أو ولده أو وارثه أو المجتمع، لانقلبت قرباته هذه كلها إلى محظورات يمنعها القرآن[١].

٢- القرآن والعلم

إن القرآن يجعل لحقائق العلم الطبيعية القاطعة. نفس القوة التي للحقائق الرياضية القاطعة، أي نفس السلطان الذي للعقل. لأن العلوم الطبيعية إنما هي انكشاف للنواميس التي خلقها الله في الكون، فإنكارها، هو بالضرورة، إنكار للعقل الذي يدرك النواميس، وإنكار للذي خلق النواميس، ومعارضة للقرآن الذي استدل، في آيات كثيرة، بهذه النواميس على وجود الله وقدرته. وهذه الإنكارات تؤلف بذاتها تناقضاً عقلياً صارخاً بين الإيمان والعقل.

---

(١) نذكر في هذا قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾﴾ من سورة المائدة. وقول رسول الله ﷺ حين جاءه من يريد أن يتصدق بماله كله فمنعه الرسول وأجاز له أن يتصدق بالثلث وقال له: «والثلث كثير إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم يتكففون الناس». «الوعي الإسلامي»

وليس صحيحاً قولك «إن العلم الذي حث على طلبه الإسلام هو في جوهره العلوم الدينية والشرعية وما يتعلق بها وليس الفيزياء والكيمياء». بل الحث عام يشمل علم الدين، الذي هو أعظم العلوم وأنفعها للمجتمع، ويشمل علم الطب، وكل علم ينفع الناس والمجتمع. وليس أدل على ذلك من الآية ٢٨ من سورة فاطر، التي يخلع بها القرآن وصف «الخشية الكاملة» على علماء الطبيعة، ويكاد يحصرها فيهم حين يقول ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ (فاطر: ٢٧-٢٨) فهل العلماء هنا هم علماء الشريعة والفقه أم هم علماء الطبيعة العالمين بأسرار النواميس في الحياة والنبات والحيوان والمطر وطبقات الأرض الذين يهديهم علمهم إلى معرفة الله وخشيته.

٤- القرآن ليس بموسوعة

ولكن القرآن ليس بموسوعة للعلوم والفنون. وما فيه من الإشارات لبعض النواميس الطبيعية إنما هو للتدليل على وجود النظام المحكم، ثم الاستدلال الفعلي بهذا النظام على وجود الله وأما قول القرآن ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ (الأنعام: ٣٨) فليس معناه أنه موسوعة لعلوم الأولين والآخرين، كما يقول بعض البلهاء. بل معناه أنه لم يترك أصلاً من الأصول ولا مبدأ من المبادئ التي يرتكز عليها الحق والخير إلا ذكره وبينه.

٥- نهج القرآن في الخطاب

إن إعجاز القرآن اللغوي لا يقوم على بلاغته المعروفة عند بلغاء العرب فحسب، وإنما يقوم أيضاً على قدرة عجيبة في التعبير عن الحق بشأن النواميس الطبيعية والاجتماعية. التي لم تكن معروفة للعرب أو معروفة للبشر، ببيان يفهمه البدوي الساذج على قدره، ويفهم أسراره المدهشة العالم أو الفيلسوف على قدره. لأنه ما كان لله العليم الحكيم أن يخاطب الناس بأمور تفصيلية لا يفهمونها ولا سمعوا بها ولا تتسع لإدراكها معارفهم.

فإذا قال لهم سبحانه ﴿وَٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ (الحج : ٦٥) أو قال لهم ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ (الإسراء: ١٢) أو قال لهم ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ (الزمر: ٥)- أو قال لهم ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ (النمل: ٦٠)- أو قال لهم ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾﴾ (الواقعة: ٧١-٧٢) - أو قال لهم ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾﴾ (البلد: ٨) - أو قال غير ذلك من مئات الآيات الدالة على قدرته، المشيرة إلى النواميس التي وضعها في مخلوقاته، فإنه يقول لهم ما يفهمونه على ظاهره. من غير أن يشوش أفهامهم ويذهل عقولهم بذكر ما لا يفهمون من أسرار نواميس «الجاذبية، والنور، والبصريات ودوران الأرض على نفسها أمام الشمس، وقانون أرخميدس، أو أسرار عملية المطر، أو أسرار ناموس الاحتراق عند اتحاد الكربون مع الأوكسجين. . . الخ» ولكنه سبحانه يقول لمن سيأتي من العلماء الذين يطلعون على هذه الإسرار ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْءَافَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ (فصلت: ٣٥) وقد جاء الوقت، وانكشفت بعض الأسرار، وتبين الحق. . والبقية تأتي. .

٦- قانون العلية

من ركائز التفكير العقلية في القرآن أمر الفطرة، ومن جملتها (قانون العلية). ذلك أن في عقولنا قوانين فطرية وهي التي سماها الفيلسوف (كانط) (قوانين العقل المنظمة) Les lois Reglatrices de La Raison، ومن جملتها، بل من أعظمها قانون العلية، الذي يتطلب، بالبداهة، لكل معلول علة، ولكل مسبب سبباً. هذا مقرر وليس لنا أن نشك فيه، كما أنه ليس لنا أن نتطلب عقولاً وراء عقولنا التي فطرنا الله عليها ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ (الروم: ٣٠) - وبهذه الفطرة من (قانون العلية) ندرك وود الله. ومهما اختلف المتفلسفون في هذه الفطرة وكونها مكتسبة من تجارب الإنسان الطويلة، أو كونها من خلق الله، فإن قانون العلية الذي اعتبره (ديكارت) صادقاً وغير خادع،

واستدل به على الله، وعلى صفات كماله، هو، على كل حال، القانون العقلي الذي يتحكم في إدراكنا لكل ما في الوجود، وعليه يقوم العلم، وعليه تقوم المعرفة، وعليه تقوم الحياة، وعليه يقوم الإيمان بالله.

٧- ميزان التناقض

إن النظر العقلي يدور في كل شيء من الماديات والمعنويات، والمشاهدات والمغيبات، حول أحكام ثلاثة. الوجوب والإمكان والاستحالة. هذا مفهوم عند أبسط الناس علماً وفهماً؟! ولكن الذي يشتبه ويخفى أحياناً، على بعض أرقى المثقفين من الشباب، هو التفريق بين نوعين من المستحيل.

المستحيل العقلي: وهو الذي يشكل تصور وجوده، أو تصور عدمه «تناقضاً عقلياً» في الذهن، كقولنا الواحد ربع الاثنين لا نصف الاثنين، أو قولنا جزء الشيء أكبر من الشيء، أو قولنا إن جبل لبنان يدخل في الفنجان. أما المستحيل العادي فهو لا يحدث تناقضاً عقلياً في الذهن، ولكننا بحكم العادة نظن أنه مستحيل، وما هو كذلك ولكننا تعودنا أن نراه مستبعداً كالمستحيل، ثم عرفتنا الأيام أنه ليس بمستحيل عقلي. مثل الصعود إلى السماء، والتخاطب والتناظر من أقاصي الأرض، والوصول إلى القمر.

والميزان الضابط في تكذيب الخبر ليس استبعاده واستغرابه، بل هو كونه يحدث تناقضاً عقليا- يقول «لايبنتز» فإن أحدثه نفيناه، وإن لم يحدثه توقفنا عن التكذيب. فلا يغفلن الشاب الثقيف عن التفريق بين هذين النوعين من المستحيل إذا هو تورط في جدل، حول الله والدين وأخبار القرآن.

ركائز التفكير الإسلامي (٢)

موقف العقل من الإيمان

العدد (٣٤) شوال ١٣٨٧هـ - يناير ١٩٦٨م

٨) نطاق العقل

ومن ركائز التفكير الإسلامي الراسية على أصول القرآن، التفريق في الإدراك، بين عالم الغيب وعالم الشهادة. وهذا نفس ما عرفته الفلسفة، وأوضحه «كانط». فهنالك نوعان من الإدراك للموجودات. إدراك لِكُنْهِ الشيء بذاته. وإدراك لوجوده بالدليل، مع العجز المطلق عن إدراك كنه ذاته. فالعقل البشري قد يستطيع إدراك كنه الشيء بذاته، إلى حد ما، ضمن نطاق محدود، وهو نطاق العالم المادي المحسوس «عالم الشهادة» أما في عالم الغيب غير المحسوس، فالعقل يستطيع إدراك وجود الشيء بالاستدلال ويستطيع إدراك بعض صفاته من آثاره، ولكنه يعجز عن إدراك كنه ذاته.

هذا مقرر لا يحتمل الجدل. وبهذا الإدراك نستدل على وجود الله، وعلى بعض صفات كماله، من آثاره، بدون أن نستطيع إدراك كنه ذاته.

٩) التصور والتعقل

ومن ركائز التفكير الإسلامي الذي ينبع من أصول القرآن أن نفرق بين التعقل والتصور. وهكذا يقول العلم، وهكذا تقول الفلسفة الصحيحة. فليس كل ما يمكن تعقله يمكن تصوره؛ لأننا قد نعقل وجود الشيء بالدليل، ولكن لا نستطيع أن نتصوره. وليس عجزنا عن تصور الشيء الذي تعقلناه مبرراً للقول بعدم وجوده. أترانا نستطيع أن نتصور أن ورقة من ورق السجاير الرقيق، الرقيق، إذا قطعت بالتضعيف ٤٥ مرة[١] ثم ركمت صعوداً فإنها تصل القمر؟ ولكننا بالحساب البسيط

(١) أي مرتين، فأربعة، فثمانية، فستة عشر، فاثنتين وثلاثين فأربعة وستين وهكذا.

يمكن أن نتعقله.

وإذا ألقي إلينا من المجرة مثلاً جهاز تلفزيون أفلا نستدل به على وجود صانع، ثم نستدل به على بعض صفات ذلك الصانع، التي منها أنه عاقل وذكي وعالم.؟ ولكننا مع تعقل وجوده، وتعقل بعض صفاته، لا نستطيع تصور كنه ذاته، لأننا لم نشاهده ولم نحسه، ولكن هل يصح، في حكم العقل، أن ننكر وجوده، لأننا لا نستطيع تصور كنه ذاته، بعد أن تعقلنا وجوده وبعض صفاته بالدليل العقلي القاطع؟

١٠) غايات الأشياء

ومن ركائز التفكير الإسلامي الراسية على أصول القرآن كذلك أننا محجوبون عن إدراك كل بدايات الأشياء ونهاياتها. هذا مقرر. وهكذا خلقت عقولنا. بل هكذا خلقت حواسنا، حتى في عالم المادة الذي نعيش فيه، كما يقول «باسكال». فالصوت إذا أفرط في الشدة يصم أسماعنا، أو على الأصح لا نسمعه، والنور إذا أفرط في الشدة يغشى أبصارنا، بل يصعقنا كما صعق موسى، والقرب يمنعنا من الرؤية إذا أفرط، كما يمنعنا البعد. هذا هكذا في عالم الشهادة، فكيف إذا كان الأمر الذي نريد معرفة أولياته وبداياته ونهاياته وغاياته من عالم الغيب؟

١١) الظن والحق

ومن ركائز التفكير الإسلامي، أن الظن لا يغني من الحق شيئاً وهذا هو نفسه منطق العقل في إثبات الشيء ونفيه. هنالك فرق كبير عند القطع والجزم، بين الإثبات والنفي. فنحن نجزم بثبوت الشيء الذي يقوم الدليل العقلي أو العلمي القاطع على وجوده. ولكن لا يحق لنا أن نجزم بنفي الشيء أو الخبر الذي لم يقم لدينا الدليل على وجوده. إلا إذا كان تصور وجود هذا الشيء، أو هذا الخبر، يشكل تناقضاً عقلياً في الذهن، كما يقول «لايبنتز». أما إذا لم يكن الأمر كذلك، وكان الشيء أو الخبر من النوع الممكن، فإننا نقف أمامه موقفنا من كل ممكن غير مستحيل، فلا نقطع بثبوته عقلاً، ولا نقطع بنفيه عقلاً.

١٢) نواميس الله لا تتخلف

﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾ (فاطر: ٤٣) وكذلك يقول العلم أن النواميس الكونية ثابتة ولا تتعطل ولا تتخلف. ولكن الإنسان يستطيع أن يوقف تأثير ناموس بناموس آخر. ولا يقال هنا إن الإنسان عطل فعل الله، أو عطل خلق الله. ولكن يقال: إن ناموس الله تعطل بناموس الله، كما في تأخير نمو الخلية الإنسانية في الجنين، أو إفسادها، أو تشويهها بالمواد الكيماوية، أو بالأشعة، كما ذكرت في سؤالك.

هذه أهم الركائز في التفكير الإسلامي النابع من معين القرآن، وهي تكاد تكون كالبديهيات في منطق العقل، ومنطق العلم، ومنطق القرآن. وهي الكفيلة بالرد على كل التساؤلات والشكوك والصعوبات التي أثيرت، وبالرد على كل صعوبة يجدها الشاب الثقيف في بعض آيات القرآن، حتى يفهمها، أو يكف عن تكذيبها على الأقل. ويكفي الشاب الثقيف إذا كان يسأل للاستفهام حقاً، لا للجدل والمراء ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾ (الحج: ٨) يكفي أن يعرض شكه على هذه الركائز، وينعم النظر فيها، ليجد الجواب الذي يرضاه العقل السليم، والمنطق القويم، والقرآن الكريم.

● في الرد بإيجاز على تساؤلاتك

أ- أما تساؤلك عن موقف المسلم من الثقافة والحضارة المعاصرة، والانقلاب العلمي، والثورة الصناعية، وكتاب «دارون» في أصل الأنواع، ومؤلف «ماركس» في «رأس المال»، ونظرية «آينشتاين» في «النسبية»، فإنك تجد جوابه في الركائز الثلاث الأولى التي أوضحنا فيها أن القرآن يقدس العقل والعلم والحرية. ولن يكون موقف المسلم، من هذه المستجدات التي ذكرتها، إلا كموقف كل إنسان ذي عقل سليم، يدركها ويفهمها، ويأخذ منها بكل ما يتلاءم مع الحق والخير على أساس مفهوم الحرية في الإسلام.

أما مذهب «دارون» فقد بينا في كتابنا «قصة الإيمان»[١]، نقلاً عن «الرسالة الحميدية» أنه عند ثبوته القاطع، لا يتنافى مع القرآن.

وأما نظرية «أينشتاين» في النسبية فقد بينا في قصة الإيمان أيضاً أنها لا تتعارض مع القرآن في شيء، لأن القرآن يؤيد كل ما هو حق في باب العقل والعلم.

ب- وأما تساؤلك عن خلق آدم من طين فتجد جوابه في كلامنا عن مذهب «دارون» في نفس الكتاب.

ومثله سؤالك عن المعجزات، فإنك تجد جوابه في الركائز (٧، ٨، ٩، ١٠، ١١)، فالمعجزات التي قد ورد ذكرها في كل الكتب السماوية لا في القرآن وحده، ما هي في الحقيقة إلا خرق للناموس من قبل الله. فإذا كنا نؤمن بأن الله هو خالق الكون وخالق نواميسه، فبداهة العقل تحكم بأن الذي خلق الناموس قادر على خرقه. والقول بنفي هذه القدرة هو الذي يشكل تناقضاً عقلياً.

وكذلك سؤالك عن الملائكة والجن، فإنك تجد جوابه في الركائز الخمس المذكورات. لقد كان تصور الملائكة والجن- لعمري- أكثر صعوبة قبل اكتشاف نواميس الضوء.. أما اليوم، بعد معرفة أمواج الضوء وأنواعها من المنظورة وغير المنظورة، وسلالمها الكثيرة التي يقع العالم المنظور في سلم واحد منها فقط، فقد أصبح من قبيل التعنت والمراء أن نقف من الملائكة والجن موقف الإنكار.

والخلاصة أن هذه الأمور الغيبية كلها، من خلق آدم، وخرق النواميس ووجود الملائكة والجن إنما يقع تصديقها أو تكذيبها تحت تمحيص مبدأ التناقض الذي ذكرناه في الركيزة (٧) وبما أنها من النوع الممكن، ولا يحدث تصور حدوثها أو وجودها «تناقضاً عقلياً في الذهن»، فلا مجال للجزم والقطع بتكذيبها.

جـ- وأما تساؤلك عن الآية الواردة في سورة «المؤمنون» التي تتعلق بخلق الإنسان من نطفة وعلقة ومضغة.. وقولك عنها إن ظاهرها يفيد الخلق الدفعي

---

(١) من أحسن ما كتب لهداية النفوس إلى خالقها ولعلنا نستطيع في المستقبل تقديم عرض لهذا الكتاب القيم إلى القراء. «الوعي الإسلامي».

المباشر، وأن هذا يتنافى مع علم الأجنة، وما ثبت فيه من تطور الخلية الإنسانية وتحيرك في كيفية التوفيق بين خلق الله المباشر المتكرر للنطفة فالعلقة فالمضغة فالجنين في أطواره المذكورة، وبين كوننا نستطيع أن نتحكم في نمو الخلية، ونستطيع تأخيره أو تشويهها، ونكون بالتالي المعطلين لعمل الله في الخلق، فإنك لتجد جوابه في الركيزة (١٢)، وفي كلامنا عن خلق آدم ومذهب «دارون»، وقولنا فيه، أن الخلق يمكن أن يكون بالطريق التدريجي التطوري، على مقتضى نواميس وقوانين وضعها الله في الكون. وأحسب أن علم الأجنة مما يؤيد هذا الخلق التطوري، ويقدم عنه مثالاً محسوساً، وإن كان الخلقان يقعان تحت قدرة الله، وليس أحدهما أدل على القدرة من الآخر.

وأما تعجبك مما يعطيه ظاهر الآية من معنى الخلق المباشر المتكرر، فتجد جوابه في الركيزة التي بينا فيها أن نهج القرآن في مخاطبة الناس إنما يكون على قدر أفهامهم ومعارفهم. وما كان لله العليم الحكيم، الذي هو الخالق في الحقيقة على كل حال، أن يحير الناس، في عهد نزول القرآن، بذكر تفاصيل الخلق عن طريق الخلية، ونموها التطوري بقوة النواميس التي وضعها الله في الكون، وهم لا يفهمون معنى الخلية، ولا معنى الناموس، ولا معنى التطور. وهذا ما قلنا عنه أنه من إعجاز القرآن، حين يعبر عن المعنى بعبارة يفهمها البدوي الأمي على ظاهرها، ويفهمها العالم الفيلسوف في أعماق أسرارها.

وآخر الأجوبة عن أمر الخلية هذه تجده في الركيزة (١٢) التي قلنا فيها: إن نواميس الله لا تتخلف، ولكن يمكن توقيف أثرها بتسليط ناموس على ناموس. فنحن عندما نتحكم في نمو الخلية أو إفسادها أو تشويهها لا يقال: إننا عطلنا عملية الخلق التي يقوم بها الله بيده، ولكن يقال: إن أحد نواميس الله قد توقف بأحد نواميس الله، طبقاً لما أراد الله في الناموسين أن يتفاعلا، وطبقاً لما أراد الله للإنسان من التصرف في استعمال النواميس، والانتفاع بها، وطبقاً لما قدره الله في عمله الأزلي، من خلق الجنين، أو عدم خلقه. وهذا أظهر من أن يحتاج إلى جدل.

د- وأما كلامك عن مخالفة الله لجميع الأشياء، وعن قول القرآن عن الله ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ (الشورى: ١١) وقولك أنت عنه في آخر الكلام عن لسان المسلم: «كيف أؤمن بكائن يقال لي إنه في الحقيقة لا يوصف؟ وهل يكون ذهني خالياً من كل معنى أو تصور حينما أصفه بالعدل والرحمة مثلاً؟ ألا يكون عندئذ وجود مثل هذا الإله أو عدم وجوده سيين بالنسبة إليَّ؟».

فإني أسألك، في جوابه: ما لك يا دكتور؟

إنه ليبدو أنك تكاد تضع المشكلة في طريق مسدود أو تكاد تطلقها إلى ظل ذي ثلاث شعب. لا ظليل ولا يغني من اللهب فإما أن تنكر وجود الله، وإما أن تقول بالتجسيد للإله، وإما أن تقول بوحدة الوجود، وما أحسبك تريد شيئاً من هذا.

ثم. هل القرآن وحده قال بهذا التنزيه لله عن مشابهة الحوادث، أم أجمعت عليه كل الكتب السماوية المنزلة الصحيحة، كما أجمع عليه كل الفلاسفة الإلهيون؟

ألا تذكر ما قلناه في الركيزة «التاسعة» عن الفرق بين التعقل والتصور، وأن ليس كل ما يمكن تعقله بالدليل القاطع يمكن تصوره؟ ثم، ألا تذكر ما قلناه في الركيزة الثامنة عن عجز عقولنا عن إدراك كنه الشيء بذاته إلا في المحسوسات؟ ثم. من الذي زعم أن القرآن قال عن الله بأنه لا يوصف؟ أمثلك يقول هذا، والقرآن مملوء بصفات كمال الله سبحانه؟ ولو لم ترد صفات كمال الله في القرآن ألسنا نستطيع أن نعرفها من آثارها؟ ألم يعرفها «ديكارت» بعقله لما رجع عن شكه، واستنتج من وجود نفسه، وجود ربه وخالقه، ثم استنتج من آثاره أكثر صفات كماله[1]؟

هـ- وأما قولك: «إنه يفترض في المسلم أن يعتقد بإيمانه وقلبه لا بعقله وذهنه» فغير صحيح. بل عكسه هو الصحيح. فليس في الإسلام إيمان قلبي روحاني يكتفي بالتخيل أو الإلهام أو التلقين أو التقليد، دون أن يعتمد على أدلة العقل إذا

---

(١) فليس معنى الآية كما فهم الدكتور أنه لا يوصف بالعدل ولا بالرحمة. بل إنه يوصف بهما ولكن على أن نعلم أن الصفات التي يوصف بها غير صفاتنا نفسها التي توصف بها.

نضج العقل، وبدأ بالتفكير، أما الذي يسمونه «إيمان العجائز» فإنه ليس بالإيمان الكامل الذي يقف على رجليه إذا عصفت زوابع الشك وأعاصير الشبهات. ولكنه يقبل من العجائز والعاجزين عن الاستدلال العقلي، من باب رفع الحرج والتكليف بالوسع، وهما من أهم وأحكم مبادئ القرآن. بل إن هذا الإيمان العجائزي، «الذي نحسبه قلبياً روحانياً إلهامياً تلقينياً تقليدياً» ينبع، في الحقيقة، من العقل الباطن الذي تكمن فيه - من غير شعور منا - أدلة العقل، بالفطرة التي فطر الله الناس عليها، ومن بعضها قانون العلية الذي يتطلب العقل فيه لكل معلول علة، ولكل مسبب سبباً.

ولو اكتفى إيمان الإسلام بأن يكون من الظن والخيال والإلهام والتلقين والتقليد، لما كان يختلف في هذا عن إيمان المشركين وعبدة الأوثان!!. إن إيمان الإسلام هو إيمان الحق واليقين، لا إيمان الظن والخيال ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔا﴾ (النجم: ٢٨) وإذا كان إيمان المسلم يقع أخيراً، في القلب والضمير، فإنما ينحدر إليهما من قمة العقل، طاهراً من أدران الظنون والأوهام، بعد أن يمر بمصفاة العقل السليم، ويصبح صالحاً لمقاومة الشكوك والشبهات، كالدم الذي يرده القلب إلى حيث يصفى من سمومه، ليصبح قوياً وصالحاً لمقاومة الجراثيم.. هذا هكذا. ومن ظن أن في الإسلام إيماناً كاملاً غير هذا الإيمان العقلي البرهاني اليقيني، فإنه يشوه معنى الإيمان بالله، الذي يمتاز به دين الإسلام عن الوثنية المشركة بكل أشكالها.



يأس وأمل

حول مؤتمر القمة

العدد (٣٧) محرم (١٣٨٨هـ) - مارس (١٩٦٨م).

عرف القراء فضيلة الشيخ نديم الجسر كاتباً مجيداً وباحثاً عميقاً ولكن ربما لم يعرف الكثير منهم أنه شاعر ممتاز أيضاً، وهذه قصيدة من قصائده يعبر فيها أصدق تعبير وأجوده عما يجيش في صدورنا جميعاً. «الوعي الإسلامي».

أخشى على قلبي، وأنت حبيبه ... أن يستشيط إذا ظللت تذيبه
ما بي، وحقك، أن يكون منعماً ... سيان، عندي، برده ولهيبه
كلا، ولا بي أن يقر قراره ... هين علي سكونه ووجيبه
لكن أخاف فراره وإباقه ... إن طال من هذا الجفاء نصيبه
ويلي إذا انتهت الحياة ولم أجد ... قلباً منيباً في الحساب أنيبه
فتن الحياة أمرها تلك التي ... تأتي على القلب الكسير تريبه
واحسرتا للعبد يظلم نفسه ... ويظل يعلو بالثبور نعيبه
ويقول ربي شانني وأهانني ... ويخوض في قدر السماء يعيبه
وإذا أصاب الخير قال، بجهله ... هذا على علم لدي أصيبه
يكبو، ويطلب أن يقال عثاره ... يجني ويرجو أن تقال ذنوبه
وينام من سنن الحياة ويشتهي ... أن المحال إذا دعاه يجيبه
يا سادة جمع «الكتاب» شتاتهم ... ووقاهمُ من فرقة تهذيبه
بالله بالإسلام بالجرح الذي ... ما زال ينهر في القلوب صبيبه
لا تتركوا أحقادكم تطغى على ... إيمانكم بالله فهي تشوبه

الخطب في الإسلام فوق صغائر ... نلهو بهن وقد أطل رهيبه
لم ننس «أندلسا» وكيف أضاعها ... ذاك الشقاق، وفي الفؤاد ندوبه
دول نكاد نكون في تاريخنا ... صورا لها يطوي البعيد قريبه
ما كانت «الحمراء» إلا ومضة ... من عهد مجد قد أطل شحوبه
القصر لا يبقى إذا لم يحمه ... شعب أبي ضرسته حروبه
أولى علامات الزوال لأمة ... ترف يدب إلى الشعوب دبيبه
أستغفر الرحمن من يأس بدا ... مني على غرب الدموع غريبه
لم يجتمع، في صدر عبد مؤمن ... يأس مع الإيمان فهو يشوبه
ثلث البسيطة ملكنا، وعديدنا ... ثلث الورى والدين نحن قطوبه
ولنا من البر الفسيح عوالم ... ولنا من البحر المحيط دروبه
ولنا من الأمواه أعظم أنهر ... ولنا من النفط العظيم قليبه
ولنا، ببحر الروم، أطول ساحل ... هو حصة الأسد اشترته نيوبه
وعلى معابره الثلاثة تلتقي ... أشداقنا، فنجبه، ونجوبه
ويشد وحدتنا كتاب واحد ... نلقى عليه الله وهو حسيبه
مهما تفرقنا فلا معدى لنا ... عن ألفة يقضي بها تأديبه
هذا بمعركة البقاء سلاحنا ... لم يجتمع عند الشعوب ضريبه
إن مسنا قرح فما من معشر ... إلا أتاه، من القروح، نصيبه
دول هي الدنيا يداولها الذي ... خلق الوجود وصرفته غيوبه
هي نكبة لكن أكاد أرى بها ... خيراً لشعب أترفته عيوبه
ما الخطب، عندي، أن يباغت نائم ... في غفلة، بالمترفات، تنوبه
الخطب أن يبقى الخمار ملازماً ... شعباً توطأ بالنعال جنوبه

نديم الجسر

بشائر عن معركة المصير بين المسلمين وإسرائيل (١)
في ضوء القرآن والأحاديث النبوية والنواميس الكونية والتاريخ

العدد (٤٨) ذو الحجة ١٣٨٨هـ - فبراير ١٩٦٩م

في الأيام الأول من بعد المعركة الخاسرة شعرت أن صورة الإيمان قد اهتزت في القلوب، وأن الثقة بالله قد ارتجت بمس طائف من سوء الظن، وأن سكينة التفاؤل بوعد الله ورسوله قد انقلبت إلى قلق متشائم كاد يصل عند كثير من الناس، إلى حدود الشك والخوض في قدر الله، فأصبح أعظم همي، بل كل همي، أن أعيد الثقة إلى النفوس، في بلدي وكل بلد إسلامي زرته، ومن هنا كان اختياري لموضوع «المبشرات» ليعرف المسلمون من علماء الدين ما يحفظ عليهم إيمانهم، ويرد إليهم ثقتهم بالله وبأنفسهم، فألف معركة خاسرة تاعسة في ميادين الحروب أهون من معركة واحدة خاسرة تاعسة في طوايا النفوس والقلوب.

- **المسلمون بين الغرور والاستخذاء**

من جوامع الكلم المروية عن رسول الله ﷺ قوله «ما هلك امرؤ عرف قدره». ولكن أكثر الناس يحملون هذه الكلمة الجامعة على وجه واحد من النصيحة، وهو أن يعرف الإنسان جوانب ضعفه ونواحي عجزه، وقل أن يتبادر منها إلى الأذهان ذلك المعنى الأهم الأوسع، الذي نحن أحوج إليه اليوم، إن غفلة الإنسان عن معرفة قدر نفسه، في حقيقة ضعفها وعجزها ونقصها، ليست أكثر ضرراً من غفلته عن عرفان قدر نفسه في حقيقة قوتها وقدرتها.

ويزداد هذا الضرر ضراوة واستشراء إذا كانت الغفلة في حادث يتعلق بالجماعة والأمة، لأن للاستخذاء والخور واليأس والتهالك، عند صعقة البلية وبغتة النازلة، عدوى سارية طاغية، تنتقل من الضعفاء إلى الأقوياء بل من السخفاء إلى الحكماء، وهذا من حقائق علم النفس، ولولا ذلك لما استخذينا

وتهالكنا كلنا بعد النكبة: حيارى مولولين يائسين قانطين، كأن المسلمين لم يصابوا، قبل اليوم، بأية نكبة، وكأن تاريخ الأمم، التي تتحكم اليوم في الأرض، خلو من النكبات...

وهكذا دلت أحوال المسلمين، من قبل النكبة، على أنهم في غرور، ودلت أحوالهم، من بعد النكبة، على أنهم في استخذاء، والاستخذاء شر من الغرور.

فألف معركة خاسرة تاعسة في ميادين الحروب، أهون شراً، من معركة واحدة خاسرة يائسة في طوايا النفوس والقلوب.

واستخذاء النفوس أول علامات موت الأمة، كما أن الأمل، والثقة بالنفس، أول أسلحة النصر والبقاء.

والواثق بالله وبنفسه يستطيع أن يعد العدة. أما القانط من ربه ونفسه فلا يستطيع. ولو أعد له السلاح لا يحمله، وإن حمله لا يصدق في استعماله، لأنه يصبح إلى الكفر أقرب منه إلى الإيمان. ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنعام: ١٢).

إن في تاريخنا، وتاريخ الدول التي تحكم العالم اليوم، عثرات وكبوات ونكبات أعظم، بألف مرة، من هذه النكبة التي أصابتنا.

معركة «أحد»، التي جرح بها النبي القائد الأعلى، في قلب معقله، وكاد يقتل، بعد تخبط الجيش وانكساره لم تكن نكبة الأبد.

وهزيمة «حنين» التي بقي فيها النبي وحده على سرجه ينادي الناس، لم تكن نكبة الأبد.

وفتح الصليبيين لبلاد الشام، وتمكنهم فيها مدة قرنين، لم يكونا نكبة الأبد.

واستيلاء التتر على بغداد عاصمة الخلافة وتخريبها، بعد قتل الخليفة المستخذي، لم يكونا نكبة الأبد على شعب نثل سهامه من «كنانة الله» فاستطاع أن يصنع معركة (حطين) ثم استطاع أن يبيد إبادة كاملة في «عين جالوت»، جيوش المغول المتحالفة مع الصليبيين، كما يقول مؤرخو الإفرنج أنفسهم متعجبين مدهوشين... وهزيمة دمياط، التي كانت تحمل كل عناصر النكبة اليائسة من

خيانة القائد المتراجع سعياً وراء العرش، إلى موت (الملك الصالح) لم تكن نكبة الأبد على شعب لم تخرجه الكارثة عن ثقته بالله، (الصالحية) لم تكن نكبة الأبد على شعب لم تخرجه الكارثة عن ثقته بالله، فاستطاع أن يأسر ملك فرنسا العظيم الشأن، ويسجنه في دار القاضي لقمان بالمنصورة.

واحتلال الاستعمار، في القرن الماضي، للهند وأندونيسيا، والجزائر وتونس ومصر والسودان والمغرب الأقصى وسوريا ولبنان وفلسطين والعراق، أي للعالم العربي والإسلامي كله تقريباً، لم يكن نكبة الأبد. . .فهذه الأقطار كلها تتمتع اليوم بالاستقلال.

واحتلال الحلفاء في سنة ١٩١٨ لاستانبول عاصمة الخلافة، لم يكن نكبة الأبد على شعب لم يفقد ثقته بالله وبنفسه، فناضل وجاهد، وانتهى به الأمر، بعد ربع قرن أو أقل، إلى أن يرى الحلفاء الذين حطموه وحاولوا إذلاله، يستجدونه استجداء ليدخل معهم في حلف الأطلسي.

هذا عندنا. أما عند الأمم الأخرى فالأمثلة أكثر وأوجع.

إن أسر ملك فرنسا في معركة «المنصورة» لم يكن نكبة الأبد، فقد عاد الملك الأسير، بعد أمد قصير يشن حملة صليبية أخرى على تونس. . . فأخذه الله، هنالك بالطاعون كما أخذ أصحاب الفيل. . .

وأسر فرنسوا الأول ملك فرنسا في معركة «بافية»، التي «خسر فيها - على حد قوله- كل شيء إلا الشرف» لم يكن نكبة الأبد على شعب استطاع بعد ذلك أن يتحكم في أوروبا في عهد لويس الرابع عشر.

وانتصار فرنسا وحلفائها على ألمانية، في الحرب العالمية الأولى، لم يكن نكبة الأبد على شعب استطاع في الحرب العالمية الثانية أن يحتل باريس.

واحتلال ألمانيا الهتلرية، هذا، لفرنسا، لم يكن نكبة الأبد على شعب استطاع أن يسترد دوره في قيادة أوروبا، ويصنع القنبلة الذرية، في عهد ديغول.

غثاء السيل

ذلك الاستخذاء في النفوس هو الذي عبر عنه النبي ﷺ «بالوهن» وشبهنا، من أجله «بغثاء السيل»، في حديث يعد من معجزات أخبار الغيب، يصف به حالة المسلمين، في عصورهم الأخيرة هذه وصفا ينطبق على واقعنا(١) الحاضر بعد مرور أربعة عشر قرنا مع الأسف الشديد!!

إن حاضر العالم الإسلامي اليوم يتلخص وصفه بما يأتي:

١- **في العدد**: كتلة هائلة من البشر يبلغ عددها الحقيقي، لو جرى إحصاء دقيق، أكثر من سبعمائة مليون، أي ما يزيد على ربع سكان الأرض.

٢- **في المكان**: تحتل هذه الكتلة العظيمة وسط العالم القديم وسرته، في رقعة واسعة متصلة تجمع بين آسيا وأفريقيا، وتشمل أكثر شواطئ البحر الأبيض المتوسط، وجميع البحر الأحمر، وأكثر من ثلث البحر الأسود، وأكثر بحر قزوين، وتتسلط، تسلطا تاماً، على أخطر الممرات والمعابر البحرية في العالم القديم، مضيق جبل طارق، ومضيق الدردنيل، ومضيق البوسفور، وقناة السويس، ومضيق باب المندب، ومضيق هرمز، ومضيق «مالقا» وغيرها.

٣- **في الثروة المائية**: تضم هذه الرقعة الإسلامية ثلاثة من أعظم أنهار الدنيا: النيل والفرات والدجلة، عدا نهر العاصي ونهر السند وغيرهما من الأنهار والبحيرات.

٤- **في الثروة النباتية والحيوانية والمعدنية**:

تعتبر رقعة الأرض الإسلامية بحكم اتساعها، واتصال أراضيها، وتنوع

---

(١) بعض ضعاف النفوس يتخذون من هذا الحديث ذريعة للاستسلام والرضا بالضعف باعتبار أن هذا الوصف قاله الرسول الصادق، ولا بد أن يقع. والواقع أن الرسول قال هذا للتحذير من الوقوع فيه، وللتحذير من الرضا به والاستسلام له حين يحدث، فهو في حقيقته يبعث على القوة ويحث على التخلص من أسباب الضعف التي ذكرها وهي حب الدنيا وكراهة الموت. «الوعي الإسلامي».

أقاليمها ومناخاتها، وطول شواطئها، قارة كاملة تجمع كل أنواع الثروة النباتية والحيوانية والمعدنية المتنوعة. فهي في حالة اكتفاء ذاتي كامل، لا يعد لها فيه من الدول، إلا الولايات المتحدة الأميركية. هذا كله فوق ثروتها الممتازة، التي تتحكم في صناعة العالم القديم وتجارته، وفي وسائل النقل، بل تتحكم في مصير العالم عند الحروب الكبرى، وهي الثروة البترولية الهائلة، التي تبلغ في الإنتاج، أكثر من ربع إنتاج العالم كله، وعلى مزيد جديد يظهر في كل يوم، وتبلغ في احتياطي البترول، أكثر من ٢٦ ألف مليون طن، أي أكثر من ٥٦ في المائة تقريباً من احتياطي العالم المقدر بثمانية وأربعين ألف مليون طن. وهي ثروة لا يتم اعتزازنا بها إلا إذا تذكرنا أن إنتاج البترول غير العربي، ينحصر جزء منه في روسيا، ولا يكاد يكفيها لحاجاتها الصناعية والحربية، أما الأجزاء الأخرى فمحصورة في أمريكا البعيدة عن العالم القديم بعدا شاسعاً يجعل نقل البترول صعباً وغالياً بل يجعله، عند الحروب العامة، متعذراً.

إن هذه الحقائق التاريخية والجغرافية التي ذكرناها، بشيء من الإسهاب، تكاد تكون معلومة عند أقل الناس اطلاعاً، وما كنا بحاجة لذكرها لولا أن من طبيعة الإنسان، عند طغيان التشاؤم على قلبه، أن يذكر النقمة وينسى الصبر عليها، ويكفر النعمة وينسى الشكر لها. وإلى هذا أشار القرآن بقوله: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (إبراهيم: ٥).

٥- **في الوحدة الدينية**: يضاف إلى تلك القوى البشرية والطبيعية الهائلة قوة معنوية لا مثيل لها، في تماسكها وقدسيتها، عند أمة من أمم الأرض، وهي قوة الأخوة الدينية، رغما عما يبدو، في الظاهر، من تعادي الحكومات العربية والإسلامية وتناحرها، فالحكام والحكومات شيء، والشعوب، في قلوبها وضمائرها شيء آخر.

ولكن على الرغم من هذه القدرة المادية والمعنوية الهائلة فإن أكثر العالم الإسلامي (من المغرب العربي على الأطلانطيكي إلى إندونيسيا وجوارها في أقصى الباسيفيكي، إلى التركستان والقفقاس إلى أواسط أفريقيا) كان محتلاً

ومستعمراً إلى وقت قريب، فصح وصدق، بهذا الواقع، ذلك الكلام المعجزة من قول النبي ﷺ لأصحابه «يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها. فسأله أحد أصحابه: أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير. ولكنكم غثاء كغثاء السيل» وفي رواية[1] ورد ذكر «الوهن» و«كره القتال».

خميرة البقاء

ولكن هذه الأمة التي أصبحت، في عصورها الأخيرة «كغثاء السيل» مما اعتراها من «الوهن وكره القتال» لا تزال تحمل في باطنها خميرة البقاء.

لقد ظهرت على مسرح التاريخ أمم ودول وإمبراطوريات، حكمت العالم، ثم طواها الدهر حين دب فيها «الوهن» واجتاحتها أمم فتية قوية، أكلتها وبلعتها وهضمتها، حتى لم يبق لها وجود إلا في كتب التاريخ أو دور الآثار. ولكن هؤلاء المسلمين، الذين حكموا العالم، ثم صاروا كغثاء السيل، واجتمع لهم من أسباب الوهن ما يكفي لزوال الأمم وانقراضها، لا يزالون قائمين.

تداعت عليهم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها، وأكلت من قصعتهم ولا تزال تأكل، ولكنها لم تستطع أن تأكلهم.

يذكرني هذا الصمود بالعادة، التي يروى أنها كانت متبعة عند الإسبارطيين الأشداء: كانوا يغطسون الطفل عند ولادته، في البحر تغطيسا يكفي في العادة لاختناقه وموته. فإن مات ذهب غير مأسوف عليه، وإن صمد فهو الصالح للنضال والبقاء.

فما هي الخميرة التي جعلت المسلمين يصمدون ويصلحون للبقاء على الرغم من تلك الكوارث التي أصابتهم؟

(١) جاء في هذه الرواية تكملة للحديث «ولينزعن الله من قلوب أعدائكم المهابة منكم وليقذفن في قلوبكم الوهن قالوا وما الوهن يا رسول الله؟ قال حب الدنيا وكراهة الموت» «الوعي الإسلامي».

إن المسلم المؤمن بالقرآن يجد الجواب في بشائر كثيرة، أوضحها قوله تعالى، بالتوكيد بعد التوكيد، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ (الحجر: ٩).

والذكر هو القرآن. وحفظه إنما يبلغ الغاية من تنزيله بحفظ الأمة التي تذكره وتحفظه.

ولكن المسلم يجد التعليل، الاجتماعي العقلي، لصمود المسلمين، في آيتين أخريين، يقبلهما عقله وإن لم يؤمن بالقرآن، لأنهما تكشفان عن ناموس اجتماعي تدركه العقول:

الآية الأولى قوله تعالى في سورة الرعد ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ (الرعد: ١٧).

والآية الثانية قوله تعالي في سورة إبراهيم ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ (إبراهيم: ٢٤ -٢٧).

الزبد رغوة لا تلبث - وهي تفور وتعلو - أن تتلاشى وتذهب جفاء.

والذهب، الذي لا يفور ولا يعلو، هو الذي يبقى في الأعماق ويمكث في الأرض، ويصمد لتأثير الماء والهواء فلا يصدأ ولو تراكم عليه التراب.

والشجرة الطيبة يحافظ عليها الناس، والشجرة الخبيثة الضارة يجتثها الناس لتذهب طعاما للنار.

أليس هذا هو ناموس الأنسب والأصلح؟

وما هو الزبد؟ أليس هو الباطل الذي يزهق كما قال القرآن؟

وما هو الذهب؟ أليس هو الحق الذي يبقى كما قال القرآن؟

وما هي الشجرة الطيبة؟ أليست، هي شجرة الحق والخير؟

وما هي الشجرة الخبيثة؟ أليست هي شجرة الباطل والشر؟

لو أن للفلك أن يعكس دورته، ويرجع القهقرى إلى عهود الظلام العقلي

القديم، لكان ممكنا للشجرة الطيبة أن تجتث بمعول الجهل، ولكان ممكنا، للشجرة الخبيثة السامة، أن تعبد على أنها إله مخيف قتَّال، ولكن التفكير الإنساني أخذ يسير في النور نحو الحق. وكلما ازداد النور سطوعا ازداد الحق ظهورا، فخميرة بقاء المسلمين هي هذا الحق الذي يرتكز عليه الإسلام، والذي يزداد ظهورا وإشراقا كلما ازداد التفكير الإنساني نضوجا وازداد تفهما «الوسطية الإسلام».

وسطية الإسلام

ومن هذه الخميرة تنبع «وسطية الإسلام» التي بشرنا الله بها بقوله:
﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ (البقرة: ١٤٣).
وقوله: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾ (آل عمران: ١١٠).

والوسط هو العدل. والتوسط هو الاعتدال. والشهادة، هنا، بمعنى العلم والإعلام. فما هي هذه «الوسطية» العادلة المعتدلة، التي جعلنا الله عليها، وأمرنا أن نقف عندها، وأن نرشد الناس إليها؟

أهي في الوقوف مع الحق ضد الباطل؟

أهي في الوقوف مع الخير ضد الشر؟

هذه بديهيات ساذجة تقرها كل الديانات السماوية والقوانين والشرائع الأرضية، وتعرفها كل العقول، فليس فيها نظرة جديدة عميقة تصلح لحل أزمات الصراع الفكري حول قضايا الإيمان والعقل والعلم والحرية والمجتمع.

فالوسطية الإسلامية - إذن - أعمق من ذلك:

إنها في الوقوف بالمركز الوسط العدل الذي نكون فيه قادرين على أن نمنع تعارض الحق والخير مع الحق والخير: فالحق بذاته، لا يمكن أن يتعارض مع الحق، والخير بذاته لا يمكن أن يتعارض مع الخير. ولكن الإفراط والتفريط في النظرة هو الذي يعطل صفاء الإدراك، ويعكر صفاء الاستنتاج، ويشل القدرة على التوفيق بين هذه المعاني الكريمة:

فالإيمان بالله حق وخير، وبه أمرنا. والعقل الذي ندرك به وجود الله حق وخير، وبتحكيمه أمرنا. وقضايا العلم حق وخير، وبالاستدلال بها على الخالق أمرنا. ولكن لا يجوز أن نجعل تحمسنا المفرط لخدمة الإيمان وصونه من الجدل سببا لتعطيل العقل بتحميله المتناقضات، أو نجعل تعظيمنا لقدر العقل سببا لتحميله ما هو فوق طاقته من معرفة كنه الغيب الذي استأثر الله بعلمه، أو نجعل زهونا باكتشاف قضايا العلم التي هي، في الحقيقة انكشاف لنواميس الله في خلقه، وسيلة للكفر بالله، وهي من أول الدلائل على الله.

وقدر الله حق وخير، وبالإيمان به أمرنا. والأخذ بالأسباب حق وخير، وبه أمرنا. فلا يجوز أن نجعل سوء فهمنا لمعنى القدر سببا لتعطيل الأخذ بالأسباب، أو نجعل اعتمادنا على الأسباب طريقا لإنكار قدر الله، الذي ﴿تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ (الروم: ٢٥). وإعداد القوة لدفع العدوان حق وخير، وبه أمرنا. والتوكل على اللّٰه حق وخير، وبه أمرنا. فلا يجوز أن نجعل اعتمادنا على إعداد القوة سببا لتعطيل اتكالنا على الله. أو نجعل اتكالنا على الله سببا لإهمال ما أمرنا به من إعداد القوة.

والحرية الشخصية للإنسان الفرد حق وخير، وبصيانتها أمرنا.

ومصلحة الجماعة حق وخير، وبحفظها أمرنا. فلا يجوز أن نعطل الحرية الشخصية تعطيلاً مطلقاً على حساب مصلحة الجماعة، ولا أن نتجاهل مصلحة الجماعة على حساب الإفراط في تقديس الحرية الفردية إلى حد الفوضى.

فالوسطية الإسلامية هي في هذا التوفيق بين هذه المعاني وأمثالها من الحق والخير، توفيقاً كاملاً تبقى معه غير متعارضة ولا متناقضة ولا يغني بعضها عن بعض.

بهذه الوسطية ساد المسلمون، ثم تخلوا عنها فأصبحوا كغثاء السيل، وتداعت عليهم الأمم حتى أضعفها وأذلها كاليهود ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الأنفال: ٥٣). صدق الله العظيم.

عناصر أساسية

في معركة المصير الأبدي للأمم والدول عناصر ثلاثة طبيعية أولية أساسية وضرورية، يقوم عليها بقاؤها الأبدي. وعناصر أخرى ثانوية تساعد على استدامة البقاء. وما أشبه ذلك، عند التمثيل والتوضيح، بالإنسان: بين أن يخلق خلقاً سوياً، في جسده وحواسه، ثم يستكمل بعد ذلك أسباب بقائه بالسلاح، وبين أن يخلق، من بداية أمره، مسيخاً ضعيفاً مشوهاً، فلا ينفعه أي سلاح ثانوي في معركة البقاء.

والعناصر الثلاثة الطبيعية الأساسية التي لابد من اجتماعها للأمة التي يكتب لها البقاء هي:

أ- الأرض الكافية الوافية.

ب- العدد الكافي للبقاء.

ج- الوحدة الفكرية الوجدانية الضامنة لجمع القلوب.

وكل نقص، في غير هذه الثلاثة، من علم وتصنيع وتسلح يمكن تلافيه مع الزمن:

أما الأرض الكافية فأعني بها:

أ- تلك التي تضمن الاكتفاء الذاتي، للأمة القاطنة فيها، بالموارد الطبيعية: (المائية والنباتية والمعدنية الصالحة للغذاء والوقود والتصنيع والتسلح والحرب) فلا تحتاج معها إلى سواها من الأمم.

ب- وأن تكون الأرض منفتحة على العالم براً وبحراً، أي غير محصورة بالبر فلا بحر لها، وغير محصورة بالبحر.

ج- أن تكون الأرض مستعصية، بسعتها، وتنوع مناخاتها، على الفناء الشامل بالكوارث الطبيعية المختلفة، كالجفاف والصقيع والزلازل والخسف. فلو أصابها، في بعض مناطقها، شيء من هذه الكوارث سلمت المناطق الأخرى الكافية للعيش والاكتفاء الذاتي.

أما العدد الكافي فأعني به العدد الغفير:

د- الذي يضمن للأمة معيناً لا ينضب، أو غير سريع النضوب، من البشر، الذين يمدون الجيوش مهما طالت الحرب، ويخلفون الموتى عند الكوارث المرضية والمجاعات.

هـ- والذي يستعصي، بصورة خاصة، على خطر الفناء الجديد بالقنابل الذرية التي يمكن، إذا كانت أرض الأمة ضيقة وعددها قليلاً، أن تكون سبباً لإفناء الأمة بكاملها فلا يبقى منها عدد كاف يصلح لاستئناف الحياة واستمرار البقاء.

أما الوحدة الفكرية فإنما أعني بها الوحدة التي تجمع قلوب أفراد الأمة كلهم حول هدف واحد، ثابت، لا يزول ولا يحول ولا ينحرف باختلاف المؤثرات القومية والعنصرية والسياسية والاقتصادية، بل يثبت أمام كوارث الفقر والجوع والموت، ثباتاً عقائدياً يبقى قائماً في قرارة وجدان الأمة.

فإذا قيل لكم، يا شباب المسلمين، أن أمة على وجه الأرض، بل في تأريخ الأرض، قد اجتمعت لها هذه العناصر الطبيعية الأساسية الثلاثة الضامنة للبقاء الأبدي بأمر الله، أكثر مما اجتمع للأمة الإسلامية فلا تصدقوا، ومهما قيل لكم من ذهاب ريح المسلمين بسبب تنازعهم فلا تخافوا ولا تيأسوا.

أخوة المسلمين

إن أخوة المسلمين، على اختلاف أقطارهم وأعراقهم وألوانهم ومصالحهم الدنيوية، ليست من نوع الأخوة الوطنية، ولا من نوع العصبية، ولا من نوع الرابطة الاجتماعية، التي تشد الأواصر بين الخلطاء والشركاء حول مصالحهم الاقتصادية والمعاشية، ولكنها أخوة من صميم العقيدة، لا يتم إسلام المسلم، ولا يتحقق إيمانه إلا إذا استقرت في قلبه استقراراً وجدانيا، ينسى معه كل مصلحة شعوبية أو مذهبية أو عصبية أو إقليمية أو عائلية أو شخصية أو اقتصادية، أو معاشية، حتى يجعل هذه المصالح كلها تحت قدمه إذا تعارضت مع تلك الأخوة

الإسلامية المقدسة.

ولا يغترن أحد من المسلمين أو غير المسلمين بما يراه اليوم في هذه الأخوة من تخلخل عند بعض ضعفاء النفوس، فإن هؤلاء قلة. ومثلهم عند الأمم كثير. ولاسيما الأمم التي دخلت زمنا طويلاً تحت حكم الغزو والاحتلال. ولكن ما من مسلم، مهما بلغ رجسه في الخيانة، ومهما بلغ الثمن الذي باع به نفسه، إلا ويجد في سويداء قلبه، إذا هو خلا، في سواد الليل، إلى نفسه، غصة أليمة في الفؤاد، وكرباً ممضاً في الضمير، مادام يؤمن بالله وبأن محمداً رسول الله.

هذه حقيقة يعرفها كل مسلم من نفسه وإن جهلها أو شك فيها غير المسلمين.

وكيف لا يكون المسلم كذلك إذا كان يؤمن بالله ورسوله، وهو يسمع قول الله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات: ١٠) وقوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾ (محمد: ٢٢-٢٣) ويسمع قول رسول الله ﷺ «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضوا تداعت له سائر الأعضاء بالحمى والسهر» وقوله ﷺ: «من بات ولم يهتم لأمر المسلمين فليس منهم» وقوله ﷺ «من غشنا فليس منا» و«من حمل علينا السلاح فليس منا» وقوله «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر» وقوله ﷺ: «إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار».

للبحث بقية

* * *

بشائر عن معركة المصير بين المسلمين وإسرائيل (٢)
في ضوء القرآن والأحاديث النبويَّة والنواميس الكونية والتاريخ

العدد (٥٠) صفر (١٣٨٩هـ) إبريل (١٩٦٩م)

ما وجدت لتبقى

أما إسرائيل فلن يكتب لها البقاء، لأنه لم يكتب لها البقاء.

يقول الذين خلقوها إنها وجدت لتبقى. وأنا أقول: إنها وجدت لتزول. لا أقولها مغروراً ولا موتوراً ولا مهولاً ولا معللاً بالآمال، ولكن أقولها عارفاً بنواميس الاجتماع، التي بني عليها وجود الأمم، وبقاؤها أو زوالها، بأمر الله، وحتمية التاريخ.

دولة إسرائيل هذه لن تبقى في فلسطين ولو اجتمع يهود العالم بملايينهم العشرة المبعثرة في جوانب الأرض، وجاءوا كلهم إلى فلسطين، وحمل كل واحد منهم مدفعاً في دبابة وصاروخاً في طيارة.

ما هي دولة شاوول وداود وسليمان عليهما الصلاة والسلام، اللذين نقرأ عن أمجاد ملكهما في تاريخ الدين والدنيا صفحات ذهبية، يكاد بريقها يوهمنا أنها دولة عظيمة؟

إنها دويلة بل أصغر من دويلة، لا يتعدى كيانها حدود رقعة صغيرة من قطر فلسطين الصغير القاحل، الضيق، المحصور بين الإمبراطوريات الفرعونية والكلدانية والآشورية والفارسية والمقدونية والرومانية، المتطاحنات في حروب لا نهاية لها للسيطرة على العالم القديم.

فهي من وجهة النظر إلى ماهية كيانها الأرضي والبشري، (وبقطع النظر عن الرسالة السماوية التي كانت ملقاة على عاتقها) لا تكفي، بأرضها وسكانها

وهيكلها الذهبي، أن تكون لقمة في أشداق تلك الإمبراطوريات التي تقوم على جوانبها من الشرق والغرب.

هذا من بديهيات الناموس الإلهي الاجتماعي الذي يسمى «ناموس تنازع البقاء وبقاء الأنسب» وهو الأقوى بكل معاني القوة.

ولكن دولة داود وسليمان قد وجدت بتدبير الله من أجل حكمة عظيمة استنفذت أغراضها منذ عشرين قرنا.

إنها وجدت، بمعونة الله، لحماية رسالة الحق والخير، التي أراد الله حفظها، في تلك الفترة من التاريخ على يد الشعب الباقي، (بعد إبراهيم عليه السلام ونسله)، على عبادة الله الحق من طغيان الوثنية. فازدهرت الدولة في عهد داود وسليمان، حين كانت تقوم على مبادئ الحق والخير.

ثم فسد الشعب اليهودي، وخرج عن مبادئ الحق والخير، بفسوقه وعصيانه وترفه وظلمه وقتله الأنبياء، فخسرت الدولة اليهودية سبب وجودها وسند بقائها الأوحد، وخسرت الديانة اليهودية المحرفة مقومات صلاحها، فأرسل الله السيد المسيح، صلوات الله عليه، بالإنجيل والدين الحق، ليحل محل الديانة التي أفسدها أهلها.

وسلط الله على الدولة الفاسدة من زلزلها، وعلى الشعب المفسد الفاسق الظالم من مزقه وشرده تشريداً لم يعرف التاريخ نظيره في أي شعب من شعوب العالم: فكان الإجلاء الأول على يد بختنصر الكلداني، وكان بعد ذلك هدم الهيكل والتشتيت في أطراف الأرض على يد تيطوس الروماني، الذي لا نزال نقرأ اسمه وذكرى نصره على اليهود منقوشين على قوس النصر المنصوب له في روما.

انتهت الدولة اليهودية الصغيرة لأنه لم يبق لوجودها أي سند إلهي وهو حماية الدين الحق.

وانتهى الشعب اليهودي، كوحدة اجتماعية، لأنه لم يبق له كيان اجتماعي مستقل بحكم تشتته وضعفه وقلته وفقدان أرضه، وعانى اليهود، من ضروب الاضطهاد والقتل والذبح والحرق والتعذيب والإذلال على أيدي النصارى، ما

أنبأ عنه القرآن بقوله: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ (البقرة: ٦١).

بعد هذا التمهيد التاريخي والاجتماعي أعود فأكرر قولي: إن دولة إسرائيل لن تبقى:

أولاً- لأن كيان الدولة اليهودية فقد مبررات وجوده الدينية فأعطاها لغيره.

ثانياً- لأن دولة إسرائيل الجديدة الاصطناعية غير الطبيعية لا تصلح للبقاء، في أرض فلسطين بالذات، بحكم ناموس تنازع البقاء لأنها محرومة من العنصرين الأساسيين الضروريين للبقاء، وهما الأرض الكافية والعدد الكافي.

ثالثاً- لأن فلاسفة اليهود الذين فكروا بإيجاد دولة يهودية خدعوا أنفسهم حين ركزوا أنظارهم على جاذبية الدعاية الدينية، التي تسحر كل يهودي يقال له إنك سوف تحيي دولة داود وسليمان في هيكل سليمان.

فيا لغباء الفلاسفة.. لقد تذكروا جاذبية الدعاية الدينية عند اليهود، وغفلوا عن رد الفعل العنيف للدعاية الدينية عند المسلمين، الذين يدخل في صميم عقيدتهم حفظ المسجد الأقصى والأرض المقدسة، التي بذلوا في الحروب الصليبية دماء غزيرة حتى استردوها، والتي مضى على استقرارهم التاريخي فيها مدة تكاد تكون أطول مدد الاستقرار لشعب على أرض في التاريخ.

من هذا يظهر بوضوح: أن خلق هذه الدولة في أرض فلسطين الضيقة القاحلة، التي لا تكفي بمساحتها وثروتها الطبيعية لتكوين دولة قادرة على البقاء، ومن شعب لا يكفي بعدده، ولو اجتمع كله، للصمود، وفي وسط بحر من الامتداد العربي والإسلامي الهائل، ومع التجاهل الأبله لما يمكن أن يصير إليه العرب والمسلمون من العلم والقوة والتسلح، كان خلقاً مسيخاً يحمل في صدره عناصر زواله، لأنه لا يعتمد على أساس من الأسس التاريخية والاجتماعية أو الأرضية أو العددية أو الاقتصادية التي يبنى عليها بقاء الأمم.

وإن قيل لكم يا شباب المسلمين إن هذا الكيان الاصطناعي تحميه الدول

الغربية المسيحية إلى الأبد فلا تصدقوا، لأنه لا يوجد مبرر طبيعي أو تاريخي لحماية هذا الكيان إلى الأبد.

فالحماية إما أن تكون للعاطفة والمودة، وإما أن تكون للمصلحة: أما العاطفة والمودة فلا عاطفة ولا مودة. وتاريخ المسيحيين مع اليهود، هو سلسلة من القتل والخنق والحرب، كما هو معروف ومشهور من ألفي سنة إلى عهد الأفران النازية.

بل إن كانت هنالك مودة فإنه لولا مصلحة السياسة الاستعمارية ورواسب التاريخ الحربي التوسعي الطويلِ، لكانت المودة من المسيحيين للمسلمين أقرب. وبهذا بشر القرآن وأكد بعد أن أنذر بعداوة اليهود وشدد بقوله ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ﴾ (المائدة: ٨٢).

وتبقى المساعدة للمصلحة السياسية، وهذا هو الواقع، فالدول الاستعمارية التي ساعدت على خلق إسرائيل لتكون شوكة في حلق العرب، إنما خلقتها لمصلحة سياستها الاستعمارية والبترولية، وسوف تظل تحميها ما دامت لها مصلحة في حمايتها.. فإذا قيل لكم إنها سوف تحميها إلى الأبد فلا تصدقوا.. فما في «سياسة المصلحة» شيء ثابت إلى الأبد.

ناموس التدافع الإلهي

وإذا كان سلطان المصلحة هو المسيطر فإننا نتساءل:

هل التخلي عن تونس والمغرب والجزائر والهند الصينية، أعظم وأوجع في ميزان المصلحة الإفرنسية من التخلي عن مساعدة إسرائيل؟

وهل التخلي عن الهند الدرة في التاج البريطاني، وعن مصر والسودان والعراق وغيرها، أعظم وأوجع في ميزان المصلحة الإنجليزية من التخلي عن مساعدة إسرائيل؟

الجواب واضح وبديهي.

ومع ذلك فإنه، بحكم سياسة المصلحة العليا، وبقوة حفظ التيارات الدولية المتعاكسة، اضطرت فرنسا وانكلترا لترك هذه المستعمرات العزيزة الغالية.

هذه السياسة الدولية المتعاكسة (المتدافعة)، التي تتفاعل على الأرض، فترغم الجبابرة على أن يتخلوا عن جبروتهم وطغيانهم، بحكم تدافعهم، فضلاً ورحمة من الله، هي الناموس الإلهي الذي عبر عنه القرآن بقوله ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (البقرة: ٢٥١). صدق الله العظيم.

وبقوة هذا الناموس يقوم التوازن الدولي في جميع عصور التاريخ، ويقوم اليوم بين المعسكرين الشرقي والغربي.

وبقوة هذا الناموس نفسه، دفن الإنجليز والافرنسيون أربعين ألف جندي، من زهرة شبابهم، أمام حصون «سيفاستابول» ليردوا روسيا المسيحية عن تركيا المسلمة في حرب «القرم».

ولعله يكون قريباً ذلك اليوم الذي تجد به نفسها أمريكا، حامية إسرائيل الكبرى، «أمام الخطر الأصفر الهائل الآتي من الصين الشيوعية المسلحة بالقنبلة الذرية» مضطرة، بحكم «ناموس التدافع» إلى طلب المساندة من دول «المدار الإسلامي كما طلبتها من تركيا المسلمة حين استنجدتها الدخول معها في حلف الأطلسي» لتجعلها الحصن الأمامي الأول في وجه الخطر الشيوعي الأحمر. وما ذلك على الله بعزيز.

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ (آل عمران: ٢٦).

نعمة التحدي

وعلى ذكر ناموس «التدافع»، الذي عده الله فضلاً منه على الناس، وما كان من حماية هذا الناموس للدولة العثمانية المسلمة عند تكالب الدول الغربية عليها، أذكر ناموسا آخر أشار إليه القرآن في آيتين، وعده من مزايا المؤمنين، وسماه

خيراً، لأنه يخلق من الضعف قوة، ومن البغي انتصاراً، ومن الشر خيراً، وهو ناموس «رد التحدي» وأثره في صراع الأمم عبر التاريخ.

الآية الأولى قوله تعالى في سياق آيات يمدح بها المولى صفات المؤمنين ﴿وَالَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ (الشورى: ٣٩).

والآية الثانية قوله تعالى في آيات يذكر بها سبحانه تحدي المشركين للمسلمين، وبغيهم عليهم وإخراجهم لهم من المسجد الحرام ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ (البقرة: ٢١٦).

منذ أكثر من عشر سنوات دعيت للكلام في اجتماع عام عقد لتجديد الندب والنياحة على مصيبتنا في فلسطين. وكان أني بدأت الكلام، عن المصيبة بقولي «إنها نعمة وليست بنقمة»، وكان هذا المطلع غريباً عجيباً عند السامعين. وكنت أعني «نعمة التحدي»، التي أيقظت العرب والمسلمين من سباتهم العميق، اليوم وفي أيام متعددة من التاريخ.

ولم أكن يومئذ قرأت شيئاً مما فصله المؤرخ الفيلسوف البريطاني «تومبي» عن أثر «التحدي ورد التحدي» بين الأمم في سير التاريخ، ولكن كان منطلقي إلى الكلام من كارثة مذلة عايشتها في مطلع شبابي، فأدمت قلبي، وزعزعت ثقتي، مثلما تفعل اليوم كارثة الخامس من حزيران في شبابنا..

حكاية تلك الكارثة ربما عرفها بعض شبابنا المثقف إجمالاً ولكنهم قد لا يعرفونها بالتفصيل:

في الحرب العالمية الأولى طلب الحلفاء وعلى رأسهم انكلترا من دولة اليونان أن تدخل إلى جانبهم ليتمكنوا من مهاجمة تركيا من جهة الدردنيل. وما كان لدولة اليونان أن ترد لإنكلترا طلباً وهي صاحبة الفضل عليها في التخلص من حكم الأتراك. ولكن رئيس وزراء اليونان اغتنم هذه الفرصة فانتزع من الحلفاء وعداً بتكبير حدود اليونان حتى تشمل منطقة «أيونيا» اليونانية القديمة، وهي القسم الغربي من الأناضول الذي يضم في حفائره آثار «طروادة».

ولما انتصر الحفاء جاءت اليونان تطالب بإنجاز الوعد ولكن السياسة الدولية لم تجد مبررا لاقتطاع جزء من تركيا وإعطائه لدولة صغيرة لم تستطع الدخول إليه في الحرب، فأشارت انكلترا على اليونان بخلق نزاع مع تركيا، والهجوم على الأناضول، ليكون هذا الاحتلال منطلقاً لتدخل الحلفاء، وإرغام تركيا على القبول بالأمر الواقع، وإعطاء القسم الغربي من الأناضول إلى اليونان، باسم الحق التاريخي الكاذب، الذي مضى على زواله ثلاثة آلاف سنة. وهي نفس التمثيلية المضحكة المبكية التي تلعبها إسرائيل بمساعدة الحلفاء أنفسهم، كانت الحالة قبل هجوم اليونان هكذا.

أساطيل الحلفاء ترسو في القرن الذهبي، وجيوشهم تسرح وتمرح في استانبول عاصمة الخلافة، والحفلات الراقصة تقام كل ليلة على ظهور البوارج، والسلطان ينام في قصره عند شاطئ البوسفور على أنغام موسيقى الأساطيل.. وظهرت يومئذ، في الأناضول، مبادئ مقاومة للحلفاء المحتلين لعاصمة الخلافة، من قبل مصطفى كمال وطائفة من شباب الأتراك.. ولكن ماذا يستطيع هؤلاء أن يفعلوا، والجيش التركي المسرح ليس له وجود، والشعب التركي في مثل حالة الحيرة واليأس والقنوط التي نحن العرب عليها اليوم، والفتاوى الدينية تصدر تترى من شيخ الإسلام في استانبول، بأمر مطاع من الحلفاء للسلطان، معلنة (في صفحات المجلة الدينية التي لا أزال أحتفظ بها في مكتبي) أن مصطفى كمال وصحبه عصاة على الخليفة وكفرة فجرة يستحقون الإعدام؟

وشاء ربك أن تقع المعجزة.. سبحانه.

في صبيحة يوم من تلك الأيام السود احتل اليونانيون أزمير، وسار جيشهم يشق بلاد الأناضول.

إن من طبيعة التحدي أن تختلف ردة الفعل عليه سرعة وبطأ، باختلاف مكانة الأمة المتحدية والأمة المتحداة، ومجدهما وعزتهما في التاريخ. وباختلاف الناحية التي يمسها التحدي:

فالأمة العزيزة قد تصر، بعض الوقت، على التحدي إذا وقع لها من أمة عظيمة

عزيزة مثلها أو أكثر منها. أو كان يستهدف ما في القصعة، ولا يمس المقدسات في الصميم. ولكن إذا كان التحدي من أمة صغيرة ذليلة لأمة عزيزة، أو كان مما يجرح الأمة في مقدساتها، فذلك الذي يهون عنده الموت.

فلو كان الهجوم على الأناضول من فرنسا أو إنكلترا أو أمريكا، لما وجد الشعب التركي عاراً في الصبر عليه بعض الوقت. أما أن تأتي دويلة اليونان، التي كانت إلى الأمس القريب، ولاية تابعة للدولة العثمانية، لتهاجم الشعب التركي، الذي سبق له أن أرعب أوروبا، فهذا هو التحدي الذي صنع معركة «صقارية» الضاربة، التي لم يغسل الأتراك سيوفهم من دماء اليونان في نهايتها إلا بمياه البحر عند أزمير.

وطلبت اليونان من حليفتها وحبيبتها انكلترا المساعدة عند هذه النكبة، فكان جوابها «إن حكومة صاحب الجلالة لا ترغب في التورط بحرب عالمية جديدة».

ذلك أنه كان من قدر الله، الذي يقلب القلوب، ويعز من يشاء ويذل من يشاء، أن الخلاف بدأ ينشب بين كلمنصو رئيس وزراء فرنسا ولويد جورج رئيس وزراء انكلترا على اقتسام تركة الرجل المريض، التي أخذت منها انكلترا حصة الأسد، فما كان من كليمنصو إلا أن انحرف لمساعدة الثورة التركية، وأمر الجيش الفرنسي الموجود في كيليكيا أن يخرج منها، ويترك جميع ما معه من العتاد الحربي ملكاً لحكومة الثوار الأتراك.

هذا مثل حي قريب العهد من أثر ناموس التحدي الذي سماه القرآن خيراً ومن أثر «ناموس التدافع» الذي سماه المولى فضلاً.

فالتحدي في الحروب الصليبية هو الذي خلق من الضعف قوة في معركة «حطين» والتحدي المغولي الصليبي هو الذي خلق من الضعف قوة في «عين جالوت» والتحدي في معركة دمياط هو الذي خلق من الضعف والفوضى قوة في معركة المنصورة..

وهذا التحدي المعاصر في خلق إسرائيل هو الذي خلق اليقظة الشعبية عند العرب والمسلمين. وسوف يخلق من الوهن قوة واتحادا، في يوم تخفيه قدرة

العليم الحكيم وراء الظروف الملائمة، التي يهيئها القدر لاحتدام «ناموس التدافع» الذي قلنا إنه ليس ببعيد.

بشارة من وراء الغيب

في الصحيحين حديث عن مقتلة تقع، في المستقبل البعيد، بين اليهود والمسلمين، وتكون النصرة فيها للمسلمين جاء في صحيح مسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «لتقاتلن اليهود فلتقتلنهم حتى يقول الحجر يا مسلم هذا يهودي تعال فاقتله»، وفي رواية عن ابن عمر أيضاً «أن رسول الله ﷺ قال: تقاتلكم اليهود فتسلطون عليهم حتى يقول الحجر يا مسلم هذا يهودي ورائي فاقتله». وفي رواية عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودي وراء الحجر والشجر فيقول الحجر أو الشجر يا مسلم يا عبد الله هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله». وجاء في صحيح البخاري «عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: تقاتلون اليهود حتى يختبئ أحدهم وراء الحجر فيقول يا عبد الله هذا يهودي ورائي فاقتله» وفي رواية عن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا اليهود حتى يقول الحجر وراءه اليهودي يا مسلم هذا يهودي ورائي فاقتله». وفيه عن عبد الله بن عمر «يقاتلكم اليهود فتسلطون عليهم حتى يقول الحجر يا مسلم هذا يهودي ورائي فاقتله».

في أسبوع النكبة جاءني شاب مؤمن من أرقى المثقفين وسألني عن هذا الحديث. قلت: هو من أعظم المبشرات فعلى كل مسلم أن يعرفه، ويجعله نصب عينيه ليستضيء بنوره في هذه الأيام السود الحوالك.

قال: سألنا عنه أحد كبار العلماء فقال: إنه حديث ورد في الصحاح ولكنه آحادي وليست له قوة الحديث المتواتر.

قلت: كأنه يشك فيه؟ قال: لا، ولكنه يرى أنه لا ينبغي الاعتماد عليه. ولا يقصد بذلك إلا وقاية للناس من الشك بكلام رسول الله.

قلت: إن صاحبك هذا ربما كان حسن النية، وربما كان كبيراً في علم مصطلح الحديث، ولكنه لا يفهم شيئاً من فقه الحديث.

قال: كيف؟ قلت: إن هذا الحديث أصح من الصحيح، وأقوى من المتواتر.

قال: وهل يكون بين الأحاديث الصحيحة ما هو أصح من الصحيح، وبين الأحاديث الآحادية ما هو أقوى من المتواتر؟ قلت: أما في علم مصطلح الحديث فلا. وأما في فقه الحديث فنعم.

قال: لماذا؟ قلت: لأن هذا الحديث (بقطع النظر عن صحة السند) يحمل براهين صحته بذاته ولفظه ومعناه، وقد جاءت الأيام تبرهن على صدقه بواقع الحال.

ذلك أن نصوص الأخبار عن المغيبات منها ما لا يحمل براهين صحته بذاته، ولكننا نقول بصحته، اعتماداً على صحة السند، ومنها ما يحمل، فوق برهان السند الصحيح، براهين صحته بألفاظه ومعانيه والظروف التي روي فيها، ومنها ما تأتي أحداث المستقبل بتحقيق الأخبار الغيبية التي أنبأ عنها النص. خذ لك مثلاً آية الأخبار المبشرة بغلبة الروم للفرس في قوله تعالى ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦﴾﴾ (الروم: ٢-٦).

إن هذه البشارة القرآنية من أخبار الغيب، لا تحمل براهين صحتها بذاتها؛ ولكن المسلمين آمنوا بها وصدقوا لأنها من القرآن، ثم جاءت الأيام، بعد بضع سنين، كما ذكر القرآن، تؤيد وتحقق، بالواقع، غلبة الروم للفرس. فكان ذلك من جملة وجوه إعجاز القرآن.

أما هذا الحديث، عن قتال اليهود، فإنه يحمل براهين صحته وصدقه من الوجوه الثلاثة: بسنده، وبذاته، وبواقع الحال. وهذا معنى قولي لك عنه أنه أصح من الصحيح وأقوى من المتواتر.

وسأشرح لك هذا المعنى ولكني أريد قبل ذلك أن أقول كلمة عن المشككين

الذين يقولون، بحسن نية أو بسوء نية، إن الحديث آحادي ولا يجوز الاعتماد عليه في الصراع بيننا وبين إسرائيل، التي تعتمد على أسباب المادة والقوة، إن هؤلاء ينسون أو يتناسون أمرين:

الأول: أن هذه المبشرات هي من أوليات أسباب القوة، كما أوضحنا في صدر هذه المحاضرة عن نفع تشديد القلوب، وعن ضرر اليأس والاستخذاء، وعن ضرورة الثقة بالله من أجل إعداد القوة، بل من أجل القدرة على استعمال القوة.

ثانياً: أن أعداءنا اليهود ما استطاعوا جمع شتاتهم، وإعداد قوتهم إلا باعتمادهم على ما اخترعوه من المبشرات الدينية بإعادة الدولة اليهودية في أرض الميعاد. . أفيكون للمبشرات اليهودية، التي نعتقد، نحن المسلمين، أنها مخترعة كاذبة أثرها ونفعها عند أعدائنا، ثم نحاول، نحن، أن نهمل، أو نضعف مبشراتنا الدينية، التي نؤمن بأنها صادقة. .؟ يا للعجب. . .

ولنرجع إلى شرح أدلة صدق الحديث:

أ- إن الحديث يصرح بأن المقتلة مع اليهود ستكون في المستقبل، بل في قوله، على إحدى الروايات، «لا تقوم الساعة حتى. . .» ما يفيد أن المقتلة ستكون في المستقبل البعيد.

ب- إن المفهوم من ظاهر وصف المقتلة أنها ستكون عظيمة وضارية.

ج- إن المفهوم من قول الحديث، في إحدى الروايات «تقاتلكم اليهود» أنهم هم الذين يبدأون المسلمين بالقتال وهذا يقتضي أن تكون لهم دولة وشوكة تشجعهم على أن يبدأوا بالقتال.

د- لا يخفى أن يهود الحجاز والجزيرة العربية لم يكن لهم كيان دولي قائم بذاته قبل الإسلام. وأما بعده فلم يعد لهم شوكة، بل لم يعد لهم وجود يظن معه أنهم يقاتلون المسلمين.

هـ- ولا يمكن أن يعني الحديث قتالاً يقع بين المسلمين وشراذم اليهود الضعفاء من أهل الذمة، لأن الإسلام يأمر بحماية أهل الذمة ورعايتهم، ولأن قتل مثل هذه

الشراذم الضعيفة ليس من الأمور الهامة التي تستحق أن يبشر بها النبي ﷺ، المسلمين بالنصر.

و- أما في الخارج فاليهود، بعد التشتيت الثاني، الذي حصل لهم على يد تيطوس الروماني، لم يعد لهم كيان دولي، أو تجمع، أو تكتل مستقل، في أي قطر من أقطار الأرض.

وأخيراً: لا يخفى أن اختلاق الأحاديث لا بد أن تكون له دواع وأسباب ومقاصد وأغراض وغايات: منها ما يتعلق بالخلافات السياسية، ومنها ما يتعلق بخدمة الشعوبية، ومنها ما يراد به استرضاء الحكام أو تبرير أخطائهم، ومنها ما يتعلق بأساطير الخلق والتكوين التي سماها علماء الحديث «الإسرائيليات»، ومنها ما سببه إظهار البراعة بحفظ الأحاديث، أو الاستعانة على الفلج في الجدل والمناظرة.

وكل هذه الدواعي لا بد فيها أن تنبع مما يتصل بالناس، ويحيط بهم، أو يهمهم، أو يجري في أحاديثهم من الأمور والمشاكل. وليس من المعقول أن يخترع أحد الناس حديثاً لا يمت بصلة إلى شيء من هذه الأسباب. ولو أن الحديث المذكور تعلق بقتال يقع مع الفرس أو الترك أو الروم أو الهنود، مثلاً، لكان افتراض اختلاقه ممكنا ومعقولاً، بقصد التبشير بالنصرة على هذه الأمم التي لها احتكاك مع المسلمين. وأما أن يوضع حديث عن مقتلة عظيمة تحمل بشائر النصرة على شعب ذليل مشتت لا شوكة له ولا دولة ولا كيان ولا تجمع ولا تكتل، بل لا ذكر له عند المسلمين، ولا يخطر بالبال التخوف منه، فإن اختلاق الحديث يكون بلا سبب ويكون بالتالي غير معقول.

وإذا لم يكن في العالم دولة يهودية، أو تجمع أو تكتل يهودي مستقل، يتصور معه حصول احتكاك أو قتال كبير مع المسلمين، فما هو، إذاً، معنى هذا الحديث؟

قد برهنا على أن اختلاقه غير معقول لأنه لا يرتكز على سبب من أسباب اختلاق الأحاديث الموضوعة.

وإذا كان صحيحاً وغير موضوع فكيف، وحالة اليهود على ما ذكرنا، سوف يتم تحقيق ما انطوى عليه من أخبار الغيب؟

لقد ظل الجواب عن هذا السؤال مخبوءاً وراء حجاب الغيب أربعة عشر قرناً حتى ظهرت دولة إسرائيل الحديثة، التي لم يخطر بالبال ولا بالخيال ظهورها في حياة الإمامين البخاري ومسلم رضي الله عنهما في القرن التاسع الميلادي أي في القرون الوسطى.

وأين ظهرت؟ أين؟

في قلب البلاد العربية والإسلامية، حيث أصبح حصول الاحتكاك مع اليهود معقولاً، بل في صميم الأرض المقدسة عند المسلمين، حيث أصبح وقوع القتال محتماً، وعلى مقربة من الكعبة بيت الله، ومقربة من «يثرب» مدينة الرسول، التي لليهود فيها ذكريات كلها أحقاد. أي حيث أصبح القعود عن القتال كفراً وخروجاً عن الإسلام...

وهكذا تحقق صدق الحديث النبوي المعجزة في حصول القتال، ولا بد أن يتحقق صدقه عن نتيجة القتال إن شاء الله. والأيام بيننا.

أيها المسلمون في الأرض كل الأرض

إني على يقين من أن هذه البشارة النبوية سوف تتحقق في يوم من الأيام قريب أو بعيد.

وعسى أن يكون قريباً بتعاون هذا الجيل الحاضر من حكام المسلمين وتناصرهم حتى لا تتكرر لعنة الله والتاريخ التي سجلها الشاعر الأندلسي، عند ضياع الأندلس، على المتنابذين والمتخاذلين في النصرة بقوله:

يا راتعين وراء البحر في سعة ... لهم بأوطانهم عز وسلطان

هل جاءكم نبأ من أرض أندلس ... فقد سرى بحديث القوم ركبان

كم يستغيث بنا المستضعفون وهم ... قتلى وأسرى فما يهتز إنسان

* * *

١٠ مقالات

الشيخ عطية محمد صقر

- ترجمة الشيخ.
- المقالات:

١- قضية الدين.

العدد (٧) رجب (١٣٨٥هـ) - نوفمبر (١٩٦٥م).

٢- لبيك بحجة حقا، تعبد ورقا.

العدد (٨٤) ذو الحجة (١٣٩١هـ) - يناير (١٩٧٢).

ترجمة

الشيخ عطيه صقر



● **مولده:**

ولد الشيخ عطية محمد صقر في ٢٢ نوفمبر ١٩١٤م بقرية بهنا باي مركز الزقازيق.

حفظ الشيخ القرآن الكريم منذ أن كان عمره تسع سنوات، وحصل على الشهادة العالمية مع إجازة الدعوة والإرشاد من كلية أصول الدين بالأزهر عام ١٩٤٣، وعُين خطيباً بالأوقاف ١٩٤٣م، وواعظاً بالأزهر ١٩٤٥م، كما عمل مترجماً للغة الفرنسية بمراقبة البحوث والثقافة بالأزهر، ثم مفتشاً للوعظ ومراقباً عاماً للوعظ حتى أحيل إلى التقاعد في عام ١٩٧٩م، ثم مستشاراً لوزير الأوقاف.

تدرج في العديد من المناصب الحيوية حتى وصل إلى شغل منصب رئيس لجنة الفتوى بالأزهر الشريف، وهو من أشهر من تولوا رئاسة اللجنة؛ فقد أصدر موسوعة كبيرة لفتاواه وصلت إلى أكثر من ثلاثين جزءاً، وكل جزء يحوي عدة أبواب تجمع الفتاوى في قضية أو مجال معين.

اختير عضواً بمجلس الشورى، وكان عضواً بمجمع البحوث الإسلامية، وعضواً بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، وعضواً بلجنة الفتوى بالأزهر.

● **من مؤلفاته:**

«الدعوة الإسلامية دعوة عالمية، الأسرة تحت رعاية الإسلام، دراسات إسلامية لأهم القضايا المعاصرة، الزكاة وآثارها الاجتماعية، الحجاب وعمل المرأة، البابية والبهائية تاريخا ومذهباً»

شارك في العديد من البرامج الدينية في الإذاعة والتليفزيون، وعقد العديد من

الندوات الدينية في دور التعليم والجمعيات والمؤسسات المختلفة. كما أن له مقالات في الصحف والمجلات العربية والإسلامية، منها مجلة الوعي الإسلامي الكويتية. وحصل على وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى.

● **وفاته:**

توفي في ٩ ديسمبر ٢٠٠٦ عن عمر يناهز ٩٢ عاماً رحمه الله رحمة واسعة وغفر له وللمسلمين.



قضية الدين في العصر الحديث

(العدد (٧) رجب (١٣٨٥هـ) - نوفمبر (١٩٦٥م)

الدين في حقيقته نظام إلهي، اختاره الله لهداية البشر وإصلاح دنياهم، وأخراهم، وقضية كونه نظاماً إلهياً، تحتم أن يكون في دقته وأحكامه متناسباً مع ما يتصف به الإله من صفات العدل والحق والحكمة، وأن يكون بعيداً عن مجال الشك والارتياب.

وهداية الله للبشرية فيض من رحمته، وقبس من عطفه، وتأكيد لقصور الإنسان عن معرفة كل ما يصلح أمره ويهديه السبيل.

وغاية الدين تبدو واضحة في مظهرين، هما عمارة الكون بالخير تحقيقاً لحكمة خلق الله آدم، ليكون خليفة في الأرض، وربط المخلوق بالخضوع لعظمته واستمداد العون منه، وتحمله مسؤولية ما يصدر عنه من أقوال وأفعال، والرجوع إليه بعد البعث، ليلقى جزاءه على ما كسب من خير، واكتسب من شر.

هذه الهدايات الإلهية نزل بها الوحي متتابعاً في جميع عصور التاريخ على رسل اصطفاهم الله لحمل تبعة الرسالة، وقيادة الناس إلى الخير.

والأديان في مبادئها العامة الهادفة إلى تحقيق الغاية من وجود الإنسان، لا تختلف على مر العصور وفي مختلف البيئات. فعبادة الله وحده والشعور بالمسؤولية الكبرى أمامه، والإيمان باليوم الآخر، وكذلك مبادئ العدالة والحرية والمساواة والأخوة، وأخلاق الصدق والعفة والرحمة والتعاون وأمثالها من المبادئ والأخلاق الإنسانية والاجتماعية كلها قدر مشترك بين جميع الأديان غير أن علاج الدين لمشاكل الإنسانية، ورسم الطريق لبلوغ الغاية المرجوة قد أخذ أشكالاً متعددة، يتناسب كل شكل منها مع حاجة المجتمع إلى نوع معين من

الهداية، وأسلوب خاص من السلوك ومع استعداده للتجاوب مع ما تقرره هذه الهداية وتدعو إليه.

● **تطور المجتمعات البشرية**

والمجتمع البشري في تطور دائم وتغير مستمر، وهو في تنوعه بحسب الأقاليم والبيئات والظروف متفاوت في مشاكله، وفي الطرق المثلى لحل هذه المشاكل، كما أن التاريخ في سيره الحثيث يخلق مشاكل جديدة ويتنفس عن أحداث تقتضي علاجاً مناسباً قد لا تكون هناك صلة بينه وبين ما قرر من آلاف السنين.

وتعاليم الأديان كلما مست مشاكل الفرد والمجتمع، وكانت في أساليبها متجاوبة مع الفطرة متفقة مع العقل لا توجد رد فعل عام تنفر منه الطباع السليمة والعقول المتزنة الحرة- كان ذلك دليلاً قوياً على صدق هذا الدين وحيويته، وعلى جدارته بأن يكون منسوباً لله الذي لا يصدر عنه إلا كل عمل حكيم.

غير أن آفة الأديان عامة هي تشويه القائمين عليها من البشر لتعاليمهما، وإساءة فهم مقاصدها، والميل بها عن هدفها الأصيل، وتحكيم الأغراض والشهوات فيها، بغياً بينهم وتنافساً على مصالح دنيوية ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ (البقرة: ٧٩).

والأديان السماوية التي تقدمت في التاريخ على الإسلام كانت كلها مؤقتة جاءت لفترة معينة من الزمن، أو لقوم مخصوصين، لهم مشكلتهم الخاصة وكان الدين اللاحق ناسخاً للدين السابق مؤذناً بانتهاء مهمته. جاء يؤكد الأصول الأولى التي دعا إليها الدين السابق، وينبه إلى الأخطاء التي ارتكبها أتباع هذا الدين ويقرر مبادئ أخرى جديدة تصلح للطور الجديد. كما أن الرسالة التي تخص جماعة معينة لا تنافيها أن تكون هناك رسالة أخرى معاصرة لها جاءت لقوم آخرين لهم مشاكلهم الخاصة، كما اجتمعت في وقت واحد رسالة سيدنا إبراهيم وسيدنا لوط ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ

﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ۝٣٢﴾ (العنكبوت: ٣١- ٣٢).

● الإسلام دين عام

ولم يسبق الإسلام دين عام للبشرية جميعاً يعم أجناسهم وألوانهم، ويشمل كل بيئاتهم. ولعل ذلك راجع إلى عدم تكامل المقومات الأساسية للمجتمع العام من حيث النضج العقلي، ومن حيث الشعور بالروح الجماعية والتعاون الشامل، نظراً لعدم سهولة المواصلات واكتفاء كل مجتمع اكتفاء ذاتياً بما يغطي مطالبه الضرورية التي اقتضاها وضعهم الاجتماعي المبسط، ومشاكلهم التي لا تستصعب على الحل. ويشير إلى خصوصية تلك الرسالات قول النبي ﷺ: «كان النبي ﷺ يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة» كما أن الرسالات السابقة انتهت مهمتها بظهور الإسلام الذي ختمت به الرسالات كلها، وكان هو دين البشرية حتى تقوم الساعة، فالنبي ﷺ: «كان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة» كما أن الرسالات السابقة انتهت مهمتها بظهور الإسلام الذي ختمت به الرسالات كلها، وكان هو دين البشرية حتى تقوم الساعة، فالنبي ﷺ خاتم النبيين بنص القرآن الكريم، وقد تحدث عن نفسه بذلك في عدة أحاديث.

والهداية الإسلامية في أبعادها الطولية والعرضية خصبة خصوبة تامة بالحلول الدقيقة لجميع مشاكل الناس وعلى مدى التاريخ، ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ (المائدة: ٣) ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ﴾ (النحل: ٨٩).

والإسلام يحمل خاصية العموم والخلود من أول يوم صاح فيه النبي صيحته المدوية بين العرب: «إني رسول إليكم خاصة وإلى الناس كافة» ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ (الأعراف: ١٥٨).

وكان يقرر هذه الحقيقة حتى في أشد أوقات الأزمات التي لا يظن معها خلاص أو نجاة. فكان في غزوة الخندق، والأحزاب مجتمعون حول المدينة يريدون أن يقضوا على الدعوة مرة واحدة، يتفاءل ويستبشر، ويمد نظره إلى الأفق الواسع في رحاب الدنيا العريضة، وإلى المدى البعيد في أحضان المستقبل. فهو

يقول عندما ضرب الصخرة ثلاث مرات: «أعطيت مفاتيح الشام وفارس وصنعاء وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها».

● دعوة الملوك والشعوب

وكتب إلى الأمراء والملوك ورؤساء الدول المجاورة يدعوهم إلى التعاون معه على كلمة سواء هي العقيدة الصحيحة وتخليص الإنسان من عبوديته للإنسان، وتقرير مبادئ العدل والحق والمساواة، وهو حين يدعوهم إلى ذلك يقدر أسوأ النتائج برفض هذه الدعوة، فلا يفوته أن يدعوهم إلى الاعتراف بالدولة الإسلامية الجديدة كقوة لها كيانها ومقوماتها، يجب أن تعامل دوليا كبقية الدول المعترف بها، يتبين ذلك واضحاً من هذه الآية التي كتب بها إلى الملوك ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ (آل عمران: ٦٤).

وفي الوقت الذي بزغت فيه شمس الرسالة الإسلامية كان هناك دينان ما يزال لهما سلطان على رقعة واسعة من الأرض، هما اليهودية والنصرانية. ولكن الإسلام بقوته الذاتية التي تتمثل في مبادئه استطاع أن يكتسح سلطان هذين الدينين في زمن وجيز، وامتد رواقه في أقل من قرن من الزمان إلى حدود الصين شرقاً، وشواطئ المحيط الأطلسي غرباً في إفريقيا وأوربا.

● حضارة الإسلام

ظهر الإسلام في الشرق بقوته، وازدهرت حضارته، وغطت على الحضارات الأخرى، وحدثت عدة لقاءات بين الغرب والشرق، اطلع فيها الغرب المتأخر على حضارة الشرق المنبثقة من الدين الجديد فانكب رواد المعرفة على التزود من ثقافة الإسلام، ولم يستنكف الأحبار والرهبان أن يكونوا تلاميذ لعلماء المسلمين في جامعات الأندلس وغيرها، بل إن البلاط الإنجليزي أوفد بعثات من نسائه ليتعلمن الآداب والمراسيم في البلاط الإسلامي، واستدعت دول أوروبا مهندسين مسلمين لإقامة المنشآت والاستنارة بأفكارهم في المجالات المختلفة.

وتحرك في نفوس الغربيين عامة شوق كبير إلى الانفلات من قيود الأوضاع التي تسود بلادهم، والثورة على التعاليم الدينية التي كانت تتحكم في جميع شؤونهم، فانبعثت في عصر النهضة صيحات وصيحات تريد التحرر من القديم، والانطلاق إلى العالم الفسيح بعلومه واكتشافاته وحضارته، كما انطلق المسلمون من قبل وملكوا ناصية السلطان.

وبعد عراك دموي، وصدامات سجلها التاريخ بين القديم والحديث، انطلق مارد الغرب من القمقم، وجال جولته الناهضة التي يعيش الناس في ظلها الآن، وكان من عقابيل هذه النهضة عقدة نفسية ضد الدين الذي كان يسيطر من قبل على مشاعرهم وأفكارهم ويحول بينهم وبين الانطلاق والتحضر، وشهدت المؤلفات حملات قوية تهاجم الدين وتأخذ بجريرته الأديان الأخرى- ظناً من الناس أنها جميعاً على وتيرة واحدة، لا تتجاوب مع العلم ولا تساعد على النهوض، وكان الدين الإسلامي من الأديان التي أصيبت ببعض هذه السهام الطائشة، ووقر في نفوس بعض الشبان الذين تخرجوا في مدارس الثقافة الغربية المستوردة أن الإسلام كبقية الأديان حجر عثرة في سبيل التقدم والنهوض. وكان من واجبنا في هذه الأيام أن نتصدى لرد الشبهات، وإبراز محاسن الإسلام وتفاعله مع المدنية، وإن نعبئ كل قوانا للجهاد في هذا الميدان الذي نزلت فيه هذه المجلة المسلمة قوية نرجو لها ولأمثالها النصر إن شاء الله .

«الحديث موصول»

لبيك بحجة حقاً تعبدًا ورِقاً

العدد (٨٤) ذو الحجة (١٣٩١هـ) - يناير (١٩٧٢م)

هذا العنوان الذي رواه البزار والدارقطني عن النبي ﷺ حين كان في حجة الوداع، مع قول سيدنا عمر ﷺ وهو يقبل الحجر الأسود، «والله إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك» كما رواه البخاري ومسلم- هذان القولان يجران إلى الحديث عن حكمة التشريع للعبادات بوجه عام، وحكمته للحج بوجه خاص.

إن عبادة الله تقتضي القيام بالتكاليف دون الحاجة إلى فهم أسرارها والوقوف على الحكمة منها، مع ضرورة إيمان العبد بأن أفعال الله سبحانه لا تخلو عن حكمة وإن قصرت العقول عن فهمها ولم تصل إلى إدراك سرها، كما قال سبحانه في تشريع القتال ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ (البقرة: ٢١٦).

والله سبحانه يعلم أن العباد ليسوا على درجة واحدة من التسليم والانقياد. ولهذا بين لهم بعض نواحي الحكمة في هذه التشريعات، يأتي بها مجملة أحياناً ومفصلة أحياناً أخرى، وتأتي الأحاديث النبوية فتوضح جوانب هذه الحكمة وتكشف عن بعض أسرارها. ولم يحظر سبحانه على الفكر أن يسرح في تفهم هذه الحكمة على ضوء ما جاءت بها النصوص. فما وصلت إليه العقول لا يغير حكماً قرره الإسلام، ولكنه يدعمه لتنشط النفس لأدائه، وتزداد إيماناً بحكمته.

وقد تحدث العلماء في تقويم العبادة حين تؤدى دون ملاحظة حكمتها وحين تؤدى والنفس متعلقة بما يترتب عليها من خير عاجل أو آجل، فقالوا: إن فهم الحكمة وإن كان ينشط النفس عند الأداء، ويحمي المكلف من الشبه التي يوجهها

الأعداء إلا أن العبادة المؤداة في هذا الجو تشوبها شائبة المنفعة التي لولاها ما توجهت النفس إليها ولا تحملت ما فيه من تكليف. وهي في درجة الإذعان لله ليست كالعبادة التي يؤديها المؤمن لمجرد أنها أمر من الله الموصوف بالحكمة والمنزه عن العبث، غير متطلع إلى ما وراءها من نفع، فليس للعبد حاجة عند ربه، فلله أن يأمر وعلى العبد أن يطيع- على ما يشير إليه ما جاء في وصف صهيب: «نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه».

ومن هنا احتفظ الله بسر بعض التكاليف فلم يبينه ولم يشر إليه ليمحص إيمان المؤمنين ويميز الخبيث من الطيب. ومثل له العلماء بالحروف المقطعة أوائل السور، وببعض الأحكام الواردة في ثنايا العبادات التي منها مثلاً رمي الجمرات في الحج.

يقول الإمام الغزالي في الإحياء (ج١ ص ١٩١ طبعة عثمان خليفة) واجبات الشرع ثلاثة أقسام، قسم هو تعبد محض لا مدخل للحظوظ والأغراض فيه- وذلك كرمي الجمرات مثلاً إذ لا حظ للجمرة في وصول الحصاة لها، فمقصود الشرع فيه الابتلاء بالعمل ليظهر العبد رقه وعبوديته بفعل ما لا يعقل له معنى، لأن ما يعقل معناه فقد يساعد الطبع عليه، ويدعو إليه فلا يظهر به خلوص الرق والعبودية، وقال في ص ٢٤٠ «وإذا اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى ربط نجاة الخلق بأن تكون أعمالهم على خلاف هوى طباعهم، وأن يكون زمامها بيد الشرع فيترددون في أعمالهم على سنن الانقياد وعلى مقتضى الاستعباد كان ما لا يهتدى إلى معانيه أبلغ أنواع التعبدات في تزكية النفوس وصرفها عن مقتضى الطباع والأخلاق، إلى مقتضى الاسترقاق. وإذا تفطنت لهذا فهمت أن تعجب النفوس من هذه الأفعال العجيبة مصدره الذهول عن أسرار التعبدات».

ولعل الرسول ﷺ كان يحس أن في بعض النفوس خواطر تحوم حول بعض الشعائر التي تؤدى في الحج فنبه إلى جانب التعبد والتسليم المطلق فيها قائلاً وهو يلبي: «**لبيك بحجة حقاً تعبداً ورقاً**». فالأمر في أداء العبادة لا بد أن يسيطر عليه مبدأ التسليم الذي أعلنه عمر وهو يقبل الحجر الأسود، مقرراً أنه ليست للنفوس

حظوظ في تقبيل ما لا يضر ولا ينفع، ولكنه الامتثال المطلق والاتباع التام لرسول الله ﷺ، فهو القدوة الحسنة والذي نزل فيه قول الله سبحانه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ (آل عمران: ٣١) وقوله: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ (الحشر: ٧).

وقد قال ﷺ في وجوب اتباعه في العبادة بنوع خاص: «صلوا كما رأيتموني أصلي» وقال في الحج: «خذوا عني مناسككم» كما روته الكتب الصحيحة.

وإذا كان في بعض التشريعات الجزئية نواح لم ينص على حكمتها فإن العبادات الأساسية جاءت حكمتها منصوصة، إما في القرآن وإما في السنة، مع إطلاق العنان للفكر ليشرحها أو يبحث عن جوانب أخرى تدعمها، فالله سبحانه أمر بالنظر والتفكر والتدبر، والنبي ﷺ شجع على البحث حتى جعل للمخطئ فيما وصل إليه باجتهاده أجراً لا يحرمه من ثمرة العمل، فهو مثاب بنيته، وإن كان للمصيب أجران، أجر على بحثه وتعبه، وأجر على توفيقه الذي يفيد منه كما يفيد منه غيره.

ومهما يكن من شيء فإن الحكمة العامة للتشريع تتلخص في نقطتين أساسيتين أولاهما: ربط المخلوق بالخالق، لأنه هو الذي خلقه ثم رزقه ثم يميته ويحاسبه، فهو منه مخلوق وإليه راجع، فلا تنقطع صلته عن الله بدءاً ونهاية، وثانيتهما: إعداد العبد للحياة على الأرض ليحقق خلافته فيها.

ومن مظاهر النقطة الأولى، الإيمان بالله واليوم الآخر والتوجه إليه سبحانه بالعبادة وطلب المعونة، على ما يفيده قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ (الفاتحة: ٥).

ومن مظاهر النقطة الثانية، الأخلاق الفردية والاجتماعية والتنظيمات الخاصة والعامة في ميادين الفكر والسياسة والاقتصاد والعمران وسائر الميادين التي تحدد فيها الحقوق والواجبات وعلى ضوء هذه الحكمة العامة بشقيها يمكننا أن نوضح حكمة تشريع الحج فيما يلي:

قال تعالى في بيان حكمة الحج المفروض من أيام إبراهيم عليه السلام والمأمور به

في شريعة محمد ﷺ كأحد الأركان التي بني عليها الإسلام ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ۝٢٧ لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ﴾ (الحج: ٢٧- ٢٨). فكلمة المنافع التي يشهدها الحجاج كلمة عامة جامعة تشمل كل منفعة دينية ودنيوية، مادية ومعنوية، سياسية واقتصادية، ثقافية واجتماعية وغيرها، وإليك تفصيل هذه المنافع على ضوء حكمة التشريع العامة للعبادات.

أولاً: صلة العبد بربه تظهر في الحج عندما يحرم الحاج ملبياً مقراً بوحدانية الله شاكراً له أنعمه: «لبيك اللهم لبيك- لبيك لا شريك لك لبيك- إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك» وحين يطوف بالبيت سائلاً متضرعاً يستمنح الله عفوه وبره، وحين يقبل الحجر ويستلمه معاهداً ربه على الطاعة مجدداً معه البيعة على ما رواه- أحمد وابن خزيمة في صحيحه عنه «أنه يمين الله يصافح بها خلقه» وفي سعيه بين الصفا والمروة كالمتردد قلقاً على مصيره، هل تفضل الله عليه عند طوافه فقبله أو لا، وفي وقوفه بعرفة متجرداً من كل زينة خاشعاً ضارعاً في ذلة وانكسار يباهي الله بأهل عرفات الملائكة إذا أتوه شعثاً غبرا ضاحين من كل فج عميق، يرجون رحمته ويخشون عقابه. وفي رميه للجمرات تشبه بحربه للشيطان، وفي الهدي والفداء رمز للتضحية بالدم وبأغلى ما يملك الإنسان، إيثارًا لما عند الله وجهاداً في سبيله.

وفي الحج ارتباط بمهد النبوة وعمارة لبيت الله، وتذكر لحوادث ماضية كانت سبباً في قدسية هذا المكان، من وجود هاجر وإسماعيل وحيدين في هذا الوادي، ولطف الله بهما فنبعت زمزم وعمر المكان وبني أول بيت وضع للناس مباركاً وهدى للعالمين. وذلك كله إلى جانب ذكر الله بالتكبير والتلبية عند المشاعر، في عرفات والمشعر الحرام ورمي الجمرات. مما يدل على حكمة الحج في ربط العبد بخالقه كما يشير إليه قول النبي ﷺ: «إنما فرضت الصلاة وأمر بالحج وأشعرت المناسك لإقامة ذكر الله» (رواه أبو داود والترمذي وقال: حسن صحيح).

ثانياً: الإحرام بالحج في ملابس متواضعة وبعد عن مظاهر الترف درس عملي

في التواضع وعدم الغرور بزخارف الحياة، وفيه نكران للذات وتركيز على الإخلاص لله في الطاعة، وقد حج النبي ﷺ على رحل رث وقطيفة خلقة، وقال: «اللهم حجاً لا رياء فيه ولا سمعة» (رواه الترمذي). وعن ابن عمر أن رجلاً سأل النبي ﷺ فقال يا رسول الله من الحاج؟ فقال: «الشعث التفل» (رواه ابن ماجه بإسناد حسن). والشعث هو البعيد العهد بتسريح شعره وغسله، والتفل هو من ترك الطيب والتنظف حتى كادت تتغير رائحته، وفي الحج تمرن على الأسفار والترحال، وتحمل للمضايقات، وضبط النفس عن السباب والفسوق والمغريات، وفيه إلى جانب ذلك ثقافة واطلاع وتفكر واعتبار، وكل هذا كمال نفسي يفيد منه الحجاج.

ثالثاً: لا ينكر أحد أن الحج فرصة لعقد مؤتمر إسلامي يتخطى حدود البيئة والجنس واللغة، ويعلو على الفوارق والعصبيات- ينبغي أن تناقش فيه المشاكل وتوضع الحلول وتتلاقى الأفكار وتتلاقح الثقافات وتتبادل المنافع من كل لون، توكيداً للوحدة الجامعة التي يقررها الله في قوله ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ۝٩٢﴾ (الأنبياء: ٩٢) وذلك كله لننهض سوياً بالواجبات الدينية والإنسانية، ولنقف صفاً واحداً أمام المحاولات التي تريد السوء للإسلام والمسلمين. وأن للمسلمين في هذا الموسم من عوامل الوحدة ما يعلو على كل العوامل. فربهم جميعاً واحد، ورسولهم واحد، وشريعتهم واحدة، وقبلتهم واحدة، وزيهم واحد، ونشيدهم واحد وكل ذلك يجعلهم كالجسد الواحد والبنيان المرصوص. وفي موسم الحج فائدة لأهل الوادي المقدس ولأرض النبوة الأولى، إجابة لدعوة إبراهيم ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ۝٣٧﴾ (إبراهيم: ٣٧).

هذه بعض جوانب الحكمة في شريعة الحج. تدور حول المنافع التي ذكرت في القرآن.. تلك المنافع التي يمكن أن تكون لها صور تختلف باختلاف الظروف والأحوال، وعلى المسلمين أن يفيدوا منها ويطبقوها في حياتهم العملية ليكون

هناك تجاوب بين الدين والحياة، ولعل مما يلح علينا في هذه الأيام أن نتنبه إليه هو وحدة الكلمة للوقوف أمام الاستعمار وأذنابه، ولتخليص أرضنا المقدسة من رجس اليهود، وتمهيد الطريق لانطلاق الثورة العربية لتعيد ماضيها المشرق المجيد، الذي كانت به زعيمة العالم يوم كانت الدولة المسيطرة على مصير الناس اليوم تعيش في الأحراش وتتخبط في الظلمات.

ولا يكون ذلك إلا بالتزام الطريق الذي خطه الإسلام واتباع النور الذي جاء به القرآن، وصدق الله العظيم: ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (المائدة: ١٥- ١٦).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾ (النساء: ١٧٤ - ١٧٥).



١١ مقالات

الشيخ عبد الله خياط

- ترجمة الشيخ.
- المقالات:

مقالة بعنوان : الحلال والحرام.

العدد (٧) رجب (١٣٨٥هـ) - نوفمبر (١٩٦٥م).



ترجمة الشيخ عبد اللَّه خـياط

ولد الشيخ عبد الله بن عبد الغني خياط في ٢٩ شوال عام ١٣٢٦هـ بمكة المكرمة، ونشأ في بيت علم ودين، وكان أبوه مثقفاً ثقافة دينية عالية، وله إلمام بالفقه الحنفي والتفسير والحديث.



تلقى الشيخ رحمه الله تعليمه الابتدائي في مدرسة الخياط بمكة المكرمة، ودرس المنهج الثانوي بالمدرسة الراقية على عهد الحكومة الهاشمية، ودرس على علماء المسجد الحرام، وحفظ القرآن الكريم في المدرسة الفخرية، ثم التحق بالمعهد العلمي السعودي بمكة وتخرج منه في عام ١٣٦٠هـ، وكان يساعد الشيخ عبد الظاهر أبو السمح في صلاة التراويح وينفرد بصلاة آخر الليل.

تم تعيينه إماماً وخطيباً للحرم المكي عام ١٣٧٣هـ واستمر في عمله حتى عام ١٤٠٤هـ حيث طلب من جلالة الملك إعفاءه لظروفه الصحيَّة.

● **وفاته:**

توفي الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في مكة المكرمة صباح يوم الأحد ٧ شعبان عام ١٤١٥هـ بعد عمر حافل بجلائل الأعمال، وشيعه خلق كثير من المحبين له والعارفين بفضله، يتقدمهم الأمراء والعلماء، رحمه الله رحمة واسعة.

الحلال والحرام

العدد (٧) رجب (١٣٨٥هـ) - نوفمبر (١٩٦٥م).

في الصحيحين من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الحلال بين، وإن الحرام بين، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**».

هذا الحديث أصل من أصول الدين وقاعدة من قواعده، ففيه إيضاح عن الحلال والحرام، وبيان المشتبه بهما، وتوجيه الأنظار للإعراض عن الأخذ به طلبا لبراءة الدين والعرض، وحيث انتفت الشبهة ارتفع الحرج، وقد أورد العلماء رحمهم الله خلافا في أصل تحريم الأشياء، وهل الأصل فيها الحرمة فلا حلال إلا ما دل الدليل على تحليله، أم أن الأصل في الأشياء الإباحة، فيجوز للمرء أن يأكل ويشرب ويتمتع بالطيبات ما لم يرد نص على التحريم، وهذا هو رأي الجمهور وهو الذي تؤيده الآيات والأحاديث.

- **المشتبهات**

والمشتبه ما اشتبه بالحلال والحرام، ولا توجد قرينة تصرفه إلى أحدهما، ولا يعرف أكثر الناس حرمته أو حله، فهو ملتبس عليهم، والورع بالنسبة لهم تركه والانصراف عنه، ففي ذلك البراءة للدين والعرض، أما البراءة للدين فلأن الأخذ بالشبهة قد يكون سبباً في مزلة الأقدام، فيقع المرء في الحرام نتيجة لعدم التورع - نقل من حديث الحسن بن علي قال: حفظت من رسول الله ﷺ: «**دع ما يريبك**

إلى ما لا يريبك» أي اترك ما يقع في نفسك منه شبهة من طعام أو شراب أو مال أو أي متاع، ولم تطب به نفسك، وخذ بالشيء الواضح المتيقن حله، الذي تطمئن إليه النفس ويسكن إليه القلب.

● **التمتع بالطيبات**

وهذا هو الورع المطلوب شرعا، لا الورع المزعوم المصطنع الذي يزهد في الحلال، ويمنع عن التمتع بالطيبات المباحة، ذكر المفسرون عند تفسير قول الله تعالى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ (المائدة: ٨٧) أن رسول الله ﷺ قام يوما فوصف القيامة وأهوالها فبكى الناس ورقت قلوبهم فاجتمع نفر من صحابة رسول الله ﷺ واعتزموا الترهب، وأن يلبسوا الخشن من الثياب ويصوموا الدهر، ويقوموا الليل، ولا يناموا على الفرش، ولا يأكلوا اللحم، ولا يقربوا النِّساء والطيب، ويسيحوا في الأرض، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فنهاهم وقال: «إني لم أومر بذلك ثم قال: إن لنفسك عليك حقا، فصوموا وأفطروا، وقوموا وناموا، فإني أقوم وأنام، وأصلي وأفطر، وآكل اللحم والدسم، وآتي النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني» ولم يكتف ﷺ بهذا البيان الشافي لمن جنح إلى الترهب، بل قام خطيبا وأعلنها مدوية في المجموع، قياما بواجب البلاغ وقال: «أما إني لست آمركم أن تكونوا قسيسين ورهباناً، فإنه ليس في ديني ترك اللحم والنساء، ولا اتخاذ الصوامع، وإن سياحة أمتي الصوم ورهبانيتهم الجهاد، اعبدوا الله، ولا تشركوا به شيئا، وحجوا، واعتمروا، وأقيموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وصوموا رمضان، واستقيموا يستقم لكم، فإنما هلك من كان قبلكم بالتشديد، شددوا على أنفسهم، فشدد الله عليهم، فأولئك بقاياهم في الديارات والصوامع».

وفي هذا البيان النبوي الكريم الضافي رد على كل متنطع أو متزهد فيما أحل الله أو محرم لما أباحه لعباده من متع الحياة ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَـٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾(الأعراف: ٣٢).

• مواقف الريبة

وعلى عكس هذا الصنف الزاهد في الحلال من يتسامح في الأخذ بالشبهة، فينزلق في الحرام، ويستمرئه، ويندفع في تحقيق شهوات النفس المحرمة، وملذاتها وانطلاقاتها في كل ما تريد، غير مكترث بوعيد ولا ملتفت لسوط عذاب، وهو من شبهه الرسول الكريم ﷺ بالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه وهو لا شك واقع.

أما البراءة للعرض فلأن من يقع في مواطن الريب تنطلق الألسنة فيه بالغيبة والاستطالة عليه بما هو منه بريء، وينسبون إليه السوء، روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: إياك وما يسبق إلى القلوب إنكاره، وإن كان عندك اعتذاره، فرب سامع نكراً لا تستطيع أن تسمعه عذراً، وفي حديث عن النبي ﷺ أنه قال «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقفن مواقف التهم» ورأى بعض أصحابه زوجة من زوجاته ﷺ تمشي وراءه فبادرهم بقوله «إنها صفية بنت حيي» دفعا بهم عن سوء الظن فيهلكوا، ورسما لطريق السلامة للأمة، هذا وهو رسول الله المعصوم من الزلل، فكيف بمن كان في أعقاب الزمن، وقد فسدت الضمائر والذمم، وغلب على أكثر الناس سوء الظن، أليس جديراً به أن يرتفع عن مواطن التهم، وعن كل ما يحمل على إساءة الظن؟!

وفي الحديث أيضا تصوير للسياج المنيع الذي ضربه الله على حدوده وما حرمه على عباده، حيث شبهه رسول الهدى ﷺ بالحمى يحميه الملوك، ويحظرون وروده والرعي فيه على رعاياهم، فمن قاربه وقع فيه لا محالة، وفيه أيضا تصوير للقلب النفسي (وهو مركز الوجدان والشعور الذي تصدر منه الإيعازات للنفس، فتعمل بإشاراته وإيعازاته) بالقلب المادي وهو مركز الدورة الدموية، فكما أن الجسد يصلح ويصح بسلامة القلب، والجوارح تقوم بواجبها تبعاً لذلك، فكذلك مركز الوجدان والشعور من النفس إذا كان صحيحاً سليما صحت الإرادات والنيات، واندفعت الجوارح نحو الخير والصلاح، فلا تصدر إلا عن خير، ولا تحجم إلا عن شر ومفسدة.

وبعد: فإن الحلال ما أحله الله، والحرام ما حرمه الله، ومن الورع إن أراد المرء القدوم على أمر أن يراجع فيه قلبه قبل القدوم عليه، فإن اطمأن إليه وسكن فعله، وإلا تركه، ففي الحلال البين الواضح غنية عن كل مشتبه فيه أو ملتبس على المرء حقيقته.

والله الموفق.



١٢ مقالات

الأستاذ مالك بن نبي

- ترجمة الشيخ.
- المقالات:

١- **إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث (١).**
العدد (٤٩) محرم (١٣٨٩هـ) - مارس (١٩٦٩م).

٢- **إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث (٢).**
العدد (٥٢) ربيع الثاني (١٣٨٩هـ) - يونيو (١٩٦٩م).

٣- **المجتمع الإنساني والإنسانية العذراء.**
العدد (٧٧) جمادى الأولى(١٣٩١هـ) - يونيو (١٩٧١م).

ترجمة الأستاذ

مالك بن نبي

مالك بن نبي من أعلام الفكر الإسلامي العربي في القرن العشرين.

● **مولده:**



ولد في مدينة قسنطينة شرق الجزائر سنة ١٩٠٥م، وترعرع في أسرة إسلامية محافظة، فكان والده موظفاً بالقضاء الإسلامي حيث حول بحكم وظيفته إلى ولاية تبسَّة حيث بدأ مالك بن نبي يتابع دراسته القرآنية. والابتدائية بالمدرسة الفرنسية. وتخرج سنة ١٩٢٥م بعد سنوات الدراسة الأربع.

سافر إلى فرنسا حيث كانت له تجربة فاشلة فعاد مجددا إلى مسقط رأسه، وعمل عدة أعمال منها: عمله في محكمة أفلو، ثم استقال منه إثر نزاع مع كاتب فرنسي لدى المحكمة المدنية.

سافر رَحِمَهُ ٱللَّهُ مرة ثانية إلى فرنسا لطلب العلم، فالتحق بمدرسة «اللاسلكي» ليتخرج كمساعد مهندس، ممّا يجعل موضوعه تقنياً خالصاً، أي بطابعه العلمي الصرف.

انغمس رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الدراسة وفي الحياة الفكرية، وأقام في فرنسا وتزوج من فرنسية ثم شرع يؤلف الكتب في قضايا العالم الإسلامي، فأصدر كتبه «الظاهرة القرآنية، كتاب النهضة، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ويعتبر من أهم ما كتب بالعربية في القرن العشرين» وغيرها.

انتقل إلى القاهرة بعد إعلان الثورة المسلحة في الجزائر سنة ١٩٥٤م وهناك

حظي باحترام كبير، فكتب فكرة الإفريقية الآسيوية ١٩٥٦م. وتوالت أعماله الجادة. وبعد استقلال الجزائر عاد إلى أرض الوطن، فعين مديراً للتعليم العالي في جامعة الجزائر المركزية، حتى استقال سنة ١٩٦٧ متفرغاً للكتابة، بادئاً هذه المرحلة بكتابة مذكراته، بعنوان «مذكرات شاهد القرن».

● **وفاته**

توفي رَحِمَهُ اللَّهُ يوم ٣١ أكتوبر ١٩٧٣م، مخلفا وراءه مجموعة من الأفكار القيمة والمؤلفات النادرة.



الحادث والتاريخ

العدد (١١) ذوالقعدة (١٣٨٥هـ) فبراير (١٩٦٦م)

لقد كان التاريخ إلى حد القرن العشرين شبه متحف، حيث كان يأتي المؤرخ ليتزود بالمعلومات عن شعب ما وذلك في زاوية معينة مخصصة لهذا الشعب وسياسته وفنه وأدبه وفلكلوره. ذلكم هو التصور التقليدي للتاريخ.

بيد أنه كان من الممكن بالنسبة للمؤرخ أن يلاحظ في بعض الأوقات السمة المشتركة وصلة الرحم بين بعض زوايا المتحف، فهو إذ ذاك أمام «وحدة» تاريخية معينة. ولقد يسمي ج. أ. توينبي هذه الوحدة بحقل الدراسة أو مجال البحث.

ومجال البحث هذا عبارة عن المساحة التي يتم فيها النسيج التاريخي بفعل حوادث تجد تفسيراتها وغاياتها وأسبابها ومسبباتها في هذا المجال أو الحقل.

وهكذا يوسع توينبي التصور التقليدي توسيعا ملحوظاً يعمقه وذلك بتطعيمه بمفهوم «مجال البحث»، الذي يطيح بالإطار الوطني، حيث كان ينحصر تصور المؤرخ اليوناني «توسيديد».

إلا أن الإطار الجديد الذي يقترحه المؤرخ الإنجليزي الكبير، كان قد تداعى هو الآخر خلال القرون تحت وطأة دفع حوادث تاريخية أقوى وأكثر تشابكا من أن نلتمس لها تفسيرا، فيما يسميه المؤرخ الكبير بمجال البحث.

فسقوط الدولة الرومانية مثلا ظاهرة ينسبها المؤرخون إلى موجة المهاجرين العارمة التي تدافعت على شعوب الشرق الأوروبي، فدفعت بهم إلى غزو الغرب اللاتيني. ويفسر، فعلاً، الحادث في مشكلة كهذه في نطاق «مجال البحث الأوروبي»، بيد أننا إذا ذهبنا بالتحري مذهبا أبعد بأن نطرح هذا السؤال: ترى كيف نشأت هذه الموجة التي يسميها المؤرخون الألمان «الفولكار فاندرونغ».

أي موجة الشعوب، هي الأخرى؟ ففي الحال يحطم سؤالنا هذا نطاق ما يسميه المؤرخ الإنجليزي بحقل الدراسة لأن الظاهرة التي كانت إلى الآن شيئاً أوروبيًّا تصبح فجأة «حدثا» آسيويًّا. وبالفعل فإن تداعي أسرة مالكة صينية قبل ذلك بقرون هو الذي دفع قبيلتين منغوليتين على المسارعة للنهب والسلب بحيث اصطدمتا، فكان لاصطدامهما أثره البعيد في دفع شعوب الشرق الأوروبي في التيار المسمى «موجة الشعوب» أو «الفولكار فاندرونغ». فهاهنا حدث معبر على تصور تاريخ عالمي على مستوى ذلك الزمن.

وهناك حدث آخر وقع بعد ألف عام من ذلك لا يقل كشفا عن التصور التاريخي العالمي في العصور الوسطى، ذلكم هو تدخل تيمورلنك الذي غير مجرى التاريخ، لأن حفيد جنكيز خان قد ظهر بالضبط في الوقت الذي كان يستعد الأمير العثماني بايزيد وملك القبيلة المغولية المسماة بالقبيلة الذهبية توغطاميش أحدهما في الغرب والثاني في الشرق، لغزو أوروبا تلك القارة التي كانت تنفض عنها غبار القرون الوسطى، وأخذت تدخل طريق النهضة.

وهكذا ينقذ عمل تيمورلنك جميع آمال هذه النهضة التي تشكل من غير منازع المقدمة التاريخية لعصر الذرة الذي نعيش فيه.

هل تيمورلنك جد عصرنا؟ فهذا تصور لم نعهده في التاريخ وبزيادة على ذلك فهو تصور لا شك أنه كان يغيب عن وعي الأمير التتاري نفسه.

وما قيمة معركة مارينيان على سبيل المثال إذا قيست بأحداث على هذا المستوى من التأثير العالمي؟ وعلى هذا يبدو لنا أن التاريخ نسيج معقد مما هو عارض وما هو مقدر.

وإنني أتذكر وأنا أكتب هذه الجملة انتقاداً وجه إلي في صحيفة باريسية غداة نشر كتاب «وجهة العالم الإسلامي» بأنني أحمل السببية في التاريخ أكثر مما تتحمل، ولو أجبت على هذا الانتقاد لقلت بكل بساطة إنني لست أحمل التاريخ، بل هو الذي يحملني. ولست أرى داعيا لإزاحة البصر عن تصور يفرض نفسه علينا، والواقع أن هذا يستدعي إقامة نظرية كاملة للحادث التاريخي.

إن الحادث عند انقذافه يكون محملا بكل ما تستطيع الطبيعة البشرية أن تودعه فيه من غرض مصلحي وهوى وطموح وبغض ووهم... إلخ

إنه صاروخ منطلق في الزمان مدفوع بكل ما يحرك الإنسان، ولا ريب أن أثره ذو بال، ولو اقتصرنا على النظر إليه من هذا الجانب البشري، فقد يكون غزوا يغير الخريطة السياسية، أو ثورة تغير حياة أمة، أو ميلاد دولة، أو سقوط أخرى، أو ظهور فن صناعي، أو اختفاء فن آخر.

وكل هذا يحقق ما يكون قد سبق تصميمه وتدبيره عند منشئه، وقد لا يحقق ولكن دائماً في إطار «مجال بحث معين».

لقد كانت الحرب العالمية الأولى حادثاً تسببته إرادة التوسع الألمانية - إن وضعنا حادث سراجيفو البسيط جانباً.

تلكم كانت شحنتها التاريخية عند انطلاقه.

وقد كانت الحرب العالمية الثانية حادثاً مماثلا أطلقته إرادة القوة «الهتلرية».

ولكن الصاروخ يذهب إلى أبعد، إنه يخرج بعد انقذافه عن المسار الذي قدره العقل البشري له، فكأني به تتغير شحنته تدريجيا في الطريق، فلم يعد يندفع في الزمان أو التاريخ تبعا لسببية، ولكن بمقتضى غاية، وفي نهاية مستقره وغاية مطافه يصيب الحادث الوجدان البشري، ولا يحدد وقعه في مجال حقل دراسة معين، أي في حياة أمة أو مجتمع، ولكن في مجال شامل للإنسانية.

إن الحرب العالمية الأولى لا تطيح بآل «الهوهانزولارن، والهابسبورغ» فقط، ولكنها تنشئ فكرة جديدة تجسدت في شكل «عصبة الأمم».

إن وقع الحادث لم يهدم بعض البناءات السياسية فقط، ولكنه ولد مفهوما دوليًا للمسؤولية، إلا أن بعض التركيبات الذهنية الخاصة بالقرن التاسع عشر قد تخلفت كما نرى ذلك عندما تتوزع عصبة الأمم المنبثقة من وعي الإنسانية رغيف المستعمرات الأخرى.

إن الحرب العالمية الثانية لم تكتسح المطامح الهتلرية والنظرية العنصرية، فحسب، ولكنها أخرجت إلى الوجود هيئة الأمم المتحدة، وربما يقول حفدتنا إن

القنبلة الذرية لم تهدم هيروشيما ونجازاكي، فقط، ولكنها وترت وأرهفت الشعور بالمسؤولية الدولية، فعجلت بتكوين وعي عالمي.

ومن الغرور أن يقال إن هذا الأمر كان يشغل العالم الفيزيائي أوبنهايمر عندما كان في فيافي النيفادا يضع آخر لمسة على القنبلة التي ستهدم هيروشيما.

إن وقع حادث ما أطلقت عنانه الإرادة البشرية يخرج في النهاية عن رقابتها.

إنه صاروخ مقذوف في الزمان يتجاوز دائماً تقديراتنا وحساباتنا، الأمر الذي أشار إليه ﷻ في قوله ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ (الأنفال: ٣٠)، والواقع أن المؤرخين الذين يصنفون التاريخ يعوزهم شيء من الحرية، أو بعبارة أخرى فالتاريخ الذي تهدف إليه إرادتنا يكون دوما دون التاريخ الذي تحققه، فبسبب المنطق الكارتزيائي الذي يقتصر حكمه على الحوادث على النظر إليها من زاوية الأسباب يغيب على نظرهم جزء أساسي من مدار الأحداث.

وبما أن الصاروخ لا يندفع- في هذا الجزء- بفعل قوى تحصر في مبدأ السببية ولكنه يخضع فيما يبدو لمبدأ فانٍ، فإن المؤرخين يهملون بهذا جانبا عظيماً من فلسفة التاريخ.

مع أن الحادث يحقق معناه الكامل ومؤداه الشامل عندما يبلغ مرساه وغايته في التاريخ، إلا أن اكتشاف هذا الجانب الثاني من معنى الحادث يتطلب من المؤرخ مزيدا من الحرية على ما يمنحه المنطق الكارتزيائي.

وإن إيمانوال مونيي أحد هؤلاء «المتحررين» استطاع بصره أن يرى - على حد تعبيره- شمولا في الظاهرة التاريخية بحيث يأتي كل حدث فيها ليقوم بدوره لخير المجموع ونجاته.

وهذا التصور لا يحيط رغم تعمقه إلا ببعض جوانب الموضوع، فعلينا أن نغوص في قلبه وأن نميز في الظاهرة التاريخية جانبين: الجانب العرضي البشري والجانب القدري كما يراه مونيي. ولا أظن أن هذا التصور التاريخي يمكن الاستغناء عنه في لحظة بلغت فيها مأساة الإنسانية أشد توترها، حيث نرى بروقاً مهددة فوق أعالي جبال الكاشمير ومستنقعات الفيتنام.

إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث

العدد (٤٩) محرم (١٣٨٩هـ) - مارس (١٩٦٩م)

قامت الهند والمسلمون على الأخص بهذه الثورة ضد الإنجليز الذين سيطروا على البلاد بواسطة شركة الهند الشرقية الإنجليزية وانتزعوا الحكم فيها من المسلمين الذين كانوا يحكمونها في ذلك الوقت، ولكن الثورة فشلت فأعلنت إنجلترا ضم الهند لمستعمرات التاج ونفوا آخر الحكام المسلمين إلى رانجون وبقي فيها حتى مات. «الوعي الإسلامي»

يجب أولا أن يحدد المصطلح: إننا نعني بالمستشرقين الكتاب الذين يكتبون عن الفكر الإسلامي وعن الحضارة الإسلامية.

ثم علينا أن نصنف أسماءهم في شبه ما يسمى «طبقات» على صنفين:

أ- من حيث الزمن، طبقة القدماء، مثل جربر دوريياك Gerbert d,Aurillac والقديس طوماس الأوكويني وطبقة المحدثين مثل كاره دوفر Carrade Vaux، وجلد زهر Goldizer.

ب- من حيث الاتجاه العام نحو الإسلام والمسلمين لكتابتهم، فهناك طبقة المادحين للحضارة الإسلامية وطبقة المنتقدين عليها المشوهين لسمعتها.

هكذا وعلى هذا الترتيب يجب أن تقوم كل دراسة شاملة لموضوع الاستشراق، إلا أننا من الوجهة الاجتماعية الخاصة التي تهمنا في هذا البحث وفي النطاق الضيق المحدد لهذه السطور، نختار عن قصد فصلا خاصا، اختيارا تبرره مبررات إلغائنا للفصول الأخرى. إنه لمن الواضح أن المستشرقين القدماء أثروا وربما لا يزالون يؤثرون على مجرى الأفكار في العالم الغربي، دون أيما

تأثير على أفكارنا، نحن معشر المسلمين، إن ما كتبوا كان قطعا المحور الذي تحركت حوله الأفكار التي نشأت عنها حركة النهضة في أوروبا، بينما لا نرى لهم أي أثر فيما نسميه النهضة الإسلامية اليوم.

فلنترك إذن قضيتهم جانبا لمن تهمه دراسة التاريخ العام، كما نترك أيضا قضية المنتقدين على الحضارة الإسلامية المحدثين حتى ولو كان لهم بعض الأثر في تحريك أقلامنا أو كان لهم بعض الصيت في زمنهم وفي بلادهم مثل الأب لامانس، إنهم لا يدخلون في موضوع بحثنا لأن إنتاجهم، على فرض أنه مس ثقافتنا إلى حد ما، إلا أنه لم يحرك ولم يوجه بصورة شاملة مجموعة أفكارنا، لما كان في نفوسنا من استعداد لمواجهة أثره تلقائيا، مواجهة تدخلت فيها عوامل الدفاع الفطرية عن الكيان الثقافي، كما وقع ذلك في العهد الذي نشر فيه كتاب «في الشعر الجاهلي» على غرار ما تقتضيه مسلمة قدمها المستشرق مرجليوت قبل سنة، فأثار كتاب طه حسين تلك الزوبعة من السخط التي تخللتها الصواعق الانتقامية المنطلقة من قلم مصطفى صادق الرافعي رحمه الله وأكرم مثواه.

ولكننا على عكس ذلك نجد للمستشرقين المادحين الأثر الملموس الذي يمكننا تصوره بقدر ما ندرك أنه لم يجد في نفوسنا أي استعداد لرد الفعل، حيث لم يكن هناك، في بادئ الأمر، مبرر للدفاع الذي فقد جدواه وكأنما أصبح جهازه معطلا لهذا السبب.

وموضوعنا هنا هو أن نبين ما كان لهذه الثغرة في جهازنا للدفاع عن الكيان الثقافي من أثر في تطور أفكار المجتمع الإسلامي منذ قرن، وأثناء هذا القرن العشرين على وجه الخصوص.

لا شك أن المستشرقين المادحين مثل رينو Renaud الذي ترجم جغرافية أبي الفداء في أواسط القرن الماضي، ومثل دوزي DOZY الذي بعث قلمه قرون الأنوار العربية في أسبانيا ومثل سيدييو Sedillo الذي جاهد جهاد الأبطال طول حياته من أجل أن يحقق للفلكي والمهندس العربي أبي الوفاء لقب المكتشف لما يسمى في علم الهيئة «القاعدة الثانية لحركة القمر» ومثل آسين بلاثيوس الذي

كشف عن المصادر العربية للكوميدية الإلهية، لا شك أن هؤلاء العلماء كتبوا لنصرة الحقيقة العلمية، وللتاريخ وكل ذلك من أجل مجتمعهم الغربي.

ولكننا نجد أن أفكارهم كان لها وقع أكبر في المجتمع الإسلامي، في طبقاته المثقفة.

إن الجيل المسلم الذي أنتسب أنا إليه يدين إلى هؤلاء المستشرقين الغربيين بالوسيلة التي كانت بين يديه لمواجهة مركب النقص الذي اعترى الضمير الإسلامي أمام ظاهرة الحضارة الغربية.

ولكننا إذا تصفحنا هذه القضية في ضوء خبرتنا الحديثة وفي ضوء تجاربنا القريبة لم يكن لهذه الوسيلة إلا الأثر المحمود في تطور أفكارنا وثقافتنا، بل كان لها أثر مرض هو الذي نريد طرحه كموضوع للبحث في هذه السطور.

فلكي نتصور هذا الأثر على صورته الحقيقية في مجتمعنا الإسلامي، يجب أن نعيد هذا النوع من الاستشراق إلى مصادره التاريخية.

إن أوروبا اكتشفت الفكر الإسلامي في مرحلتين من تاريخها، فكانت في مرحلة القرون الوسطى قبل وبعد طوماس الإكويني، تريد اكتشاف هذا الفكر وترجمته من أجل إثراء ثقافتها بالطريقة التي أتاحت لها فعلا تلك الخطوات الموفقة التي هدتها إلى حركة النهضة منذ أواخر القرن الخامس عشر.

وفي المرحلة العصرية والاستعمارية فإنها تكتشف الفكر الإسلامي مرة أخرى لا من أجل تعديل ثقافي بل من أجل تعديل سياسي، لوضع خططها الاستعمارية مطابقة لما تقتضيه الأوضاع في البلاد الإسلامية من ناحية، ولتسيير هذه الأوضاع طبق ما تقتضيه هذه السياسات في البلاد الإسلامية لتسيطر على الشعوب الخاضعة فيها لسلطانها، وربما انطبقت هذه المجهودات العلمية، في نفس أصحابها على مجرد الاعتراف بفضل تلك الشعوب وبمساهمتها في تكوين الرصيد الحضاري الإنساني، ولا شك أن المستشرق سيدييو والعلامة جوستاف لوبون يتسمان في إنتاجهما بميزة العلم الخالص والاجتهاد المخلص للحقيقة العلمية.

ولكن تجب هنا الملاحظة بأن هذا اللقاء الجديد وقع في ملابسات تاريخية لم

يكن فيها العلم الإسلامي علما حيا ينقل من أفواه الأساتذة مباشرة ومن كتبهم المعاصرة، بل أصبح أشبه شيء بعلم الآثار يكتشفه الباحثون الأوروبيون بحكم الصدفة ويصدقون أو لا يصدقون في نقله، ثم ينسبونه لأصحابه من العلماء المسلمين، أو ينسبونه لأنفسهم أو لأحد الأوروبيين، فهكذا كانت اكتشافات كبرى تنسب لغير أصحابها، مثل دورة الدم الصغرى للإنجليزي فليام هرفي، بينما كان صاحبها الطبيب المسلم ابن النفيس الذي عاش قبله بأربعة قرون.

كما تجب الملاحظة أيضا أن العالم الإسلامي أصبح في هذه الملابسات يعاني الصدمة التي أصابته بها الثقافة الغربية، ويعاني بسببها على وجه الخصوص أثرين: مواجهة مركب نقص محسوس من ناحية، ومحاولة التغلب عليه من ناحية أخرى حتى بالوسائل التافهة.

لقد أحدثت هذه الصدمة، عند قبيل من المثقفين المسلمين شبه شلل في جهاز حصانتهم الثقافية، حتى أدى بهم مركب النقص إلى أن ولوا مدبرين أمام الزحف الثقافي الغربي، وألقوا أسلحتهم في الميدان، وكأنهم فلول جيش منهزم في اللحظة التي بدأ فيها الصراع الفكري يحتدم بين المجتمع الإسلامي والغرب، فأصبح هذا القبيل من المثقفين يبحث عن نجاته في التزيي بالزي الغربي، وينتحل في أذواقه وسلوكه كل ما يتسم بالطابع الغربي حتى ولو كان هذا الطابع مظهرا لا شيء وراءه من القيم الحضارية الغربية الحقيقية.

وبدأت تظهر في الأفق الثقافي الإسلامي الفكرة الجديدة التي حركت بعد ثورة سنة ١٨٥٨م بالهند، تأسيس جامعة عليكرة وحركت من جانب آخر ضد هذا المشروع، باعث النهضة الإسلامية السيد جمال الدين الأفغاني.

وهكذا أصبح الفكر الإسلامي، على أثر الصدمة الثقافية التي اجتاحته وما تسبب عنها من مركب نقص، ينحاز إلى معسكرين، أحدهما يدعو لتقبل الفنون والعلوم والأشياء الغربية- حتى اللباس- والآخر يحاول التغلب على مركب النقص بتناول حقنة اعتزاز يعلل بها النفس.

فالتيار الأول كان من الناحية العقلية والسياسية والاجتماعية له أثره في لونين،

اللون الذي يتمثل في تأسيس جامعة عليكرة، واللون الذي يتمثل في دعوة جمال الدين الأفغاني مع تباين الأهداف وتشابه الوسائل التي كانت تفرض على العالم الإسلامي في كلتا الحالتين تطورا يؤدي به إلى الشيئية والتكديس.

وأما التيار الثاني وهو موضوع حديثنا لاتصاله بإنتاج المستشرقين فإنه وجد مخدره الطبيعي في أدب الفخر والتمجيد الذي أنشأه علماء مستشرقون أمثال دوزي عن الحضارة الإسلامية.

ولا يمكننا، على أية حال أن نجعل بين التيارين فاصلا قاطعا، لأن الثاني منهما لا يكون بصورة منهجية مدرسة مستقلة عن الأول، بل نجده يخامر الفكر الإسلامي على العموم ويتخلل اتجاهه العام كفكر يبحث عن حقنة اعتزاز للتغلب على المهانة التي أصابته من الثقافة الغربية المنتصرة، كما يبحث المدمن عن حقنة المخدر التي يستطيع بها مؤقتا إشباع حاجته المرضية.

وهذا لا يجعلنا ننفي لهذا التيار ولنوع الأدب الذي نتج عنه كل أثر حسن في مصير المجتمع الإسلامي، لأنه كان له نصيب لا يزهد فيه في الحفاظ على شخصيته، والجيل الذي أنا منه يدين له بذلك النصيب على الأقل في المحافظة على شخصيته الإسلامية.

إنني على سبيل المثال قد اكتشفت وأنا بين الخامسة عشرة والعشرين من العمر أمجاد الحضارة الإسلامية في ترجمة دوسلان لمقدمة ابن خلدون وفيما كتب دوزي وأحمد رضا بعد الحرب العالمية الأولى.

وإني لعلى إدراك تام لما أدين به لهذه المطالعات، وقد ذكرت ذلك في الجزء الأول من «مذكرات شاهد القرن» والآن وقد تجاوزت الستين من العمر أستطيع أكثر من ذي قبل تقدير هذا العلاج للفكر وللضمير، لا في النطاق الشخصي، بل في النطاق الشامل للمجتمع الإسلامي طيلة أربعين سنة بعد تجربتي، فأرى أن أقرر هنا مع الاختصار اللازم في هذا العرض أن مساوئ طريقة هذا العلاج تظهر لي بالتالي أكثر من حسناته وذلك لأسباب متعددة.

فالسبب الأول لأنه بديهي، ولأن ملاحظة الآثار النفسية لأسلوب التكوين،

أي البيداغوجية، تبرز تلقائيا بالنحو الذي نشير إليه بمثل بسيط.

إننا عندما نتحدث إلى فقير، لا يجد ما يسد به الرمق اليوم، عن الثروة الطائلة التي كانت لآبائه وأجداده، إنما نأتيه بنصيب من التسلية عن متاعبه بوسيلة مخدر يعزل إلى حينٍ فكره مؤقتا وضميره عن الشعور بها، إننا نسكن الآلام، لا نشفيها.

فكذا لا نشفي أمراض مجتمع بذكر أمجاد ماضيه، ولا شك أن أولئك الماهرين في فن القصص قد قصوا للأجيال المسلمة في عهد ما بعد الموحدين قصة ألف ليلة وليلة، وتركوا بذلك (إثر كل سمر) نشوة تخامر مستمعيهم حتى يناموا على صورة ساحرة لماض مترف.

ولكن سوف تستيقظ هذه الجماهير في الغد، فتنفتح أبصارها من جديد على مشهد الواقع القاسي الذي يحيط بها في وضعها الذي لا تغبط عليه اليوم.

فالأدب الذي ينشد عصور الأنوار للحضارة الإسلامية يؤدي أولا هذين الدورين، إنه أتاح في مرحلة معينة الجواب اللائق للتحدي الثقافي الغربي الذي حفظ مع عوامل أخرى الشخصية الإسلامية، ولكنه من ناحية أخرى، نراه قد صب في هذه الشخصية الإعجاب بالشيء الغريب ولم يطبعها بما يطابق عصر الفعالية.

ربما تبدو هذه الملاحظة عارضة في هذا العرض، إلا أنها في نظرنا جديرة، على بساطتها، بكل الاهتمام، وذلك ليس لأنها تهمنا من جهة نظر الاجتماع فحسب، بل لأنها تهمنا أكثر إذا اعتبرنا مدلولها بالنسبة إلى مجال الصراع الفكري الذي تورط فيه العالم الإسلامي اليوم، في مرحلته الراهنة.

وإذا أردنا، بما يمكن من الإيجاز، التعريف بما نسميه «الصراع الفكري» في العالم الإسلامي فإنه يجب على الأقل أن نضع نصب أعيننا هذه القاعدة العامة: فكلما طرح المسلم أو المسلمون مشكلة ما تتصل بمصير هذا المجتمع، يجب علينا القطع بأن الاستعمار قد طرحها أو سيطرحها على الفور، وأنها لا تخفى على المختصين بالدراسات الإسلامية، فهم تناولوها قطعا بالبحث أو سيتناولونها، وأنهم سيبذلون كل جهدهم، إذا ما وفق المسلمون إلى حل من

الحلول لهذه المشكلة، في تزييف هذا الحل إن كان صحيحا، أو في توسيع الرتق فيه إن كان مخطئا. . هذا أبسط تعريف للصراع الفكري.

وعليه، فإذا بدرت في العالم الإسلامي بادرة، حتى ولو كانت خافية على أبصارنا نحن، فسرعان ما تلتقطها مراصد أولئك الأخصائيين، فيضعونها تحت مجاهر التحليل، خصوصا إذا كانت تلك البادرة ذات صلة قريبة أو بعيدة بحركة الأفكار في العالم الإسلامي، وبنهضته، أفنجري عملية الفحص والتحليل إلى أقصى حدها، وتمر النتيجة بمائة عملية تقطير وتصفية، حتى يبقى في المبادرة عندما تبرز بعد هذه العمليات، أقل ما يمكن من الصواب وأكثر ما يمكن من الخطأ، يعني من الناحية العملية أقل ما يمكن من العوامل الميسرة للتطبيق وأكثر ما يمكن لجعله متعسرا أو مستحيلا.

ومن الواضح أن أول صورة تبرز فيها مبادرة هي صورة فكرية تشتمل على أفكار توجيهية من حيث مبررات العمل وكيفيته، فإذا تسممت المبررات بالريب والتشكيك أو فقدت الكيفية ما يجب من الوضوح، صعب العمل أو استحال.

إذن قضية الأفكار التوجيهية قضية رئيسية، وقد يكون التوجيه من حيث المبررات، إما إلى الأمام وإما إلى الخلف، إذا كان ملتفتا بصورة مرضية إلى الوراء.

* * *

المجتمع الإسلامي والإنسانية العذراء!

العدد (٧٧) جمادى الأولى (١٣٩١هـ) يونيو (١٩٧١م)

إن المشكلة التي استقطبت تفكيري واهتمامي منذ أكثر من ربع قرن وحتى الآن هي مشكلة الحضارة وكيفية إيجاد الحلول الواقعية لها وإزالة التناقض بين النجاح المادي والتخلف المعنوي، أعني تخلف القيم أو إهمالها، لقد شعرت منذ فترة طويلة وعلى وجه التحديد منذ وصولي إلى أوروبا لتلقي العلم عام ١٩٣٠ أن المجتمعات المعاصرة تواجه مشكلات بالغة التعقيد ومتعددة الأنواع، وإذا كان من المفروض على رجل السياسة أن يتناول هذه المشكلات في تنوعها وتعددها ويجهد في إيجاد الحلول الملائمة لها، وإذا كان من حق رجل الفكر أيضاً أن يطرق هذا الطريق في بلاد متقدمة فأولى برجل السياسة والفكر في البلاد المتأخرة أن يوجه اهتماماً متزايداً لدراسة هذه المشكلات في مجتمعه وأن يجتهد في إيجاد الحلول الملائمة لها.

ومن الأخطاء والأخطار التي واجهت بعض الدول الإسلامية أنها تناولت مشكلاتها ووضعت لها حلولها وفقا للأنماط والنماذج التي واجهت بها الدول المتقدمة مشكلاتها، وإذا كان هذا الأمر له خطورته من الناحية السياسية، أعني من الناحية التطبيقية، فإن خطورته أشد من الناحية النظرية، لا سيما أن الناحية النظرية هي التي توحي بالحلول التي تطبق وتكون النتيجة أن تبقى حياتنا السياسية أسيرة مجهودات فكرية غير ملائمة لواقعنا، لأنها أخلت بمبدأ أساسي من مبادئ فلسفة التاريخ.

يمكننا أن نقرب هذه الحقيقة إلى ذهن القارئ إذا ما طبقناها على مستوى الأفراد، من المسلم به أن ما يمكن أن يصنعه أو يتحمله الرجل المكتمل من

مجهودات لا يمكن أن يصنعه أو يتحمله طفل صغير أو شيخ هرم، أيضا المجتمعات لها أعمارها، فهذا المجتمع في عنفوان شبابه، يستطيع أن يتحمل وينتج ما تنتجه المجتمعات المزدهرة، وهذا مجتمع ناشئ لا تستطيع قواه أن تواجه نفس الأعباء التي يتحملها المجتمع الأول، وهذا مجتمع ثالث هرم لا يستطيع لنفس الأسباب أن يقوم بالمهمات الكبرى مادام يستولي عليه هرمه.

وإذا أرجعنا هذه الاستعارات إلى مصطلح علم الاجتماع نقول بغير تردد إن المجتمع الإسلامي اليوم يتكون من عناصر بشرية مازالت تشكل ما نسميه بـ«الإنسانية العذراء»، أعني الإنسانية التي لم تدخل بعد في دورة حضارة، ولهذا السبب تحتفظ بكل رصيدها التاريخي الأمر الذي يملأها بالتفاؤل نحوها.

كما يتكون المجتمع الإسلامي أيضا من عناصر بشرية قامت بدور حضاري كبير وأنارت الإنسانية طيلة قرون ازدهارها وأتى على هذه المجتمعات ما يأتي على كل المجتمعات وكل الحضارات فاستولى عليها الهرم، وربما تجد نفسها في هذه الحالة عاجزة عن القيام بالمهمات التي يضطلع بها غيرها من الشعوب المتحضرة لأنها هرمت.

والمشكل الرئيسي إذن، بل أم المشكلات التي يواجهها العالم الإسلامي مشكلة الحضارة من طرفين، كيف تدخل الشعوب العذراء في دورة حضارية جديدة، وكيف تعود الشعوب الإسلامية التي خرجت من حلبة التاريخ لدورة حضارية جديدة.

إذا سلمنا بهذه الحقائق يبقى علينا أن نفكر في مصير العالم الإسلامي، وكيف يمكن لنا الدخول في دورة حضارية جديدة، هذه القضية باختصار هي التي وجهت لها كل مجهوداتي المتواضعة منذ ثلاثين سنة، ولسنا في حاجة إلى حديث طويل لكي نؤكد أن الفكر الإسلامي قد وضع حلولا لمشكلات العالم الإسلامي وما يعانيه إنسان العصر الحديث من قضايا ومواقف، إن القرآن الكريم قد وضع حلولا لهذه القضايا والمواقف، ويجب أن نعمل على ضوء هذه الحقيقة، فمن ناحية المشكلات الاجتماعية التي تواجه الإنسان تكفل القرآن بوضع تشريع المعاملات

الاجتماعية كالزواج والمعاشرة والطلاق... إلخ، كما وضع تشريعا للمسائل الدنيوية كالبيع والشراء والتجارة من ناحية أخرى، فإن القرآن الكريم يضع في أعماق عقيدتنا الاستعدادات التي تؤهلنا لتطبيق المعاملات المتعددة ويحفزنا على الإبداع والابتكار.

إن حصيلة دراستي في هذه الناحية تتحدد في مجموعة من النقاط أبرزها أن الحضارة لا تصنع بمنتوجات حضارية مستوردة، بل هي التي تصنع وحدها المنتوجات الحضارية، وهذا يؤدي بنا إلى تساؤل تقليدي عن شروط الحضارة في جوهرها العام، والجواب من دون استطراد طويل، إن شروط الحضارة تتكون من ثلاثة عناصر: الإنسان.. التراب.. والوقت.. وإذا دققنا النظر في هذه العناصر نستطيع أن نستخلص المعنى المطلوب.

وإذا كانت هذه فقط شروط الحضارة فلماذا لا توجد حضارة في مجتمع توافرت فيه هذه الشروط وهي غالباً ما تتوافر في مجتمعات العالم الثالث الذي يضم أكبر كتلة بشرية وأخصب مساحات من التراب ولديه من الوقت ما لغيره من الدول صاحبة الحضارة، ومع ذلك فلا توجد حضارة كالموجودة في الدول الأولى، وفي رأيي أن السبب في ذلك أن هذه العوامل تتطلب إلى جانبها عاملا آخر لا غنى عنه، هو العامل النفساني، هذا العامل الذي يصطلح البعض على تسميته بكلمة «العقيدة» والبعض الآخر يسميه «أيديولوجية» فنحن إذن أمام قضية واضحة وضوحاً كاملاً، إن الشروط اللازمة لتكوين الحضارة موجودة.. والذي ينقصنا هو العمل بموجب العقيدة الإسلامية، الإسلام وحده هو الذي يمكن أن يعيد المسلمين إلى عالم الحضارة الخلاقة والمبدعة، أو يدخلهم في حلبتها، ولكن شريطة أن يعتبروا أن هذه العقيدة رسالة هامة وضرورية ولا غنى عنها.. ولكن العقيدة لا يمكن أن تحرك الطاقات إلا بقدر تسخيرها- أي العقيدة- لحاجات أبعد وأسمى وأجل من الحاجات اليومية.

١٣

الشيخ السيد سابق

- ❑ **ترجمة الشيخ.**
- ❑ **المقالات:**

١- حجة الوداع.

العدد (١٢) ذو الحجة (١٣٨٥هـ) - مارس (١٩٦٦م).

٢- كيف نعيش.

العدد (٢٢) شوال (١٣٨٦هـ) - يناير (١٩٦٧م).

٣- التدين.

العدد (١١٦) شعبان (١٣٩٤هـ) - أغسطس (١٩٧٤م).

٤- الدولة الإسلامية.

العدد (١٨١) محرم (١٤٠٠هـ) - نوفمبر (١٩٧٩م).

ترجمة الشيخ

سيد سابق



ولد الشيخ سيد سابق رحمه الله تعالى في يناير عام ١٩١٥م بقرية «إسطنها»، من مركز الباجور بمحافظة المنوفية، وأتم حفظ القرآن في صغره، ثم التحق بالأزهر في القاهرة، وظل يتلقى العلم ويترقى حتى حصل على العالمية في الشريعة عام ١٩٤٧م، ثم حصل بعدها على الإجازة من الأزهر وهي درجة علمية أعلى.

عمل رحمه الله بالتدريس بعد تخرجه في المعاهد الأزهرية، ثم بالوعظ في الأزهر، ثم انتقل إلى وزارة الأوقاف في نهاية الخمسينيات متقلداً إدارة المساجد، ثم الثقافة، فالدعوة، فالتدريب، ثم انتقل إلى مكة المكرمة للعمل أستاذاً بجامعة الملك عبد العزيز، ثم جامعة أم القرى، وأسند إليه فيها رئاسة قسم القضاء بكلية الشريعة، ثم رئاسة قسم الدراسات العليا، ثم عمل أستاذاً غير متفرغ.

● **مؤلفاته:**

أشهر كتبه وأحبها إليه الذي اقترن اسمه به هو «فقه السنة»، ومن مؤلفاته أيضاً: «مصادر القوة في الإسلام، الربا والبديل، تقاليد وعادات» وغيرها.

تخرج على يديه العديد من العلماء وطلبة العلم منهم الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي، والدكتور صالح بن حميد، وغيرهما، واستعان به الكثير من العلماء أمثال الشيخ محمد الغزالي، والشيخ محمود شلتوت، ومحمد أبو زهرة.

● **وفاته**

مرض الشيخ في آخر حياته وأبى أن يمتنع عن التدريس في المساجد حتى وافته المنية مساء يوم الأحد ٢٣ من ذي القعدة ١٤٢٠هـ الموافق ٢٧/ ٢/ ٢٠٠٠م عن عمر ناهز ٨٥ سنة.

حجة الوداع

العدد (١٢) ذو الحجة (١٣٨٥هـ) - مارس (١٩٦٦م).

● الحج عبادة قديمة

الحج عبادة من العبادات القديمة التي عرفتها الأمم جميعاً منذ أقدم العصور، فقد كان لكل أمة مكان معين. أو أكثر تحج إليه وتؤمه مرة أو مرات، عرفه قدماء المصريين. والسريان، والصينيون، والهنود، واليونانيون، وعرفه الإسرائيليون. فقد كانوا يذهبون إلى أورشليم ليقضوا عيد الفصح بها حاجين متعبدين حسب ما أمروا به.

ولما جاءت المسيحية جعلت الحج في أول عهدها إلى قبور الأولياء والشهداء والقديسين ثم اتجهت به إلى أورشليم.

وكان العرب في العهد الجاهلي يحجون إلى البيت الحرام الذي بناه بمكة إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام.

إلا أن حج العرب كان قد شابه الكثير من الوثنية - كما شابه الكثير من السيئات -، فقد كانوا يلبون ويقولون في تلبيتهم. «لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك» كما كانوا يطوفون بالبيت عراة الأجسام رجالاً ونساء مشبكين بين أصابعهم يصفرون ويصفقون. ويتعللون لذلك بأنه لا ينبغي لهم أن يطوفوا بالبيت في ملابس عصوا اللّه فيها. فسجل الله عليهم ذلك فقال: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ (الأنفال: ٣٥).

والمكاء هو الصفير.. والتصدية هي التصفيق. وأمرهم الله أن يستروا عوراتهم فقال: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ (الأعراف: ٣١).

وإذا كان الحج قد عرفته الأمم القديمة جميعها. فالظاهر أن ذلك مستمد من الشرائع الإلهية. ومن الأصل السماوي. باعتباره من دين الله الذي كلف به جميع

الأمم والشعوب. وإلى هذا تشير الآية الكريمة: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ (الحج: ٦٧).

● الحج في الإسلام

فلما جاء الإسلام فرض الحج على المسلمين كما فرضته الشرائع السابقة، وجعله أحد أركان الإسلام الخمسة وفريضة من الفرائض التي علمت من الدين بالضرورة. فلو أنكر وجوبه منكر كفر وارتد عن الإسلام. يقول الله سبحانه: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ (آل عمران: ٩٦-٩٧).

● متى فرض

والذي اختاره أكثر العلماء أن إيجابه كان سنة ست بعد الهجرة، لأنه نزل فيها قول الله تعالى ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ (البقرة: ١٩٦) وهذا مبني على أن الإتمام يراد به ابتداء الفرض. ويؤيد هذا قراءة علقمة ومسروق وإبراهيم النخعي: «﴿وأقيموا﴾» رواه الطبراني بإسناد صحيح.

أما ابن القيم فقد رجح أن افتراض الحج كان سنة تسع أو عشر.

● الترغيب فيه

وقد رغب الشارع في أداء هذه الفريضة فاعتبرها من أفضل الأعمال. فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ سئل عن أفضل الأعمال. قال: «إيمان بالله ورسوله»، قيل: ثم ماذا؟. قال: «ثم جهاد في سبيل الله» قيل ثم ماذا؟ قال: «ثم حج مبرور».

والحج المبرور هو الحج الذي لا يخالطه إثم وقال الحسن: أن يرجع زاهداً في الدنيا راغباً في الآخرة».

وعن الحسن بن علي رضي الله عنهما، أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: «إني جبان وإني ضعيف، فقال: هلم إلى جهاد لا شوكة فيه: الحج» ومن ثم كان للحجاج عند الله المنزلة الرفيعة والمقام المحمود، يقول رسول الله ﷺ: «الحجاج والعمار وفد الله، إن دعوه أجابهم وإن استغفروه غفر لهم».

• **شروط وجوبه**

وقد اشترط الفقهاء لوجوبه الإسلام والبلوغ والعقل والحرية والاستطاعة، وإنما تتحقق الاستطاعة بصحة البدن وأمن الطريق وملك ما يكفيه ويكفي من يعوله كفاية فاضلة عن حوائجه الأصلية من مطعم وملبس ومسكن، وألا يوجد ما يمنع الناس من الذهاب إلى الحج كالحبس والخوف من سلطان جائر يمنع الناس منه.

• **حكمته**

قد يبدو أن الحج عبادة رمزية غير معقولة المعنى، ولا ظاهرة الحكمة وأن ما يأتيه الإنسان من أعمال إنما هو امتثال للأمر وإظهار للعبودية، وقيام بحق الله، ولكنه عند المتأمل تتجلى أسراره وتظهر آثاره النفسية والخلقية والاجتماعية.

• **أسراره النفسية**

إن شعائر الحج تثير في النفس ذكريات عذاباً، إذ إنها ترتبط بالواقع التاريخي لأبي الأنبياء إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وخاتمهم محمد صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً. والحج يلقي على هذه الذكريات من الظلال والألوان ما يجعلها شاخصة للعيون وماثلة في الأذهان. إن إبراهيم عليه الصلاة والسلام هو الذي رفع قواعد البيت وإسماعيل. وهو أول بيت وضع لعبادة الله في الأرض. ومن ثم أمر الحنفاء أن يتوجهوا إليه كلما توجهوا إلى الله في صلاتهم، وأن يتلاقوا عنده كل عام يحدوهم الحب في الله والاجتماع عليه ليعلنوا تضامنهم واتفاقهم على إقامة شريعة الله الواحد.

ولا تزال النفس الإنسانية تهفو إلى مصدر إشعاعها الأول وتحن إليه، وتقيم لذلك المعالم الهادية وتتخذ منه حافظاً يرقى بحاضرها وينهض بها إلى حياة أهدى وأزكى.

ولقد جاشت نفس رسول الله ﷺ وانفعلت بهذه الذكريات فبكي وهو عند الكعبة وقال: «يا عمر: هنا تسكب العبرات».

• **آثاره الخلقية**

والحج نوع من السلوك ولون من ألوان التدريب العملي على مجاهدة النفس من أجل الوصول إلى المثل الأعلى، والاندماج في حياة روحية خالصة تمتلئ

فيها القلوب بحب الله، وتنطلق الحناجر هاتفة بذكره مثنية عليه. وبينما يرتدي المرء ملابس الإحرام وهي ملابس خالية من الزينة ومن كل ما يثير في النفس دواعي العجب والخيلاء يقول الله تعالى ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ﴾ (البقرة: ١٩٧) تشير هذه الآية إلى أن المرء حينما يدخل في أعمال الحج يجب عليه أن يعيش في جو من العفاف والأدب العالي فلا يتدلى إلى رفث ولا يميل إلى فسوق ولا ينطق بكلمة طائشة. أو ينظر نظرة فاحشة. كما تشير أيضاً إلى فعل الخير. وهو عمل إيجابي يجمل بكل مؤمن أن يهتم به ويحرص عليه.

- **آثاره الاجتماعية**

يمكن تلخيص الحكم الاجتماعية للحج فيما يلي:

١- إن الحج رحلة سياحية لتجميع أكبر عدد ممكن من أفراد الأمة الإسلامية ليشهدوا المنافع التي تعود عليهم بالخير والبركات. سواء أكانت منافع روحية أم منافع اقتصادية أم منافع سياسية.

٢- إن فيه تعارف الشعوب الإسلامية وتوحيد غاياتهم التي توجههم الوجهة التي تأخذ بأيديهم إلى حياة القوة والعزة والعلم والعمل. بما يفيده بعضهم من بعض ومن تبادل الآراء المختلفة والثقافات المتنوعة.

٣- يمكن عقد معاهدات واتفاقات في موسم الحج ودراسة الوسائل لتيسير التبادل الاقتصادي والثقافي مما تحتاج إليه هذه البلاد.

هذه هي بعض حكم الحج وأسراره.

فلننظر إلى أرض الله الواسعة ولنستحضر كل المؤتمرات والتجمعات، فهل نجد مجتمعاً أطهر وأبر من هذا المجتمع مع هذا العدد الوفير. والكثرة الكاثرة؟. وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ (الحج: ٢٧ -٢٨).

- **كيفيته**

ومن الثابت أن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه حج حجة واحدة، وكان

ذلك في السنة العاشرة من الهجرة وسميت حجته تلك بحجة الوداع، وقد بين فيها الرسول صلوات الله عليه مناسك الحج وقال: «خذوا عني مناسككم»، فمن اقتدى برسول الله ﷺ واهتدى بهديه في حجه كان حجه صحيحاً، وهذا بيان حجه كما رواه الإمام مسلم:

قال: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، وإسحق بن إبراهيم جميعاً، عن حاتم، قال أبو بكر حدثنا حاتم بن إسماعيل المدني عن جعفر بن محمد عن أبيه قال: دخلنا على جابر بن عبد الله رضي الله عنه، فسأل عن القوم حتى انتهى إلي. فقلت أنا محمد بن علي بن حسين فأهوى بيده إلى رأسي، فنزع زري الأعلى، ثم نزع زري الأسفل، ثم وضع كفه بين ثديي، وأنا يومئذ غلام شاب.

فقال مرحباً بك يا ابن أخي، سل عما شئت؟ فسألته- وهو أعمى وحضر وقت الصلاة، فقام في نساجة[1] ملتحفاً بها، كلما وضعها على منكبه رجع طرفاها إليه من صغرها، ورداؤه إلى جنبه على المشجب[2] فصلى بنا، فقلت أخبرني عن حجة رسول الله ﷺ فقال بيده فعقد تسعاً، فقال إن رسول الله ﷺ مكث تسع سنين[3] لم يحج ثم أذن في الناس في العاشرة أن رسول الله ﷺ حاج فقدم المدينة بشر كثير كلهم يلتمس أن يأتم برسول الله ﷺ ويعمل مثل عمله.

فخرجنا معه حتى أتينا ذا الحليفة، فولدت أسماء بنت عميس: محمد بن أبي بكر فأرسلت إلى رسول الله ﷺ: كيف أصنع؟

قال: اغتسلي واستثفري[4] بثوب وأحرمي.

فصلى رسول الله ﷺ في المسجد، ثم ركب «القصواء»[5] حتى إذا استوت به

---

(١) نساجة ثوب يشبه الطيلسان.

(٢) المشجب اسم لأعواد- يوضع عليها الثياب- ومتاع البدن أشبه بما يسمى عندنا بالشماعة.

(٣) تسع سنين. أي بالمدينة قبل أن يحج.

(٤) الاستثفار: أن تشد في وسطها شيئاً وتأخذ خرقة عريضة تجعلها على محل الدم وتشد طرفيها من قدامها ومن ورائها في ذلك المشدود في وسطها لمنع سيلان الدم - وفي هذا دليل على صحة إحرام الحائض والنفساء بعد استثفارهما. وعلى أن غسل الإحرام سنة لهما. ولغيرهما من باب أولى.

(٥) القصواء: اسم لناقة النبي ﷺ.

ناقته على البيداء نظرت إلى مد بصري بين يديه من راكب وماش وعن يمينه مثل ذلك، وعن يساره مثل ذلك، ومن خلفه مثل ذلك، ورسول الله ﷺ بين أظهرنا، وعليه ينزل القرآن، وهو يعرف تأويله، وما عمل به من شيء عملنا به، فأهل[(١)] بالتوحيد (لبيك اللهم لبيك * لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك * لا شريك لك) وأهل الناس بهذا الذي يهلون به، فلم يرد رسول الله ﷺ عليهم شيئاً منه، ولزم رسول الله ﷺ تلبيته. قال جابر ﷺ: لسنا ننوي إلا الحج، لسنا نعرف العمرة، حتى إذا أتينا البيت معه استلم الركن فرمل ثلاثاً، ومشى أربعاً ثم نفذ إلى مقام إبراهيم عليه السلام فقرأ: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ فجعل المقام بينه وبين البيت. فكان يقرأ في الركعتين ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ و﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ ثم رجع إلى الركن فاستلمه ثم خرج من الباب إلى الصفا فلما دنا من الصفا قرأ ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ أبدأ بما بدأ الله به فبدأ بالصفا، فرقى عليه حتى رأى البيت، واستقبل القبلة، فوحد الله وكبره، وقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا الله وحده، أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده[(٢)]. ثم دعا بين ذلك، قال مثل هذا ثلاث مرات ثم نزل إلى المروة، حتى إذا انصبت قدماه في بطن الوادي[(٣)] سعى، حتى إذا صعدنا مشى، حتى أتى المروة، ففعل على المروة كما فعل على الصفا. حتى إذا كان آخر طوافه على المروة فقال: «لو أني استقبلت من أمري ما استدبرت لم أسق الهدي، وجعلتها عمرة، فمن كان منكم ليس معه هدي فليحل، وليجعلها عمرة».

فقام سراقة بن مالك بن جعشم، فقال يا رسول الله ألعامنا هذا أم لأبد؟ فشبك

---

(١) أهلَّ: من الإهلال وهو رفع الصوت بالتلبية.

(٢) هزم الأحزاب وحده. أي هزمهم بغير قتال من الآدميين. ولا بسبب من جهتهم والمراد بالأحزاب الذين تحزبوا على رسول الله ﷺ يوم الخندق.

(٣) بطن الوادي: هو الذي يقال له بين الميلين - لمن لم يسق الهدي - كما فعل الصحابة بأمر رسول الله ﷺ.

رسول الله ﷺ أصابعه، واحدة في الأخرى، وقال: «دخلت العمرة في الحج مرتين، لا، بل لأبد أبد».

وقدم علي من اليمن ببدن النبي ﷺ، فوجد فاطمة رضي الله عنها ممن حلَّ.. ولبست ثياباً صبيغاً واكتحلت، فأنكر ذلك عليها، فقالت: إن أبي أمرني بهذا. قال فكان علي يقول بالعراق. فذهبت إلى رسول الله ﷺ محرشاً(١) على فاطمة للذي صنعت، مستفتياً لرسول الله ﷺ فيما ذكرت عنه، فأخبرته أنّي أنكرت ذلك عليها، فقال صدقت صدقت، ماذا قلت حين فرضت الحج؟. قال:

قلت: «اللَّهمَّ إني أهلّ بما أهل به رسولك ﷺ قال: «فإن معي الهدي فلا تحلّ».

قال فكان جماعة الهدي الذي قدم به علي من اليمن. والذي أتى به النبي ﷺ مائة. قال فحلَّ الناس كلَّهم وقصروا(٢)، إلا النبي ﷺ ومن كان معه هدي، فلما كان يوم التروية(٣) توجهوا إلى منى فأهلوا بالحج، وركب رسول الله ﷺ، فصلى بها الظهر والعصر والمغرب، والعشاء والفجر(٤) ثم مكث قليلاً حتى طلعت الشمس، وأمر بقبّة من شعر تضرب له بنمرة. فسار رسول الله ﷺ، ولا تشك قريش إلا أنه واقف عند المشعر الحرام. كما كانت قريش تصنع في الجاهلية(٥).

(١) محرشاً التحريش الإغراء - والمراد به أنه كان يعتب عليها.

(٢) يؤخذ من هذا، جواز فسخ الحج إلى العمرة لمن لم يسق الهدي- كما فعل الصحابة بأمر رسول الله ﷺ.

(٣) يوم التروية، هو اليوم الثامن من ذي الحجة وسمي بذلك لأنه مشتق من الرواية لأن الإمام يروي للناس مناسكهم. وقيل من الارتواء لأنهم يرتوون الماء في ذلك اليوم ويجمعونه بمنى.

(٤) يؤخذ من هذا أن من السنة صلاة خمسة أوقات بمنى. والمبيت بها هذه الليلة وهي ليلة التاسع من ذي الحجة. ومن السنة كذلك إلا يخرج يوم عرفة من منى إلا بعد طلوع الشمس ولا يدخل عرفات إلا بعد زوال الشمس، وهذا كله بحسب الاستطاعة.

(٥) كانت قريش في الجاهلية تقف بالمشعر الحرام، وهو جبل في المزدلفة يقال له قزح وقيل إن المشعر الحرام كل المزدلفة. وكان سائر العرب يتجاوزون المزدلفة ويقفون بعرفات فظنت قريش أن النبي ﷺ يقف في المشعر الحرام على عادتهم ولا يتجاوزه فتجاوزه ﷺ إلى عرفات لأن الله تعالى أمر بذلك في قوله ﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس﴾ أي سائر العرب غير قريش وإنما كانت قريش تقف بالمزدلفة لأنها من الحرم، وكانوا يقولون نحن أهل حرم الله فلا نخرج منه.

فأجاز[١] رسول الله ﷺ حتى أتى عرفة فوجد القبة قد ضربت له بنمرة فنزل بها حتى إذا زاغت الشمس، أمر بالقصواء فرحلت[٢] له فأتى بطن الوادي[٣].

فخطب الناس وقال: «إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع. ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا، دم ابن ربيعة بن الحارث. كان مسترضعاً في بني سعد، فقتلته هذيل وربا الجاهلية موضوع[٤]وأول ربا أضع ربانا، ربا عباس بن عبد المطلب، فإنه موضوع كله، فاتقوا الله في النساء. فإنكم أخذتموهن بأمان الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله. . . إلى قوله: ولهن عليكم رزقهن، وكسوتهن بالمعروف. وقد تركت فيكم ما لا تضلوا بعده، إن اعتصمتم به، كتاب الله وأنتم تسألون عني، فما أنتم قائلون؟ قالوا. نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت. فقال بإصبعه السبابة[٥] يرفعها إلى السماء ينكتها إلى الناس، اللهم اشهد، ثلاث مرات، ثم أذن، ثم أقام فصلى الظهر، ثم أقام فصلى العصر، ولم يصلّ بينهما شيئاً[٦] ثم ركب رسول الله ﷺ. حتى أتى الموقف فجعل بطن ناقته القصواء إلى الصخرات، وجعل حبل المشاة[٧] بين يديه. واستقبل القبلة.

فلم يزل واقفاً حتى غربت الشمس، وذهبت الصفرة قليلاً حتى غاب القرص، وأردف أسامة خلفه، ودفع رسول الله ﷺ ، وقد شنق[٨] للقصواء الزمام حتى إن

(١) فأجاز، أي جاوز المزدلفة ولم يقف بها، بل توجه إلى عرفات.
(٢) فرحلت، أي جعل عليها الرحل.
(٣) بطن الوادي، هو وادي عرفة.
(٤) ربا الجاهلية موضوع. أي باطل.
(٥) فقال بإصبعه السبابة أي يقلبها ويرددها إلى الناس مشيراً إليهم.
(٦) فيه دليل على مشروعية الجمع بين الظهر والعصر هناك في ذلك اليوم بسبب النسك أو بسبب السفر، على خلاف في ذلك.
(٧) حبل المشاة أي مجتمعهم.
(٨) شنق أي ضم وضيق.

رأسها ليصيب مورك رحله[١] ويقول بيده اليمنى[٢] أيها الناس: السكينة السكينة كلما أتى جبلاً من الجبال أرخى لها قليلاً حتى تصعد، حتى أتى المزدلفة فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين، ولم يسبح بينهما شيئاً[٣] ثم اضطجع رسول الله ﷺ حتى طلع الفجر. وصلى الفجر حين تبين له الصبح بأذان وإقامة. ثم ركب القصواء، حتى أتى المشعر الحرام فاستقبل القبلة فدعاه وكبره وهلله ووحده، فلم يزل واقفاً حتى أسفر جداً. فدفع قبل أن تطلع الشمس.

وأردف الفضل بن عباس، وكان رجلاً حسن الشعر أبيض وسيما[٤] فلما دفع رسول الله ﷺ مرت به ظعن[٥] يجرين فطفق الفضل ينظر إليهن فوضع رسول الله ﷺ يده على وجه الفضل.

فحول الفضل وجهه إلى الشق الآخر ينظر، فحول رسول الله ﷺ يده من الشق الآخر على وجه الفضل، يصرف وجهه من الشق الآخر ينظر حتى أتى بطن محسر. فحرك قليلاً ثم سلك الطريق الوسطى[٦] التي تخرج على الجمرة الكبرى، حتى أتى الجمرة التي عند الشجرة فرماها بسبع حصيات، يكبر مع كل حصاة منها مثل حصى الخزف، رمى من بطن الوادي[٧]. ثم انصرف إلى المنحر. فنحر ثلاثاً وستين بيده[٨] ثم أعطى علياً. فنحر ما غبر[٩] وأشركه في هديه، ثم أمر

(١) المورك الموضع الذي يثني الراكب رجله عليه قدام واسطة الرحل إذا مل من الركوب.

(٢) ويقول بيده اليمنى أي يشير بها قائلاً الزموا السكينة. وهي الرفق والطمأنينة.

(٣) لم يسبح بينهما شيئاً أي لم يصل بينهما شيئاً من الصلوات وهذا الجمع متفق عليه من العلماء.

(٤) وسيماً جميلاً.

(٥) ظعن جمع ظعينة وهي البعير الذي عليه امرأة، ثم سميت به المرأة مجازاً لملابستها البعير.

(٦) فيه دليل على أن سلوك هذا الطريق من عرفات سنة. وهو غير الطريق الذي ذهب فيه إلى عرفات. وكان قد ذهب إلى عرفات من طريق «ضب» ليخالف الطريق كما كان يفعل في الخروج إلى العيدين في مخالفة طريق الذهاب والإياب.

(٧) بطن الوادي أي بحيث تكون مني وعرفات والمزدلفة عن يمينه ومكة عن يساره.

(٨) فنحر ثلاثاً وستين بيده، فيه دليل على استحباب تكثير الهدي، وكان هدي النبي صلى الله عليه وسلم في تلك السنة مائة بدنة.

(٩) ما غبر: ما بقي.

من كل بدنة ببضعة[١] فجعلت في قدر فطبخت، فأكلا من لحمها وشربا من مرقها. ثم ركب رسول الله ﷺ. فأفاض إلى البيت[٢] فصلى بمكة الظهر فأتى بني عبدالمطلب يسقون على زمزم فقال انزعوا[٣] بني عبد المطلب فلولا أن يغلبكم الناس على سقايتكم[٤] لنزعت معكم فناولوه دلوا فشرب منه». قال العلماء واعلم أن هذا الحديث عظيم مشتمل على جمل من الفوائد، ونفائس من مهمات القواعد. قال القاضي عياض قد تكلم الناس على ما فيه من الفقه وأكثروا، وصنف فيه أبو بكر بن المنذر جزءاً كبيراً أخرج فيه من الفقه مئة ونيفاً وخمسين نوعاً. قال ولو تقصى لزيد على هذا العدد قريب منه. قالوا وفيه دلالة على أن غسل الإحرام سنة للنفساء والحائض ولغيرهما بالأولى.

وعلى استثفار الحائض والنفساء، وعلى صحة إحرامهما، وأن يكون الإحرام عقب صلاة فرض أو نفل، وأن يرفع المحرم صوته بالتلبية ويستحب الاقتصار على تلبية النبي ﷺ. فإن زاد فلا باس، فقد زاد عمر: لبيك ذا النعماء والفضل الحسن، لبيك مرهوباً منك ومرغوباً إليك.

وإنه لينبغي للحاج القدوم أولاً على مكة ليطوف طواف القدوم وأن يتسلم الركن- الحجر الأسود- قبل طوافه ويرمل في الثلاثة الأشواط الأول.

والرمل أسرع المشي مع تقارب الخطا وهو الخبب وهذا الرمل يفعله في ما عدا الركنين اليمانيين.

ثم يمشي أربعاً على عادته وأنه يأتي بعد تمام طوافه مقام إبراهيم ويتلو ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ ثم يجعل المقام بينه وبين البيت ويصلي ركعتين. ويقرأ فيها- في الأولى- بعد الفاتحة «سورة الكافرون» وفي الثانية بعد الفاتحة

---

(١) ببضعة أي بقطعة من اللحم.

(٢) أفاض إلى البيت أي طاف بالبيت طواف الإفاضة.

(٣) انزعوا أي اسقوا بالإدلاء وانزعوا بالرشاء أي الحبال.

(٤) أن يغلبكم الناس على سقايتكم معناه لولا خوفي أن يعتقد الناس ذلك من مناسك الحج ويزدحموا عليه بحيث يغلبونكم ويدفعونكم عن الاستسقاء لاستقيت معكم لكثرة فضيلة هذا الاستقاء.

«سورة الإخلاص». ورد الحديث على أنه يشرع له الاستلام عند الخروج من المسجد كما فعله عند الدخول. واتفق العلماء على أن الاستلام سنة. وأنه يسعى بعد الطواف ويبدأ من الصفا ويرقى إلى أعلاه ويقف عليه، مستقبل القبلة ويذكر الله تعالى بهذا الذكر ويدعو ثلاث مرات ويرمل في بطن الوادي وهو الذي يقال له «بين الميلين» وهو- أي الرمل- مشروع في كل مرة من السبعة الأشواط. لا في الثلاثة الأول كما في طواف القدوم بالبيت وأنه يرقى أيضاً على المروة كما رقى على الصفا ويذكر ويدعو، وبتمام ذلك تتم عمرته.

فإن حلق أو قصر صار حلالاً. وهكذا فعل الصحابة الذين أمرهم ﷺ بفسخ الحج إلى العمرة.

وأما من كان قارنا، فإنه لا يحلق ولا يقصر ويبقى على إحرامه ثم في يوم التروية- وهو الثامن من ذي الحجة- يحرم من أراد الحج ممن حل من عمرته ويذهب هو ومن كان قارناً إلى منى، والسنة أن يصلي بمنى الصلوات الخمس وأن يبيت بها هذه الليلة - وهي ليلة التاسع من ذي الحجة - ومن السنة كذلك أن لا يخرج يوم عرفة من منى إلا بعد طلوع الشمس ولا يدخل «عرفات» إلا بعد زوال الشمس. وبعد صلاة الظهر والعصر جمعاً بعرفات فإنه ﷺ نزل بنمرة وليست من عرفات. ولم يدخل ﷺ الموقف إلا بعد الصلاتين. ومن السنة أن لا يصلي بينهما شيئاً، وأن يخطب الإمام الناس قبل الصلاة وهذه إحدى الخطب المسنونة في الحج .

والثانية: أي من الخطب المسنونة يوم السابع من ذي الحجة يخطب عند الكعبة بعد صلاة الظهر.

والثالثة: أي من الخطب المسنونة يوم النحر.

والرابعة يوم النفر الأول. وفي الحديث سنن وآداب منها:

أن يجعل الذهاب إلى الموقف عند فراغه من الصلاتين، وأن يقف في عرفات راكباً أفضل. وأن يقف عند الصخرات، عند موقف النبي ﷺ. أو قريباً منه، وأن يقف مستقبل القبلة. وأن يبقى في الموقف حتى تغرب الشمس. ويكون في وقوفه

داعياً الله ﷻ. رافعاً يديه إلى صدره. وأن يدفع بعد تحقق غروب الشمس بالسكينة، ويأمر الناس بها إن كان مطاعاً فإذا أتى المزدلفة نزل بها وصلى المغرب والعشاء جمعاً بأذان واحد وإقامتين، دون أن يتطوع بينهما شيئاً من الصلوات، وهذا الجمع متفق عليه بين العلماء، وإنما اختلفوا في سببه، فقيل إنه نسك، وقيل لأنهم مسافرون- أي السفر هو العلة لمشروعية الجمع- ومن السنن المبيت بمزدلفة وهو مجمع على أنه نسك. وإنما اختلفوا في كونه- أي المبيت- واجباً أو سنة.

ومن السنة أن يصلي الصبح في المزدلفة ثم يدفع منها بعد ذلك. فيأتي المشعر الحرام فيقف به ويدعو.

والوقوف عنده من المناسك. ثم يدفع منه عند إسفار الفجر إسفاراً بليغاً، فيأتي بطن محسر، فيسرع السير فيه، لأنه محل غضب الله فيه على أصحاب الفيل، فلا ينبغي الأناة فيه ولا البقاء فيهن فإذا أتى الجمرة - وهي جمرة العقبة - نزل ببطن الوادي ورماها بسبع حصيات كل حصاة كحبة الباقلاء- أي الفول- يكَبّر مع كل حصاة. ثم ينصرف بعد ذلك على المنحر فينحر إن كان عنده هدي ثم يحلق بعد نحره.

ثم يرجع إلى مكة فيطوف طواف الإفاضة وهو الذي يقال له طواف الزيارة.

ومن بعده يحل له كل ما حرم عليه بالإحرام. حتى وطء النساء، وأما إذا رمى جمرة العقبة، ولم يطف هذا الطواف فإنه يحل له كل شيء ما عدا النساء.

* * *

هذا هو هدي رسول الله ﷺ في حجه، والآتي به مقتد به ﷺ وممتثل لقوله «خذوا عني مناسككم» وحجه صحيح.



كيف نعيش؟

العدد (٢٢) شوال (١٣٨٦هـ) يناير (١٩٦٧م)

• اختلاف مفهوم الكمال والسعادة

كل فرد من أفراد النوع الإنساني ينشد الكمال ويحرص على السعادة، ويحاول الوصول إليهما بكل سبيل، ولكن فهمهم لهما يختلف اختلافا بينا.

فمنم من يرى أن السعادة المنشودة محصورة في التمتع باللذائذ المادية والنعم الظاهرة.

ومنهم من يرى حقارة هذه اللذائذ، وأن السعادة هي الخروج عن دائرة الفطرة البشرية بتحريم الطيبات والانقطاع عن الدنيا.

وكل فريق من الفريقين مخطئ في فهمه، ومجانب للحق والصواب، إذ إنه فهم لا ينسجم مع الحياة، ولا يتسق مع ما خلق له الإنسان من تحقيق الخلافة في الأرض. فالفريق الأول الذي يؤثر الدنيا، ويحرص على لذائذها يفسد خلقه، وتضعف إرادته، ويضطرب أمره ولهذا مقت الله هذا السلوك، ووصفه بالكفر والضلال، وشبهه بسلوك الأنعام التي لا تعقل معنى الوجود، ولا تفهم قيمة الحياة .

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ (محمد: ١٢).

وأما الفريق الآخر فإنه فريق انعزالي يقف من الحياة والوجود موقفا سلبيا .

وسلوك هذا الفريق من شأنه أن ينقل قياد الحياة إلى الأشرار، فيوجهوها حسب أهوائهم وتبع رغباتهم، وفي ذلك فساد الدين، وضياع الدنيا، والله يوجه الخطاب لهذا الصنف من الناس فيقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾﴾ (المائدة: ٨٧).

• فكرة الإسلام عن مفهوم السعادة والكمال

وإذا كان كل من الفريقين مخطئا في فهمه للسعادة، وفي نظرته إلى الكمال في نظر الإسلام، فما رأيه إذن؟ هل وضح لنا صورتهما، ورسم معالمهما؟ نعم، فهو يرى أن الإنسان خليفة عن الله في الأرض، وأن عليه القيام بواجبات هذه الخلافة، وأنه جسد وروح، وأن الجسد ليس عدوا للروح ولا سجنا لها، وإنما هو أداة لها من أجل القيام بهذه الواجبات والتبعات، وأن الدنيا دار عمل، وميدان كفاح، وليست دار تعذيب أو شقاء، وأن على الإنسان أن يظهر مواهبه بالجد والسعي، والكدح والكفاح في كل ميدان من ميادين النشاط الإنساني.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (الملك: ٢).

وإحسان العمل يتلخص في أن يحسن الإنسان صلته بالله عن طريق العقيدة والعبادة، ويحسن صلته بالناس عن طريق الخلق والبر، ليحقق بذلك كماله الروحي والإنساني.

يضاف إلى ذلك استخراج كنوز الأرض، والانتفاع بقوى الكون، وإصلاح النظام المعيشي لتحقيق الكمال المادي.

• اهتمام الإسلام بضرورات الإنسان وحاجاته المادية

لهذا نجد الإسلام عني بكسب المال وتحصيله باعتباره عصب الحياة وقوامها، وجعل ذلك فريضة من فرائضه: «طلب الحلال فريضة على كل مسلم» وأوجب المحافظة عليه سواء كان عقاراً أم ذهبا أم فضة ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا﴾ (النساء: ٥)، واهتم بتوفير الحاجات الاستهلاكية من الغذاء والكساء والمسكن وما لا غنى للإنسان عنه ليكون على مستوى كريم من الحياة: «من ولي لنا عملا وليس له منزل فليتخذ منزلا، أو ليست له زوجة فليتزوج، أو ليس له خادم فليتخذ خادما، أو ليس له دابة فليتخذ له دابة» (رواه أحمد).

وسئل رسول الله ﷺ عن حد الكفاية للفرد فقال «ما سد جوعتك، وداري عورتك، وإن كان لك بيت يظلك فذاك، وإن كان لك دابة فبخ بخ» (رواه

الطبراني).

وأمر بالأكل من الطيبات ونهى عن تحريمها واعتبر ذلك اعتداء ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ (المائدة: ٨٧ -٨٨).

وامتن على الناس بالملابس ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ (الأعراف: ٢٦).

والمراد أنه خلق لنا الملابس نداري بها عوراتنا ونتزين بها، كما امتن عليهم بالسكن فقال ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ﴿٨٠﴾﴾ (النحل: ٨٠).

وأمر بالزواج واعتبره آية من آياته ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ﴾ (الروم: ٢١).

وفي الحديث «تزوجوا الودود الولود».

والمرأة الحسناء لا يزهد فيها مهما غلا مهرها، لما في الزواج بها من تكميل للدين على أن تكون صالحة كي تسر العين بجمالها والقلب بكمالها. ويرغب في إقامة الدور والمساكن التي تحوي جميع المرافق والأثاث مادام لم يقصد المباهاة والمفاخرة، وبذلك تتسع دائرة العمران، وقد فعل ذلك الزبير بن العوام وابن المبارك ومحمد بن الحسن وكثير من الصحابة والتابعين والعلماء الراشدين.

● **الجمال والزينة**

ولا بأس بتزيينها وتجميلها فإن طلب الزينة والجمال مقصود حسن في ذاته، والنفس التي لم تفسد فطرتها تعشق الجمال وتتلذذ به.

والله سبحانه يقول﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ﴿٦﴾﴾ (النحل: ٥-٦). وأي فرق بين التلذذ بالجمال في الأنعام والجمال في الدور؟ ويقول سبحانه ﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ (النحل: ٨).

أي أن الله خلق هذه الدواب للركوب وللزينة، وإن لم يحتج إلى ركوبها، وأما الآثار التي وردت في كراهية رفع البنيان وزخرفته فليست على إطلاقها، وإنما المقصود بها كراهية ذلك إذا قصد بها المفاخرة والمباهاة، والتطاول على الناس، لا مجرد التلذذ بالجمال والزينة، فإنهما مطلوبان في كل حال ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾ (الأعراف: ٣١ -٣٢).

إن الحرص على الجمال ابتغاء الحصول عليه مما يحبب فيه الإسلام، ويدعو إليه حتى يشعر الإنسان براحة نفسية من جانب، ويحتفظ بكرامته فلا يستخف به ولا ينزل عن مكانته التي هو أهل لها من جانب آخر.

وكثيرا ما يلفت القرآن نظر الإنسان إلى الجمال في الكون والطبيعة والأشياء المحيطة به.

﴿وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾﴾ (الحجر: ١٦)، ﴿أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ﴾ (النمل: ٦٠).

﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ﴿٦﴾ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ﴿٧﴾﴾ (ق: ٦-٧).

والله سبحانه يحب الجمال في كل شيء جمال الأقوال وجمال الأفعال وجمال الصفات، وجمال الأسماء حتى جمال الثياب فعن مالك بن عوف قال أتيت رسول الله ﷺ وأنا قشف الهيئة قال: «هل لك من مال؟ قلت: نعم، قال إذا آتاك الله مالا فلير أثر نعمة الله عليك وكرامته». وفي حديث آخر «إذا آتاك الله مالا فلير عليك فإن الله يحب أن يرى أثره على عبده حسنا، ولا يحب البؤس ولا التباؤس» وصح عن رسول الله ﷺ قوله «أحسنوا لباسكم وأصلحوا رواحلكم حتى تكونوا كأنكم شامة في الناس».

والحديث يشير إلى أن المسلم شخصية فذة ممتازة، فكما طلب منه أن يطهر

باطنه بالإيمان بالله والارتباط به، طلب منه أن يكون في مظهره كاملا أنيقا، بحيث يسترعي انتباه الناس في ملبسه ومركبه وأثاث بيته وحتى يكون فيهم كأنه شامة بينهم، أي بارزا ظاهرا.

فعن أبي يعفور قال: «سمعت ابن عمر يقول - وقد سأله رجل عما يلبس من الثياب - قال: ما لا يزدريك فيه السفهاء وما لا يعيبك فيه الحكماء» (رواه الطبراني).

وكان الحسن البصري يلبس ثوبا بأربعمائة، وفرقد يلبس المُسُح، فلقي الحسن، فقال ما ألين ثوبك؟ قال «يا فرقد ليس لين ثيابي يبعدني عن الله ولا خشونة ثوبك تقربك من الله» وقد أنكر أحد المتزمتين على أبي الحسن الشاذلي جمال هيئته وكان هذا الرجل ذا رثاثة فقال له أبو الحسن: يا هذا هيئتي هذه تقول: الحمد لله، وهيئتكم تقول: أعطوني من دنياكم.

ولا يدخل هذا الاستمتاع في الدنيا التي ذمها الإسلام في قوله ﷺ: «حب الدنيا رأس كل خطيئة» (رواه البيهقي في الشعب عن الحسن مرسلا).

فإن المراد بالدنيا التي هي رأس كل خطيئة هي حب الشرف والرئاسة، وحب المال رغبة في التفاخر والتكاثر والترؤس والعلو على الناس دون كفاية أو إرادة نصر الحق.

يقول الله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ (القصص: ٨٣) وعن كعب بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه» (رواه الترمذي)، لأنه لم يرد بالمال والشرف إلا العلو والفساد في الأرض.

أما إذا أراد بالمال والشرف نصرة الحق أو الوجاهة ليأخذ مكانته التي تليق به، أو كانت له كفاية يريد أن يجعلها في خدمة أمته فإن حب الشرف والمال وطلبهما حسن، فقد قال يوسف عليه السلام للملك: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ (يوسف: ٥٥).

وطلب أحد المسلمين من الرسول ﷺ أن يكون إمام قومه فقال الرسول ﷺ «أنت إمام قومك».

ومع هذا ينبغي الحذر والتوقي عما يلهي النفس، ويصرفها عن غايتها المثلى من الطهارة والنظافة وينحرف بها عن معاني الخير الى رذائل الأخلاق ومساوئ الصفات.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ۝٩﴾ (المنافقون: ٩).

● **حقيقة الزهد**

وطلب الدنيا على هذا النحو لا يتنافى مع الزهد، لأن الزهد ليس في تحريم زينة الله التي أخرج لعباده ولا في ترك الطيبات من الرزق، وإنما الزهد الذي أراده الإسلام هو الزهد في الحرام، والزهد في الشبهات، والزهد في التوسع في اللذائذ والشهوات التي تصرف الإنسان عن واجباته الشخصية والاجتماعية، وتنسي المرء واجبه نحو ربه ونحو نفسه ونحو أسرته ونحو بني جنسه.

وقد وضع الإسلام تحديدا للزهد فيما رواه الترمذي وابن ماجه من حديث أبي ذر أن النبي ﷺ قال: «الزهادة في الدنيا ليست بتحريم الحلال ولا إضاعة المال، ولكن الزهادة في الدنيا أن تكون بما في يدي الله أوثق منك بما في يديك وأن تكون في المصيبة إذا أنت أصبت بها أرغب منك فيها لو أنها بقيت لك».

والزهد بهذا المعنى يريح القلب والبدن ويكسب محبة الله ويجلب مودة الناس، عن سهل بن سعد قال «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله دلني على عمل إذا عملته أحبني الله وأحبني الناس فقال له: ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما عند الناس يحبك الناس» (رواه ابن ماجه).

التدين

العدد (١١٦) شعبان (١٣٩٤هـ) - أغسطس (١٩٧٤م)

من الظواهر التي تشاهد في المجتمعات البشرية، وعلى اختلاف درجاتها في سلم التطور، ظاهرة التدين، فالمجتمع البدوي الذي لم يعرف شيئا عن الحضارة، له معتقداته وعباداته، والمجتمع الحضري الذي بلغ شأوا في العلم والمدنية، له كذلك إيمانه بالغيب وطقوسه الخاصة.

ولظهور هذه الظاهرة وبروزها رأى العلماء أنه كلما وجد مجتمع وجد معه دين، أيا كان هذا الدين، وأيا كان مصدره.

ولا يعترض على هذا بأن المجتمع الشيوعي قد أسقط الدين من حسابه وأقام حياته على أساس ألّا إله، والحياة مادة، فإن هذا لا يعبر في الواقع عن نفسية المجتمع، ولا يترجم مشاعره ترجمة صحيحة، إذ إن فكرة هذا الانحراف الديني نبتت في ذهن بعض الأفراد ونمتها الظروف الاجتماعية الخاصة، ظروف الفقر والحاجة والحرمان، وساعد على تقوية جذورها، وبسط سلطانها أنه لم يكن ثمة دين ينير العقل أو يطمئن القلب، فضلا عن أن المتظاهرين بالتدين كانوا مظهرا للتخلف والرذيلة، بل كانوا مضرب المثل في التفاهة والحقارة، ولم يقضوا يوما واحدا في جانب المحرومين، وإنما كانوا دائما عونا للقياصرة، وسندا للمستبدين.

فهذه الفكرة الإلحادية، ليست وليدة علم، ولا ممثلة للفطرة الإنسانية وإنما هي فكرة شاذة، أوحت بها الظروف القاسية، وخلقتها البيئة المجهدة، وروجت لها الأحقاد التي ملأت الصدور أمدا طويلا، ثم حمل الشعب عليها حملا، وأكره عليها إكراها، دون أن يكون له رأي أو اختيار.

ومنذ قيامها وهي في حماية الحديد والنار.

وأعتقد أن الفطرة الإنسانية أقوى من جميع القوى التي تحاول أن تطمسها، وتغير معالمها، وأن لها الغلبة والنصر مهما طال الزمن.

﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ (الرعد: ١٧)

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾ (إبراهيم: ٢٦).

وإذا كان للدين هذه الجذور العميقة في النفس الإنسانية، فإنه لا يتصور أن يأتي يوم يعيش الناس فيه من غير دين، بل ستبقى النفس تنزع إليه، لأنها تنزع إلى شيء هو من طبيعتها، وتشعر بفراغ كبير إذا تخلت عنه.

وليست المشكلة هي مشكلة الدين، من حيث هو، فالتدين غريزة كما قلنا، وكما يقرر الإسلام: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (الروم: ٣٠)، وفي الحديث الصحيح: «كل مولود يولد على الفطرة»، وإنما المشكلة الحقيقية، هي عدم وجود الدين التعليمي الذي يفتح آفاق الفكر، ويطلق الطاقات الكامنة في النفس ويدفع إلى السمو الروحي والكمال المادي.

لقد كان الإنسان فيما مضى - ولايزال ذلك في الطبقات الجاهلة - يستسلم لما يلقى إليه من عقائد، ويذعن لما يقال له من دين، ولا يكلف نفسه مشقة البحث، ولا مؤونة الدرس، ولو كان الذي يلقى إليه من الخرافات التي لا يصدقها العقل ولا يعترف بها العلم.

ولكن هذا الأمر قد تغير الآن في نظر الإنسان الذي يعيش في عصر العلم، إنه يريد من الدين أن يقنع عقله، ويرضي طموحه، ويساير تقدمه ويجاري تطوره، ولا يحرمه من ثمرة جهده، ولا لذة بدنه.

وربما كان عدم وجود دين ينطوي على هذه المبادئ، هو أحد الأسباب التي صرفت بعض العلماء الذين أسهموا في بناء الحضارة عن الدين، وجعلتهم يتجهون إلى العقل وحده، يستفتونه ويحتكمون إليه، ولا يعولون في قضية إلا

عليه.

ولم تتح الفرصة لهؤلاء أن يطلعوا على مبادئ الإسلام الكريمة، وتعاليمه السامية، وإن كان أتيح لبعضهم أن يعرف الإسلام ممثلا في أعمال من ينتسبون إليه، وهي في واقعها تشويه لجمال الإسلام، وعرض سيئ لمبادئه الحقة، فكان حكمهم عليه كحكمهم على غيره من الديانات الأخرى.

إن الإنسان في هذا العصر - بالرغم من المغريات المادية التي صرفته عن الدين- تهفو نفسه إلى دين موثوق بأصله من جهة، وقادر على أن يسمو به إلى الكمال المادي والروحي من جهة أخرى.

ونحن نجزم في إيمان وفي ثقة، بأن الإسلام- والإسلام وحده- هو الذي توافر فيه هذان العنصران، لأنه هو الدين الذي وضحت معالمه، وكرمت مبادئه، وثبتت مصادره، وحفظت من التغيير والتحريف، والتبديل والتصحيف.

﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ﴿٤١﴾ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾ (فصلت: ٤١-٤٢).

﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ (الحجرات: ٩).

وإنه كفيل بأن يحقق للإنسان ما ينشده من ارتقاء، وما يرجوه من كمال ورفعة.

﴿ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ (المائدة: ١٥-١٦).

والإسلام هو الدستور الكامل، والمنهج الذي استهدف إقامة حياة إنسانية رفيعة، يتحرر فيها العقل والضمير، وتستقل فيها الإرادة والتفكير، ويشعر فيها كل فرد بأنه سيد نفسه، ومالك أمره، وأنه لا سلطان لأحد عليه، سوى سلطان الحق، الذي يعلو ولا يعلى عليه.

وهو الذي أهاب بالناس أن يفتحوا عقولهم، ليعرفوا آيات الله في الكون، وسننه في الخلق، وحكمته في الطبيعة.

﴿أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ﴾ (الأعراف: ١٨٥).

وتعطيل قوى الإدراك، وعدم الانتفاع بها، يعتبر في نظره جريمة، يسأل عنها الإنسان، ويحاسب عليها الحساب العسير.

﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ (الإسراء: ٣٦).

والإسلام بعقائده، وعباداته، ومثله، وقيمه، قد بعث الحياة في العواطف الجامدة، واليقظة في القلوب الهامدة وحرك حواس الخير في الإنسان لتتسع نفسه للعلاقات الحسنة، والصداقات الطيبة، والمعاشرة بالمعروف.

وإنه إلى جانب هذا حارب الظلم، والبغي، حتى لا تهدر كرامة أحد، ولا تنتهك حرمة إنسان، ولا يشعر ضعيف بهوان، ولا يحس فقير بضياع ولا يؤخذ مال بغير حق.

وإنه أراد أن يقيم أطهر حياة وأنظفها على وجه الأرض.

حياة لا شرك فيها ولا وثنية، بل فيها التوحيد الخالص، والعبادة لله الذي تعنو له الوجوه، حياة لا ظلم فيها ولا استبداد بل فيها حق، وعدالة وحرية، وإخاء، حياة لا جهل فيها ولا أمية، بل فيها علم ومعرفة وحكمة.

حياة لا رفث فيها ولا فسوق، ولكن فيها طهارة، ونظافة وعفاف، حياة لا حسد فيها ولا حقد، بل فيها محبة وتعاون وتآزر وتناصر، حياة لا سرف فيها ولا ترف، بل فيها بذل، وكرم وإيثار، حياة لا خمر فيها، لا قمار، بل فيها كدح وعمل وطلب لما أحل الله.

وإنه استهدف تهذيب الفرد، وتعاون الجماعة، وإيجاد حكم أساسه الشورى، وغايته حراسة الدين، وسياسة الدنيا، وجعل في طليعة وظيفته الدعوة إلى هداية هذا الدين، لتعم الأخوة الإنسانية، مما يعجل بسلام عام، يعيش الناس في ظله آمنين.

هذا هو الإسلام الذي يمكن أن نقدمه للناس في عصر العلم والاكتشاف الذري، وإن هذا الوقت لهو أنسب الأوقات للنهوض بهذه الرسالة السامية.

فقد انتهت معظم الآراء في أوروبا وأميركا إلى وجوب المناداة بالعودة إلى الدين، لأن التطور المادي الذي لم يصحبه سند من روح تطور خطر لا غاية له إلا

الخراب والدمار، ولأن النفوس قد أفسدها الطمع، والجشع، والشره، والأنانية، وهم أحوج ما يكونون إلى إصلاح هذه النفوس وعلاجها، ليسود المجتمع المودة، والرحمة، والمعاونة، والإيثار، والسماحة، والطيبة.

وهذه الفضائل لا مصدر لها إلا الدين والإيمان.

وليس من دين سوى دين الإسلام، يستطيع تقديم هذه الفضائل الإنسانية، وليس هذا هو رأينا الخاص، وإنما هو رأي علماء الغرب الذين درسوا الإسلام، ووقفوا على حقائقه.

يقول جولد زيهر: «إنه إذا أردنا الإنصاف ينبغي أن نؤمن بأن في الإسلام قوة صالحة، توجه الإنسان نحو الخير، وأن الحياة المتفقة مع التعاليم الإسلامية، حياة أخلاقية لا غبار عليها، ذلك أنها تتطلب الرحمة نحو جميع مخلوقات الله، والوفاء بالعهود، والمحبة، والإخلاص، وكف غرائز الأنانية، إلى هذه الفضائل التي أخذها الإسلام من الديانات التي اعترف لأصحابها بالرسالة».

المسلم الصالح هو الذي يحيا حياة يحقق فيها مطالب خلقية قاسية.

ولكي يتم هذا في أقصر وقت، وبأقل جهد، لابد من أن تتبنى الدولة الاضطلاع بهذا العبء، أو تحتضنه أمة مخلصة، فإن جهد الأفراد أضعف من أن يحتل النهوض بهذا الأمر الكبير.

وعلى الدولة، أو الأمة التي تتبناه أن تتمثله علما وعملا، وأن تكون صورة صادقة لمبادئه، وتعاليمه، كما جاء في الكتاب والسنة.

وبعرض الإسلام في صورته الصحيحة، وفي صورته العلمية التطبيقية نكون قد أقمنا الدعوة الإسلامية على أساس متين، بينما يكون علمنا وعملنا أقوى حجة، وأوضح برهانا، في الإقناع، والاستدلال، وإفحام من يتصدى لنا من الخصوم المعارضين.

إن الإسلام قوي بنفسه، لأنه الحق، ولكنه في حاجة إلى رجال يوضحون حقائقه، ويظهرون معالمه، ويضحون من أجله.

وإن أي جهد يبذل من أجل الإسلام لهو خدمة للإنسانية نفسها وهي أحوج ما

تكون إليه.

وإن مئات الملايين من البشر الذين يؤمنون بالإسلام ويدينون به، والذين يشغلون حيزا كبيرا من أرض الله الواسعة، ليحتاجون إلى من يزيدهم علما بالإسلام، وتبصرا به، وهم من جانبهم مستعدون لأن يكونوا جنود هذا الدين، وأنصاره المخلصين، ولن يدخروا وسعا في إعزازه وتأييده، ومناصرة كل من يمد يده إليهم.

إن صراع المبادئ اليوم على أشده، وإنه بالغ غاية العنف.

وإن كل دولة تتخذ كل الوسائل الممكنة لها، لترويج أفكارها والدعاية لمذاهبها، فتنشئ الوزارات، وتجهز الأجهزة، وتستغل الطاقات الفكرية، والأدبية، والفنية، لتأييد ما تراه، وإقناع الآخرين به.

وإذا كانت هذه الدول تنفق عن سعة، وتبذل هذه الجهود، من أجل تأييد أفكارها البشرية، القابلة للتغيير، فإن المسلمين أحق بالبذل وأولى بالتضحية، وأجدر بالتنظيم لحماية الإسلام الحق والتبشير به والدعاية له في آفاق الدنيا الرحبة المتعطشة لهداية الله، والفقيرة إلى من يرشدها إلى الحق وينير لها الطريق.

وإن هذا لهو جهاد الوقت، ولا يقل في قيمته عن جهاد الحرب والقتال.

وأي جهد يبذل في هذه السبيل لهو جهد عظيم يباركه الله، ويثيب عليه أجزل مثوبة.



الدولة الإسلامية

العدد (١٨١) محرم (١٤٠٠هـ) - نوفمبر (١٩٧٩م).

١- الإسلام دين ودولة

الإسلام دين ودولة وعبادة وقيادة ومصحف وسيف فكما أن الإسلام واجب نحو الله وزكاة نفس وأدب فاضل مع المجتمع فهو كذلك قانون ونظام ولا قيام له إلا في ظل دولة تحميه وحكومة ترعاه وتسهر عليه.

ومفهوم الدولة في الإسلام يتفق مع مفهوم الدولة الحديث والذي أطلق عليه فقهاؤها «دار الإسلام».

والدولة أو دار الإسلام هي المنطقة التي يقطنها المسلمون وتطبق فيها أحكام الإسلام بواسطة حكومة منتخبة ترضى عنها الأمة. وتظفر بثقتها.

٢- طبيعة الدولة وأهدافها

والدولة الإسلامية دولة تقوم على أساس من المبادئ التي جاء بها الإسلام لتحقق التعاليم المثالية التي تجلب المصالح العامة والخاصة وتؤمن كل فرد على نفسه وماله وعرضه وحريته وكرامته وتوطد السلام بين الناس جميعاً فهي دولة لها أسس تقوم عليها وغايات تستهدفها وتعمل من أجلها وجملة هذه الأهداف هي:

أ- تنفيذ أحكام الإسلام في داخل الوسط الإسلامي.

ب- تبليغ الدعوة في الخارج لغير المسلمين.

جـ- حماية الدولة ورد عدوان المعتدين عليها حتى تبقى للمسلمين السيادة عليها ينفذون فيها حكم الله ويقيمون شريعته وهم سادة أحرار مستقلون.

٣- سلطان الدولة

والسلطات التي ترعى شؤون الدولة وتدير أمورها ثلاث:

أ- **السلطة التنفيذية**: ويختار أعضاءها رئيس الدولة مع استشارة أهل الصلاح والرأي.

ووظيفتها الأساسية: إدارة شؤون البلاد وتدبير إدارة الحكم ورعاية المصالح العامة والخاصة في حدود التشريع الإسلامي.

ب- **السلطة القضائية**: ويتولى شؤون هذه السلطة الفقهاء من الأمة والعلماء ممن لهم قدم راسخ في دين الله وبصر نافذ في معرفة أحوال الناس وقدرة على فض المنازعات والفصل في الخصومات والحكم بين الناس بالعدل.

جـ- **المجلس الشوري**: وهو الذي يتولى الإشراف على السلطة التنفيذية ويراقب تصرفاتها ويعينها بالمشورة ويقدم لها النصيحة وينقد ما يدعو إلى النقد ويحاسب من يستحق الحساب ويقوم المعوج بالطرق المشروعة.

ولا يختار لعضوية هذا المجلس إلا القمم الشامخة ممن توفرت فيهم خشية الله والتزموا القانون والأخلاق وكان لهم سداد الرأي والحرص على مصالح الأمة. والأمة الواعية هي التي تختار هؤلاء، لأنهم هم الذين يمثلون إرادتها ويتفانون في خدمتها وينهضون برسالتها.

٤- رئيس الدولة

والدولة لها رئيس مسؤول تختاره الأمة متى توفرت له عناصر الصلاحية من الإلمام بشؤون الأمة والقدرة على الاضطلاع بتبعات الحكم. والآيات والأحاديث الآتية تشير إلى عناصر الصلاحية، ومن الآيات:

١- ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

٢- ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ (الحجرات: ١٣).

٣- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ (البقرة: ٢٤٧).

٤- ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ (القصص: ٢٦).

٥- ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ (الكهف: ٢٨).

ومن الأحاديث:

١- «أحب الناس إلى الله إمام عادل وأبغض الناس إلى الله إمام جائر» الطبراني والترمذي.

٢- «خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم وتصلون عليهم ويصلون عليكم وشر أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم» مسلم.

٣- «من قلد رجلاً عملاً على جماعة وفي تلك الجماعة من هو خير منه.. فقد خان الله ورسوله وجماعة المسلمين». الحاكم.

٤- «إذا ضيعت الأمانة فانتظروا الساعة قيل وما تضييع الأمانة؟ قال إذا وسد الأمر لغير أهله فانتظروا الساعة» البخاري.

٥- «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهلاء فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا» الشيخان .

٥- قانون الدولة

والقانون في الدولة هو الشريعة، والشريعة تنتظم:

أ- القانون الدستوري.

ب- القانون العام المدني والجنائي.

جـ- قانون الأسرة.

د- قانون العلاقة الدولية.. ولا مانع شرعاً من سن قانون تقتضيه الحاجة بشرط أن يكون عن مشورة وألا يعارض نصاً أو قاعدة شرعية أو إجماعاً.

الحقوق والواجبات

والناس في الدولة الإسلامية متساوون في الحقوق والواجبات، والحقوق، حقوق إنسانية وسياسية ومدنية .

والحقوق السياسية هي:

١- حق تولي الوظائف العامة. ٢- حق الترشيح.

٣- حق الانتخاب. ٤- حق المناقشة والنقد والمعارضة.

والحقوق المدنية هي:

١- حق العمل.

٢- حق التعاقد.

٣- حق الزواج.

ومنها الحقوق الإنسانية وهي:

حق الانتفاع بمرافق الدولة العامة وحرية التدين.

والواجبات هي:

١- السمع والطاعة في المعروف.

٢- تقديم النصيحة للحاكم.

٣- الجهاد من أجل إعلاء كلمة الدولة ورفع شأنها وكذلك العمل على توحيد كلمتها وتحريرها وإنهاضها بالعلم والعمل والإنتاج واقتباس كل جديد نافع فالحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها.

٦- العدل أساس الدولة

والعدل أساس الدولة ويتمثل في أمرين:

١- الحكم بما أنزل الله: فما أنزله الله عدل كله ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ (الأنعام: ١١٥) صدقاً في الأخبار وعدلاً في الأحكام.

٢- إعطاء كل ذي حق حقه.

فللمسلم حق المؤاخاة والموالاة والبر والنصح والحماية «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» قالوا قد عرفنا كيف ننصره مظلوماً فكيف ننصره ظالماً؟ قال: «تمنعه من الظلم فذلك نصره» ولغير المسلم البر والقسط والمعاملة الحسنة: ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾ (الممتحنة: ٨).

ولكل حق المحافظة على الدم والعرض والمال والكرامة [كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه]. ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ اعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ (المائدة: ٨).

٧- قوة الدولة

وتمتاز الدولة الإسلامية بنوعين من القوة:

١- القوة الروحية التي تتمثل في المعرفة بالله وفي حبه والإخلاص له وفي ذكره وشكره وحسن عبادته وفي طاعته والتزام ما شرع من أحكام.

٢- القوة المادية التي تتمثل في التدريب والإعداد والسلاح والذخيرة.

٨- السياسة المالية للدولة

وتملك المال تملكاً فردياً والتصرف فيه والانتفاع به حق مقرر متى كان سبب التملك سبباً مشروعاً ومتى كان التصرف في دائرة ما أحل الله.

وأسباب الملكية هي:

١- العقود الناقلة للملك مثل البيع والهبة والوصية.

٢- العمل في الصناعة أو التجارة أو الزراعة أو العمل الفكري والأدبي.

٣- الميراث وهو توزيع تركة المتوفى على ورثته من أصحاب الفروض والعصبة. ومهما كان التملك صحيحاً فإنه لا يحل الاعتداء عليه إلا عند الضرورة فلا باس من نزع الملكية مع التعويض العادل كأن يحتاج إلى نزع الملكية في حفر الجداول والأنهار وإنشاء الطرق ونحو ذلك مما تحتاج الأمة إليه في مصالحها العامة.

ومع احترام الإسلام للملكية الخاصة فإنه أوجب فيها حقوقاً للدولة وهذه الحقوق هي:

١- نفقة الأقارب الفقراء.

٢- الزكاة.

٣- كفاية الفقراء إذا لم تف الزكاة بحاجاتهم ولم يكن في بيت المال ما يكفيهم وفي الحديث: «إن الله فرض على أغنياء المسلمين في أموالهم بقدر الذي يسع فقراءهم ولن يجهد الفقراء إذا جاعوا أو عروا إلا بما يصنع أغنياؤهم ألا وإن الله يحاسبهم حساباً شديداً ويعذبهم عذاباً أليما» رواه الطبراني.

ومن حق الدولة أن تفرض ضريبة عند الجهاد حيث لا يوجد عندها من المال

ما يكفي لدفع الخطر عن الأمة.

وقد أراد الإسلام بهذا النظام تقريب الفوارق الطبقية وتفتيت الثروة وتحقيق العدالة الاجتماعية.

وكما أن الإسلام يعترف بالملكية الخاصة فهو يعترف أيضاً بالملكية العامة التي تملكها الدولة وهي أنواع.

١- الأموال الموجودة بخلق الله مثل- الماء، والنار، والكلأ فقد جاء في الحديث أن الناس شركاء فيها.

ويدخل في هذا الباب المعادن والبترول والأحجار الكريمة ونحو ذلك.

٢- الأموال المعدة للنفع العام مثل: مال الوقف والمسجد والطرق والأنهار، أما الأرض التي فتحها المسلمون عنوة فهي مملوكة للدولة ويد الفاتحين عليها يد اختصاص لا يد ملك عام.

٩- السياسة الخارجية

الإسلام يجعل علاقة الدولة الإسلامية بغيرها من الدول علاقة أخوة وسلام لا علاقة عداوة وخصام. فالعالم كله أسرة واحدة وما تفرقوا شعوباً وقبائل إلا للتعارف وتبادل المنافع. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾ (الحجرات: ١٣).

والإسلام يوافق على إنشاء عهود مع الدولة الأخرى ويدعو إلى احترامها. ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ (التوبة: ٤) وهو يدعوهم بأحسن الأساليب وهو لا يرفع السيف إلا دفاعاً عن حق أو إبطالاً لباطل. ولا يبدأ بحرب عدوانية ويعتبرها ضرورة وهي رحمة فلا يقتل إلا المقاتل.

للذميين في أرض الإسلام ما للمسلمين والمستأمن له الأمان ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ (التوبة: ٦).

* * *

١٤ مقالات

الشيخ مصطفى أحمد الزرقا

- ترجمة الشيخ.
- المقالات:

١- خصائص التشريع الاسلامي.

العدد (١٤) صفر (١٣٨٦هـ) - مايو (١٩٦٦م).

٢- حجة الشريعة على العقل.

العدد (٢٥) المحرم (١٣٨٧هـ) - إبريل (١٩٦٧م).

٣- موسوعة الفقه الاسلامي.

العدد (٢٦) صفر (١٣٨٧هـ) مايو (١٩٦٧م).

ترجمة الشيخ

مصطفى أحمد الزرقا



● مولده ونشأته

من أبرز علماء الفقه في العصر الحديث، ولد الشيخ مصطفى الزرقا بمدينة حلب في سورية عام ١٣٢٢هـ الموافق ١٩٠٤م في بيت علم وصلاح، فوالده الفقيه أحمد الزرقا، وجدّه العلّامة محمد الزرقا، وكلاهما من كبار علماء الأحناف، في حلب.

حفظ القرآن منذ صغره، وتتلمذ على يد المحدث محمد بدر الدين الحسني، والمؤرخ محمد راغب الطباخ، ثم نال شهادة البكالوريا الأولى في الآداب والثانية في الرياضيات والفلسفة، ثم التحق بالجامعة السورية.

في عام ١٩٣٣م تخرج من كليتي الحقوق والآداب معا، ثم كلية الشريعة عام ١٩٤٧ من جامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة حاليا).

عينته وزارة الأوقاف في الكويت خبيراً للموسوعة الفقهية سنة ١٩٦٦، ودرَّس في عدد كبير من كليات الشريعة في سوريا والجامعة الأردنية والخليج، يعتبر حجة في الاجتهاد في كثير من القضايا مثل: قضايا البنوك والتلقيح الاصطناعي والبيوع الحديثة.

انتخب نائباً في مجلس الشعب السوري عام ١٩٥٤م وأسندت إليه وزارتا العدل والأوقاف عامي ١٩٥٦ و ١٩٦٢م.

● تلامذته

من تلامذته: الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، وعبد الرحمن رأفت باشا.

● **ومن مؤلفاته**

«أحكام الوقف، الاستصلاح، الفعل الضار والضمان فيه، الفقه الإسلامي ومدارسه» وغيرها.

● **وفاته**

وافته المنية يوم السبت ١٩ ربيع الأول ١٤٢٠ هـ الموافق ٣ يوليو ١٩٩٩ م بعد أذان صلاة العصر وهو جالس ينقح الفتاوى ويبوبها.

خصائص التشريع الإسلامي

العدد (١٤) صفر (١٣٨٦هـ) - مايو (١٩٦٦م)

عرضت في محاضرتي الثانية التي ألقيتها في الموسم الثقافي، الذي دعتني إليه وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في الكويت بعض خصائص الفقه الإسلامي، وجوانب من مزاياه، التي تجعله هو المصدر الوحيد، الذي يجب أن يستمد منه كل تشريع ناظم للحقوق في البلاد العربية خاصة والإسلامية عامة، وأوضحت تلك الخصائص والمزايا بالأمثلة والشواهد العمليّة الواقعية من أحكام الفقه الإسلامي.

أ- فمن خصائصه الذاتية العامة التي أكسبته صفة الخلود وقابلية الاستجابة لتغطية جميع الحاجات التشريعية في مراحل الحضارة الإنسانية، الخصائص الذاتية التالية:

١- السعة والاستيعاب والغنى بالنظريات القانونية في تنظيم الحقوق والالتزامات ومصالح المجتمع بصورة شملت كل شُعب القانون المعروفة إلى اليوم مبتدئة من علاقة الإنسان بأسرته من أحكام الزواج إلى الميراث وما بينهما، وتنتهي بأحكام القانون الدولي المنظم لعلاقة الدولة الإسلامية بغيرها من الأمم والدول سلما وحربا. كل ذلك نظمه النظام القانوني في الشريعة الإسلامية بأعدل القواعد، وأحكم الأحكام، وأسمى المبادئ وأخلدها وأكثرها رعاية للمثل الإنسانية العليا، وتطعيمًا للعنصر القانوني بالعنصر الخلقي.

٢- الدقة المتناهية في بناء الأحكام، حتى لكأن الدارس الباحث في مسائل الفقه الإسلامي وآراء الفقهاء ونظرياتهم، يشعر كأنما هو أمام ميزان حساس يوزن به الألماس، وتظهر به الفروق بين المتشابهات مهما دقت وغمضت.

٣- مرونة أصوله ومصادره، سواء ما كان منها نصوصًا كنصوص القرآن العظيم والسنة النبوية، وما كان منها طرقا ومسالك وقواعد ومقاصد كالقياس والاستحسان والاستصلاح. فطريق الاستحسان يفسح مجالا لتقرير أحكام استثنائية على خلاف القياس عندما تختلف الظروف والاعتبارات الخاصة بين المسائل المتشابهة التي يقاس بعضها على بعض في الأحكام. ومن الأمثلة التطبيقية لذلك أحكام المفقود وهو الذي فُقد ولا يدري أحد أهو حي أو ميت ولا أين هو. فالحكم الفقهي الأساسي في علاقاته وحقوقه وأمواله أنها تجمد فلا يرث ولا يورث منه حتى تثبت حياته، أو تثبت وفاته بمثبت أو بالقرائن الكافية كموت أقرانه جميعا في بلده، فعندئذ يحكم بوفاته وتوزع أمواله بين ورثته. هذا هو مقتضى قاعدة الاستصحاب القياسية.

ولكن عمر بن الخطاب ﷺ رأى أن تطبيق هذا القياس على الزوجة وتركها معلقة على عصمة زوجها المفقود حتى يموت أقرانه فيه حرج عظيم وضرر بليغ بالنسبة إلى الزوجة، لأن تجميد المال غير تجميد الزوجة، فقضى بالنسبة إلى الزوجة أن لها الحق أن تطلب القضاء لها بإنهاء الزوجية بعد أربع سنوات من فقدان زوجها في حال السلم، وبعد سنة واحدة فقط في أيام الحرب، وهذا حكم قرر بطريق الاستحسان استثناء من قاعدة الاستصحاب القياسية.

٤- مكانة العرف في الشرع الإسلامي، فإن العرف مصدر هام دائم للأحكام القضائية، وتتبدل الأحكام العرفية بتبدل العرف. وبما أن العرف مُعبر في أغلب الأحيان عن حاجات المجتمع، فاعتماده في الفقه الإسلامي مصدرا للأحكام والقضاء جعل هذا الفقه مستجيبا بصورة دائمة لهذه الحاجات سوى ما كان منها انحرافا يجب تقويمه، وللعرف في الفقه الإسلامي نظرية ضافية ذات قواعد وشرائط وتفصيل رائع.

٥- بناء أحكام الفقه الإسلامي على أساس التوازن بين الحقوق الفردية والمصلحة العامة والحق العام.

ويتجلى ذلك في منع التعسف في استعمال الحق الخاص، وفي منع الاحتكار

في التجارة، وفي الحجر على السفيه المبذر، والحجر على شخصين يخصهما الفقهاء بالذكر في ضمن التعميم وهما:

الطبيب الجاهل والمكاري المفلس «والمكاري هو من يتعهد للناس بالنقل السفري على دوابه مثل مكاتب السفريات اليوم». فإذا كان مفلسا ليس عنده دواب كافية يأخذ من الناس أجور النقل ثم لا يستطيع نقلهم في مواعيد سفرهم المقررة. فلذا يحجر عليه شرعا في فتوى الفقهاء.

٦- بناء أحكام الفقه الإسلامي على أساس الموضوعية والتجرد عن كل دافع من عصبية أو عاطفة خاصة سوى فكرة العدل والحق المجردة بقطع النظر عن اللون أو الجنس أو البيئة أو الدين أو أي صفة أخرى في الأشخاص الذين تطبق عليهم أحكام الشريعة.

ومن الأمثلة الرائعة على ذلك في التاريخ الإسلامي فتوى الإمام الأوزاعي للخليفة الأموي بعدم جواز قتل الرهائن، وهم أشخاص أخذهم المسلمون من الروم ضمانًا لعدم غدر قومهم - وكانت العادة العامة المتبعة أن تقتل الرهائن إذا غدر قومهم - فلما غدر الروم، وهَمّ الخليفة بقتل الرهائن عارضه الإمام الأوزاعي ونادى به أنه لا يحل قتلهم في شريعة الإسلام وقانونه، لأن الله - تعالى- قد منع أن يؤاخذ أحد من الناس بجريرة غيره، وقرر ألا تزر وازرة وزر أخرى. فإذا غدر الروم فإن ذنبهم لا يسري إلى رهائنهم التي أخذناها منهم، وقد نزل الخليفة على فتوى الإمام الأوزاعي هذه.

ومن الأمثلة الرائعة أيضا التي دوى بها التاريخ، حادثة محمد بن عمرو بن العاص فاتح مصر وأميرها عندما سبقه قبطي نصراني في حلبة سباق، فضربه محمد بن عمرو بقضيب، وقال له: أتسبق ابن الأكرمين، فلما اشتكى القبطي إلى عمر بن الخطاب أمير المؤمنين في المدينة أحضر محمدا وأباه عمرا من مصر، بعد أن حقق وثبت لديه الحادثة، وقال لمحمد منذ متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟ ثم أمر القبطي النصراني أن يضرب محمد بن عمرو في المجلس ثم أمره أن يضرب أيضا أباه عمرًا، أمير مصر، فلما امتنع القبطي عن

ضربه قال: إنما ضربك بسلطان أبيه.

من هذه الينابيع والأسس الموضوعية المجردة عن كل نزعة سوى مبدأ إحقاق الحق وإقامة العدل استمدت أحكام الفقه الإسلامي، وبهذه المادة بني صرحه العظيم الخالد، ولا يستغرب هذا في فقه مؤسسه الأول هو الرسول العربي القائل- عليه الصلاة والسلام- في التوصية بأهل الذمة، وهم المواطنون المقيمون في ظل الدولة الإسلامية من غير المسلمين: «من آذى ذميًّا فقد آذاني». فلنقارن هذا بالقانون الأسود القائم في أميركا مثلا على التمييز العنصري في الأحكام الإدارية والقضائية بين السود والبيض.

وبالقانون الروماني القديم، الذي هو أصل معظم التشريعات الأوروبية، والذي كان يميز في الأحكام بين الرومانيين والرعايا الآخرين من مواطني الدولة الرومانية.

٧- وهناك خاصة هامة في الفقه الإسلامي، هي خاصية بالنسبة إلى العرب فقط، وهي أنه فقه عربي المنشأ والمصدر. فالكتاب الأصلي الذي يستمد منه قواعده وتوجيهاته العامة في خطوطه العريضة هو القرآن، وهو عربي، والمؤسس الأول لهذا الفقه وهو الرسول محمد ﷺ هو عربي، وكلامه الذي هو نواته ثم شجرته الأصلية هو كلام عربي، والأدمغة التي خدمته ودونته في البداية هي عربية استمدته من تلك الأصول العربية، والعلماء اللاحقون الذين وسعوه ونموه بالأقيسة والاجتهاد والتخريج من مختلف الأمم الإسلامية، وإن كان منهم أناس غير عرب، إنما بنوا كل بحوثهم فيه على تلك الأسس العربية وما استنبط منها.

وبذلك يكون هذا الفقه العظيم الضخم تراثا عربيا قانونيا خَلُدَ على الزمن، بينما زال كل تراث علمي آخر انشأه الغرب أو اقتبسوه ووسعوه.

وهذا الميراث القانوني العربي، كما يقول الأستاذ السنهوري، هو مفخرة كل عربي، ولو غير مسلم، إذا كان حقا يعتز بعروبته وأصالته فيها وصادقا في ذلك.

هذا إجمال الخصائص الأساسية لهذا الفقه الإسلامي ومزاياه إلى جانب ما فيه من خصائص أخرى من نوع آخر كاللغة الاصطلاحية القانونية الخالدة التي أتى

فيها فقهاؤنا بروائع المصطلحات مما لا يوجد له نظير في القانون، ومما لا يزال القانونيون العرب يستمدون منها حاجتهم في الترجمة عن الفقه الأجنبي، هذا إلى خصائص أخرى كثيرة فرعية يعرفها الراسخون من العلماء.

ومن هذا يتبين أن الفقه الإسلامي هو الفقه الوحيد الذي تجتمع فيه الخصائص والمزايا التي تفي بحاجة التشريع في البلاد العربية والإسلامية، لأنه منسجم مع تاريخها، ونابع من عقيدتها ولغتها الجامعة، كما أنه هو الذي يمكن أن تجتمع عليه البلاد العربية في توحيد تقنيناتها عن طريق استمدادها، ولا يمكن أن تجتمع كلمتها واتجاهاتها في ذلك على مصدر آخر سواه.

ومما يؤسف له أن كثيرًا من العالم العربي اليوم يجهلون أنفسهم وقيمة ما عندهم من تراث أصيل، ويتنكرون لذاتيتهم جهالة منهم، فيحبون استجداء الفقه والقانون من المصادر الأجنبية، معلنين أنهم فقراء جوف في هذا المضمار، ويظنون هذا تَقدُمية، بينما هم أغنى أمة بالتراث القانوني، ورحم الله شاعرنا المرحوم حافظ إبراهيم، اذ يقول:

أيشتكي الفقر غادينا ورائحنا ونحن نمشي على أرض من الذهب

أما شبهة الجهلاء الببغاويين، الذين يرددون ما كان زعمه بعض المشككين الخبثاء من المستشرقين أو سواهم من أن التشريع الإسلامي وفقهه مستمد من القانون الروماني فهذه شبهة أصبحت عتيقة رثة سخيفة لم تبق في حاجة إلى أن يهتم المحققون في جمع الأدلة على إدحاضها، ذلك لأن المستشرقين المنصفين منهم قد أغنونا عن دفعها، بما كتبوا هم وبينوا في هذا الشأن، وقرروا أن الفقه الإسلامي فقه أصيل مستقل بأصوله وفروعه غير مستمد من أي فقه آخر، وأن زعم استمداده من القانون الروماني هي خرافة تدل على عدم معرفة قائلها بالنظامين القانونيين كليهما، النظام الروماني والنظام الإسلامي. وإن كانت بعض قواعد العدل قد تتشابه بين أمة وأخرى نتيجة وحدة منطق التفكير العلمي ومنطق العدالة.

وأقرب ما أحيلكم عليه في ذلك قرار مجمع القانون الدولي المقارن في مدينة لاهاي عام ١٩٣٧، حيث صرح فيه بما ذكرت من عدم وجود أية صلة بين الفقه

الإسلامي والقانون الروماني، وأن الفقه الإسلامي صالح لإمداد التشريع الحديث بأحسن النظريات والقواعد.

وقد نقلت أنا خلاصة هذا القرار في أوائل الجزء الأول من السلسلة الفقهية التي وضعتها باسم «الفقه الإسلامي في ثوبه الجديد»، وكذا قرار مؤتمر أسبوع الفقه الإسلامي الذي عقد في كلية الحقوق بجامعة السوربون بباريس، وكنت مشتركا فيه باسم الجامعة السورية، حيث تضمن ذلك القرار تأكيد هذا المعنى، بالإضافة إلى بيان ما في مجموع المذاهب الفقهية من قيمة فقهية خالدة، تصلح أن تكون خير مستمد للتشريع الحديث.



وجدتها وجدتها

حجة الشريعة على العقل

العدد: (٢٥) محرم (١٣٨٧هـ) إبريل (١٩٦٧م)

في حديث عابر مع أحد الأصدقاء من الشباب المؤمن الواعي، وهو شاب طلعة يحب أن يزداد علما كل يوم، وأن يتفهم وأن يسأل عما لا يعلم، وأن يعلم عن دليل، وأن يناقش ليفهم، ونحن زمرة من الأصدقاء في بيته منذ ثلاث ليال نودعه ليلة سفره إلى الحج، ولم يترك السؤال والبحث والنقاش في شؤون من الشريعة وأحكامها.. استطرد إلى الحديث عن صاحب له زميل في الوظيفة من رواد الحقيقة المتطلعين إلى المعرفة، مولع بالجدل صعب الانقياد، فيه شيء من العناد، ولكنه ليس من الذين يحبون الجدل للجدل، بل يريد أن يعرف الحقيقة وأن يقع عليها.

في غمرة تلك الأحاديث ونحن مع صديقنا في وداع الحجة إلى موطن حجة الوداع، عندما وصل به الحديث إلى صاحبه هذا الزميل في الوظيفة، ووصفه بما ذكرنا قال لنا: إنه على جدله الذي يجاوز به أحيانا حدود الاعتدال قد سمعت منه بالأمس جملة عبر بها عن ملاحظة من ملاحظاته ملكت علي إعجابي كله، وحضرت في ذهني فنزلت منه في مستقر ومستودع وأصبحت عندي إحدى ذخائر الفكر التي أختزنها.

قلنا فما هي تلك الجملة الحكيمة التي نزلت من إعجابك هذه المنزلة الرفيعة؟ أشركنا معك فيها يا رعاك الله، وهذا ثمنها نقدمه إليك سلفا، دعوات صالحات نرفعها إلى رب البيت المعمور الذي أنت إليه قاصد، أن يكتبك في المقبولين الأبرار، ويجعل حجك مثمرا لديه، وفي نفسك ثمرته التي شرع لأجلها، ويجعل متعتك الروحية فيه أعظم مما تؤمل.

تهللت أسارير صديقنا لهذه الدعوات، وانبرى يتابع حديثه ويروي لنا تلك الجملة التي سمعها من صاحبه الجدل.

فقال:

قال لي صاحبي هذا الذي حدثتكم عنه: إن من أعجب ما هو جدير بالملاحظة والاعتبار من غرائب الواقع في حياة الإنسان أن كل جزء في جسمه من الأجزاء التي لا تفهم ولا تعقل، يعمل بانتظام وإتقان دون خطأ، فالمعدة مثلا لا تخطئ في عملها وإفرازها وسائر نواحي وظائفها، ومثل ذلك الأمعاء، والكبد، والغدد المختلفة، والكلى، والعروق، والأعصاب بمختلف شعبها ومناطق نفوذها، إلى غير ذلك من آلاف أو ملايين الأجهزة وأجزائها وجزيئاتها في أداء وظائفها الحيوية التي تقوم بها حياة الانسان، والتي تحير عقول علماء الطب والتشريح وعلم الغريزة (الفيزيولوجيا)، وإن كان كثير من هذه الأجهزة والأجزاء قد يعجز، وقد يصاب بآفة مرضية فيختل عمله أو يقصر فيه، فهذا ليس بخطأ في عمله، فالمهم أنه لا يخطئ أبدا، وإن كان قد يعجز أو يمرض أو يصاب بآفة.

أما العقل وهو الجانب المدرك، أو مجموع القوى المدركة في الإنسان، والتي يمتاز بها عن سائر الحيوان، ويمثل الفكر والذكاء وقدرة الابتكار التي لا حدود لها، والتدبير والتخطيط للمقاصد المستقبلة، والحيلة البارعة للتغلب على جميع العقبات والصعوبات التي تواجهها حياة الإنسان، إلى غير ذلك من المواهب التي تضافرت على تزويد الإنسان بالعلم في كل مجال وميدان بكل ما في كلمة العلم من معنى وما تشمله من آفاق وأعماق، هذا العقل الذي هو الجانب المدرك الواعي، أو هو أداة الفهم والتعقل والبصيرة لا يعمل دون خطأ، وخطؤه أكثر من صوابه!! أليس ذلك مثار عجب، ومدار اعتبار؟

قال صديقي الذي كنا في زيارته: فأنا لا أزال أتدبر هذه الجملة من صاحبي هذا، فقد نزلت في قرارة نفسي، وأصبحت لدي في جملة الملاحظات الهامة التي اكتسبتها في حياتي.

قلت له: حقا إنها ملاحظة قيمة، وقد وجدت بها أنا أيضا ضالتي المنشودة،

كما وجد الحكيم اليوناني أرخميدس ضالته عندما لحظ، وهو في حوض الحمام أن وزن الأجسام وهي في الماء ينقص عن وزنها وهي خارجه، فصاح وجدتها وجدتها (Eureka Eureka) واستنبط القانون الطبيعي في نسبة نقصان الوزن في هذه الحال، ذلك القانون الذي استخدم بعد ذلك في مجالات علمية وصناعية ذات شأن كبير.

ذلك أنني تعهدت لمجلة الوعي الإسلامي بكتابة كلمة للعدد الممتاز منها، وقد قرب موعد تسليم الكلمة، وأنا لا أزال محتاراً في اختيار موضوع مناسب جديد. فقد وجدته الآن، ملاحظة صاحبك جزاه الله تعالى خيرا.

قال صديقي: فما هو الموضوع الصالح الذي وجدته في ملاحظة صاحبي هذه؟ قلت إنه حجة الشريعة على العقل، هذا الموضوع الخطير في ميزان الإيمان، حيث يقوم به الدليل على أن العقل مهما سما شأنه، وعظمت قدرته على المعرفة والاكتشاف والفهم، فإن صاحبه الإنسان هو في حاجة دائمة مع عقله هذا إلى النور السماوي الذي يهدي إلى الصواب وينير له سبيل الرشاد، ويجنبه كثيرا من الوقوع في المآزق، والتردي في الهاويات. أفتدري أيها الأخ لماذا كان كل جزء غير ذي فهم في الإنسان يعمل بانتظام دون خطأ، وكان العقل الذي هو أداة الفهم والإدراك يخطئ أكثر مما يصيب؟ قال: لماذا كان ذلك؟ قلت: إليك التعليل والبيان.

إن كل جهاز من أجهزة جسم الإنسان أو جسم أي حيوان، وكل جزء أو غدة أو خلية حية من خلاياه إنما يعمل بحكم الغريزة، وإنما يعمل عملا نمطيا رتيبا في وقت ثابت أو عند منبه معين، وإنما يعمل عمله هذا في طريق معبدة ووسيلة وظرف مهيأين، ففي هذه الشرائط يقوم الجزء الحي بعمله النمطي بحكم الغريزة فيصبح عمله ووظيفته أشبه بانحدار الماء الذي صب في طريق محصورة منحدرة، فالماء في هذه الحال لا يخطئ في الانحدار، ولا في سلوك المجرى الذي يراد انحداره فيه حتى يصل إلى مقره بحكم الجاذبية الأرضية فيحجز فيه ويستقر.

فالمعدة إذا نزلها الطعام قامت بعملها فيه بانتظام من الحركة والإفراز،

وكذلك إذا رأت عين الجائع طعاما شهيا أو شم رائحته، أو ذكر اسمه له كان ذلك منبها عصبيا يشبه نزول الطعام إلى المعدة، فتبدأ أيضا بالإفراز اللازم، وهذا منها عمل نمطي رتيب في ظروف وشرائط متماثلة، فكلما توافرت وتكررت هذه الشرائط والظروف نبهت المعدة فعاودت عملها نفسه، وكررت قيامها بوظيفتها ذاتها بصورة لا تختلف عما عملته في مرة سابقة وعما ستعمله في مرة لاحقة، وهذا ما نعنيه بنمطية العمل.

ومثل ذلك يقال في الكلية أو الكبد أو العين . . . الخ بل في الكريات الحمراء أو البيضاء، وكل خلية من خلايا الجسم الحي، مما هو معروف في علم الغريزة (الفيزيولوجيا).

وإذا رأيت فارقا في التمثيل لهذا النوع من العمل الوظيفي الغريزي النمطي بين عمل أجزاء الجسم الحي وانحدار الماء في المجرى المحصور المنحدر من حيث إن الماء مادة غير حية، فينحدر كما يسقط الحجر بحكم قانون الجاذبية في اتجاه معين نحو مركز الأرض إذا قطع الخيط الذي يحمله في حين أن الجزء العامل في الجسم الحي هو جزء حي يعمل عن إحساس وتنبه هو مظنة للخطأ، ولكنه لا يخطئ فإني عندئذ أنقلك إلى مثال آخر أقرب إلى مطلوبك وأوضح، مثال العامل الواقف أمام آلة واحدة في معمل كبير عظيم فيه آلات كثيرة لكل واحدة منها وظيفة، وأمامها عامل يقدم لها المادة أو القطعة التي تعمل فيها، فلا أشبه لك الجزء الحي العامل في الجسم بالآلة التي تعمل في هذا المعمل، بل أشبهه لك بالعامل الواقف أمامها، ووظيفته كلما وصلت إليه القطعة محمولة على حاملة آلية أن يتناولها ويقدمها إلى الآلة التي أمامه لتعمل فيها عملها وتدفعها إلى حاملة آلية أخرى بجانبها فتحملها إلى عامل آخر، وهكذا، ولا بد أن تكون قد رأيت طريقة صناعة الأجزاء في المعامل، فهذا الشخص العامل، الواقف أمام الآلة ليتلقى القطعة القادمة إليه، ويقدمها إلى الآلة التي أمامه هو إنسان حي كامل مفكر فاهم واع، ولكنه في عمله هذا النمطي الرتيب بتقديم القطعة إلى الآلة كلما وصلت إليه قد أصبح أشبه بالآلة يقوم بهذا العمل الواحد بصورة تلقائية عفوية تعتمد على

الإحساس الغريزي دون إعمال الفكر وتجميع المعلومات واستنباط النتائج منها، وهو في عمله هذا لا يخطئ أو قلما يخطئ كما لا يخطئ العضو أو الجزء من الأجهزة العاملة في جسم الإنسان الحي.

وكلما خرجت المهمة في العمل عن النطاق الضيق المحصور والنمطية الرتيبة، فاتسع النطاق، وتنوعت الوظيفة، وأصبحت عرضة لمواجهات جديدة ومفاجآت، فإنها عندئذ تحتاج إلى تفكير وتدبير ومعالجات مختلفة باختلاف نوعية الطوارئ وما يصحبها من ملابسات معقدة، فتجعل المهمة معقدة وتستوجب من الفكر عملا يعتمد على التشخيص والتمحيص والتحليل والتركيب، فإن الخطأ عندئذ يتسع مجاله فيقوى احتماله، ويكثر وقوعه.

ولنأخذ مثالا على ذلك عمل الطبيب الذي عليه تشخيص الداء ووصف الدواء النوعي له، فإنه كثيرا ما يواجه في المرضى بمرض واحد، لدى كل مريض حالة جديدة تحتاج إلى ترتيب مختلف، فإنه إن لم يختلف عليه المرض فقد اختلف المريض، وما يحمله مع المرض الرئيسي من ملابسات ومضاعفات وحساسية المريض واختلاف درجة المرض وحدته أو أزمانه، مما يستدعي ترتيبا وتدبيرا خاصا بهذا المريض دون آخر، فإن العلاج النوعي الواحد قد يفيد مريضا ولكنه يؤذي مريضا آخر بالمرض نفسه، ومن ثم يكثر خطأ الطبيب، لأنه يجب أن يكشف حالة غامضة مبهمة، وأن يعرف الطريق الصحيح الموصل في وسط متاهة مظلمة. وهذا بخلاف الصيدلي، فإنه قلما يخطئ في تقديم العلاج أو تركيبه وفقا لوصفة الطبيب.

بعد هذا أيها الأخ أصل بك إلى الناحية المقصودة، كثرة خطأ العقل، وسببها وعلاجها.

نعم إن العقل كما لاحظ صاحبك وقال، هو ذلك الجزء المدرك في تكوين الإنسان، هو الجانب المختص بالفهم والفكر ومعرفة الحقائق والوعي في السلوك، هو ذلك المصباح الكهربائي العظيم القوة البعيد المدى في الإنارة، ينير للإنسان ما حوله فيستطيع بذلك أن يبصر وأن يتبصر، ولكن مهمة العقل ليست

نمطية رتيبة كعمل جزء من جهاز في جسم الإنسان أو خلية من خلاياه، إن مهمة العقل متنوعة معقدة، بل هي أكثر ما في الحياة تنوعا وأشدها تعقدا. إنها أصعب بملايين المرات من مهمة الطبيب الصعبة في تشخيص الأمراض الباطنة ومعالجتها في كل مريض.

إن العقل لكي لا يخطئ يجب أن يستطيع معرفة كل ما يحيط به من الأشياء المادية والاعتبارات المعنوية في كل ما هو حاضر أو غائب، قريب منه أو بعيد عنه وأن يعرف الملابسات التي تتصل بكل شيء من ذلك، ويبقى بعد كل هذه المعرفة لو استطاعها عرضة للخطأ بما يطرأ من تحولات ومفاجآت على الأوضاع والحالات في الظروف والأشياء التي تغير منها ما كان يعهده ويبني عليه، وأنى لعقل الإنسان كل هذه المعارف، وهو إنما يعيش في متاهات، في وسط مجاهل من هذا الكون العظيم الرهيب وموجوداته ونواميسه، ومهما ملك الإنسان وعقله الجبار من معارف وبصائر، فإنه لن يبلغ علمه وبصيرته أكثر مما يصل إليه نظر واقف على ساحل البحر المحيط الهادي مثلا بالنسبة إلى ما وراء الحدود التي يقف عندها امتداد بصره، وما في أعماق ذلك المحيط، وغيره من البحار الكبرى، وما في أجواز الفضاء وأغوار الكون كله، مما يقف عقل الإنسان تجاهه وتجاه ما يسمع عن بعضه في موقف حقارة وصغار، كحقارة الترابة الواحدة بالنسبة إلى الكرة الأرضية كلها، ولاسيما إذا تصورنا مدى ما يعنيه قول العلماء اليوم أن بين الكرة الأرضية وبعض النجوم التي تراها أعيننا مسافة مائة سنة ضوئية أو أكثر (وأنت تعلم معنى السنة الضوئية في تقدير مسافات الفضاء الكوني)[1].

فما مبلغ علم الإنسان وقدرة عقله بالنسبة إلى ما في الحياة البشرية ونواميس الكون من حقائق وخفايا وملابسات وتعقيدات، بالنسبة إلى الفرد وإلى الجماعة وإلى الحاضر والمستقبل إذا أراد أن يعرف كيف يبني حياته وسلوكه في طريق

---

(١) سرعة الشعاع الضوئي يقدرها علماء الفيزياء بأكثر من ثلثمائة ألف كيلو متر في الثانية الواحدة، ومسافة السنة الضوئية هي المسافة التي يحتاج الشعاع الضوئي إلى أن يستمر سائرا بهذه السرعة مدة سنة كاملة حتى يقطعها!

قويمة حكيمة رشيدة بين أمواج هذا الخضم العظيم الهائل؟

صدق الله العظيم بقوله في قرآنه الكريم ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ (الإسراء: ٨٥).

فعقل الإنسان في هذه المتاهة الهائلة والمجاهل المذهلة أشبه ما يكون بالطفل الصغير الذي كان يحبو فقويت رجلاه بعض الشيء فنهض يمشي وفرح بما وصل إليه من قدرة، وهو لا يعرف شيئا عما يعرض له من مزالق ونواتئ يتعثر بها، ولا يعرف ضعف ساقيه وعدم مرونته، فهو تارة تخونه قدرته فيهوي على شيء يؤذيه، وتارة يصطدم فيشج ويقع، وتارة يتعثر بذيله، إنه يقع ويقوم ويصل إلى الجدار مرة ويسقط دونه أخرى، وهكذا. ولكن الفرق بين عقل الإنسان وبين الطفل الذي بدأ يتعلم المشي هو أن الطفل سوف يتغلب على صعوبة المشي، بما يزداد من قوة ومن خبرة ومن مرونة، فيستطيع بعد مدة أن يمشي فلا يقع وأن يركض ويقفز. أما عقل الإنسان فيبقى ما بقيت الحياة طفلا يترعرع في بداية تعلم المشي، يقع ويقوم ويتعثر وينزلق في مجالات سلوكه في مسالك الحياة، مهما بلغ من علم ومعرفة، ومهما انكشف له من آفاق، لأن مدى علمه لا يعد شيئا يذكر بالنسبة إلى مدى جهله بما وراءه وأمامه من أمور مغلقة ومخاطر محجبة.

ذلك أن وظيفة العقل البشري هي أعظم شيء تنوعا وتعقدا، فهي ليست مهمة بسيطة نمطية في مجال محدود ممهد معبد يستطيع أداءها غريزيا بصورة آلية، إن وظيفته كوظيفة الطبيب المكلف بتشخيص داء باطن مستخف في الجسم بين مئات العلل التي لها أعراض مشابهة وعليه وصف الدواء الصحيح، وهذا تشبيه تصغير وتقريب، فمهمة العقل البشري في الواقع أعظم تعقيدا من مهمة هذا الطبيب بما لا يمكن معه قياس.

إن مهمته هي اختيار السلوك الصحيح المستقيم الموصل إلى أحسن النتائج في حياة الأفراد والجماعات، والمتنكب للمزالق المتوقي من العثرات والهاويات المغطاة بالأعشاب الغشاشة كمزارع الألغام في أرض العدو، بل إن التشبيه الأدق الأقرب لمهمة العقل البشري، وموقفه بين مصاعبها التي لا تغلب، هو أنه

كشخص ملقى في مفازات ومتاهات غير متناهية الأبعاد، وهي مليئة بالحيوانات المفترسة، والحشرات القتالة، والمزالق المردية، وتغمره فيها ظلمة حالكة دائمة لا تنجلي، ومعه مصباح يضيء له ما حوله إلى مسافة أمتار محدودة، وعليه أن يسلك طريقا آمنة إلى رزقه وقوام حياته، يصل فيها إلى مطلوبه ويتوقى المخاطر المهلكة.

ذلك لأن مدى العلم الذي يمكن أن يبلغه الإنسان بعقله بالنسبة إلى ما في هذا الكون الشاسع الزاخر بالعجائب والمتاهات والمجاهل هو أقل كثيرا كثيرا من مدى نور هذا المصباح في هذه المفازات المظلمة، هذا إذا اقتصرنا في التصوير والتشبيه على مدى كل من أفق العلم وآفاق الجهل بما في الكون من حقائق وواقع، وأسقطنا من الحساب ما يحول بين العقل والتقدير الصحيح وحسن الاختيار من شهوات الإنسان وعوامله النفسية والمغريات التي تجذبه وتطغى على علمه وعقله، والمطامع المتسلطة على العقول والنفوس البشرية، وحب الأثرة والحظوظ، مما يدعو الإنسان إلى إيثار اللذائذ على الواجبات المتعبة، وما ينشأ عن كل ذلك من تغشية على الأبصار والبصائر، ودفع للأفراد والجماعات إلى أرض الألغام المكسوة بالأعشاب الغشاشة بدلا من طريق الأمان.

ففي هذا الواقع من طريق الإنسان ووعورتها وظلمتها ومن مهمة عقله ذلك المصباح المنير المحدود المدى، كان لا بد لهذا الإنسان من قائد ودليل بصير خبير إلى جانب المصباح الذي بيده، وإلا كان أمام مفاجآت حتمية من المخاطر وضلال الطريق، إن هذا القائد هو الشريعة الإلهية (والشريعة في أصل اللغة هي الطريق)، وإن الدليل هو أحكامها وتوجيهاتها وأوامرها ونواهيها. إنها ترسم له طريق الهدى البعيد المدى الذي يجهله ولا يعلم منه إلا القليل، بمقدار ما يمتد إليه نور مصباحه القاصر من أمتار، يرسم له هذه الطريق الأقوم الأسلم خالق الكون العالم بخوافيه وبكل ما فيه من مسالك ومهالك، والخبير بما ركبه هو في الإنسان من طبائع وغرائز ودوافع خير ونوازع شر، وما حف طريقه من مخاوف ومخاطر.

فخالق الكون أعلم بما فيه، جعل للإنسان شريعته تعبيدا لطريق العقل. نعم إن الإنسان لا يستغني عن هذا المصباح مع الشريعة، ولكنه لا ينبغي له أن يغتر بمسافة النور القصيرة التي يبلغها ضوء هذا المصباح، فيظن في نفسه القدرة على الاستقلال عن الشريعة والانفصال عن الطريق الذي خططه له خالقه ومهده كي يجنبه المفاجآت الخطرة والمهالك.

بل عليه أن يتلمس بمصباحه المتواضع معالم هذه الطريق في حدود الشريعة الإلهية، لأن خالقه أدرى بما يصلحه وبما يفسده، لأنه أدرى بما يحيط به من مجاهل لا يستطيع هو معرفة ما فيها من آفات، فما حسنته له الشريعة بنصوصها الثابتة فهو حسن، ولو لم يستطع عقله إدراك حسنه، وما قبحته له فهو قبيح خطر وخيم العواقب على الفرد أو على الجماعة عاجلا أو آجلا.

هذه حجة الشريعة على العقل، تقوم على أساس هذا الواقع لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. فليس للإنسان المؤمن أن يناقش الشريعة بعقله القاصر مناقشة الند للند، فيقول: ما قبله عقلي قبلته، وما لم يقبله رفضته!! فما هو عقله؟ وما مدى الثقة به؟!

إنما عليه أن يتفحص بعقله أوامر الشريعة ونصوصها، ويناقشها مناقشة المتفهم المطيع المستسلم الذي يريد أن يعرف ماذا يريد الشارع ليعرف كيف يطيع، هذا هو شأن العالم البصير وما سواه فشأن الجاهل المغرور.

نعم إن هذه الحجة تقنع المؤمن. أما الملحد المادي الذي لا يؤمن بالخالق ورسالاته الهادية بل يجحد الحقائق ويكابر في المحسوس مغرورا بعقله القاصر، فذلك لا ينفع معه الاحتجاج، بل يجب التأسيس معه أولا، والبدء بمناقشته من مبدأ آخر.

موسوعة الفقه الإسلامي

فكرتها .. الغاية منها .. كيف يمضي العمل فيها

العدد (٢٦) صفر (١٣٨٧هـ) مايو (١٩٦٧م)

• منشأ فكرة الموسوعة

لما عقد مؤتمر «أسبوع الفقه الإسلامي» في باريس في بهو كلية الحقوق من جامعة السوربون أول شهر تموز ١٩٥١م، بدعوة من لجنة الحقوق الشرقية في المجمع الدولي للقانون المقارن، وظهر - من المحاضرات التي ألقيت في موضوعات شتى من مختلف شعب الحقوق والقانون في الفقه الإسلامي - ما في هذا الفقه الأصيل المؤثل من ثروة حقوقية ونظريات قانونية خالدة القيمة، اتخذ المؤتمر قراره التاريخي الذي من جملة ما جاء فيه ما ترجمته الحرفية كما يلي:

أ- إن مبادئ الفقه الإسلامي لها قيمة «حقوقية تشريعية» لا يمارى فيها.

ب- وإن اختلاف المذاهب الفقهية في هذه المجموعة الحقوقية العظمى ينطوي على ثروة من المفاهيم والمعلومات، وإن الأصول الحقوقية هي مناط الإعجاب، وبها يستطيع الفقه الإسلامي أن يستجيب لجميع مطالب الحياة الحديثة والتوفيق بين حاجاتها.

ويأمل المؤتمرون في أسبوع الفقه الإسلامي أن تؤلف لجنة لوضع معجم للفقه الإسلامي يسهل الرجوع إلى مؤلفات هذا الفقه، فيكون موسوعة فقهية تعرض فيها المعلومات الحقوقية الإسلامية وفقا للأساليب الحديثة[(١)].

فهذا الأمل الذي دعا إلى تحقيقه مؤتمر «أسبوع الفقه الإسلامي» الأول في باريس كان هو النواة الأولى لفكرة «موسوعة الفقه الإسلامي» التي أنشئت لها لأول مرة لجنة خاصة في كلية الشريعة بجامعة دمشق سنة ١٩٥٥.

(١) انظر المجلة الدولية للحقوق المقارنة، العدد ٤ من السنة (٣) الصادر في تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩٥١م.

● **غاية الموسوعة**

إن دراسة الحقوق وعلم القانون اليوم تتجه إلى المقارنة بين الشرائع والنظم ليستفيد الاتجاه التشريعي والاجتهاد القضائي من أحسن النظريات الحقوقية وأقربها إلى العدل.

ولاشك أن الفقه الإسلامي الذي هو أغنى فقه عرفه التاريخ البشري في أمة من الأمم هو أولى بالاطلاع عليه والمقارنة به، ولاسيما في البيئات العربية التي تربطها به وشيجة النسب، لأنه تراثها الأصيل المجيد، العربي الأصول والمنابع، فضلا عن غناه الواسع، وذلك لكي يمكن اتخاذه أساسا للتشريع والاجتهاد القضائي في البلاد العربية والإسلامية.

ولكن باختلاف الزمن وتطور الأساليب والحاجات الثقافية أصبح فقهنا هذا وما فيه من جوهر نفيس، ونظريات حقوقية محكمة، ومبادئ قانونية سامية ذات قيمة خالدة، كل ذلك فيه أصبح محجوبا عن أنظار الحقوقيين والمشرعين بغلاف من أسلوبه وترتيبه القديم، وعباراته المعقدة في كثير من كتبه، وبمراجعه الصعبة المسالك على غير المختصين، ولكن تطور الحياة وحاجاتها وتشعب الثقافة العامة جعلا الزمن أضيق من أن يسمح للباحث ببذل الجزء الكبير منه في المراجعة، وهذا ما يوجب على أبناء العربية اليوم تعبيد الطريق إلى هذا الفقه العالمي الضخم الذي أقام نظام العدل في مشارق الأرض ومغاربها نحو أربعة عشر قرنا، وواجه ألوان الحضارات، وحل جميع مشكلات الحياة بأحسن الحلول، وأعدل الأحكام، وأمرن القواعد في معالجة مشكلات اختلاف الزمان والمكان والأعراف والحاجات، بمذاهبه الاجتهادية المتعددة.

فغاية الموسوعة صياغة الفقه الإسلامي كما هو في مراجعه الأصلية وبأسلوب سهل، وتبسيط العبارات المعقدة التي تصادف فيه، دون أن يدخل الكتاب شيئا من اجتهاداتهم الشخصية، مع الإشارة إلى اختلاف المذاهب والاجتهادات في كل موطن يكون فيه ذلك هاما ومفيدا، ثم ترتيب هذه الأحكام الفقهية الشرعية في الموسوعة ترتيبا أبجديا على حروف المعجم بحسب الحرف الأول، وما يليه من الكلمة العنوانية الدالة على الموضوع الفقهي.

فأحكام التقادم مثلا تذكر تحت كلمة «تقادم» التي تأتي في حرف التاء المثناة مع القاف، وأحكام عدة المرأة المطلقة أو المتوفى عنها زوجها تذكر تحت كلمة «عدة» التي تأتي في حرف العين المهملة مع الدال وما يليها.

والأحكام المتعلقة بالأجير العام والأجير الخاص مثلا تذكر تحت كملة «أجير» التي تأتي في حرف الهمزة مع الجيم وما يليهما، وهكذا في كل موضوع فقهي، فكل باحث ولو غير فقيه مختص يستطيع أن يراجع في الموسوعة عن حكم الشريعة وآراء الفقهاء في كل موضوع بالنظر إلى ترتيب حروف كلمته، كما يراجع عن أي كلمة شاء في قاموس لغوي، لكنه في القاموس يراجع عن الكلمة ليرى معناها في اللغة، أما في الموسوعة الفقهية فيراجع عنها ليرى ما تحتها من أحكام الشريعة وفقهها في الموضوع، واختلاف المذاهب والآراء الفقهية في ذلك، مع الإحالة على مواطن البحث في مراجعه الفقهية الأصلية من كتب المذاهب بذكر اسم الكتاب والجزء والصفحة واسم المطبعة وتاريخ الطبع ليرجع إليها من يشاء.

وهذه الموسوعة يقدر لها لتكون وافية كافية أن تبلغ ثلاثين مجلدا فأكثر، ولاسيما أنها ستشتمل على جميع أقسام الفقه من عبادات ومعاملات وجنايات وعقوبات وقضاء وبينات وسياسة شرعية وأحكام الأسرة المعروفة اليوم باسم «الأحوال الشخصية» من النكاح إلى الميراث وما بينهما.

من هذا التعريف الموجز يتضح ما لفكرة الموسوعة الفقهية من شأن عظيم وما سيكون لتنفيذها من أثر عالمي في عالم التشريع والقانون يجعلها من الأعمال المخلدة.

وإن دولة الكويت التي تبني اليوم نهضتها بجد وسرعة ونشاط هي الجديرة بأن تجعل من هذا المشروع العلمي الجليل عنوانا مشرقا ومشرفا لنهضتها المباركة.

لذلك رأت وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية أن تتبنى هذا المشروع، وتجند له الكفاءات، وهي تأمل بفضل معونة فقهاء العالم الإسلامي الذين سيطلب إليهم أن يكتبوا فيما سيوزع عليهم من بحوث الموسوعة، وبفضل إدراكهم لهذا الواجب الإسلامي العام، أن تبرز هذه الموسوعة كاملة في أقصر زمن ممكن بالنسبة إلى طبيعة هذا المشروع العظيم.

١٥ مقالات

الشيخ محمود مهدي استانبولي

- ترجمة الشيخ.
- المقالات:

١- هل الإنسان خليفَة الله في الأرض.

العدد (٢٣) ذو القعدة (١٣٨٦هـ) - فبراير (١٩٦٧م).

٢- حول اجتهادات الخليفة عُمر بن الخطاب ﵁.

العدد (٣٣) رجب (١٣٨٧هـ) - اكتوبر (١٩٦٨م).

٣- الإنسان العربي بين الجاهلية والإسلام.

العدد (٣٤) شوال (١٣٨٧هـ) - يناير (١٩٦٨).

٤- التعليم الجامعي.

العدد (٣٤) شوال (١٣٨٧هـ) - يناير (١٩٦٨).

٥- الشخصية الإسلامية في معركة إثبات الذات.

العدد (٤٢) جمادى الثانية (١٣٨٨هـ) - اغسطس (١٩٦٨م)

٦- في رحاب الأماكن المقدسة.

العدد (٦٠) ذو الحجة (١٣٨٩هـ) - فبراير (١٩٧٠م).

٧- نظرية الاعدام بين الشريعة الاسلامية والقوانين الوضعية

العدد(٩٢) شعبان (١٣٩٢هـ)- سبتمبر (١٩٧٢م)

٨- من غرائب المحاكمات في التاريخ

العدد (٩٣) رمضان (١٣٩٢هـ) - أكتوبر (١٩٧٢م).

٩- نصيحة ذهبية إلى مفكري الغرب وزعمائه

العدد (٩٤) شوال (١٣٩٢هـ) - نوفمبر (١٩٧٢م).

١٠- افتراء المستعمرين

العدد (٩٧) محرم (١٣٩٣م) - فبراير (١٩٧٣م).

ترجمة الشيخ
محمود مهدي استانبولي

● **مولده**

الشيخ محمود مهدي إستانبولي عالم وباحث وتربوي، ولد بدمشق سنة ١٣٢٧هـ، واهتم بتحصيل العلوم الشرعية والحديث الشريف، وعمل في المجال التربوي، قال عنه الشيخ علي الطنطاوي: إنه من أركان التربية في بلده، لازم المحدث الشيخ «محمد ناصر الدين الألباني»، وتبنى منهجه، وصحب الشيخ عبد الفتاح الإمام، وأخذ عنه مبادئ السلفية.

● **مؤلفاته:**

صنف رحمه الله العديد من الكتب التي لاقت الرواج والقبول منها: «تحفة العروس، كتب ليست من الإسلام، على هامش التربية الإسلامية، عبقرية الإسلام في التربية، مشكلات الغرب وكيف يحلها الإسلام، عظمة الإسلام، دفاع عن الإسلام.. بيني وبين المبشرين، مذكرات عن الحج، الرد على مفتريات الشيوعية، المنهج الإسلامي الجديد في التربية، السبيل إلى أسرة أفضل...». وغيرها من المصنفات.

● **وفاته:**

توفي الشيخ سنة ١٤٢٠هـ بعد ٩٣ سنة أمضاها في طلب العلم والتعليم، رحمه الله رحمة واسعة وغفر له ولجميع المسلمين.



هل الإنسان خليفَة الله في الأرض

العدد (٢٣) ذو القعدة (١٣٨٦هـ) - فبراير (١٩٦٧م).

شاع على ألسنة وكتابات كثير من الأدباء الإسلاميين أن الإنسان خليفة الله في الأرض، وحجتهم في ذلك قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ الآية.

وعلى الرغم من الاعتراضات التي وجهت إليهم، نرى بعضهم يصر على رأيه، ويروح يستغيث باللغة العربية للدفاع عن هذا الرأي، كأن اللغة- وحدها هي مصدر فهم القرآن، لا النصوص العامة للشريعة، ولو كانت كافية لاقتصرنا في صلاتنا على الدعاء، ومع ذلك فإن اللغة العربية ليست نصيراً لهم في هذا الفهم، ولا نريد أن ندخل معهم في هذه المناسبة، بمناقشة لغوية قد تطول...

لقد كان يكفي هؤلاء الكتاب للرجوع عن فكرتهم، كلمة للخليفة الراشد أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه...

قال شيخ الإسلام الإمام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في فتاويه (٣/ ٤٦١) «وقد ظن بعض القائلين الغالطين كابن عربي، أن الخليفة هو الخليفة عن الله، مثل نائب الله، والله تعالى لا يجوز له خليفة. ولهذا قالوا لأبي بكر يا خليفة الله! فقال: «لست بخليفة الله، ولكني خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. حسبي ذلك» رواه أحمد في المسند (١/ ١٠/ ١١) بل هو سبحانه يكون خليفة لغيره، قال النبي ﷺ: «اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل، اللهم اصحبنا في سفرنا واخلفنا في أهلنا»..

ولا يجوز أن يكون أحد خلفاً منه (أي من الله تعالى) ولا يقوم مقامه، إنه لا سمي له، ولا كفء فمن جعل له خليفة فهو مشرك به!!.

والغريب - الغريب جداً - أن هؤلاء الكتاب المصرين على رأيهم في أن الإنسان خليفة الله في الأرض، يروحون أيضاً يقحمون - كما أقحموا اللغة - بعض آي القرآن الكريم لإثبات صحة ما ذهبوا إليه، كأن أبا بكر- رضي الله تعالى عنه وكأن الإمام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ وقد رأيناهما يرفضان نسبة خلافة الإنسان لله سبحانه- لم يفهما تلك الآيات!!

وقد استشهدوا على هذه الخلافة بقوله تعالى.

١- ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ (الأحزاب: ٧٢).

وهذه الآية حجة عليهم لا لهم بدليلين:

أولاً: أن الله سبحانه عرض هذه الأمانة على السماوات والأرض والجبال فإذا كان الإنسان هو خليفة الله فكيف عرض سبحانه هذه الأمانة على غيره؟!

ثانياً: كيف يجعل الله الإنسان خليفة في الأرض، ثم يقول عنه إنه كان ظلوماً جهولاً؟!

٢- ومن الآيات التي استدل بها هؤلاء الكتاب على هذه الخلافة قوله تعالى ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ (ص: ٧١-٧٧).

وليس في هذه الآية حجة لهم فيما ذهبوا إليه. والغريب أنهم فهموا من قوله تعالى ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ أي من روح الله نفسه مما جعلهم يتأكدون من هذه الخلافة! مع أن المقصود من روحه التي خلقها، وإلا كان الإنسان جزءاً من الله، وهو سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ (الزخرف: ١٥).

وإذا كان لا يصح أن نقول إن الإنسان خليفة الله، فكذلك لا يصح أن نقول إنه أفضل المخلوقات كما زعم هؤلاء القائلون بالخلافة، ليدعموا حجتهم.

ودليلنا على ذلك أن رسول الله ﷺ نفسه وهو على سمو مكانته لم يقل إنني سيد المخلوقات، بل قال «إنني سيد ولد آدم». إن هناك الملائكة السفرة، الكرام البررة الذين يستنسخون من اللوح المحفوظ. وليس لدينا نص صريح على أفضلية الإنسان عليهم ولا العكس.

وليت هؤلاء الكتاب حاولوا فهم قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (البقرة: ٣٠).

إن هؤلاء الملائكة لو فهموا أن آدم خليفة الله، لما تجرأوا، ولا توهموا أن خليفة الله سيفسد في الأرض، ويسفك الدماء، إنما فهموا أن آدم وذريته من البشر سيخلفون من سبقهم من المخلوقات الذين أفسدوا في الأرض، قاله ابن عباس والحسن كما جاء في تفسير الإمام ابن الجوزي.

ومما لا ينبغي إغفاله بهذه المناسبة أن بعض المفسرين ظنوا أن سؤال الملائكة لربهم كان على وجه الاعتراض أو الحسد، فقال السيوطي في تفسيره على لسانهم «فنحن أحق بالاستخلاف».

وهذا لا يليق بالملائكة. قال الإمام ابن كثير رحمه الله: «وقول الملائكة هذا ليس على وجه الاعتراض على الله، ولا على وجه الحسد لبني آدم كما يتوهمه بعض المفسرين، وقد وصفهم الله تعالى بأنهم لا يسبقونه بالقول، أي لا يسألونه شيئاً لم يأذن لهم فيه.

وههنا لما أعلمهم بأنه سيخلق في الأرض خلقاً- قال قتادة- وقد تقدم إليهم أنهم يفسدون فيها، فقالوا ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ الآية. وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة في ذلك يقولون: يا ربنا ما الحكمة في خلق هؤلاء، مع أن منهم من يفسد في الأرض ويسفك الدماء، فإن كان المراد عبادتك، فنحن نسبح بحمدك، ونقدس لك، أي نصلي لك، كما سيأتي، أي لا يصدر منا شيء من ذلك، وهلا وقع الاقتصار علينا؟ قال الله تعالى مجيباً لهم عن هذا السؤال: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾! أي إني أعلم من

المصلحة الراجحة في خلق هذا الصنف على المفاسد التي ذكرتموها ما لا تعلمون. . .» اهـ باختصار عن تفسير ابن كثير.

ومن أعظم الأدلة على بطلان دعوى القائلين بأن الإنسان خليفة الله في الأرض قوله ﷺ في حديث له لأحد قواده «وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله، وذمة نبيه، فلا تجعل لهم ذمة الله، وذمة نبيه، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك، فإنكم إن تخفروا ذممكم وذمة أصحابكم، أهون أن تخفروا ذمة الله، وذمة نبيه. وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم، ولكن أنزلهم على حكمك، فإنك لا تدري أتصيب حكم الله أم لا؟» (رواه مسلم).

نعود بعد هذا كله إلى الآية التي اتخذها الكتاب المشار إليهم من أعظم حججهم على إثبات دعواهم من خلافة الإنسان لله تعالى.

قال الإمام ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيرها ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ أي قوماً يخلف بعضهم بعضاً قرناً بعد قرن وجيلاً بعد جيل كما قال تعالى ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ (فاطر: ٣٩) ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ (النمل: ٦٢) وقال ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِي ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾﴾ (الزخرف: ٦٠) وقال ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ (الأعراف: ١٦٩).

ونقل القرطبي ما ملخصه عن زيد بن علي: وليس المراد ههنا بالخليفة آدم عليه الصلاة والسلام فقط.. وعزاه القرطبي إلى ابن عباس وابن مسعود وجميع أهل التأويل.

ومن العجيب أن هؤلاء الكتاب لم يقتصروا على جعل آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ خليفة الله كما يمكن أن يفهم بعضهم من ظاهر الآية. بل ذهبوا إلى خلافة البشر كلهم مؤمنهم وكافرهم وصالحهم وفاسقهم!.

ولا شك أن فكرة خلافة الإنسان لله في الأرض مأخوذة عن نظرية الحلول والاتحاد ونظرية القطب الغوث لغلاة الصوفية. فقد قال أبو الحسن الشاذلي «للقطب خمس عشرة علامة، عدد منها أن يمد بمدد العصمة، والخلافة- وهو أن

يكون خليفة الله في الأرض- والنيابة- وهي أن يكون نائباً عن الحق في تصريف الأحكام»[١]. إلى غير ذلك من صفات الألوهية، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً!.

* * *

(١) معراج التشوف إلى حقائق التصوف ص ٤٩- ٥١ باختصار نقلاً عن كتاب التصوف بين الحق والخلق للأستاذ محمد فهر الشفقه ص ١٠٠ .

حول اجتهادات الخليفة عُمر بن الخطاب رضي الله عنه

العدد (٣٣) رجب (١٣٨٧هـ) - أكتوبر (١٩٦٨م).

قام هذا الخليفة الراشد، والحاكم العبقري بطائفة من الإجراءات الحكيمة التي ظنها بعض الناس اجتهادات منه، جاءت خلاف نصوص الشريعة، فأخذوا يؤولون ذلك بأن الخليفة عمر نظر إلى علة النص لا إلى ظاهره، وبذلك فتحوا المجال للعبث بالشريعة والجرأة عليها تحت ستار التحري عن المصلحة، والبحث عن علل وغايات النصوص دون ظواهرها(!!!).

وقد سرت عدوى هؤلاء إلى كثير من الشباب المثقف، الذي أخذ يتهاون بنصوصها متخذا من صنيع عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه حجة له بزعمه.

وقد رأيت أن أبحث هذا الموضوع الخطير، لأثبت للملأ أن هذا الخليفة الراشد لم يكن مجتهداً، إنما كان متبعاً لنصوص الشريعة التي خفيت على كثير من الباحثين الذين كتبوا في هذا البحث الشائك. وسأنقل كلامهم وأرد عليه.

١- قالوا: إن عمر منع سهم المؤلفة قلوبهم مع أن سهمهم مفروض بنصوص القرآن، وأولوا ذلك بأنه - رضي الله تعالى عنه - نظر إلى علة النص لا إلى ظاهره، فقد كانت علة إعطائهم تأليفهم واتقاء شرهم عندما كان الإسلام ضعيفاً، فلما قويت شوكة الإسلام زال الداعي إلى إعطائهم .

أقول: إن هذا الخليفة فهم معنى لفظ المؤلفة قلوبهم محدوداً بطائفة معينة من الناس، فلما زالت أوقف سهمها، بينما هذا السهم أوسع من ذلك فيما دلت عليه نصوص الأحاديث الكثيرة التي وردت حول سهم المؤلفة قلوبهم، والتي بينت أصنافهم، وقد شرح ذلك الحافظ ابن كثير في تفسيره فقال: وأما المؤلفة قلوبهم فأقسام منهم من يعطى ليسلم، كما أعطى النبي صلى الله عليه وآله

وسلم صفوان بن أمية من غنائم حنين.

وقد كان شهدها مشركاً، قال: فلم يزل يعطيني حتى صار أحب الناس إلي بعد أن كان أبغض الناس إلي. كما قال الإمام أحمد: حدثنا زكريا ابن عدي، حدثنا ابن المبارك عن يونس عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن صفوان بن أمية قال: أعطاني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم حنين، وإنه لأبغض الناس إلي، فما زال يعطيني حتى إنه لأحب الناس إلي» (ورواه مسلم والترمذي من حديث يونس عن الزهري).

ومنهم من يعطى ليحسن إسلامه ويثبت قلبه كما أعطى الرسول يوم حنين أيضاً جماعة من صناديد الطلقاء وأشرافهم مائة من الإبل، وقال: «إني لأعطي الرجل، وغيره أحب إلي منه، خشية أن يكبه الله على وجهه في نار جهنم». وفي الصحيحين عن أبي سعيد أن علياً بعث إلى النبي بذهبية في تربتها من اليمن، فقسمها بين أربعة نفر: الأقرع بن حابس، وعيينة بن بدر، وعلقمة بن علاثة وزيد الخير، وقال: «أتألفهم» ومنهم من يعطى لما يرجى من إسلام نظرائه، ومنهم من يعطى ليجبي الصدقات مما يليه، أو ليدفع عن حوزة المسلمين الضرر من أطراف البلاد، ومحل تفصيل هذا في كتب الفروع والله أعلم.

وهل تعطى المؤلفة قلوبهم على الإسلام بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم؟.

فيه خلاف، فروي عن عمر وعامر والشعبي وجماعة أنهم لا يعطون بعده، لأن الله قد أعز الإسلام وأهله ومكن لهم في البلاد، وأذل لهم رقاب العباد.

وقال آخرون: بل يعطون لأنه عليه الصلاة والسلام قد أعطاهم بعد فتح مكة، وكسر هوازن، وهذا أمر قد يحتاج إليه فيصرف إليهم. اهـ.

وعلى ذلك فلا يصح أن يقال إن عمر منع المؤلفة قلوبهم نصيبهم من الزكاة، بل الصواب أنه إنما منع من ليس من المؤلفة قلوبهم في فهمه هو، ولذلك فلا يجوز أن يتخذ فعل عمر هذا مثالاً للمنهاج الفقهي الواقعي، والنظر إلى علة النص، لا إلى ظاهره فليس في المسألة أكثر من فهم خاص لهذا النص القرآني.

إن سهم المؤلفة قلوبهم لو استخدمه المسلمون في أيام مجدهم وثرائهم

لاشتروا به كثيراً من المرتزقة الذين يضللون أقوامهم أو يسكتون على ضلالهم لتتسنى لهم الحياة الرغيدة، فلو وجدوها من المسلمين عن طريق هذا السهم لدخلوا في دين الله أفواجاً وأدخلوا أقوامهم معهم!.

ولو كان لي من الأمر شيء، لجعلت سهم المؤلفة قلوبهم لتأليف كتاب الغرب وأدبائه وأرباب صفحه ليثنوا على الإسلام ويدافعوا عنه ويحضوا أقوامهم لاعتناقه!.

ومهما كان من اجتهاد الخليفة عمر رضي الله تعالى عنه، فقد كان اجتهاده في فهم النص، لا في تركه، فله أجر الاجتهاد لقوله ﷺ: «إذا أصاب الحاكم فله أجران، وإن أخطأ فله أجر» ورحم الله تعالى الإمام مالكاً فقد قال:

«كلهم يرد عليه إلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم».

٢- وقالوا: وكذا اجتهد عمر في وقف تنفيذ حد السرقة على السارقين واكتفائه بتعزير السارق عن قطع اليد في عام المجاعة المسمى بعام الرمادة، فاعتبر فيه شبهة عامة في أنهم كانوا يسرقون عن ضرورة.

أقول: ليس في عمل الخليفة عمر وقف تنفيذ حد السرقة على السارقين عام المجاعة اجتهاد منه، فإنه لا اجتهاد في مورد النص، إنما هو اتباع لنص قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ (البقرة: ١٧٣) وقوله سبحانه: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (المائدة: ٣).

وأستبعد لجوء هذا الخليفة الراشد حتى إلى تعزير السارق المضطر، - كما زعموا- وقد أعلن الله سبحانه بأنه ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾.

٣- وقالوا: وكذلك اجتهد عمر في منع تقسيم أراضي سواد العراق على المجاهدين الفاتحين لها الذين طالبوا بتقسيمها بينهم كما تقسم الغنائم الحربية بعد تخميسها حسب نص قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ (الأنفال: ٤١).

وقالوا أيضاً: وقد ذهب عمر إلى خلاف رأي هؤلاء المجاهدين، فاعتبر

الأراضي من الفيء الذي تتعلق به حقوق المسلمين عامة حاضرهم وآتيهم رعاية لمصلحة الأجيال وحقوقها في بيت المال، وفقاً لما ينبئ به النظر السديد إلى مجموع النصوص القرآنية لا إلى بعضها دون بعض.

فأبقى- لذلك عمر الأرضين لأهلها وطرح عليها ضريبة الخراج، لأن ذلك أصلح لإحيائها، وأعم وأدوم لنفعها.

وقالوا أيضاً: وقد ثبت في السنة أنه عندما فتح النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- خيبر، وقد فتحت عنوة لا صلحا، ونزل أهلها اليهود والمحاربون على حكم الجلاء- عدت أراضيها من الفيء! وعزل النبي نصفها، فتركه للنوائب والنوازل، وقسم الباقي بين المسلمين.

أقول: من الغريب أن يزعم هؤلاء، أن عمر اعتبر أراضي سواد العراق من الفيء، كأن المسألة كيفية!! وقد فتحت عنوة بإيجاف الخيل وصولة الجيش في المعارك الحربية، وأغرب من ذلك أن يزعموا أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم نفسه اعتبر أيضاً أراضي خيبر من الفيء! وقد فتحت عنوة!!

ما أبعد الفرق بين توزيع أموال الغنائم وأموال الفيء، وقد ذكرنا سابقاً آية توزيع الغنيمة، وها نحن أولاء نذكر آية تعريف الفيء وطريقة توزيعه:

﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾﴾ (الحشر: ٦). ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾ (الحشر: ٧).

فهل يتصور العقل أن يعتبر عمر أراضي العراق من الفيء وقد فتحت عنوة وحرباً؟!.

أم هل يتصور العقل أيضاً أن يعتبر الرسول عليه الصلاة والسلام أراضي خيبر فيئاً، وقد فتحها بالحرب والقتال؟!.

إن هؤلاء لما رأوا عدم توزيع أراضي العراق وخيبر حسب آية الغنائم لجأوا إلى هذه التأويلات، زاعمين أنها اجتهادات من عمر!.

ومن المؤسف أن هؤلاء المدعين لجأوا إلى تتمة آية الفيء في سورة الحشر السابقة لإثبات دعواهم وهي: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ﴾ .. الخ ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ الخ... ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ وزعموا بأن الخليفة عمر بعد تلاوة قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ قال للمجاهدين الذين طلبوا توزيع الأراضي: «ما أرى هذه الآية إلا عمت الخلق كلهم حتى الراعي بكداء».

ومن الغريب أن الحشر جاءت كلها في الفيء فكيف يعقل أن يحتج بها الخليفة عمر لرد طلب المجاهدين في توزيع الأراضي التي فتحت عنوة؟!.

والصواب أن هذا الخليفة إنما استشار المسلمين في طريقة توزيع أموال الفيء، لا أموال الغنائم.

جاء في كتاب «الدر المنثور في التفسير بالمأثور» للسيوطي. أخرج ابن أبي شيبة وابن مردويه والبيهقي عن زيد بن أسلم عن أبيه قال سمعت عمر بن الخطاب يقول: اجتمعوا لهذا المال فانظروا لمن ترونه. ثم قال لهم: إني أمرتكم أن تجتمعوا لهذا المال فتنظروا لمن ترونه، وإني قرأت آيات من كتاب الله، أقلقتني: سمعت الله- تعالى- يقول: ﴿مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ - إلى قوله- ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ (الحشر: ١٠) والله ما هو لهؤلاء وحدهم، ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا﴾ - إلى قوله: ﴿رَّحِيمٌ﴾ - والله ما أحد من المسلمين إلا له حق في هذا المال أعطي منه أو منع منه حتى راع بعدن.. وقسم عمر ذات يوم من المال فجعلوا يثنون عليه، فقال: ما أحمقكم! لو كان لي ما أعطيتكم درهما!اهـ.

ومما سبق ندرك أن اجتهاد عمر - رضي الله تعالى عنه- كان في طريقة تقسيم الفيء لا الغنائم خلافاً لما ذكره من نحن بصددهم.

نعود بعد هذه التوطئة إلى الكلام على حجة الخليفة عمر في عدم توزيع أراضي العراق على المحاربين نقلاً عن الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى ومنه

ندرك ونتحقق أن هذا الخليفة لم يكن مجتهداً، خلافاً للنص، إنما كان متبعاً للنص النبوي.

جاء في كتاب زاد المعاد:

«. . . والإمام مخير في أرض العنوة بين قسمها، ووقفها وقسم بعضها، ووقف البعض، وقد فعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الأنواع الثلاثة: فقسم قريظة والنضير- أي على المحاربين - ولم يقسم مكة. وقسم شطر خيبر، وترك شطرها»[1].

فيكون عمر بن الخطاب - رضي الله تعالى عنه- اختار في أراضي العراق ما فعله الرسول في مكة.

وقد يعترض على هذا الكلام معترض، فيقول إن مكة لم تفتح عنوة، وهذا الاعتراض مردود!.

قال الإمام ابن القيم:

والذي يدل على أن مكة فتحت عنوة وجوه: أحدها أنه لم ينقل أحد قط أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم صالح أهلها زمن الفتح، ولا جاءه أحد منهم صالحه عن البلد، وإنما جاءه أبو سفيان، فأعطاه الأمان لمن دخل داره، أو أغلق بابه أو دخل المسجد أو ألقى سلاحه.

ولو كانت قد فتحت صلحاً لم يقل: من دخل داره أو أغلق بابه أو دخل المسجد فهو آمن، فإن الصلح يقتضي الأمان العام. والثاني أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: إن الله حبس عن مكة الفيل وسلط عليها رسوله والمؤمنين وإنه أذن لي فيها ساعة من نهار، وفي لفظ أنها لم تحل لأحد قبلي ولا تحل لأحد بعدي، وإنما أحلت لي ساعة من نهار، وفي لفظ فإن أحد ترخص لقتال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقولوا: «إن الله أذن لرسوله، ولم يأذن لكم» وإنما أذن لي ساعة من نهار. وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس».

وهذا صريح في أنها فتحت عنوة، وأيضاً فإنه ثبت في الصحيح أنه جعل يوم

---

(١) ٢/ ١٣٧ باختصار.

الفتح خالد بن الوليد على المجنبة اليمنى، وجعل الزبير على المجنبة اليسرى وجعل أبا عبيدة على البيادقة وبطن الوادي. . وأيضاً فإن أم هانئ أجارت رجلاً، فأراد علي بن أبي طالب قتله، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ» وأيضاً ففي السنن بإسناد صحيح أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما كان يوم الفتح قال: «أمنوا الناس إلا امرأتين وأربعة نفر اقتلوهم، وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة». والله أعلم[1].

أكتفي الآن بهذا القدر، آملاً أن أكون وفقت لإقناع الذين كتبوا في اجتهادات عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، إلى مبلغ حرص هذا الخليفة الراشد على نصوص الشريعة وتمسكه بها، وقد كان اجتهاده ينحصر في تقديم نص على آخر رأى فيه مصلحة للمسلمين.

وفي ذلك بلاغ لمن كان له قلب، أو القى السمع وهو شهيد.



(١) زاد المعاد (٢/ ٦٩- ٧٠) باختصار.

الإنسان العربي بين الجاهلية والإسلام

العدد (٣٤) شوال (١٣٨٧هـ) - يناير (١٩٦٨).

عاش الإنسان العربي قبل الإسلام في جاهلية عمياء، وفي ظلمات بعضها فوق بعض، فكانت العصبية القبلية على أشدها، شعارها: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» بمعناها الضيق البغيض، فكانت الحرب- على الرغم من ويلاتها - ملهى لهذا الإنسان، وسفك الدماء من أعظم ألهياته. كما كانت الوثنية والخمر والقمار من أبرز مظاهر حياته.

وكان يعامل المرأة معاملة سيئة فيعبث بها، ويأكل حقوقها، ويرثها كما يرث الدابة والمتاع، بل يروح أيضاً يكرهها على[1] الزنا- كما وصفه القرآن- ويأخذ أجرها.

قال تعالى في النهي عن ذلك: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾ (النور: ٣٣).

وقد خضع الإنسان العربي في الجاهلية للاستعمار الفارسي في العراق واليمن، وللاستعمار الروماني في الشام، في أبشع صوره وأذل أشكاله.

وما كانت حال الإنسان العربي في الحجاز بأحسن من حالها في الشام والعراق، فكان شبه مستعمر للرأسمالية اليهودية عن طريق الربا أضعافاً مضاعفة

(١) لا نعتقد أن ذلك كان يمثل ظاهرة عامة في العرب حتى ندمغهم جميعاً بهذا العيب، وقد كانوا غيارى على محارمهم، كما كانوا يحترمون المرأة وينزلون عند رأيها بل إن من كبارهم من كان ينتسب إلى أمه، وهذا لا يمنع من وجود بعض الصفات التي ذكرها الكاتب في بعض الأفراد كما في كل مجتمع مما جعل القرآن الكريم يعنى باجتثاثها لتطهير المجتمع الإسلامي تطهيراً كاملاً. «الوعي الإسلامي».

حتى استولت على كثير من أراضيه، علاوة على الفتنة التي كانت تثيرها بين القبائل العربية لإشعال نيران الحروب بينها حتى كادت تهددها بالفناء.

- **انحراف وفراغ مخيف**

هذا وصف مجمل للإنسان العربي في الجاهلية الأولى. انحراف في العقيدة، انحلال في الأخلاق، فكان في طريقه إلى الاحتضار والانتحار.

إنا لنتصور هذا العربي المضطرب الضال، وهو يضرب في صحرائه على غير هدى، حائراً من هذا الكون الذي يحيط به، مقصراً في استعمال طاقته على هذه الأرض، لا يعرف كيف يحيا حياته، أو يستغل وجوده، ولكنه يتمنى لو خرج من هذه الحيرة، وجلا عنه هذا الظلام، فما هذه الحروب التي كانت تشتعل دونما أدنى تفكير أو وعي، إلا هرباً من هذا الفراغ، وقتلاً للوقت الذي يحويه... وما هذه العادات المتطرفة لدرجة القبح والشر التي ألمت بالعربي حيناً من الزمن إلا محاولة لقهر هذا الفراغ الذي لا يحصل ضمن أجوائه أدنى معنى للوجود، وأية غاية للحياة.

تصوروا هذا الإنسان وقد أفرغ نفسه إلا من تأملاته، وجرد عقله إلا من تفكيره الخاص، وأبقى قلبه وروحه في صفاء غريب، لا ينعكس عليهما إلا إحساسات حب عابر، وتشوفات تأملية... سريعاً ما تتحول إلى وجد وبكاء وذكرى، وأناشيد تصدح في الصحراء، على ألسنة الحداة... لم يزل صداها يرن في أعماقنا إلى اليوم.

- **في رحاب الإسلام**

تصوروه بعد هذه الشكوك التي ألمت به، وبعد هذه الاضطرابات التي عصفت بشخصه، وقد رأى أمامه فجأة كل ما يريد.. وكل ما يشبع ميوله ونزعاته إلى الحرية والجهاد والسمو.. إن المفاجأة لاشك قد أخذته ولم يستطع أن يصدق كل ما يرى، فهب لمقاومته، ثم وقف على شاطئه حذراً، ثم اقترب رويداً رويداً، حتى إذا اطمأن إليه وأنس له، عب منه بامتلاء، فأصبح الحياة التي تعاش، والرسالة التي تخدم، والمصير الذي يريد.

لقد كان العربي فارغاً. فإذا بالإسلام يملؤه، ويفيض من جوانبه، وإذا به يمنحه شخصية جديدة كل الجدة، كانت شخصيته القديمة أساساً لها، ويظل ثلاثاً وعشرين سنة، مدة البعثة، في كفاح مرير وعلم مستزيد وتطور مستمر، حتى ينتهي ذات لحظة إلى ما يشبه الكمال، وهو الذي تاقت نفسه للكمال المطلق، بعد أن امتلأ هذا الامتلاء الثري بالإسلام.

إن أي شخص في العالمين وجد على الأرض ما استطاعت فلسفة أو عقيدة أو دين أن يعطيه عشر ما استطاع الإسلام أن يعطيه للعربي[(١)].

● **من الضعف إلى القوة**

لما بعث الله سبحانه محمداً صلى الله عليه وآله وسلم وأشرقت على هذا الإنسان العربي شمس الإسلام، انقلب شركه إلى إيمان، وانحلاله إلى قوة، وذله إلى عزة، فسارع إلى تحرير بلاده من اليهودية في الحجاز، ثم من الفرس والرومان في سورية والعراق.

في طريق المجد.

وتقدم بعد ذلك شرقاً وغرباً حتى فتح الهند والصين، وأسبانيا وقسماً كبيراً من فرنساً. كل ذلك بسرعة عجيبة أدهشت علماء الغرب فراحوا يطلقون على هذه الحادثة التاريخية اسم «المعجزة العربية».

لم تقتصر مهمة الإنسان العربي على هذا الفتح المبين بل أنشأ دولة عربية امتدت حدودها من المحيط الكبير شرقاً، إلى المحيط الأطلسي غرباً، وبلاد القفقاس شمالاً إلى إندونيسيا جنوباً، وقد قامت هذه الدولة بأعظم نصيب في إشادة الحضارة، بما قدمته من العلوم الرياضية والطبيعية والكيميائية والفلكية والجغرافية، على أيدي علماء، ما زالت تدرس نظرياتهم وكتبهم في الجامعات العلمية إلى عصور متأخرة، وكانوا من أعظم أسباب يقظة الغرب والجيد من مدينته الحاضرة، كما شهد بذلك كثير من علماء الغرب أنفسهم.

---

(١) مأساة العربي المسلم ص (٤٣- ٤٤).

● **والفضل ما شهدت به الأعداء**

قال يربفولت في كتابه «تيار الإنسانية»:

«لقد كان العلم أهم ما جاءت به الحضارة الإسلامية على العالم الحديث.. إن ما يدين به علمنا لعلم المسلمين ليس فيما قدموه إلينا من كشوف مدهشة لنظريات مبتكرة، بل يدين هذا العلم إلى الثقافة الإسلامية بأكثر من هذا: إنه يدين لها بوجود نفسه».

ثم ضرب الأمثلة الكثيرة على فضل العرب والمسلمين ولم يقتصر علماء الغرب المنصفون على الإشادة بفضل الإنسان العربي على المدنية، بل راحوا يألمون لانتصار شارل مارتل على عبد الرحمن الغافقي في معركة بواتيه في فرنسا.

يقول كلودفارير في المقدمة التي كتبها للترجمة الفرنسية من رواية العباسة أخت الرشيد تأليف جورجي زيدان: «أصيبت الإنسانية والعالم الغربي عام **٧٣٢** بكارثة عظمى لم تصب بمثلها في القرون الوسطى، وبقي أثرها ظاهراً في العالم مدة سبعة قرون أو ثمانية قرون، إن لم يكن أكثر من ذلك لأن روح التجدد كانت يومئذ قد بدت للعيان، حتى وقعت تلك الكارثة، فكان من نتائجها تأخر سير الحضارة، ورجوع العالم إلى الوراء، هذه الكارثة هي الانتصار المؤلم الذي أحرزه وحوش «الكاركا» من جيوش الإفرنج، التي كان يقودها «شارل مارتل» سليل الكارلنجيين، محارباً بها كتائب العرب التي لم يحسن عبد الرحمن جمعها وحشدها بالمقدار الكافي، فكان ذلك سبب خذلانها وتقهقرها.

(في ذلك اليوم المظلم تقهقرت الحضارة إلى الوراء ثمانية قرون).

● **ظهور الإسلام خاتمة العصور القديمة**

لم يقتصر الغربيون على الإشادة بفضل الإسلام على المدنية، بل راح الأستاذ «بيرون» يعلن في المؤتمر الدولي للعلوم التأريخية الذي عقد بمدينة «أوسلو» عاصمة النرويج في ١٤ آب **١٩٢٩** دعوته التي أعلنها في المؤتمر الخامس الدولي، إلى اعتبار ظهور الإسلام هو خاتمة العصور القديمة، وبداية إيقاظ

الإنسانية في أول عصورها المتوسطة حيث بدأت أوروبا الغربية تكون مدنية جديدة وحياة جديدة، يجب معها اعتبار هذا الحادث العظيم هو بداية الوسيط[١].

● مبادئ قوية

وقد كان الإنسان العربي في ظلال الإسلام إيجابياً يؤمن بالقدر كقوة للاندفاع والنضال والعمل، فلا يخشى أحداً إلا الله، ويثور على التواكل وينكر الجبر، ويعتقد أنه مسؤول وحر، كما يعتقد أن الله سخر له ما في السماوات والأرض إذا هو قام بدوره بحق.

أصغى هذا الإنسان إلى النداء الإلهي، ومثل دوره في ميدان الجهاد والحضارة أعظم تمثيل، فدخل التاريخ بدور بطولي وقيادي وتبوأ سدرة المجد، والفخار والسؤدد.

● صورة الإنسان العربي المسلم

وقد أحببت بمناسبة الكلام على الإنسان العربي المسلم أن أنقل صورة رائعة من ألوف صوره التي تمثل مبلغ قوة شخصيته وشجاعته، واحتقاره للمظاهر الجوفاء، ومبلغ فهمه لمبادئ الإسلام.

أرسل سعد بن أبي وقاص قبل معركة القادسية «ربعي بن عامر» رسولاً إلى رستم قائد الجيوش الفارسية وأميرهم، فدخل عليه، وقد زينوا مجلسه بالنمارق والزرابي الحريرية، وأظهروا اليواقيت واللآلئ الثمينة العظيمة، وكان على رستم تاجه وغير ذلك من الأمتعة الثمينة، ليدهش الرسول وينقل أخبار عظمته إلى المسلمين ليهابوه.

ودخل ربعي بثياب صفيقة وترس وفرس قصيرة، ولم يزل راكبها حتى داس

---

(١) ومما يؤسف له أن جميع مؤرخينا ومؤلفينا بحكم فقدان الشخصية العربية وبحكم التقليد الأعمى للمؤرخين الغربيين المتعصبين لا يزالون يعتبرون انقسام الدولة الرومانية إلى شرقية وغربية يتطرقون إلى ظهور الإسلام كأعظم حادثة تافهة ولا يتطرقون إلى ظهور الإسلام كأعظم حادثة تاريخية في العالم كما ينادي المؤرخ الغربي نفسه! فيا لقلة الوعي وضعف الشخصية!! «الوعي الإسلامي».

بها على طرف البساط، ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد، وأقبل وعليه سلاحه ودرعه، وبيضته فوق رأسه.

فقالوا له: ضع سلاحك.

فقال: إني لم آتكم، وإنما جئتكم حين دعوتموني، فإن تركتموني هكذا وإلا رجعت.

فقال رستم: ائذنوا له.

فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق، فخرق عامتها.

فقال له رستم: ما جاء بكم؟

فقال ربعي: الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده.. ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام».

ثم خرج ربعي وقد ملأ قلب قائد الفرس وجنده هلعاً ورعباً، بقوته المعنوية التي غرسها فيه الإسلام.

راحت العصور تمر، ونجم الإنسان العربي يتألق، وجيوشه تهزم الأعداء في كل المعارك، وأساطيله تشق عباب البحر، وتستولي على الممالك، ومدنيته تعم الخافقين.

● **مؤامرات الشعوبية**

وعلى حين غفلة، استيقظت الشعوبية الغادرة اللئيمة، وقد ساءها مجد هذا الإنسان العربي الذي ملأ الدنيا، وشغل الناس، وقضى على ملكها وجبروتها، فأكل الحسد والحقد قلبها فراحت تنسج الخطط، وتدبر المؤامرات، وتحيك الدسائس على توالي السنين، لم تمل، ولم تهدأ، فعمدت إلى مصدر هذا المجد، فعكرت نبع الإسلام الصافي، وأثارت الفتن، وحولت تياره القوي نحو الداخل، بعدما قهر إمبراطوريتين من أعظم إمبراطوريات التاريخ.

● **تخدير المارد**

ولم تكتف هذه الشعوبية بكل ذلك، بل أخذت تسعى لتخدير المارد العربي بسموم الأوهام والبدع والخرافات وغيرها من المبادئ الوثنية المميتة، وزهدته

بالعلم والجهاد، ورغبته بالخلوات المظلمة، والتشرد بالبراري والقفار، وأنشأت له الزوايا والتكايا بدلاً من حلقات المعرفة والدراسة، ليخلد إلى الكسل والبطالة والفسق، وزينت له عقيدة الجبر والخضوع ليستسلم للأحداث، وصرفته عن عبادة الله وحده مصدر قوته وعظمته، إلى عبادة الأنبياء والأولياء، فراح هذا الإنسان العربي يرتمي على عتباتهم، ويتمسح بتراثهم، ويقدم لهم النذور والقرابين مستعيناً بهم في الملمات، وفي قضاء الحوائج، وقلبه يرتجف خوفاً وجزعاً منهم.

هذا في ميدان العقيدة، أما في ميدان العبادات، فقد زينت هذه الشعوبية لهذا الإنسان العربي التعصب المذهبي والتقليد الأعمى، مما قضى على البقية الباقية من تفكيره وشخصيته، فاتخذ شيوخه وأئمته أرباباً من دون الله، يحللون له ويحرمون، فبعد عن الإسلام وعن الله، وهو يحسب أنه لا يزال يعبده.

وكان من نتيجة بعده عن كتاب ربه وسنة نبيه، انقسامه على فرق وشيع يقاتل بعضها بعضاً، وهذا جزاء من يترك النور الهادي والصراط المستقيم ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ (طه: ١٢٣ - ١٢٤).

● **حملات الصليبين والتتار**

وبعد تخدير الشعوبية للإنسان العربي، عمدت إلى تأليب الصليبية والتتار عليه وعلى بلاده، فجاسوا خلال الديار وأعملوا القتل والذبح في صفوفه، وهدموا مدنيته وألقوا تراثه الفكري والعلمي في اليم.

فاستفاق إنساننا العربي على هذه الضربات الشديدة يستحث الخطا ويثير العزائم، فاستطاع طرد هذه الزحوف الأجنبية حقبة من الزمن، ولكنه ما لبث أن عاد إلى غفوته بتأثير أفيون الشعوبية، فعاش بعيداً عن مثله العليا الإسلامية، زاهداً في الحياة مستسلماً للأحداث، غارقاً في الأوهام، يوجه- حتى في المساجد وفي دروس الوعظ والإرشاد- توجيهاً بليداً ومخدراً، وما زال على هذه الحال حتى فاجأه الغرب في العصور الحديثة بقواه المادية، فتقهقر أمام حملات

المستعمرين ودسائس المستشرقين الذين زينوا له الإلحاد وحببوا إليه الإباحية، ورغبوه بترك تراثه وتقليد الغرب في تقاليده، فسقط صريعاً وانطمرت شخصيته تحت ركام المؤامرات، وخدعوه وأوهموه أن إسلامه هو الذي كان سبب نومه وانحطاطه، كل ذلك ليزهدوه بهذا الدين العظيم الذي حول في القديم طاقاته وخاماته إلى قوى جبارة قيادية، فتحت الدنيا، ومدنت العالم.

● على مفترق الطرق

إن الإنسان العربي اليوم على مفترق الطرق. فإما أن يختار طريق المستعمرين والمستشرقين، فيصغي إلى دسائسهم عن الإسلام، فيضيع شخصيته، ويدفن تراثه؛ ويفقد ذاته، ويضيع في متاهات الغرب، كما يضيع الجدول في رمال الصحراء، بل يشقى إلى الأبد كما يشقى الغرب نفسه اليوم بسبب أنظمته الوضعية التي تقوده إلى الهلاك وإلى انهيار الحضارة كما تنبأ بذلك كثير من فلاسفته.

وقد جرب هذا الإنسان العربي بذاته هذا الطريق، فغدا ألعوبة بين هذا وذاك، وفقد كثيراً من أجزاء بلاده، وغدا مهدداً بضياع الأجزاء الأخرى.

وإما أن يستيقظ، ويفهم إسلامه فهما جديداً، كما فهمه أسلافه المجاهدون، ويعمل حسب منهاجه، ولا يرضى بديلاً من التشريعات والأنظمة الوضعية مهما قويت الدعاية لها، وينطلق من قيوده، غير مصغ لدسائس الشعوبيين والمستعمرين والمستشرقين.

وبذلك يعيد سيرته الأولى كقوة مستقلة، ومعسكر لا شرقي ولا غربي، فيقود قافلة الإنسانية كما قادها من قبل، وينقذ الحضارة من السقوط والانهيار.



التعليم الجامعي

العدد (٣٤) شوال (١٣٨٧هـ) - يناير (١٩٦٨).

في رسالة من الكاتب الكبير والمؤلف الإسلامي المعروف الأستاذ محمود مهدي استانبولي وجهها إلى السادة مديري الجامعات العربية وأساتذتها من أجل تجديد الإرادات وشحذ الهمم والسير في دروب الإصلاح الصحيح لإنشاء جيل جديد يتحمل التبعات وإعادة المجد الضائع. وقد صدر هذه الرسالة بقوله: إن التعليم الجامعي في الحالة الراهنة لا يستطيع أن يقوم بهذا الدور القيادي والعمل المصيري. ما لم نحدث انقلاباً جذرياً في مناهج الجامعة وأساليبها وامتحاناتها. وما لم نعد إلى ذاكرتنا أهداف هذا التعليم بصورة واضحة.

وتناولت الرسالة بشيء من التفصيل أهداف التعليم الجامعي الذي ينشد إعداد صفوة من الشباب الطموح الوثاب لقيادة أمتهم في الميادين المادية والروحية وهذا لا يتم إلا بتعليم يقوي في الطلبة الشعور بالتبعية، ويدفعهم إلى الحرية في البحث والاستقلال في الرأي. يتعرفون على مشكلات أمتهم ووطنهم، ويساهمون في وضع الحلول لها بإبداع ودراسة وتخطيط. . كل ذلك بموضوعية وشمول خاليين عن التعصب والهوى، وبروح جامعية بعيدة عن السطحية والغرور.

وتطالب الرسالة بأن تعمل الجامعات على تشجيع البحث العلمي والعمل على تقدم المعارف الإنسانية والكشوف العلمية. وتصنيع التعليم في مختلف درجاته وخاصة التعليم الجامعي، كما تركز الرسالة على ضرورة السمو بالقيم

الروحية لدى الطالب الجامعي.

ويستثير الواقعُ المؤلمُ الذي تعيش فيه الأمة العربية صاحبَ الرسالة، فيقول في خاتمتها: آمل أن توقظ هذه النكسة النائم. وتنبه الوسنان، وتشحذ الهمم شأن الأمم الحية التي تحيي النكسات نفوسها. وتثير عزائمها. وقد قال أحد الكتاب: لا شيء يجعلنا عظماء كالألم.

لنذكر الأعداء والأحزاب من يهود وكفرة الذين أحاطوا بالعروبة المسلمة من الداخل والخارج في غزوة الخندق فاستعدت وصبرت حتى تم لها النصر..

لنذكر هذه العروبة في غزوة أحد يوم انقض عليها الأعداء من أعلاها وأسفل منها، فأصيبت بنكسة رهيبة، فجمعت شملها، وشحذت إراداتها، وجددت عزيمتها فعاد لها النصر.

لنذكر الوقفة البطولية للإمام ابن تيمية يوم أنقذ الشام من غزوة التتار بإيقاظه للنفوس اليائسة حتى تحقق النصر.

لنذكر في العصر الحديث ما أصاب فرنسا في أول الحرب العالمية الثانية.

وما أصاب ألمانيا واليابان في نهايتها من نكسات قاصمة حتى ظن الكثيرون أنه لن تقوم لهذه الدول قائمة ولكن سرعان ما غالبت الصعاب، وصارعت النكبات، وسخرت بالمصائب، وقدمت التضحيات حتى أعادت قوتها، واسترجعت مكانتها بين الدول الكبرى.

إن حياتنا في سباق بين العلم والجهل.. بين الجهل والعلم.. بين التخطيط والتخليط.. بين المنهج والغرض.. بين المجد والدمار.

نرى أن يكون لنا تربية قوية وتعليم صحيح، يجعلاننا نسخر من النكبة، ونضحك للنكبة، ونبعث أمتنا من جديد.



الشخصية الإسلامية في معركة إثبات الذات

العدد (٤٢) جمادى الثانية (١٣٨٨هـ) - اغسطس (١٩٦٨م).

لقد حرص الإسلام- هذا الدين الواعي- حرصاً عظيماً على توطيد دعائم الشخصية الإسلامية لتبقى متميزة عن غيرها بمعالمها الواضحة كالشمس بين الكواكب. صوناً لبقاء الأمة الإسلامية وحمايتها من الانحلال، فإنه ليس أسرع لضياع الأمة -أية أمة- من فقدان شخصيتها وذوبانها في تقاليد أمة أخرى وعاداتها.

لذا نجد المستعمرين يسارعون- أول ما يسارعون- إلى فرض عاداتهم وتقاليدهم وثقافتهم على الشعوب المستعمرة بمختلف الأساليب والوسائل، من أجل ضياعها وتلاشيها، وذهاب ريحها، ومن ثم اعتناق دين هؤلاء المستعمرين والميل إليهم لتعيش هذه الشعوب على مائدتهم، وتصبح خدماً لهم، كما حدث لزنوج أمريكا الذين يحبون اليوم عيشة الذل والاسترقاق، على الرغم من تشبههم بالغربيين، وتقليدهم لهم في كل شيء.

إن الغربيين ينظرون إلى غيرهم- ولو اعتنقوا دينهم- على أنهم برابرة وفقاً للمبدأ الروماني الذي قسم العالم قسمين: (غربيين وبرابرة).

وينبغي أن يتأكد المسلمون أن الغربيين لا يزالون يحملون نفوس الرومان وشراستهم وهمجيتهم، وإن تقدموا، وتقدمت بهم العصور، إنما يتميزون عليهم بأنهم يحاربون بالقذائف والصواريخ، بدلاً من الرماح والحراب، فهم لذلك أكثر إجراماً، وأشد فتكاً من جدودهم الأقدمين، وقد رأينا جرائمهم في سورية وفلسطين والجزائر وعمان وليبيا وغيرها من البلدان الإسلامية.

وعلى الرغم من بغض الغربيين للمسلمين كشرقيين، فهم يرغبون في تنصيرهم - والعياذ بالله- من أجل تحطيم معاقل الدفاع في نفوسهم، لما يعلمون من قوة

الإسلام في نفوس أتباعه، وقد أدركوا ذلك في فتوحات المسلمين لبلاد الشام وفارس، وقضائهم على إمبراطوريتين من أعظم إمبراطوريات العالم القديم، وجربوه في حروبهم الاستعمارية في شمال إفريقية، وفي الشرق الأوسط، لذلك فهم يرغبون في تخلي المسلمين عن دينهم، وقد خصصوا من أجل ذلك جميع وسائل الإعلام، من كتب ومجلات وإذاعات وأفلام، وحشدوا جميع قواهم المادية والمعنوية من أجل تحقيق ذلك في أضخم غزو ثقافي وعسكري عرفه العالم.

لقد أعلن الإسلام حرباً لا هوادة فيها على تقليد المسلمين لغيرهم وأعلن أن «من تشبه بقوم فهو منهم» وفي هذا من التهديد ما فيه، وقد كان حرص هذا الدين العظيم على تمييز الشخصية المسلمة على غيرها من أول يوم مدعاة دهشة أعدائه حتى راح اليهود يقولون في عصر النبي ﷺ: «ما يريد محمد أن يدع من أمرنا شيئاً إلا خالفنا فيه».

ومما يؤسف له، ويبعث في النفس الأسى والألم أن نجد المسلمين اليوم - أغلب المسلمين- على الرغم من جميع التوجيهات الإسلامية في التحذير من التشبه بغيرهم قد عم بينهم داء التشبه بهم في جميع مرافق حياتهم، حتى بات من المتعذر التمييز بينهم وبين الأجانب في عاداتهم وتقاليدهم، وغدوا تبعاً للغرب في كل ما يأتي به، حتى ولو كان فيه ضياع الأخلاق وانحلال الذات ومحاربة اقتصاديات الوطن الإسلامي.. وهم لا يعبأون بكل ذلك، ظانين أن هذا الأمر بسيط لا خطر فيه ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ (النور: ١٥).

وأسوق فيما يلي بعض الآيات والأحاديث في النهي عن التشبه بالكفرة والتحذير من تقاليدهم.

● جاء في القرآن العظيم

* ﴿فَٱسْتَقِيمَا﴾ - الخطاب لموسى وهارون - ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (يونس: ٨٩).

* وقال موسى لأخيه هارون: ﴿ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ (الأعراف: ١٤٢).

* ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ﴾ (النساء: ١١٥).

* ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ - أي أهواء الكفار- ﴿وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ﴾ (المائدة: ٤٩).

* ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ١٢٠﴾ (البقرة: ١٢٠).

* ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨﴾ (الجاثية: ١٨).

أما الأحاديث فهي قول الرسول ﷺ:

* «لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه». قالوا يا رسول الله كما صنعت فارس والروم وأهل الكتاب؟ قال: فهل الناس إلا هم؟

* «خالفوا اليهود فإنهم لا يصلون في نعالهم ولا في خفافهم».

* «إياكم ولبوس الرهبان، فإنه من تزيا بزيهم أو تشبه فليس مني».

* «. . . ومن تشبه بقوم فهو منهم».

ومما ينبغي التنبه إليه بهذه المناسبة أن التهافت على تقاليد الغربيين أو التشبه بهم في عاداتهم وتقاليدهم وطقوسهم قد بلغ أشده في زماننا ظناً منا بأن ذلك يلحقنا بركابهم ويجعلنا مثلهم ويجلب لنا احترامهم وهذا ظن خاطئ[1]، فإن تقليدهم والتشبه بهم في هذه العادات والتقاليد لا يزيدهم إلا احتقاراً لنا، بسبب

(١) قال الدكتور طه حسين في كتابه مستقبل الثقافة في مصر (ج١ص٤٥) لا . . لكن السبيل إلى ذلك ليست في الكلام يرسل إرسالاً، ولا في المظاهر الكاذبة والأوضاع الملفقة، وإنما هي واضحة بينة مستقيمة ليس فيها عوج ولا التواء- وهي واحدة فذة ليس لها تعدد وهي: أن نسير سير الأوربيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أنداداً ولنكون لهم شركاء في الحضارة خيرها وشرها (كذا) حلوها ومرها، وما يحب منها ويكره، وما يحمد منها وما يعاب، ومن زعم لنا غير ذلك فهو خادع أو مخادع!!

فقدان شخصيتنا وتلاشيها أمامهم، شأننا شأن القردة التي تضحك منها الناس نتيجة تقليدها لهم!

وكذلك هذا التقليد، وهذا التشبه لا يجعلاننا أقوياء أيضاً، لأن القوة بالعلم الصحيح، والاستعداد المادي العظيم والصناعة المهنية والعسكرية، وكل ذلك تراث إنساني مشترك من واجبنا اقتباسه وإلا كنا متأخرين وضعفاء في الدنيا وآثمين عند الله يوم القيامة.

ولنعلم أن الغربيين لا يحترمون ولا يهابون إلا القوي بصرف النظر عن عاداته وتقاليده.

ومما يؤسف له أن هذه الحضارة الغربية المادية التي بهرت أنظار الكثيرين وخدعت عقولهم، حتى راحوا يطالبوننا في الارتماء بين أحضانها، والأخذ بخيرها وشرها تحمل في طياتها جراثيم الانهيار والسقوط كما تنبأ لها علماء الغرب أنفسهم بسبب انهماكها باللذات وانصرافها إلى المادة، وتخليها عن القضايا الدينية والقيم الروحية.

ولنستمع الآن إلى شهادات الفلاسفة والمؤرخين المعاصرين في هذه الحضارة التي زهدت الكثيرين من المسلمين المغفلين في إسلامهم نتيجة مختلف أنواع الدعاية والإعلام حتى ظنوها المثل الأعلى الذي ليس بعده مطمع لطامع.

● **جاء في كتاب «فلسفة الحضارة»**

«الخاصة المروعة في حضارتنا هي أن تقدمها المادي أكبر بكثير من تقدمها الروحي، لقد اختل توازنها، فالاكتشافات التي جعلت قوى الطبيعة تحت تصرفنا على نحو لم يسبق له مثيل، قد أحدثت ثورة في العلاقات بين الأفراد بعضهم مع بعض، وبين الجماعات، وكذلك بين الدول، فأثرت معارفنا، وازدادت قواتنا إلى حد لم يكن في وسع أحد أن يتخيله، وبهذا أصبحت أحوال الناس المعيشية أفضل من عدة نواح، لكن حماستنا للتقدم والمعرفة وأسباب القوة التي بلغناها، تصور الحضارة تصوراً ناقصاً معيباً، فإننا نغالي في تقدير إنجازاتنا المادية ولا نقدر أهمية العنصر الروحي في الحياة حق قدره.

ولكن الحقائق بدأت تدعونا إلى التفكير، إنها تقول بلسان حاد: إن الحضارة التي تنمو فيها النواحي المادية، دون أن يواكب ذلك نمو متكافئ في ميدان الروح، هي أشبه ما تكون بسفينة اختلت قيادتها، ومضت بسرعة متزايدة نحو الكارثة التي ستقضى عليها».

وقال «أرنولد تونبي» المؤرخ الحضاري المعاصر في كتابيه: «الحضارة والغرب» و«الحضارة في محنة».

«إن الحضارة الغربية تمر الآن في طور من التدهور والانحلال الذي مرت به الإمبراطورية الرومانية من قبل، من أجل ذلك كانت فنون الصناعة والاقتصاد وغيرهما من المعارف علوماً غير كافية لتوفير أسباب الاستقرار والسعادة للمجتمع الإنساني، وكانت الروابط الروحية والخلقية والفكرية هي العمد التي يقوم عليها صرح المجتمع ويتماسك بها بناؤه».

وقد عبر العالم النفساني «قلدوكال» عن ضلال الحضارة الحديثة وخلوها من الهدف بقوله: «إن سيرنا أشبه بسير طائرة تقطع محيطاً عظيماً بسرعة فائقة، ومع أن ملاحيها لا يعلمون أين هم؟ ولا إلى أين يتجهون، فإنهم يستمرون في السير، جادين في استخدام آلاتهم، ومؤملين أن ذلك سوف يؤدي بكيفية ما إلى نتيجة ما»[1]. وهيهات هيهات فإن السقوط محتم.

ومع هذه الحقائق نرى أكثر زعماء العالم الإسلامي وقادته، لا يزالون يبذلون الجهود الجبارة والأموال الطائلة بقصد السير في طريق الغرب مما كان له أعظم الأثر في انحطاط المسلمين وشقائهم.

وكان الجدير بهؤلاء القادة والزعماء للعالم الإسلامي، وهم حملة أعظم تراث إسلامي وذخر حضاري، ونظام سماوي أن يقودوا قافلة البشرية الضالة نحو المدنية الصحيحة بدل أن يكونوا مقلدين لغيرهم من السائرين في طريق الضلال والهلاك.

وما أروع ما قاله المستشرق لويس ماسينيون:

---

(١) نقلاً عن كتاب «اتجاهات في التربية الحديثة» للأستاذ محمد فؤاد جلال (ص٢٦).

«ومن حق العرب علينا نحو ضيوفهم، والوافدين عليهم من مثلي أنا والأستاذ فانتاجو، أن نرفع الصوت عالياً طالبين إليهم المقاومة، أن يقاتلوا هذه الدعاية المذلة التي تقترح عليهم التنازل عن شرفهم وتراثهم، والاستسلام أمام القوة الغربية ورؤوس الأموال المصرفية التي تطلب إليهم الانسجام في طريقة تفكيرهم وعملهم مع هذه الحضارة الكاذبة، حضارة الإنسان الآلي التي لم تعد تؤمن بنفسها أو بالذات الإلهية، وتصبو إلى إخضاع العالم إلى نظامية ثقافية أمريكية بلهاء. إن هذا الإنتاج الصناعي المغشوش سيسقط سريعاً وشيكاً. ليصمد العرب فالعالم بحاجة إليهم»(١).

ويطيب لي بعد هذا أن أضع أمام القارئ بعض الحقائق التي يقررها هذا الرجل الذي أسلم وفقه الإسلام مع فقهه بالحياة.

يقول الأستاذ محمد أسد(٢):

إن السطحيين من الناس فقط ليستطيعون أن يعتقدوا أنه من الممكن تقليد مدنية ما في مظاهرها الخارجية من غير أن يتأثروا في الوقت نفسه بروحها، إن المدنية ليست شكلاً أجوف فقط، ولكنها نشاط حي، وفي اللحظة التي نبدأ فيها بتقبل شكلها، تأخذ مجاريها الأساسية ومؤثراتها الفعالة تعمل فينا، ثم تخلع على اتجاهنا العقلي كله شكلاً معيناً، ولكن ببطء، ومن غير أن نلحظ ذلك.

ولقد قدر الرسول ﷺ هذا الاختيار حق قدره حينما قال: «من تشبه بقوم فهو منهم». وهذا الحديث المشهور ليس إيماءة أدبية فحسب، بل هو تعبير إيجابي يدل على أن لا مفر من أن يصطبغ المسلمون بالمدنية التي يقلدونها...

إن الميل إلى تقليد التمدين الأجنبي نتيجة الشعور بالنقص- هذا، ولا شيء سواه، ما يصاب به المسلمون الذين يقلدون المدنية الغربية.

وكيما يستطيع المسلم إحياء الإسلام يجب أن يعيش عالي الرأس، يجب عليه أن يتحقق أنه متميز، وأنه مختلف عن سائر الناس، وأن يكون عظيم الفخر لأنه

---

(١) نقلاً عن كتاب «المعجزة العربية» لماكس فانتاجو (ص٥).

(٢) في كتابه «الإسلام على مفترق الطرق» ص (٨١-٨٦).

كذلك، ويجب عليه أن يكد ليحتفظ بهذا الفارق على أنه صفة غالية، وأن يعلن هذا الفارق على الناس بشجاعة بدلاً من أن يعتذر عنه بينما هو يحاول أن يذوب في مناطق ثقافية أخرى. على أن هذا لا يعني أن المسلمين يجب أن يصموا آذانهم عن كل صوت يأتي من الخارج، فإن أحدنا يستطيع أن يتقبل مؤثرات إيجابية جديدة من مدنية أجنبية ما، من غير أن يهدم مدنيته ضرورة، والنهضة الأوروبية أحسن مثل في هذا الباب، فقد رأينا كيف أن أوروبا تقبلت المؤثرات العربية فيما يتعلق بالعلم وأساليبه عن طيب خاطر، ولكنها لم تقبل المظهر الخارجي ولا روح الثقافة العربية قط.. الخ.

ثم يقول: وفي هذا العالم المملوء بالآراء الجديدة المتصادمة والتيارات الثقافية المتعارضة لا يستطيع الإسلام أن يظل شكلاً أجوف. لقد انقضى نومه السحري الذي دام أجيالاً، فيجب أن ينهض أو يموت. إن المشكلة التي تواجه المسلمين اليوم هي مشكلة مسافر وصل إلى مفترق الطرق، إنه يستطيع أن يظل واقفاً مكانه، ولكن معنى هذا أنه سيموت جوعاً، وهو يستطيع أن يختار الطريق التي تحمل فوقها هذا العنوان: «نحو المدنية الغربية» ولكنه حينئذ يجب أن يودع ماضيه إلى الأبد، أو أنه يستطيع أن يختار الطريق التي كتب عليها «إلى حقيقة الإسلام» إن هذه الطريق وحدها هي التي تستميل أولئك الذين يعتقدون بماضيهم، وباستطاعتهم التطور نحو مستقبل حي.

أجل ينبغي أن يختار المسلمون من جديد الطريق التي كتب عليها «إلى حقيقة الإسلام». فليس طريق سواها تضمن لهم عزتهم ومجدهم، وقد جربوه في الماضي، فوحد كلمتهم وجعلهم سادة الدنيا وأساتذة العالم، وجربوا غيره فضلوا وشقوا وباءوا بالخزي والعار.

* * *

في رحاب الأماكن المقدسة

العدد (٦٠) ذو الحجة (١٣٨٩هـ) - فبراير (١٩٧٠م).

تحدث الكثير من الكتاب والأدباء عن عظمة الجيل المثالي الذي أنشأه سيدنا محمد رسول الله ﷺ لأول مرة في تاريخ الإنسانية، فكان مثار الإعجاب والدهشة بعبقريته وبطولته وحسن سيرته، حتى من الغربيين أنفسهم، فراحوا يطلقون على هذا الانقلاب الفكري التربوي اسم «المعجزة العربية».

وقد كان إعداد هذا الجيل حلم الفلاسفة من أيام أفلاطون «٤٣٠ - ٣٤٨) ق.م في كتابه «الجمهورية»، والفارابي (٢٦٠- ٣٣٩)هـ في كتاب «المدينة الفاضلة» إلى عصر توماس مور (١٤٧٨- ١٥٣٥) في كتابه «يوثوبيا».

ولم يكن فضل رسولنا العظيم ليقتصر على سبق هؤلاء الفلاسفة في تحقيق هذا الحلم فحسب، بل إنه رسم المخططات والمناهج التربوية الرائعة، بوحي من ربه سبحانه، حتى جعل من أمته: ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ ففتحت الدنيا ومدنت العالم، وأنقذت الإنسانية من الظلمات إلى النور، بينما ضل هؤلاء الفلاسفة ضلالاً بعيداً في رسم هذه المخططات والمناهج، ولا يزال هذا الضلال إلى يومنا هذا، حيث يعاني الجيل- وخاصة في الغرب- أزمات رهيبة حتى بات يهدد الأمن والسلام بسبب ما يشعرون به من قلق وفراغ نتيجة حرمانه من الدين الصحيح.

وما أشد حاجة المسلمين، بل البشرية جمعاء، وخاصة في هذا العصر المضطرب الذي فشل فيه المربون فشلاً ذريعاً في ميادين التربية، إلى دراسة قواعد الإسلام وأساليبه في إعداد الجيل المثالي الذي لم يعرف له التاريخ مثيلاً في عظمته وسماحته وطموحه وحسن سيرته.. وأنا لا أذيع سراً إذا قلت: إنني

اكتشفت أنموذجاً لهذا الجيل المثالي يمثل دوره على مسرح الإنسانية مرة في كل عام في البقعة المباركة من الحجاز خلال موسم الحج .

هناك في موطن النور الذي أشرق منه الإسلام نجد الألوف المؤلفة والجماهير المحتشدة من الحجيج يعطوننا صورة مصغرة للجيل الإسلامي الذي رباه محمد صلى الله عليه وآله وسلم، لتكون حجة على الناس إلى يوم القيامة على عظمة الإسلام وسمو مبادئه.

فنشاهد المسلمين: أبيضهم وأسودهم وأحمرهم وأصفرهم يجتمعون على صعيد واحد، قد زالت بينهم الفوارق وانمحت الحدود، ووحد بينهم الإسلام، حتى كأنهم أعضاء أسرة واحدة، بل أعضاء جسم واحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.

فالتعاطف بينهم يبلغ أشده والمحبة أوجها، حتى لترى الدموع تنهمر عند اللقاء. فأين هذه الأخوة من التمييز العنصري الذي نرى فواجعه وويلاته في الغرب حتى في القرن العشرين؟!

وهذا السلام- وما أشد حاجة الإنسانية إليه- يعم تلك البقعة المقدسة، فلا رفث ولا فسوق ولا جدال. . حتى لنرى الطير يأمن الإنسان فيحلق فوق رأسه، وربما شاركه طعامه وشرابه!

والأمانة تصل إلى ذروتها، مما ليس له مثيل في جميع بقاع العالم، فنرى الحجاج يتركون أموالهم وأمتعتهم دون حراسة كأنهم في بيوتهم، وإذا عثر أحدهم على لقطة مهما كانت ثمينة فرح بإيصالها إلى صاحبها كما يفرح لو عادت إليه بعد ضياعها.

والبذل للفقراء يعيد سيرته الأولى يوم كان الغني يحمل صدقات أمواله من مكان إلى آخر باحثاً عن فقير يأخذها منه، ولا غرابة في ذلك، فالحاج قد ضرب أروع الأمثلة في التضحية بتركه ماله ووطنه وأهله وعمله إجابة لنداء ربه: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ﴾ (الحج: ٢٧ -٢٨).

ولو أن المسلمين أفادوا من فريضة الحج «منافع» سياسية واجتماعية واقتصادية وعسكرية. . . كما تشير الآية السابقة وتؤكد، لكان لهم شأن: أي شأن ولخشيهم الأعداء، وما تجاسروا على الاعتداء عليهم.

وفي الحج يعود المسلم إلى حياة البساطة، فيقنع بأقل العيش وأسهل الشراب وأبسط الفراش، وقد يفترش الأرض ويلتحف السماء متجنباً الكماليات، ويألف الخشونة، ويترك النعومة والرفاهية، وهي من أسوأ الأمور في سلوك المسلم، لما تؤدي إليه من رخاوة الجسم وترهله، ومن استسلام النفس للراحة والنفور من الجهاد! لذا كان من أهم وصايا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «إياك والتنعم! فإن عباد الله ليسوا بالمتنعمين».

حتى الموت، فإنه في الحج تعود إليه بساطته وفطرته التي رسمها له الإسلام، فيغسل الميت ويصلى عليه ويدفن في جو كله خشوع وتواضع، فلا أذان مبتدع، ولا نخيل[1] ولا آس، ولا قراءة قرآن على الميت، ولا على قبره. فإن كتاب الله جاء للأحياء لا للأموات!

إن المسلمين في الحج يقومون بدورة تدريبية، لاعتياد حياة الخشونة والقسوة، وترك التنعم، فيذكروننا بقوله عليه الصلاة والسلام، وقد أثر الحصير على جنبه، وطلب منه أن يلان له الفراش: «مالي وللدنيا! ما أنا والدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها».

وقد كان لهذه التربية القوية الفضل الكبير في الفتح المبين يوم قضى المسلمون على الرغم من قلتهم وقلة اعتدتهم، على إمبراطوريتي الروم والفرس.

وذكر التاريخ أن القائد سعد بن أبي وقاص أرسل قبل معركة القادسية: «ربعي

---

(١) صحيح أنه ورد عن الرسول ﷺ أنه وضع جريد النخيل على قبرين، ولكن ذلك كان خصوصية له بدليل قوله- كما في صحيح مسلم: «لعل بشفاعتي يخفف عنهما». ولم يفعل ذلك سوى مرة أو مرتين، كما لم يفعله أصحابه رضوان الله عليهم، فكم أضاع ويضيع المسلمون الأموال الكثيرة على مثل هذه البدع. والسنة في زيارة القبور تكون بالسلام على أصحابها والدعاء لهم مع استقبال القبلة، لا استقبال القبر في الدعاء!

بن عامر» رسولاً إلى رستم قائد الفرس وأميرهم، فدخل عليه، وقد زينوا مجلسه بالنمارق والزرابي الحريرية، وأظهر اليواقيت واللآلئ الثمينة، وعليه تاجه، وقد جلس على سرير من ذهب.

ودخل «ربعي» بثياب صفيقة وترس بسيط وفرس قصيرة، ولم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط، ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد، وأقبل وعليه سلاحه ودرعه، وبيضته على رأسه، فقالوا له: ضع سلاحك! فقال: إني لم آتكم، وإنما جئتكم حين دعوتموني، فإن تركتموني هكذا، وإلا رجعت! فقال رستم: ائذنوا له.

فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق، فخرق عامتها، ثم نزعها وجلس على الأرض، ولما سئل عن السبب قال: نهينا عن الجلوس على الحرير!!..

ولو رأيت الحاج في فصل الصيف، وقد سلطت عليه الشمس أشعتها في منطقة الحجاز الحارة، وهو يحمل أمتعته الثقيلة ويتصبب عرقاً، ويصعد السلالم ويسير المسافات، تنفيذاً لأوامر ربه.. لأعاد إلى ذاكرتك المسلم الأول، لما كان يقطع الفيافي والقفار مشياً على الأقدام، ليس له من العدة المادية سوى سيفه ورمحه. أما عدته المعنوية، فكانت في القمة: إيمان قوي بالله تعالى، وتضحية في سبيله، وحب للموت وشوق إلى جنة عرضها كعرض السماء والأرض.

وما ألفت أمة حياة النعومة والرفاهية إلا ذهبت قوتها حيث تصبح عرضة لهجوم الأعداء والاستسلام لهم.

وفي هذا العالم الذي أصبح فيه البشر - أكثر البشر - لصوص الأعراض وعبيد الشهوة، نرى الحاج يغض البصر، كأن النساء المسلمات أخواته وبناته، ونرى المرأة تغض البصر أيضاً، وتترك التبرج وترتدي لباس الحشمة، وتحمل الأثقال من أمتعة الحج، كأنها في ميدان الجهاد، فتذكرنا بالمرأة المسلمة الأولى يوم كانت عضواً عاملاً في بناء النهضة الإسلامية.

ويعطي موسم الحج إلى الحاج أسمى أنواع المراقبة لله تعالى، فهو يتذكر في رحلته البسيطة إلى الحج، رحلته الكبرى يوم يرحل فيها إلى ربه، ويؤكد عليها يوم

يمتطي سيارته أو باخرته أو طائرته بالدعاء المأثور: «سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون».

وهذه المراقبة وهذه التذكرة للرحلة إلى الله من أسمى العوامل في الكف عن المعاصي والاستزادة من الأعمال الصالحات وتكوين الجيل المثالي، لذا نرى الحاج أكثر الناس خشية ومراقبة.

ومما يزيد هذا الحجيج اندفاعاً نحو تحقيق الجيل المثالي - ولو خلال موسم الحج - أنه يعيش خلال قيامه بهذه الفريضة في أرض الذكريات والتضحيات والبطولات والعظمات.

وكفى بها دروساً وعبرا..

أما بعد، فإن الكعبة بمثابة القلب لدنيا الإسلام، يبعث في المسلمين دماً جديداً: نقياً وقوياً! فليت الحجاج يتعهدون أنفسهم بعد رجوعهم من الحج! ليزدادوا صلاحاً، فلا يجرفهم التيار العام المنحرف، فيكونون على الدوام نواة للجيل المثالي بعدما ملأوا قلوبهم في الحج كما تملأ المولدات الكهربائية لتضيء على الناس وتبدد الظلمات المخيمة على العالم.



نظرية الإعدام بين الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية

العدد (٩٢) شعبان (١٣٩٢هـ) - سبتمبر (١٩٧٢م).

تشغل قضية إعدام قاتل العمد علماء القانون والاجتماع، نظراً لخطورتها وقد انقسموا إلى فريقين متنازعين: فريق يقول بإعدامه، وفريق يقول بمنع هذا الإعدام.

وقد تركوا البشرية في حيرة واضطراب، لأنهم هم أنفسهم في حيرة واضطراب، لأن البشرية أعجز من أن يضعوا القوانين، وإنما يضعها خالقهم، كما وضع القوانين المادية الطبيعية. وسيبقى البشر في شقاء من مخالفة القوانين الإلهية كما هم يشقون إذا تركوا القوانين الطبيعية، فلا بد لهم من الخضوع لها حتى يتسنى لهم البقاء والرقي.

وقد أدلى كل من هذين الفريقين بحجج وأدلة نذكرها فيما يلي ثم نعقبها بحكم الشريعة الإسلامية في هذا الموضوع الخطير.

● **أنصار نظرية إلغاء الإعدام**

إن الذين يقولون بعدم الشرعية يحتجون بأن ليس من حق الهيئة الاجتماعية أن تزهق روح إنسان وهبه الله الحياة ولله وحده الحق أن يأخذها. واحتجوا أيضاً بأن عقوبة الإعدام هي عقوبة خطرة لأن الضرر الذي ينتج عنها غير ممكن تلافيه إذا ما نفذت في المحكوم عليه ثم بعد ذلك ثبت خطأ القاضي وظهرت براءته كما حدث فعلاً في كثير من القضايا، فمن يسترد عندئذ حياة البريء.

لاسيما وأن قناعة القضاة هي نسبية واختلاف الرأي بين قضاة الدرجات المختلفة شائع بكثرة. وقالوا أيضاً بأن هذه العقوبة جائرة ولا تتناسب مع الجريمة مهما كانت فظيعة. فضلاً عن أنها بشعة تشمئز منها النفوس. وقالوا كذلك بأنها لا فائدة جذرية لها لأن وجودها في التشريع لم يردع المجرمين عن ارتكاب

الجرائم، ويستدلون على ذلك بأن نسبة الجرائم المعاقب عليها بالإعدام لم تقل في البلاد التي لا تزال قوانينها تقر عقوبة الإعدام ولم تزد نسبة هذه الجرائم في البلاد التي ألغتها.

ويقول أصحاب هذه النظرية إن المجرم مريض ومن واجب المجتمع أن يداويه حتى يشفى تماماً لا أن ينتقم منه.

وقد عبر عن هذا الاتجاه صاحب هذه النظرية الدكتور «ball» في كتابه «فيزيولوجية الدماغ» وهو أستاذ في باريس في أوائل القرن التاسع عشر بقوله: «إن الميل السريع إلى السرقة ثمرة فعالية زائدة لعاطفة حب التملك القوية»

● **أنصار نظرية تنفيذ الإعدام**

أما القائلون بشرعية هذه العقوبة فيجيبون عن هذه الحجج بقولهم:

١- إن من حق الهيئة الاجتماعية فرض هذه العقوبة لأنه إذا كان المجتمع لم يعط حق الحياة فهو لم يعط حق الحرية لأحد، فكيف يجاز له سجن الناس ومنعهم من الحرية، فضلاً عن أن الإنسان له حق الحياة كما له حق الحرية. فالاعتراض إذن على شرعية الإعدام يفضي إلى الاعتراض على شرعية كل العقوبات التي تمنح الحرية مع الاعتراف بأن الحياة هي أثمن من الحرية.

٢- إذا كانت عقوبة الإعدام هي خطرة في حال خطأ القاضي فعقوبة الحبس في هذه الحالة هي جائرة أيضاً وتؤثر في صحة الفرد وفي حياته بصورة لا يمكن معها تلافي الضرر.

٣- إذا كانت عقوبة الإعدام لم تخفف من الإجرام لدى كبار المجرمين فهي ولاشك خففت كثيراً من عدد المجرمين وهؤلاء هم كثر.

٤- إن الاعتراض القائم على عدم تناسب هذه العقوبة مع الجريمة يصح أيضاً بشأن كل عقوبة لأن تحقيق التناسب التام بين العقوبة والجريمة أمر غير مستطاع فتقدير الإنسان للأمور نسبي دائماً.

٥- إن خوف المجرمين من عقوبة الإعدام هو رادع لهم وله أثره.

٦- إن بلاء العقوبات الطويلة المدة أخطر وأوقع من عقوبة الموت على قصر

عذابها. ومن الطرافة أن نذكر أن النظرية الأولى تمثل نظرية ما يسمى بالإنجيل والنظرية الثانية تمثل ما يسمى بالتوراة مما سنرى تفصيله.

وقد رأينا في كل من هاتين النظريتين السابقتين محاسن ومساوئ ذكرها أنصارهما وخصومهما فلا داعي لإعادتهما.

هذا- وإن النظرية القائلة بإلغاء الإعدام علاوة على مساوئها التي ذكرتها حين الكلام على النظرية الإسلامية فإنها خاطئة من نواح أخرى.

الأولى، أنها قد تؤدي إلى زيادة عدد الجرائم فإن نظام إصلاح المجرمين لا يرضي ذوي القتيل، فيثأرون له مما قد يؤدي إلى زيادة عدد الجرائم.

الثانية، أن هذه النظرية تميل إلى المدرسة الإيطالية القائلة بأن الجريمة هي نتاج طبيعي محض، وأنه ليس ثمة موضوع للتحدث عن حرية مزعومة ننسبها للمجرم، وقد دعا «لمبروزو» الذي يتزعم هذه المدرسة إلى دراسة السمات الخلقية «الجسمية» والنفسية المميزة للمجرمين[١].

وهذه النظرية جبرية رهيبة تدعو إلى عدم معاقبة المجرم بالكلية. قال «لمبروزو»: «المجرم ولد مجرماً». ولا يخفى ما في ذلك من خطر على المجتمع وتهديد لسلامة أفراده، وقد راح أنصار هذه المدرسة يطالبون بتكييف العقوبة مع الطبيعة النفسية «السيكولوجية» للمجرم وكل ذلك لتمييع القضية وإعفائه من العقوبة. وهي مخالفة لجميع الشرائع الإلهية والأنظمة الوضعية.

وقد جاء العالم الإنجليزي «كورنغ» فقام بدراسة حوالي ثلاثة آلاف سجين من نزلاء السجون بإنجلترا خلال ثمان سنوات متواليات وخلص من هذه الدراسة إلى أنه ليس ثمة طراز جسمي خاص يميز المجرم، بدليل أن النتائج الإحصائية للأقيسة التي أجريت على المجرمين أظهرت أن الفارق بين الأقيسة الجمجمية لدى كل من طلبة كمبردج أو أكسفورد لا يختلف عن الفارق الموجود بين المجرمين وغيرهم من سواد الناس[٢].

---

(١) راجع كتاب «الجريمة والمجتمع» للدكتور زكريا إبراهيم ص (١٥-١٦).
(٢) المصدر السابق ص (١٧-١٨).

ومهما كان من شأن هذه النظرية، فإن الإسلام لا يهمل الحالة النفسية للمجرم، فإن كان مصاباً بالجنون أو اضطراب الغدد الصماء وغيرها من الأمراض النفسية التي تفقد المجرم عقله وإرادته وشخصيته فإنه يعفى من العقوبة ولكنه يحجر عليه حتى يشفى كما يراعى التشريع الإسلامي في ظروف المجرم وملابسات جريمته، فلا يعاقب السارق إذا كان جائعاً مضطراً ولم تؤمن له الدولة سبيل العمل، أو أجاعه رب عمله، فيعاقب الإسلام المسبب في هذه الحال.

ولا شك أن هذه النظرية تقول بإلغاء الإعدام والاستعاضة عنه بسجون كالمستشفيات حتى يشفى فيما إذا كان مصاباً بالجنون أو غيره مما يفقد عقله وإرادته.

وإنني أبعثها صرخة مدوية: إن السجون قد أفسدت في العالم علاوة على ما سببته من إيجاد المجرمين المحترفين الذين يتعلمون دروس الجريمة من زملائهم في السجن. ومما يؤسف له أن أنصار السجون لم يفكروا مطلقاً بزوجة السجين وأولاده الذين سيشردون غالباً بسبب اعتقال وليهم.

حقاً إن قضية السجن قضية شائكة جداً، ربما كنت أول من أسميته «قصر الضيافة» يكلف الأمة النفقات الباهظة سواء في إطعام السجناء وسواء في حراستهم وسواء في إيوائهم.

ولا يخفى أن هناك كثيراً من النفوس التي تألف مثل هذه الحياة التي هي أشبه بخلوات الصوفية ينعم بها السجناء كما ينعم الصوفية، ولا شك أن السجون تمتاز على هذه الخلوات بكونها مشتركة ومضيئة ولا تسبب الجنون والانحراف.

والغريب من أمر السجن أنه إذا نظم ونفذت الإجراءات التحسينية أصبح مكاناً مرغوباً فيه وقصراً للضيافة حقاً مما يشجع المجرمين على ارتكاب الجرائم. وإذا أهمل كان مصدراً لانتشار الأوبئة والأمراض والمفاسد الخلقية بجميع أنواعها، وفي الحقيقة فإن السجون كثيراً ما كانت تزيد المجرمين صلابة، فلم يكونوا يخرجون من السجن إلا لكي يعاودوا ارتكاب جرائمهم، مدفوعين إلى ذلك برغبة حادة في الثأر من المجتمع، هذا إلى أن اختلاط صغار المجرمين

بغيرهم من المجرمين الخطرين كثيراً ما كان يجعل من «السجن نفسه» مدرسة لتلقي فنون الإجرام. فلم يكن المجرم الصغير يغادر السجن إلا وقد أصبح مجرماً محترفاً يجيد من أساليب الجريمة ما لم يكن له به عهد، قبل أن تطأ قدماه أرض السجن.

ومن جهة أخرى فإن الأساليب السائدة في معاملة المجرمين قلما تنجح في ردع المجرمين والقضاء على أسباب الجرائم، بل هي قد تدفع بهم نحو الانفجار والتمرد والإمعان في تحدي القانون .

وقد ثبت بالفعل أن السجن عاجز عن توليد مشاعر الحب والتعاطف والصبر والطمأنينة النفسية والرغبة في العمل واستعادة مكانة الذات. وهي المشاعر الضرورية لإعادة التكيف إلى نفس المجرم.

وفضلاً عن ذلك، فإننا حينما نترك المجرم نهباً لذكريات الماضي، دون أن ننجح في شغل باله بالأفكار السليمة والمبادئ القويمة، فإننا نزيد من اختلال توازنه النفسي بدلاً من أن نعيد إلى شخصيته تنظيمها النفسي وتوافقها الاجتماعي، وهذا ما حدا بالكثيرين إلى القول بفشل الأنظمة القديمة للعقوبة (أي أنظمة السجون) نظراً لأنها لم تكن تهتم جدياً بإعادة المجرمين إلى حظيرة القانون، والعمل على تقويم شخصياتهم حتى يتمكنوا من العودة إلى الحياة الاجتماعية العادية في ظل احترام العادات والتقاليد والقانون.

إن أغلب المجتمعات لا زالت تميز الخارجين من السجن عن غيرهم من سواد الناس، فلا يكون من شأن هذا التمييز نفسه سوى أن يتسبب في عجز السجناء عن العودة إلى حياة التكيف مع الجماعة والتعامل مع غيرهم من المواطنين، حتى ولو صحت عزيمتهم على العدول نهائياً عن حياة الجريمة، ولا شك أنه حينما يشعر المجرم بأن المجتمع ليس على استعداد لتقبله أو أن ماضيه يقف حائلاً بينه وبين الاندماج في الجماعة من جديد، فإنه قد يندفع إلى مواصلة سلوكه الإجرامي بدلاً من أن يعمد إلى أخذ نفسه بالمعايير الجماعية. ولما كانت مواصلة حياة الإجرام هي أيسر على المجرم من السعي الجاهد في سبيل اكتساب

عادات توافقية جديدة فإن عدداً غير قليل من المجرمين لا يكاد يجد صعوبة في معاودة الانتماء إلى جماعات المجرمين المحترفين التي دأب على الاختلاف إليها .

لهذا كله نرى الشريعة الإسلامية لا تلجأ إلى السجن إلا في حالات نادرة وقتية كضمان سلامة التحقيق أو إنذار المجرم بالتشهير به، فقد وضعت لكل جريمة عقوبتها الزاجرة، بحسب نوع العمل الذي اقترفه المجرم، ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ (المائدة: ٤٥).

وقد كان النبي ﷺ يؤتى ببعض المفسدين ويربطهم بإحدى سواري المسجد أمام الناس. فحبذا لو تعمم هذه العقوبة في بعض جرائم التعزير فيربط المخالفون في أعمدة الكهرباء في بعض الشوارع أمام أنظار الناس فإن ساعات من هذه العملية تعدل شهراً أو شهوراً في السجون المعروفة ويكون فيها المخالف عبرة بليغة ورهيبة لمن يعتبر، وهي لا تكلف الأمة شيئاً يذكر.

والغريب أن بعض أدعياء القانون يحملون على هذا المبدأ أو مثله قطع يد السارق بأنه قاس، دون أن يوجدوا ما يقوم مقامه، وقد أفلست جميع حلولهم وسببوا انتشار الجرائم في العالم بصورة واسعة ومرعبة حتى بات الإنسان لا يأمن على حياته وعلى أولاده من القتل والخطف، وعلى أمواله من السلب والنهب في أرقى عواصم العالم كالولايات المتحدة مثلاً.

وقد طبق هذا القانون الإلهي في المملكة العربية السعودية في العصر الحديث فأعطى النتائج ونشر الأمن والسلام مما يحسدها عليه أرقى وأعظم دول العالم. وقد نسي هؤلاء الأدعياء المغرورون أن العقوبات الإسلامية تحمي حتى المجرم نفسه فلا يتجاسر على ارتكاب جريمته لشدتها، قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ (البقرة: ١٧٩).

وقديماً استطاع التشريع الإسلامي محو الجريمة أو الإقلال منها لدرجة

الندرة، ومن أهم ما ينبغي الإشارة إليه أن هذه العقوبات ليست إسلامية فقط، بل قد سبقتها إليها شريعة التوراة وهي شريعة اليهود والنصارى حتى يومنا هذا.

وقد ساعد على تحقيق هذا السلام ما كان يتحلى به المسلم من عقيدة عظيمة جعلت من المجرم يأتي ويعترف بجريمته مهما كانت قسوتها، لينجو من عذاب الله يوم القيامة.

بينما اليوم قد عجزت الدول عن اكتشاف الجرائم على الرغم من رقي الوسائل الحديثة حتى راحت تستعين بالكلاب «البوليسية».

● **نظرية الشريعة الإسلامية**

لقد اشتملت هذه النظرية على محاسن كل من النظريتين وخلت من مساوئهما في تنسيق عجيب وحل نفساني (سيكولوجي) دقيق. وهذه مزية التشريع الإسلامي العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من عزيز حميد. ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ (طه: ١٢٣-١٢٤).

وهذه النظرية تتلخص في أن قاتل العمد يقتل قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَـٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾ (الإسراء: ٣٣).

والإسلام دين الحياة ودين السلام، فقتل النفس عنده كبيرة تلي الشرك بالله، فالله واهب الحياة، وليس لأحد غير الله أن يسلبها إلا بإذنه وفي الحدود التي يرسمها. وكل نفس هي حرم لا يمس، وحرام إلا بالحق. وهذا الحق الذي يبيح قتل النفس محدد لا غموض فيه، وليس متروكاً للرأي ولا متأثراً بالهوى. وقد جاء في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والزاني المحصن، والتارك لدينه المفارق للجماعة**».

فأما الأولى فهي القصاص العادل الذي إن قتل نفساً فقد ضمن الحياة لنفوس ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾. حياة بكف يد الذين يهمون بالاعتداء على الأنفس

والقصاص ينتظرهم فيردعهم قبل الإقدام على الفعلة النكراء. وحياة بكف يد أصحاب الدم أن تثور نفوسهم فيثأروا ولا يقفون عند القاتل بل يمضون في الثأر ويتبادلون القتل فلا يقف هذا الفريق وذاك حتى تسيل دماء ودماء. وحياة يأمن كل فرد على شخصه واطمئنانه إلى عدالة القصاص فينطلق آمناً يعمل وينتج فإذا الأمة كلها في حياة.

وأما الثانية فهي دفع للفساد القاتل في انتشار الفاحشة، وهي لون من القتل على النحو الذي بيناه.

وأما الثالثة فهي دفع للفساد الروحي الذي يشيع الفوضى في الجماعة، ويهدد أمنها ونظامها الذي اختاره الله لها، ويسلمها إلى الفرقة القاتلة. والتارك لدينه المفارق للجماعة إنما يقتل لأنها اختار الإسلام لم يجبر عليه، ودخل في جسم الجماعة المسلمة واطلع على أسرارها، فخروجه بعد ذلك عليها فيه تهديد لها.

ولو بقي خارجها ما أكرهه أحد على الإسلام بل لتكفل الإسلام بحمايته إن كان من أهل الكتاب، وبإجارته وإبلاغه مأمنه إن كان من المشركين وليس بعد ذلك سماحة للمخالفين في العقيدة.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَـٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾ (الإسراء: ٣٣).

تلك الأسباب الثلاثة هي المبيحة للقتل، فمن قتل مظلوماً بغير واحد من تلك الأسباب فقد جعل الله لوليه - وهو أقرب عاصب إليه - سلطاناً على القاتل، إن شاء قتله وإن شاء عفا على الدية وإن شاء عفا عنه بلا دية فهو صاحب الأمر في التصرف في القاتل، لأن دمه له.

وفي مقابل هذا السلطان الكبير ينهاه الإسلام عن الإسراف في القتل استغلالاً لهذا السلطان الذي منحه إياه. والإسراف في القتل يكون بتجاوز القاتل إلى سواه ممن لا ذنب لهم، كما يقع في الثأر الجاهلي الذي يؤخذ فيه الآباء والإخوة والأبناء والأقارب بغير ذنب إلا أنهم من أسرة القاتل، ويكون الإسراف كذلك بالتمثيل بالقاتل، والولي مسلط على دمه بلا مثلة، فالله يكره المثلة والرسول قد

نهى عنها.

﴿فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ يقضي له الله، يؤيده الشرع، وينصره الحاكم. فليكن عادلاً في قصاصه، وكل السلطات تناصره وتأخذ له بحقه[1]. وفي تولية صاحب الدم على القصاص من القاتل، وتجنيد سلطان الشرع وسلطان الحاكم لنصرته تلبية للفطرة البشرية وتهدئة للغليان الذي تستشعره نفس الولي الغليان الذي قد يجرفه ويدفعه إلى الضرب يميناً وشمالاً في حمى الغضب والانفعال على غير هدى. فأما حين يحس أن الله قد ولاه على دم القاتل، وأن الحاكم مجند لنصرته على القصاص، فإن ثائرته تهدأ ونفسه تسكن عند حد القصاص العادل الهادئ[2].

غير أن حكم قتل القاتل ليس مطلقاً، فإن في القرآن العظيم آية أخرى سنراها بعد قليل تقول بتنازل ذوي القتيل عن حق القتل، ولهم أخذ الدية أو التنازل عنها وليس لأحد غيرهم العفو عنه فهم وحدهم أصحاب الحق الشرعي والطبيعي في القاتل وهم وحدهم المفجوعون به. وفي هذه الحال يكون المقدم على القتل في حالة ذعر دائم وخوف رهيب من مطالبتهم بقتله من السلطة الحاكمة وقبوله العفو والدية مشكوك فيه، وربما كان بعيداً، فكم من الناس لم يقبلوا بالتنازل عن حقهم وأصروا على طلب الإعدام، فأعدم القاتل.

إلا أن هناك احتمالاً قد يكون ضعيفاً وقد يكون قوياً بأن تهب الهيئة الاجتماعية، إذا كان القاتل ليس من أصحاب السوابق، وكان من ذوي الفضل والعلم الذي يخسر المجتمع إذا فقدوا الحياة، فتسارع هذه الهيئة للتوسط ورجاء ذوي القتيل للعفو عنه سواء بأخذ الدية أو بدونها حسب رغبتهم الخاصة.

والأمل قد يكون قوياً بقبول شفاعتهم فينجو القاتل من الإعدام، وينجو المجتمع من فقده، وقد يكون هذا الأمل ضعيفاً فيقتل ويذهب ضحية جريمته.

والقضية في هذه الحال تأخذ وضعاً دقيقاً وحساساً يكون فيها المقدم على

---

(١) عقوبة الإعدام للأستاذ: المحامي مصطفى ذوق ص (٢- ٤).

(٢) في ظلال القرآن تأليف سيد قطب ص (٣١و٣٢) المجلد الخامس.

القتل في وضع رهيب يسيطر عليه الخوف كما صوره القرآن العظيم في آية ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ (١).

● تفصيل الحكم الإسلامي

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ (٢) (البقرة: ١٧٨ -١٧٩).

النداء للذين آمنوا بهذه الصفة التي تقتضي التلقي من الله، الذي آمنوا به في تشريع القصاص. وهو يناديهم لينبئهم أن الله فرض عليهم شريعة القصاص في القتلى، بالتفصيل الذي جاء في الآية الأولى. وفي الآية الثانية يبين حكمة هذه الشريعة، ويوقظ فيهم التعقل والتدبر لهذه الحكمة. كما يستجيش في قلوبهم شعور التقوى، وهو صمام الأمن في مجال القتلى والقصاص ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ﴾.

وهذا العفو يكون بقبول الدية من أولياء الدم بدلاً من قتل الجاني، ومتى قبل ولي الدم هذا ورضيه، فيجب إذن أن يطلبه بالمعروف والرضى والمودة، ويجب على القاتل أو وليه أن يؤديه بإحسان وإجمال وإكمال، تحقيقاً لصفاء القلوب، وشفاء لجراح النفوس، وتقوية لأواصر الأخوة بين البقية الأحياء.

وقد امتن الله على الذين آمنوا بشريعة الدية هذه بما فيها من تخفيف ورحمة ﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ﴾.

ولم يكن هذا التشريع مباحاً لبني إسرائيل في التوراة، إنما شرع للأمة المسلمة استبقاء للأرواح عند التراضي والصفاء ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. وفوق العذاب الذي يتوعده به في الآخرة... يتعين قتله، ولا تقبل منه

---

(١) هذا الحكم منسوخ بآية ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ...﴾ الآية.

(٢) قال ابن عباس: مما كتب على من كان قبلكم، فإنه كان في بني إسرائيل القصاص، ولم تكن فيهم الدية..» الحديث أخرجه البخاري والنسائي. والمسيحية كانت تقول بالعفو مطلقاً!

الدية، لأن الاعتداء بعد التراضي والقبول، نكث للعهد، وإهدار للتراضي، وإثارة للشحناء بعد صفاء القلوب. ومتى قبل ولي الدم الدية فلا يجوز له أن يعود فينتقم ويعتدي.

ومن ثم ندرك سعة آفاق الإسلام، وبصره بحوافز النفس البشرية عند التشريع لها، ومعرفته بما فطرت عليه من النوازع.. إن الغضب للدم فطرة وطبيعة. فالإسلام يلبيها بتقرير القصاص دعوة إلى التسامي في حدود التطوع، لا فرضاً يكبت فطرة الإنسان ويحملها ما لا تطيق.

ثم يكمل سياق الحديث عن فريضة القصاص بما يكشف عن حكمتها العميقة وأهدافها الأخيرة ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ١٧٩﴾ .

إنه ليس الانتقام، وليس إرواء الأحقاد. إنما هو أجل من ذلك وأعلى إنه للحياة، وفي سبيل الحياة، بل هو في ذاته حياة.. ثم إنه للتعقل والتدبر في حكمة الفريضة، ولاستحياء القلوب واستجاشتها لتقوى الله.

والحياة التي في القصاص تنبثق من كف الجناة عن الاعتداء ساعة الابتداء، فالذي يوقن أنه يدفع حياته ثمناً لحياة من يقتل.. جدير به أن يتروى ويفكر ويتردد، كما تنبثق من شفاء صدور أولياء الدم عند وقوع القتل بالفعل. شفائها من الحقد والرغبة في الثأر. الثأر الذي لم يكن يقف عند حد في القبائل العربية حتى لتدوم معاركه المتقطعة أربعين عاماً كما في حرب البسوس المعروفة عندهم.

وكما نرى نحن في واقع حياتنا اليوم، حيث تسيل الحياة على مذابح الأحقاد العائلية جيلاً بعد جيل، ولا تكف عن المسيل. وفي القصاص حياة على معناها الأشمل الأعم، فاعتداء على حياة فرد اعتداء على الحياة كلها، واعتداء على كل إنسان حي يشترك مع القتيل في سمة الحياة، فإذا كف القصاص الجاني عن إزهاق حياة واحدة، فقد كفه عن الاعتداء على الحياة كلها، وكان في هذا الكف حياة.. حياة مطلقة، لا حياة فرد، ولا حياة أسرة، ولا حياة جماعة.. بل حياة..

ثم - وهو الأهم والعامل المؤثر الأول في حفظ الحياة - استجاشة شعور التدبر لحكمة الله، ولتقواه ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

هذا هو الرباط الذي يعقل النفوس عن الاعتداء، الاعتداء بالقتل ابتداء والاعتداء في الثأر أخيراً.. التقوى.. حساسية القلب وشعوره بالخوف من الله، وتحرجه من غضبه وتطلبه لرضاه.

إنه بغير هذا الرباط لا تقوم شريعة، ولا يفلح قانون، ولا يتحرج متحرج، ولا تكفي التنظيمات الخاوية من الروح والحساسية والخوف والطمع في قوة أكبر من قوة الإنسان.

وهذا ما يفسر لنا ندرة عدد الجرائم التي أقيمت فيها الحدود على عهد النبي ﷺ، وعهد الخلفاء، ومعظمها كان مصحوباً باعتراف الجاني نفسه طائعاً مختاراً.. لقد كانت هناك التقوى، كانت هي الحارس اليقظ في داخل الضمائر وفي حنايا القلوب، تكفها عن مواضع الحدود.. إلى جانب الشريعة النيرة البصيرة بخفايا الفطر ومكنونات القلوب.. وكان هناك ذلك التكامل بين التنظيمات والشرائع من ناحية والتوجيهات والعبادات من ناحية أخرى، تتعاون جميعها على إنشاء مجتمع سليم التصور سليم الشعور، نظيف الحركة نظيف السلوك، لأنها تقيم محكمتها الأولى في داخل الضمير[(١)].

أما بعد..

فإني تحدثت فيما سبق عن حكم من أحكام الإسلام، وهو الإعدام، وكيف أنه في القمة من الحق والعدل والرحمة، وقد اشتمل على مزايا نظرية الإعدام ونظرية إلغائه، وخلا من محاذيرهما بصورة رائعة.

فهل يشجعنا هذا المثال من ألوف الأمثلة على دراسة الشريعة الإسلامية والعمل بها من أجل تحقيق العدالة والحق والسلام، تلك الشريعة التي شهد بعظمتها كبار أساطين الشرق والغرب في القانون من مسلمين وغيرهم مما يضيق المجال عن التحدث عنه.

إننا نستصرخ الضمائر الحية، راجين أن يتناول هذا البحث بالدراسة والعناية والاهتمام، وإننا لا ندري كيف نسوغ لأنفسنا ترك تراثنا التشريعي الضخم،

---

(١) في ظلال القرآن تأليف سيد قطب ص (٦٨- ٧٢) الجزء الثاني- المجلد الأول.

والتهافت على القوانين الغربية المهلهلة التي من شأنها تضييع شخصيتنا العربية وتطبعنا بطبائع الغربيين فنعتنق أخلاقهم الإباحية، ونجعلهم سادة لنا، ونصبح خداما لهم، مثلنا في ذلك هنود أمريكا الذين اعتنقوا عقيدة القوم وقبلوا قوانينهم فلم ينفعهم ذلك شيئاً، وإنما هددهم بالفناء وعرضهم للخطر.

إن قبولنا تحكيم التشريع الإسلامي علاوة على كونه يحفظ كياننا ويصون قوميتنا، يجعلنا أئمة لخمسمائة مليون مسلم، وهم حلفاء طبيعيون لنا وأصدقاء صادقون يفرحون لفرحنا ويألمون لألمنا، باستثناء بعض حكوماتهم الدائرة في فلك الاستعمار. ولكن الحكومات لا تدوم وقد رأينا مصارعها، إنما البقاء للشعوب.

وهذه الشعوب تشارك العرب بعواطفهم وتقر لهم بالزعامة، وترى مصيرها مرتبطاً بمصيرهم.

خطب الحكيم محمد إقبال في أعضاء المؤتمر الإسلامي المنعقد في القدس عام (١٣٥٠- ١٩٣١) فقال: «إن الإسلام مهدد بخطرين مصدرهما الغرب: أولهما الإلحاد، وثانيهما الاستعمار، وإن مستقبل المسلمين في العالم رهن بمستقبل العرب، ومستقبل العرب رهن بوحدة العرب، فإذا تمت وحدة العرب علا شأن المسلمين في كل أنحاء الأرض».

إن القومية العربية متعطشة اليوم إلى تحقيق العدالة بين شعوبها، وخاصة العدالة الاجتماعية فهي حريصة على ما يكفل بقاءها عزيزة ويجعلها تساهم في تأسيس الحضارة.

إلا أن بعض من يتظاهر بالإخلاص لهذه القومية، يغرينا بالارتماء في أحضان النزعات المتخلفة من أجل تحقيق هذه العدالة.

ما القول إذا كان هنالك نظام، لا يدعنا ذيلاً في القافلة، قافلة المعسكرات المتطاحنة، إنما يمنحنا مع العدالة (على اختلاف صورها) كرامة دولية عزيزة في الخارج، ويرد لنا اعتبارنا في المجتمع الدولي.

ما القول إذا كان هنالك نظام يحل مشكلاتنا الداخلية وفي الوقت ذاته لا

يدعنا نقف أبداً من المائدة الإنسانية وقفة المستجدي الذليل، بل وقفة المساهم في هذه المائدة المعطي ما عنده، وما عنده ليس بقليل.

إننا لنعجب كيف يمكن الإنسان أن ينأى بنفسه عن موقف الكرامة إلى موقف الذلة وعن دور المعطي إلى دور المستجدي، وعن مركز القيادة إلى موقف التبعة وهو قادر على الاختيار، لو قاوم في ضميره شعور الاضطرار.

إن لدينا ما نعطيه، ولسنا من المفلسين بحيث يتصور الكثيرون، أو بحيث تصورنا لأنفسنا المعسكرات الأجنبية.

إن لدينا ما نعطيه ولسنا من الإفلاس بحيث يتصور الكثيرون، أو بحيث يصورنا لأنفسنا الأجانب المستعمرون على اختلاف مشاربهم، إنما يصوروننا هكذا لغاية في أنفسهم، ليحل التخاذل في نفوسنا محل الثقة، واليأس محل التطلع، ولنسقط فرائس ذليلة مستغفلة، في هذا الفخ أو ذاك، إن لدينا ما نعطيه، ولكن في حاجة لأن نؤمن بأنفسنا، ففي هذا الإيمان حياة، وفي هذا الإيمان نجاة.

إذا اتضح أن الإسلام يملك أن يحل لنا مشكلاتنا الأساسية، ويمنحنا عدالة شاملة، ويردنا إلى عدل في الحكم، وعدل في المنزل، وعدل في الفرص، وعدل في الجزاء فإنه يكون بلا شك أقدر على العمل في بلادنا من كل مذهب آخر، نحاول استعارته عن طريق التقليد، أو عن طريقه المشاركة في الحضارة الإنسانية بالاستجداء.

أجل- إذا اتضح هذا كله- فالإسلام أقدر على العمل معنا هنا في الداخل، ولن نحتاج إلى استجلابه من وراء الحدود، كما نستجلب الثياب المستعملة الجاهزة فتجيء فضفاضة، أو خانقة، (وقد تجيء وفيها السل) لأنها لم تصنع على أعيننا ولم تفصل على قدنا، ولم تنبع من آلامنا وآمالنا.

والإسلام- يا قوم- صاحب لنا صديق، صاحبناه ألفاً وأربعمائة عام تقريباً، له في الجوانح هزة، وفي المشاعر ذكرى، وفي الضمائر أصداء، وليس بالغريب على أرواحنا ومشاعرنا وعاداتنا وتقاليدنا غربة المذاهب الأخرى التي نحمد منها

أشياء وننكره منها أشياء، ونألف منها اتجاهاً وننكر عليها اتجاهاً وتتوزع مشاعرنا إزاءها على أية حال توزيعاً لا يضمن معه توحيد الجبهة في طلب عدالة قوية كما نضمن توحدها إذا نحن هتفنا إلى العدالة باسم الإسلام.

إن الذين يريدون تنحية الإسلام عن معركة العدالة على أنواعها ليخوضوها تحت راية أخرى، إنما يخونون أنفسهم إن كانوا مخلصين في دعوى العدالة أو يخونون قضية الجماهير، جهلاً بقيمة القوة الكبرى التي يزودهم الإسلام بها، أو عداوة مريبة لهذه القوة العظيمة، أو احتقاراً لأنفسهم وكفراً بقيمتهم، رضاء كرضاء العبيد بفتات الموائد ووقفة الأذناب.

إننا نفهم جيداً أن ينصب المستعمرون والمستغلون والطغاة للإسلام لينحوه عن معركة الحكم، لأنه يحارب استعمارهم واستغلالهم وظلمهم بقوة، أما أن ينصب للإسلام دعاة العدالة ورجال القضاء فذلك أمر غير مفهوم عندنا، فإن وراءه لخبثاً ومؤامرة يجب أن يفطن إليها الأبرياء والمخلصون الذين يريدون العدالة لذاتها، ويكافحون للجماهير وحدها، ويتجردون لهذه الغاية النبيلة بلا رياء ولا التواء، ولا خيانة.

إن ارتباطنا بعجلة قوانين الغرب جريمة في حق العدالة، وهدر لشرفنا العربي، فهي تجعل عقوبة من يزني بأمه أو ابنته أو شقيقته أقل- بكثير- من عقوبة من يسرق متاعاً بسيطاً.

إن ارتباطنا بعجلة قوانين الغرب جريمة قومية، فهو طالما داس كرامتنا وحاول استرقاقنا وعرضنا للذبح والتشريد، فهل يليق اتباعه بدلاً من أن نثير عليه روح اللعنة والانتقام .

إن ارتباطنا بقوانين الغرب استهانة بحق الإسلام وتهاون بأوامر الله سبحانه الذي شاءت حكمته أن تحكم قوانينه الإنسانية البشر، كما حكمت قوانين الطبيعة الكون. وقد تم للبشر الإفادة من الطبيعة بخضوعهم لهذه القوانين، فما بالهم تمردوا على القوانين الأخرى حتى حرموا الإفادة من عدلها وخيرها وسلامها.

لقد وصف هذا الإله العظيم من يهجر قوانين الإسلام بالكفر والفسق والظلم

فقال: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ (المائدة: ٤٤).

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ (المائدة: ٤٥).

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ (المائدة: ٤٧)

وهل أكفر وأفسق وأظلم ممن يترك النظم الإلهية التي أثبت التطبيق، ثم أثبت رجال القوانين عظمتها- ثم يروح ويرتمي في أحضان القوانين الغربية الوضعية التي زادتنا فساداً وفوضى كما زادته خراباً وانهياراً.

اذكروا يوم كان أجدادكم العرب قبل أربعة عشر قرنا يتخطفهم الاستعمار الروماني والفارسي من كل مكان ويستذلهم، فجاء التشريع الإسلام العربي فأنقذهم ورفع لهم راية الحرية وقادهم إلى أعلى ذرى المجد.

اذكروا أجدادكم العرب الذين كانوا يهيمون في الضلالة وقد انقسموا إلى قبائل يذبح بعضها بعضاً، مما كان يهددهم بالفناء، فسارع الإسلام- بأسرع من البرق- فأصلحهم ووحد بينهم وجعل منهم خير أمة أخرجت للناس.

اذكروا سرطان اليهود الذي كان يسري في جسم القبائل العربية والحجاز مهدداً إياها بالفقر والمرض حتى جاء الإسلام فاستأصل شأفتهم وأجلاهم عن الجزيرة العربية، اذكروا أن هذه الأمة العربية لا يصلح آخرها إلا بما صلح به أولها، وأن قوة العقيدة الصحيحة ليس مثلها قوة.

وأن هذا التشريع الإسلامي الذي أنشأ مدنية دمشق وبغداد والأندلس (وهي سبب المدنية الغربية) لن يعجز عن مدنية العصر الحديثة الصحيحة.

اذكروا أن جامعة إكسفورد الإنجليزية قد أنشأت كرسياً لمحاربة التشريع الإسلامي وإبعاد القومية العربية عن هذا النظام الديناميكي ليسهل استعمارها فهل يجوز أن نعمل كما يعمل المستعمرون؟

اذكروا أنكم حملة رسالة العروبة المؤمنة، وأن العالم اليوم على فوهة بركان، فقد عرضته المدنية المادية الحديثة ومذاهبها الهوجاء الإلحادية إلى الفناء باعتراف مفكري الغرب. سارعوا لحمل الشعلة وإنقاذ قافلة الإنسانية الضالة.

من غرائب المحاكمات في التاريخ

العدد (٩٣) رمضان (١٣٩٢هـ) - أكتوبر (١٩٧٢م).

نشرت مجلة المختار (ريدرزدايجست) في أحد أعدادها مقالاً بعنوان «داروين في قفص الاتهام» بقلم «جون سوكبس» ذكر فيه قصة محاكمته، لأنه قال: إن أصل الإنسان قرد... كما يزعم داروين في نظريته: «النشوء والارتقاء» التي تخالف ما جاء في التوراة والإنجيل.

وقد أصدر القاضي حكمه عليه بطرده من التعليم وتغريمه (١٠٠) مئة دولار مع المصاريف، بناء على طلب هيئة المحلفين، وكان عددهم اثني عشر، ثلاثة منهم لم يسبق لهم أن قرأوا أي كتاب سوى الإنجيل، واعترف واحد بأنه لا يعرف القراءة!

فما أجهل وأسخف نظام المحلفين البالي، الذي لا يعرف الحق كحق، إنما يعرفه حسب صداه في الرأي العام مهما كان هذا الرأي جاهلاً وظالماً.

وإلى القارئ وصف طريف لهذه المحاكمة الغريبة:

سرت دمدمة بين أفراد الجمهور، وأنا أتخذ مكاني في قاعة المحكمة المزدحمة ببلدة «دايتون» الصغيرة بولاية تنيسي في ذلك اليوم الشديد القيظ من أيام يوليو ١٩٢٥م، وقد جلس إلى جواري أمام منضدة الدفاع المحامي الأول عن كلارنس دارو أشهر محامي الجنايات، بينما جلس في مواجهتنا نجم الادعاء وليام جننجز بريان الخطيب الذي اشتهر بذلاقة لسانه وهو يحرك في وهن مروحة من سعف النخيل.. وقد رشح الحزب الديموقراطي بريان ثلاث مرات في انتخابات الرئاسة، وهو زعيم حركة «الأصولية» التي تدعو للتمسك بحرفية الكتاب المقدس، والتي كانت السبب في تقديمي للمحاكمة.

كنت قبل ذلك ببضعة أسابيع مدرساً ثانوياً مغموراً في بلدة جبلية صغيرة، وهأنذا الآن أشترك في محاكمة تذاع أنباؤها في أنحاء العالم، وقد جلس في قاعة المحكمة استعداداً للشهادة في صالحي ١٢ من مشاهير الأساتذة والعلماء وفي مقدمتهم البروفسور كيرت لي ماثر الأستاذ بجامعة هارفارد.. وكان هناك أكثر من مائة مخبر من مخبري الصحف ومندوبي الإذاعة، الذين جاءوا لأول مرة في التاريخ لإذاعة إحدى المحاكمات التي تجري أمام هيئة من المحلفين.

* * *

لقد أحاطت هذه القضية برأسي بعد وصولي إلى بلدة «دايتون» بقليل، لتدريس العلوم وتدريب فريق الكرة في المدرسة الثانوية.. وكان هناك صدام بين أنصار «الأصولية» من أهالي البلدة، وأنصار النظريات الحديثة، فالأصوليون يتمسكون بالتفسير الحرفي للنصوص الدينية، بينما يقبل الآخرون نظرية النشوء والارتقاء التي نادى بها عالم الأحياء البريطاني «تشارلس داروين» في القرن التاسع عشر، والتي تتلخص في أن كل الحياة الحيوانية، بما فيها القردة والإنسان، قد نشأت عن سلف مشترك.

وكان مذهب «الأصولية» قوياً في ولاية تنيسي، وقد أصدر المجلس التشريعي للولاية أخيراً قانوناً يحرم تدريس أية نظرية تنكر قصة الخلق كما وردت في الإنجيل، وكان القانون الجديد يهدف بصفة خاصة إلى تحريم نظرية داروين عن التطور، وقد اعتاد مهندس يدعى جورج رابلين أن يجلس في «صيدلية روبنسون» كل يوم حيث يجادل لفيفاً من أهل البلدة مهاجماً القانون.. وفي خلال مناقشة من هذه المناقشات قال رابلين إنه ليس هناك مدرس يستطيع أن يدرس علم الأحياء، دون أن يشرح نظرية النشوء والارتقاء.. ولما كنت مدرساً لعلم الأحياء، فقد بعثوا في طلبي لمعرفة رأيي..

وجئت لأقول لهم: رابلين على حق.. وعندئذ قال الصيدلي روبنسون:

- إذاً فأنت تخرق القانون!

قلت:

- وكذلك يفعل كل مدرس آخر.. فقد ورد شرح نظرية التطور في كتاب هانتر عن علم الأحياء، وهو الكتاب الذي ندرسه للطلبة.

واقترح المهندس أن نحمل الأمر إلى القضاء لنختبر مدى ما فيه من شرعية وعندما تلقيت قرار الاتهام في ٧ مايو، لم يكن هناك من يتوقع أن تصبح قضيتي من أشهر المحاكمات التي دارت في تاريخ الولايات المتحدة.. فقد أعلن «اتحاد الحريات المدنية» في أمريكا أنه سينقل قضيتي على المحكمة الأمريكية العليا إذا دعا الحال ليقرر ما إذا كان للمدرس أن يذكر الحقيقة دون أن يلقوا به في السجن، ثم تطوع بريان لمساعدة الولاية في إثبات اتهامي، وعلى الفور عرض المحامي الكبير كلارنس دارو خدماته للدفاع عنى. والطريف أنني لم أكن أعرف دارو قبل ذلك.

وفي الوقت الذي بدأت فيه المحاكمة يوم ١٠ يوليو ١٩٢٥، كانت بلدتنا التي لا يزيد عدد سكانها على ١٥٠٠ نسمة قد أصبحت أشبه «بالسيرك».

فقد امتلأت المباني على طول الشارع الرئيسي بالأعلام والرايات، وازدحمت الشوارع التي تحيط بمبنى المحكمة العتيق بمنصات مؤقتة لبيع السجق والكتب الدينية والبطيخ، وأقام بعض رجال الدين الإنجيليين خياماً للوعظ.

وبالإضافة إلى دارو الداهية الذي يبلغ الثامنة والستين، كان الدفاع عني يتكون من المحامي الوسيم الساحر «راولي فيلد بالون» و«أرثرجارفيلد هايز» الهادئ المتبحر في القانون.. وفي هذه المحاكمة التي يلعب فيها الدّين دوراً رئيسياً كان دارو يمثل الإلحاد.. ومالون يمثل الكاثوليكية.. أما هايز فهو يهودي، وجاء أبي من ولاية كنتكي ليكون إلى جواري خلال المحاكمة.

ودعا القاضي رولستون أحد القسس المحليين ليفتتح الجلسة بالصلاة.. ثم بدأت المحاكمة بإحضار المحلفين، وقد ذكر ثلاثة من المحلفين الاثني عشر أنه لم يسبق لهم أن قرأوا أي كتاب سوى الإنجيل، واعترف واحد بأنه لا يعرف القراءة!

وبعد المناقشات الأولية على الشكليات القانونية، نهض دارو ليلقي كلمته.. فقال:

- يقول صديقي المدعي العام أن «جون سكوبس» يعرف لماذا يمثل أمامنا اليوم.

وأنا أعرف أيضاً لماذا هو هنا.. إنه هنا لأن الجهل والتعصب قد تحالفاً معاً وهو تحالف بالغ القوة..

وجلس بريان يقرض بأسنانه أطراف مروحته المصنوعة من سعف النخيل، بينما سار دارو ببطء في أرجاء القاعة التي تتلظى من حرارة الجو..

واستطرد يقول:

- إنكم تحاكمون اليوم أحد مدرسي المدارس العامة، وغداً الخاصة. وبعد ذلك محرري الكتب والصحف والمجلات.. وبعد فترة قليلة تطلقون الإنسان على الإنسان، والدين ضد الدين.. حتى نسير القهقرى.. إلى القرن السادس عشر المجيد، الذي كان المتعصبون فيه يشعلون حزم الحطب ليحرقوا الرجال الذين يجرؤون على إدخال أي ذكاء أو تنوير أو ثقافة إلى العقل البشري.

وعندما أنهى دارو خطابه. همست سيدة بصوت مرتفع: هذا الكافر الملعون!

وفي اليوم التالي بدأت النيابة في استدعاء شهود الإثبات، فشهد اثنان من تلاميذي، وهما ينظران إلي، وعلى شفتيهما بسمة الخجل، بأنني كنت أدرس لهما نظرية النشوء والارتقاء..

ثم أضافا قائلين: إن هذه التجربة لم تسمم أفكارهما!

وبعد أن انتهت الشهادة، نهض بريان ليلقي كلمته على المحلفين.

فقال: المسألة بسيطة، فالمسيحي يؤمن بأن الإنسان جاء من أعلى.. وأصحاب نظرية التطور يؤمنون بأنه جاء من أسفل... وهنا ضحك الجمهور مما شجع بريان على مواصلة حملته، وكان يمسك في يده كتاباً لعلم الأحياء، ويصيح ضد العلماء الذين جاءوا إلى البلدة ليشهدوا في صالح الدفاع..

وعندما انتهى بريان من كلمته الحماسية وقد برز فكه وتألقت عيناه صفق

الحاضرون بشدة.

وعلى الرغم من ذلك، فقد بدا بوضوح أن أيام الحماسة البالغة التي كان بريان يكتسح فيها مؤتمر الحزب الديمقراطي اكتساح النار الهشيم قد ولت. وأحس الجمهور أن بطله لم يحرق الكفرة بأنفاسه الملتهبة كما كان يجب أن يفعل .

ونهض راولي مالون ليرد فقال:

إن مستر بريان ليس الوحيد الذي له الحق في التحدث عن الإنجيل، بل هناك أشخاص آخرون في هذه البلاد وهبوا حياتهم كلها لله والدين، أما بريان فقد وهب أغلب حياته وحماسته للسياسة.

ورشف بريان بعض الماء بينما كان صوت مالون يزداد ارتفاعاً وهو يدعو لحرية الثقافة، واتهم بريان بأنه يدعو لصراع حتى الموت بين العلم والدين.

وعندما انتهى مالون، ساد الصمت في أنحاء القاعة لحظة، ثم انفجرت فجأة عاصفة مدوية من التصفيق، فاقت ما لقيه بريان. . ووجدت نفسي أربت على ظهر مالون الذي كان العرق يبلل سترته. . ولكن على الرغم من أن مالون قد كسب جولة الخطابة، فإن القاضي رولستون رفض أن يسمح للعلماء بالشهادة لصالح الدفاع.

وبعد أن تأجلت الجلسة، امتلأت شوارع البلدة بالغرباء. . كان الباعة يصيحون على سلعهم في كل ركن، وكان هناك ٢٢ من عمال التلغرافات يرسلون كل يوم ١٦٥ ألف كلمة عن المحاكمة.

وبسبب الحرارة الشديدة والخوف من انهيار سقف مبنى المحكمة القديمة تحت ثقل الحشود المزدحمة، فقد تقرر استئناف المحاكمة في الخارج تحت الأشجار العالية. وبلغت المحاكمة ذروتها عندما تمسكت النيابة بوجوب تفسير الكتاب المقدس حرفياً وفقاً لنص القانون المعادي لنظرية دارون، وعندئذ كشف المحامي دارو عن ورقته الرابحة. بدعوة بريان نفسه للشهادة لصالح الدفاع!

ونظر القاضي إليه في ذهول.

وعندئذ قال دارو:

- إننا ندعوه بصفته خبيراً في الإنجيل.. وسمعته كخبير في النصوص المقدسة، معروفة في أنحاء العالم!

وساورت الشكوك بريان، حيال دعوة دارو الداهية.. ولكنه لم يستطع أن يرفض هذا التحدى، فقد ظل بضع سنوات يحاضر ويكتب عن الكتاب المقدس ويشن حملة عنيفة على نظرية دارون في أنحاء الولاية حتى قبل أن يصدر القانون الذي يحرم تدريسها.

وتلا دارو نصاً من سفر التكوين يقول: «والمساء والصباح كانا اليوم الأول».

ثم سأل بريان عما إذا كان يعتقد أن الشمس قد خلقت في اليوم الرابع فقال بريان إنه يعتقد ذلك.

وعاد دارو يسأله:

- وكيف يتسنى أن يكون هناك صبح ومساء بلا شمس..؟!!

فمسح بريان صلعته اللامعة في صمت... سرت قهقهة بين الحضور حتى الأتقياء منهم، بينما أخذ دارو يحكم وثاق الطوق الذي يطوق به عنق بريان.. فسأله عما إذا كان يعتقد حرفياً في قصة حواء.. فأجاب بريان بالإيجاب.. فقال دارو:

- وهل تعتقد أن الله عاقب الحية بأن حكم على كل الحيات بعدئذ أن تزحف على بطونها إلى الأبد[1].

- أجل.. إنني أؤمن بذلك..

- حسناً.. هل تعرف كيف كانت الحية.. تسير قبل ذلك..؟

وعندئذ انفجر الجمهور ضاحكاً. واحمر وجه بريان وارتفع صوته في حشرجة، واهتزت المروحة في يده. ودق القاضي مطرقته لإسكات الجمهور، ثم أجل المحاكمة لليوم التالي...

ووقف بريان المخذول وحده.

---

(١) ونص الفقرة في الإصحاح الثالث من سفر التكوين: «... على بطنك تسعين، وتراباً تأكلين كل أيام حياتك» وترى هل تتغذى الحية بالتراب؟! أرجو جواب المشاهدة والعلم والتجربة!!

وفي ظهر اليوم التالي طلب القاضي إلى المحلفين أن يصدروا قرارهم، فاختلوا في أحد أركان حديقة المحكمة، وظلوا يتبادلون الهمس تسع دقائق، ثم صدر حكمهم بأنني مذنب!

وأصدر القاضي رولستون حكمه بتغريمي ١٠٠ دولار مع المصاريف..

وقد وصف ورادلي فيلد مالون هذا الحكم بأنه «هزيمة منتصرة» وأشارت بعض صحف الجنوب - التي لا تزال مخلصة لبطلها المخذول بريان - إلى الحكم باعتباره انتصاراً له، ولكن بريان كان حزيناً مجهداً. فمات بعد يومين من صدور الحكم في بلدة دايتون!

وعرض عليّ أن أعود لوظيفتي كمدرس، ولكنني رفضت، فقد حصل بعض الأساتذة الذين جاءوا للشهادة في صالحي على منحة لي من جامعة شيكاغو، لأتمكن من متابعة دراسة العلوم. وأصبحت فيما بعد خبيراً جيولوجياً لإحدى شركات البترول في ليوزيانا وأمريكا الجنوبية.

ومنذ فترة قصيرة، عدت إلى «دايتون» لأول مرة منذ محاكمتي التي تمت منذ ٣٥ عاماً.. وبدت البلدة الصغيرة في نظري كما كانت تقريباً. فيما عدا جامعة «وليام بريان» التي أقيمت فوق قمة تل يطل على الوادي.

وكانت هناك بعض تغيرات أخرى أيضاً. فمذهب التطور أصبح يدرس في ولاية تنيسي بالرغم من أن القانون الذي أدانني لا يزال قائماً واجتاحت العاصفة الخطابية التي نفخها كلارنس دارو ورادلي مالون كل المدارس والجمعيات التشريعية في أنحاء أمريكا، وكأنها الريح المنعشة التي تجلب في أعقابها جوا جديداً من الحرية الثقافية والعلمية تنمو على مر السنين(١).

* * *

وهكذا انهزم بريان محامي الادعاء معنوياً أمام الجماهير نتيجة دفاع دارو محامي الدفاع وانهزمت بانهزامه التوراة التي اتضح أنها تناقض العلم والتجربة

---

(١) المجلد ٣٨ العدد ٧ الصادر في نيسان (أبريل) ١٩٦٥.

والمشاهدة مناقضة لا تدع مجالاً للشك!

وقد سرت موجة الإلحاد في الغرب بسبب ذلك ما دام أن الدين يخالف العلم. والحق أن دارو كان خبيثاً في دفاعه، كما كان بريان مغفلاً في ادعائه، فقد كان يكفيه أن يطالب بعقوبة المعلم لتدريسه نظرية لا تزال قيد التجربة، وقد رفضها كثير من العلماء وأثبتوا مناقضتها للعلم، ويعتبر الأسئلة السابقة لدارو عما جاء في التوراة، خروجاً عن الموضوع، وتهرباً من الجريمة.

ولكن شاءت الأقدار الإلهية أن يتضح ما في التوراة من مخالفات للحقيقة العلمية والمشاهدة الحسية نتيجة تحريفها كما اعترف بذلك كثير من المؤرخين الغربيين أنفسهم..

وقد أصدرت مجلة «لايف» العالمية عدداً خاصاً باسم «الكتاب المقدس» نقتطف منه ما يلي على قاعدة من فمك أدينك.

تقول هذه المجلة:

هذا الكتاب الذي نحن بصدده أوسع الكتب انتشاراً.. ولكنه مع ذلك كتاب إنسان!! إن مؤلفيه يحملون أسماء ذائعة الصيت.. ولكن أغلب كلماته كتبها أشخاص آخرون لا يعرف أحد من هم!! ولا يمكن معرفتهم في يوم من الأيام، لقد ظل الوحي الإلهي إلى الإنسان ينتقل من الأب إلى الابن ألف سنة تقريباً بعد «إبراهيم» من غير أن يكتب! وبعد ذلك فقط بدأ اليهود في تدوينه! وكان ذلك قبل ألف سنة أخرى جديدة. وقد استلزم الأمر أن تعاد كتابة لفائفهم عدة مرات.

وأن تنقل وتنسخ. مما أوجد فرصاً أخرى جديدة لا تحصى لتغييرات لا عد لها، وبعضها مقصود!!

والبعض الآخر غير مقصود. ولما بدأت المسيحية تنتشر بسرعة، ازدادت الحاجة إلى عمل نسخ جديدة، لا سيما «العهد الجديد» وأخذ كثير من المؤمنين يصنعون نسخاً لأنفسهم بأنفسهم، أو كان أحدهم يقرأ بصوت مرتفع في «النسخ» بينما كان يتلقى عنه ما يقرب من اثني عشر ناسخاً، وهذا ما مهد الطريق لأخطاء أكثر وأكثر!!

لذلك فإنه لا يوجد اليوم أي نص «أصلي» لأي جزء من هذا الكتاب!! وربما حوى «العهد الجديد» تغييرات أكثر وأبلغ من «العهد القديم»!!اهـ.

ونورد فيما يلي مثالاً من تحريف التوراة على مر السنين من أصل مئات الأمثلة، ما جاء في ترجمة سفر التكوين المطبوعة سنة ١٨١١ «هكذا سمى إبراهيم اسم الموضع مكان يرجم الله زائره».

وفي ترجمته المطبوعة سنة ١٨٤٤ وردت هذه الفقرة هكذا «دعا إبراهيم اسم ذلك المكان: الرب يرى».

وفي سفر التكوين في النسخ المتداولة اليوم.

«فدعا إبراهيم اسم ذلك المكان: يهوه يراه».

انظر الإصحاح الثاني والعشرين الفقرة الرابعة عشرة منه.

ومن أعظم الأدلة على تحريف التوراة ما جاء فيها من انحرافات أخلاقية في حق الأنبياء المعصومين الذين أرسلوا لهداية البشر وتهذيبهم، وإلى القارئ بعض الأمثلة على ذلك.

أولاً : النبي لوط زنا بابنتيه (سفر التكوين الإصحاح ١٩ الفقرة ٣٠).

ثانياً : أحد أولاد يعقوب يزني بسرية أبيه (سفر التكوين: ٣٥: ٢٢) .

ثالثاً : النبي يهوذا بن يعقوب يزني بكنته (سفر التكوين: ٣٨- ٦).

رابعاً: داود يزني بامرأة قائده أوربا (سفر صموئيل الثاني: ١١-٢).

خامساً: أحد أولاد داود يزني بأخته (صموئيل: ٢- ١٣).

سادساً: النبي سليمان يعبد الأصنام (سفر الملوك الأول: ١١).

سابعاً: تغزل هذا النبي بالنساء تغزلاً فاحشاً ويهيم بهن كأحد العشاق الفساق (نشيد الإنشاد).

ولم يكتف محرفو التوراة بنسبة الزنا إلى الأنبياء، بل راحوا ينسبونه إلى الله نفسه! «تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا» راجع سفر حزقيال (الإصحاح الثالث والعشرون).

***

نعود بعد هذا الاستطراد إلى نظرية داروين التي صالت وجالت في القرن الماضي، وكانت سبباً في إلحاد الكثيرين وارتمائهم في أحضان الشهوات البهيمية بعدما زعمت أن أصل الإنسان حيوان، وقد تبع ذلك إنكار الإله والبعث. .

نعود لهذه النظرية لنثبت انهيارها وضلالها وجهل واضعها، باعتراف كبار أنصارها وأشدهم تحمساً لها.

قال جوليان هكسلي معلناً بكل صراحة تفرد الإنسان واستقلاله عن جميع الحيوانات.

«وبعد نظرية دارون لم يعد الإنسان مستطيعاً تجنب اعتبار نفسه حيواناً ولكنه بدأ يرى نفسه حيواناً غريباً جداً. وفي حالات كثيرة لا مثيل له. ولا يزال تحليل تفرد الإنسان من الناحية البيولوجية غير تام»(١).

وإذن فالإنسان متفرد في كيانه البيولوجي ذاته. . الذي ظن فيه دارون المشابهة الكاملة للحيوان، وبنى عليه تفسيره الحيواني للإنسان!

ويسرد هكسلي ألواناً من هذا التفرد البيولوجي. من بينها أنه في الحيوانات كلها ترتبط العضلات بالمخ بنوعين من الأعصاب، أحدها يتصل بالعضلات القابضة، والثاني يتصل بالعضلات الباسطة، ولا يصدر مخ الحيوان إلا نوعاً واحداً من الإشارات في اللحظة الواحدة. فإما إشارة للعضلات القابضة، وإما إشارة للعضلات الباسطة، فالكلب إما أن يهرش وإما أن يجري في اللحظة الواحدة، ولا يستطيع أن يهرش ويجري معاً في ذات الوقت. أما الإنسان، فهو - وحده في هذه الخلائق كلها - الذي يستطيع أن يقوم بأعمال متعارضة في آن واحد، لأن مخه يستطيع أن ينسق بين الأعمال المتعارضة(٢)!

ويتحدث هكسلي عن «خواص» الإنسان البيولوجية فيقول: «وأولى خواص الإنسان الفذة وأعظمها وضوحاً، قدرته على التفكير التصويري، وإذا كنت تفضل استخدام عبارات موضوعية، فقل: استخدامه الكلام الواضح.

---

(١) جوليان هكسلي «الإنسان في العالم الحديث» ص٣.

(٢) المصدر السابق ص: ٢٧- ٢٩.

ولقد كان لهذه الخاصية الأساسية في الإنسان نتائج كثيرة، وكان أهمها نمو التقاليد المتزايدة. .

ومن أهم نتائج تزايد التقاليد - أو إذا شئت - من أهم مظاهره الحقيقية ما يقوم به الإنسان من تحسين فيما لديه من عدد وآلات. .

وإن التقاليد والغدد لهي الخواص التي هيأت للإنسان مركز السيادة بين الكائنات الحية. وهذه السيادة البيولوجية في الوقت الحاضر خاصية أخرى من خواص الإنسان الفذة.

ولم يتكاثر الإنسان فحسب، بل تطور، ومدّ نفوذه، وزاد من تنوع سبله وهكذا يضع علم الحياة الإنسان في مركز مماثل لما أنعم به عليه كسيد المخلوقات، كما تقول الأديان.

ولقد أدى الكلام والتقاليد والغدد إلى كثير من خواص الإنسان الأخرى، التي لا مثيل لها بين المخلوقات الأخرى، ومعظمها واضح معروف. . ولذلك أرى عدم التعرض لها حتى أنتهي من التحدث عن الخواص غير المعروفة كثيراً، لأن الجنس البشري- كنوع- فريد في صفاته البيولوجية الخالصة، ولم تلق تلك الصفات من العناية ما تستحق، سواء من وجهة نظر علم الحيوان، أو من وجهة نظر علم الاجتماع. . وأخيراً فإن الإنسان لا مثيل له بين الحيوانات الراقية في طريقة تطوره».

ويقول هكسلي أيضاً في موضع آخر:

وهذه الخواص التي امتاز بها الإنسان، والتي يمكن تسميتها «نفسية» أكثر منها «بيولوجية» تنشأ من خاصية أو أكثر من الخواص الثلاث الآتية:

«الأولى» قدرته على التفكير الخاص والعلم.

«الثانية» التوحيد النسبي لعملياته العقلية، بعكس انفصام العقل والسلوك عند الحيوان.

«الثالثة» وجودات الوحدات الاجتماعية مثل القبيلة والأمة والحزب والجماعة الدينية، وتمسك كل منها بتقاليدها وثقافتها.

وهناك نتائج ثانوية كثيرة لتطور العقل من مرحلة ما قبل الإنسان إلى مرحلة الإنسان[1]، وهي بلا شك فريدة من الناحية البيولوجية. ولنذكر منها العلوم الرياضية البحتة والمواهب الموسيقية، والتقدير والإبداع الفنيين، والدين، والحب المثالي..

ولكن لا يكفي هنا أن نحصي بعض أوجه النشاط، ففي الحقيقة أن معظم أوجه النشاط الإنساني وخواصه، نتائج ثانوية لخواصه الأصلية. وكذلك فهي فذة من الناحية البيولوجية!!.. وقد يكون لتفرد الإنسان نتائج ثانوية أخرى لم تستغل بعد..

وبذلك يكون الإنسان فريداً في أحواله أكثر مما نظن الآن»[2].

وقال العالم الأمريكي: «أ. كريسي موريسون» في كتابه:
"man does not stand alons" الذي ترجمه إلى العربية الأستاذ محمود صالح الفلكي بعنوان «العلم يدعو إلى الإيمان».

«إن القائلين بنظرية التطور (النشوء والارتقاء) لم يكونوا يعلمون شيئاً عن وحدات الوراثة» (الجينات)!!ص١٤٥.

«لقد رأينا أن «الجينات» متفق على كونها تنظيمات أصغر من الميكروسكوبية للذرات في خلايا الوراثة بجميع الكائنات الحية، وهي تحفظ التصميم، وكل السلف، والخواص التي لكل شيء حي. وهي تتحكم تفصيلاً في الجذر والجذع والورق والزهر والثمر لكل نبات، تماماً كما تقرر الشكل والشعر والأجنحة لكل حيوان بما فيه الإنسان» (ص١٤٧).

«ويلاحظ أن جميع الكائنات الحية، منفصل بعضها عن بعض بهوات كثيفة لا يمكن عبورها!! حتى إن الحيوانات المتقاربة ينفصل بعضها عن بعض كذلك».

«والإنسان حيوان من رتبة الطليعة، وتكوينه يشبه فصائل «السيميا» «الأورانجتان والغوريلا والشمبانزي» ولكن هذا الشبه الهيكلي ليس بالضرورة

---

(١) هذا رأي هكسلي الخاص وقد نقضه بنفسه مراراً.
(٢) من كتاب «الإنسان في العالم الحديث» ترجمة الأستاذ حسن خطاب.. مقتطفات متفرقة.

برهاناً على أننا من نسل أسلاف سيميائية «من القرود» أو أن تلك القرود هي ذرية منحطة للإنسان، ولا يمكن أحد أن يزعم أن سمك القد (cod) قد تطور من سمك الحساس وإن يكن كلاهما يسكن المياه نفسها، ويأكل الطعام نفسه، ولهما عظام تكاد تكون متشابهه..» (ص١٤٢) .

«إن ارتقاء الإنسان الحيواني إلى درجة كائن مفكر شاعر بوجوده هو خطوة أعظم من أن تتم عن طريق التطور المادي، ودون قصد ابتداعي».

«وإذا قبلت واقعية القصد، فإن الإنسان بوصفه هذا قد يكون جهازاً، ولكن ما الذي يدير هذا الجهاز؟ لأنه بدون أن يدار، لا فائدة منه، والعلم لا يعلل من يتولى إدارته، وكذلك لا يزعم أنه مادي!».

«لقد بلغنا من التقدم درجة تكفي لأن نوقن بأن الله قد منح الإنسان قبساً من نوره، ولا يزال الإنسان في طور طفولته من جهة الخلق، وقد بدأ يشعر بوجود ما يسميه «بالروح» وهو يرقى في بطء ليدرك هذه الهيئة بغريزته بأنها خالدة».

هذا، ومن أهم ما ينبغي الإشارة إليه أن دارون لم يكن ملحداً - كما يقولون[1]- بينما أدت نظريته إلى انتشار الإلحاد بين الناس. وقد كان من أهم غاياته رد المخلوقات الكبيرة إلى الحيوانات الصغيرة البسيطة بظنه، ليعلل طريقة وجود الحياة على الأرض لإنقاذ العلم من الوقوف عاجزاً عن إيجاد تعليل صحيح لها.

وقد كان مخطئاً خطأ فاحشاً فيما ذهب إليه من ظنه ببساطة هذه المخلوقات التي زعمها بدائية نشأت في الطبيعة أول ما نشأت ثم تطورت منها الحيوانات الأخرى .

يقول «رسل تشارلز إرنست» أستاذ الأحياء والنبات بجامعة فرنكفورت بألمانيا:

«لقد وضعت نظريات عديدة لكي تفسر نشأة الحياة من عالم الجمادات، فذهب بعض الباحثين إلى أن الحياة قد نشأت من البروتوجين، أو من الفيروس،

(١) المصدر السابق مقتطفات من ص (٣- ص ٦).

أو من تجمع بعض الجزئيات البروتينية الكبيرة، وقد يخيل إلى بعض الناس أن هذه النظريات قد سدت الفجوة التي تفصل بين عالم الأحياء، وعالم الجمادات. ولكن الواقع الذي ينبغي أن نسلم به هو أن جميع الجهود التي بذلت للحصول على المادة الحية من غير الحية قد باءت بفشل وخذلان ذريعين. ومع ذلك فإن من ينكر وجود الله لا يستطيع أن يقيم الدليل المباشر للعالم المتطلع، على أن مجرد تجمع الذرات والجزئيات عن طريق المصادفة، يمكن أن يؤدي إلى ظهور الحياة وصيانتها وتوجيهها بالصورة التي شاهدناها في الخلايا الحية. وللشخص مطلق الحرية في أن يقبل هذا التفسير لنشأة الحياة! فهذا شأنه وحدهَ ولكنه إذ يفعل ذلك إنما يسلم بأمر أشد إعجازاً وصعوبة على العقل من الاعتقاد بوجود الله، الذي خلق الأشياء ودبرها.

«إنني أعتقد أن كل خلية من الخلايا الحية قد بلغت من التعقد درجة يصعب علينا فهمها وأن ملايين الملايين من الخلايا الحية الموجودة على سطح الأرض تشهد بقدرة الله شهادة تقوم على الفكر والمنطق. ولذلك فإنني أؤمن بوجود الله إيماناً راسخاً»(١).

وهكذا انهارت نظرية دارون وانهار معها الإلحاد الذي نجم بسببها، وثبت أن الإنسان جاء من الأعلى لا من الأسفل.

ومما يؤسف له ويحز في النفس أن هذه النظرية الهدامة التي أثبت العلم فشلها وضلالها في الغرب وألفت المجلدات في البرهنة على بطلانها، لا تزال تدرس في كثير من معاهدنا وجامعاتنا كأعظم حقيقة علمية، مما يدل على أن هناك مخططات مرسومة لإفساد النشء الإسلامي وإلقائه في هوة الإلحاد، ليعمل هدماً في كيان أمته ويتهالك على الشهوات والموبقات ما دامت حياته- كما تقول النظريات الإلحادية- صائرة إلى الفناء والاضمحلال، وما دام ليس هناك مثل عليا مقدسة، فكل شيء في تطور، حتى الأخلاق فما هو فضيلة اليوم رذيلة غداً...

(١) مقال «الخلايا الحية تؤدي رسالتها» في كتاب «الله يتجلى في عصر العلم».

وهكذا يعمل الأعداء على هدم معاقل المقاومة في الأمة الإسلامية.

جاء في «بروتوكولات زعماء صهيون»:

«إن دارون ليس يهودياً، ولكننا استطعنا كيف نستخدم نظريته لهدم الأخلاق وانحراف الشباب غير اليهودي، ليفسح لنا المجال لحكم العالم...» فهل من معتبر.



نصيحة ذهبية إلى مفكري الغرب وزعمائه

العدد (٩٤) شوال (١٣٩٢هـ) - نوفمبر (١٩٧٢م).

كتب إليَّ بعض الجمعيات الإسلامية في ديار الغرب، تطلب مني أن أكتب لها رسالة في بيان مزايا الإسلام وحاجة الغرب إليه، تترجمها إلى اللغات الأجنبية وترسلها إلى مفكري الغرب وعلمائه وزعمائه في مختلف المناسبات تدعوهم فيها للإسلام، وذلك بناء على اقتراح لي أرسلته إليها.

واشترطت علي الإيجاز فسارعت إلى تلبية الطلب، وكتبت لها الرسالة التالية، آملا أن يتبناها من يقدر على تنفيذها، وتعديل ما يراه ضرورياً، والله سبحانه نسأل أن يتولانا بعنايته وتوفيقه.

● أيها الغربي، أخي في الإنسانية.

تحيات طيبة أبعث بها إليك من الشرق الجميل، من بلاد العرب، نبع النور والحكمة.

آملاً أن تسمح لي ما دمت أخي في الإنسانية- أن أقدم لك أعظم هدية سمينة، فيها سعادتك وسعادة قومك، بل وسعادة البشرية جمعاء. بل خلاصها من كل ما تعانيه من قلق واضطراب وفوضى.

اذكر - يا أخي في الإنسانية - أن جزيرة العرب كانت تتخبط قبل أربعة عشر قرناً بالضلال، والانحطاط، والفساد، والظلام، فحدثت حادثة عظيمة استطاعت بسرعةٍ عجيبةٍ أن تجعل من العرب خير أمة أخرجت للناس فسمت بأخلاقهم

ووحدت كلمتهم، وجعلت منهم هداة مهديين انطلقت بهم في ميادين العلم والمدنية، فخرجوا إلى العالم ينقذونه من ظلمات الوثنية، والجهل.

فأسسوا أعظم حضارة عرفها التاريخ وكانت سبباً في إنقاذ البشرية كلها من ظلمات الجهل، والظلم، بشهادة مؤرخي وعلماء الغرب المنصفين الذين راحوا يطلقون عليها اسم «المعجزة العربية» وهي ظاهرة تاريخية عجيبة تستحق الدراسة للإفادة منها!.

إن هذه الهدية هي: «الإسلام».

ولاشك أنه بلغك عن هذا الدين الأخبار الكثيرة، ولكن أغلبها مشوه وكاذب، شوهه أناس لا يخافون الله، قد ماتت ضمائرهم، غايتهم تضليل الأبرياء، لتبقى لهم امتيازاتهم ويتسنى لهم امتصاص أموال الناس بالباطل.

إن هؤلاء الأشرار يحبون أن يبقى العالم في شقائه فيسعون جهدهم لتشويه حقيقة الإسلام، ليظهروه بمظهر سيّئ بمختلف وسائل الدعاية الكاذبة لتنفير الناس منه، وليبقوا في ظلام دامس وشقاء مستمر، مثلهم في ذلك مثل اللص يحاول - أول ما يحاول - إطفاء المصباح لتسهل عليه السرقة!

إن هذا المصباح المضيء، هو الإسلام الذي أضاء نوره العالم قبل أربعة عشر قرناً، فهم يحجبون ضياءه بمختلف الحيل والأساليب، ويخوفون جماعاتهم حتى من قراءة صفحات عنه، لأنهم يعلمون أن حقيقته وعظمته ستجذبهم إليه فيدخلون في دين الله أفواجاً.

ليس غايتي الدعاية للإسلام، إنما غايتي الأولى هدايتك إلى طريق الحق، وإنقاذك من الضلال، ومن الفراغ السحيق الذي تعانيه البشرية كلها بسبب النظم المادية التي تعكر حياتها وتهدد العالم بحرب هيدروجينية مدمرة نتيجة تركها للإسلام، شريعة الله!

وأهم ما ينبغي أن ألفت نظرك إليه أنك إذا دخلت الإسلام فلا تكون قد تركت ديانة المسيح عليه الصلاة والسلام.

أبداً! إن الإسلام امتداد للمسيحية الصحيحة، وإتمام لها، كما أن المسيحية

إتمام لشريعة موسى عليه السلام، هكذا أعلن المسيح عليه السلام في قوله «إنني ما جئت لأنقد الناموس، بل جئت لأتمم» وقال النبي محمد ﷺ «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

قال لوزارون «ألفنس باسنت سابقاً» معترفاً بأن الإسلام هو الدين المسيحي محسناً ومحوراً، ونصح قومه الذين يلتمسون دينهم المفقود أن يستعينوا بالإسلام للعثور على ضالتهم المنشودة(١).

إنجيل يوحنا (١٤، ٢٤، ٢٥)، إنجيل مرقس (١٢، ٢٨)، إنجيل مرقس (١٣/ ٣٢) إنجيل متى (٢٠/ ٢)، إنجيل متى (١١، ١١)، إنجيل يوحنا (١٧، ٣)، إنجيل متى (٢١، ١١)، إنجيل يوحنا (٨، ٤)، إنجيل يوحنا (٦، ١٤)، إنجيل يوحنا (٥، ٨).

أجل راجع هذه الفقرات وفي مقدمتها ما جاء في (إنجيل مرقس ٢، ٣٣ حيث يقول المسيح: «الحق قلت: لأن الله واحد، وليس سواه»!

نجد توحيد الإله الذي جاء به الإسلام واضحاً في الأناجيل نفسها- كما هو واضح في التوراة- مما لا يدع مجالاً للشك في أن الله سبحانه واحد لا شريك له، الأحد الصمد، الذي لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد، وأن المسيح عبده ورسوله.

وراجع الفقرات التالية أيضاً من إنجيل يوحنا، ومثلها كثير في توراة يوحنا: ١٥، ٢٦ ويوحنا: ١٦، ١٢، ١٣، يوحنا: ١٥، ٢٢، يوحنا ١٦، ١٨.

أجل راجع هذه الفقرات وفي مقدمتها: «إن كنتم تحبونني، فاحفظوا وصاياي، وأنا أطلب من الأب فيعطيكم فارقليط آخر ليثبت معكم إلى الأبد - أي خاتم الأنبياء - وروح الحق الذي لن يطيق العالم أن يقبله، لأنه ليس يراه ولا يعرفه. وأنتم تعرفونه، لأنه مقيم عندكم وهو ثابت بينكم «لأنه مذكور في التوراة،

---

(١) راجع تاريخ الإمام محمد عبده (٢/ ٤١٠)، وأرجو بهذه المناسبة مراجعة المجلد ٢٨ العدد ٧ الصادر في إبريل نيسان ١٩٦٥ من مجلة لايف الأمريكية حيث يثبت كبار العلماء الغربيين حدوث التحريف في التوراة والإنجيل.

والإنجيل والفارقليط»[١]. روح القدس الذي يرسله الأب باسمي هو يعلمكم كل شيء، وهو يذكركم بكل ما قلته لكم. والآن قد قلت لكم قبل أن يكون حتى تؤمنوا!. أي تؤمنوا بالنبي محمد وتدخلوا في دينه! يوحنا: ١٤- ١٥) وما بعدها...

● **بشارات التوراة بمجيء الرسول محمد**

في التوراة عدد كثير من البشارات بمجيء الرسول محمد ﷺ، فعلى طالب الحقيقة مراجعتها في الإصحاح (١٨- والفقرة ٢٠) من سفر التثنية، والإصحاح (٣٢: والفقرة ٢١) والإصحاح (١٧ والفقرة ٢٠) من سفر الاستيثاء، والإصحاح (٤٩ الفقرة العاشرة) من سفر التكوين. والإصحاح (٤٢) من كتاب أشعيا، والإصحاح الرابع والخمسين من كتاب أشعيا، والباب الثاني من كتاب دانيال والفقرة ٣١، وجاء في أشعيا الإصحاح ٦٠ والفقرة ١- ٧ أجل في التوراة بشارات كثيرة، وفي مقدمتها ما جاء في الإصحاح الثالث والثلاثين قوله «جاء الرب من سيناء، وأشرق لنا من ساعير، وتلألأ من جبل فاران» وفي الترجمة العربية المطبوعة عام ١٨٤٤ بالإضافة على ما سبق «ومعه ألوف الأطهار».

فمجيئه من سيناء إعطاؤه التوراة لموسى، وإشراقه من ساعير إعطاؤه الإنجيل للمسيح. وتلألؤه من جبل فاران إنزاله القرآن على الرسول محمد.

ويمكن أن نستدل على أن فاران هي الحجاز بما جاء في التوراة على أن هاجر زوجة إبراهيم وأم إسماعيل سافر بها زوجها وأسكنها برية فاران، ومما هو ثابت في التاريخ أن هذه الهجرة كانت إلى الحجاز، وقاموس الكتاب المقدس نفسه، يفسر فاران: بالحجاز.

وقوله «ومعه ألوف الأطهار» يقصد صحابة الرسول محمد الذين رباهم فكانوا أمثال الطهر والأخلاق المثالية والجيل المثالي العظيم.

---

(١) ترجمت هذه الكلمة إلى اليونانية بلفظ «بيركلوطوس» أو باراكلوت فكانت بمعنى محمد وأحمد، كما هو واضح في الإنجيل المطبوع أعوام ١٨٢١ و ١٨٣١ و١٨٤٤ ثم حرفت ويا للأسف لإضاعة الحقيقة وترك البشرية في الضلال والفوضى.

لقد بشرت التوراة والإنجيل بمجيء نبي بعد المسيح (عليه السلام) الذي ذكر قاعدة لتميز الرسول محمد عن الأنبياء الكذبة فقال: «من ثمارهم تعرفونهم» وهل أعظم من الآثار التي جاء بها النبي محمد من عند ربه؟!

وفي مقدمتها: القرآن العظيم الذي لا يزال معجزته الخالدة على مر العصور، وقد تحدى الله سبحانه البشر أن يأتوا بمثله، وأن يجدوا فيه عيباً أو مخالفة للبديهيات العلمية الثابتة بعد مرور أربعة عشر قرناً على نزوله، ولم يقتصر الأمر على ذلك، فإن في هذا القرآن عدداً كثيراً من الآيات التي سبقت العلم، مما لا يدع مجالاً للشك أنه من عند الله، بينما جاء في كتب بعض الأديان الأخرى من المهازل والسخافات والمتناقضات للعلم الشيء الكثير!

هذا وفقرة «من ثمارهم تعرفونهم» التي وردت في الإنجيل، وقد مر ذكرها، فإنها علاوة على إشارتها على ما سبق، فإنها تدل أيضاً على وعد السيد المسيح بمجيء الرسول محمد، وأن اليهود، والنصارى، كانوا ينتظرون مجيء هذا النبي.

إن اليهود المعاصرين للمسيح كانوا منتظرين نبياً آخر مبشراً به، وكان هذا المبشر عندهم غير المسيح، بدليل أنهم سألوا يوحنا قائلين: أأنت المسيح؟ ولما أنكر سألوه أأنت إيليا؟ ولما أنكر، سألوه: أأنت النبي المنتظر الذي أخبر به موسى. مما يدل على أن النبي محمدا كان منتظراً مثل المسيح وإيليا.

ولكن لعن الله المحرفين والمضللين الذين يخفون الحقيقة!!

إنك تتأكد مما سبق أن السيد المسيح قد أخبر وبشر بمجيء الرسول محمد ﷺ بصورة صريحة لا تدع مجالاً للشك، وحض على اتباعه، وسرعة الإيمان به، والدخول في دينه.

فما عليك إلا أن تؤمن به وتدخل في دين الإسلام.

وأذكر بهذه المناسبة أن الإسلام قد أشاد بعظمة المسيح، ورفع من شأنه، وأمر المسلمين بالإيمان به، وأثنى على أمه مريم الصديقة، في آيات.

إن البشرية اليوم بحاجة إلى الإسلام، بعدما أفلست جميع تشريعاتها ومذاهبها.

إن الإسلام قادر على حل جميع مشكلات الغرب، بل مشكلات العالم بأسلوب طبيعي، وإنقاذه من القلق والفوضى والهلاك الذي يهدده، بسبب مذاهبه المنحرفة، التي سببت النزاع بين جماعاته، ذلك النزاع الذي يوشك أن يتحول إلى حرب هيدروجينية تعرض العالم والحضارة إلى الفناء.

إن الإسلام يرسم للعالم طريق السعادة الحقيقية، ويقدم له الحلول السريعة لمشكلاته كما اعترف بذلك كبار الساسة، والعلماء، والمؤرخين المنصفين في الغرب والشرق.

• القوانين الطبيعية والتشريع السماوي

اذكر- يا أخي في الإنسانية- أن الله العظيم قد وضع في هذا الكون لتنظيم العلاقة بين البشر والطبيعة قوانين مادية، فلابد للإنسان من الخضوع لها إذا أراد أن يستفيد من الطبيعة، وإذا خالف هذه القوانين عرض حياته للشقاء والانحطاط.

واذكر إلى جانب ذلك أن الله- سبحانه- وضع أيضاً قوانين تشريعية لتنظيم العلاقة بين البشر بعضهم ببعض، وهي ما تسمى الدين - فلا بد للإنسان من الخضوع لها إذا أراد أن يعيش سعيداً راقياً في حياته. وإذا خالف هذه التشريعات عرض حياته للشقاء والهلاك .

وما تعانيه البشرية اليوم من فوضى، وانحلال، وحروب، وفساد، ما هو إلا نتجية مخالفتها للتشريعات الإسلامية الإلهية، واعتمادها على تشريعات وضعية كانت سبباً في شقائها، فكما أن الإنسان لا يقدر أن يعدل قوانين الإله الطبيعية، كذلك لا يستطيع أن يعدل قوانين الإله التشريعية التي أنزلها عن طريق رسله إلى البشرية.

ويمكننا أن نقول أيضاً: إن البشرية إذا كانت عاجزة عن وضع القوانين بينها وبين الطبيعة وقد وضعها الإله، وفرض عليها اتباع هذه القوانين، فهي عاجزة كذلك أن تضع القوانين التشريعية بين أفرادها أنفسهم لأسباب وأسرار يطول الكلام عليها، وقد وضعها الإله وفرض على هذه البشرية اتباعها.

وقد جرب الفلاسفة، والعلماء، والساسة، وضع مثل هذه القوانين قبل عهد

أرسطو، وأفلاطون، إلى عهدنا هذا، ففشلوا جميعاً، بعدما عرضوا شعوبهم بسببها إلى الفوضى والهلاك.

فهذا أفلاطون (٤٣٠- ٣٤٨ ق.م) في كتابه «الجمهورية»، وهذا كنفوشيوس (٥٥٠- ٤٧٩ ق.م) في كتابه «الحوار»، وهذا الفارابي «٩٥٠م» في كتابه «يوتوبيا»، وهذه النازية، والفاشية، والرأسمالية، والديمقراطية، والشيوعية كلها قد انهارت، وتنهار، تاركة وراءها أسوأ الآثار والجرائم، بعد ما أنهكت البشرية في حروب طاحنة خلال نصف قرن من الزمن.

ولله در شوقي فقد خاطب الرسول محمداً ﷺ فقال يشير إلى الإسلام:

داء الجماعة من أرسطاليس لم يوصف له - حتى أتيت - دواء!

وكل ذلك من الأدلة الواضحة على حاجة البشرية إلى الإسلام، وأنه لا بد لها من الدخول فيه! جرب أن تقرأ عن الإسلام، ولو صفحات قليلة من مصادر موثوقة، حاول أن تطالع القرآن العظيم باللغة العربية إن كنت تحسنها، أو من الترجمة الصادقة، فإنه لا شك سيجذبك إليه لدراسته بتفصيل، إذا خلعت عنك رداء التعصب الذميم، والتقليد الأعمى، والتربية الحاقدة، التي تربيت عليها.

قبل أن أودعك، فإني أستصرخ ضميرك أن تسارع إلى دراسة الإسلام من مصادره الصحيحة: من القرآن، وحديث الرسول محمد، فإنه في ذلك نجاتك، ونجاة قومك، ونجاة البشرية جميعاً، من القلق، والاضطراب، والهلاك في الدنيا، وعذاب الله في الآخرة.

واذكر أن مئات الغربيين المفكرين المنصفين من جميع الدول الأوروبية والأمريكية دخلوا ويدخلون في الإسلام وأثنوا عليه، وشهدوا بأن باستطاعته حل جميع مشكلات العرب بسرعة وأنه- لا شك سيكون دين الغربيين في الوقت القريب، فما يمنعك أن تكون واحداً منهم فتنال سعادة الدنيا والآخرة.

واذكر في الختام أننا قد بلغناك دعوة الإسلام. فأصبحت مسؤولاً أمام الله عن الإيمان به. كما دعاك إلى ذلك السيد المسيح عليه السلام. ولا تنس في هذه المناسبة أن الإسلام غير المسلمين اليوم، فهم لا يعطون صورة صحيحة عنه. وهو

غير مسؤول عن تأخرهم وضعفهم وانحطاطهم. بعد أن تركوا التمسك به بحق، بسبب إهمالهم وانجرافهم في دعاية المستعمرين والمبشرين ضده.

ولا تنس أيضاً أن المسلمين لما تمسكوا بالإسلام تمسكاً صحيحاً وقوياً. وحدهم بعد فرقة. وقواهم بعد ضعف. ومدنهم بعد تأخر. وجعل منهم خير أمة أخرجت للناس. ولما تركوه انهاروا وخذلوا، يشهد على ذلك التاريخ!

بعكس الحال في النصرانية بسبب تحريفها فإن الأوروبيين لما تمسكوا بها قد تأخروا وعاشوا في العصور الوسطى المظلمة في الغرب. والمتلألئة الراقية في الشرق بسبب حكم الإسلام ومبادئ الإسلام.

إن العالم اليوم يعيش في جاهلية مدمرة، وفوضى رهيبة. كما كان يعيش قبل بعثة الرسول محمد، وكلما تقدم الزمن فقد سعادته. وزاد في شقائه، وليس سوى الإسلام المنقذ والمخلص الوحيد.

● زعماء العالم

وبمناسبة الحديث عن الإسلام اذكر أن زعامة العالم في هذا الدين العظيم لن تكون للعرب خاصة، إنما تكون لأكثر الناس صلاحاً وإنتاجاً وتطبيقاً لمبادئ الإسلام التي هي مبادئ الحق، والقوة، والخير، والسلام، والجمال.

إن أول ما ينادي به الإسلام من أجل تحقيق السلام على الأرض. وإثارة الضمير الإنساني، أنه يعلن في مناسبات كثيرة أن البشرية ترجع في أصلها إلى نسب واحد وأبوين مشتركين، وإذا حكمنا العقل نجد أن كل ضرر يلحق بإحدى الجماعات البشرية ينتقل إلى الجماعات الأخرى بطريقة مباشرة، أو غير مباشرة، مما يدعوهم إلى المحبة، والوئام، والسلام.

وهذا المفهوم إذا كان غريباً في القديم، فإنه اليوم بعد اختراع وسائل النقل السريعة العجيبة والإذاعة والتلفزيون والهاتف والبرق... أصبح مقبولاً وضرورياً، فقد غدت الكرة الأرضية كوطن واحد، أو بلد واحد، وغدا سكانها كأسرة واحدة، أو كشعب واحد، فهل رأيت أسرة واعية أو شعباً مفكراً ينشأ بين أفراده النزاع والخصام؟

وبعد هذا النداء يعلن الإسلام. أنه لا بد لهذه المجموعة الإنسانية الواحدة من تشريع عظيم موحد، يعلمها حقوقها وواجباتها كيلا تختلف، ولا تتنازع فإنه ليس كاختلاف الناس في القوانين، والمعارك، سبب في النزاع، والخصام، فوضع لهم نظاماً راقياً ينطلق بهم في ميادين الرقي. والفضيلة. والسعادة، والسلام، فلا نزاع، ولا ظلم، ولا حرب، ولا جحود، ولا تأخر.

وليس هذا الكلام دعاية فارغة، فقد طبق الإسلام منذ قرون سابقة، فحقق جميع هذه الأهداف بشهادة المنصفين من الغربيين، وأوجد مدنية دمشق، وبغداد، والأندلس، فكانت سبب مدنية الغرب وإعجابه.

آه! ما أحوج الغربيين اليوم إلى الإسلام ليعلمهم الحياة السعيدة الراقية التي لم يذوقوها حتى الآن، صحيح أنهم طاروا في السماء، وغزوا القمر، ولكنهم ويا للأسف- لم يعرفوا حتى كيف يعيشون على الأرض بسعادة وسلام، فكانت هذه الاختراعات والاكتشافات سبب شقائهم، وباتت تهددهم بالدمار والفناء.

اذكر على الدوام أن محمداً رسول الله كما وصف نفسه- رحمة مهداة من الله إلى الإنسانية، وقد بعثه ليخرج الناس:

١- من عبادة المخلوق إلى عبادة الله وحده.

٢- ومن ضيق الدنيا إلى سعتها.

٣- ومن جور الأديان إلى عدالة الإسلام.

٤- ويحل لهم الطيبات، ويحرم عليهم الخبائث.

واذكر في ختام هذه الرسالة أن البشرية اليوم منقسمة إلى معسكرين متخاصمين، ويوشك أن تقع حرب مدمرة بينهما بسبب اختلافهما في الفردية والجماعية، في الرأسمالية، والشيوعية، وفي الروحية، والمادية، ولا يمكن توحيد هذين المعسكرين والتوفيق بينهما إلا بالإسلام، فهو وسط بن الرأسمالية، والشيوعية، وبين الفردية. والجماعية، وبين الروحية، والمادية.

تعال نصل إلى الله تعالى، وندعوه أن يجمع البشرية على دين واحد صحيح، يوحد بينها، ويحقق لها السعادة والرقي والسلام.

افتراء المستعمرين

العدد (٩٧) محرم (١٣٩٣م) - فبراير (١٩٧٣م).

من أنواع الحملات التي تفنن المبشرون والمستشرقون من ذوي الأغراض الماكرة في شنها على الإسلام لتزهيد المسلمين فيه وإبعادهم عنه ليصبحوا نهباً مقسماً للفوضى والاضطراب في التشريع ونظام الحياة، كي يسهل القضاء عليهم...

أجل من أنواع هذه الحملات التي يتفنن هؤلاء المبشرون والمستشرقون وأبواقهم المقلدة من أبناء جنسنا ويا للأسف في شنها على الإسلام.. اختلاق العيوب على كثير من تشريعاته كالحجاب والطلاق وتعدد الزوجات وقسوته في العقوبات، ولست في مجال تعداد مزايا هذه التشريعات وإثبات أنها فضائل لا عيوب، إنما أود بيان أن الإسلام ليس وحده الذي أتى بهذه الأنظمة.

فلماذا تشن عليه الحملات من هؤلاء المستعمرين والمستشرقين؟

وجميع هذه الأديان سواء في الحض على الحجاب وإباحة الطلاق وتعدد الزوجات والحزم في معاقبة الزناة والقتلة واللصوص!

كل ذلك يثبت مبلغ الحقد والبغض والافتراء الذي يشنه خصوم الإسلام عليه ظلماً وعدواناً لإبعاد أبنائه عنه وعن جهاده كي يصبحوا لقمة سهلة الازدراد والضياع، ولتنفير العالم منه، وقد بدأ يهتم بالإسلام ويستعد لدراسته وقبوله، بعد ما يئس من نظمه الوضعية الفاشلة التي تقوده إلى الهلاك.

إننا لا نقول القول جزافاً.

وليس لنا غاية بأن ندافع عن الإسلام بأسلوب اتهام غيره.

كلا.. ثم كلا..

فها نحن أولاء نأتي على المصادر اليهودية والنصرانية في إثبات الحجاب وجواز الطلاق وتعدد الزوجات وقتل القاتل ورجم الزاني وقطع يد السارق..

● الحجاب

جاء في الإصحاح الرابع والعشرين من سفر التكوين عن «رفقة» أنها رفعت عينيها فرأت إسحاق.. فأخذت البرقع وتغطت..

وفي الإصحاح الثامن والثلاثين من سفر التكوين أيضاً أن «تامار».. خلعت عنها ثياب ترملها وتغطت ببرقع وتلففت..

وبعد ذلك بزمن كان فيليب أوف هيس، وفريدريك وليام الثاني البروسي، يبرمان عقد الزواج مع اثنتين بموافقة القساوسة اللوثريين، وأقر لوثر نفسه تصرف الأول منهما، كما أقره فلانكتون، وكان لوثر يتكلم في مختلف المناسبات عن تعدد الزوجات بغير اعتراض، فإنه لم يحرم بأمر من الله تعالى.

وفي سنة ١٦٥٠ الميلادية - بعد صلح وستفاليا بعد أن تبين النقص في عدد السكان من جراء الحرب الثلاثين- أصدر مجلس الفرنسيين بنورمبرج قراراً يجيز للرجل أن يجمع بين زوجتين، بل ذهبت بعض الطوائف النصرانية إلى إيجاب تعدد الزوجات، ففي سنة ١٥٣١ نادى اللامعمدانيون في مونستر صراحة: بأن المسيحي- حق المسيحي- ينبغي أن تكون له عدة زوجات، ويعتبر المورمون كما هو معلوم أن تعدد الزوجات نظام إلهي مقدس..

● الطلاق

جاء في الإصحاح الرابع والعشرين من التثنية: إذا أخذ رجل امرأة وتزوج بها، فإن لم تجد نعمة في عينيه، لأنه وجد فيها عيوباً شتى، وكتب لها كتاب طلاق ودفعه إلى يدها، وأطلقها من بيته، ومتى خرجت من بيته ذهبت وصارت لرجل آخر.

وجاء في الإصحاح الثالث من كتاب أرميا: «إذا طلق رجل امرأته فانطلقت من عنده وصارت لرجل آخر، فهل يرجع لها بعد؟ ألا تتنجس تلك الأرض نجاسة؟»

ولا أدري لماذا تتنجس إذا رجعت إلى زوجها الأول ولم تتنجس إذا تزوجها

الزوج الثاني؟!!

جاء في الإصحاح السابق: «وأما المتزوجون فأوصيهم- لا أنا بل الرب- ألا تفارق المرأة رجلها، وإن فارقته- وهذا اعتراف منه بجواز الطلاق- فلتلبث غير متزوجة أو لتصالح رجلها».

وجاء في إنجيل متى: «أن السيد المسيح سئل عن الطلاق فاستنكره لقسوته، وقال إن من طلق امرأته لغير الزنى جعلها تزني، ودفع بالزوجة إلى اقتراف الرذيلة» «هل صحيح أن النساء جميعاً يزنين إذا طلقن؟!!».

وقيل من طلق امرأته فليعطها كتاب طلاق، وأما أنا فأقول لكم إن من طلق امرأته إلا لعلة الزنى يجعلها تزني، ومن يتزوج مطلقة فإنه يزني!

ولا أدري كيف نوفق بين هذا النص للمسيح عليه السلام الذي لا يفهم منه تحريم الطلاق؟

وفي الإصحاح الثالث من سفر أشعيا إن الله سيعاقب بنات صهيون على تبرجهن والمباهاة برنين خلاخيلهن.

ويقول بولس المسمى بالرسول في رسالة كورنتوس الأولى: إن النقاب شرف للمرأة.

ولا يخفى أن البرقع أشد من الحجاب.

- **تعدد الزوجات**

جاء في أخبار العهد القديم أن داود وسليمان عليهما السلام قد جمعا بين مئات الزوجات الشرعيات والإماء، حتى نسب اليهود ظلماً وكذباً إلى سيدنا داود أنه أراد الزواج بامرأة قائده «أوريا» بالإضافة إلى زوجاته الكثيرات. بعد تعريض هذا القائد للقتل، وقد وقع كثير من المفسرين المسلمين في هذه الخطيئة بسبب أخذهم الإسرائيليات كأنها حقائق ثابتة!

وفي الإصحاح الثاني عشر من سفر صمويل الثاني يقول النبي ناتان لداود: «أنا مسحتك ملكاً على إسرائيل وأنقذتك من يد شاول وأعطيتك بيت سيدك ونساء سيدك.. لماذا أخذت امرأة أوريا لك امرأة؟!».

وفي الإصحاح الحادي عشر من سفر الملوك الأول كانت لسليمان سبعمائة من النساء والسيدات وثلاثمائة من السراري.

ويقول نيوفلد صاحب كتاب «قوانين الزواج عند العبرانيين الأقدمين»: «إن التلمود والتوراة معاً قد أباحا تعدد الزوجات على إطلاقه».

والديانة النصرانية هي تبع للديانة اليهودية لقول المسيح عليه السلام: «ما جئت لأنقض الناموس بل جئت لأتمم». فيمكن أن نجزم بإباحة تعدد الزوجات فيها، لاسيما وأنه لم يرد في الإنجيل نص صريح بتحريم هذا التعدد، غير أنه ورد في كلام بولس استحسان الاكتفاء بزوجة واحدة لرجل الدين.

وقال الأستاذ عباس محمود العقاد في كتابه «المرأة في القرآن الكريم»:

«وبقي تعدد الزوجات مباحاً في العالم المسيحي إلى القرن السادس عشر، كما جاء في تواريخ الزواج بين الأوروبيين»، ويقول وستر مارك في تاريخه: «إن ديارمات ملك إيرلنده كان له زوجتان، وسريتان، وتعددت زوجات الملوك الميروفنجين غير مرة في القرون الوسطى، وكان لشرلمان زوجتان وكثير من السراري، وكان يظهر من بعض قوانينه أن تعدد الزوجات لم يكن مجهولاً بين رجال الدين أنفسهم».

بل الزجر عنه، وبين قوله: «إنني ما جئت لأنقض الناموس»- أي الديانة اليهودية وهي تبيح الطلاق كما رأينا- «بل جئت لأكمل».

وعلى كل حال فإن جميع الدول الأمريكية والدول الأوروبية وآخرها إيطاليا بلد الفاتيكان! قد أخذت بالطلاق.

وبمناسبة الكلام على اشتراط الإنجيل- الحالي- الزنى في الطلاق، وهو أمر غير طبيعي ولا معقول، أنشئت في أمريكا عصابات من «كبار» المثقفين.. من المحامين والأطباء والكتاب ورجال القانون.. مهمتها.. ماذا؟!

مهمتها تيسير مهمة الزنى.. لأغراض قانونية..!!

ففي الولايات الكاثوليكية لا يباح الطلاق إلا في جريمة الزنى من أحد الزوجين فيحق للزوج الآخر أن يطلب الطلاق، ومن ثم يلجأ الطرف الكاره الذي

يطلب الطلاق - سواء هو الزوج أو الزوجة - إلى واحدة من هذه العصابات للإيقاع بالطرف الآخر في جريمة زنى، وضبطه متلبساً، وإعطاء المستندات اللازمة التي تمكن من طلب الطلاق لقاء أجر معلوم.

● **العقوبات:**

إن عقوبة قتل القاتل العمد ورجم الزاني والزانية المحصنين وغير ذلك من العقوبات الشديدة تشترك فيها الديانات الثلاث، وقد أشار إلى بعض ذلك الله سبحانه في القرآن الكريم بقوله: «﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ﴾ أي في التوراة - ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ » (المائدة: ٤٥).

وقال مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: إن اليهود جاءوا إلى رسول الله ﷺ فذكروا له أن رجلاً منهم وامرأة زنيا، فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما تجدون في التوراة بشأن الرجم؟» فقالوا نفضحهم ويجلدون.. قال عبد الله بن سلام - وكان منهم وقد أسلم: كذبتم إن فيها الرجم، فأتوا بالتوراة، فنشروها فوضع أحدهم يده على آية الرجم فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك، فرفع يده، فإذا آية الرجم.

فقالوا: صدق يا محمد فيها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله، فرجما، فرأيت الرجل ينحني على المرأة يقيها الحجارة!!.. وهذا لفظ البخاري..

وفي هذه الحادثة نزل قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ التي وضعه الله عليها، أي يبدلونه ﴿يَقُولُونَ﴾ لمن أرسلوهم ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا﴾ أي المحرف أي الجلد أي أفتاكم به محمد ﴿فَخُذُوهُ﴾ فاقبلوه ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ﴾ بل أفتاكم بخلافه- أي بالرجم- فاحذروا» أي أن تقتلوه ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (المائدة: ٤١).

ومما سبق ندرك كذب وافتراء المستعمرين والمبشرين الذين يحاولون الطعن في الإسلام بتخصيصهم له في هذه النظم السابقة، متجاهلين ومتناسين أنها شرائع التوراة والإنجيل كما هي شريعة القرآن، وهي في منتهى العدل والحكمة كما ظهر ذلك حين تطبيقها في صدر الإسلام فكانت سبباً في تحقيق المدينة الفاضلة وإنشاء الجيل المثالي لأول مرة في تاريخ البشرية ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ (التوبة: ٣٢- ٣٣).

كل ذلك بعكس نظمهم وتشريعاتهم الوضعية من ديموقراطية وشيوعية، وقد نرى مصارعها وفشلها في هذا العهد، كما رأينا مصارع الفاشية والنازية من قبل!

وأهم ما يريده الطغاة المفسدون من دسائسهم وافتراءاتهم أن يظهروا الإسلام للمرأة المسلمة بأنه عدوها، وأنه ظلمها في الوقت الذي حماها من الاعتداء على حقوقها والتبذل في سلوكها، وأعطاها حقوقها كاملة لأول مرة في التاريخ دون أن ترفع صوتاً أو تقدم احتجاجاً للمطالبة بها..

ألا ساء ما يعملون.

وساء ما يفترون.

وإذا كنا ذكرنا مما سبق وجه الشبه بين القرآن والتوراة والإنجيل في بعض الأحكام والتشريعات، فليس معنى ذلك أن الإسلام يقر كل ما جاء في اليهودية والمسيحية بعد تحريفهما من آراء ونظم عن المرأة، بل الأمر بالعكس، فقد ثار هذا الدين العظيم على كل ما يسيء إلى المرأة ويستذلها.. وإلى القارئ بعض ما جاء في الديانتين اليهودية والنصرانية وأقوال رؤسائهما من انحرافات يبرأ منها الحق والعدل والذوق ويحاربها الإسلام بلا هوادة، وذلك في قصة غريبة واقعية قصها عليَّ أحد طلابي:

ذهبت فتاة مسيحية إلى الكنيسة صحبة خطيبها لعقد زواجهما في ألمانيا الغربية وكان معهما طائفة كبيرة من أصدقاء وأقرباء كل منهما. وكان هذا الزوج مثقفاً درس بعض مبادئ الدين الإسلامي.

وما كاد القس ينتهي من مراسيم العقد حتى راح يوصي الزوج بقوله: «إنني أوصيك يا بني ألا تظلم زوجتك وتسيء معاملتها، وتحتقرها كما يحتقر الدين الإسلامي المرأة ويأمر المسلمين بسوء معاملتها!!

فغضب الزوج من هذا الكلام وقال بأعلى صوته:

«هذا الكلام مغاير للحقيقة، فإن الذي يحتقر المرأة ويأمر بظلمها هي الكنيسة، وما جاءت به من مبادئ، وما زعمته من أقوال المسيح، وهو لا شك بريء منها!».

ثم تمم الزوج كلامه:

«كل ذلك بعكس ما جاء به الإسلام الذي له الفضل الأكبر في إنصاف المرأة، وإعطائها حقوقها كاملة لأول مرة في تاريخ البشرية».

فدهش القس من هذه المفاجأة والتف القسس حول الكاهن، وتجمهر المدعوون حول الزوجين يطلبون من رجال الكنيسة التحقيق في ادعاء هذا الزوج، حتى إذا كان مخطئاً أقنعه القس بالتراجع عن كلامه..

اضطرب الكاهن لجرأة الزوج، وغلب على أمره تجاه ضغط الحضور فسأله عن دليله فيما يقول:

فتقدم بكل شجاعة وقال: ألم تقل الكنيسة في مبادئها:

«إن المرأة ينبوع المعاصي وأصل السيئة والفجور، وهي للرجل باب من أبواب جهنم من حيث هي مصدر تحريكه وحمله على الآثام، ومنها انبجست عيون المصائب الإنسانية جمعاء، فبحسبها ندامة وخجلاً أنها امرأة وينبغي أن تستحي من حسنها وجمالها، لأنه سلاح إبليس الذي لا يوازيه سلاح من أسلحته المنوعة، وعليها أن تكفر ولا تنقطع عن أداء الكفارة أبداً، لأنها هي التي قد أتت بما أتت به من الرزء والشقاء للأرض وأهلها».

ودونكم ما قاله ترتوليان أحد أقطاب المسيحية الأول وأئمتها، مبيناً نظرية المسيحية في المرأة:

«إنها مدخل الشيطان إلى نفس الإنسان، وأنها دافعة بالمرء إلى الشجرة

الممنوعة، ناقضة لقانون الله، ومشوهة لصورة الله- أي الرجل».

وكذلك يقول كرائي سوستام الذي يعد من كبار علماء الديانة المسيحية في شأن المرأة:

«هي شر لا بد منه، ووسوسة جبلية، وآفة مرغوب فيها، وخطر على الأسرة والبيت، ومحبوبة فتاكة ورزء مطلي مموه».

ثم قال هذا الزوج:

ألم يجتمع مجمع «ماكون» في القرن الخامس للبحث في مسألة: «هل المرأة مجرد جسم لا روح فيه؟ أو لها روح؟».

وأخيراً قرر رجال الكنيسة في هذا المجمع: «إن المرأة خلو من الروح الناجية (من عذاب جهنم) ما عدا أم المسيح».

ألم يجتمع أيضاً مؤتمر في فرنسا عام ٥٨٦ تحت إشراف الكنيسة للبحث: «هل تعد المرأة إنساناً أو غير إنسان؟» وأخيراً قرروا «أنها إنسان خلقت لخدمة الرجل فحسب» وقد جاء في التوراة التي يدين بها اليهود والنصارى: «المرأة أمرّ من الموت!! وإن الصالح أمام الله ينجو منها، رجلاً واحداً بين ألف وجدت، أما امرأة، فبين كل أولئك لم أجد!!».

فهل بعد هذا الاحتقار من قبل الكنيسة للمرأة احتقار؟!

وهل بعد هذا الظلم لها من ظلم؟!

هذا- وقد ذكرت الكنيسة لنا على لسان المسيح في الإنجيل أنه قال: «...إنه يولد خصيان ولدوا هكذا من بطون أمهاتهم، ويوجد خصيان خصاهم الناس، ويوجد خصيان خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السموات، من استطاع أن يفعل فليفعل»[١].

فهل يعقل أن يقول هذا المسيح، فيعطل فطرة الرب في الزواج؟!

ومن المؤسف أن يعلق «ترتوليان» السابق الذكر على ما زعمته الكنيسة أنه من أقوال المسيح «لقد فتح المسيح للخصيان أبواب السماء؛ لأن حالتهم قد باعدت

(١) إنجيل متى: الإصحاح ١٩ الفقرة ١١.

بينهم وبين قربان النساء».

ولا يخفى على عاقل عاقبة الخصي ونتيجته في تشريد ملايين النساء وتركهن بدون أزواج، الأمر الذي يدفعهن إلى ارتكاب مختلف الجرائم الجنسية.

ومما يؤسف له أن العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة هي نجس في نفسها بنظر الكنيسة، فيجب أن تتجنب، ولو كانت عن طريق نكاح وعقد رسمي مشروع ولنأخذ لذلك مثلاً شائعاً بين النصارى خلاصته:

أن الزوجين اللذين اتفق لهما أن يبيتا معاً ليلة عيد من الأعياد، لا يجوز لهما أن يعيِّدا ويشتركا مع القوم في رسومهم ومباهجهم، كأنهما قد اقترفا إثماً سلبهم حق المشاركة في حفل ديني.

ومن أعظم الأدلة على احتقار الكنيسة للمرأة والسعي لتعذيبها.

أن القانون الإنجليزي حتى عام ١٨٠٥ كان يبيح للرجل- تحت تأثير النظرة المسيحية للمرأة- أن يبيع زوجته، وقد حدد ثمن الزوجة بستة بنسات (نصف شلن).

وقد حدث منذ أعوام أن باع إيطالي زوجته لآخر على أقسام فلما امتنع المشتري عن سداد الأقسام الأخيرة قتله الزوج البائع!

وهذا الاحتقار والذم للمرأة قد انتقلا عن المسيحية إلى كثير من الآداب الأوروبية، فقد جاء في المثل الروسي: «لا تجد في كل عشر نسوة غير روح واحدة».

وجاء في المثل الأسباني: احذر المرأة الفاسدة، ولا تركن إلى المرأة الفاضلة!.

وجاء في المثل الإيطالي: المهماز للفرس الجواد والفرس الجموح، والعصا للمرأة الصالحة، والمرأة الطالحة.

وأخيراً ختم الزوج كلامه قائلاً: «إنني أعلنها صريحة إن الكنيسة تحمل اليوم أعظم الجريمة فيما نراه في الغرب من انهماك في الشهوات الجنسية وتكالب على الزنى.. كنتجية حتمية لرد الفعل لتعاليم الكنيسة التي حاربت الفطرة الإنسانية

قروناً طويلة ثم ما لبث الغربيون أن ثاروا على نظمها وفكوا الأغلال وكسروا القيود وانطلقوا رجالاً ونساء في حياة الفجور وساروا وراء غرائزهم الجنسية إلى أبعد الحدود حتى بات الغرب مهدداً بخطر مخيف.



خطر إهمال التبشير في ديار الغرب

العدد (٩٨) صفر (١٣٩٣هـ) - مارس (١٩٧٣م).

إننا معشر المسلمين نعيش اليوم في خطر داهم، فإن الغرب يحاربنا حرباً صليبية لا هوادة فيها، ويعتبر قتالنا جهاداً مقدساً بسبب ما غرسه المبشرون في سكانه من عداوة لنا منذ نشأتهم، فهم يعتبروننا- ظلماً وافتراء- أعداء المسيح، وأعداء الإنسانية، ويحسبون تشريعنا تشريعاً همجياً، ويصفون رسولنا محمدا- صلى الله عليه وآله وسلم- بأنه من سفاكي الدماء، ومحبي الشهوات، والكذب على الله تعالى.

كل ذلك ليحجب هؤلاء المبشرون نور الإسلام عن البشرية، ويبقوا متمتعين بامتيازاتهم وسلطانهم.

لنستمع الآن إلى ما يقوله أحد المتعصبين من الغربيين، وما يذيعه على قومه، وهو باحث مستشرق فرنسي يدعى «كيمون» فقد ذكر في كتابه: «باثولوجيا الإسلام»:

«أن الديانة المحمدية جذام تفشى بين الناس وأخذ يفتك بهم فتكاً ذريعاً، بل هو مرض وشلل عام، وجنون ذهولي يبعث الإنسان على الخمول والكسل، ولا يوقظه منهما إلا ليسفك الدماء ويدمن على معاقرة الخمور، ويجمع بين القبائح، وما قبر محمد إلا عمود كهربائي يبعث على الجنون في رؤوس المسلمين ويلجئهم إلى الإتيان بمظاهر الصرع العامة والذهول العقلي وتكرار لفظة «الله»[1] إلى ما لا

(١) انظر كيف تسيء البدع والأوهام إلى سمعة الإسلام، فإن الذكر بلفظ «الله، الله» لم يرد في الكتاب أو السنة، وخاصة إذا كان مصحوباً بالرقص كما يحدث ذلك فيما يسمونه بحلقات الذكر، مما جعل هذا المستشرق يظن أن ذلك من الإسلام وراح يسميه بمظاهر الصرع والذهول العقلي.

نهاية والتعود على عادات تنقلب إلى طباع أصيلة ككراهية لحم الخنزير والنبيذ والموسيقى وترتيب ما يستنبط من أفكار القسوة والفجور في اللذات»[١].

ويرى هذا المستشرق الخبيث وأمثاله كثيرون، المسلمين وحوشاً ضارية ويعتقد أن من الواجب إبادة خمسهم والحكم على الباقين بالأشغال الشاقة وتدمير الكعبة، ووضع ضريح محمد- صلى الله عليه وآله وسلم- في متحف اللوفر[٢].

يا للهول. . فكيف يهنأ لنا حال، ويهدأ لنا بال؟ وهذا ما يذاع عن الإسلام في ديار الغرب، ونحن ساهمون لاهون، ثم لا تلبث أن تنصب علينا حمم وقذائف الغربيين انتقاماً وتشفياً منا نتيجة هذه الدعايات والافتراءات التي لا نكلف أنفسنا الرد عليها بصورة صحيحة وعملية منتجة تصل إلى جميع الأسماع والأنظار.

وقد يعمد هؤلاء الغربيون قبل محاربتنا مادياً، إلى شن الحملات الثقافية والغزو الفكري بين أبنائنا وبناتنا لتسميم أفكارهم عن الإسلام عن طريق مدارسهم التبشيرية والعلمانية وبوساطة البعثات والسينما والكتب والمجلات وغيرها ليكونوا حرباً علينا وعلى عقيدتنا من الداخل.

إن الإسلام- والمسلمين- في حرب إذًا من الخارج والداخل ضد قوى هائلة، وإذا كنا باقين على شيء من الحياة، فلأن هؤلاء المستعمرين مختلفون فيما بينهم على اقتسام الغنيمة، ولو اتفقوا- كما كانت الحال عقب الحرب العالمية الأولى- لعمدوا إلى استعمارنا وامتصاص دمائنا، وبالتالي إلى إفنائنا واستئصالنا! وذلك لأن نفوسهم تغلي حقداً على الإسلام والمسلمين بسبب التربية الإجرامية والتوجيهات الهدامة والإشاعات الماكرة التي يتلقونها في بيوتهم ومدارسهم ومعابدهم، وقد رأينا مثالاً من هذا الحقد في كلام «كيمون» وقد جاء في إحدى الأناشيد الإيطالية التي تعلم للطلبة في المدارس:

«إني ذاهب يا أمي إلى الجهاد لمحو القرآن، وإذا ما مت، فلا تحزني علي، وإن سئلت عن سبب عدم حدادك، فقولي- وأنت فرحة- لقد استشهد في سبيل

---

(١) تاريخ الإمام محمد عبده (٣/ ٤٠٩).

(٢) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر (١/ ٢٢٧).

القضاء على الإسلام».

وقد أعلن قادة فرنسا في مناسبات كثيرة أن الحرب في الجزائر بين الصليب والهلال بقصد الانتقام من المسلمين.

والمستعمرون غالباً يخفون نواياهم الدينية- أحياناً- تحت أستار اقتصادية وسياسية وغيرها من الحيل، ولكن غايتهم الحقيقية هي القضاء على الإسلام والمسلمين.

وقسماً بالله لو أن عرب فلسطين كانوا نصارى لما كان لهم هذا المصير، وهذه شعوب البلقان النصرانية، فإن أول ما فعلته حكومات أوروبا لما قويت، المسارعة إلى تحريرها من سلطان الدولة العثمانية المسلمة.

كل ذلك يفعله الغربيون على الرغم من حسن معاملة المسلمين لهم في عهود مجدهم وقوتهم، فمدوا إليهم يد المعونة وأنقذوهم من ظلمات الجهل باعتراف علمائهم ومؤرخيهم المنصفين مما لا مجال لسرده هنا.

* * *

والآن، ما العمل؟ وكيف النجاة من أخطار الغربيين وغزوهم؟ ريثما يتم لنا الحصول على قوة كقوتهم واستعداد كاستعدادهم؟

السبيل إلى ذلك التبشير بالإسلام في البلدان الغربية لإطلاع الغربيين على عظمة الإسلام وإنسانيته وسماحته وسمو مبادئه، ومبلغ حاجتهم إليه وما خسروه بسبب محاربتهم له، وأنه صديق المسيح عليه الصلاة والسلام، ومؤمن بنبوته، وقد جاء هذا الدين رحمة للعالمين فاستطاع النهوض بالعرب خلال مدة قصيرة من الزمن، فانطلقوا من باديتهم وفتحوا الدنيا المعروفة وقتئذ وملأوها عدلاً ورحمة بعدما ملئت جوراً وهمجية.. وهو لا يزال- وإلى الأبد- يحمل بين طياته عناصر القوة والسعادة والمعرفة..

وينبغي أن يكون هذا التبشير على مستوى عال وبأرقى وسائل الإعلام، ونذكر فيما يلي نماذج منها لبيان مزايا الإسلام وحاجة الغرب إليه، كل ذلك بمختلف

اللغات الأجنبية:

١- استئجار بعض الصحف والمجلات الغربية.

٢- الاتصال بالعلماء والأدباء الغربيين وإطلاعهم على الإسلام.

٣- صنع الأفلام السينمائية وعرضها في الغرب.

٤- المسارح والفرق التمثيلية.

٥- تأليف الكتب والنشرات المبسطة عن الإسلام.

٦- إنشاء مجلات إسلامية وخاصة للأطفال.

٧- التعاون مع الغربيين الذين أسلموا لوضع المخططات لنشر الإسلام.

٨- تقوية الإذاعات العربية لإيصال صوت الإسلام إلى أسماع جميع الغربيين بأساليب حديثة مشوقة.

ويحسن إلى جانب ما سبق، إعلام الغربيين بما جاء في كتبهم الدينية من تحريف وتناقض ومعوقات عن التقدم والرقي.

كما يحسن أيضاً إعلام هؤلاء الغربيين عما جاء في هذه الكتب من توحيد الإله ونبوة المسيح، وبعثة محمد عليهما الصلاة والسلام.

وينبغي أن نشير بمناسبة الكلام عن التبشير إلى أن الظروف الحاضرة كلها مواتية له، فإن الغرب اليوم يعيش في قلق مخيف وفراغ سحيق بسبب إفلاس وعجز الديانة المسيحية ومثلها جميع النظم والقيم التي وضعها الغربيون لأنفسهم.. فكانت سبب اضطرابهم.. ووقوعهم فريسة للمادة التي كرسوا حياتهم لها، فكان مثلهم مثل عبدة الأصنام الذين صنعوا معبودهم، فما لبث أن أذلهم وأعمى أبصارهم..

هذا مثل الحياة المادية التي يعيشها الغربيون، فغدوا أسرى لها، وأفنوا أعمارهم من أجل الحصول عليها دون أن تحقق لهم الاستقرار والسعادة والطمأنينة بل كانت سبب حروب طاحنة بينهم.

واليوم شعروا بالفراغ نتيجة البعد عن القيم الروحية، ونادى كبار علمائهم ومفكريهم بقرب انهيار حضارتهم بسبب ذلك، وسموا هذا العصر بعصر القلق

على الرغم من توفر جميع الوسائل المادية.

ففي هذه الأزمة الروحية إذا تقدم المسلمون بالإسلام الصحيح من منبعيه الفياضين: الكتاب والسنة، لا من الاختلافات المذهبية المضطربة، وبالأساليب الحديثة النفسانية (السيكولوجية) وأثبتوا للغربيين استعداد هذا الدين وقدرته على حل جميع مشكلاتهم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية كما اعترف بذلك كثير من علمائهم المنصفين.

أجل إذا تقدم المسلمون بالإسلام إلى الغربيين بالصورة السابقة، فإنهم لا شك سيقبلون عليه إقبال الظمآن على الماء العذب، وسيدخلون فيه أفواجاً...

وبذلك نكون قد أنقذناهم من خطر داهم ينتظرهم من جراء فقدان المثل العليا واستعدادهم الجهنمي الذي يهدد البشرية كلها بالفناء.

كما نكون قد أنقذنا أنفسنا وأبناءنا الذين يسيرون وراءهم ويدورون بفلكهم.

وكذلك نكون قد أنقذنا الحضارة من شر محدق، ووجهنا هؤلاء الغربيين العباقرة وجهة صالحة نحو الحق والخير والسلام، وفتحنا للبشرية صفحة جديدة تحقق لها السعادة والرقي الصحيح.

لقد بشر الله سبحانه في القرآن العظيم بهذا اللقاء، وبإسلام العالم أجمع في قوله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ (فصلت: ٥٣).

وقوله ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ۝٩﴾ (الصف: ٩).

كما بشر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بهذا المستقبل العظيم للإسلام بقوله: «ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين، بعز عزيز أو بذل ذليل، عزاً يعز الله به الإسلام، وذلاً يذل به الكفر» رواه أحمد والطبراني والحافظ المقدسي وقال: حديث حسن صحيح، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي.

وقد أعلن كثير من منصفي علماء الغرب وفلاسفته عن قرب اليوم الذي يدخل فيه الغربيون الإسلام، فقال الفيلسوف الإنكليزي «برنارد شو»:

«إن محمداً يجب أن يدعى منقذ الإنسانية، ولو أن رجلاً مثله تولى قيادة العالم الحديث لنجح في حل مشكلاته بطريقة تجلب إلى العالم السلام والسعادة اللذين هو في أشد الحاجة إليهما، وإن الإسلام هو الدين الوحيد الذي يلوح لي أنه حائز أهلية الهضم لأطوار الحياة المختلفة بحيث يستطيع أن يكون جذاباً ومقبولاً لكل جيل من الناس، وقد تنبأت أنه سيكون مقبولاً لدى أوروبا غداً، وقد بدأ يكون مقبولاً لديها اليوم.. وفي الوقت الحاضر كثيرون من أبناء قومي، ومن أهل أوروبا دخلوا دين محمد، حتى لنتمكن أن نقول: إن تحول الغرب إلى الإسلام قد بدأ»(١).

هذا، وإذا سلمنا جدلاً أن الغرب في الوقت الحاضر لا يدخل في الإسلام فإننا نكون في هذا التبشير قد قمنا بواجبنا الديني، وأطلعنا الغربيين على ديننا وعرفناهم بمبادئه، وهم- ولا شك- سيقلعون عن محاربته وعن قتالنا.

* * *

ومن الغريب- والغريب جداً- أن يهمل المسلمون التبشير بدينهم وقد خص الله سبحانه في القرآن سهماً معيناً ومستقلاً من أموال الزكاة للتبشير، وهو سهم «المؤلفة قلوبهم» ولو استخدمه المسلمون بوعي لانتشر الإسلام في كل مكان..

وقد فهم الخليفة عمر بن الخطاب- رضي الله تعالى عنه- من هذا السهم قسما معيناً من الناس، فلما قوي الإسلام امتنع عن إعطائه لهم، وهو أوسع من ذلك قال الإمام ابن كثير في تفسيره:

«وأما المؤلفة قلوبهم فأقسام، منهم من يعطى ليسلم كما أعطى النبي صلى الله عليه وآله وسلم صفوان بن أمية من غنائم حنين، وقد كان شهدها مشركاً قال: فلم يزل يعطيني حتى صار أحب الناس إلي بعد أن كان أبغض الناس إليَّ. كما قال الإمام أحمد: حدثنا زكريا بن عدي، حدثنا ابن المبارك عن يونس عن الزهري

---

(١) من رسالة سماها «نداء العمل» نشرت في مجلة «نور الإسلام» التي كان يصدرها الجامع الأزهر.

عن سعيد بن المسيب عن صفوان بن أمية قال- وذكر الحديث السابق رواه مسلم والترمذي من حديث سعيد بن يونس عن الزهري.

ومنهم من يعطى ليحسن إسلامه ويثبت قلبه كما أعطى يوم حنين أيضاً جماعة من صناديد الطلقاء وأشرافهم مائة من الإبل وقال: «إني لأعطي الرجل وغيره أحب إلي منه، خشية أن يكبه الله على وجهه في نار جهنم». وفي الصحيحين عن أبي سعيد أن علياً بعث إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم بذهبية في تربتها في اليمن فقسمها بين أربعة نفر: الأقرع بن حابس، وعيينة بن بدر، وعلقمة بن علاثة، وزيد الخير وقال: «أتألفهم».

ومنهم من يعطى لما يرجى من إسلام نظرائه، ومنهم من يعطى ليجبي الصدقات ممن يليه أو ليدفع عن حوزة المسلمين الضرر من أطراف البلاد، ومحل تفصيل ذلك في كتب الفروع والله أعلم.

وهل تعطى المؤلفة على الإسلام بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم؟ فيه خلاف، فروي عن عمر وعامر والشعبي وجماعة أنهم لا يعطون بعده، لأن الله قد أعز الإسلام وأهله ومكن لهم في البلاد، وأذل لهم رقاب العباد.

وقال آخرون: بل يعطون لأنه عليه الصلاة والسلام قد أعطاهم بعد فتح مكة وكسر هوازن وهذا أمر يحتاج إليه فيصرف إليهم»اهـ.

وجاء في تفسير الإمام ابن الجوزي قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ وهم قوم كان رسول الله ﷺ يتألفهم على الإسلام بما يعطيهم، وكانوا ذوي شرف، وهم صنفان: مسلمون وكافرون، فأما المسلمون، فصنفان، صنف كانت نياتهم في الإسلام ضعيفة، فتألفهم تقوية لنياتهم كعيينة بن الحصن، والأقرع، وصنف كانت نياتهم حسنة، فأعطوا تألفاً لعشائرهم من المشركين، مثل عدي بن حاتم، وأما المشركون، فصنفان، صنف يقصدون المسلمين بالأذى، فتآلفهم دفعاً لأذاهم مثل عامر بن الطفيل، وصنف كان لهم ميل إلى الإسلام، تألفهم بالعطية ليؤمنوا، كصفوان بن أميه، وقد ذكرت عدد المؤلفة قلوبهم في كتاب «التلقيح» وحكمهم باق عند أحمد في رواية، وقال أبوحنيفة، والشافعي: حكمهم منسوخ.

قال الزهري: «لا أعلم شيئاً من نسخ حكم المؤلفة قلوبهم». أهـ.

* * *

لنفكر من جديد في سهم المؤلفة قلوبهم، ولنصرفه كما خطط له الإسلام مما رأينا خلاصته سابقاً، فإنه كفيل بإحداث انقلاب عظيم في صفوف الغربيين ودخولهم في دين الله أفواجاً، أو نجاتنا من شرهم على أقل تقدير، والحفاظ على البقية الباقية من ثروة المسلمين من الضياع وابتلاع المستعمرين لها نتيجة إهمالنا التبشير بديننا.

وقد حرص الرسول ﷺ كما حرص القرآن العظيم على التبشير، فلم تصرفه مشكلاته في المدينة المنورة بعد هجرته إليها، وما لاقاه من مؤامرات المشركين من الخارج، ومؤامرات اليهود والمنافقين من الداخل عن هذا التبشير، فبعث الكتب والرسل إلى الملوك والأمراء والأقيال يبلغهم دعوة الإسلام ويحثهم على الدخول فيه مع أقوامهم الذين يحملهم تبعتهم.

وقد كان هذا الرسول العظيم يعرض نفسه على القبائل قبل الهجرة في موسم الحج ويشرح لها مبادئ الإسلام بمختلف الوسائل متحملاً في سبيل ذلك أنواع الاضطهاد والعنت، حتى دخل الكثيرون في الإسلام.

وقد رأيت من الطرافة - ونحن بصدد الحديث عن عرض الدعوة للإسلام - أن أتحدث عن الكتب التي أرسلها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وما رافقها من أحداث وتطورات، لعلها تثير فينا الحماسة وتبعثنا على التضحية فنسارع إلى تبليغ دين الله تعالى إلى الأمم جمعاء حتى نكون شهداء حقاً عليهم يوم القيامة بأننا بلغناهم وإلا كانوا معذورين بعدم إسلامهم، وكنا مسؤولين عن تقصيرنا، وعما نلاقي منهم من اعتداء..

وأول ما فعله هذا الرسول أن هيأ رسله وأعدهم لحمل هذه الكتب وقطع المسافات الشاسعة لتسليمها إلى أصحابها وتحمل كل ما يتصور أن يصيبهم بسببها من اضطهاد وقتل.

خرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم على أصحابه فقال: «أيها الناس، إن الله قد بعثني رحمة للناس كافة فلا تختلفوا علي كما اختلف الحواريون على عيسى بن مريم»..

قال أصحابه: وكيف اختلف الحواريون يا رسول الله؟

قال: «دعاهم إلى الذي دعوتكم إليه، فأما من بعثه مبعثاً قريباً، فرضي وسلم، وأما من مبعثه مبعثاً بعيداً، فكره وجهه وتثاقل».

ثم ذكر لهم أنه مرسل إلى هرقل وكسرى والمقوقس والحارث الغساني ملك الحيرة والحارث الحميري ملك اليمن، وإلى نجاشي الحبشة يدعوهم إلى الإسلام.

فأجابه أصحابه إلى ما أراد، فصنع له خاتماً من فضة نقش عليه «محمد رسول الله» وأرسل الكتب مع رسله.

ترى كيف كان مصير هذه الكتب وبماذا أجيب عنها؟

روى الطبري في الجزء الثالث من تاريخه أنه لما وصل كتاب رسول الله إلى هرقل ملك الروم، وهو بالشام يريد العودة إلى القسطنطينيه، جمع الروم وقال لهم ما ملخصه:

يا معشر الروم، إني عارض عليكم أموراً فانظروا فيما قد أردتها، قالوا: وما هي؟ قال: تعلمون - والله - أن هذا الرجل لنبي مرسل، إنا نجده في كتابنا، نعرفه بصفته التي وصف لنا، فهلم فلنتبعه، فتسلم لنا دنيانا وآخرتنا. فقالوا: نحن نكون تحت يدي العرب، ونحن أعظم الناس ملكاً وأكثرهم حالاً وأفضلهم بلداً. فلما أبوا عليه، قال: أما والله لترون أنكم قد ظفرتم إذا امتنعتم منه في مدينتكم.. ثم جلس على بغل له، فانطلق حتى إذا أشرف على الدرب استقبل أرض الشام ثم قال: السلام عليك أرض سورية تسليم الوداع، ثم ركض حتى دخل القسطنطينية.

أما كسرى فارس فإنه ثارت ثائرته، واشتد غضبه عندما تسلم كتاب الرسول، وبعث إلى عامله على اليمن- باذان- يأمره بأن ينهض لتأديب هذا الرجل وجاء في إنذاره «ابعث إلى هذا الرجل الذي بالحجاز رجلين من عندك فليأتياني به».

وأرسل رجلين من قبله إلى الرسول، فلما وصلا إليه أخبراه أن كسرى يطلب مقابلته، فصرفهما الرسول على أن يلتقي بهما في الغد.. وحان موعد الرجلين، فذهبا لمقابلة الرسول ﷺ، فأخبرهما بمصرع كسرى بيد ابنه شيرويه، كما أخبره الوحي، فدهشا من هذا الخبر. وقال لهم رسول الله: «أخبرا ملككم ذلك عني، وقولا له: إن ديني وسلطاني سيبلغ ما بلغ ملك كسرى.. وقولا له إنك إن أسلمت أعطيتك ما تحت يديك، وملكتك على قومك من الأبناء».

ولما وصل الخبر إلى باذان وتحقق بعد ذلك من قتل كسرى قال: «إن هذا الرجل لرسول».. فأسلم وأسلم من كان معه من الفرس ببلاد اليمن.

وأما المقوقس عظيم القبط في مصر، فقد استقبل حامل كتاب الرسول بما يجب من إكرام وبعث معه بهدية: جاريتين وغيرهما، أما الجاريتان فمارية التي اختارها النبي لنفسه فولدت له إبراهيم من بعد، وسيرين التي أهداها إلى شاعره حسان بن ثابت.

وأما ملك الحبشة النجاشي، فقد ذكر المؤرخون أنه لما تسلم كتاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وضعه على عينيه، ونزل عن سريره وجلس على الأرض، وقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وحفظ الكتاب عنده، ثم بعث بكتاب إلى رسول الله جاء فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، من النجاشي أصحمة، سلام عليك يا نبي الله من الله ورحمته وبركاته الذي لا إله إلا هو، والذي هداني للإسلام، أما بعد، فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى عليه السلام، فورب السماء والأرض إن عيسى عليه الصلاة والسلام لا يزيد على ما ذكرت، وقد عرفنا ما بعثته إلينا وقرّبنا ابن عمك وأصحابك، وأشهد أنك رسول الله صادقاً وقد بايعتك وبايعت ابن عمك وأسلمت على يده لله رب العالمين.

وقد سر النبي كثيراً لإسلام النجاشي، ولما بلغه موته صلى عليه صلاة الغائب لعلمه أنه لم يصل عليه أحد في الحبشة.

أكتفي بهذا القدر من سرد مبلغ اهتمام الإسلام بالتبشير، وقد جعله فرضاً عينياً على العلماء فقال سبحانه: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ أي إلى الإسلام ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٤).

وفي الختام أستصرخ ضمائر المسؤولين وأصحاب الثروات في العالم العربي والإسلامي لإعطاء موضوع التبشير بالإسلام في ديار الغرب ما يستحقه من اهتمام، وهو أولى من التبشير به في أفريقيا وغيرها حيث يلقى هناك مقاومة عنيفة من جيوش المبشرين النصارى بوسائلهم المختلفة القوية.. ولا يوجد كل ذلك في الغرب نفسه، وهو مصدر الجريمة.

أليس مما يبعث على الأسى والحسرة أن نرى دول الغرب القوية تتعاون على حشد كثير من إمكانياتها وثرواتها للتبشير بالنصرانية في العالم مما أخضع لها كثيراً من الشعوب والجماعات والأفراد بينما نحن ساهمون لاهون عن هذا التبشير، مما جعلنا نحصد جزاء تفريطنا: استعماراً واضطهاداً وجلاء واعتداء وغيرها من الشرور لا نزال نعاني ويلاتها إلى يومنا هذا!

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾(ق: ٣٧).



١٦ مقالات

الشيخ عبد الله النوري

❑ ترجمة الشيخ.

❑ المقالات:

١- القرآن والعرب.

العدد (٢٤) ذو الحجة (١٣٨٦هـ) - مارس (١٩٦٧م).

٢- كلكم راع ومسؤول عن رعيته.

العدد (٢٨) ربيع الثاني (١٣٨٧هـ) - يوليو (١٩٦٧م).

٣- بالعمل الصالح تطيب الحياة.

العدد (٣٣) رمضان (١٣٨٧هـ) - ديسمبر (١٩٦٧م).

٤- الحب في الإسلام.

العدد (٩٩) ربيع الأول (١٣٩٣هـ) - إبريل (١٩٧٣م).

ترجمة الشيخ

عبد الله النوري



● **مولده ونشأته**

ولد الشيخ عبد الله بن الشيخ محمد النوري، فجر الثلاثاء ١٣ ربيع الأول سنة ١٣٢٣هـ، الموافق ١٧ مايو ١٩٠٥م، وكان رجلاً تقياً ورعاً محبوباً بين أهل الكويت، وكان مرجعا دينيا موثوقا في الدوله، إذ يرجع إليه أهل الكويت في مسائلهم الدينية.

وكان شاعراً ومؤلفاً وأديباً، وساهم في تطور التعليم في الكويت، ويعتبر من أبرز رجالات الكويت. وكان والده الشيخ محمد رجلا تقيا ومقبلا على التعلم والعلم منذ صغره.

عمل الشيخ عبد الله النوري بالتدريس والتعليم، ثم انتقل إلى التجارة وسافر على أثرها إلى الهند وسيلان، وإندونيسيا، وأستراليا، وغيرها، لكن التجارة لم تكن هدفه، فتركها والتحق بالتدريس في المدرسة المباركية ثم الأحمدية، ثم بالمعهد الديني، وقرأ الفقه الحنبلي والنحو على يد والده الذي توفاه الله في سنة ١٩٢٧، ولازم بعدها الشيخ عبد الله الخلف الدحيان فاستفاد منه كثيراً.

عين رَحِمَهُ ٱللَّهُ رئيسا لكتاب المحكمة، ثم سكرتيراً لرئيسها، ثم مفتشاً ومرشداً لأئمة المساجد، كما شارك في إدارة إذاعة الكويت، وفي عام ١٩٥٥ استقال من عمله بالمحاكم وأحيل إلى التقاعد حيث تفرغ للعمل بالمحاماة، ورُشِّح عضواً في لجنة الفتوى، ثم تفرغ بعدها للإمامة والتدريس.

● **مؤلفاته**

قام رَحِمَهُ ٱللَّهُ بتأليف كتب كثيرة في الدعوة والإرشاد منها: «الرشد، المنبر،

ديوان من الكويت، قصة التعليم في الكويت»، وغيرها.

● **وفاته:**

توفي رَحِمَهُ اللَّهُ في يوم السبت ١١ ربيع الأول سنة ١٤٠١ هـ الوافق ١٧ يناير ١٩٨١م وشيع جثمانه يوم الأحد ولم يمنع المطر في ذلك اليوم جموع المشيعين من الخروج في جنازته.



القرآن والعرب

العدد (٢٤) ذو الحجة (١٣٨٦هـ) - مارس (١٩٦٧م).

العرب هم العرب قبل الإسلام وبعد الإسلام، ولكن شتان بينهم في الزمنين من قبل ومن بعد.

والله جل شأنه بعث رسوله محمدًا ﷺ، وأنزل عليه كتابه بلسانهم ليعلمهم ويزكيهم.

وكانوا قبل نزول القرآن في جاهلية جهلاء، وضلالة عمياء، قد يعمد أحدهم إلى ابنته فيدفنها وهي حية، خوفا من عار ربما يلحق به.

وكانوا قبل نزول القرآن في فوضى، فلا وفاق يؤلف بين القلوب ولا جامعة تجمع بين القبائل، فهم دائمًا في حرب وعداء، وسفك دماء.

وكان الناس طبقات سيدًا ومسودا وشريفا ووضيعا وحرًّا وعبدًا.

وكان القوي منهم يأكل الضعيف، وكان عزيزهم يتمرغ على تراب الأوثان يطلب منها العون، ويسجد عند أقدام الأصنام يطلب منها المدد.

ذكر القرآن كل ذلك في مواضع عدة، فذكرهم بنعمة الله عليهم حيث ألف بين قلوبهم بالإسلام بعد أن كانوا أعداء، وأحل لهم الطيبات، وحرم عليهم الخبائث والميتة والدم ولحم الخنزير، وحرم عليهم عبادة الأوثان، وعبادة من لا يسمع دعاء ونداء، وعاب من إذا ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾ (النحل: ٥٨-٥٩).

ونزل القرآن والناس في ضلالهم منهمكون، والحرب بين القبائل مستعرة.

ودعا الرسول بأمر الله إلى توحيد الله وإفراده بالعبادة، وإلى توحيد الوجهة، وتحرير الإنسان من الذلة لغير الله.

كانت دعوة الإسلام هي لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ومعنى ذلك أن الله هو المعبود فلا معبود سواه، والإنسان كريم كرامة تجله عن أن يذل لغير المعبود الخالق البارئ المصور، وأن الإنسان أخو الإنسان، وهو عزيز لا يهون لمثله من بني الإنسان، والناس كلهم إخوة فلا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى.

وبدأت عزة النفس تجد طريقها عند من سمعوا صوت الحق وآمنوا به، وقرأوا شيئًا مما نزل على رسوله، فنهض بهم إيمانهم من الجهالة، وأخرجهم من سراديب الضلالة، فظهروا على مسرح الوجود ليكونوا النواة الأولى لأمة القرآن.

وظهرت الأمة العربية على وجه البسيطة بعد الإسلام، ولم تكن شيئا مذكورًا قبله، أخرجها الإسلام من زوايا النسيان لتكون ملء سمع الدنيا وبصرها، وكانت به خير أمة أخرجت للناس ﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ (آل عمران: ١٠٤)، ويعلمون الناس الحق، ويأمرون بالعدل والإحسان، ويتواصون بالحق وبالصبر، ليصلوا بذلك كله إلى خير يعم العالمين.

وبالإسلام دخل العرب باب التاريخ.

فكان كتاب الله دستور دولتهم وقانون قضائهم، ورائد مجتمعهم، ومربي صغارهم وكبارهم، وكان كتاب الله هو الآمر الناهي في جميع مراحل الحياة في المسجد، والمدرسة، وفي البيت، والمتجر، والمعمل، وفي جميع الأدوار التي تمر بالإنسان منهم أو يمر بها، وهذه حقيقة أثبتها التاريخ، ولا يستطيع أن يجحدها إلا مكابر.

من هذا نفهم أن الإسلام هو الذي علم العرب معنى الكرامة، وهداهم إلى الألفة، وأذاقهم حلاوة المجد، وعزة السؤدد.

آمنوا بأن القرآن كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأن ما فيه من تشريع هو من عند الله وحده، وأنهم إن تمسكوا به فلن يضلوا الطريق، لأنهم في حماية الله سبحانه وتعالى الذي اختارهم لهذا الدين جنودًا، واختار لهم هذا الدين هداية وعزة، وجعلهم به خير أمة تهدي الناس وتبشر بالخير، ومن كان في حماية الله فلن يغلب، ومن يتخل الله عنه فهو من الهالكين.

وكانت الأمة قبل نزول القرآن محصورة في جزيرة العرب، لا تتعدى حدودها، وجاء القرآن وعرب أمما لم يكونوا من العرب، فأخرجهم من قائمة الشعوب الغير العربية وأثبتهم في قائمة الشعوب العربية الإسلامية.

كانت هذه الأمم تتكلم لغات مختلفة وتدين بأديان متباينة، فنطقت بلغة القرآن ودانت بدين القرآن.

وإذا كانت هذه الأمم اليوم تتكلم لهجات مختلفة، وقد لا يفهم المشرقي منهم لهجة المغربي، لكن إذا اجتمعا تفاهما بلغة القرآن الخالدة خلود الدهر، وهي اللغة الكريمة التي حفظها الله بالقرآن، والتي اكتسبت الخلود بالقرآن فاللغة العربية لن تبلى حتى يبلى الدهر.

بها نتعارف وبها نتفاهم وعليها نجتمع وبها يتصل بعضنا ببعض، لا أقول ذلك للعرب وحدهم ولكن للعرب والمسلمين.

وإنه من العقوق ونكران الجميل أن نتنكر للقرآن الذي رفع الله به العرب من ذلة فأعزهم، وعلمهم به من جهل فكرمهم، وهداهم به إلى رشاد فبصرهم وبنى لهم مجدًا خالدًا باقيًا ذكره بقاء التاريخ.

كلكم راع ومسؤول عن رعيته

العدد (٢٨) ربيع الثاني (١٣٨٧هـ) - يوليو (١٩٦٧م).

لقد غزانا دعاة الإلحاد بضلالهم ووجدوا في شبابنا قبولا لتضليلهم لأن هذا الشباب جاهل في الدين لا يعرف قيمه ولا تعاليمه، والدعاة يحاولون تدمير هذه القيم واقتلاعها من صدور الناشئة والشباب حتى يصبح الجيل الذي يكون فيه هؤلاء الشباب رجالاً هدفا لكل ناهب ومكسباً لكل محارب، ومن أجل هذا فتح الغرب المجند لهؤلاء الدعاة أبواب ثقافته ودعا الأمة المسلمة في المشرق والمغرب ليتبادلوا معه الثقافة، والمسلمون الجاهلون بدينهم فرحوا بهذه المنة وفتحوا لوفده الصدور لبث سمومه في القلوب والعقول.

الإسلام الحنيف أولى هذه الناحية أمرها ووجه عناية المسلمين لها وحث على تربية الصغار وجعل كل فرد في الأمة راعياً وكلف كل راع بالعناية برعيته فقال المبعوث بهذا الدين ﷺ مبلغاً ومعلماً: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته».

وإذا أهمل المسؤولون هذا الأمر ضاع النشء وضاع بضياعه مستقبل الأمة، إذن فليكن المسؤول والدًا كان أو أخا أو معلما، مثلا صالحا لمن هم تحت مسؤوليته، يأمرهم بالخير ويفعله أمامهم ولا يفعل ما يخالفه ولاسيما إذا كانوا أطفالاً، لأن الأطفال أكثر خضوعا واستجابة للنداء.. بنين كانوا أو بنات، وللأطفال مرونة قابلة للتكيف يتقبلون التوجيه ويرتاحون له متى كان الموجه صالحاً يعرف كيف يستخدم عناصر التشويق استخداما طبيعيا لا تصنع فيه ولا افتعال، فإذا أمر المربي طفله بالصدق فلا يكذب وإذا أمره بالعدل فلا يظلم، وإذا نهى عن شيء فلا يفعله أمام طفله لأن الطفل كالمرآة تنعكس عليها أفعال من هو أكبر منه، فيفعلها تقليداً له من حيث لا يعلم، لأن الطفل يعتقد الكمال بمربيه

ويفخر على أقرانه بأنه يقلد أباه أو عمه أو خاله أو أخاه الأكبر، وكثيراً ما تنغرس أفعال الأب في فكر ابنه الناشئ حتى إذا كبر فعل ما كان فعله أبوه من قبل دون ضابط أو رابط، لا يعبأ بالنتائج ولا يبالي بالعواقب.

وكثيراً ما انحرف شباب وشابات وفسد فتيان وفتيات من جراء هذا التقليد لأنهم لم يجدوا من يقومهم من اعوجاج أو يهديهم إلى صواب، الأب منهمك في ملذاته منكب على شهواته ساع إلى إشباع رغباته، لا يهمه من أمر البنين والبنات إلا أن يقدم لهم ولهن الطعام والكساء ظنا منه أن ذلك هو كل شيء في الحياة، فترك لهم الحبل على الغارب فنشأوا على ما كان تركهم عليه وكانت العاقبة سيئة في الأسرة وشرًّا في المجتمع، من أين للناشئ أن يعرف دينه إذا كان المربي لا دين له؟ ومن أين له أن يحتفظ بالآداب إذا كان المسؤول لا أدب عنده؟ ومن أين له أن يتمسك بتقاليده إذا كان وليه قد ضرب بالتقاليد عرض الحائط؟ ومن أين للناشئ الغض أن يجد في دينه ما يستهويه ويثير انتباهه وتحمسه ويحظى بإعجابه ورضاه إذا كان المسؤول عنه جاهلاً بكل شيء من ذلك؟

إن الحال لا يختلف في مكان عنه في مكان آخر فهو في البيت كما هو في المدرسة، وهو عند الأب كما هو عند المدرس فلا آمر بمعروف يأمر أو يأتمر، ولا ناهي عن منكر ينهى أو ينتهي، ولا شعائر للدين تقام هنا أو هناك، ولا يعنيهم أمرها عند أولاء وأولئك وهكذا ضاع الشباب بين البيت والمدرسة، وظل أثر الدين يتضاءل عندهم شيئاً فشيئاً ودعاة الإلحاد ساهرون يترقبون الفرص لبث سمومهم، وقد حانت وكان لهم ما أرادوا (جهل وإهمال) وهكذا ذوى غصن الدين حتى تلاشى في القلوب وحل محله الإلحاد.

إذن فماذا قدمنا لناشئتنا من نماذج طيبة لأعمالنا تكون لهم أسوة يقتدون بها ويفخرون بالاقتداء بها ولقد تعود شبابنا مع الأسف أن يرى النور ظلاماً، والرشد غيا حتى أبدل أسماء الفضائل بأقبح الأسماء فسمى الدين رجعية، والتمسك به جمودا، ولا لوم عليه، إنما اللوم على المسؤولين الذين أعرضوا عن الدين أو جهلوا قيمته أو تمسكوا بتقاليد بعيدة عن الدين، مع ما فيها من إساءة إليه.

ودیننا ولله الحمد وضاء مشرق، وهو في كل وقت وكل مكان وضاء مشرق، ولكن جهلنا به جعلنا ندخل فيه ما ليس منه عناداً منا وتقليداً لأئمة جهال أدخلوا في الدين ما ليس منه فضلوا وأضلوا.

والإسلام والحمد لله عقل كله، جاء به محمد ﷺ من عند الله لقوم يعقلون، وهو اليسر لا عسر فيه وهو السهل لا صعب فيه، وهو الهدى لا ضلال فيه، وهو كما وصفه سيد المرسلين محجة بيضاء ليلها كنهارها.

فيا أخي في الإسلام تعال إلى الإسلام ففيه النجاة، وتعال معي نجيل الطرف في جميع جهاتنا وكافة أحوالنا حتى نحدد موقفنا على ضوء ما نجده في ديننا لنرى هل نحن حقا مسلمون؟ وهل نحن جديرون بهذا النداء الكريم؟

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ۝٦﴾ (التحريم: ٦).



بالعمل الصالح تطيبُ الحياة

العدد: (٣٣) رمضان (١٣٨٧هـ) - ديسمبر (١٩٦٧م).

دعت الأديان كلها للعمل الصالح وتتابع رسل الله يحملون رسالته إلى عباده في مختلف الأزمان، يبشرون الناس بأن ﴿مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ (الكهف: ٨٨)

والقرآن الكريم يحكي لنا عن قوم يونس﴿لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ (يونس: ٩٨)

ويخبرنا عن نوح أنه قال لقومه ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾ (نوح: ١٠-١٢)

ويقص قصة هود عليه السلام فيقول هود لقومه﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ (هود: ٥٢).

وبفعل الصالحات استخلف الله في الأرض أمما عمروها، ولكنهم بعد أجل عاثوا فيها فسادا وطغوا وظلموا، فأهلكهم الله بذنوبهم، وكأنهم لم يعمروا أرضاً، ولم يبسطوا بها يداً، ولا سلكوا فيها سبيلاً.

ثم ختم الله رسالات السماء ببعثة محمد ﷺ خاتم الأنبياء، يدعو الناس إلى الخير فاتبعته أمة كان منها الشهداء على الناس، وكانت خير أمة أخرجت للناس عبادة لله، ودعوة للخير، ونهيا عن المنكرات. وعدها الله ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ (التوبة: ١١١)، ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ

﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ﴾ (النور: ٥٥).

ووفى الله لهذه الأمة وعده واستخلفها في الأرض، فتكسرت من هيبتها عروش الطغاة، وهوت رهبة منها تيجان البغاة، ودالت أمام فتحها دول الظلم، وكانت الشعوب المظلومة تستقبل جيوش المسلمين الفاتحة بالترحيب.

لماذا؟ والجيش الفاتح لا يرحب به، ذلك لأن فتح المسلمين أمن وسلام، وجيش المسلمين الفاتح لا يقتل شيخاً ولا امرأة ولا طفلا ولا متعبداً تفرغ لعبادته، ولا يقطع شجرا ولا يهدم داراً، ولا يصطحب معه في الفتح الظلم والعدوان، والشعوب المفتوحة بلادها تعلم أن جيش المسلمين جاء ليحمي الحرية لا ليعتدي عليها وليكرم الإنسانية لا ليهينها ويحطم قيمتها، وليصون الملكية والأموال لا لينهب ويغتصب، وليصون الأعراض لا ليهتكها.

ودخل تلك البلاد مع الفاتحين كتاب الله العربي المبين، دخل باسم الله واسم رسوله وفيه الدين والدنيا دستور دولة، وقانون حكم، ومعاملات، ونظام مجتمع، وعبادة. يهدي للتي هي أقوم، كرامة تطيب للإنسان بها الحياة، وعلم يعرف به الإنسان قيمة الحياة.

وذاق الناس حلاوة الحياة في ظل الإسلام، وعرفوا ما هي الكرامة التي كرم الله بها الإنسان وعاش الناس في ظل الإسلام كراماً أعزة.

وطال على المسلمين الأمد كما طال على غيرهم من الأمم قبلهم، وأعرضوا عن القرآن وتعاليمه وقست قلوبهم على بعضهم فتفرقوا، وكانت النتيجة فشلا وذهاب ريح، وصدق الله العظيم ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ (طه: ١٢٤ - ١٢٦).

وبعد:

فما زلنا ندين بالإسلام (والحمد لله) ولن نزال إن شاء الله مسلمين نؤمن بالله ربا، وسيدنا محمد ﷺ نبيًا، والقرآن كتاب الله ما زلنا نقدمه، ونعتني به، ولكنا (وأقولها بألم) أعرضنا عنه، فلا هو دستور دولة ولا قانون حكم ولا نظام مجتمع.

بالقرآن كنا مسلمين، هدى الله به أسلافنا، وعلمهم، وزكاهم، وبه مكن لهم في الأرض، واستخلفهم فيها، ومحا بهم ظلم الناس للناس.

وفي ظل القرآن أقام المسلمون دولة الإسلام بين مشرق المعمورة ومغربها.

وظل القرآن أبداً لا ينحسر، ولكن الخلف الذي اتبع دعاة الضلال وباعة الشهوات هو الذي ابتعد عن ظل القرآن وانحسر عنه.

ختاما أقول لإخوتي أمة محمد ﷺ إن الباب لا يزال مفتوحاً لمن أراد دخوله، والظل مازال ممدوداً لمن أراد أن يستظل به، والله جل جلاله حي باق يستجيب لمن استجاب له.

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ (الطلاق: ٢).

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ (الطلاق: ٤).

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ﴾ (الأنبياء: ٩٤).



الحب في الإسلام

العدد (٩٩) ربيع الأول (١٣٩٣هـ) - إبريل (١٩٧٣م)

سألني سائل قال:

هل للمسلم أن يحب؟

وجوابي له:

إن الحديث عن الحب شائق، وإن البحث فيه شائك.

والله جل شأنه لما منح الحياة للحيوان منحه معها الحب، فالحب فطرة يهبها الله مع الحياة، أم الحيوان تحب صغارها وتدافع عن حياتها، إذا ما اعتدى عليها معتد، وقد تهلك في هذا الحب.

والإنسان أي إنسان يحيا ليحب ويحب ليحيا، وقد صدق من قال «الحياة الحب والحب الحياة».

وإن لحظات حب يعيشها الإنسان مع محبوبه يحس بها المحب معنى الحياة، فيشعر بالغبطة ويتذوق لذة السعادة وحلاوة النعيم.

وإن أول ما يمنحه الخالق للإنسان حين يهبه الحياة هو الحب.

فالأم وهي تحمل جنينها - وهنًا على وهن - تحس وكأنه جزء من جسمها، بل أعز جزء في جسمها. وبعضهن تراها وقد ذاب وجودها في حملها وكأن ذاتها في ذاته.

والأم وكل أم متى أحست بحركة جنينها بدأت تهيئ له ما يحتاجه بعد ولادته فتراها تقضي كل أوقاتها في لوازم هذا الطفل المنتظر. وحب الأم هو المثل الأعلى لكل ما عداه من أنواع الحب وأصنافه، والطفل، وأعني كل طفل، يحب أمه ويسر بوجودها إلى جانبه، ويحس أنه محبوبها، ألا ترى الطفل الذي تحنو

عليه أمه بالحب وتلقمه ثديها بالعطف تطمئن نفسه ويبتسم لها حين تضمه إليها وتقبله، ثم ينام هانئ البال مرتاحا، لأنه أحس أنه غذي بالحب، وأنه سينام وهو يحمى بحمى الحب.

وحب القريب للقريب سماه الإسلام صلة الرحم، وأوجبها على كل قريب لقريبه وحذر من قطيعتها، وهي واجبة في كل دين، وفي كتاب الله في سورة النحل قال جل شأنه﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ (النحل: ٩٠) وفي سورة الإسراء ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ (آية: ٢٦).

وفي الحديث الذي رواه الشيخان «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه».

وفي الحديث الذي رواه أحمد في مسنده «تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم فإن صلة الرحم محبة في الأهل مثراة في المال منسأة في الأثر».

وفي الحديث القدسي أن الله ﷻ قال: «أنا الله وأنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسما من اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته» رواه أبو داود عن عبدالرحمن بن عوف ورواه الترمذي عن غيره.

وحب المسلم للمسلم حب أخوة في الدين، والإسلام جعل من هذه الأخوة قرابة، هي أولى بالصلة من قرابة النسب، فقال جل شأنه في سورة الحجرات ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات: ١٠).

وقال في سورة آل عمران ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ .(آل عمران: ١٠٣).

وهذه المحبة يجب أن تذوب فيها أفراد الأمة في الأمة كلها، لتصبح واحدة يتفانى كلها في كلها، كما أراد الله لها بقوله تعالى ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ۝٩٢﴾ (الأنبياء: ٩٢).

وحب الصداقة له في الإسلام مكانة، ما لم تكن هذه الصداقة لجلب منفعة، بل لله وحده، وقد جعل رسول الله ﷺ هذه الصداقة من الإيمان، فقال عليه الصلاة والسلام «ثلاث من كن فيه فقد وجد بهن حلاوة الإيمان، من كان الله

ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن أحب عبدا لا يحبه إلا لله، ومن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار» (رواه البخاري ومسلم عن أنس بن مالك).

ومن كمال الإيمان في المؤمن أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه.

ولا ننسى قوله ﷺ في الحديث الذي رواه الشيخان في صحيحيهما حين ذكر السبعة الذين يظلهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله: «ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه» والله جل شأنه يحب جميع خلقه، خلقهم ومنَّ عليهم بالنعم الكثيرة التي منها نعمة العقل، ونعمة الحياة، ونعمة الرزق، ونعمة الهواء، والماء والغذاء، ونعمة إرسال الرسل ليدلوهم على طريق الحياة، وينقذوهم من الضلال، كما قال تعالى ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾﴾ (الحجر: ١٠)، وقوله ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ (الحديد: ٢٥).

يأمرهم بما فيه خيرهم وجمع شملهم، وينهاهم عن كل ما يضرهم في أفرادهم ومجتمعاتهم.

ولكنه جل شأنه يخص بمحبته الصالحين، والمتطهرين، والتوابين، والمحسنين، والمنفقين، والمقسطين، الذين يحبون الناس ويجاهدون في إعلاء كلمة الله ويقاتلون في سبيله كأنهم بنيان مرصوص.

والحب إذا وجد في أمة قوَّم أخلاقها، وأحيا في نفوس أفرادها الإخلاص بينهم، فتراهم متضامنين يسعى الجميع في مصلحة الجميع، يرحم كبيرهم صغيرهم، ويوقر صغيرهم كبيرهم، فتراهم كتلة متماسكة وقوة هائلة، لا ينفذ إليها عدو كما قال الله تعالى في وصف محمد ﷺ وأصحابه ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ (الفتح: ٢٩)، أو كما قال في وصف صنف من عباده المؤمنين ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ﴾ (المائدة: ٥٤).

وحبنا لله تعالى هو الذي دفعنا لعبادته، وطمعنا في حبه وهو الذي حذرنا من معصيته، فهو لا يحب الكافرين ولا العاصين، ولا الظالمين، ولا المتكبرين.

والحب بين الأسرة وعميدها يجعل من البيت جنة تحسدها الجنان، فهو يحبهم، ويذلل الصعب في سبيل سعادتهم، والتوسعة عليهم وهم يحبونه ويفدونه بالمهج والأرواح.

أما الحب الطائش، أو حب الجسد، أو الحب الجنسي، وأعني الحب الذي غايته الشهوة، فهو حب حرام، وهناك حب يسمى العشق أو الحب العذري وهو حب مكتوم، يغطيه الصبر، وتكتمه العفة، ويبقى العاشق المحب متيما فيه، يمنعه الحياء من إفشاء سره، ويمنعه الإيمان في استهتاره في حبه، فيبقى صابرا والله جل شأنه أعد للصابرين أجرا عظيما وعدهم به، والله لا يخلف الميعاد.

وأذكر أني قرأت أثرا لا أعلم مدى صحته وهو «من عشق فكتم وعف ثم مات فهو شهيد».



فهرس المقالات

للمجلـد الأول

مرتبة حسب الآتي: اسم صاحب المقالات ثم ترجمته، ثم عناوين مقالاته

* * *

انتهى المجلد الأول ويليه المجلد الثاني